

السّياق النّحويّ في القرآن:

دراسة وظيفيّة في بناء التّركيب اللّغويّ في النّصّ القرآنيّ

عبد النّاصر جبارين

أطروحة مقدّمة لنيل لقب الدّكتوراة

جامعة حيفا
كلّية العلوم الإنسانيّة
قسم اللّغة العربيّة وآدابها

تموز 2016

السّياق النّحويّ في القرآن:

دراسة وظيفيّة في بناء التّركيب اللّغويّ في النّصّ القرآنيّ

مقدّمة من: عبد الناصر جبارين

بإرشاد: البروفيسور أهارون جيبع كلاينبرجر

أطروحة مقدّمة لنيل لقب الدّكتوراة

جامعة حيفا
كلّيّة العلوم الإنسانيّة
قسم اللّغة العربيّة وآدابها

تموز 2016

مقدّمة بموافقة: _____ في تاريخ: _____
(مرشد الوظيفة)

مقدّمة بموافقة: _____ في تاريخ: _____
(رئيس لجنة الدّكتوراة)

إهداء

إلى زوجتي الغالية، أم يمان:

رُوحًا أَسْكُنُ إِلَيْهَا وَتَسْكُنُنِي، فَتَنْتَشِرُ فِيَّ عَبَقًا يَفُوحُ وَمِسْكَ يَضُوعُ؛

ها هُنا أَنْتِ...



إلى طِفْلَيَّ الغَالِيَيْنِ، "يمان" و"فُرات":

جداولَ حَيَاةٍ تَنْسَابُ في عروقي؛ فَتَتَرَاقَصُ في عَيْنَيَّ مَوَاسِمُ الْفَرَحِ وَتَرْتَسِمُ؛

ها هُنا أَنْتُمْ...



إلى مَدِينَتِي الَّتِي أَعْشَقُهَا، حَيْفَا؛

مَوْطِنَ اسْتِلْهَامٍ يَتَشَطَّى بَيْنَ أَنَا مِلِّي أَحْلَامًا وَرُؤْيَى، وَحِكَايَةِ وَالِهِ يَتَوَّهُ فِيهَا كَرْمًا وَمِينَاءَ وَتَبِيهٍ؛

ها هُنا أَنْتِ...



إلى كُلِّ هَؤُلَاءِ، أُهْدِي عَمَلِي هَذَا وَأَكْثَرَ...

كلمة شكر

أَوَدُّ، بدايةً، أَنْ أُعَرِّبَ عَنْ شُكْرِي الْجَزِيلِ لمرشدي العزيز البروفيسور أهارون جيبس كلاينبرجر؛ لِمَا أَمَدَّنِي بِهِ مِنْ نَصَائِحَ قِيَمَةٍ، وإرشاداتٍ سديدةٍ، ومناقشاتٍ بَنَاءَةٍ، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ؛ لِمَا حَبَانِي بِهِ مِنْ اِهْتِمَامٍ وَعُنَايَةٍ، وَعَمَرَنِي بِهِ مِنْ لُطْفٍ ورعايةٍ، فَكَانَ قَلْبًا حَانِيًا، وَعَقْلًا وَقَادًا، وَفِكْرًا مُتَنَوِّرًا.

ثُمَّ إِنِّي أُقَدِّمُ شُكْرِي الْجَزِيلَ إِلَى سكرتيرةِ الْقِسْمِ والمساعدةِ الإداريّةِ لرئيسِ القسمِ السيّدةِ نُويا برلمان التي لَمْ تَدَّخِرْ أَيَّ جَهْدٍ فِي جَعْلِ الإِجْرَاءَاتِ الرّسْمِيَّةِ سَهْلَةً وَطَيِّعَةً وسريعةً المُنَالِ.

وأخيرًا، أَشْكُرُ لزملائي وأساتذتي الأعزّاءِ فِي قِسمِ اللّغَةِ العربيّةِ بِجامعةِ حيفا؛ عَلَى مُرافقتِهِمْ لِي هَذَا الْعَمَلِ، وَاسْتِخْنَائِهِمْ إِيَّايَ عَلَى مواصلةِ المسيرةِ البحثيّةِ الأكاديميّةِ.

المحتوى

VII ملخص

1 مقدمة

الفصل الأول:

1. مفهوم "السِّيَاق" عِنْدَ القدماء- إبستمولوجية "النَّظَرِيَّة" وظلالها 12-91

1. 1. مدخل 12

1. 2. 1. حَيِّزُ "السِّيَاقِ" 14

1. 2. 1. السِّيَاقُ لُغَةً 16

1. 2. 1. السِّيَاقُ فِي الْمَعْجَمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ 21

1. 3. 1. المَكُونَاتُ الْجَذَرِيَّةُ لـ(س، و، ق) فِي النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ 23

1. 4. 1. "مَقْلُوبُ الْمَادَّةِ"- مفردات ذات صلة؛ وتداعيات المصطلح 25

1. 4. 1. 1. الاتِّسَاقُ (و، س، ق) 26

1. 4. 2. 1. القِيَّاسُ (ق، و، س)- (ق، ي، س) 33

1. 5. 1. السِّيَاقُ اصْطِلَاحًا- المفهوم والحدود 44

1. 6. 1. مصطلحُ "السِّيَاقِ" عِنْدَ علماءِ الأصول 47

1. 7. 1. مصطلحُ "السِّيَاقِ" عِنْدَ اللُّغَوِيِّينَ الْعَرَبِ 56

1. 8. 1. مصطلحُ "السِّيَاقِ" عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ 64

1. 9. 1. عبد القاهر الجرجاني ونظرية "النَّظْمِ" 70

1. 9. 1. 1. عبد القاهر الجرجاني وجوهرُ النَّظَرِيَّةِ 73

1. 10. 1. مصطلحُ "السِّيَاقِ" عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ 80

الفصل الثاني:

2. منظومة السِّياق وتربطها بين الفكر اللغوي الغربي والنُّحاة العرب المحدثين - التَّأثُّر والأثر 180-92
1. 2. مدخل 92
2. 2. "السياق" و"النص" - الترجمة والمفهوم 94
3. 2. "نحو النص" - تخوم وفضاءات 110
4. 2. اصطلاح "السياق" ومرافقه المُستحدثة 118
5. 2. مكونات "السياق النحوي" - بين النوع والوظيفة 121
1. 5. 2. السياق الصوتي 123
2. 5. 2. السياق الصرفي 125
3. 5. 2. السياق اللغوي 127
4. 5. 2. السياق العاطفي 129
5. 5. 2. السياق الثقافي 131
6. 5. 2. السياق الاجتماعي 132
7. 5. 2. السياق الصغير والسياق الكبير 135
6. 2. منحنى "التداولية" وتفاعلات "السياق" 136
7. 2. محطات في التفكير النحوي - السياقي؛ علائق ووشائج 144
1. 7. 2. تمام حسان ونظريته في "تضافر القرائن" 145
2. 7. 2. السامرائي وتداول منظومة "السياق" في تفسير النص القرآني 158
3. 7. 2. محمد عبد اللطيف والتفاعل بين العناصر النحوية 166
4. 7. 2. كمال بشر و"الترعة الصوتية السياقية" 169
5. 7. 2. عائشة عبد الرحمن و"تدبر" مواضع السياق 173

الفصل الثالث:

338-181	3. مظاهر السِّيَاقِ التَّحْوِيّ في كتب التفسير - الرُّؤْيَةُ والممارسة
181	3. 1. مدخل
189	3. 2. الإعراب والتفسير بِمَعْيَةِ السِّيَاقِ
198	3. 3. المعنى في ظلِّ "سياق المبنى"
204	3. 4. سياقات النَّحْوِ بين المقاصد والتفسير
208	3. 5. أسباب النَّزُولِ واستدعاء السِّيَاقِ
213	3. 6. سياقُ المَكِّيِّ والمدنيِّ وأثرُهُ في معالجات المفسرين
220	3. 7. الجملة الاسميَّة والفعلية بَيْنَ التَّبَوُّثِ والحدوثِ
233	3. 8. الحذف وسياقاتُهُ الإِضْمَارِيَّةُ
244	3. 8. 1. الْقَوْلُ بـ"لا حَذَفَ في اللُّغَةِ؛ فالسِّيَاقُ هو الحاكم!"
248	3. 9. التَّنكِيرُ والتعريفُ واقتضاءاتُ السِّيَاقِ
261	3. 10. التَّقْدِيمُ والتَّأْخِيرُ وسياقُ المَرْتَبَةِ النَّحْوِيَّةِ
274	3. 11. الزَّمَنُ السِّيَاقِيُّ للفعلِ
290	3. 12. تعاوُرُ الحروفِ والاستقلالية السِّيَاقِيَّةُ
302	3. 13. مساراتُ السِّيَاقِ في مظاهرِ "الحُمْلِ على المعنى"
315	3. 14. الجملةُ المعترضةُ وَفَقَّهَ سِيَاقَهَا بَيْنَ الجمودِ والحيويةِ
323	3. 15. مقاطعُ قرآنيَّةٍ في بؤرةِ السِّيَاقِ التَّحْوِيّ - نموذجُ تحليليّ
339	استنتاجاتٌ وتعقيباتٌ
365	قائمة المصادر والمراجع
418	ملاحق

السياق النحوي في القرآن:

دراسة وظيفية في بناء التركيب اللغوي في النص القرآني

عبد الناصر جبارين

ملخص

تأتي مكانة "السياق" في الدراسات النحوية من خلال دوره الفاعل في تحديد المعاني النحوية، وفي إسهامه في الكشف عن تلك "العلاقات النحوية" التي تجمع بين كلمات الجملة الواحدة، ويبن جمل النص بأكمله، إذ لولا "السياق" لما استطعنا أن نفقه أداء الوظيفة النحوية في التركيب، وأطل المعنى النحوي - بفروعه الشاملة - مستغلًا ومُبهمًا.

على الرغم من أهمية "السياق" في دراسة النصوص إلا أن ظاهرة "السياق النحوي" Syntactic Context في النص القرآني لم تُعط حَقُّها من العناية البحثية التي تستحقها، بل تعلق بحث "السياق" في ذهن كثير من الباحثين بمستوى الدلالي على وجه الخصوص، ناسين الجانب الذي لا يقل أهمية - إن لم يكن الأهم - في أطاريحهم ودراساتهم. لهذا، تأتي أهمية هذه الأطروحة التي تعالج "السياق النحوي" في النص القرآني في طَرْق باب لا يزال في مرحلة التكوين والبناء، فضلاً عن علاقاته المترابطة والمتداخلة في نظريات لسانية قديمة وحديثة.

لقد هدفت هذه الأطروحة إلى استجلاء أثر "السياق النحوي" في استنباط جوهر التركيب القرآني في عيون النحاة والمفسرين، والتعرف على حقيقة ما يُسمى بـ "السياق النحوي" في تفسير الجمل القرآنية بما تحمله من ظواهر نحوية كالقديم والتأخير، والتشكيك والتعريف، والذكر والحذف... وغيرها من المسائل النحوية.

لَقَدْ سَعَتْ هذه الأطروحة إلى تَلْمُسِ الطَّرِيقِ إلى رُؤْيَةٍ جَدِيدَةٍ فِي فَهْمِ النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ نَحْوًا وَتَدَاوُلًا -
بمعناه الشَّامِلِ الَّذِي يَدْمِجُ بَيْنَ التَّرَاثِ النَّحْوِيِّ لَدَى النُّحَاةِ وَالْمُفَسِّرِينَ الْقَدَمَاءِ، وَبَيْنَ الدَّرَاسَاتِ اللَّسَانِيَّةِ
الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَتَسَارَعُ دُونَ تَوَقُّفٍ - كَيْ يَغْدُوَ مَوْضُوعُ "السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ فِي النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ" تَمْهِيدًا لِعَوِيًّا،
وَمُدْخَلًا لِإِسْتِمُولُوجِيَّ Epistemological Introduction.

ولهذا، فَإِنَّ هذه الأطروحة تَأْتِي لِتُؤَكِّدَ أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تُدْرَسَ الْجُمْلَةُ الْقَرَّائِيَّةُ بَعِيدًا عَنْ
دَلَالَتِهَا السِّيَاقِيَّةِ؛ حَيْثُ يَفْرَضُ "السِّيَاقُ" وَجُودُهُ عَلَى دَرَاةِ الْجُمْلَةِ النَّحْوِيَّةِ فِي النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ
التَّرْكِيبَ - فِي جَوْهَرِهِ - لَا يَنْعَزِلُ عَنِ "السِّيَاقِ" بِمَا لَهُ مِنْ اِرْتِبَاطَاتٍ مُتَشَابِكَةٍ، وَبِمَا يَحِيطُ بِالنَّصِّ مِنْ
ظُرُوفٍ وَمَلَابَسَاتٍ لَا بُدَّ أَنْ تَجِدَ نَفْسَهَا فِي "حَضْرَةِ" السِّيَاقِ.

فَعَبَّرُ خَافٍ أَنَّ مَعَالَجَةَ "النَّحْوِ"، فِي أَيِّ دَرْسٍ كَانَ، يَفْتَقِدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبَحُوثِ اللَّسَانِيَّةِ وَمِنْ
مُؤَلَّفَاتِ النُّحَاةِ - قَدِيمًا وَحَدِيثًا - إِلَى إِشْرَاكِ "الْمَعْنَى السِّيَاقِيَّةِ" Contextual Meaning فِي هَذِهِ
الْمَعَالِجَاتِ، إِذْ إِنَّ الْمَعْنَى النَّحْوِيَّةَ السِّيَاقِيَّةَ هِيَ مِنْ أَهَمِّ مَرَكِّزَاتِ فَهْمِ النَّحْوِ وَالنَّصِّ، وَبِنَاءً عَلَيْهِ، تَبْقَى الْجُمْلَةُ
النَّحْوِيَّةُ دُونَ "السِّيَاقِ" مُسْتَعْلَقَةً جَامِدَةً، وَتَظَلُّ التَّرَاكِيِبُ مُحْتَاجَةً إِلَى مَا سِيَقُ الْكَلَامُ لِأَجْلِهِ؛ كَيْ نَفْقَهُ -
مَثَلًا - مَكْنُونَ "الْحَذْفِ"، وَمُرَادَ "التَّقْدِيمِ"، وَمَقْصُودَ "التَّوَكُّيدِ"، وَمَقْتَضِيَّاتِ "زَمَنِ الْفِعْلِ" ... وَغَيْرِهَا مِنْ
الْمَسَائِلِ وَالْقَضَايَا النَّحْوِيَّةِ.

وَانْطِلَاقًا مِنْ هَذَا التَّوَجُّهِ تُحَاوَلُ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةُ أَنْ تُظَهِّرَ حَقِيقَةً نَحْوِيَّةً هَامَّةً جَدًّا، وَهِيَ أَنَّ هُنَاكَ
فَرْقًا بَيْنَ الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَمَعَالِجَاتِهَا عِنْدَ النُّحَاةِ حِينَمَا تَحَدَّثُوا عَنْ الْقَوَاعِدِ "جَامِدَةً" فِي قَوَالِبٍ مَعْيَارِيَّةٍ وَبَيْنَ
"النَّحْوِ السِّيَاقِيِّ" مِنْ خِلَالِ مَعَالِجَاتِ الْمُفَسِّرِينَ لِلْمَسَائِلِ النَّحْوِيَّةِ بِشَكْلِ فَعْلِيٍّ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ التَّدَاوُلِيِّ
(الْبَرَاغِمَاتِيِّ) لِلْعَمَلِ لَا سِيَّمَا فِي النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ، حَيْثُ إِنَّ هُنَاكَ فَرْقًا - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - بَيْنَ حَالَاتِ حَذْفِ
الْمَفْعُولِ بِهِ فِي مُؤَلَّفَاتِ النُّحَاةِ، وَبَيْنَ حَذْفِ الْمَفْعُولِ بِهِ فِي عِيُونِ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ حَوْلَ هَذَا الْحَذْفِ

ومعناه السِّيَاقِيَّ والتَّداوُلِيَّ عِبْرَ أغراضِ الحذفِ في هذا الموضعِ القرآنيِّ أو ذاك، وسِيَاقِ الحذفِ الَّذِي وَقَعَ في هذا التَّركيبِ أو ذاك.

وَقَدْ حَوَتْ هذه الأطروحةُ ثلاثةَ فصولٍ:

أَمَّا الفصلُ الأوَّلُ الَّذِي عُنُونُ بـ"مفهوم "السِّيَاقِ" عند القدماء- إبستمولوجيَّة "النَّظريَّة" وظلالها"، فَقَدْ وَقَفْتُ على مفهوم "السِّيَاقِ" لغةً واصطلاحاً؛ مِنْ أَجْلِ التَّعَرُّفِ على المفهومِ الاصطلاحِيِّ وَرَبْطِهِ بالمفهومِ اللُّغَوِيِّ النَّاتِجِ عَنْهُ، خَاصَّةً أَنَّ مصطلحَ "السِّيَاقِ" قَدْ تَعَدَّدَتْ وَجْهَاتُهُ الإِبِستمولوجيَّةُ وَقَفَّاءَ لِلْحَقْلِ المعرفيِّ المتعلِّقِ بِهِ. وَمِنْ ثَمَّ تَنَاوَلْتُ بِالدراسةِ ما للسِّيَاقِ مِنْ رَوَابِطٍ صَوْتِيَّةٍ وَصَرْفِيَّةٍ ذاتِ تداعِيَّاتٍ وَصِلَةٍ بِالْجَذْرِ الْأَصْلِيِّ؛ دراسةً تَأْثِيلِيَّةً مِنْ خِلالِ المعجماتِ والنَّصِّ القرآنيِّ بِأَهَمِّ مَوَاضِعِهِ وَمَعَانِيهِ، وَلدى اللُّغَوِيِّينَ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ. فَقَدْ عَرَضْتُ- مثلاً- لمصطلحِ "الانْسَاقِ"- المأخُوذِ مِنْ مَادَّةِ "و، س، ق"- في المعجماتِ، والنَّصِّ القرآنيِّ بِأَهَمِّ مَوَاضِعِهِ وَمَعَانِيهِ، وَلدى اللُّغَوِيِّينَ الْقَدَمَاءِ، وَالْمُحَدِّثِينَ بِمَا حَمَلَ هَذَا الْمِصْطَلَحُ مِنْ ارْتِبَاطَاتٍ لِسَانِيَّةٍ تَتَقَاطَعُ مَعَ مَحَوِرِ "السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ" خِلالَ مِصْطَلَحَاتٍ عَدِيدَةٍ نَحْوُ: "الانْسَاقِ اللَّسَانِيَّ" Coherence، و"الانْسِجَامِ" Cohesion، و"نَظَرِيَّةِ النَّصِّ" Text Theory، و"الخطابِ" Discourse، وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَفَاهِيمِ اللُّغَوِيَّةِ ذاتِ الصِّلَةِ بِ"السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ". كَمَا عَرَضْتُ- أَيْضاً- لمصطلحِ "القياسِ" مُبَيَّنًا مَعْنَاهُ اللُّغَوِيَّ وَالاصْطِلَاحِيَّ وَعِلَاقَتَهُ بِمِصْطَلَحِ "السِّيَاقِ"؛ وَمُؤَكِّدًا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ حَالَاتِ "القياسِ" فِي الْفِكْرِ النَّحْوِيِّ لَدَى الْقَدَمَاءِ- تَحْدِيدًا- تَسْتَنْدُ إِلَى سِيَاقِ الْآيَةِ، أَوْ قَرَائِنِ الْكَلَامِ. وَمِنْ ثَمَّ، تَتَبَّعْتُ الْمَحَاوِرَ الْأَسَاسِيَّةَ لِمِصْطَلَحِ السِّيَاقِ وَاسْتِخْدَامَاتِهِ؛ بِغَرَضِ مَعْرِفَةِ حُدُودِ الْمِصْطَلَحِ الإِبِستمولوجيَّةِ؛ إِذْ ارْتَأَيْتُ فِي ذَلِكَ مَنْهَجَ الدَّرْسِ اللَّسَانِيِّ الْحَدِيثِ الَّذِي يَرَى فِي أَنَّ تَحْدِيدَ الْمِصْطَلَحَاتِ هُوَ أَوَّلُ خُطُواتِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ- الْأَكاديمِيِّ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الدِّقَّةَ الْمُنَهْجِيَّةَ، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى ضَوْءِ مَا يَكْتَنِفُ مِصْطَلَحَ "السِّيَاقِ" مِنَ الْخَلْطِ وَالاضْطِرَابِ النَّاتِجِ عَنْ تَدَاخُلِ بَعْضِ الْمِصْطَلَحَاتِ وَارْتِبَاطِهَا بِمَحْضٍ

معرفية متعاضدة كالفلسفة والفقه وعلم الكلام والبلاغة والتحو. واستناداً إلى هذه الرؤية فقد تتبعت تطوّر تشكّل مصطلح "السياق" وفقاً لأربعة محاور رئيسية، وهي: أولاً مصطلح السياق عند علماء الأصول: لكونهم يمثّلون، في نظر كثير من الباحثين، الانطلاقة الأولى لاستخدامات مصطلح "السياق"، وما لهم من تأثير في معالجة النصوص المختلفة، كالنص القرآني، والنصوص الفقهية، وبالتالي غدوا يمثّلون حقلاً معرفياً تتداخل فيه عوامل مختلفة، نحو الشافعي، والغزالي، والزركشي، والكفوي. وثانياً: مصطلح السياق عند اللغويين: الذين كانوا أقرب إلى ملامسة "السياق" بملاحية التركيبية والدلالية، نحو الخليل بن أحمد، وسيبويه، والمبرد، وابن جني. وثالثاً: مصطلح السياق عند البلاغيين: الذين أدّوا دوراً فاعلاً في ترجمة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، نحو الخطيب القزويني، والسكاكي، والسجلماسي، وأبي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني في نظريته "النظم" التي أفرّدت لها مساحة واسعة في هذه الأطروحة؛ بسبب تأثيرها العميق في دراسة السياق النحوي في النص القرآني آنذاك وفي العصر الحديث أيضاً. ورابعاً: مصطلح السياق عند المفسرين: خاصة أولئك الذين أولوا "السياق" أهمية كبرى في تفسير النص القرآني، من حيث اللغة والنحو، كالطبري، والزخشري، وأبي حيان الأندلسي، وابن عاشور... وغيرهم.

أمّا الفصل الثاني الذي حمل عنوان "منظومة السياق وتربطها بين الفكر اللغوي الغربي والتّحاة

العرب المحدثين - التّأثرُ والأثرُ"، وفيه تناولتُ مفهوم "السياق" وانحداره في اللسانيات الغربية والعربية المعاصرة، مُبيّناً ارتباط مصطلح "السياق" Con-text بـ "النص" Text؛ من باب أنّ "النص" هو الجسد Corpus الذي تُترجم فيه ملامح "السياق النحوي". ثمّ وقفتُ عند أهمّ المحطّات التي تشكّل فيه مصطلح "السياق" Context - على الرّغم من الخلاف الطويل الناجم عن تحديد الحقبة الزمنية - ولكي، مع هذا، عرّضتُ لأهمّ هذه المحطّات، بدايةً من مالينوفسكي Malinowski، ومروراً بـ "فيرث" Firth - المؤسس الحقيقي للنظرية السياقية في عيون كثير من اللغويين - وبالتالي ظهور مصطلح "سياق الموقف" Context

of Situation، و"السياق اللغوي" (Verbal context) Linguistics Context في صورهِ وإرهاصاته الأُوليّة، وبالمِ Palmer مِنْ خلالِ مصطلحِ "السياقِ غَيرِ اللغوي" Non Linguistics Context، ودي سوسير De Saussure وأثره في قَوْلِهِ مفهوم "نظامِ العلاماتِ" System of Signs...، وَغَيْرِهِمْ مِنَ اللّسانيّينِ الغَربيّينَ الَّذِينَ أسْهَمُوا في صَقْلِ مفهوم "السياقِ" وما لَهُ مِنْ علائقِ جَمَّةٍ ومتشابهةٍ بالحِيطِ النَّصِّيّ، وانتهاءً بـ"يوليا كريستيفا" Julia Kristeva الّتي أضَفَتْ معانيَ إضافيّةً إلى كيانِ "النّصِّ" و"السياقِ"؛ لكَوْنِهما حلقةً واحدةً غَيرَ منفصلةٍ، وَلِكَوْنِ "النّصِّ" لا يكتفي بِحدودِ لغويّةٍ مَجْرَدَةٍ فَحَسْبُ، بَلْ هو جَهازٌ "غَيرُ لسانيّ" Translinguistics.

وبَعْدَ ذلكَ، عَرَضْتُ لتعريفِ "النّصِّ" في المعجماتِ العربيّةِ، واستخدَمِ اللّغويّ والاصطلاحيّ في التّراثِ العربيّ اللّسانيّ القديم والحديث؛ بِهدفِ إيجادِ القاسمِ المُشتركِ وإظهارِ حلقةِ الوصلِ بَيْنَ مفهومِ "النّصِّ" حديثاً، وقديماً. وبناءً عَلَيْهِ رَبطْتُ ذلكَ بِمفهومِ "نَحْوِ النّصِّ" Text Grammar بِمَا لَهُ مِنْ حدودٍ وفُضاءاتٍ تتقاطعُ مَعَ "سياقِ الجملةِ" و"السياقِ النّحويّ" مِنْ خلالِ المنظورِ الغَربيّ، نَحْوُ آراءِ فان ديكِ Van Dijk في "نظريّةِ النّصِّ والسياقِ" Theory of Text and Context، و"دي بوجراند" De Beaugrande عَبرَ نظريّتهِ فيما يُعرَفُ بـ "النّصّيّةِ" Textuality، وهاليداي Halliday ورقية حسن Ruqaiya Hasan وَغَيْرِهِمْ مِنَ اللّغويّينِ الغَربيّينَ.

وعَقِبَ ذلكَ، أَشَرْتُ إلى أَهمِّ الآراءِ الّتي تَخَصُّ استعمالاتِ "السياقِ" الحديثِ، ومجالاتِهِ المتعدّدةِ لدى النُّحاةِ الغَربيّينِ والعَربِ المُعاصرينَ، رابِطاً هذه الآراءَ بِأهمِّ أنواعِ السياقِ كالسياقِ العاطفيّ Emotional Context، والسياقِ الثّقافيّ Cultural Context وَغَيرِها مِنَ الأنواعِ؛ بِما لها مِنْ تَواصُلٍ وتعالُقٍ بـ"السياقِ النّحويّ"؛ وبِما لَذلكَ مِنْ أَهمّيّةٍ قُصوى في فَهْمِ معالجاتِ النُّحاةِ لِلنّصِّ القَرَائِيّ تحديداً، إنْ كانَ ذلكَ على مُستوى النُّحاةِ والمُفسّرينِ القُدماءِ أو المُحدثينَ، في الوقتِ الَّذي سَلَطْتُ فيه الضُّوءَ على

المنحى "التداولي" Pragmatics؛ بما له من تفاعلاتٍ سياقية، لكون "السياق النحوي" يمثل الإطار
التطبيقي-التداولي لمنظومة التفسير النحوي.

وكمثيل عملي لمفهوم "السياق النحوي" احتتمت هذا الفصل- بجزئه الثاني- بنماذج عملية
من النحا العرب المحدثين؛ وقد انتقيت من هؤلاء النحا- على سبيل المثال- ما له رأي لافت، كنظرية
"تضافر القرائن" لتمام حسان- تلميذ فيرث، وما له من اجتهادات ملموسة في تداور "منظومة" السياق
في مواضع مختلفة من النص القرآني كفاضل السامرائي، وما له رؤية تفسيرية بأدوات غريبة نحو كمال بشر،
وما له من رؤية سياقية نحوية-أدبية كعائشة عبد الرحمن.

وأما الفصل الثالث الذي عُنون بـ"مظاهر السياق النحوي في كتب التفسير- الرؤية
والممارسة"، فقد تحدثت عن نشأة علم التفسير وعن علاقاته الوثيقة في ظهور "النظم السياقية"؛ إذ لا بُدَّ
لمن يتصدى لتفسير "النص القرآني" تفسيراً لغوياً-نحوياً أن يستحضر "السياق" بكل أنواعه، وأن يعي
مقاصد "الإعراب" وجوهر التفسير لما لهما من تمازج نحوي-وظيفي، خاصة ونحن نستقرئ "السياق
النحوي" من منظار "المقاصد" نحو رؤية الشاطبي من القدماء، وابن عاشور من المحدثين.

من هنا، فقد أكدت هذه الدراسة أهمية المعنى في "سياق" مباني التراكيب اللغوية، لا سيما في
النص القرآني؛، مبيّناً، أولاً، تلك العلاقة الجامعة بين حقيقة الإعراب وجوهر التفسير وما لهما في تدخّل
دلالي ووظيفي، الأمر الذي قد يغيب عن كثير من الباحثين والدارسين للنص القرآني من حيث جوانبه
النحوية والتركيبية، وبالتالي، لا بُدَّ من "السياق النحوي" أن يبيّن عن معاني التراكيب النحوية القرآنية، لأنَّ
"الإعراب" كان من أدوات المفسر التي لا يستغني عنها، بل لا يستطيع أحد أن يُفسّر الجمل القرآنية من
دونهِ، ومبيّناً، ثانياً، أنَّ التفسير لم يعد منطوياً على تفسير المفردات اللغوية من أجل إيجاد "المعنى المؤطر"
تحت مظلة الكلمة الواحدة فلا يبرحها، بل غدا التفسير اللغوي (النحوي)، وفق قراءتنا، يبحث- ولا

يزال - عن استكناه "المعنى الكلّي"؛ وغدا المعنى يتَبَوَّأ مكانة مرموقة في التحليل التَّحويّ، فهو الوُجْه الآخر للأحداث اللّغويّة. وهذا ما دَرَج عليه النُّحاة الأوائل كسيبويه، إذ إنّ المعنى - عند سيبويه - يكمن في الإعراب، وفيما يُساقُّ له الكلام.

وكتريجة عمليّة، عَرَضْتُ لمسائل نحويّة في "النَّصِّ القرآنيّ" سَعياً وراء تفسير هذه المسائل تفسيراً سياقيّاً مِنْ خلال مؤلّفات نحويّة وتفسيريّة قديمة وحديثة، وركّزْتُ فيها على كَيْفِيّة تعامل النُّحاة والمفسّرين في تعليل هذه المسائل، وإيجاد الشّرح "المنطقيّ" التَّحويّ الّتي يتوافق مع تركيب الآية، وذلك مِنْ خلال استدعاء "السياق التَّحويّ" كأداة تفسيريّة في الكشف عن هذه المعاني التَّحويّة. ومن هذه المسائل: أسباب النزول وأثرها في السياق التَّحويّ، وسياق المكيّ والمدنيّ في المعالجات التَّحويّة للمفسّرين، والجملّة الاسميّة والفعلية بَيْنَ سياق الثبوت والحدوث، والحذف وسياقاته الإضماريّة، والتَّنكير والتَّعريف واقتضاءات السياق، التّقديم والتأخير وسياق المرتبة التَّحويّة، والزَّمَنُ السياقيّ للفعل، وتناوب الحروف والاستقلاليّة السياقيّة، ومسارات السياق في مظاهر "الحمل على المعنى"، والجملّة المعترضة وفقّه سياقها بَيْنَ الجمود والحيويّة.

وقد اِخْتَمَمْتُ هذه المسائل بمقاطع قرآنيّة مِنْ سورة "النمل" كنموذج تحليليّ حيثُ بَيَّنْتُ فيها بعض الإمكانيّات اللّغويّة لتحليل هذه المقاطع تحليلاً سياقيّاً-نحويّاً بأدوات لسانیّة تدمج بَيْنَ القديم والحديث، وباجتهادات ذاتيّة تجديديّة.

وأُتَوِّهُ هنا إلى أنّ هذه المسائل "المختارة" ما هي إلّا نماذج تطبيقية انتقيتها مِنْ بَيْنَ كَمٍّ كبير مِنْ المسائل التَّحويّة الّتي حوَّثها كُتُبُ التفسير ومؤلّفات التفسير، الّتي ظَهَرَتْ في النَّصِّ القرآنيّ، وقد حاولْتُ أن أختار مسائل مختلفة؛ كي تتَّسِعَ دائرة البحث في "السياق التَّحويّ في القرآن"، فالنَّحْوُ ودراسة "السياق" فيه أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهذه المسائل، ولكنّها تُمَثِّلُ رؤية نموذجيّة للمسائل النّحويّة الأخرى. وإضافةً إلى ذلك، فَقَدْ سَعَيْتُ أيضاً - مِنْ خلالِ هذا الاختيار لمسائل التَّحويّة الّتي عولِجْتُ في هذه الأطروحة - إلى

أنَّ "أدمج" يبيِّن بعضِ الحقولِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي قَدْ تبدو للوهلةِ الأولى أنَّ فيها انفصالاً، ولكنَّ الأمرَ على خلافِ هذا، نحو دراسةِ "الجملةِ المعترضةِ" مِنْ وجهةِ نظرٍ نحويَّةٍ-سياقيَّةٍ جديدةٍ.

وبَعْدَ الفصولِ الثلاثةِ اُخْتَتِمَتْ الأطروحةُ بـ "استنتاجاتٍ وتعقيباتٍ"، منها- وليس للحصر-: أنَّ "السِّيَاقَ النّحويَّ" يُعَدُّ مجموعةً مِنْ سياقاتٍ مختلفةٍ تتداخلُ في إبرازِ معنى التّركيبِ النّحويِّ بمعناه الواسعِ الشّامِلِ خارجِ "السِّيَاقِ" وداخله، وهو على عكسِ ما ذَهَبَ إليه كثيرٌ مِنَ النّحاةِ المعاصرينَ، على رأسهم فيرث Firth، في حديثه عَنْ سِيَاقٍ داخليٍّ Verbal Context وسِيَاقٍ خارجيٍّ Context of Situation. ومنها أنَّ: عبدَ القاهرِ الجرجانيَّ استطاعَ أنْ يقيّمَ نظريَّةً متكاملةً في "السِّيَاقِ النّحويِّ" بما عُرِفَ فيه حينه بـ "النّظْمِ"، وهو ما عُرِفَ بمصطلحِ "المعاني النّحويَّةِ" أو "معاني النّحو". ومنها أيضاً: أنَّ العلاقاتِ المترابطةَ بَيْنَ الآياتِ في السّورةِ الواحدةِ، وكذلك بَيْنَ الآياتِ في السّورِ المختلفةِ تُسَهِّمُ في تحديدِ "الإعرابِ السِّيَاقِيَّ" مِنْ خلالِ علومٍ قرآنيَّةٍ متداخلةٍ كمعرفةِ أسبابِ النّزولِ الَّتِي تُمَثِّلُ سِيَاقَ الحالِ للآياتِ والسّورِ بما فيها مِنْ أحداثٍ ووقائعٍ ملابسةٍ للنّصِّ القرآنيِّ وكمعرفةِ المكيِّ والمدنيِّ مِنَ السّورِ والآياتِ بما فيها مِنْ خصائصٍ تُميّزُ إحداها عَنِ الأخرى. وبالتالي فقد آلتْ هذه "الاستنتاجاتِ والتّعقيباتِ" إلى أنَّ مكانةَ "السِّيَاقِ النّحويِّ في النّصِّ القرآنيِّ" إمّا تنبعُ نتيجةً لدَوْرِهِ الفاعلِ في تحديدِ المعاني النّحويَّةِ للتّراكيبِ القرآنيَّةِ، وفي إسهامِهِ في الكشفِ عَنْ تلكِ "العلاقاتِ النّحويَّةِ" الَّتِي تجمعُ بَيْنَ كلماتِ الجملةِ الواحدةِ، وبَيْنَ جملِ النّصِّ النّحويِّ بأكمله.

وجديرٌ بالذّكرِ هنا أنّي حاولْتُ في هذه الاستنتاجاتِ والتّعقيباتِ أنْ أكونَ قارئاً نحويّاً قراءةً تمزجُ بَيْنَ القديمِ والحديثِ مِنْ جهةٍ، وبَيْنَ الأصالةِ والمعاصرةِ مِنْ جهةٍ ثانيةٍ، فاستحلّصْتُ أهمَّ النّقاطِ المشيرةِ داعِماً في بعضِ الأحيانِ ما استنتجتهُ إلى المصادرِ، وتاركاً المجالَ للقارئِ أنْ يتأمّلَ المعطياتِ، ويُنعِمَ النّظَرَ في هذه التّنتائجِ العمليَّةِ، إذْ لا يكفي أنْ نُجْمِلَ الأطروحةَ بنتائجٍ "نظريَّةِ"، وإنّما ينبغي أنْ نَضَعَ أصابعنا على

التقاط الهامة التي تحيط بالبحث بالشمول؛ إيماناً مني بأن البحث الأكاديمي لا يتوقف عند عرض الظاهرة
فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تصوّر نقدي؛ سعياً بوصول ظاهرة "السياق التحويلي" بظواهر لسانية أخرى،
كنت قد أشرت إليها أو لمحت إليها.

مقدمة

لا رَيْبَ في أَنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ وِعَاءَ الْفِكْرِ فَحَسَبُ، بل هي أَيْضًا الْقَالِبُ الَّذِي يَتَشَكَّلُ فِيهِ الْفِكْرُ، وَمِرَاةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ - أَيْ كَانَتْ - الَّتِي تَنْعَكِسُ عَلَيْهَا مَضَامِينُ التَّخاطُبِ اليَوْمِيِّ بَيْنَ النَّاسِ ماضِيًا وحَاضِرًا ومستقبلاً، وهي - أَيْ اللُّغَةُ بِمَفْهُومِهَا الْعَامِّ - تَكْشِفُ عَنْ طَرَائِقِ التَّوَاصُلِ بَيْنَ الرِّكَزَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُشَكِّلَانِ الْبِتَاجَ اللُّغَوِيَّ التَّدَاوُلِيَّ؛ وَعَلَيْهِ اهْتَمَّ بِهَا الْإِنْسَانُ، وَطَوَّرَ آليَّاتِهِ؛ لِيُمْكِنَ مِنْهُ مِنَ الضَّرُورَاتِ؛ وَلِيُضْبِحَ قَادِرَةً عَلَى احْتِوَاءِ كُلِّ جَدِيدٍ¹.

واللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ شَأْنُهَا شَأْنُ كُلِّ اللُّغَاتِ الْمَعْبُورَةِ عَنْ حَضَارَةِ أَقْوَامِهَا، فَقَدْ عَبَّرَتْ عَنِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُنْذُ أَقْدَمِ عَصُورِهَا وَحَقِّبَهَا، وَمَا أَنْ انْفَتَقَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْأَوَّلُ وَبَزَعَ صَوْتُهُ إِلَّا رَافَقَتْ هَذَا اللِّسَانَ خِصَائِصُ وَمِيزَاتُ عَرَفَتِهَا اللُّغَةُ، وَتَنَوَّعَتْ دُرُوبُ الْكَلَامِ خِلَالَهَا، وَاتَّسَعَتْ رُقْعَةُ التَّعْبِيرِ فِيهَا؛ فَاحْتَلَطَتْ حُرُوفُهَا وَمِفْرَدَاتُهَا وَجَمَلُهَا بِعَوَامِلٍ دَاخِلِيَّةٍ وَخَارِجِيَّةٍ، كَانَ أَهْمُهَا نَزُولُ النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ عَلَى سِنَنِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ، فَعْدَا - بِهَذَا - كَلَامُ الْعَرَبِ وَسُنَنُهُمْ مَدْخَلًا إِلَى قِرَاءَةِ النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ، وَمَرْجِعًا لُغَوِيًّا يَتَخَذُهُ النُّحَاةُ وَالْمُفَسِّرُونَ سَبِيلًا إِلَى تَلْقَى هَذَا الْخُطَابِ.

ومُنْذُ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ كَانَتْ لُغَتُهُ مَوْضِعَ احْتِفَاءِ الْعُلَمَاءِ مِنْ ذَوِي التَّخَصُّصَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَبَدَأَ بَيَانُهُ مَحْوَرُ اهْتِمَامٍ لِكَثِيرٍ مِنَ الدِّرَاسَاتِ وَالْأَبْحَاثِ الْمُتَطَلِّعَةِ إِلَى كَشْفِ غَوَامِضِهِ، وَاكْتِنَاهِ أَسْرَارِهِ²؛ فَسَعَتْ تِلْكَ الْأَجْيَالُ الْمُتَعَاقِبَةُ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالدَّارِسِينَ إِلَى "اسْتِنْطَاقِ" مَقَاصِدِ أَلْفَاظِهِ وَتَرَاقِيهِ، "وَالْاهْتِدَاءِ" إِلَى مَعَانِيهِ وَدَلَالَتِهِ؛ جَزَاءً دَوَافِعَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا - كَمَا يَقُولُ الْمَهِيرِيُّ - وَصَفُ لُغَةِ النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ؛ لِشَرْحِهِ وَفَهْمِهِ، إِذْ يُمَثِّلُ هَذَا النَّصُّ الْجَانِبَ الْأَهَمَّ فِي الْمَدُونَةِ الْمُعْتَمِدَةِ مَعَ الاسْتِعْمَالَاتِ الَّتِي تُمَثِّلُ سِنْنَ لُغَةِ الْعَرَبِ³، فَحَرَصَ النُّحَاةُ - انْطِلَاقًا مِنْ هَذَا - عَلَى ضَمَانِ صِلَةِ النُّحُوِّ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ مُنْذُ الْعَصُورِ الْأُولَى إِلَى يَوْمِنَا هَذَا⁴.

وَتَأْتِي مَكَانَهُ "السِّيَاقُ"، فِي الدِّرَاسَاتِ النَّحْوِيَّةِ عَامَّةً وَفِي النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ خَاصَّةً، نَتِيجَةً لِدَوْرِهِ الْفَاعِلِ فِي تَحْدِيدِ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ، وَفِي إِسْهَامِهِ فِي الْكَشْفِ عَنْ تِلْكَ "الْعِلَاقَاتِ النَّحْوِيَّةِ" الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ كَلِمَاتِ الْجُمْلَةِ

¹ عبد علي حسين، أصول إعراب اللغة العربية (عمان: دار دجلة، 2008)، 5.

² أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم: لغة القرآن - دراسة توثيقية فنية (الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1997)، 127.

³ خلود الخموش، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسِّيَاق (عمان: جدار للكتاب العالمي، 2009)، 4.

⁴ عبد القادر المهيري، بحوث في اللغة (تونس: جامعة مكنة، 2008)، 54.

الواحدة، وَيَبْنَ جملِ النَّصِّ بَكْلِهِ، إِذْ لولا "السياق" لَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَفْقَهَ أداءَ الوظيفةِ النَّحْوِيَّةِ في التَّركيبِ، وَلَطَلَّ المعنى النَّحْوِيّ - بفروعه الشَّاملة - مُسْتَعْلَقًا وَمُبْهَمًا.

وعلى الرَّغمِ مِنْ أَهمِّيَّةِ "السياق" في دراسةِ النَّصِّ القرآنيِّ لَمْ يُعْطَ "السياقُ النَّحْوِيُّ" حَقَّهُ مِنَ العنايةِ البحثيَّةِ الَّتِي يستحقُّها، بَلْ تَعَلَّقَ بِحَثِّ "السياق" في ذهنِ كثيرٍ مِنَ الباحثينَ بالمستوى الدَّلاليِّ على وَجْهِ الخصوصِ، ناسينَ أو متناسينَ، الجانبَ الَّذي لا يقلُّ أَهمِّيَّةً - إِنْ لَمْ يَكُنِ الأهمَّ - في أطاريحهم ودراساتهم. ولعلَّ هذا الأمرُ هو الَّذي حدَّا بي أَنْ أُبْحَثَ موضوعًا كهذا؛ لِمَا لَهُ في الأهمِّيَّةِ الكبيرةِ في النَّحوِ العربيِّ، ولِمَا لَهُ مِنْ دَوْرٍ فاعِلٍ ومُسهمٍ في طَرَقِ بابٍ لا يزالُ - فيما أراه - في مرحلةِ التَّكوينِ والبناءِ. ولا أُغالي في القَوْلُ بأنَّ "السياقَ النَّحْوِيَّ في القرآن" جديرٌ بالبحثِ والرَّصدِ والعناية؛ لِمَا فيه مِنْ مسائلٍ مثيرةٍ للغاية، ولِمَا لَهُ مِنْ علاقاتٍ مترابطةٍ ومتداخلةٍ في النِّظَرياتِ اللِّسانيةِ القديمةِ والحديثةِ، وكذلك لِمَا فيه مِنْ جُزْأَةٍ في الطَّرَحِ والرُّؤيةِ التَّجديديَّةِ في الدِّرسِ النَّحْوِيِّ عامَّةً، وفي النَّحوِ القرآنيِّ خاصَّةً.

وقَبْلَ أَنْ أَعْرِضَ لمضامينِ فصولِ هذه الأطروحةِ لا بُدَّ أَنْ أُبَيِّنَ هنا بعضَ الأمورِ الَّتِي ينبغي أَنْ يشارَ إليها، فأوَّلًا: هذه الأطروحةُ هي بحثٌ نحويٌّ صِرْفٌ يَعْرضُ للسياقِ النَّحْوِيِّ في النَّصِّ القرآنيِّ دونَ أَنْ أُفَحِّمَهَا آراءَ دينيَّةً أو مذهبيَّةً أو عقديَّةً، فهي أطروحةٌ نحويَّةٌ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عَنِ التَّحليلِ الدِّينيِّ؛ وذلكَ لأنَّ رؤيتنا تنطلقُ مِنْ دراسةِ النَّصِّ القرآنيِّ دراسةً لغويَّةً دونَ أَنْ نتبَّئَ أيَّ رأيٍ دونَ الآخرِ، ودونَ أَنْ يُحْمَلَ التفسيرُ النَّحْوِيُّ أيَّ معانٍ تليجُ في مسألةِ التَّأويلِ الدِّينيِّ. وكذلك لأنَّ هذا الأمرُ هو مِنْ اهتمامِ أَهْلِ الاختصاصِ في الدِّراساتِ الدِّينيَّةِ، فإنَّ لكلِّ باحثٍ مجاله واختصاصه. ثانيًا: إِنَّ المسائلَ النَّحْوِيَّةَ المعروضةَ في هذه الأطروحةِ تُمثِّلُ ثُلَّةً مِنَ النِّماذجِ وليْسَ كلُّ النِّماذجِ؛ لأنَّ الهدفَ الرَّئيسَ مِنْها هو مناقشةُ هذه النِّماذجِ نقاشًا سياقيًّا -نحويًّا، وإلَّا لَتَطَلَّبَ مِنْنا هذا الأمرُ مئاتِ الصِّفحاتِ، فكمْ مِنْ المسائلِ النَّحْوِيَّةِ والمواضعِ القرآنيَّةِ الَّتِي تحتاجُ إلى مناقشةٍ كهذه المناقشاتِ!

لقد هدَفْتُ هذه الدِّراسةُ إلى اسْتِجْلَاءِ أثرِ "السياقِ النَّحْوِيِّ" Syntactic Context في اسْتِنباطِ جوهرِ التَّركيبِ القرآنيِّ؛ نَظْمًا وإِعْرَابًا، وبالتَّالي في تفسيرِ جَسَدِ النَّصِّ القرآنيِّ بِعلاقاتِهِ الأُفقِيَّةِ والعموديَّةِ مِنْ خِلالِ المعاني النَّحْوِيَّةِ، لا سَيِّمًا أَنْ تفسيرَ الجملةِ مِنْ حَيْثُ التَّركيبُ كانَ الشَّاعِلُ الأوَّلَ الَّذي شَغَلَ كثيرٌ مِنَ النُّحاةِ

والمفسرين؛ إذ عَدَت الجملة القرآنية مَهْبِطَ نَظَرِ النُّحَاةِ بما تحملُهُ مِنْ ظواهرٍ نَحْوِيَّةٍ كالتقديم والتأخير، والتَّنْكِيرِ والتَّعْرِيفِ، والدِّكْرِ والحذف... وغيرها مِنَ المسائل النَحْوِيَّةِ.

لَقَدْ سَعَيْتُ فِي هذه الأطروحة أَنْ أَلْمَسَ الطَّرِيقَ إِلَى رُؤْيَةٍ جَدِيدَةٍ فِي فَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ نَحْوًا وَتَدَاوُلًا- بمعناه الشَّامِلِ الَّذِي تَرْتَضِيهِ عَقُولُ النُّحَاةِ الْقَدَمَاءِ الْمُجَدِّدَةِ، وَالدَّرَاسَاتِ اللَّسَانِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَتَسَارَعُ دُونَ تَوَقُّفٍ- كَيْ يَعْذُو مَوْضُوعُ "السِّيَاقُ النَّحْوِيُّ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ" تَهْيِيدًا لِعَوِيٍّ، وَمُدْخَلًا مَعْرِفِيًّا-إِبِسْتَمُولُوجِيًّا Epistemological Introduction، وَتَدَاوُلِيًّا- بِرَاغِمَاتِيًّا، مُسْتَوْحِيًّا بِذَلِكَ بِمَا قَالَهُ الْجَوَارِيُّ- أَحَدُ نَحَاةِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ- بِأَنَّ "دِرَاسَةَ النَّحْوِ الْقُرْآنِيِّ هِيَ الْمِفْتَاحُ الَّذِي يَنْفَتِّحُ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ مَغَالِيقِ النَّحْوِ، الَّتِي اسْتَعَصَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ تَصَدَّقُوا لِتَيْسِيرِهِ وَتَهْيِيدِهِ، وَتَهْيِيدُ سُبُلِهِ الْمُتَوَعَّرَةِ الْمُتَشَعَّبَةِ"¹.

وَلَعَلِّي أُوَكِّدُ هُنَا أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تُدْرَسَ الْجُمْلَةُ الْقُرْآنِيَّةُ بَعِيدًا عَنْ دَلَالَتِهَا السِّيَاقِيَّةِ؛ حَيْثُ يُفْرَضُ "السِّيَاقُ" وَجُودُهُ عَلَى دِرَاسَةِ الْجُمْلَةِ النَّحْوِيَّةِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّرْكِيبَ- فِي جَوْهَرِهِ- لَا يَنْعَزِلُ عَنْ "السِّيَاقِ" بِمَا لَهُ مِنْ ارْتِبَاطَاتٍ مُتَشَابِكَةٍ، وَمَا يَحِيطُ بِالنَّصِّ مِنْ ظُرُوفٍ وَمَلَابَسَاتٍ لَا بُدَّ أَنْ يَجِدَ نَفْسَهَا فِي "حَضْرَةِ" السِّيَاقِ².

فَعَبَّرَ خَافٍ أَنَّ مَعَالَجَةَ "النَّحْوِ"، فِي أَيِّ دَرَسٍ كَانَ، يَفْتَقِدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبَحْثِ اللَّسَانِيَّةِ وَمِنْ مَوْلَّاتِ النُّحَاةِ- قَدِيمًا وَحَدِيثًا- إِلَى إِشْرَاكِ "الْمَعْنَى السِّيَاقِيَّةِ" Contextual Meaning فِي هذه المَعَالِجَاتِ، الَّذِي هُوَ، فِي تَقْدِيرِي وَلَيْسَ يُبَصِّرُ طَرِيقَ النَّحْوِ، مِنْ أَهَمِّ مَرْتَكِبَاتِ فَهْمِ النَّحْوِ وَالنَّصِّ، إِذْ دُونَ "السِّيَاقِ" تَبْقَى الْجُمْلَةُ مُسْتَعْلَقَةً، وَتَظَلُّ التَّرَاكِبُ مُحْتَاجَةً إِلَى مَا سَبَقَ الْكَلَامُ لِأَجْلِهِ؛ كَيْ نَقْفَةَ- مَثَلًا- مَكْنُونَ "الحذف"، وَمُرَادَ "التقديم"، وَمَقْصُودَ "زَمَنِ الْفَعْلِ"، وَمَقْتَضِيَّاتِ "الْجُمْلَةِ الْمُعْتَرِضَةِ"... وَغَيْرَهَا مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْقَضَايَا النَّحْوِيَّةِ.

وَإِنِّاطًا مِنْ هَذَا التَّوَجُّهِ تَحَاوَلْتُ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةَ أَنْ تُظَهَرَ حَقِيقَةُ نَحْوِيَّةٍ هَامَّةٌ جَدًّا، وَهِيَ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَمَعَالِجَتِهَا عِنْدَ النُّحَاةِ حِينَمَا تَحَدَّثُوا عَنْ الْقَوَاعِدِ "جَامِدَةً" فِي قَوَالِبِ مَعْيَارِيَّةٍ وَبَيْنَ "النَّحْوِ

¹ أحمد عبد الستار الجوّاري، نحو القرآن (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006)، 6.

² Angelika Neuwirth and Nicolai Sinai and Michael Marx. *The Qur'ān in Context: Historical and Literary Investigations into the Qur'ānic Milieu* (Leiden-Boston: Brill, 2010), 1-15.

السياقيّ" من خلال معالجات المفسرين للمسائل التحوّية بشكل فعليّ على أرض الواقع التداوليّ (البراغماتيّ) للغة لا سيّما في النصّ القرآنيّ، حيث إنّ هناك فرقاً - على سبيل المثال - بين حالات حذف المفعول به في مؤلّفات النّحاة، وبين حذف المفعول به في عيون المفسرين الذي يتحدّثون حول هذا الحذف ومعناه السياقيّ والتداوليّ عبّر أغراض الحذف في هذا الموضع القرآنيّ أو ذاك، وسياق الحذف الذي وقّع في هذا التّركيب أو ذاك.

وقد جاء هذا البحث على ثلاثة فصول:

أما الفصل الأوّل الذي عنوانه "مفهوم السياق" عند القدماء - إستمولوجيّة "النّظرية" وظلالها، فقد سعيت فيه إلى تأسيس فكرة "السياق" تأسيساً معرفيّاً؛ يهدف، أولاً، إلى تعيين أهمّ المفاهيم في "السياق" وشرحها خلال تأطير حدود "نظرية" السياق، ويهدف، ثانياً، إلى تتبّع مراحل نشوء المصطلح وتطوّر دلالته وتداوله عند القدماء، لا سيّما أنّنا نتحدّث عن مصطلح قديم حديث، له أحداثيّاته ومفرداته وملابساته على الصّعدين التقليديّ والمعاصر، وله - كذلك - ارتباطاته المتداخلة بعلوم وحقول معرفيّة إضافيّة، كالفسلفة، والفقه، وعلم الكلام، والتداوليّة، والخطاب، والبلاغة، والدلالة، والمعجم... وغيرها من الحقول. وكلّ ذلك كان بمثابة تمهيد؛ للولوج إلى نماذج عمليّة تطبيقية بخصوص "السياق التّحويّ" لدى النّحاة والمفسرين القدماء والمحدثين؛ وكَيّ أتمكّن، فيما بعد، من تطوير هذه الأطروحة تطويراً منطقيّاً عمليّاً كما جاء في الفصل الثاني والثالث.

شرعت، بدايةً، في تعريف "السياق" تعريفاً لغويّاً؛ وقصدت بذلك على أن نتعرّف على أهمّ المعاني والدلالات المحتملة لهذه المادّة اللّغويّة، الأمر الذي يُفضي بالقارئ أن يربط المفهوم الاصطلاحيّ بالمفهوم اللّغويّ الناتج عنه، خاصّة أنّ مصطلح "السياق" تباين بشكلٍ مختلف، وتعدّدت وجهاته المعرفيّة وفقاً للحقل المعرفيّ المتعلّق به، ثمّ عرضت للمكوّنات الجذريّة لمادّة "س، و، ق" في النصّ القرآنيّ، لأبيّن علاقاتها الدلاليّة بالمفهوم اللّغويّ والاصطلاحيّ لـ "السياق"، وبعد ذلك تناولت بالدراسة "مقلوب المادّة" لـ "س، و، ق" سعياً في الرّبط بين العلاقة الصّوتيّة للمادّة الصّرفيّة المُكمّلة للسياق، وبالتالي ربطها بالمستوى الدلاليّ، إذ إنّ ثمة مصطلحات لها علاقةً وطيدة، وتداعيات ذات صلةٍ بالجذر الأصليّ تسير في فلك المعنى ذاته، الأمر الذي قد يُثري البحث بسعة الطّرح، فقد عرضت لمصطلح "الاتساق" - المأخوذ من مادّة "و، س، ق" - في المعجمات، والنصّ القرآنيّ بأهمّ

مواضعه ومعانيه، ولدى اللغويين القدماء، والمحدثين بما حمل هذا المصطلح من ارتباطات لسانية تتقاطع مع محور "السياق النحوي" خلال مصطلحات عديدة نحو: "الاتساق اللساني" Coherence، و"الانسجام" Cohesion، و"نظرية النص" Text Theory، و"الخطاب" Discourse، وغيرها من المفاهيم اللغوية ذات الصلة بـ "السياق النحوي". كما عرّضت - أيضاً - لمصطلح "القياس" مبيّناً معناه اللغوي والاصطلاحي وعلاقته بمصطلح "السياق"؛ ومؤكداً أن كثيراً من حالات "القياس" في الفكر النحوي لدى القدماء - تحديداً - تستند إلى سياق الآية، أو قرائن الكلام.

ومن ثم، شرّعت بتعريف "السياق" اصطلاحاً؛ بغرض ضبط المصطلح ومعرفة حدوده المعرفية؛ إذ ارتأيت في ذلك منهج الدرس اللساني الحديث الذي يرى في أن تحديد المصطلحات هو أوّل خطوات البحث العلمي - الأكاديمي التي تستوجب الدقة المنهجية، وبالتالي فإنّ أهم ما يكتنف مصطلح "السياق" من الخلط والاضطراب الناتج عن تداخل بعض المصطلحات في المفاهيم إلى درجة أنّه يعسر - في بعض الأحيان - التفريق بينها، نحو مصطلح "الحال" و"المقام"، والموقف"، و"القرينة"... إلخ، واستناداً إلى هذه الرؤية فقد تتبعت تطوّر مصطلح "السياق" على أربعة محاور رئيسية، وهي: تشكّل المصطلح:

1- عند علماء الأصول: لكونهم يمثّلون، في نظر كثير من الباحثين، الانطلاقة الأولى لاستخدامات مصطلح "السياق"، وما لهم من تأثير في معالجة النصوص المختلفة، كالنص القرآني، والنصوص الفقهية، وبالتالي عدوا يمثّلون حقلاً معرفياً تتداخل فيه عوامل مختلفة، نحو الشافعي، والغزالي، والزرکشي، والكفوي.

2- عند اللغويين: الذين كانوا أقرب إلى ملامسة "السياق" بملاحيه التركيبية والدلالية، نحو الخليل بن أحمد، وسيبويه، والمبرد، وابن جني.

3- عند البلاغيين: الذين أدّوا دوراً فاعلاً في ترجمة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، نحو الخطيب القزويني، والسكاكي، والسجلماسي، وأبي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني في نظريته "النظم" التي أفردت لها مساحة واسعة في هذه الأطروحة؛ لما لها من تأثير عميق في دراسة السياق النحوي في النص القرآني آنذاك وفي العصر الحديث أيضاً.

4- وعِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ: خَاصَّةً أُولَئِكَ الَّذِينَ أَوَّلُوا "السِّيَاقَ أَهْمِيَّةً كَبْرَى، لَا سِيَّمًا أَنَّ تَفْسِيرَ النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ، مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ وَالنَّحْوُ، يُعَدُّ الْبَيْئَةُ الْحَاضِنَةُ الطَّبِيعِيَّةُ - آنَ ذَاكَ - الَّتِي أَنْصَجَتْ فِي أَحْضَانِهَا فُرُوعَ الدِّرَاسَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالبَلَاغِيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ. مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُفَسِّرِينَ، الَّذِينَ عَرَضَتْ لَهُمُ، الطَّبْرِيُّ، وَالتَّحْمَشِيُّ، وَأَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، وَأَبْنُ عَاشُورٍ... وَغَيْرُهُمْ.

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّانِي الَّذِي حَمَلَ عُنْوَانَهُ "مَنْظُومَةُ السِّيَاقِ وَتَرَابُطُهَا بَيْنَ الْفِكْرِ اللُّغَوِيِّ الْغَرَبِيِّ وَالتَّحَاةِ الْعَرَبِ الْمَحْدَثِينَ - التَّأَثُّرُ وَالْأَثَرُ"، فَقَدْ تَنَاوَلْتُ فِيهِ مَفْهُومَ "السِّيَاقِ" وَانْحِدَارَهُ فِي اللِّسَانِيَّاتِ الْغَرِبِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ، مُبَيِّنًا ارْتِبَاطَ مِصْطَلَحِ "السِّيَاقِ" Con-text بِ"النَّصِّ" Text؛ مِنْ بَابِ أَنَّ "النَّصَّ" هُوَ الْمَدُونَةُ Corpus الَّتِي تُتَرَجَّمُ فِيهَا مَلَامُحُ "السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ". ثُمَّ وَقَفْتُ عِنْدَ أَهَمِّ الْمَحَطَّاتِ الَّتِي تَشَكَّلُ فِيهِ مِصْطَلَحُ "السِّيَاقِ" Context - عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْخِلَافِ الطَّوِيلِ النَّاجِمِ عَنْ تَحْدِيدِ الْحَقِيقَةِ الزَّمَنِيَّةِ - وَلِكَيْ، مَعَ هَذَا، عَرَضْتُ لِأَهَمِّ هَذِهِ الْمَحَطَّاتِ، بِدَايَةً مِنْ مَالِينُوفسكي Malinowski، وَمُرُورًا بِ"فِيرْت" Firth - الْمَوْسِسِ الْحَقِيقِيِّ لِلنَّظَرِيَّةِ السِّيَاقِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ فِي عَيُونٍ كَثِيرٍ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ - وَبِالتَّالِي ظُهُورِ مِصْطَلَحِ "سِيَاقِ الْمَوْقِفِ" Context of Situation، وَ"السِّيَاقِ اللُّغَوِيِّ" Linguistics Context (Verbal context) فِي صُورِهِ وَإِرْهَاصَاتِهِ الْأَوَّلِيَّةِ، وَبِالْمُرَادِ Palmer مِنْ خِلَالِ مِصْطَلَحِ "السِّيَاقِ غَيْرِ اللُّغَوِيِّ" Non Linguistics Context، وَدِي سَوْسِير De Saussure وَأَثَرِهِ فِي قَوْلِهِ مَفْهُومَ "نِظَامِ الْعَلَامَاتِ" System of Signs،... وَغَيْرِهِمْ مِنَ اللِّسَانِيِّينَ الْغَرَبِيِّينَ الَّذِينَ أَسْهَمُوا فِي صَقْلِ مَفْهُومِ "السِّيَاقِ" وَمَا لَهُ مِنْ عِلَاقَةٍ جَمَّةٍ وَمُتَشَابِكَةٍ بِالْمَحِيطِ النَّصِّيِّ، وَانْتِهَاءً بِ"يُولِيَا كْرِيسْتِيْفَا" Julia Kristeva الَّتِي أَضْفَتْ مَعَانِيَّ إِضَافِيَّةً إِلَى كِيَانِ "النَّصِّ" وَ"السِّيَاقِ"؛ لِكُونِهِمَا حَلْقَةً وَاحِدَةً غَيْرَ مُنْفَصِلَةٍ، وَلِكُونِ "النَّصِّ" لَا يَكْتَفِي بِحُدُودِ لُغَوِيَّةٍ مُجَرَّدَةٍ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ جِهَازٌ "عَبْرُ لِسَانِي" Translinguistics.

وَبَعْدَ ذَلِكَ، عَرَضْتُ لِتَعْرِيفِ "النَّصِّ" فِي الْمَعْجَمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاسْتِخْدَامِهِ اللُّغَوِيِّ وَالْإِصْطِلَاحِيِّ فِي الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ اللَّسَانِيِّ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ؛ وَذَلِكَ بِمُحَدِّثِ إِبْجَادِ الْقَاسِمِ الْمَشْتَرَكِ وَإِظْهَارِ حَلْقَةِ الْوَصْلِ بَيْنَ مَفْهُومِ "النَّصِّ" حَدِيثًا، وَقَدِيمًا. وَبِنَاءً عَلَيْهِ اسْتَأْنَفْتُ الْحَدِيثَ حَوْلَ "نَحْوِ النَّصِّ" Text Grammar بِمَا لَهُ مِنْ حُدُودٍ وَفَضَائِلٍ

تتقاطع مع "سياق الجملة" و "السياق النحوي" من خلال المنظور الغربي، نحو فان ديك Van Dijk، المؤسس الأكثر تأثيراً في "نظرية النص والسياق" Theory of Text and Context، و "دي بوجراند" De Beaugrande عبر نظريته فيما يُعرف بـ "النصية" Textuality، في معايير السبعة التي اشترط أن تتوفر في "النص" مجتمعة؛ كي يتحقق الائتمال النصي بوجودها، وهاليداي Halliday ورقية حسن Ruqaiya Hasan وحديثهما عن الاعتبار الخمسة التي تشكل بناء "النص النحوي" أو بما يُسمى بـ "نحو النص"....، وغيرهم من اللغويين الغربيين.

وعقب ذلك، عكفت على الإشارة إلى أهم الآراء التي تخص استعمال "السياق" الحديثة، ومجالاته المتعددة، أيضاً لدى النحاة الغربيين والعرب المعاصرين، الأمر الذي أتاح لي - تمهيداً - أن أعرض لـ "مكونات السياق النحوي بين النوع والوظيفة" ولأهم أنواع السياق، كالسياق الصوتي Phonological Context، والسياق الصرفي Morphological Context، والسياق اللغوي Linguistic Context، والسياق العاطفي Emotional Context، والسياق الثقافي Cultural Context... وغيرها من الأنواع؛ بما لها من تواصل وتعلق بـ "السياق النحوي"؛ وبما لذلك من أهمية قصوى في فهم معالجات النحاة للنص القرآني تحديداً، إن كان ذلك على مستوى النحاة والمفسرين القدماء، أو المحدثين.

كما قد سلط الضوء على المنحى "التداولي" Pragmatics؛ بما له من تفاعلات سياقية، بهدف كون "السياق النحوي" - على وجه الحقيقة - يمثل الإطار التطبيقي والأعم في اللغة، وكنوع من التمهيد لمناقشات النحاة واللغويين العرب المحدثين في هذا الفصل، ومناقشات النحاة والمفسرين في الفصل الثالث حتى وإن لم يقصدوا بتحليلاتهم الوجهة التداولية.

وكتمثيل عملي لمفهوم "السياق" حتمت هذا الفصل - بجزئه الثاني - بنماذج عملية من النحاة العرب المحدثين، كنظام حسّان، ومحمد عبد اللطيف، وكمال بشر، وفاضل السامرائي، وعائشة عبد الرحمن... وغيرهم، وهي عبارة عن محطات تعكس التفكير النحوي السياقي بما تحمله من علائق ووشائج؛ وقد حاولت أن أنتقي من هؤلاء النحاة ما له رأي لافت، كنظرية "تضافر القرائن" لتمام حسّان - تلميذ فيرث - ومفهومي التماسك السياقي

القائم على التعليق والبناء، وما له من اجتهادات ملموسة في تداور "منظومة" السياق في مواضع مختلفة من النصّ القرآني كفاضل السامرائي، وما له رؤية تفسيرية بأدوات غريبة نحو كمال بشر، وما له من رؤية توفيقية بين النظرية الغربية الحديثة وبين النظرية العربية القديمة نحو محمد عبد اللطيف، وما له من رؤية سياقية نحوية-أدبية كعائشة عبد الرحمن.

وأما الفصل الثالث الذي عُنون بـ "مظاهر السياق التحويلي في كتب التفسير - الرؤية والممارسة"، فقد تحدّثت - بدايةً - عن نشأة علم التفسير وما له من علاقات وثيقة ظهور "النظم السياقية"؛ وبالتالي أبرزت أنه ينبغي لمن يعرض لتفسير "النصّ القرآني" أن يستحضر "السياق" بكل أنواعه، وبالأخص لدى التطرّق إلى الجانب اللغوي-التحويلي في "النصّ" القرآني، فليس من بدّ إلا أن نستدعي "السياق التحويلي"، وإلا لظلّ المعنى التحويلي مُبهماً.

ثمّ إنّي عرضت، بعد ذلك، لمفهوم "الإعراب" والتفسير، ولأهمية المعنى في "سياق" مباني التراكيب اللغوية، لا سيّما في النصّ القرآني؛ مُبيّناً، أولاً، تلك العلاقة الجامعة بين حقيقة الإعراب وجوهر التفسير وما لهما في تدخّل دلالٍ ووظيفيٍّ، الأمر الذي قد يغيب عن كثير من الباحثين والدارسين للنصّ القرآني من حيث جوانبه التحويلية والتركيبيّة، وبالتالي، لا بدّ من "السياق التحويلي" للإبانة عن معاني التراكيب التحويلية القرآنية، فقد كان الإعراب من أدوات المفسّر لا يُستغنى عنه، ولا يستطيع أحد أن يُفسّر من دونه، حتّى إن بعض المفسّرين كانوا يجعلون من إعراب القرآن علماً بلّ بعده من أركان علم التفسير الأساسية، ومُبيّناً، ثانياً، أن التفسير لم يعد مُنطويّاً على تفسير المفردات اللغوية من أجل إيجاد "المعنى المؤطّر" تحت مظلة الكلمة الواحدة فلا يبرحها، بل غدا التفسير التحويلي، وفق قراءتنا، يبحث - ولا يزال - عن استكناه "المعنى الكلّي"؛ فغدا المعنى التحويلي يتنبّأ مكانة مرموقة في التحليل التحويلي، فهو الوجه الآخر للأحداث اللغوية. هذا - لمن يُنعم النّظر - ما درج عليه النحاة الأوائل كسيبويه، فالمعنى - عند سيبويه - يكمن في الإعراب، وفيما يُساق له الكلام.

وشرّعت بعد ذلك في إبراز مصطلح في غاية الأهمية، ألا وهو "المقاصد"، وهو من المصطلحات المرافقة للسياق التحويلي، بل نكاد نجد كثيراً من المفسّرين يطلقون على "السياق التحويلي" بـ "المقاصد" نحو الشاطبي من

القدماء، والطاهر ابن عاشور من المحدثين. وقد كشفنا اللثام عن تضافر مفهوم "المقاصد" مع مصطلح "النحو" والسياق "و" فهم النص؛ لينتج - برأيي - حقولاً معرفية متداخلة غير قابلة للتفكيك، حيث تُسهم في بناء تصوّر شامل لمكونات النصّ التحويّ وسياقاته.

وكتزجمة عملية، عرضتُ لمسائل نحويّة في "النصّ القرآنيّ" سعياً وراء تفسير هذه المسائل تفسيراً سياقياً من خلال مؤلفات نحويّة وتفسيرية قديمة وحديثة، وركّزت فيها على كيفية تعامل النحاة والمفسرين في تحليل هذه المسائل، وإيجاد الشرح "المنطقيّ" التحويّ التي يتوافق مع تركيب الآية، وذلك من خلال استدعاء "السياق التحويّ" كأداة تفسيرية في الكشف عن هذه المعاني النحويّة. وهذه المسائل هي: أسباب النزول وأثرها في السياق التحويّ، وسياق المكّي والمدنيّ في المعالجات النحويّة للمفسرين، والجملة الاسميّة والفعلية بين سياق الثبوت والحدوث، والحذف وسياقاته الإضماريّة، والتّوكيد والتّعريف واقتضاءات السياق، التّقديم والتأخير وسياق المرتبة النحويّة، والزّمن السياقيّ للفعل، وتعاوُر الحروف والاستقلاليّة السياقيّة، ومسارات السياق في مظاهر "الحمل على المعنى"، والجملة المعترضة وفقه سياقها بين الجمود والحيويّة. وقد احتتمت هذه المسائل بمقاطع قرآنيّة من سورة "النمل" كنموذج تحليليّ حيث بيّنت فيها بعض الإمكانيات اللغويّة لتحليل هذه المقاطع تحليلاً سياقياً - نحويّاً بأدوات لسانية تدمج بين القديم والحديث، وباجتهادات ذاتيّة تجديديّة.

وأؤوّه هنا - إلى ما أشرتُ إليه سابقاً - إلى أنّ هذه المسائل "المختارة" ما هي إلّا نماذج تطبيقية انتقيتها من بين كمّ كبير من المسائل النحويّة التي حوّمها كُتب التفسير والنحو، وقد اخترتُ مسائل مختلفة؛ كي تتسع دائرة البحث في "السياق التحويّ في القرآن"، فالتّحويّ ودراسة "السياق" فيه أوسع من أن يُحاط بهذه المسائل، ولكنها تُمثّل رؤية نموذجيّة للمسائل النحويّة الأخرى.

وبعدّ الفصول الثلاثة ختمتُ الأطروحة بـ "استنتاجات وتعقيبات" سعيّت فيها أن أكون قارئاً نحويّاً، ومستخلصاً لأهمّ النقاط المثيرة، دون أن أجمل الأطروحة بكلّ ما فيها من مسائل وقضايا، وذلك لأنّي كُنتُ أجمل وأعقبُ خلال المسائل التي طرحتها في فصول هذه الأطروحة. وسعيّت في "الاستنتاجات والتّعقيبات" أن أدعم -

في بعض الأحيان - ما استنتجته بمصدره ومرجعه، تاركًا المجال للقارئ أو الدارس أن يتأمل المعطيات، ويُنعم النظر في هذه النتائج العملية، إذ لا يكفي أن نُجمل الأطروحة بنتائج "نظرية، وإنما ينبغي أن نضع أصابعنا على النقاط الهامة التي تحيط بالبحث بالشمول؛ إيمانًا مني بأن البحث الأكاديمي لا يتوقف عند عرض الظاهرة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تصوّر نقدي؛ سعيًا بوصف ظاهرة "السياق النحوي" بظواهر لسانية أخرى.

إذن، ما هذه الأطروحة إلا مقارنة لتفصيلي أثر مسألة هي في نظري من أهم النظريات اللغوية الحديثة والقديمة، فقد ارتأيت في هذه الدراسة أن أزواج بين التراث القديم والآليات الحديثة المتطلّعة؛ محاولًا تلمس طريق تُفضي إلى بناء رؤية جديدة في التعاطي مع هذا التراث، دون أن أتوقع في التبعيّة المطلقة للمناهج التقليدية؛ تحت طائلة أولئك الذين يخضعون لها خضوعًا كاملاً، ويتصوّنون البحث اللغوي محدودًا ومقصورًا بما استقرت عليه "دعائمه" في التراث القديم، فلا يتجاوزونه وكأنه تراث مقدس¹. فالشيء الفكري أو الفني عند مختلف الأمم لا يوصف بالأصالة إلا إذا كان ذا سمات جديدة في آنٍ معًا؛ فالأصالة - على خلاف ما تفهم - تعني شيئًا مزيدًا عليه، وهي تحمل الثبات والديمومة في الوقت الذي تُفيد فيه الاستمرار والصيرورة، فقدرتها على التّوَلّد لا تنفصل عن كونها مرتكزًا أصيلاً له².

إن موضوعات النحو العربي وقضاياها - بما في ذلك "السياق النحوي" - قابلة للتطوّر والمناقشة، وأنّ المجال، كلّ المجال، فسيح لمن يُريد أن يبحث في قضايا اللغة والنحو بأدوات صحيحة سليمة تستقيم وترتكز على ضوابط علمية، وبالتالي، أن يُبدي رأيًا جديدًا، أو يعرض وجهة نظر لافتة تستحق التأمل والعناية، أو أن يطمح إلى أن يُجلي حقيقة أن اللغة أوسع من أن تُصاغ في قوالب نحوية "جاهزة" و"جامدة". ومرّد هذا الطرح الجديد كي لا يبقى هذا التراث النحوي مكرورًا يُزج في أسر الجمود والتعقيد، كما بيّن ابن خلدون حينما "انقَضَ" رافضًا أداء النحاة للدرس النحوي في تأليفاتهم وشروحاتهم! فكَم رأيٍ لافتٍ ومثيرٍ ظلّ حبيس المؤلفات القديمة ولم يبرحها! وكَم من فكرة رائدة فريدة ضاعت في غياهب المتون دون أن يقطف ثمارها قاطفٌ أو جان!

¹ على أبو المكارم، الظواهر اللغوية في التراث النحوي (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2006)، 7.
² إحسان عباس، أوراق مبعثرة: بحوث ودراسات في الثقافة والتاريخ والأدب والنقد الأدبي (عمّان: جدارا للكتاب العالمي، 2006)، 520-521.

كُنْتُ أشعرُ دائماً، ولا أزال، أنَّ فضاءَ رَجَبٍ في سماءِ العلومِ اللِّسانية لم يُملأْ بعدُ، وأنَّ في كلِّ زاويةٍ من زواياه تُنْفِثُ عنها زوايا أُخرى، فكلَّما بَحَثْنَا ونَقَّبْنَا عَنْ مَطْمُورِ المسائلِ اللُّغويَّةِ وخفاياها تَكشَّفَتْ لنا مسائلُ أخرى. وبهذا، أَجِدُنِي أَمِيلُ إلى أنَّ الإنسانَ سيبقى عاجزاً لا محالةَ أمامَ "السِّيرِ الظَّاهرِ" - إنَّ صَحَّ القولُ - وهو اللُّغةُ، إذْ إنَّ اللُّغةَ المنطوقةَ الظَّاهِرةَ بكلِّ تحليَّاتها مِنْ أصواتٍ وكلماتٍ وجملٍ وتراكيبٍ ونصوصٍ هي في الوقتِ نَفْسِهِ سِرٌّ مِنْ أسرارِ هذا العالمِ، ويحتاجُ إلى مَنْ يَفْكُ شيفراتِ هذا الكيانِ اللِّسانيِّ. وارتكازاً على هذا "الواقعِ" اللُّغويِّ أَجِدُنِي أَعْجَبُ كلَّ العجبِ مِمَّنْ يقولون إنَّ البحثَ في نَحْوِ اللُّغةِ قَدْ نَضَجَ واختَرَقَ، ولا طائلَ مِنْ مُعَاوَدَةِ الدِّراسةِ والبحثِ. وأخيراً، فلا ادَّعي أَنِّي قَدْ بَلَغْتُ الغايةَ القصوى في طَرِحِ الموضوعِ، فَلَكُمْ علقتُ في ذهني أفكارَ وآراءَ ومسائلَ جَمَّةٍ لَمْ يسعِفني حجمُ الأطروحةِ أَنْ أَسْتزِيدَ فيها وأُدَوِّهَا، ولكنَّ الَّذي أَدْرِكُهُ تماماً أَنِّي لم آلُ جَهْدًا في التَّنْقِيهِ والبحثِ والدِّراسةِ، إذْ سَعَيْتُ إلى عَرْضِ مسألةِ "السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ في الْقُرْآنِ" عَرْضًا جَدِيدًا علَّه ينهضُ بالبحثِ الأكاديميِّ - لا سِيَّما الدِّراسَةُ النَّحْوِيَّةُ - إلى مَصَافِ الحَيَوِيَّةِ والدِّيناميَّةِ، وَيُنْأَى كلَّ النَّأْيِ عَنِ التَّكَرَّارِ والإِعادةِ. وبهذا، أَهْدِفُ إلى أَنْ تكونَ هذه الدِّراسَةُ محاولةً جَادَّةً تَطْمَحُ إلى قِراءةٍ جَدِيدَةٍ لِلنَّحْوِ العَرَبِيِّ مِنْ منظوري "السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ".

الفصل الأول:

مفهوم "السياق" عند القدماء -

إبستمولوجية "النظرية" وظلالها

1.1. مدخل:

يسعى هذا الفصل إلى بحث مفهوم السياق عند القدماء - من لغويين، ونحاة، وبلاغيين، ومفسرين - من حيث البدايات الأولى للمصطلح، وإلى ربط كل ذلك بأهم مكونات المصطلح - "سياق" - أو ما يتقاطع معه في أمات الكتب والمعجمات؛ دراسة إبستمولوجية¹؛ نتعرف فيها على حقيقة المصطلح، وعلى أبعاده المختلفة.

¹ "الإبستمولوجيا" Epistemology هي كلمة يونانية مركبة من "إبستمي" Epistémé وتعني المعرفة، أو العلم، و"لوجو" Logos وتعني العقل، والنظر، والنقد، بالتالي فإن اللفظ يعني في مجمله "المعرفة العاقلة"، أو "المعرفة العلمية"، أو "الدراسة المعرفية". ووفقاً إلى هذا، فإنه بوسعنا القول إن معنى "الإبستمولوجيا" من حيث الاشتقاق اللغوي المتداول في العصر الحديث هو: "دراسة العلم"، أو "نظرية العلم" أو "نظرية المعرفة"، أو "الدراسة النقدية للعلوم، علماً أن مصطلح "نظرية المعرفة" هو الترجمة الأشهر والأكثر رواجاً. وأغلب التقدير أن الفيلسوف الإسكتلندي جيمس فريدريك فيريير James Frederick Ferrier [1864-1808م] كان أول من استخدم مصطلح "الإبستمولوجيا" في العصر الحديث من حيث كونه مصطلحاً معرفياً حديثاً في كتابه "مبادئ الميتافيزيقا" Institutes of Meta. ومما لا شك فيه أن مصطلح "الإبستمولوجيا" هو مصطلح إشكالي مختلف فيه، ابتداءً من تعريفه، ومروراً بتحديد مبادئه وموضوعه وغايته، وانتهاءً بعلاقته بالمتنبيسة والمتداخلة مع فلسفة العلوم، والميتودولوجيا (علم المناهج)، وتاريخ العلوم، ونظرية المعرفة وفلسفة العلوم، وغيرها من الأطر المعرفية. فالإبستمولوجيا ترتبط بالميتودولوجيا من جهة تناولها مناهج العلوم، وليس من الزاوية الوصفية التحليلية فحسب، بل وبالأخص من زاوية نقدية وتركيبية أيضاً. كما ترتبط "الإبستمولوجيا" بنظرية المعرفة بمعناها العام من حيث إنها تدرس طرائق اكتساب المعرفة وطبيعتها وحدودها، ولكن ليس من زاوية التأمل الفلسفي المجرد، إنما من زاوية فحص المعرفة العلمية والتفكير العلمي فحصاً علمياً ونقدياً قوامه الاستقرار والاستنتاج معاً. وأيضاً، ترتبط "الإبستمولوجيا" بـ "تاريخ العلوم" لا لذاته، بل من زاوية كونه مسلسلاً لنمو الفاعلية البشرية، وخاصة الفكرية التي هي عبارة عن تحقق إمكانات الذات في فهم العالم وتغييره، وبالتالي، تحقق إمكانات وعي الذات بنفسها وقدراتها وحدودها. وعلى صعيد آخر، يُشار إلى أنه قد اختلفت في دلالة Epistémé، هل هي مرادفة في المعنى لكلمة Knowledge، أم هي مرادفة لكلمة Science، حيث ذهب كثير من "الإبستمولوجيين" إلى أن هناك مصطلحين يُفصي أحدهما إلى الآخر - دون الخوض في منشئهما بين الفرنسيين خاصة، والأوروبيين عامةً وهما: "فلسفة العلم" Philosophy of Science، و"نظرية المعرفة" Theory of Knowledge. وللإبستمولوجيا تعريفات كثيرة، لا يتسع المجال لعرضها جميعاً في هذه العجالة، ولكن أهمها هو: "الإبستمولوجيا" 1- فرع من الفلسفة يهتم بدراسة مناهج العلوم وتاريخها ومبادئها. 2- هي الدراسة التي تبحث في العلوم من حيث موضوعاتها ومبادئها وقوانينها وعلاقة بعضها ببعض، وتكشف عن أصلها ومداها. 3- هي الدراسة النقدية للعلوم الإنسانية؛ وبحث التكوين المعرفي وظروفه. 4- تعني فلسفة العلوم، وبيان الأصل المنطقي للعلوم والمعارف، والبحث في قيمتها الموضوعية التي تبتعد عن الذاتية في التوجيه والطرح والمعالجة. ونجد من بين هذه المبادئ عناصر نحو أدوات القياس، وإجراءات التحقق من صحتي المعرفة، وكذلك شروط صياغة الجهاز المفهومي والإجراءات التطبيقية وبلورتها. وإذن، فإن العلاقة - بهذا - بين "الإبستمولوجيا" والعلوم الإنسانية ليست أحادية الجانب، إنما هي علاقة جدلية متبادلة؛ لأن الاهتمامات "الإبستمولوجية" التي تنشأ بفعل المسائل النظرية والعلمية التي يطرحها تطوّر البحث في العلوم الإنسانية تُوفّر في الوقت ذاته إطاراً موجّهاً لتجاوز تلك المسائل. وبفعل ذلك فإن المبادئ "الإبستمولوجية" ذاتها تصبح موضوعاً للمسألة خلال البحث عن ضيق جديدة؛ لتأطير التفكير وتوجيهه، والبحث حول مسائل مركبة مستجدة، وربما تكون مغايرة لدى ظهورها في حقل العلوم الإنسانية. ويشير جون جريكو John Greco إلى أن "الإبستمولوجيا" تنتج نتيجة لتساولين، هما: "ما هي المعرفة؟"، و"ماذا بمقتورنا أن نعرف؟"، وعندما نعتقد أنه بمقتورنا أن نعلم شيئاً، يعرفه غالباً الجميع، ينشأ من هنا تساؤل ثالث أساسي وهو: "كيف لنا أن نعرف ما نعرفه؟". وكل هذه التساولات تخلق ما يُسمى بـ "المشكلة المعرفية"، وهي ما عدها أفلاطون نفسه بأن الحقيقة العلمية (المعرفية) هي اعتقاد صادق الذي بوسعنا أن ندعمه عن طريق البراهين والشروحات المختلفة التي تقوي هذا "الادعاء" أو ذلك. ويذهب محمد عابد الجابري إلى أن التعريف الدقيق للإبستمولوجيا هو: تلك الأبحاث المعرفية في "فلسفة العلوم"، و"نظرية المعرفة"، و"مناهج العلوم"، منظوراً إليها من زاوية علمية معاصرة خلال المرحلة الزاهنة لتطوّر الفكر العلمي والفلسفي، كما أنها علم المعرفة التي تختصّ ببحث العلاقة بين "الذات والموضوع"؛ فالإنسان يبنى معرفته

إنَّ العلاقةَ بَيْنَ "إبستمولوجيا السياق" وَبَيْنَ ظلالِ هذه النَّظَرِيَّةِ- موضوعِ هذه الأطروحةِ ومنهجِيَّتها- تتَّخِذُ شكلَيْنِ، يبدو أَوَّلُهُما في الاتجاهاتِ التَّأْسِيسِيَّةِ لـ"إبستمولوجيا السياق"؛ لكَوْنُهَا لا غنى عنها بالنَّسبةِ إلى المعارفِ المتخصِّصَةِ، كعلمِ النَّحوِ واللِّسانيَّاتِ، حيثُ تُوفِّرُ لها المبادئَ الضَّروريَّةَ لطبيعةِ مفهومِ السياقِ الَّتِي تتضمَّنُهُ مِنْ خلالِ إجراءاتِها المنهجِيَّةِ، وينعكسُ ثانيهما في اعتمادِ منظورِ "الإبستمولوجيا" في منجزاتِ العلومِ المتداخلةِ- كعلمِ اللِّغةِ والنَّحوِ والبلاغةِ- خلالَ فتراتٍ تاريخِيَّةٍ معيَّنَةٍ، إذْ منها تستمدُّ تصوُّراتِها عَنْ طبيعةِ "السياق" كنظريَّةٍ يمكنُ بلوغُها، ومن ثَمَّ صياغةُ المبادئِ العامَّةِ الَّتِي تُؤَيِّسُ عَلَيْهَا أحكامُها ومعاييرُها.

ولذلكَ فَإِنَّ "إبستمولوجيا السياق" بما هي معرفةٌ لغويَّةٌ- اجتماعيَّةٌ وتاريخيَّةٌ وثقافيَّةٌ- تتضمَّنُ نوعاً آخَرَ مِنْ المبادئِ محدودةِ الزَّمانِ والمكانِ، ومرتبطةٌ بعناصرٍ خصوصيَّةٍ يحدِّدُها المحيطُ الَّذِي ينشأُ فيه مصطلحُ "السياق"¹.

وَلَعَلِّي بهذا أُلحِّحُ، فيما سأعْرِضُ له في هذه الأطروحةِ، في أَنَّ "الإبستمولوجيا" لَيْسَتْ مرتبطةٌ، فقط، بـ"نظريَّةِ المعرفةِ" بمعناها التقليديِّ مِنْ حيثُ دراسُها إمكانيَّةِ المعرفةِ وحدودِها وطبيعتها، وَلَيْسَتْ مرتبطةٌ- كذلك- بالموقفِ الخاصِّ، إِنَّمَا مِنْ زاويةِ التطوُّرِ العلميِّ المستمرِّ، فـ"إبستمولوجيا السياق"- في تصوُّري- نظريَّةٌ علميَّةٌ تختلفُ في حقيقتِها باختلافِ المرحلةِ الَّتِي يجتازُها العلمُ خلالَ سياقِ تطوُّرهِ وغَوِيهِ على مَرِّ العصورِ².

في هذا العالمِ مِنْ خلالِ نشاطِهِ العلميِّ والذهنيِّ، والبناءِ الَّذِي يعتمدهُ الإنسانُ بواسطةَ هذا النشاطِ هو ما تُسمِّيهِ بالعلمِ والمعرفةِ؛ وَمِنْ أَجْلِ فحصِ عمليَّةِ البناءِ يَجْدُرُ بنا أَنْ نتتبَّعَ مراحلَها، ونقدَ أسسِها، وبيانَ مدى تَربُّطِ أجزائها، وأنْ نبحثَ عن ثوابتِ صياغتها صياغةً تعميميَّةٍ سعيًّا في استنباطِ نتائجها، فذلكَ ما يُشكِّلُ موضوعَ "الإبستمولوجيا". انظر: زينب إبراهيم شوريا، الإبستمولوجيا: دراسة تحليليَّة لنظريَّة العلم في التراث (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2004)، 5-9؛ يوسف خياط، معجم المصطلحات العلميَّة والفنيَّة (بيروت: دار لسان العرب، [د.ت.])، 11؛ فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفيَّة المختصرة (بيروت: دار القلم، 1980)، 139؛ سالم بفوت، فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع (بيروت: دار الطليعة، 1985)، 184؛

Richard Feldman, *Epistemology* (Upper Saddle River, New Jersey : Prentice Hall, 2003), 1-9; Adrian Haddock and Others, *Social Epistemology* (Oxford: Oxford University Press, 2010), xiv-3; Laurence Bonjour, *Epistemology: Classic Problems and Contemporary Responses* (Lanham: Rowman & Littlefield Publishers, 2010), 1-2; John Greco and Ernest Sosa, *The Blackwell Guide to Epistemology* (Malden, Mass.: Blackwell, 1999), 1-3; Louis P. Pojman, *The Theory of Knowledge: Classical and Contemporary Reading* (Belmont: Wadsworth- Thomson Learning, 2003), 1-4; Joanna Turnbull and Others, *Oxford Advanced Learner's Dictionary* (Oxford: University Press, 2012), 511; Stephen Hetherington, *Epistemology Futures* (Oxford: Clarendon Press, 2006), 6-9.

¹ حافظ إسماعيل علوي وامحمد الملاخ، قضايا إبستمولوجيَّة في اللسانيَّات (بيروت: الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، 2009)، 21-30؛ يميني طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2000)، 216؛ محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم: تطوُّر الفكر الرِّياضيِّ والعقلانيَّة المعاصرة (بيروت: دار الطليعة، 1982)، 1: 13؛ 42.

² ومن ثَمَّ تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أَنَّ كلَّ بحثٍ لا بُدَّ أَنْ يُضَيَّبَ مجالُهُ الَّذِي يَدورُ فيه، والمفاهيمُ العامَّةُ الَّتِي يعتمدُ عليها، فيتعيَّنُ بذلك موقعُهُ مِنْ الاختصاصاتِ المتنوّعة المتداخلة، ويتمكَّنُ المتقبِّلُ مِنْ مفاتيحٍ ولوجه القائمة على تلك المفاهيم، وهذه ضرورةٌ إبستمولوجيَّةٌ كما يقول الأزرهر الرَّنَّاد. انظر: الأزرهر الرَّنَّاد، نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصًّا (الدار البيضاء: المركز الثقافيِّ العربي، 1993)، 11.

2. 1. 1. حيزُ "السياق":

يُشكِّلُ "السياقُ" مُرتكزًا حيويًا ومُبدأً هامًا في الدَّرسِ اللُّغويِّ، قديمه وحديثه على السَّواء، وإن اختلفت درجة الاهتمام به مِنْ حَيْثُ الزَّمانُ ومناهجُ البحثِ في اللُّغة. وَقَدْ وَطَّنَ الباحثُ كمال بشر هذا المعنى، مضيفًا أنَّ "السياقَ" بمثابة العنصرِ الفاعلِ في توضيحِ الكلام، بل في صحَّته والوصولِ به إلى درجة القَبولِ في مبناهُ ومعناه. بَلْ إِنَّ عَدَمَ الاهتمامِ بِهِ وأخذَهُ في الحسبانِ قَدْ يُحيلُ الكلامَ إلى كلماتٍ ترتبطُ فيما بَيْنَها دونَ أيِّ معنى¹.

وعلى الرَّغمِ مِنْ أَنَّ السياقَ يشغلُ حيزًا واسعًا في البحثِ اللُّغويِّ² إِلَّا أَنَّ جُلَّ الدَّراساتِ الَّتِي تبحثُ مسألةَ السياقِ تُسلِّطُ الضَّوءَ على دلالةِ الكلماتِ والمفرداتِ وفقَ سياقِها في الجملة، وكأنَّ هذه الدَّراساتِ باتتْ تحصرُ "السياقَ" بالمستوى الدَّلاليِّ (Semantics)؛ حَتَّى عَدَّتْ هذه النَّظريَّةُ في الدَّراساتِ اللُّغويَّةِ الحديثةِ - بهذا التَّوجُّه - مُمثِّلَ نظريَّةٍ مِنْ أَكثَرِ النَّظَريَّاتِ اتِّساعًا في عِلْمِ الدَّلالةِ³، ولكنَّها - الدَّراساتِ - لَمْ تُعْنِ بِالْحَاقِ مصطلحِ "السياقِ" بالمستوى التَّحويِّ الَّذِي يستحقُّه، لا سِيَّما الأبحاثُ العربيَّة.

وَقَدْ نَوَّهَ بعضُ الباحثينَ إلى أَنَّ الاهتمامَ بالسياقِ والبحثِ فيه والتَّنظيرُ لَهُ كَادَاةٍ إجرائيَّةٍ في الدَّرسِ اللِّسانيِّ هو وليدُ عِلْمِ الدَّلالةِ، وهو - كما يراه كثيرٌ مِنَ اللِّسانيِّينَ المحدثينَ - عِلْمٌ حديثُ النِّشأةِ في الغربِ مقارنةً مَعَ باقي مستوياتِ الدَّرسِ اللِّسانيِّ الأخرى كالأصواتِ والمعجمِ؛ إذ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْرَضَ نَفْسَهُ إِلَّا فِي السَّنَوَاتِ الأخيرةِ، حَيْثُ تَبَيَّنَ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ لِمُخْتَلَفِ المستوياتِ اللُّغويَّةِ الأخرى الاستغناءُ عنه⁴.

ولكنَّا إذا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ، سَنَلَحِظُ، دُونَ أَذْنَى شَكٍّ - أَنَّ العلماءَ القدماءَ، على اختلافِ معارفهم الَّتِي اشْتُهِرُوا بِهَا، أَدْرَكُوا ما للسياقِ مِنْ أُمِّيَّةٍ بالغةٍ في العلومِ والمعارفِ جميعها ذاتِ العلاقةِ بِالْخِطَابِ الْقَرَّائِيِّ مِنْ تَفْسِيرِ وحديثِ وأصولِ فقهٍ وعِلْمِ كلامٍ وَغَيْرِهَا؛ وذلك - كما يُبيِّنُ طه العلواني - لَأَنَّهُمْ وَجَدُوا فِيهِ وسيلةً منهجيَّةً تُسَهِّلُ

¹ كمال بشر، التفكير اللُّغوي بين القديم والحديث (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2005)، 367-368.

² صاحب أبو جناح، دراسات في نظرية النحو العربي (عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998)، 207.

³ محمد يوسف حبلس، البحث الدَّلالي عند الأصوليين (القاهرة: عالم الكتب، 1991)، 28.

⁴ علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري: من البنية إلى القراءة، (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2000)، 15.

وتساعدُ في بيانِ مُرادِ النَّصِّ، فينطلقُ مِنْ حَقِيقَةٍ مَفادُها أَنَّا يُمْكِنُ أَنْ نَحْدَ قَدْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمْ فِي بَيَانِ الْمُرَادِ بِالسِّيَاقِ على سَبِيلِ الإِجْمَالِ¹.

تنطلقُ الباحِثَةُ المَغْرِبِيَّةُ فَاطِمَةُ بوسلامَة مِنْ أَنَّهُ قَدْ نَظُنُّ لِلوهلةِ الأولى أَنَّا بِصَدِيدِ البَحْثِ عَنِ مَفْهُومِ-
أَيِّ مَفْهُومِ السِّيَاقِ- لا يَوجَدُ إِلَّا مَقْدَرًا فِي الْأَذهانِ، أو أَنَّا؛ لِسَبَبٍ ما، نَسْعَى لِأَنْ نُحْمَلَ الْأَمْرَ فَوْقَ ما يَحْتَمِلُهُ،
فَنُنَسِبُ لِلقَدَماءِ مَجْهُودًا لَيْسَ مِنْ صُنْعِهِمْ وَإِنْجَازِهِمْ. وَلَكِنْ سِرْعانَ ما يَتَبَدَّدُ هَذَا الظَّنُّ حِينَما تُطالِعُنا شَواهِدُ
صَرِيحَةٌ لا تَدْعُ بِجَلا لِلشَّكِّ فِي أَنَّنَا أَمَامَ بَحْثٍ وَتَنْقِيبٍ عَنِ أَبرزِ أَدَوَاتِ الاسْتِدْلالِ².

وَمَعَ هَذِهِ الْحَاجَةِ الْماسَّةِ، إِلَّا أَنَّ "النَّظَرِيَّةَ السِّيَاقِيَّةَ" قَدْ جَاءَتْ مُبْعَثَرَةً فِي أَعْمَالِ اللُّغَوِيِّينَ القَدَماءِ، حِينَ
أَضْحَى "السِّيَاقُ" مُتَشَابِكًا فِي تَعْرِيفَاتِهِ مُخْتَلَفًا فِي حُدُودِهِ وَمَجالاتِهِ؛ الْأَمْرُ الَّذِي صَعَّبَ مَعَهُ اسْتِقْرَاءَ وَتَتَبُّعَ مُخْتَلَفِ
اسْتِعْمالاتِ كَلِمَةِ "سِيَّاقٍ"- وبِالتَّالِي- مَعْرِفَةَ الْمَدلولِ الَّذِي اعْتَمَدُوهُ بِشَأْنِها فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أو ذاكِ³، فَكَانَ لِرِزَامًا
أَنْ نَسْتَعْرِضَ ما أَشارَتْ إِلَيْهِ تِلْكَ الْمَصادرُ، وَأَنْ نَتَتَبَعَ تَطَوُّرَ دَلالَةِ "السِّيَاقِ" وَاسْتِخداماتِهِ فِي مِياذِينَ مَعْرِفَتِيَّةٍ شَتَّى.
إِذَنْ، فلا مَنَاصَ مِنَ الوقُوفِ على تَطَوُّرِ مُصْطَلَحِ "السِّيَاقِ" فِي الثَّراثِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، وَمِنْ ثَمَّ، أَنْ
يُعْكَفَ على دِراسَةِ قِيميَّةِ التَّداوُلِيَّةِ (العَمَلِيَّةِ) اسْتِنادًا على سِياقاتِها الْأَصْلِيَّةِ، لا يَنْزَعُها مِنَ السِّيَاقاتِ المَحيطةِ بِهِ⁴.
وَلَعَلَّ أَهمِيَّةَ تَحديدِ سِياقاتِ مُصْطَلَحِ "السِّيَاقِ" وَاسْتِخداماتِهِ الفَعْلِيَّةِ تَنْبُغُ- وَفَقًا لِمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَحْمَدُ مَخْتارَ عَمَر-
مِنْ أَنَّ الكَلِماتِ لا تَمْلِكُ وُجُودًا مُجَرَّدًا لِداتِهِ، وَلَكِنْ وُجُودُهُ يَتَحَقَّقُ مِنْ خِلالِ اسْتِخدامِهِ⁵؛ لِذلِكَ فَإِنَّ مِنَ الهامِّ
والضَّروريِّ أَنْ نُحَدِّدَ مَعْنَى كَلِمَةِ "سِيَّاقٍ" بِاعتبارِها جِزْءًا مِنْ نِظامٍ واسِعٍ؛ ولأَنَّها قَدْ تَمْلِكُ عِدَّةَ مَعانٍ حَسَبِ
اسْتِخدامِها فِي السِّيَاقِ والتَّداوُلِ⁶.

¹ طه جابر العلوانى، السِّيَاق: المَفْهُوم- المَنهج- النَظَرِيَّة (الرِّباط: دار أبي رُقراق للطباعة والنَّشر، 2007)، 15.
² فاطمة بوسلامَة، السِّيَاق عِنْد الْأَصُولِيِّينَ: المِصْطَلَح والمَفْهُوم (الرِّباط: دار أبي رُقراق للطباعة والنَّشر، 2007)، 301.
³ بوسلامَة، السِّيَاق عِنْد الْأَصُولِيِّينَ: المِصْطَلَح والمَفْهُوم، 303.
⁴ صابر الحباشة، مِغامرةُ المَعْنى مِنَ النِّحوِ إلى التَّداوُلِيَّة- قِراءةٌ فِي "شُرُوحِ التَّلْخِصِ لِلخَطِيبِ القَزْوِينِي" (دمشق: دار صَفْحاتِ لِلدِّرَاساتِ والنَّشر، 2011)، 143.
⁵ أَحْمَدُ مَخْتارَ عَمَر، عِلْمُ الدَّلالةِ (القاهرة: عِلْمُ الكُتُب، 1988)، 68.
⁶ أَحْمَدُ مَخْتارَ عَمَر، صِناعةُ المَعْجَمِ الحَدِيثِ (القاهرة: عِلْمُ الكُتُب، 2009)، 132.

2. 1. السِّيَاقُ لُغَةً:

يُجْمَعُ أصحابُ المعجماتِ على أنَّ مفردة "السِّيَاق" مأخوذةٌ مِنَ الجذرِ الثلاثيِّ (س، و، ق)¹، وهي مصدرٌ ثانٍ² مِنَ الفعلِ "سَاقَ"، ومضارعُها "يُسَوِّقُ" ومصدرُها "سَوْقًا وَسِيَقًا"³.
ويُفَسِّرُ ابنُ منظورٍ [630-711هـ، 1233-1311م] المبنى الصَّرْفِيَّ لكلمةِ السِّيَاقِ، فيقولُ إنَّ أصلَها "سَوَاقٌ"، فَقُلِبَتْ الواوُ إلى ياءٍ؛ لِأَنَّ السِّينَ مكسورةٌ⁴. وهذا ما يُسمَّى في عِلْمِ الصَّرْفِ بـ "الإعلالِ بِالْقَلْبِ"⁵ أو "الإعلالِ بِالتَّحْوِيلِ"؛ وَفَقًا لِلْقَاعِدَةِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّهُ، عِنْدَ صِيَاغَةِ الْمَصْدَرِ مِنَ الْفِعْلِ الْأَجُوفِ الَّذِي أُعْلِتْ عَيْنُهُ، إِذَا وَقَعَتِ الْوَائِ حَشْوًا فِي وَسْطِ الْكَلِمَةِ بَعْدَ حَرْفٍ مَكْسُورٍ وَيَلِي الْوَائِ أَلْفٌ (الوَائِ بَيْنَ كَسْرَةٍ وَأَلْفٍ) تُقْلَبُ الْوَائِ يَاءً⁶.

وكلمةُ "السِّيَاقِ"، مِنْ حَيْثُ مَدْلُوهُمَا اللَّغَوِيُّ، تَدَوَّرُ فِي رَحَى الْحَدُوثِ وَالتَّنَائُعِ وَالانْسِيَاقِ، وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا يَقُولُ ابْنُ فَارِسٍ [...] 395-...، 1004-...م]: "السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ حَدُّ الشَّيْءِ"⁷. وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ [326-385هـ، 938-995م] عَلَى أَنَّ "الْمُسَاقَ" هُوَ التَّابِعُ، وَ"الْعَلَمُ

¹ يُشِيرُ أَبُو بَكْرِ الرَّازِي إِلَى ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَصْلِ حَرْفِ الْعَلَّةِ الْأَجُوفِ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفُ إِنَّمَا هِيَ مُنْقَلَبَةٌ عَنِ الْوَائِ، فَالْفِعْلُ "سَاقَ" هُوَ مِنْ بَابِ "قَالَ" (ق، و، ل)، وَ"قَامَ" (ق، و، م). انظر: مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ الرَّازِيِّ، **مَخْتَارُ الصَّحَاحِ** [(د.م.): دار المنار، د.ت. 159].

² الْمَقْصُودُ بِـ"مَصْدَرٍ ثَانٍ" أَنَّ لِلْفِعْلِ الثَّلَاثِيِّ "سَاقَ" مَصْدَرَيْنِ سَمَاعِيَيْنِ، وَهُمَا "سَوِّقَ" وَ"سَاقَ". وَتَجَدُّدُ الْإِشَارَةِ هُنَا إِلَى أَنَّ مَصَادِرَ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثِيَّةِ هِيَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الصَّرْفِ مَصَادِرُ سَمَاعِيَّةٍ لَيْسَ لَهَا ضَوَائِطُ قِيَاسِيَّةٌ ثَابِتَةٌ، أَيْ إِنَّهَا تُعْرَفُ بِالسَّمَاعِ وَالنَّقْلِ عَنِ الْعَرَبِ. وَالْوَزْنُ "فِعَالٌ" كَمَا هُوَ "سَاقٌ" مِنَ الْأَوْزَانِ الْغَالِبَةِ الشَّائِعَةِ فِي مَصَادِرِ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثِيَّةِ. انظر: هَادِي نَهْر، **الصَّرْفُ الْوَاقِي: دَرَاثَاتٌ وَصَفِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ** (إربد: عالم الكتب الحديثة، 2010)، 64؛ حَمْدِي بَدْرِ الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ، **مَعْجَمُ الْأَوْزَانِ الصَّرْفِيَّةِ لِأَوْزَانِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ** (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 2011)، 296-305.

³ أَحْمَدُ بْنُ فَارِسٍ، **مَعْجَمُ مَقَائِيسِ اللُّغَةِ** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999)، 1: 578؛ ابْنُ مَنْظُورٍ، **لِسَانُ الْعَرَبِ** (القاهرة: دار الحديث، 2003)، 4: 753.

⁴ ابْنُ مَنْظُورٍ، **لِسَانُ الْعَرَبِ**، 4: 753؛ مَجْدُ النَّيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْفَيْزِزْ أَبَادِي، **الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ** (القاهرة: المكتبة التوقيفية، [د.ت.ب.]، 279: 3).

⁵ الشَّرِيفُ عَلِيٌّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْجَرَجَانِيُّ، **التَّعْرِيفَاتُ** (الإسكندرية: دار الندى، 36-37؛ مُحَمَّدٌ سَلِيمَانُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَشْقَرُ، **مَعْجَمُ عُلُومِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْأَنْمَةِ** (عمّان: دار النفايس، 2006)، 66.

⁶ مُحَمَّدُ سَلِيمَانُ يَاقُوتَ، **الصَّرْفُ التَّعْلِيمِيُّ وَالتَّطْبِيقُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ** (الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، 1999)، 395. لِلتَّوَسُّعِ حَوْلَ هَذِهِ النَّوْعِ مِنَ الْإِعْلَالِ انْظُرْ: ابْنُ جَنِّي، **سِرُّ صَنَاعَةِ الْإِعْرَابِ** (القاهرة: المكتبة الوقفية، [د.ت.ب.]، 264-268؛ أَبُو أَوْسٍ إِبْرَاهِيمَ الشَّمْسَانُ، "الْإِبْدَالُ إِلَى الْهَمْزَةِ وَأَحْرَفِ الْعَلَّةِ فِي ضَوْءِ كِتَابِ سِرِّ صَنَاعَةِ الْإِعْرَابِ لِابْنِ جَنِّي". **حَوْلِيَّاتُ الْأَدَابِ وَالْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ - جَامِعَةُ الْكُوَيْتِ** 22 (2002)، 102-104.

⁷ ابْنُ فَارِسٍ، **مَقَائِيسُ اللُّغَةِ**، 1: 578.

الْمُسَاقَ " هو الجبلُ الْمُنْقَادُ طَوْلًا¹. كما يُقَالُ: "سَيِّقُهُ الْقَدْرُ" أي يسوقُهُ إلى ما قُدِّرَ عَلَيْهِ². وأشارَ الْجَلَالِيُّ إلى هذا في معجمِهِ إلى الحقلِ الدَّلَالِيِّ ذَاتِهِ مِنْ خِلَالِ قَوْلِهِ: "...وَأَسَاقُهَا وَاسْتَأْفَها فَانْسَاقَتْ"³ أي تَتَابَعَتْ وَتَنَالَتْ. وَيَذْكُرُ الرِّيْدِيُّ [...]802-...، 1399م]، بما يتواءم ودلالة كلمة "السِّيَاقِ"، أنَّ الْعَرَبَ تقولُ مجازًا: "وَلَدْتُ فَلَانَةً ثَلَاثَةَ بَنِينَ عَلَى سَاقٍ وَاحِدٍ"⁴، بمعنى - كما يُفَسِّرُ الْجَوْهَرِيُّ [...]393-...، 1003م]- أنَّ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءَ وُلِدُوا مُتَتَابِعِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ⁵. ويقولون أيضًا: "وُلِدَ لِفُلَانٍ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ سَاقًا عَلَى سَاقٍ، أَي: وَاحِدًا فِي إِثْرِ وَاحِدٍ"⁶.

وَمِنْ معاني الفعلِ "سَاقَ" هو الإرسالُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَالتَّحْرِيكُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، نَحْوُ قولِنَا: "سَاقَتْ الرِّيحُ السَّحَابَ"⁷، وقولِنَا: "سَاقَ اللَّهُ لَكَ حَيْرًا"⁸، و"سَاقَ إِلَيْهَا الْمَهْرَ"⁹، وَنَحْوُ قولِهِ تعالى¹⁰: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ...}¹¹.

إضافةً إلى المعاني السَّابِقَةِ، فَإِنَّ ثَمَّةَ مَعْنَى قَدْ يَكُونُ ذَا ارْتِبَاطٍ وَثِيقٍ بِمَعْنَى السِّيَاقِ الَّذِي مُهْدًى لَهُ، فَقَدْ يَبَيِّنُ ابْنُ سَيِّدِهِ [...]458-...، 1066م] لَدَى حَدِيثِهِ عَنِ الْمَادَّةِ اللَّغَوِيَّةِ (س، و، ق) أَنَّ "السِّيَاقَ" تعني النَّفْسَ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِ عَلِيِّ بْنِ حَرْبٍ الشُّرَاعِ: "لَا بُدَّ مِنْ قِتَالِهِمْ وَلَوْ تَلَقَّتْ سَاقِي"¹²، أَيِ نَفْسِي وَرُوحِي¹³.

¹ الصَّاحِبُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ، **المحيط في اللغة** (بيروت: عالم الكتب، 1994)، 5: 475.
² الصَّاحِبُ بْنُ عَبْدِ، **المحيط في اللغة**، 5: 473؛ ابن حجر العسقلاني، **غراس الأساس** (القاهرة: مكتبة وهبة، 1990)، 244.
³ مُحَمَّدُ الْحُسَيْنِيُّ الْجَلَالِيُّ، **تلخيص الذهب من لسان العرب** (عمّان: عشتار للاستثمارات الثقافية، 2014)، 2: 308.
⁴ مُحَمَّدُ مَرْتَضَى الْحُسَيْنِيُّ الرِّيْدِيُّ، **تاج العروس من جواهر القاموس** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1994)، 13: 227.
⁵ أَبُو نَصْرِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَمَّادِ الْجَوْهَرِيِّ، **الصَّاحِبُ - تاج اللغة وصحاح العربية** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999)، 4: 246.
⁶ الرِّيْدِيُّ، **تاج العروس من جواهر القاموس**، 13: 227؛ الْجَوْهَرِيُّ، **الصَّاحِبُ - تاج اللغة وصحاح العربية**، 4: 246.
⁷ ابن حجر العسقلاني، **غراس الأساس**، 244؛ الصَّاحِبُ بْنُ عَبْدِ، **المحيط في اللغة**، 5: 474؛ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدٍ الْأَزْدِيُّ، **جمهرة اللغة** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005)، 200.
⁸ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الرَّمْخُسِيُّ، **أساس البلاغة** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، 1: 484.
⁹ ابن حجر، **غراس الأساس**، 244.
¹⁰ انظر إلى التفصيل حَوْلَ ذَلِكَ لِاجْتِماعٍ تَحْتَ عَنَوانٍ: "المكوّنات الجذريّة لـ(س، و، ق) في النّصّ القرآنيّ".
¹¹ القرآن الكريم، فاطر: 9.
¹² أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سَيِّدِهِ، **المحكم والمحيط الأعظم** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000)، 6: 526.
¹³ نَهْدَفُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ السِّيَاقَ يَرْتَبِطُ مِنْ خِلَالِ تَجَلِّيَّاتِهِ وَمَلَامِجِهِ الْمُخْتَلِفَةِ بِقَصْدِ الْكَاتِبِ أَوِ الْمُبْدِعِ الَّذِي أَبْدَعَ هَذَا النّصَّ أَوْ ذَاكَ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ نَفْسُهُ مِنْ مَعَانٍ.

ولعلَّ حقيقة هذا المعنى مُشتَقَّةٌ مِنَ المعاني المولَّدة في الفعل "ساق"؛ إذ إنَّ هناك - فيما نراه - التحامًا دلالياً بَيْنَ النَّفْسِ وَبَيْنَ مفارقة الرُّوحِ جِسْمِ الإنسان¹، فَقَدْ أَشارَ الأزهريُّ [282-370هـ، 895-981م] وَغَيْرُهُ إلى أَنَّ العربَ تقولُ: "رَأَيْتُ فلانًا يَسوقُ سُوقًا، أي: يَنْزِعُ نَزْعًا، يعني يموت"²؛ وَتَنْزِعُ رُوحُهُ. فالسِّيَاقُ بهذا المعنى يعني نَزْعُ الرُّوحِ³. ويؤكِّدُ هذا المعنى المُناويُّ [952-1031هـ، 1545-1622م] بصريحِ التَّأويلِ فيقولُ: "السِّيَاقُ: سَوْقُ الرُّوحِ مِنْ أَرْجاءِ البدنِ إلى الخُرُوجِ منه"⁴. وأعتقدُ أَنَّهُ مِنْ يُدَقِّقُ مَلِيًّا في الرِّبَاطِ بَيْنَ "السِّيَاقِ" - بمعناه التَّناوُليِّ - وَبَيْنَ "النَّفْسِ وَالْمَوْتِ" يَلْحَظُ أَنَّ الصُّورَةَ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ تُفِيدُ هذا الْمَلَمَحَ؛ وذلك أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ عِنْدَ انتقالِها إلى عالمٍ ما بَعْدَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكأنَّها تُطَوَّى وتُلَفَّ. والطَّيُّ بِحَدِّ ذاتِهِ يَسِيرُ في فَلَكَ التَّناوُليِّ وَ"الحَدَوِ" الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ابنُ فارسٍ⁵.

وَمِمَّا مَعْنَى آخَرَ عَرَضَ لَهُ الْمُعْجَمِيُّونَ وَهُوَ معنى "النَّاسِ" أَوْ "الرَّعِيَّةِ"، فَقَدْ ذَكَرَ الْفَيْرُوزْآبَادِيُّ [...] - 817هـ، ...-1415م] أَنَّ "السُّوقَةَ" هِيَ الرَّعِيَّةُ، وَتُسْتَعْمَلُ لِلوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ، أَوْ قَدْ جُمِعَ عَلَى "سُوقٍ"⁶. وَبِوَسْعِ الْقَارِيِ الْمُتَأَمِّلِ أَنْ يَلْحَظَ الْمَشْتَرَكَ الدَّلَالِيَّ في هذا المعنى؛ وَكأنَّ ارتباطًا ما يَجْمَعُ النَّاسَ وَالرَّعِيَّةَ بِمَا سَبَقَها مِنْ تعريفاتٍ وَمَعَانٍ، فـ"السِّيَاقُ" بِمعناه اللَّغَوِيِّ الْعَامِّ يُرْشِدُ - كما عَرَضْنَا آنفًا - إلى التَّناوُليِّ وَالتَّوَأصْلِ وَالحَرَكَةِ الدَّائِبَةِ وَالنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَهذا كُلُّهُ مُنْسَجِبٌ أَيْضًا عَلَى الرَّعِيَّةِ وَالنَّاسِ، بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُمْ في هَذِهِ الْمَيِّزَاتِ؛ ذَلِكَ أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ الْحَرَكَةَ وَالتَّنَقُّلَ وَالتَّناوُلَ في التَّنَاسُلِ وَتِلْكَ النَّفْسُ أَوْ الرُّوحُ الَّتِي تَحْيَا فِيهِ. كما أَنَّ ابْنَ دُرَيْدٍ يَمْنَحُ معنى "الرَّعِيَّةِ" تَعْلِيلًا دَلَالِيًّا فَيَبَيِّنُ أَنَّ "السُّوقَةَ" بِمَنْزِلَةِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي يَسوقُها الْمَلِكُ، وَنُمُوها بِهذه التَّسْمِيَةِ - سوقَةً - لِأَنَّ الْمُلُوكَ يَسوقونَهُمْ فَيَنْساقونَ لَهُمْ⁷. وَغَيْرُ خَافٍ في أَنَّ نَظْرِيَّةَ ابنِ فارسٍ مِنْ خِلالِ مَعْجَمِهِ "مَقاييسُ اللُّغَةِ" تَبْدُو

¹ ثَمَّةُ شَاهِدٍ يَسْتَدِلُّ بِهِ الْمُعْجَمِيُّونَ وَالْمُفَسِّرُونَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} (الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، آلِ عِمْرَانَ: 185)، وَقَوْلِهِ: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} (الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، ق: 21). لِلتَّوَسُّعِ انْظُرْ لَاحِقًا: "المَكُونَاتُ الْجَذَرِيَّةُ لـ"س"، وَ (ق) فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

² أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ (بِירוْت: دارُ إحياءِ التَّراثِ الْعَرَبِيِّ، 2001)، 9: 183؛ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيُّ، كِتَابُ الْعَيْنِ (بِירוْت: مَوْسَسَةُ الْأَعْلَمِي لِلْمَطْبُوعَاتِ، 1988)، 5: 190؛ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ، الْمَحِيطُ فِي اللَّغَةِ، 5: 473.

³ ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، 4: 753؛ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الْقَادِرِ الرَّازِيِّ، مَخْتَارُ الصَّاحِحِ (القَاهِرَةُ: دارُ الْمَنارِ، [د.ت.])، 159.

⁴ مُحَمَّدُ عَبْدِ الرَّؤُوفِ الْمَنَاوِيُّ، التَّوْقِيفُ عَلَى مَهْمَاتِ التَّعَارِيفِ (بِירוْت: دارُ الْفِكْرِ الْمَعاصِرِ، 1990)، 420.

⁵ ابْنُ فَارِسٍ، مَقاييسُ اللَّغَةِ، 1: 578.

⁶ الْفَيْرُوزْآبَادِيُّ، الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ، 3: 280؛ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدٍ، كِتَابُ الْعَيْنِ، 5: 190.

⁷ ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللَّغَةِ، 200.

حاضرةً وبقوة فيما أُلْحِجَ إليه في هذا المقام، وهذا ما يُعاضِده الدرس اللساني الحديث بما يُعرَفُ بـ "نظرية الحقول الدلالية"¹ Semantics Fields Theory.

وتأتي كلمة "السياق" بمعنى المَهْر²، فإنَّ العرب تقول: ساقَ فلانٌ إلى امرأته أي أعطاهَا مَهْرَهَا، وساقَ إليها الصَّدَاقَ والمَهْرَ سِيقًا وإنَّ كانَ المَهْرُ أموالًا كالدرهم والدنانير؛ لأنَّ أصلَ الصَّدَاقِ عندَ العربِ الإبلُ، فهي التي تُساقُ. ثُمَّ يَبِينُ ابنُ منظورٍ علَّةَ تسميةِ المَهْرِ بالسياقِ كمترادفاتٍ قائلًا: "... قيلَ للمهرِ (سَوَق) لأنَّ العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الأبل والغنم مَهْرًا؛ لأنَّها كانت الغالب على أموالهم، وُضِعَ السَوَقُ موضعَ المهر وإن لم يكن إبلًا وغنمًا..."³.

¹ تعود جذورُ نظريةِ الحقولِ الدلاليةِ إلى دي سوسير De Saussure ونظريةِ البنيويةِ، التي تنصُّ على أنَّ اللُّغةَ نظامٌ متكاملٌ مِنَ العلامات التي يحدُّ بعضها بعضًا، ومنهُ تكتسبُ قيمتها. ومن اللسانيين مَنْ يرى أنَّ أَوَّلَ مَنْ استعملَ هذا المصطلحَ هو اللسانيُّ إِبسن Ipsen عام 1924، عندما حاولَ أن يُصنِّفَ مجموعةَ مِنَ الكلمات التي تُشكِّلُ معًا معنىً واحدًا، وهي الكلمات التي تُتَّصَلُ بالأغنام وتربيتها في اللغات الهندو-أوروبية وإن كانت هذه الكلمات لا ينتمي بعضها إلى بعض اشتقاقياً، وإنما ترتبط بعلاقاتٍ دلاليةٍ فيما بينها. ولعلَّ الفضلَ الأكبرَ في بلورةِ نظريةِ "الحقولِ الدلاليةِ" وإخراجها نظريةً متكاملةً نظريةً يعودُ إلى جوست تريير Trier Jost [1894-1970]، حيثُ دعا إلى وجوبِ دراسةِ الكلمات والمفردات في قطاعاتٍ كاملةٍ، وبناءً عليه فقدَ قَدِّمَتْ هذه النظريةُ عدداً مِنَ المقولات الهامة، منها أنَّ المعجمَ مبنيٌّ من مجموعاتٍ مِنَ المفاهيم الوثيقة الترابط تُمثِّلُها مجموعاتٌ مِنَ المفردات. وهذه المجموعاتُ المفهوميةُ تندرجُ مِنَ الأعم إلى الأخص، حيثُ إنَّ معانيِ الكلمات داخلَ كلِّ حقلٍ تُحدَّدُ وتُعيَّنُ بناءً على ما يُشارِكُها من مفرداتٍ أخرى في الحقلِ ذاتِهِ. كما أنَّ كلَّ حقلٍ دلاليٍّ مكوَّنٌ من مجالين، وهما: المجالُ المفهوميُّ (الدَّهْنِي) Conceptual Field، والمجالُ المعجميُّ Lexical Field الذي يحدِّدُه مساحةُ المجالِ الأوَّل. ثمةُ لسانيونٌ يحدِّدونَ معنىَ الكلمةِ خلالَ "السياقِ" عن طريقِ رصدِ السِّماتِ الدلاليةِ للكلمةِ من جهةٍ، وعن طريقِ رصدِ السِّماتِ الدلاليةِ للكلمةِ باستقراءِ استعمالاتها من جهةٍ ثانيةٍ، وفقاً إلى هذا، فإنَّ المجالَ الدلاليَّ يُحدِّدُ معنىَ الكلمةِ على أساسِ علاقاتها المتقاربةِ التي تمتلكُ علاقةَ تركيبيةٍ نحوَ كلماتِ القرابةِ، أو الألوانِ، أو الزراعةِ، أو الصناعةِ، أو الصحةِ... وغيرها مِنَ المجالاتِ الكثيرةِ. ولعلَّ أصحابَ هذه النظريةِ يرتكزونَ على الفكرةِ المنطقيةِ التي تقولُ إنَّ المعاني لا توجدُ منعزلةً في الذهنِ، بل لا بدَّ لإدراكها من ارتباطٍ كلِّ معنى منها بمعنى آخرٍ أو بمعاني أخرى. ويرى جون دوبوا Jean Dubois أنَّ تحديدَ الحقلِ في اللسانياتِ - حسب الافتراضاتِ الإستمولوجيةِ - هو البحثُ عن استخراجِ بنيةِ المجالِ أو اقتراحِ بنائه. وعَرَفَ جيفري أولمان Jeffrey Ullman "الحقلَ الدلاليَّ" بأنَّه قطاعٌ متكاملٌ مِنَ المادَّةِ اللُّغويةِ يُعزِّزُ عن مجالٍ مُعيَّنٍ مِنَ الخبرةِ، وهذا يعني أنَّ "الحقلَ الدلاليَّ" يشملُ قطاعاً دلاليّاً مترابطاً، مكوَّنًا من مفرداتِ اللُّغةِ التي تُعزِّزُ عن تصوُّرٍ أو رؤيةٍ أو موضوعٍ أو فكرةٍ مُعيَّنة. ويقولُ جون ليونز John Lyons في تعريفِ "الحقولِ الدلاليةِ" على أنَّها مجموعةٌ جزئيةٌ لمفرداتِ اللُّغةِ، وموَّداةُ أنَّ الحقلَ يتضمَّنُ مجموعةً كثيرةً أو قليلةً مِنَ الكلمات التي تتعلَّقُ بموضوعٍ خاصٍّ وتُعزِّزُ عنه. ويشيرُ جوزيف فندريس Joseph Vendryes إلى حقيقةِ "الحقولِ الدلاليةِ" بقوله: إنَّ الذَّهْنَ يميلُ دائماً إلى جُمعِ الكلمات، وإلى اكتشافِ عُرَى جديدةٍ تجمَعُ بينها، فالكلماتُ تنتبِثُ دائماً بعائلةٍ لغويةٍ. ولعلنا نَجْمِلُ أهمَّ مبادئِ نظريةِ "الحقولِ الدلاليةِ" التي تتلخَّصُ فيما يلي: - إنَّ الوحدةَ المعجميةَ تنتمي إلى حقلٍ واحدٍ مُعيَّن. - كلُّ الوحداتِ تنتمي إلى حقولٍ تُخصُّها. - لا يصحُّ إغفالُ "السياقِ" الذي تُردُّ فيه الوحدةُ اللُّغويةُ - مراعاةُ التركيبِ النحويِّ في دراسةِ مفرداتِ الحقلِ. انظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، 79؛ مبارك مبارك، معجم المصطلحات اللسانية: فرنسي - إنكليزي - عربي (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1995)؛ نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغوي (الشارقة: جامعة الشارقة، 2006)، 372-347؛ كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللُّغة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1985)، 294؛ ريمون طحان، اللسانية العربية (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1981)، 14؛ 93؛ عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية (بيروت: منشورات عويدات، 1986)، 370؛ جوزيف فندريس، اللُّغة (القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، 1950)، 33؛

David Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics (Oxford [England]: Basil Blackwell Ltd, 1991), 135-136; Sami A. Hanna and others, Dictionary of Modern Linguistics: English-Arabic (Beirut: Librairie Du Liban Publishers, 1997), 125-126.

² ابن فارس، مقاييس اللُّغة، 1: 578؛ نشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (دمشق: دار الفكر، 1999)، 3274: 5.

³ ابن منظور، لسان العرب، 4: 752-753.

وَأَوْرَدَ الرَّازِيَّ¹ [...] 660هـ، ...-1262م] في مُعْجَمِهِ أَنَّ الْفِعْلَ "سَاقَ" تُسْتَعْمَلُ فِيمَنْ يَحْمِلُ مَعَهُ الْمَهْرَ وَيَسُوْقُهُ - أَيُّ يَأْخُذُهُ - إِلَى عَرُوسِهِ، مُسْتَشْهِدًا بِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: "سَاقَ (فُلَانٌ) إِلَى امْرَأَتِهِ صَدَاقَهَا"². وهذا الكلام يُفْضِي إِلَى أَنَّ هُنَاكَ نَوْعَيْنِ مِنَ الدَّلَالَةِ حَوْلَ مُتَعَلِّقِ بَحْثِيَّةِ "الْمَهْرِ"، أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّ "السِّيَاقَ" يَعْنِي الْمَهْرَ نَفْسَهُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَإِنَّهُ يَعْنِي الْعَمَلِيَّةَ الَّتِي يُسَاقُ فِيهَا الْمَهْرُ.

وَمُحْكِنًا - كَذَلِكَ - أَنَّ نَسْتَقْرَأَ مَعْنَى آخَرَ صَرِيحًا دَرَجَ عَلَيْهِ الْمَعْجَمِيُّونَ الْحَدَّثُونَ مِنْ حَيْثُ التَّعْرِيفُ اللَّغَوِيُّ، وَهُوَ فِي حَقِيقَتِهِ مَعْنَى انْفَتَقَتْ بِهِ الْمَعْجَمَاتُ الْقَدِيمَةُ، فِ "السِّيَاقِ" هُوَ السَّرْدُ، إِلَى هَذَا أَشَارَ الرَّخْشَرِيُّ بِقَوْلِهِ: "... وَهُوَ يَسُوْقُ الْحَدِيثَ أَحْسَنَ سِيَاقٍ، وَإِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ، وَهَذَا الْكَلَامُ مَسَاقُهُ إِلَى كَذَا، وَجِئْتُكَ بِالْحَدِيثِ عَلَى سَوَاقِهِ: عَلَى سَرْدِهِ"³. وَلَعَلَّ الْمَعْنَى الْمُرَادَ عِنْدَ الرَّخْشَرِيِّ هُوَ السَّرْدُ نَفْسُهُ مَجْرَدًا، وَلَيْسَ بِمَعْنَى "يَحْكِي" أَوْ "يَقْصُ" أَوْ يَحْدِثُ" فَحَسْبُ.

وَفِي ثَنَائِهَا التَّعْرِيفِ بِمَادَّةِ السِّيَاقِ وَاسْتِعْمَالَاتِهِ، وَجَدْتُ أَنَّ التَّعَالِيَّ [350-429هـ، 961-1038م] كَانَ قَدْ اسْتَحْدَمَ لَفْظَةَ "سِيَاقَةٍ" بِمَعْنَى الْأَلْفَاظِ الَّتِي جِيءَ بِهَا وَقِيلَتْ تَنَاسُبًا مَعَ الْمَعْنَى الْمُرَادِ ذِكْرُهُ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي مَوَاقِفَ مُحَدَّدَةٍ، حَيْثُ عَنَوْنَ أَحَدَ أَبْوَابِ كِتَابِهِ بِ"فَصْلِ فِي سِيَاقَةِ الْأَوَائِلِ"⁴، وَبَدَأَ هَذَا الْفَصْلَ بِقَوْلِهِ: "الصَّبْحُ أَوَّلُ النَّهَارِ - الْعَسَقُ أَوَّلُ اللَّيْلِ - الْوَسْطَى أَوَّلُ الْمَطَرِ..."⁵.

¹ تجدر الإشارة هنا - لرفع اللبس - إلى أَنَّ الرَّازِيَّ صَاحِبَ "مَخْتَارِ الصَّحَاحِ" لَيْسَ الْفَخْرُ الرَّازِيَّ الْأَكْثَرُ شُهْرَةً. صَحِيحٌ أَنَّ كِلَيْهِمَا وُلِدَ فِي مَدِينَةِ "الرَّيِّ"، وَلَكِنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ سَبَقَهُ فِي الْعَهْدِ الزَّمَنِيِّ، فَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْبَكْرِيِّ التَّمِيمِيِّ الْمَعْرُوفُ بِفَخْرِ الدِّينِ الرَّازِيَّ، إِذْ وُلِدَ عَامَ (543هـ/ 1148م) وَتُوفِّيَ عَامَ (606هـ/ 1209م). مِنْ أَهَمِّ مَوْلَفَاتِهِ: "مِفْتَاحُ الْغَيْبِ أَوْ التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ"، وَ"الْمَحْصُولُ" فِي عِلْمِ أَصُولِ الْفَقْهِ، وَ"الْمَطَالِبُ الْعَلِيَّةُ" فِي عِلْمِ الْكَلَامِ. أَمَّا أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيَّ صَاحِبُ "مَخْتَارِ الصَّحَاحِ" فَإِنَّ ثَمَّةَ خِلَافًا حَوْلَ عَامِ وَلَادَتِهِ وَوَفَاتِهِ، حَيْثُ يَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ كُتُبِ التَّرَاوِجِ أَنَّ وَفَاتَهُ كَانَتْ بَعْدَ التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ. وَمِنْ أَهَمِّ مَوْلَفَاتِهِ: "مَخْتَارُ الصَّحَاحِ"، وَ"جَامِعُ أَسْرَارِ مَشْكَلَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ"، وَ"شَرْحُ الْمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيَّةِ"، وَ"رَوْضَةُ الْفَصَاحَةِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ"، وَ"كِتَابُ مَعَانِي الْمَعَانِي"، وَ"زَهْرُ الرَّبِيعِ مِنْ رَبِيعِ الْأَنْوَارِ". انظر: عبد الفتاح البركاوي، "مقدمة مختار الصحاح"، مختار الصحاح، 16-20؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999)، 6: 86؛ 102؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي (القاهرة: دار المعارف، [د.ت.د.]، 2: 261-263؛ إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغويين العرب (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، 2: 91.

² أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، 159؛ الجوهري، الصحاح، 4: 247.

³ الرخشري، أساس البلاغة، 1: 484.

⁴ أبو منصور التَّعَالِي، فقه اللغة وأسرار العربية (بيروت: دار الفكر العربي، 1999)، 33.

⁵ التَّعَالِي، فقه اللغة وأسرار العربية، 33.

1. 2. 1. السِّياقُ في المعجماتِ العربيّةِ الحديثةِ:

وأما المعجماتُ الحديثةُ، التي بدورها كانت أقرب إلى عالم التسمية المعاصرة لمصطلح "السِّياق"، فقد عرّفت السِّياق¹ بطرائق شتى، هي في الحقيقة تسيير في حقلٍ دلاليٍّ متماثلٍ نوعاً ما، فمثلاً جاء في "المعجم الوسيط" مُعرِّفاً السِّياقَ - بمفهوميهِ العامِّ - على أنَّ سياقَ الكلامِ يعني تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه².

وفي "معجم اللغة العربيّة المعاصرة" عرّف السِّياقُ على أنّه تعاقبُ سلسلةٍ من الظّاهراتِ في وَحدَةٍ ونظامٍ كتعاقبِ الظّاهراتِ الفسيولوجيّة والسيكولوجيّة³. ويُقصَدُ به أيضاً هو تلك الطّروفُ التي يقع فيها الحدثُ أو يُساقُ فيها الكلامُ، نحو قولنا: "شرح المتهّم للقاضي السِّياق الذي ارتكب فيه جريمة"⁴.

وجاء في "معجم التفاسير الكبير" أنَّ للسِّياقِ معانيَ مختلفةً، منها: "مصدرُ ساقِ الماشية: إذا حنَّها على السير"⁵. ويُطلَقُ على "المهر والصدّاق" ... و"سياقُ الكلام: أسلوبه الذي يجري عليه، ووقعت هذه العبارة في سياقِ الكلام أي: مُدرّجة فيه"⁶.

ومثمة معجماتٌ حديثة تستعين وتستشهد بالشعر القديم؛ لتدلّ على المعنى المراد، نحو معجم "أقرب الموارد" للشرطوني، إذ يقول: "سوق الماشية تسويغاً: مثل ساقها. قال امرؤ القيس: لنا عنم نسوقها غزائر كآن قُرون جلّتها العصي"⁷.

واعتقد أنَّ البستاني⁸ كان من السّباقين في تعريف "السِّياق" عموماً في العصر الحديث، ويكاد كثيرٌ من أصحاب المعجمات الحديثة يُحاكي ما ورد في "محيط المحيط" للبستاني، ولعلّ اللّافِت الذي نجده عنده هو وفرة

¹ يدور حديثنا هنا حول تعريفات السِّياق من حيث اللغة من خلال التداوالية الحديثة، ولا يُقصَدُ بتعريف السِّياق هنا التعريف الاصطلاحيّ الذي حوَّله المراجع الحديث. وسيلاتي التّقصيلُ حول ذلك لاحقاً.

² إبراهيم مدكور وآخرون، المعجم الوسيط (القاهرة: مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، والإدارة العامّة للمعجمات وإحياء التراث: مكتبة الشّروق التّوليّة، 2004)، 465؛ يوسف محمّد رضا، معجم العربيّة الكلاسيكيّة والمعاصرة (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2006)، 904.

³ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، 2: 1139.

⁴ أحمد عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة، 2: 1139.

⁵ سعيد الخوري الشرطوني، أقرب الموارد في فصح العربيّة والشّوارد (بيروت: مكتبة لبنان، 1992)، 234؛ سعيد الحميري، شمس العلوم، 5: 3272.

⁶ أحمد أبو حاقّة، معجم التفاسير الكبير (بيروت: دار التفاسير، 2007)، 1: 920؛ رضا، معجم العربيّة الكلاسيكيّة والمعاصرة، 904.

⁷ الشرطوني، أقرب الموارد، 234.

⁸ ولد بطرس بن بولس البستاني عام 1819 في قرية الشّوف بלבّان. إضافة إلى لغته الأمّ العربيّة، درس اللغة السّريانيّة والعبريّة والإنجليزيّة واللاتينيّة والإيطاليّة واليونانيّة. وصل إلى بيروت عام 1940 وعيّن مترجماً في القنصلية الأمريكيّة في بيروت. ومن أهمّ مؤلّفاته قاموس "محيط المحيط" الذي أصدر عام 1869، ثمّ لخصّه لطلاب المدارس بقاموس آخر أسماه "قطر المحيط". وفي عام 1970 أقام مجلة

التعريفات، محاولاً- فيما نعتقده- أن يؤسس لهذا المصطلح، لا سيما أن أهمية هذا المصدر تكمن في كونه أحد أهم المعاجم العربية الحديثة، وفي كون البستاني نفسه علماً من أعلام النهضة العربية في القرن التاسع عشر للميلاد¹. وإن المتأمل في عرض البستاني لمادة (س، و، ق) يلاحظ المساحة الواسعة التي يُفردُها، فيقول، مثلاً: "ساق الماشية يسوقها سوقاً وسياقة ومساقاً حتها على السير من خلف ضد قادها"². ولعلي في هذا الصدد أن أنوّه إلى تعليق البستاني بقوله: "ضد قادها"، وكأنه يريد أن يؤكد أن "السياق" - لغةً - يعني دفع الشيء وسوقه إلى الإمام وهو من خلفه، وكأنه يرى الأشياء أمامه ويسيطر عليها برؤية رحيّة، وليس المقصود- كما يُشير البستاني- أن يقود "الماشية" ساحباً إيّاها ولا يرى ما يجري وراءه³. من هنا، يؤسّعنا أن نخلص إلى توظيف دلاليّ في الفرق بين الفعلين "ساق" و"قاد"، وهذا- حقيقةً- ما وجدناه عند الكفويّ بقوله: "القود، بالسكون: هو نقيض السوق، وهو⁴ من أَمَام، وذلك⁵ من خلف"⁶.

ثمّ يتابع البستانيّ مباشرةً في تعريف السياق بقوله: "وهو يسوق الحديث أحسن سياق أي يسرده أحسن سرّد... وسياق الكلام أسلوبه الذي يجري عليه. ووقع هذه العبارة في سياق الكلام أي مُدرّجّة به. والسياق عند الفصّاص الحصّة من الحديث..."⁷، وكأنه أراد أن يربط بين المعنى اللغويّ المجرد المتعارف عليه عند اللغويين القدماء وبين المفهوم التداوليّ (البراغماتيّ) إن جاز لي أن أفهم ذلك بهذه الطريقة.

ب عنوان "الجنان" التي حوّث في داخلها موضوعات أدبيّة ولغويّة وتاريخيّة وسياسيّة. ولم يكتف بهذه القواميس، ففي عام 1875 بدأ بإعداد "دائرة المعارف" الذي أراد من خلاله أن تكون موسوعة علميّة شاملة، فألف ستّة مجلدات، ولم يسعفه عمره في إتمام "الدائرة"، فتوفّي عام 1883، ثمّ أتمّ ابنه سليم البستانيّ المجلد السّابع والثّامن، وأكمل أبنائهُ الآخرون بمساعدة ابن عمّهم سليمان البستانيّ المجلد الثّاسع. انظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب العرب والعربيّة (بيروت: دار الفكر، 1996)، 4: 12؛ جرجي زيدان، بناء النهضة العربيّة (القاهرة: دار الهلال، 1958)، 180-182؛ جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشّرف في القرن الثّاسع عشر (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1970)، 35-38؛ جورج انطونيوس، يقظة العرب (بيروت: دار العلم للملايين، 1991)، 112-115؛ مارون عبّود، أدب العرب (بيروت: دار مارون عبّود، 1968)، 445؛ أحمد حسن الرّحيم، موسوعة بيت الحكمة لأعلام العرب في القرن الثّاسع عشر والعشرين (بغداد: بيت الحكمة، 2000)، 93-94، 86-87، John W. Jandora, "Al-Bustānī's Dā'irat al-Ma'ārif", *The Muslim World* (1986), 86-94.

¹ بسام بركة، "محيط المحيط للمعلّم بطرس البستانيّ وانطلاقة المعجميّة في العالم العربيّ" الحياة (2009).

² بطرس البستانيّ، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربيّة (بيروت: مكتبة لبنان، 1987)، 441.

³ نستطيع أن نوظّف هذا التعريف اللّغويّ لإيجاد العلاقة المترابطة بين المعنى المشار إليه أعلاه وبين السياق الاصطلاحيّ- كما سنعرّض إليه لاحقاً- وذلك أن كلمة "السياق" لا بدّ أن تحتلّ سائلاً ما يسوق الكلام بتركيب معيّن؛ من أجل أن يصلّ إلى هدفه المرجوّ؛ بالضبط مثل ذلك الرّاعي الذي يسوق "الماشية" كي يوصلها على غايته التي يسعى إليها.

⁴ أي القود.

⁵ أي السّوق.

⁶ أبو البقاء أيّوب بن موسى الحسينيّ الكفويّ، الكلّيّات- معجم في المصطلحات والفرق اللّغويّة (بيروت: مؤسسة الرّسالة للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1998)، 734.

⁷ بطرس البستانيّ، محيط المحيط، 441.

ومن اللَّافِتِ ما عَرَضَ لَهُ إميل يعقوب في تعريفه للسياق إذ إِنَّهُ لَمْ يُعَرِّفِ السِّياقَ تَحْتَ عنوانِ مادّةِ "السِّياقِ" نَفْسِهَا، بَلْ أَحَالَ ذلكَ إلى مادّةِ "الإطار"¹، وَجَدَهُ يُعَنُونُ مادّةَ "الإطار" - وفقاً للتَّرتيبِ الألفبائيِّ - بِـ "الإطار" ثُمَّ يُنْبِئُهَا بِكلمةِ "السِّياقِ" بَيْنَ قوسَيْنِ على النَّحوِ التَّالي: "الإطار (السِّياق)"². ثُمَّ يَقُولُ في التَّعريفِ: "الإطارُ، في اللُّغة، هو كُلُّ ما يُحِيطُ شَيْئاً. وهو، في قَرِّ القِصَّةِ، الحُطُّ النَّاطِمُ لوقائِعِها وأحداثِها، بِحَيْثُ يُولَّفُ منها حبكةٌ لها بَداءَةٌ وتَنامٍ وتَطَوُّرٌ. مِنَ الباحِثِينَ مَنْ يُسَمِّيهِ "السِّياقاً"³.

وَلَعَلَّنَا نَفِيدُ مِمَّا ذَكَرَهُ إميل يعقوب بِأَنَّ السِّياقَ لُغةٌ - وبالتَّالي اصطلاحاً - يعني ذلكَ الإطارَ أو المَجالَ الَّذي يَنْتَظِمُ فيه شَيْءٌ ما على نَسَقٍ واحدٍ ومتناغمٍ، إذ يَجْمَعُ بَيْنَ هذه الأشياءِ رابطاً مَعِيَّناً يَنْساقُ وَيَجْري⁴ تحتَ صِفَةٍ مُشترَكَةٍ لها.

3. 1. المكوّنات الجذريّة⁵ لـ (س، و، ق) في النّصّ القرآنيّ:

كَانَ للمادّةِ اللُّغويّةِ (س، و، ق) حَظٌّ وافِرٌ على صَعِيدِ تداوُّرِها وتداوُّلِها في القرآنِ، إذ وَرَدَتْ في مواضعٍ كثيرةٍ بدلالاتٍ متعدّدةٍ⁶. وَلِئُبَيِّنَ علاقتها الدَّلاليّةَ بالمفهومِ اللُّغويِّ والاصطلاحيّ لـ "السِّياقِ"، أُشيرُ إلى بَعْضِ التَّماذِجِ الَّتِي وَرَدَتْ في النّصِّ القرآنيّ. وَلَعَلِّي أَنُوّهَ هنا مُؤَكِّداً إلى أَنِّي لَسْتُ في صَدَدِ تفسِيرِ الآياتِ الَّتِي وَرَدَ فيها المادّةُ اللُّغويّةُ (س، و، ق) بَعْدَرٍ ما أُرِيدُ أَنْ أُجَلِّيَ مَعانيها الدَّلاليّةَ؛ للهِدَفِ الَّذي أَشَرْتُ إِلَيْهِ آنِفاً.

فَمِنْ بَيْنِ هذهِ المواضعِ قَوْلُهُ تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ...}⁷، فـ"يُسَاقُونَ" هنا - كما يذكُرُ السَّميُّ الحليّ [756-...، 1355م] - "مِنْ سُقْتُ الإِبِلِ، أَيَّ رَجَرُهَا؛

¹ إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في مصطلحات اللُّغة والأدب (طرابلس لبنان: جُروس برس ناشرون، 2012)، 443.

² إميل يعقوب، المعجم المفصل في مصطلحات اللُّغة والأدب، 107.

³ يعقوب، المعجم المفصل، 107.

⁴ رضا، معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة، 904.

⁵ يُفَصِّلُ بـ "المكوّنات الجذريّة" هي المادّة الأساسيّة للفعْل "ساق يسوق..."؛ حيثُ يَتَكَوَّنُ الفَعْلُ "ساق" مِنْ الجذرِ الثَّلَاثيِّ (س، و، ق)، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الصَّبَغَ الصَّرْفِيّةَ المُختلِفةَ تَنوِي في تَنابُها مَعاني كثيرة. وَيجدُرُ أَنْ أُشيرَ هنا إلى أَنَّ الهَدَفَ مِنْ ذلكَ هو أَنَّ نُجَلِّيَ مَظاهِرَ الدَّلالاتِ المُتَرافِقةَ لهذهِ المادّةِ اللُّغويّةِ؛ لِكَي نُمَهِّدَ الطَّرِيقَ لِلتَّعريفِ الاصطلاحيّ فيما سيأتي مَعنا لاحقاً.

⁶ وَرَدَتْ مادّةُ "س، و، ق" سبعَ عَشْرَةَ مَرَّةً. وَقَدْ اعتمدْتُ في هذا العددِ على كتابِ "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم". انظر: محمّد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة: دار الحديث، 1996)، 457.

⁷ القرآن الكريم، الأنفال: 6.

لِشَرْعٍ. وَسُقْتُ الْمَهْرَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُصَدِّقُونَ الْإِبِلَ فَيَسُوقُونَهَا لِلزَّوْجَاتِ. فَغَلَبَ فِي كُلِّ مَا يُمَهَّرُ وَيُعْطَى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِبِلِ. وَالسُّوقُ مِنَ السَّاقِ لِأَنَّهَا يُسْعَى¹.

ولعلنا في هذا المقام نَسْتَشْفُ مِنْ قولِ السَّمينِ الحلبيِّ العلاقة الوثيقة بَيْنَ كلمة "السُّوق" (Market) وبَيْنَ ساقِ الإنسانِ، وكأنَّ "السُّوقَ"² سُمِّيَ بهذه التسمية؛ لِأَنَّ النَّاسَ تَسْعَى إِلَيْهِ بِسِقَانِهَا، فَ"السُّوقُ" و"السَّاقُ" يَحْمِلَانِ وَشِجَةَ السَّبَبِ وَالتَّيْجَةَ تَوَافُقًا لَفْظِيًّا؛ بِمَعْنَى أَنَّ أَدَاةَ التَّنْقِيلِ وَالْحَرَكَةِ، وَهِيَ السَّاقُ، أَفْضَتْ عَلَى "السُّوقِ" هذه التسمية، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يُنْشَدُ الْوَصُولُ إِلَيْهِ، وَهُوَ - أَيُّ السُّوقِ - مَا يُجْلَبُ إِلَيْهِ الْمَتَاعُ؛ لِأَنَّهُ - كَمَا يُوَكِّدُ السَّمينُ الحلبيُّ - تُسَاقُ إِلَيْهَا الْبَضَاعَةُ³.

وَمِنْ بَيْنِ هذه المواضعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْفَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾⁴، فَقَدْ ذَكَرَ الْأَلُوسِيُّ [1217-1270هـ، 1803-1854م] أَنَّ الْفِعْلَ "سُقْنَاهُ" يَعْنِي الْإِرْسَالَ، أَيْ أَرْسَلْنَا السَّحَابَ إِلَى بَلَدٍ يَابِسٍ أَوْ أَرْضٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا، فَتَزَلَّ مِنَ السَّحَابِ الْمَطَرُ، فَأَصَابَ الْغَيْثَ - بِذَلِكَ - الْأَرْضَ، فَاحْضَرَّتْ⁵، فَنَبَتَ الشَّجَرُ وَالْكَلأُ⁶، وَدَبَّتِ الْحَيَاةُ فِيهَا⁷.

وَمَنْ يَتَأَمَّلِ الْأَفْعَالَ الثَّلَاثَةَ الْمُتَعَابِقَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: "أَرْسَلَ"، "تُثِيرُ"، "سُقْنَاهُ" يُلَاحِظُ عِنَصَ الْحَرَكَةِ وَالْإِنْتِقَالَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، وَكَأَنَّهَا تَسِيرُ فِي حَقْلِ دَلَالِيٍّ وَاحِدٍ، وَبِالتَّالِي، تَلْتَقِي فِي "الْأَدَاءِ الْوُظَيْفِيِّ لِلدَّلَالَةِ. مِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْفِعْلَ "سُقْنَاهُ" فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يُفْضِي إِلَى تَتَابُعِ سَيْرِ السُّحُبِ وَحَرَكَتِهَا الدَّائِمَةِ خِلَالَ اسْتِحْضَارِ الْمَشْهَدِ التَّصَوِيرِيِّ⁸ الْمَعْرُوضِ أَمَامَ الْمُتَلَقِّي عِبْرَ تَلْوِينِ الْخُطَابِ⁹ وَالْإِنْفَاتِ بَيْنَ أَزْمَنَةِ الْأَفْعَالِ: الْمَاضِي "أَرْسَلَ" وَ"سُقْنَاهُ"،

¹ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي، عمدة الحَقَاف في تفسير أَشْرَافِ الْأَلْفَاظِ (بيروت: عالم الكتب، 1993)، 2: 273.
² كلمة "السُّوق" تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ، فَيُقَالُ: "هَذَا سَوْقٌ ضَخْمٌ"، وَ"هَذِهِ سَوْقٌ ضَخْمَةٌ" يَقُولُ ابْنُ عَبَّادٍ: "...وَالسُّوقُ: مَعْرُوفَةٌ؛ وَسُمِّيَتْ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُسَاقُ إِلَيْهَا وَمِنْهَا، وَتُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ". وَأَضَافَ الْفَيَّومِيُّ إِلَى أَنَّ "السُّوقَ" الَّتِي يُبَاغُ فِيهَا مَوْثَنَةٌ، وَهُوَ أَفْصَحُ وَأَصَحُّ. انْظُرْ: الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ، الْمَحِيطُ فِي اللُّغَةِ، 5: 474؛ الْفَيَّومِيُّ، الْمَصْبِيحُ الْمُنِيرُ، 189.

³ السَّمين الحلبي، عمدة الحَقَاف في تفسير أَشْرَافِ الْأَلْفَاظِ، 2: 273.

⁴ القرآن الكريم، فاطر: 9.

⁵ أبو محمَّد عبد الحَقِّ بْنُ غَالِبِ بْنِ عَطِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيِّ، الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ([د.م.]: [د.ن.]: [د.ت.])، 12: 220.

⁶ أَبُو النَّثَاءِ شَهَابُ الدِّينِ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ الْأَلُوسِيُّ الْبَغْدَادِيُّ، رُوحُ الْمَعَانِي فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالسَّبْعِ الْمُثَانِي (القاهرة: المكتبة التوقيفية، [د.ت.])، 11: 724.

⁷ أحمد بن محمَّد الصَّائِي، حَاشِيَةُ الصَّائِي عَلَى تَفْسِيرِ الْجَلَالِينَ (القاهرة: شركة القدس للتصدير، 2006)، 3: 512.

⁸ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الرَّمْخُسَرِيِّ، الْكَشَافُ (القاهرة: مكتبة مصر، [د.ت.])، 3: 624؛ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ الشُّوكَانِيِّ، فَتْحُ الْقَدِيرِ الْجَامِعِ بَيْنَ فَنِّي الرَّوَايَةِ وَالذَّرَايَةِ مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ (صيدا- بيروت: المكتبة العصرية، 1997)، 4: 421.

⁹ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدِ الْأَنْصَارِيِّ الْقُرْطَبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ (القاهرة: دار الحديث، 2002)، 7: 606-607.

والمضارع "ثَبِيرٌ"، وعَبَّرَ الالتفات¹ - كما يذكر أبو حيان الأندلسي [654-745هـ، 1256-1344م] يَبْنِي

طبيعة الكلام مِنْ غائب: "أَرْسَلَ" و"ثَبِيرٌ": إلى متكلمٍ "سُقْنَا" و"أَحْيَيْنَا"، في هذه الآية².

إِذَنْ، يَبْدَى لَنَا خِلَالَ هذا العرض - وَلَمْ يَنْعَمْ النَّظَرُ في مواضعٍ إِضَافِيَّةٍ - أَنَّ المَادَّةَ اللُّغَوِيَّةَ "س"، و،
ق "وَصَرَفَاتَهَا تَدُلُّ في مُجْمَلِهَا العامِّ على مَعَانٍ مُتَقَارِبَةٍ، أَهْمُهَا التَّنَائُعُ، والحركة نَحْوَ تَجَاهِ ما، والسَّيَرِ، والاتِّجَاهِ،
والتَّسْلُسُ... وَعَبَّرَهَا مِنْ المعاني والدَّلالاتِ الَّتِي تتعاقبُ - فيما رأيي - مَعَ المعنى اللُّغَوِيِّ للسياق، وكذلك، في
توظيفِ هذه المعاني - إبستمولوجيًا وإجرائيًا - مَعَ المعنى الاصطلاحي.

4. 1. "مَقْلُوبُ المَادَّةِ" - مفرداتُ ذاتِ صِلَةٍ؛ وتداعياتُ المصطلح:

تَرْتَبِي هذه الوجهة الرِّبْطُ بَيْنَ العلاقةِ الصَّوْتِيَّةِ للمَادَّةِ الصَّرْفِيَّةِ الْمُكْمَلَةِ للسياق، وبالتالي رِبْطُهَا بالمستوى الدَّلالي،
حَيْثُ نستطيعُ أَنْ نَلْحَظَ هذا التَّقَارُبَ في المعنى والمجالِ الدَّلاليِّ كما وَضَّحَ ذلكَ ابنُ جَنِّي [322-392هـ،
934-1002م] وَعَبَّرَهُ مِنْ النُّحَاةِ وعلماءِ اللُّغَةِ³.

¹ أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير (بيروت: دار الفكر، 1992)، 9: 16-17.
² محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتلوين (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، [د.ت.])، 22: 268.
³ عَرَضَ ابنُ جَنِّي في كتابه "الخصائص" مسألة تعريف الكلمة، ومقلوبها، وبالتالي؛ للتدليل على المعاني المستوحاة جِراء هذه العملية،
فعندما راح يُعَرِّفُ معنى "القول" في فصل "هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول" عَرَضَ مَقْلُوبَ مَادَّةِ "قول" (ق، و، ل) فقال:
"وَلَقَدْ قَرَّبْتُ أَمَامَ القولِ على فَرْقٍ بَيْنَهُمَا، طَرَفًا مِنْ ذِكْرِ أحوالِ تَصَارُفِهِمَا، وَاشْتِقَاقِهِمَا، مَعَ تَقْلِبِ حُرُوفِهِمَا، فَإِنَّ هَذَا مَوْضِعَ يَتَجَاوَزُ قَدْرَ
الاشتقاق، وَيَعْلُوهُ إِلَى مَا فَوْقَهُ، وَسَنَرَاهُ فَتَجِدُهُ طَرَفًا غَرِيبًا، وَمَسَلَكًا مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ الشَّرِيفَةِ عَجِيبًا. فاقُولُ: إِنَّ معنى "ق" و"ل" أَيْنَ وَجِبت
وكيف وَقِعت، مِنْ تَقْدِمِ بَعْضِ حُرُوفِهَا على بَعْضٍ، وَتَأَخُّرِ عَنْهُ، إِنَّمَا هُوَ لِلحُفُوفِ والحركة. وَجِهَاتُ تَرَاكُيبِهَا السَّنْتُ مُسْتَعْمَلَةٌ كُلُّهَا، وَلَمْ
يُهْمَلْ شَيْءٌ مِنْهَا، وَهِيَ: (ق و ل)، (ق ل و)، (و ق ل)، (و ل ق)، (ل ق و)، (ل و ق)... ثُمَّ يَتَابِعُ ابنُ جَنِّي حَدِيثَهُ حَوْلَ الرِّبْطِ بَيْنَ هَذِهِ
التَّقْلِيبَاتِ فَيُؤَكِّدُ: "...وَعَلَى أَنَّكَ إِنْ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ وَلَاطَفْتَهُ، وَتَرَكْتَ الصَّجَرَ وَتَحَامَيْتَهُ، لَمْ تَكُنْ تَعْدَمُ قُرْبَ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ ذَلِكَ
وَجَدْتَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ...". وَهَذِهِ النُّظَرِيَّةُ، الَّتِي اهْتَمَّ وَغْنِي بِهَا ابنُ جَنِّي، تُسَمَّى في علمِ الصَّرْفِ الاشتقاق الأكبر. بَلْ إِنَّ ابنَ جَنِّي هُوَ الَّذِي
"ابْتَدَعَهَا" - عَلَى حَدِّ قولِ السَّبَّوْطِيِّ - وَكَانَ شَيْخُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ يَأْنِسُ بِهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَيْسَتْ "مُعْتَمَدَةً فِي اللُّغَةِ" عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ
النُّحَاةِ الْقَدَمَاءِ. وَمَعَ هَذَا، يُذَكِّرُ السَّبَّوْطِيُّ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْقَدَمَاءِ أَفْرَدَ الْاِشْتِقَاقَ بِالتَّأْلِيفِ، مِنْهُمْ: الْأَصْمَعِيُّ، وَقُطْرُبٌ، وَأَبُو الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ،
وَأَبُو النَّصْرِ الْبَاهَلِيُّ، وَالْمُفَضَّلُ بْنُ سَلَمَةَ، وَالْمُبَرِّدُ، وَابْنُ دَرِيدٍ، وَالزَّجَّاجُ، وَابْنُ السَّرَّاجِ، وَالرُّمَّانِيُّ، وَالنَّحَّاسُ، وَابْنُ خَالَوَيْهِ. وَأَمَّا الْاِشْتِقَاقُ
الْأَكْبَرُ (أَوْ الْاِشْتِقَاقُ الْكَبِيرُ كَتَسْمِيَةٍ ثَانِيَةٍ) اصْطِلَاحًا فَهُوَ: انْتِزَاعُ كَلِمَةٍ مِنْ أُخْرَى بِتَغْيِيرٍ فِي تَرْتِيبِ بَعْضِ أَحْرَفِهَا مَعَ تَشَابُهِ بَيْنَهُمَا فِي
الْمَعْنَى وَالتَّقَارُبِ فِي الْأَحْرَفِ. وَيَقَابِلُ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْاِشْتِقَاقِ مَا يُدْعَى بِـ"الْقَلْبِ اللُّغَوِيِّ" تَمْيِيزًا لَهُ عَنِ الْقَلْبِ الصَّرْفِيِّ الْقَائِمِ عَلَى إِبْدَالِ
حُرُوفِ الْعَلَةِ فِي بَابِ الْإِعْلَالِ وَالْإِبْدَالِ. وَمِنْ الْجَدِيدِ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ فِكْرَةَ فَكِّ الْكَلِمَةِ إِلَى حُرُوفِهَا الْأَصْلِيَّةِ، ثُمَّ تَقْلِيبِ مَوَاقِعِ هَذِهِ
الْحُرُوفِ هِيَ فِكْرَةٌ تَسْبِقُ ابنَ جَنِّي، وَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ وَابْنِ دُرَيْدٍ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَغْرِضَا لِفِكْرَةِ وجودِ رَابِطٍ مَعْنَوِيٍّ يَنْتَظِمُ بِتَقَالِيبِ
الْفُظِّ الْوَاحِدِ كَمَا فَعَلَ ابنُ جَنِّي نَفْسُهُ هَذَا ضَمِنَ الْأَصُولِ الثَّلَاثِيَّةِ، وَمِنْ ثُمَّ تَعَدَّ عَلَيْهِ تَقَالِيبُهُ السَّنَةُ مَعْنًى وَاحِدًا. بَلْ نَرَى أَنَّ مِنَ النُّحَاةِ مَنْ
زَادَ عَلَى ابنِ جَنِّي فِي تَقْلِيبَاتِ الْأَصُولِ الثَّلَاثِيَّةِ كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ السَّرَّاجِ فِي "رسالة الاشتقاق" الَّذِي بَنَوْرُهُ أَكَّدَ أَهْمِيَّةَ علمِ الْاِشْتِقَاقِ
لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ الْعَظِيمَةِ؛ لِأَنَّهُ - كَمَا يَقُولُ: "مِنْ تَعَاطَى عِلْمُهُ (يَقْصِدُ علمَ الْاِشْتِقَاقِ) سَهَّلَ عَلَيْهِ حِفْظَ كَثِيرٍ مِنَ اللُّغَةِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْكَلَامِ
بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ... وَمِنْ الْمَنْفَعَةِ أَيْضًا بِهِ أَنَّهُ رُبَّمَا سَمِعَ الْعَالَمَ الْكَلِمَةَ لَا يَعْرِفُهَا مِنْ أَجْلِ بَنَائِهَا وَصِبْغَتِهَا، وَيَعْرِفُ مَا يَسَاوِي حُرُوفَهَا،
فَيَطْلُبُ لَهَا مَخْرَجًا مِنْهُ، فَكثيرًا مَا يَظْفَرُ...". وَلَعَلَّ مَا ذَكَرَهُ الْكَافِيحِيُّ (انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ تَحْتَ "مصطلح السياق عند المفسرين) مَلَمَحَ آخَرُ
خَوْلَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، فَبَعْدَ أَنْ عَرَّفَ معنى "التفسير" المأخوذَ مِنْ "ف، س، ر" استعانَ بِمَقْلُوبِ المَادَّةِ "س، ف، ر)؛ كَيْ يُدِلَّ عَلَى الْمَعْنَى

والَّذِي أَسْعَى إِلَيْهِ، دُونَ حَقَائِهِ، هُوَ أَنْ أُبَيِّنَ- كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ التَّحَاةِ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ- أَنَّ هُنَاكَ مُصْطَلِحَاتٍ تُسْتَحْدَمُ، لَهَا عِلَاقَةٌ بِالْجَذْرِ الْأَصْلِيِّ، وَتَسِيرُ فِي فِلْكِ الْمَعْنَى ذَاتِهِ، بَلْ قَدْ تَخْتَلِطُ الْمِصْطَلِحَاتُ فِيمَا بَيْنَهَا مِنْ تَقَارُيْبٍ وَتَمَازُجٍ يَجْمَعُهَا، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ فِي الدَّرْسِ اللَّسَانِيِّ الْحَدِيثِ بِالرَّابِطَةِ الْعَقْلِيَّةِ بَيْنَ الْأَصْوَاتِ وَالْمَدْلُولَاتِ أَوْ كَمَا يُسَمَّى الْإِيْحَاءُ الصَّوْتِي¹ Sound Symbolism. وَكُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ إِسْقَاطًا لـ"نَظَرِيَّةِ" الْاِشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ² (Derivation Theory)- الَّتِي أَسَّسَ لَهَا مِنْ قَدِيمِ ابْنِ جَنِّي- بِكُلِّ تَقْلُبَاتِهَا وَصُورِهَا، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ أُسْهَبَ فِي تَقْلُبَاتِ الْمَادَّةِ اللَّغَوِيَّةِ وَمَا يُجَانِبُهَا، بَلْ قَدْ أَسْلَطْتُ الصُّوَّةَ عَلَى مَسَائِلَ هِيَ غَايَةُ فِي الدَّقَّةِ وَالْأَهْمِيَّةِ.

1. 4. 1. الاتِّسَاقُ (و، س، ق):

يُعرِّفُ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ [100-170هـ، 718-786م] وَابْنَ سِيدِهِ وَعَبْرُهُمُ الْ"وَسَقُ" عَلَى أَنَّهُ: "ضَمُّكَ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ. وَالْاِتِّسَاقُ الْاِنْضِمَامُ وَالْاِسْتَوَاءُ كَاتِّسَاقِ الْقَمَرِ إِذَا تَمَّ وَامْتَلَأَ فَاسْتَوَى"³ وَتَقُولُ الْعَرَبُ: "وَاسْتَوَسَقَتِ الْإِبِلُ: اجْتَمَعَتْ وَانْضَمَّتْ، وَالرَّاعِي يَسْقِيهَا أَيْ يَجْمَعُهَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَاللَّيْلُ إِذَا وَسَقَ} أَيْ جَمَعَ"⁴. وَنَقَلَ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي [288-356هـ، 901-967م] بِأَنَّ مَعْنَى "وَسُقُ اللَّيْلِ" هُوَ مَا دَخَلَ فِيهِ وَضَمٌّ مِنْ شَيْءٍ. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: لَا أَفْعُلُ ذَلِكَ وَسَقْتُ عَيْنِي الْمَاءَ أَيْ مَا حَمَلْتُ عَيْنِي الْمَاءَ... وَالْاِتِّسَاقُ الْاِنْضِمَامُ وَالْاِسْتَوَاءُ"⁶.

المرجوع، ويُقرَّنَ بَيْنَ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ الْخَاصَّةِ بِمَقْلُوبِ الْجُذُورِ اللَّغَوِيَّةِ، فَيَقُولُ: "الْتَفْسِيرُ: مَأْخُذٌ مِنَ الْفَسْرِ، وَهُوَ الْكَشْفُ وَالْإِظْهَارُ، وَيُقَرَّبُ مِنْهُ الْفَسْرُ كَقَرَبٍ لِفُظِهِ، وَلِهَذَا قَالَ الْبَعْضُ: هُوَ مَقْلُوبُ الْفَسْرِ، يُقَالُ: أَسْفَرَ الصُّبْحُ إِذَا أَضَاءَ إِضَاءَةً لَا شَبِيهَةَ فِيهِ، وَسَفَرَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ وَجْهِهَا إِذَا كَشَفَتْ نَقَابَهَا، وَلِهَذَا سَمِيَ السَّيْرُ سَفْرًا؛ لِأَنَّهُ يُظْهَرُ عَنْ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ...". انظر: ابن جَنِّي، الْخَصَالِصُ (القاهرة: المكتبة الوقفية، [د.ت.])، 1: 19-26؛ محبي الدِّين مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ الْكَافِي، التَّيْسِيرُ فِي قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ (القاهرة: مكتبة القدسي للنشر والتوزيع، 1998)، 21؛ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلٍ بْنُ السَّرِيِّ بْنِ السَّرَاجِ، رِسَالَةُ الْاِشْتِقَاقِ ([د.م.]: [د.ن.])، [د.ت.])، 30؛ 42؛ فَوَادِ حَنَّاءُ طَرْزِي، الْاِشْتِقَاقُ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2005)، 27؛ 263-264؛ 270؛ جلال الدِّين السِّيُوطِيُّ، الْمَزْهَرُ فِي عُلُومِ اللَّغَةِ وَأَنْوَاعِهَا (القاهرة: دار الكتب العلميَّة، 1998)، 1: 274-281.

¹ إبراهيم أنيس، من أسرار العربية (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 1978)، 75.

² فَوَادِ طَرْزِي، الْاِشْتِقَاقُ، 28.

³ الخليل بن أحمد، العين، 5: 191.

⁴ القرآن الكريم، الانشقاق: 17.

⁵ الخليل بن أحمد، العين، 5: 191؛ الأزهرى، تهذيب اللغة، 9: 185؛ ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، 6: 529-528؛ الزَّيْدِيُّ، تاج العروس، 13: 481.

⁶ أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، البارِعُ فِي اللَّغَةِ (بيروت: دار الحضارة العربيَّة، 1975)، 493.

وقد أشار ابن فارس إلى أن " الواو والسين والقاف كلمة تدل على حمل الشيء... قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا سَقَى} ¹ أي جمع وحمل ². ومن معاني "الحمل" سوق الشيء، والانتقال من مكان إلى آخر، وعليه قال صاحب بن عبّاد: "...استوسقت الإبل: اجتمعت، والراعي يسقها... والوسقة من الإبل: كالرفقة من الناس... والوسيق: السوق. والمطر أيضا؛ لأن السحاب يسقه أي يحمّله..." ³.

ونلاحظ - كذلك - ابن فارس نفسه في موضع آخر يحدد الإطار الدلالي لمصطلح "النسق" - في سعي منّا لإبراز معنى التصاقب الدلالي بين "وسق" و "نسق" - فيقول ابن فارس في ذلك: النون والسين والقاف (ن، س، ق) أصل صحيح يدل على تتابع في الشيء. وكلام نسق: جاء على نظام واحد، قد عطف بعضه على بعض ⁴، وأصله قولهم: نعر نسق، إذا كانت الأسنان متناسقة متساوية؛ وحرر نسق... ⁵.

وفي هذا المعنى وما سبقه من معانٍ لدليل على تقارب وتقارن بين "الوسق" و "السوق"، فكلاهما يشيران إلى اجتماع الشيء في قالب واحد منتظم. وهذا ما عبّر هذا صراحة ابن منظور خلال تعريفاته المستفيضة للجذر (و، س، ق) حيث يقول: "...وكل ما انضم فقد اتسق. والطريق يأتسق ويسق أي ينضم... ووسقت الشيء جمعه وحملته. والوسق: ضم الشيء إلى الشيء... ووسق الإبل فاستوسقت أي طردها فأطاعت؛ عن ابن الأعرابي، وأنشد:

إِنَّ لَنَا لِإِبِلًا نَقَانِقًا مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ بَجَدَنَ سَائِقًا

واستوسق لك الأمر إذا أمكنك. واتسقت الإبل واستوسقت: اجتمعت... ⁶.

¹ القرآن الكريم، الانشقاق: 17.

² ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 2: 631؛ ابن حجر العسقلاني، غرانس الأساس، 483؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 3: 326؛ الفيومي، المصباح المنير، 430.

³ الصاحب بن عبّاد، المحيط في اللغة، 5: 475-476؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 3: 326-327؛ مذكور، المعجم الوسيط، 1075.

⁴ يلمح ابن فارس إلى عطف النسق في نحو العربي؛ حيث سمي عطف نسق للتتابع المعطوف على المعطوف عليه، نحو: نجح زيدٌ وخالدٌ.

⁵ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 2: 556.

⁶ ابن منظور، لسان العرب، 9: 304-305؛ الزبيدي، تاج العروس، 13: 482-483.

وإذا أُنْعِمْنَا النَّظَرَ فيما قاله ابن منظور والأزهري والزبيدي - وعَيَّرُهُم مِنَ المعجميين - لَوَجَدْنَا ضَالَّتَنَا فِي رِبْطِ أَوَاسِرِ الْعَلَاقَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ "السِّيَاقِ" و"الِاتِّسَاقِ" عَلَى الْمُسْتَوَى اللَّغَوِيِّ¹، إِذْ يَقُولُ: "...وَالِاتِّسَاقُ: الْإِنْتِظَامُ². وَوَسَّقْتُ الْخِنْطَةَ تَوَسَّقًا أَيْ جَعَلْتُهَا وَسَقًا وَسَقًا... الْوَسِيقَةُ: الْقَطِيعُ مِنَ الْإِبِلِ يَطْرُدُهَا الشَّلَالُ، وَسُمِّيَتْ وَسِيقَةً؛ لِأَنَّ طَارِدَهَا يَجْمَعُهَا، وَلَا يَدْعُهَا تَنْتَشِرُ عَلَيْهِ؛ فَيَلْحَقُهَا الطَّلَبُ فَيَرُدُّهَا، وَهَذَا كَمَا قِيلَ لِلْسَّائِقِ قَابِضٌ؛ لِأَنَّ السَّائِقَ إِذَا سَاقَ قَطِيعًا مِنَ الْإِبِلِ قَبَضَهَا أَيْ جَمَعَهَا؛ لِأَنَّهَا لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ سَوْفُهَا، وَلِأَنَّهَا إِذَا انْتَشَرَتْ عَلَيْهِ لَمْ تَنْتَابِعْ وَلَمْ تَطْرُدْ عَلَى صَوْبٍ وَاحِدٍ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: فَلَانٌ يَسُوقُ الْوَسِيقَةَ..."³.

إِذَنْ، يَتَبَدَّى لَنَا هَذَا الرِّابِطُ الْقَوِيُّ، حَتَّى مِنْ خِلَالِ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي يَضْرِبُهَا أَصْحَابُ الْمَعْجَمَاتِ، وَاعْتَقَدُ أَنَّهُ لَيْسَ مُصَادِفَةً أَنْ نَجِدَ فِي تَعْرِيفَاتِهِمْ كِلَا الْكَلِمَتَيْنِ؛ وَكَأَنَّ إِحْدَاهُمَا تُكَمِّلُ الْأُخْرَى، فَضْلًا عَنْ تِلْكَ "الْإِشَارَاتِ الدَّلَالِيَّةِ" الْجَامِعَةِ بَيْنَهُمَا، نَحْوُ: الطَّرِيقِ⁴... الْجَمْعِ... الْإِنْتِظَامِ⁵... الْحَرَكَةِ... الْإِبِلِ وَالْمَاشِيَةِ... السَّحَابِ... وَعَيَّرَهَا مِنَ الْقَرَائِنِ الْجَامِعَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ - كَمَا رَأَيْنَا - دُونَ تَكْلُفٍ أَوْ ابْتِدَالٍ.

وَمِنْ حَيْثُ الْأَصْطِلَاحُ فَقَدْ كَانَ "الِاتِّسَاقُ" حَاضِرًا عِنْدَ الْقَدَمَاءِ، وَلَكِنْ - كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي "السِّيَاقِ" - بِمُسَمِّيَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ غَيْرِ مُطَرِّدَةٍ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ يَعُودُ - بِتَقْدِيرِنَا - إِلَى الشَّعْثِ الْمُبْثُوثِ لِلْمِصْطَلَحَاتِ الْخَاصَّةِ بِعِلْمٍ شَتَّى، وَلِتَدَاخُلِ الْعِلْمُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، بِخِلَافِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ الَّذِي بَاتَ يُصَيِّفُ الْمِصْطَلَحَاتِ وَفَقًّا لِفَتْاوَاهَا الْمِصْطَلَحِيَّةِ Categories للعلوم التابعة لها.

وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ [359-415هـ، 969-1025م] مُبَيِّنًا أَهَمِّيَّةَ رِبْطِ الْكَلَامِ وَصَمِّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ بِطَرِيقَةٍ مَخْصُوصَةٍ؛ كَيْ يَفِي بِمَطْلُوبِ الْفَصَاحَةِ مِنْ خِلَالِ ثَلَاثَةِ مُقَوِّمَاتٍ رِئِيسَةٍ⁶ وَهِيَ: الْإِنْضِمَامُ (الِاتِّحَامُ) حِينَ تَأْخُذُ الْكَلِمَاتُ مَكَانًا خَاصًّا فِي التَّرْكِيبِ وَالْأُسْلُوبِ، وَصِفَةُ الْكَلِمَةِ وَطَبِيعَتُهَا مِنْ

¹ سَنَفَصِّلُ الْحَدِيثَ حَوْلَ الْعَلَاقَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَهُمَا عَلَى الْمُسْتَوَى الْأَصْطِلَاحِيِّ الْعَمَلِيِّ لَاحِقًا.

² الرَّازِي، مَخْتَارُ الصَّحَاحِ، 324.

³ ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، 9: 304-305؛ الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، 9: 186-187؛ الزَّبِيدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ، 13: 482؛ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي، الْبَارِعُ فِي اللَّغَةِ، 492-493.

⁴ الزَّبِيدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ، 13: 483.

⁵ مَذْكَورٌ، الْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ، 1075.

⁶ عَبْدُ الْفَتَّاحِ لَاشِينَ، بَلَاغَةُ الْقُرْآنِ فِي آثَارِ الْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ وَآثَرِهِ فِي الدِّرَاسَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ، [د. ت.])، 471.

حَيْثُ وَضَعَهَا الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنْفُسَهُمْ، والإعرابُ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى حَرَكَاتِ الْوَاحِدِ وَيُكْشَفُ- بهذا- عَنِ الْمَعْنَى التَّحْوِيٍّ مِنْ خِلَالِ مَوْجِعِ الْكَلِمَاتِ فِي الْجُمْلَةِ، فيقولُ في هذا الشَّانِ: "وَأَعْلَمُ أَنَّ الْفَصَاحَةَ لَا تَظْهَرُ فِي إِفْرَادِ الْكَلَامِ، وَإِنَّمَا تَظْهَرُ فِي الْكَلَامِ بِالضَّمِّ عَلَى طَرِيقَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَلَا بُدَّ مَعَ الضَّمِّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ كَلِمَةٍ صِفَةً¹، وَقَدْ يَجُوزُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ أَنْ تَكُونَ بِالْمَوَاضِعِ² الَّتِي تَتَنَاوَلُ الضَّمُّ، وَقَدْ تَكُونُ بِالْإِعْرَابِ الَّذِي لَهُ مَدْخَلٌ فِيهِ³، وَقَدْ تَكُونُ بِالْمَوْجِعِ. وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَقْسَامِ رَابِعٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَنْ تُعْتَبَرَ فِيهِ الْكَلِمَةُ أَوْ حَرَكَاتُهَا أَوْ مَوْجِعُهَا، وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِعْتِبَارِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، ثُمَّ لَا بُدَّ مِنَ الْإِعْتِبَارِ مِثْلِهِ فِي الْكَلِمَاتِ إِذَا انْضَمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَوْجَدُ لَهَا عِنْدَ الْإِنْضِمَامِ صِفَةٌ، وَكَذَلِكَ لِكَيْفِيَّةِ إِعْرَابِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَمَوْجِعِهَا؛ فَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، إِنَّمَا تَظْهَرُ مَرِيَّةُ الْفَصَاحَةِ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ، دُونَ مَا عَدَاهَا⁴."

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا لَوَجَدْنَا أَنَّ نَظَرِيَّةَ "النَّظْمِ"⁵ عِنْدَ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ تَتَوَازَى مَعَ مَفْهُومِ "الِاتِّسَاقِ" وَ"الرِّبْطِ" وَ"الِاتِّحَامِ" وَ"السَّبْكِ" لَدَى عُلَمَاءِ اللُّغَةِ الْمُحَدِّثِينَ⁶، فَقَدْ حَاولَ أَنْ يَسْتَجْلِي أَعْمَاقَ الظَّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ خِلَالَ بَيَانِ كَيْفِيَّةِ النَّظْمِ بِتَشْبِيهَاتٍ دَقِيقَةٍ عَدَدَتْ وَجُوهَ "النَّظْمِ" وَ"التَّرَاوُطِ"؛ بِدَايَةٍ مِنْ ثَنَائِيَّةِ "الِاخْتِيَارِ وَالتَّأْلِيفِ"- كَمَا يَقُولُ أَحْمَدُ دُرُوش-، وَهَذِهِ الثَّنَائِيَّةُ إِنَّمَا تُمَثِّلُ الْحَرَكَةَ الرَّئِيسِيَّةَ؛ لِتَعْدُدِ صُورَ النَّظْمِ؛ وَبِالتَّالِي، كَيْ يَتَحَقَّقَ هَذَا الْأَمْرُ فَإِنَّهُ لَا يَكْتَفِي بِالْإِدْرَاكِ الثَّاقِبِ لِلْمَعَانِي التَّحْوِيَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِدْرَاكِ كَيْفِيَّةِ اسْتِغْلَالِ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي بِنَاءِ الْعِبَارَةِ أَوْ فِي تَسْجِيعِهَا وَنَقْشِهَا وَصِيَاغَتِهَا وَفَقَّ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْجُرْجَانِيُّ⁷. ثُمَّ إِنَّ طَرِيقَةَ بِنَاءِ الْعِبَارَةِ وَاسْتِغْلَالِ الْمَعَانِي التَّحْوِيَّةِ بِهَا تَقُومُ عَلَى عِنَصَرَيْنِ، هُمَا: "الِاخْتِيَارُ وَالتَّأْلِيفُ"، أَمَّا "الِاخْتِيَارُ" فَيُرَادُ بِهِ اخْتِيَارُ الْكَلِمَةِ أَوْ الْأَدَاةِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْمَعْنَى النَّفْسِيَّةِ، فَعَلَى مَسْتَوَى الْكَلِمَةِ قَدْ بَجُدَّ فِي اللُّغَةِ كَلِمَاتٌ مُتَرَادِفَةٌ أَوْ مُتَقَارِبَةٌ الْمَعْنَى، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ دَقِيقٌ فِي

1 المقصود بـ"الصِّفَةِ" المعنى الَّذِي تَحْمِلُهُ وَتُوْنِيهِ مَفْرَدَةٌ كَانَتْ أَمْ مَرْكَبَةٌ مَعَ غَيْرِهَا.

2 المواضع هي ما تَوَاضَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي مَفْهُومٍ خَاصٍّ لِلْكَلِمَةِ.

3 أي الضَّمُّ.

4 القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسدي، المعنى في أبواب التوحيد والعدل (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1960)، 16: 199.

5 ساقط الحديث حول نظرية "النظم" لاحقاً حينما أعرض لمفهوم مصطلح السياق عند البلاغيين، وتحديداً عند "مؤسس" هذه النظرية عبد القاهر الجرجاني.

6 محمّد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني (الجيزة- مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، 1995)، 176-178.

7 أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين التراث والمعاصرة (القاهرة: دار غريب، 1998)، 104-106.

الإيجاء أو المدلول، ويتداخل عنصر "الاختيار" هنا في الوقوع على الكلمة المناسبة؛ لهذا فإن كلمة مناسبة في هذا السياق وذلك البناء قد لا تكون مناسبة في سياق آخر، وتكون الكلمة المفضولة في السياق السابق مُقدّمة عليها هنا¹. وأمّا "التأليف" فيؤادُ به وضع كل كلمة في مكانها المناسب من العبارة، وفقاً لمعناها التحويلي؛ فوضع الكلمة في مكان الابتداء غير وضعها في مكان الإخبار، وحيث الخبر نفسه في موضعه ورتبته مؤخرًا غير حيثه في غير موضعه مُقدّمًا، وهكذا دواليك. وفي كل حالة من الحالات يقف وراء "التأليف" معنى نفسي يكمن وراء اختيار الشكل التحويلي المناسب للعبارة².

إذن، على الرغم من أن العلماء القدماء لم يضعوا نظرية أو علمًا مستقلًا خاصًا بـ "علم اللغة النصي" ولم يصطلحوا عليه في مؤلفاتهم، إلا أنه بمقدورنا أن نستجلي ذلك من خلال أقوالهم في معرض حديثهم عن دور البلاغة والنحو والإعجاز القرآني.

وأما في اللسانيات الحديثة فإنّ "الاتساق" ³ Cohesion يُعدُّ من أحد المفاهيم الرئيسة في الدراسات اللغوية التي تندرج تحت مجال "لسانيات النص"، ويتمثّل - كما يراه الباحث محمد خطّابي - في ذلك التماسك

¹ أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين التراث والمعاصرة، 106.

² درويش، دراسة الأسلوب بين التراث والمعاصرة، 107.

³ هذه الترجمة من ضمن الترجمات التي تُرجمت من قبل محمد خطّابي خلال ترجمته لكتاب (Cohesion in English)، لمؤلفه هالدي ورفيقه حسن. وفي الحقيقة ثمة عدة تسميات للاتساق، فمنهم من يُطلق عليه السَّك، والانسجام، والرَّبط، والتماسك، والتضام.... وهناك بعض الباحثين يفرقون بين الاتساق Coherence وبين الانسجام Cohesion، إذ يقصدون بـ "الاتساق" تلك الطريقة التي تُعنى بخصائص الربط التحويلي بين الجمل والعبارات لتأليف بنية نصية متماسكة مترابطة، ويعتمد هذا الربط على الإحالة والتكرار بحروف العطف والفصل والوصل وغير ذلك، ويقصدون بـ "الانسجام" ذلك الترابط الموضوعي للنص، حيث يجعل من النص وحدة دلالية، علمًا أن بوجراند Beaugrande نفسه صاحب هذه النظرية. كان قد فرّق بين مصطلحي "الاتساق" Coherence وبين "الانسجام" Cohesion. انظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء (القاهرة: عالم الكتب، 1998)، 103-105؛ محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالاته التطبيقية (د.م.): الدار العربية للعلوم- ناشرون، 2008، 82؛ سعيد بحيري، علم اللغة النصي- المفاهيم والاتجاهات (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، 1997)، 141؛ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي- دراسة تطبيقية على السور المكّيّة، (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، 86؛ 36 M. A. K. Halliday and Ruqaiya Hasan, *Cohesion in English* (London: Longman Group Ltd, 1976), 4; 13; Ramzi Munir Baalbaki, *Dictionary of Linguistics Terms: English-Arabic* (Beirut: Dar el-LLm Lilmalayin, 1990), 502. T. Sanders and H. Pander Maat, *Cohesion and Coherence: Linguistics Approaches* (Netherlands: Utrecht Institute of Linguistics OTS- Utrecht University, 2006), 591-595; P Carrell, "Cohesion is Not Coherence", *TESOL Quarterly* 16 (1982), 479-488; Joanna Turnbull and Others, *Oxford Advanced Learner's Dictionary* (Oxford: University Press, 2012), 285; David Crystal, *A Dictionary of Linguistics and Phonetics*, 350, Glenn Fulcher, "Cohesion and Coherence in Theory and Reading Research", *Journal of Research in Reading* 12, 2 (1989), 146-163.

الشديد بَيْنَ الأجزاء المُشكَّلة لنص¹ Text أو خطابٍ ما Discourse، إذ يُعنى ويَهْتَمُ فيه بالوسائل اللغوية، على مستوى الشكل، التي تصلُ بَيْنَ العناصر المكوِّنة لجزءٍ من خطابٍ أو خطابٍ برُمَّته².

كما يُعدُّ روبرت دي بوجراند Robert De Beaugrande [1946-2008م] من أوائل اللسانيين الذين حدّدوا بدقّة متناهية - حسب رأي محمّد الأخضر الصبيحي - معايير النصّية³، إذ جاءت شاملة لكلّ تعريفات النصّ على اختلافها⁴. وأوّل هذه المعايير هو الاتّساق والانسجام؛ لكونهما المُشكِّل الأساسيّ للوحدات المتراصة بَيْنَ كلمات الجمل بنسقٍ ما وفقًا لمفهومٍ ما ومقصدٍ محدّد.

ويُبيّن تمام حستان مفهوم "السبّك" و"الالتحام" من خلال مقدّمته في ترجمته كتاب "النصّ والخطاب والإجراء" على أنّ "السبّك" هو معيارُ التّرابُط الرّصنيّ، و"الالتحام" هو معيارُ التّرابُط المفهوميّ، بل إنّ هذين المعيارين هما أقوى وأوثق هذه المعايير صلةً بالنصّ⁵. وهما في الحقيقة يتقابلان مع مفهوم السياق بشكله العامّ، ومع "السياق التّحويّ" بشكله الخاصّ. كما أنّه لا يمكن فهم أيّ من هذه المعايير إلّا مع أخذ أمورٍ أخرى بالحسبان وهي: اللغة والعقل والمجتمع والتداوُلّيات⁶ Pragmatics.

وتذهب منى بكر إلى أنّ "الاتّساق" من الخصائص الهامّة في تنظيم النصّ وحلّقه، فهو نوعٌ واحدٌ من الارتباط الذي يُسهّم في تمييز نصٍّ عن آخر، ف"الاتّساق" بهذا المفهوم عند منى بكر هو شبكةٌ من المفردات والعلاقات التّحويّة التي تربط بصورةً منطقيةً بين الكلمات والجمل والفقرات في النصّ، وبالتالي فهو - الاتّساق - يساعد القارئ في فهم المعاني بالإشارة إلى الكلمات الأخرى التي تتعلّق بالعناصر اللغوية المحيطة بها⁷.

¹ سأعرض لاحقاً لمفهوم النصّ لدى اللغويين العرب والغربيين معاً، خاصةً أنّنا نتحدّث عن "سياق" Con-text، وبالتالي دمج القديم بالحديث، والغربيّ بالعربيّ، كيميّة تلاقحيةً بَيْنَ العلوم والثقافات والمناهج. انظر على سبيل المثال: Victoria A. Fromkin, *Linguistics: An Introduction to Linguistics Theory* (Malden-Massachusetts: Blackwell Publishers Ltd, 2000), 474.

² محمّد خطّابي، لسانيات النصّ - مدخل إلى انسجام الخطاب (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991)، 5.

³ انظر في الفصل الثّاني لدى الحديث عن "نحو النصّ"، حيثُ توسّعت في المعايير النصّية التي أشار إليها بوجراند Beaugrande.

⁴ الصبيحي، مدخل إلى علم النصّ ومجالاته التطبيقية، 81.

⁵ تمام حستان، مقدّمة كتاب "النصّ والخطاب والإجراء" لروبرت دي بوجراند.

⁶ بوجراند، النصّ والخطاب والإجراء، 8.

⁷ Mona Baker, "In Other Words", *Routledge Encyclopedia of Translation Studies* (London: Routledge, 1992), 180.

إضافةً إلى هذا، يرى كلٌّ من هاليداي ورقية حسن أن الاتساق مردهُ إلى العلاقات الدلالية أو المعنوية بين أجزاء النص، وهذه العلاقات هي التي تُكوّن نسيجاً للنص ونصيبته، وتُعرفه عن غيره¹.

ولعلَّ الأمر اللافت فيما يخلص إليه الباحث شكري عياد إلى أن المقصود بـ"النسق" System هو ترتيب الكلمات في نظام مُعيّن للغة التي يُكتب بها النص، من غير النظر إلى ظروف القول، وليس شرطاً أن يكون مبنياً على أساس اللغة المعيارية بأن يكون نظاماً مميزاً، بل يكفي أن يكون -النسق- هذا النظام الذي اطرّد عليه النص².

ونقرأ - كذلك - تعريفاً لافيتا للباحث خليل أحمد خليل، إذ يُعرف "التساوق"، الذي ترجمه من كلمة Contexture، على أنه التوالف بين أجزاء الكل، نحو: تناسق القصيدة، وتساوق الكلام³. وفي اعتقادنا أن خليل أحمد خليل قد حوّر الترجمة، بشكلٍ موفقٍ، من "النسج" أو "النسيج" إلى "التساوق"؛ فاصداً أن ائتلاف الكلام في "نسق" مُعيّن يُعدّ تساوقاً من حيث كونه منظمّاً بنسيج متناغم ومتجانس Homogeneous.

في المقابل، يُعَلِّق محمد عبد المطلب - بشكلٍ مقصودٍ أو غير مقصودٍ على رأي شكري عياد - بأن اللغة يحكمها نظام، وهذا النظام يتعلق بالمفردات، ويُفَرِّزُ تجاوزها بحسب طبيعة اللغة، فيتجاوز الخبر مع المبتدأ، الفعل مع الفاعل والمفعول به، وبقية أجزاء الكلام؛ وعليه لا يكون النظام اللغوي اختياراً، بل يجب أن تطرّد فيه هذه الظواهر، ومع ذلك فالمبدع أو صاحب النص حينما يلجأ إلى تطبيق هذا النظام فهو لا يحافظ على هذا النسق، وإنما تحكّمه في تلك الحال سياقات الكلام؛ فيتخلّى عن الرتب المُطرّدة المعروفة إلى انتهاكات، أو تكرارات، أو منبهات أسلوبية - كما يُسمّيها عبد المطلب - تبدو في شكل دقات تعبيرية لها طبيعة مختلفة عن النظام المطرّد المؤلف، إذ يُقدّم ما أصله التأخير، ويُؤخّر ما أصله التقديم، ويُحذف، ويُظهر، ويُقدّر... إلخ.

¹ Halliday and Hasan, *Cohesion in English*, 293.

² شكري محمد عياد، اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1988)، 91.

³ خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات العربية (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1995)، 136-137.

⁴ محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 228.

2. 4. 1. القياس (ق، و، س) - (ق، ي، س):¹

ينطلق ابن فارس من أنَّ القاف والواو والسين (ق، و، س) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تقديرٍ شَيْءٍ شَيْءٍ، ثُمَّ يُصَرَّفُ فُتُقْلَبُ وَأُوهُ يَاءٌ، والمعنى في جميعه واحدٌ... وتُقْلَبُ الواو لبعضِ العِلَلِ ياءً فَيُقَالُ: بَيَّنِّي وَبَيَّنَّهُ قَيْسٌ رُفِحَ، أَيْ قَدَّرُهُ؛ وَمِنْهُ الْقِيَّاسُ، وهو تقديرُ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ². ثُمَّ يُعَلَّلُ معنى "القوس" على المعنى المذكور آنفاً، فيقول: "...فالقوس: الذِّراعُ، ومُثَبِّتٌ بذلك؛ لأنَّه يُقَدَّرُ بها المَدْرُوعُ، وبها سُمِّيَتْ القُوسُ الَّتِي يُرْمَى بِهَا"³.

ويذكر الفيروزآبادي أننا نقولُ في الاستعمال: "قاسه بغيره وعليه يقيسه قيساً وقياساً وافتاسه: قَدَّرَهُ على مثاله فأنقاسَ. والمقدار: مقياس"⁴.

ووردَ عندَ الخليل بن أحمد أنَّ "القيس" مصدرٌ قِسْتُ. والقيس بمنزلة القدر. وعودٌ قيسٌ أصبح أي قَدَّرُ أصبح، وقِسَ هذا بذلك قياساً وقيساً، والمقياس: المقدار⁵. ويُعرِّف الشريف الجرجاني [740-816هـ، 1339-1413م] القياسَ على أنَّه: "عبارةٌ عن التقدير، يُقالُ قِسْتُ التَّغْلِ بالتَّغْلِ إذا قَدَّرْتُهُ وَسَوَّيْتُهُ، وهو عبارةٌ عَن رَدِّ الشَّيْءِ إِلَى نظيره"⁶.

ولربَّما يحقُّ لنا-بناءً على ما نستقرئه- أنْ نُؤَوِّلَ العلاقةَ الَّتِي تجمعُ السِّيَاقَ بالقياسِ، حتَّى على المستوى الصَّرِيحِ-الدَّلَالِيّ، هو ما عَرَفَهُ الخليل بن أحمد في معجمه حَوْلَ مادَّةِ (قيس) حينما قال: "والمقاسُ: الَّذِي يُرْسَلُ الخيلُ، والمكان الَّذِي تجري في الخيلُ مقوسٌ. ويُقالُ: بل هو الحبلُ يُمَدُّ فترسَلُ منه الخيلُ..."⁷. وأجدني متسائلاً

¹ لعلَّ الأمرَ اللَّافِتَ، والمثيرُ في الوقتِ نفسه، أنَّ هناكَ خلافاً بينَ أصحابِ المعجماتِ حولَ الجذرِ الثَّلَاثِيّ لكلمةِ "القياس"، فمنهم مَنْ يرى أنَّ الجذرَ الأصليَّ لها هو "ق، و، س" كابن فارس. وهذا بِحَدِّ ذاتِهِ مثيرٌ للغايةِ، خاصَّةً أنَّ ابنَ فارسٍ يُعَدُّ مرجعاً يُشْهَدُ لَهُ في علمِ المعجماتِ. ومنهم مَنْ يرى أنَّها مأخوذةٌ مِنَ الجذرِ "ق، ي، س"، كالزبيدي. ومنهم مَنْ يُوَفِّقُ بينهما؛ فيُفَرِّقُ ويجمعُ بينهما في الوقتِ ذاتِهِ كابن منظور، الَّذِي يُعَلِّلُ بِتَوْرِهِ ذلكَ بأسلوبٍ حكيمٍ ذكيٍّ- مِنْ بَيْنِ ثَنَائِيَا السُّطُورِ فيما اعتقدته- مِنْ خِلالِ تَعَدُّدِ اللَّهْجَاتِ في ذلكَ، فنراه يقولُ: "قِسْتُ الشَّيْءِ بغيره وعلى غيره أقيسُ قيساً وقياساً فأنقاسَ إذا قَدَّرْتُهُ على مثاله. وفيه لغةٌ أخرى: قُسْتُه أَوْسُهُ قُوساً وقياساً". ويسيرُ الفَيَّومِيُّ على منوالِ ابنِ منظور، حيثُ يقولُ الفَيَّومِيُّ في ذلكَ: "قُسْتُه على الشَّيْءِ وبه أقيسُ قيساً مِنْ بابِ بَاغٍ (يقصدُ بَاغٍ يَبِيعُ: قَابِسٌ يَقْبِسُ) وأَوْسُهُ قُوساً مِنْ بابِ قَالَ (يقصدُ: قَالَ يَقُولُ: قَاسَ يَقُوسُ)". إذن، فَمَرَدُّ ذلكَ يرجعُ إلى أصلِ الألفِ في الفعلِ "قاس"، أهي منقلبةٌ عَن وَاوٍ أَمْ عَن ياءٍ؟ انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، 2: 377؛ ابن منظور، لسان العرب، 6: 187؛ الزبيدي، تاج العروس، 8: 434-437، الفَيَّومِيُّ، المصباح المنير، 338.

² ابن فارس، مقاييس اللغة، 2: 377؛ ابن منظور، لسان العرب، 6: 187.

³ ابن فارس، مقاييس اللغة، 2: 377.

⁴ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 2: 277.

⁵ الخليل بن أحمد، العين، 5: 189.

⁶ الشريف علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات (الإسكندرية: دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، 2004)، 199؛ إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، 800؛ 804.

⁷ الخليل بن أحمد، العين، 5: 189.

بمّا دُكِرَ آنفًا: ألا يُدَكِّرُنَا هذا بـ"سياق" الماشية وسوقها- كما وَرَدَ في شواهدٍ معجمات اللّغة؛ ولعلّ الرّابطة يَكْمُرُ في "الحبل" الذي يُمَدُّ للخيل فترسل منه، وكأنّ الحبل يُقابِلُ تسلسل الشّيء وتتابعه. أو من خلال ذاك المكان الذي تدور في رحاه "سيقان" الخيل وأقدامها، وثمة الحركة والتّداوُر- كما هي حركة النّاس في السّوق، وحركة الأقدام في المسير، وإلى غير ذلك، وبالتالي فإنّ كلّ هذه "الإشارات الدّلائليّة"- إنّ جاز لي التّعبير- تُفضي إلى المفهوم الذي احتوته مفردة "ساق... يسوق... سياقا"¹.

ويُضافُ إلى هذا ما نجده عند عبد القادر الرّازي عبّر معي جديد وجدير في الاهتمام، ألا وهو السّيَر في ركاب أمرٍ ما والتّحرُّك في رحاه، فيقول: "...فاس بِنّ الأمرين مُقايَسةً وقياسًا. واقتاس الشّيء بغيره قاسه به. وهو يُقتاسُ بأبيه اقتياسًا أيّ يسلكُ سبيله ويُقتدي به"².

وأما على مستوى التّعريف الاصطلاحيّ للـ"قياس" فنّمّة تعريفات كثيرة تداوّلها النّحاة، وهي، في حقيقتها، تعريفات متقاربة كما أشار إلى ذلك ابن الأنباري [513-577هـ، 1119-1181م]، أشهرها: "حَمَلٌ غَيْرُ المنقول على المنقول إذا كان في معناه"³، و"تقدير الفرع بحكم الأصل"، و"حَمَلٌ فرع على أصلٍ بعلة، وإجراء حُكم الأصل على الفرع، و"إلحاق الفرع بالأصل بجامع"، و"اعتبار الشّيء بالشّيء بجامع"⁴. وعَرَفَ عباس حسن، وهو من النّحاة المحدثين الذين ينتهجون منهج القدماء، القياس على أنّه محاكاة العرب في طرائقهم اللّغويّة، وحمل كلامنا على كلامهم في أصول المادّة وفروعها وضبط الحروف وترتيب الكلمات وما يتبع ذلك⁵.

ويرى كثير من الباحثين أنّ الشّافعي- أيضًا- كان من المؤسّسين الأوائل لمصطلح "القياس"، وبهذا يرى محمّد عابد الجابري أنّ الشّافعيّ وجّه العقل العربيّ أفقيًا إلى ربط الجزء بالجزء، والفرع بالأصل (=القياس)، وعمودياً

¹ انظر إلى "السياق لغة"، حيثُ عرّضتُ فيه بالتفصيل لتصرفات "السياق" ومعانيه المختلفة.

² الرّازي، مختار الصحاح، 256.

³ أبو عبد الله محمّد بن الطّيّب الفاسي، فيض نشر الاشراف من روض طي الاقتراح (دبي: دار البحوث للدراسات الإسلاميّة وإحياء الثّراث، 2000)، 2: 740.

⁴ كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن عبيد الله الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب (بيروت: دار الفكر، 1971)، 45؛ ابن الأنباري، لمع الأدلّة في أصول النّحو (بيروت: دار الفكر، 1971)، 93؛ جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النّحو ([د.م.]: دار البيروتي، 2004)، 79.

⁵ عباس حسن، اللّغة والنّحو في القديم والحديث (مصر: دار المعارف، [1970])، 22.

إلى رَبِطِ اللَّفْظِ الواحدِ بأنواعٍ مِنَ المعاني، والمعنى الواحدِ بأنواعٍ مِنَ الألفاظِ داخلِ الدِّراساتِ الفقهيَّةِ، تمامًا كما هو الأمرُ في الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ والكلامية¹.

ويؤكِّدُ الجابري- بما يُثيرُ التأمل- أننا إذا ما دَقَّقْنَا في قواعدِ الشَّافعيِّ الفقهيَّةِ يتبدَّى لنا أنَّ النُّحاةَ والمتكلمينَ قد تبنُّوا هذه القواعدَ بعدَ أن كَيَّفُوها مَعَ مجالاتهم وأبحاثهم واهتماماتهم، ويتمثَّلُ ذلكَ خلالَ وَحدةٍ المنهج (=القياس) في العلوم العربيَّة الإسلاميَّة الَّتِي فَرَضَتْها وَحدةُ الموضوع (=النَّص)².

ومن ثَمَّ، جديرٌ بالتَّأنُّبِ في هذا المقامِ أنَّه ممَّا هو معروفٌ فقد كانَ الشَّافعيُّ معاصرًا للخليلِ وسيبويه، وسواءٌ استَوْحَى الشَّافعيُّ مشروعه من الخليلِ بنِ أحمدٍ أو من عَمِلَ سيبويه فإنَّ الشَّيءَ الَّذي لا يُمكنُ تجاهله هو تأثيرُ منهجِ اللُّغويينَ والنُّحاةِ في "الرَّسالة" شكلاً ومضموناً. وحينما نَعْرِفُ أنَّ الشَّافعيَّ نَفْسَهُ لم يُسَمِّ رسالته تلكَ بهذا الاسمِ، بل كانَ يَدْعُوها "الكتاب"³، أدركنا بذلكَ أيَّةَ علاقةٍ كانتَ تجمعُ بينَ مشروعِ الشَّافعيِّ ومشروعِ سيبويه صاحبِ "الكتاب"⁴.

بالإضافة إلى هذا، فإنَّنا إذا أنعمنا النَّظَرَ فيما درَجَ عليه النُّحاةُ لاحتظنا مدى تَعَلُّقِهِم بالقياسِ إلى درجةٍ أنَّ بعضهم "يُفَحِّمُ"-إنَّ جازَ لي التَّعبيرُ بهذا الوصفِ- القياسَ بالنَّحوِ تعريضاً مدَّخِلياً لعِلْمِ النَّحوِ⁵، حيثُ نجدُ، على سبيلِ المثالِ، أبا عليٍّ الفارسيَّ [288-377هـ، 900-987م] يُعَرِّفُ النَّحوَ بقوله: "النَّحوُ عِلْمٌ بالمقاييسِ المستنبطةِ من استقراءِ كلامِ العرب"⁶.

ووفقاً لهذه الرُّؤية الَّتِي تُلَوِّحُ في الدَّرْسِ النَّحْوِيِّ، لا سيَّما في "أصولِ النَّحوِ"، فقد وَضَعَ النُّحاةُ أربعةَ أركانٍ للقياسِ، وهي الأَصْلُ والفَرْعُ، والحُكْمُ، والعِلَّةُ؛ فالأصلُ- كما يذكرُ السيوطيُّ وابنُ الطَّيِّبِ الفَاسِيُّ

¹ محمَّد عابد الجابري، تكوين العقل العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيَّة، 2009)، 105.

² محمَّد الجابري، تكوين العقل العربي، 106.

³ أحمد شاكر، مقدِّمة الرسالة للشَّافعي، 12.

⁴ الجابري، تكوين العقل العربي، 103.

⁵ Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh Press, 2014), 109.

⁶ أبو عليِّ الحسن بن أحمد الفارسي، التَّكملة (الرياض: جامعة الرياض، 1981)، 3.

[1110-1170هـ، 1698-1756م] - هو المقيس عليه، والفرع هو المقيس، والحكم هو حكمه الإعرابي،

والعلة هي التي تجمع المقيس والمقيس عليه، أي الأصل بالفرع¹.

ويشرح ابن الأنباري هذه الأركان من خلال مثال عملي، وهو نائب الفاعل، فيقول: "ولا بُدَّ لكل قياس من أربعة أشياء: أصل وفرع وعلة وحكم، وذلك مثل أن تُركب قياساً في الدلالة على ما لم يُسم فاعله فتقول: "اسمُ أَسَدِ الْفِعْلِ إِلَيْهِ مُقَدَّمًا عَلَيْهِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا قِيَاسًا عَلَى الْفَاعِلِ"، فالأصل هو الفاعل، والفرع ما لم يُسم فاعله، والعلة الجامعة هي الإسناد، والحكم هو الرفع، والأصل في الرفع أن يكون للأصل الذي هو الفاعل، وإنما أُجْرِيَ على الفرع الذي هو ما لم يُسم فاعله بالعلة الجامعة التي هي الإسناد، وعلى هذا: النحو تركيب قياس كل قياس من أقسية النحو"².

فمن هنا، استنتج النحاة قاعدة تُقضى إلى أن "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"³، كما ذكر أبو عثمان المازني [...-458هـ، ...-1066م]. ولعلَّ اللّافِت في ذلك أن ابن جني نعت "القياس" في كلام العرب على أنه "موضع شريف"، وأكثر الناس يَضْعِفُ عَنْ احتماليه؛ لغموضه ولطفيه⁴، والمنفعة به عاقبة، والتسائد إليه مَقْوٍ مُجْدٍ⁵. ثم نرى ابن جني يُمَثِّلُ بهذا "القانون" اللغوي منطلقاً ممَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ المازني وأبو عليّ الفارسي بأن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، قائلاً: "ألا ترى أَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ أَنْتَ وَلَا غَيْرُكَ⁶ اسمَ كلِّ فاعِلٍ وَلَا مفعولٍ، وإنما سَمِعْتَ البعضَ قِيسَتَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فإذا سَمِعْتَ "قَامَ زَيْدٌ" أَجَزْتَ "ظَرَفَ بِشْرٌ" و"كَرَّمَ خَالِدٌ"⁷. وبهذا، نلاحظُ الباحثَ فَوَادَ حَتَّى تَرزِي يسيرُ على هذا المنوال في تفصيل معنى القياس مُبَيَّنًا أَنَّهُ "إذا عَلِمْنَا عَنْ طريقِ القياسِ أَنَّ "جارية" تُجْمَعُ عَلَى "جَوَارٍ" وعَادِيَّةٌ عَلَى "عَوَادٍ" ... وهكذا. وإذا عَلِمْنَا أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ اقتضى أَنْ تَرْفَعَ سَعِيدًا وَعَلِيًّا فِي قَوْلِنَا: جَاءَ سَعِيدٌ، وَقَامَ عَلِيٌّ"⁸.

¹ السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، 81؛ ابن الطيّب الفاسي، فيض نشر الاشراف من روض طي الاقتراح، 2: 750-753.

² ابن الأنباري، لمع الأدلة في أصول النحو، 93.

³ ابن الطيّب الفاسي، فيض نشر الاشراف، 2: 752-753.

⁴ اللطف هو الأمر النقيض الخفي.

⁵ ابن جني، الخصائص، 1: 303.

⁶ يتوجه ابن جني بالخطاب إلى القارئ؛ لكونه مخاطباً: "أَنَّكَ"، "أَنْتَ"، "غَيْرُكَ"، "سَمِعْتَ".

⁷ ابن جني، الخصائص، 1: 303.

⁸ فواد حنّا ترزي، في أصول اللغة والنحو (بيروت: مكتبة لبنان، 1969)، 119.

وعليه - بعد هذا العرض السريع - يتجلى لنا هنا أنَّ النُّحاة سلكوا مسلك أهل الفقه في تأسيس النُّحو¹؛ لأنهم كانوا معاصرين لهم، أو لاحقين بهم، فاعتنقوا مذاهبهم ونسجوا على منوالهم، ويبدو لأوّل وهلة الأثر الواضح لمنهج البحث عند علماء الأصول فيما عمّله ابن جني، وابن الأنباري، والسيوطي وغيرهم حين تصدّوا إلى تقنين أصول النُّحو، فقد كانت أدلّتهم علماء الأصول، وهي النص، والسَّماع، والقياس، والإجماع، واستصحاب الحال، والاستحسان²، على اختلاف اعتمادهم ومشاربهم لهذه الأصول. وهذا ما يؤكّده ابن الأنباري بقوله إنهم وضَعُوا علمين جديدين، وهما "علم الجدل في النُّحو"، و"علم أصول النُّحو"، فيقول في ذلك: "علوم الأدب ثمانية: اللُّغة، والنُّحو، والتَّصريف، والعروض، والقوافي، وصفة الشَّعر، وأخبار العرب، وأنسابها... وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما: علم الجدل في النُّحو، وعلم أصول النُّحو، فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه من قياس العِلَّة، وقياس الشَّبه، وقياس الطرد، إلى غير ذلك على حدّ أصول الفقه³، فإنَّ بينهما من المناسبة ما لا خفاء به؛ لأنَّ النُّحو معقول من منقول، كما أنَّ الفقه معقول من منقول⁴.

ويبرز تمام حسان أهمية "القياس" وما له من دور فاعل في التفكير التَّحويّ لدى النُّحاة، بل إنهم؛ لأهمية ملصح "القياس"⁵، عرفوا النُّحو بأنّه القياس⁶، مُستعرضاً رأياً لافتاً عند النُّحاة - وقد غاب عن إدراك كثير من الدارسين - وهو أنَّ القياس نوعان، وهما، أولاً: قياس استعماليّ، وهو انتحاء كلام العرب؛ وعليه فلا يكون هذا النوع نَحْوًا مُجرّداً بل تطبيقاً للنُّحو، فهو وسيلة لاكتساب اللُّغة في الطّفولة، إذ إنّ للطفّل ملكة فطريّة تجعل في

¹ ثمة من يرى خلاف هذا الرأي، بمعنى أنَّ الفقه هو الذي تأثّر بالنُّحو. وثمة من يرى أنَّ النُّحو والفقه نشأ وتزأمتا معاً وقد أثر بعضهما في بعض تأثراً متوازياً، وفي فترة لاحقة استقلَّ كلُّ علم منهما وأخذ طريقه ومجاله الخاص به؛ فأصبح علماً قائماً مستقلاً بذاته.

² تمام حسان، الأصول - دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النُّحو - فقه اللُّغة - البلاغة (القاهرة: عالم الكتب، 2000)، 58-59.

³ تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هناك فرقاً بين علم "أصول الفقه"، وعلم "الفقه"، فأصول الفقه - كما يقول الإسحق - هو "العلم بالقواعد والبحوث التي يتوصّل بها إلى استفادة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية". بينما علم الفقه هو "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية". ويذكر الزركشي وغيره أنَّ أول من صنّف في "أصول الفقه" هو الشافعي في كتاب "الرسالة". وقال الجويني: لم يسبق الشافعي أحد في تصانيف الأصول ومعرفتها". وأكّد هذا المعنى أحمد شاكر لدى تحقيقه لكتاب "الرسالة" قائلاً إنَّ الشافعي جمع ذلك وصنّفه على غير مثال سبق. انظر: عبد الرحيم الإسحق، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981)، 45؛ بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، البحر المحيظ في أصول الفقه (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000)، 1: 7؛ الشافعي، الرسالة، 12.

⁴ ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء (الزرقاء - الأردن: مكتبة المنار، 1985)، 76؛ السيوطي، الاقتراح في أصول النُّحو، 16.

⁵ Jeroslav Stetkevych, *The Modern Arabic Literary Language: Lexical and Stylistic Developments* (Chicago: The University of Chicago Press, 1970), 2-3.

⁶ تمام حسان، الأصول، 151.

استطاعته أن يكتسب اللغة التي يسميها من حوله بواسطة استظهار نظامها وتشرُّب طرق تركيبها. وثانيًا: قياس نظري (نحوي)، وهو القياس المعروف عند النحاة على المستوى النظري بأنواعه الثلاثة قياس وعلة وطرد، وهو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه¹.

ويؤكد كلٌّ من بوهاس Buhas وجيوم Guillaume وكولوغلي Kouloughli - خلال حديثهم حول "القياس" - أن نظرة النحاة العرب المعرفية (الإبستمولوجية) تعتمد على فكرة أساسية مؤداها أن تحديد "حكم الشيء هو الوسيلة إلى التعرف على طبيعته وخصائصه؛ وبناءً على ذلك يُمكن النظر إلى "القياس" - وهي نظرة لافتة ومثيرة في الوقت ذاته - على أنه عملية قريبة إلى حدٍ قريب من المنهج الجشطالتي²، الذي يهدف إلى تحديد الشكل (الحامل) في أي مجموعة من الأشياء، ومن ثمَّ يهدف إلى إعطاء كل عنصر من عناصر هذه المجموعة وضعت يتفق مع هذا التحديد³.

ثمَّ يطرح كلٌّ من بوهاس وجيوم وكولوغلي مثالاً توضيحياً حول تداول "القياس" في التراث النحوي، وهذا المثال يتمثل فيما عرّض له الزجاجي [....-337هـ،-949م]، حيث يوضح هذا المثال الطريقة التي يستخدمون "القياس" بها، فيذهب الزجاجي إلى أن ثمة ثلاثة أنواع من العلل⁴، حيث يتعلق الأول - وهو ما يطلق عليها الزجاجي اسم "العلل التعليمية" - بالقواعد العامة على شاكلة أن الفاعل مرفوع، وأن صيغة الفاعل تأتي غالباً على صيغة فاعل، وأن حرف التوكيد "إن" ينصب المبتدأ ويرفع الخبر. يُمثّل هذا النوع كل ما يحتاج إليه المتعلم؛ كي يعرف الاستعمال اللغوي الصحيح؛ وبهذا نستطيع أن نفهم أن "القياس" لا يُمثّل دوراً إلا في حالة النوع الثاني من العلل، وخاصة في حالة "إن"، ويمكن السبب في ذلك إلى أن السلوك النحوي لهذه الكلمة، لا سيما مفدركها على التأثير في الحركة الإعرابية للاسمين اللذين يعقباها، يُعدُّ أمراً غير عادي في حالة الحروف، وهو

¹ تمام حسنان، الأصول، 151-154؛ ابن الأنباري، لمع الأدلة في أصول النحو، 98-99؛ السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، 81.
² يعود الفضل في تطوير "النظرية الجشطالتي" وفي بلورة مفاهيم "علم النفس الجشطالتي" Gestalt Psychology إلى فريدريك بيرلز Frederick Perls، حيث يستند هذا المنهج على العلاج والإرشاد النفسي من خلال التركيز على دراسة السلوك الإنساني من منظور كلي، وليس من منظور تحليلي. ومن أبرز هذه المفاهيم "الكليّة" التي تُعدُّ لبّ الفكرة الجشطالتيّة، حيث تُعني "الكليّة" أن الكل أكبر من مجموعة أجزائه؛ لذا فإنَّ النظرة في سلوك الكائن ككلٍّ وليس كأجزاء، وأن إدراكنا للكل هو سابق لإدراكنا للجزء.

³ بوهاس - جيوم - كولوغلي، التراث اللغوي العربي، 55-56.

⁴ العلل النحوية الثلاث التي يعرضها الزجاجي هي: 1- العلل التعليمية. 2- العلل القياسية. 3- العلل الجدلية النظرية. انظر: الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، 64-65.

ألا تؤثر في الحركة الإعرابية للاسم على الإطلاق، أو أن تؤثر فيها في حالة الكلمة التي تعقبها فقط¹. ثم يؤكدون أن دور "القياس" هنا هو أن يُبين لنا أن هذا السلوك ليس إلا أمراً مألوفاً، له نظير في اللغة العربية، وأن الأساس الذي يقوم عليه هذا التعليل هو أن عمل "إن" يشبه الفعل الذي يقوم به الفعل المتعدي الذي يأتي مفعوله قبل فاعله، نحو: "ضرب أخاك محمد"، إذ يمكن لهذا "التعريف" أن يُشكّل الأساس الذي يقوم عليه تفسير سلوك "إن" وأخواتها من خلال ارتباط الأمر بالتأثير في الحركة الإعرابية وبالتالي ينتهي هذا التفسير الذي "استُخدم فيه القياس" إلى الإقرار بأن سلوك "إن" وأخواتها يشبه حقاً سلوك الفعل المتعدي وفاعله ومفعوله²، وعندئذ يمكن أن يذهب النقاش إلى النوع الثالث من العلل وهي "العلل الجدلية"³.

ومن أمثلة القياس الذي يؤدي دوراً فاعلاً في "السياق التحويلي"، معالجة التحويلات والمفسرين لتعليل رفع "الصائبون" (على الحكاية) في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}⁴، فيقول سيبويه تعليلاً للرفع: "واعلم أن ناساً من العرب يغلطون فيقولون: إنيهم أجمعون ذاهبون. وإنك وزيد ذاهبان. وذاك أن معناه الابتداء فيرى أنه قال: هم... وأما قوله عز وجل: {وَالصَّابِقُونَ} فعلى التقديم والتأخير، كأنه ابتداء على قوله: والصائبون بعد ما مضى الخبر"⁵. وكأن تقدير الكلام (إن الذين آمنوا... فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصائبون، وهذا رأي الخليل وسيبويه وجمهور البصريين).

ويذهب الكسائي إلى أنه معطوف على الضمير في الفعل "هاؤوا"، وذلك على تقدير: (هاؤوا هم والصائبون). وقد خطأه الرُّماني والزجاج؛ لعدم مشاركة الصائبي اليهودية في دين اليهودية، ولما في الكلام من عطف الاسم الظاهر على الضمير المتصل من غير توكيد بضمير منفصل.

¹ بوهاس- جيوم- كولوغلي، التراث اللغوي العربي، 57.

² الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، 64.

³ بوهاس- جيوم- كولوغلي، التراث اللغوي العربي، 57-58.

⁴ القرآن الكريم، المائدة: 69.

⁵ سيبويه، الكتاب، 1:290.

وَمَثَلُهُ رَأْيُ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى "الَّذِينَ"، وَهُوَ اسْمٌ مُوصُولٌ لَا يَتَّبِعُ فِيهِ الْإِعْرَابُ مَعَ ضَعْفِ عَمَلِ "إِنَّ"، وَلَكِنَّ الرِّجَاحَ رَفَضَ هَذَا الْقَوْلَ وَخَطَّأَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تُعْمَلَ النَّصْبُ وَالرَّفْعُ، إِذْ لَا يَوْجَدُ نَاصِبٌ إِلَّا وَلَهُ مَرْفُوعٌ، كَمَا أَنَّ مَا نُصِبَ بِ"إِنَّ" هُوَ مِنْ أَقْوَى الْمَنْصُوبَاتِ.

وَيُعْلَلُ¹ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ هَذَا الْكَلَامَ بِأَنَّ الْعَرَبِيَّ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ إِذَا اسْتَهْوَاهُ ضَرْبٌ مِنَ الْغَلْطِ فَيَعْدِلُ عَنْ قِيَاسِ كَلَامِهِ، كَمَا قَالُوا: "مَا أَغْفَلَهُ عَنْكَ شَيْئًا"². وَلَعَلَّ الْكُوفِيِّينَ لَمْ يُجَانِبُوا الصَّوَابَ حِينَ ذَهَبُوا إِلَى تَصْحِيحِ جَوَازِ الْعُطْفِ عَلَى مَوْضِعِ "إِنَّ" قَبْلَ تَمَامِ الْخَبَرِ بِدَلِيلِ النِّقْلِ فِي مِثْلِ "إِنَّ زَيْدًا وَعَمَرُو قَائِمَانِ"، وَ"إِنَّكَ وَبَكْرٌ مُنْطَلِقَانِ"، بِدَلِيلِ أَنَّ الْآيَةَ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى...}، وَوَجْهَ الدَّلِيلِ أَنَّهُ عَطَفَ "الصَّابِغُونَ" عَلَى مَوْضِعِ "إِنَّ" قَبْلَ تَمَامِ الْخَبَرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، وَبَدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الثَّقَاتُ عَنِ الْعَرَبِ "أَنَّكَ وَزَيْدٌ ذَاهِبَانِ"، وَهُوَ مَوْقِفٌ لِعَوِيِّ سَلِيمٍ.

وَتَعْقِيبًا عَلَى هَذَا، يُؤَكِّدُ عَلِيُّ الْيَاسَرِيِّ أَنَّ الْكُوفِيِّينَ يَتَمَحَلُّونَ أَيْضًا حِينَ يَرِيدُونَ تَصْحِيحَ الْمَسْأَلَةِ عَنْ طَرِيقِ الْقِيَاسِ، فَيَقَرُّونَ أَنَّ الْعَرَبَ تَحْمِلُ الشَّيْءَ عَلَى نَظِيرِهِ وَضِدِّهِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّهُ مَا دَامَ الْأَجْمَاعُ عَلَى جَوَازِ الْعُطْفِ عَلَى الْاسْمِ بَعْدَ تَمَامِ الْخَبَرِ، فَكَذَلِكَ يَجُوزُ قَبْلَ تَمَامِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ تَحَدَّثُوا فِي ذَلِكَ عَنِ إِجْمَاعِ الْعَوَامِلِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ كَلَامٍ³، وَلَمْ يَكُنِ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ فِي الْقِيَاسِ بِأَحْسَنَ مِمَّا قَالُوا؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالْتَّرْكِيبِ اللَّغَوِيِّ - كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ⁴.

وَعَلَى صَعِيدِ آخَرَ، بَوَسَعْنَا أَنْ نُؤَكِّدَ أَنَّ الْقِيَاسَ اللَّغَوِيَّ يَتَدَاخَلُ بِنَسَقِ الْكَلَامِ وَنَظْمِهِ وَاتِّسَاقِهِ، وَذَلِكَ خِلَالَ مَقَارِنَةِ كَلِمَاتٍ بِكَلِمَاتٍ، أَوْ صِيغٍ بِصِيغٍ، أَوْ اسْتِعْمَالٍ بِاسْتِعْمَالٍ؛ لِيُسْتَنْبَطَ الْمَجْهُولُ عَلَى نَسَقِ الْمَعْلُومِ⁵. فَالنَّسَقُ الَّذِي هُوَ "نِظَامُ اللَّغَةِ" System - كَمَا يَصْطَلُحُ عَلَيْهِ دِي سوسير⁶ Ferdinand De

¹ أُرِيدَ أَنْ أُؤَكِّدَ هُنَا، أَنَّ الْأَصْلَ الْمَعْتَمَدَ - كَمَا يَقُولُ النُّحَاةُ - فِي الْقِيَاسِ هُوَ التَّلْعِيلُ. انْظُرْ: مُحَمَّدُ الْحَبِيبُ ابْنُ الْخُوْجَةِ، بَيْنَ عِلْمِي أَصُولِ الْفَقْهِ وَالْمَقَاصِدِ (قَطْر: وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ وَالشُّؤُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ، 2004)، 290.

² ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، الْإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ، 1: 191.

³ عَلِيُّ مَزْهَرِ الْيَاسَرِيِّ، الْفِكْرُ النَّحْوِيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ (بَيْرُوت: الدَّارُ الْعَرَبِيَّةُ لِلْمَوْسُوعَاتِ، 2003)، 221-222.

⁴ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، الْإِنْصَافُ، 1: 186-187.

⁵ مُحَمَّدُ الْأَشْقَرُ، مَعْجَمُ عُلُومِ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، 325.

⁶ بَوَسَعْنَا أَنْ نُشِيرَ هُنَا إِلَى أَنَّهُ مِنَ الْمَبَادِيِ الَّتِي طَرَحَهَا سوسير فِي مُحَاضَرَاتِهِ هِيَ أَوَّلَوِيَّةُ النَّسَقِ، وَهُوَ مَا يَتَوَلَّدُ عَنْ انْتِرَاجِ الْجَزْئِيَّاتِ فِي سِيَاقٍ مَا، أَوْ هُوَ - بِنِوِيَّةٍ - مَا يَتَوَلَّدُ عَنْ حَرَكَةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْعُنَاصِرِ الْمَكُونَةِ لِلْبَنِيَّةِ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ لِهَذِهِ الْحَرَكَةَ انْتِظَامًا مَعِيْنًا يُمْكِنُ مِلَاحَظَتُهُ وَكَشْفُهُ. وَهَذِهِ الْعُنَاصِرُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّغَةَ نِظَامٌ؛ لَكُونِ هَذَا النِّظَامِ مُؤَلَّفًا مِنْ وَحَدَاتٍ لَهَا تَأْثِيرٌ مُتَبَادِلٌ. هَذَا يَعْنِي أَنَّ جَوْهَرَ نَظَرِيَّةِ سوسير

Sassure- يتحدث عنه عبد القاهر الجرجاني في معرض كلامه حول ألفاظ الشعير التي يؤدّيها الحاكي الذي يُحاكيها بناءً على النسق الذي سمعها عليه، وبناءً- أيضاً- على النسق أو النظام اللساني الذي انتظمت فيه الألفاظ الشعيرية؛ فترتبت وتناسقت وترابطت في علاقات لغوية مختلفة تأخذ بالقلوب والعقول على حدّ تعبير الجرجاني، فيقول: "...بل وجدوا اتساقاً بمرّ العقول وأعجز الجمهور، ونظاماً واليتاماً واتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم... موضع طمع؛ حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول"¹.

إذن، بوسعنا أن نتلمس القرى التي تزوج بين "السياق" و"الاتساق" و"القياس"، وأن نلاحظ الحضور البارز للقياس في معالجة النحاة والمفسرين مسألة "السياق"، وكأنه- القياس- ليس ركنًا من أركان أصول النحو فحسب، بل هو- أيضاً- ركن هام وفاعل من مركبات السياق، التي لا غنى عنه في تصوّر النحاة والمفسرين للعلاقات الجامعة بين أجزاء النص². بل إن من النحاة من حصّر النحو بالقياس، إذ لا يمكن الاستغناء عنه في علم النحو؛ لأنهما علما ملتصقان، فقد ردّ ابن الأنباري على الذين ينكرون القياس قائلاً: "اعلم أن إنكار القياس لا يتحقق؛ لأنّ النحو كُله قياس؛ ولهذا قيل في حده: النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقرار كلام

هو فهم اللغة على أنها نظام علامات System of Signs، نظام كل عناصره متماسكة؛ فيقتضي كل شيء الآخر بشكل متبادل، ويتحدّد فيه كل عنصر خلال موقعه في الشبكة (النظام) الكلية للعلاقات. من هنا فإنّ دي سوسير يدعو إلى تحليل البنية (النظام) ومعرفة عناصرها المختلفة كالرموز والصوت من خلال نسيج العلاقات اللغوية وأنساقها؛ لمعرفة ملاسبات بنيتها من الداخل والخارج. ولعله من المجدي هنا أيضاً أن نشير إلى أن الدارسين يرجعون نشأة الدراسات البنيوية إلى دي سوسير، حيث يزّون أن آراءه في التفرقة بين اللغة (Langue) والكلام (Parole)، والدال والمدلول، وفي أولوية النسق أو النظام على باقي عناصر الأسلوب، وفي التفرقة بين التزامن والتعاقب، هي التي أسست لنشأة الدراسات البنيوية. فاللغة عنده- مثلاً- هي الظاهرة الاجتماعية الموحدة لمجتمع معين التي يمكن عن طريق دراسة النماذج الكلامية الصادرة عن أفراد المجتمع الاهتداء إلى القواعد أو العوامل المشتركة التي تجعل منها لغة مشتركة بين جميع أفراد المجتمع المذكور. فهي بهذا النموذج المثالي الذي يوجّه كلام الأفراد والذي يحاول هؤلاء أن يظّلوا ضمن ضوابطه اللغوية أو السلوكية؛ كي يكونوا مفهومين من سواهم. وأمّا الكلام فهو تلك "اللغة" التي يستعملها الناس في المجتمع الواحد. وهذا يختلف بالتأكيّد من شخص إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى قليلاً أو كثيراً، ولكن يربط بينها جميعاً قواعد لغوية وسلوكية عامّة تجعل منها لغة واحدة مفهومة في المجتمع الواحد. ولعله من الإنصاف الأكاديمي أن نشير هنا إلى أن ثمة إشارات وبادر لهذه النظرية كان ابن خلدون قد تحدّث عنها في التّريق بين اللغة واللسان (الذي هو الكلام)، فيقول: "...اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانيّ ناشئ عن قصد بإفادة الكلام، فلا بدّ أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان". وهو موضوع- بنظري- جدير بالبحث والعناية من خلال دراسة منفردة تكشف هذا التّلاقح والتأثير- بشكل واع أو غير واع- بين الفكر الإنساني من حيث كونه فكراً شاملاً Universal Thought لا يختصّ ببيئة دون غيرها، ولا بحضارة دون أخرى. انظر: فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2006)، 90-95؛ بريجيت بارتشت، مناهج علم اللغة من هيرمان بول حتى نواعم تشومسكي (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2004)، 106-112؛ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدّبة- من البنيوية إلى التفكيك (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1998)، 161-170؛ صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي (القاهرة: دار الشروق، 1998)، 120؛ شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة (بيروت: أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، 2004)، 9-16؛ ميشال زكريّا، علم اللغة الحديث- المبادئ والأعلام (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983)، 225؛ نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، [د.ت.])، 88؛ ابن خلدون، المقدّمة (القاهرة: دار الفجر للتراث، 2004)، 700.

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 32.

² صاحب أبو جناح، دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، 115.

العرب، فَمَنْ أَنْكَرَ الْقِيَاسَ فَقَدْ أَنْكَرَ النَّحْوَ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنْكَرَهُ لِثُبُوتِهِ بِالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَةِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ¹.

ولكني تكتمل هذه الدائرة في عُرْفِ مَنْ يَرَى أَنَّ النَّحْوَ فِي جَوْهَرِهِ هُوَ قِيَاسٌ، وَأَنَّ الْقِيَاسَ هُوَ مَعْظَمُ أُدْلَةٍ النَّحْوِ، والمعوّل في غالبِ مسائله عليه، فَقَدْ عَزَيْتُ إِلَى الْكَسَائِيِّ [119-189هـ، 737-805م] - شيخ الكوفيّين - مقطوعاتٍ شعريّةٍ تَوَكَّدُ هذا المعنى، حَيْثُ أَنْشَدَ فِيهَا قَائِلًا:

"إِنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعُ وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَعُ"².

وتدُلُّ هذه الأبياتُ على أَنَّ النَّحْوَ عِنْدَ الْكَسَائِيِّ قِيَاسٌ يُتَّبَعُ، بمعنى أَنَّ هُنَاكَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَطْبَعُهَا الْإِطْرَادُ، وتساعدُ ابْنَ اللَّغَةِ الَّذِي يَتَقَنُّهَا وَيَتِمَكَّنُ مِنْهَا عَلَى الْكَلَامِ بِطَرِيقَةٍ سَلِيمَةٍ، وتحفظُ لِسَانَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي اللَّحَنِ وَالْخَطِ³.

وخلال هذا المنظور، كَانَ تَمَامُ حَسَنَانِ قَدْ وَصَفَ النَّحْوَ بِالشَّمُولِ حِينَمَا يُقَرَّنُ بِمَنْظُومَةِ "القياس"، فَيُشِيرُ بِقَوْلِهِ: "وَيَتَّبَعُ النَّحْوُ أَيْضًا بِالشَّمُولِ. وَإِذَا كَانَ الْعَنْصَرُ الْأَوَّلُ مِنَ الشَّمُولِ هُوَ الْحَتْمِيَّةُ فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي يُسَمِّيَهَا النُّحَاةُ "القياس"، وَإِنَّ مَعْنَاهَا نَفْسُهُ هُوَ مَا يُفْهَمُ مِنْ تَعْرِيفِ الْقِيَاسِ التَّحْوِيّ بِأَنَّهُ "حَمْلٌ غَيْرُ الْمَنْقُولِ عَلَى الْمَنْقُولِ إِذَا كَانَ فِي مَعْنَاهُ" أَيْ إِنَّ نَتَائِجَ النَّحْوِ "يَتَحَتَّمُ" انطباقها على غير المنقول وهو الذي لم يتناولهُ الاستقراءُ استغناءً عَنْهُ بِالْمَنْقُولِ أَيْ الْمَسْمُوعِ. وبانطباقِ النَّحْوِ عَلَى غَيْرِ الْمَنْقُولِ يَصْبِحُ مُتَّسِمًا "بِالشَّمُولِ" بَحِثٌ لَا يَبْقَى مِنْ لُغَةٍ الْعَرَبِ مَا لَا يَخْضَعُ لِقَوَاعِدِ هَذَا النَّحْوِ"⁴.

¹ ابن الأنباري، لمع الأدلة، 95؛ ابن الطيّب الفاسي، فيض نشر الانشراح، 2: 746-747.

² تنمة المقطوعة الشعرية المنسوبة إلى الكسائي هي:

فإذا ما أبصر النحو الفتى	مرّ في المنطق مرّاً فأنسغ
فألقاه كل من جالسه	من جليس ناطق أو مستمع
وإذا لم يُبصر النحو الفتى	هاب أن ينطق جبناً فانقطع
فقرأه يُنصب الرّفع، وما	كان من نصبٍ ومن خفضٍ رَفَع
يقرأ القرآن لا يعرف ما	صرفت الإعراب فيه ومنع
والذي يعرفه يقرؤه	فإذا ما شك في حرفٍ رجع
ناظرًا فيه وفي إعرابه	فإذا ما عزف اللّحن صدغ
فهما فيه سواء عندكم	ليست السنّة فينا كالبدع
كم وضيع رَفَع النَّحْوُ وَكَمْ	من شريف قد رأينا وضع

انظر: أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف الفقطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة (القاهرة: دار الفكر، 1986)، 2: 267؛ محمود فجال، الإصباح في شرح الاقتراح (دمشق: دار القلم، 1989)، 175-176؛ ترزي، في أصول اللغة والنحو، 122.

³ محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2000)، 398.

⁴ تَمَامُ حَسَنَانِ، الأصول- دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، 58.

إضافةً إلى ذلك، بمقدورنا أن نستكينة الرابط المشترك بين "القياس" و "السياق" من خلال الآلية التحويلية- الوظيفية؛ لوضع الشيء في موضعه وما اقتضته الظروف الملائمة للتركيب، إن كان على مستوى المفردة ذاتها، أو إن كان على مستوى الجملة؛ إذ إن "القياس" هو التقدير ورد الشيء على نظيره¹ عبر قناة "الوساطة، وكأَنَّها- برأيي- اكتشاف المجهول من المعلوم²- كما جاء في بعض التعريفات³، وهكذا هي حقيقة "السياق"، بمعنى أن لكل تركيب لغوي مقصد لما سيق لأجله، ولكن الأمر الذي يفرق تركيباً عن آخر- حتى لو كان يحمل الفكرة الرئيسية الدلالية ذاتها للوهلة الأولى- إلا أن اكتشاف "السياق" (السبب) الذي جاء به هيئة هذه الجملة أو تلك مرجعه إلى مطابقة الحالة Situation التي تتحدث عن هذه الكلمات مجتمعة في جملة ما.

وهذه العلاقات إنما تقوم على تلاؤم بين علوم شتى تأثر بعضها ببعض، وأخذ بعضها عن بعض⁴، خاصة تلك العلاقة التي تجمع بين أصول النحو وأصول الفقه. والأدلة على هذا ضخمة إلى حد أنها تتسع؛ لإفراد بحث مطول. فها هو ذا- مثلاً- ابن الأنباري يذكر أن "جماعة من الفقهاء المتأدبين، والأدباء المتفهمين، المشتغلين على بعلم العربية... سألوني أن ألخص لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويي البصرة والكوفة، على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة؛ ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب، وألف على هذا الأسلوب؛ لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف... فتوحيث إجابتهم على وفق مسألتهم، وتحرّث إسعافهم؛ لتحقيق طلبتهم، وفتح في ذلك الطريق"⁵.

¹ الشريف الجرجاني، التعريفات، 199.

² ولعل هذا ما لمَّح إليه أبو البقاء الكفوي حينما عرض لتعريف "سوق المعلوم مساق غيره"، وهو "عبارة عن سؤال المتكلم عما يعلمه سؤال من لا يعلمه؛ ليؤمّن أن شدة التنبه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه بالمشبه به. وفائدته: المبالغة في المعنى: نحو قولك: (أوجّهك هذا أم البدر)؟ فإن كان السؤال عن الشيء الذي يعرفه المتكلم خالياً من التشبيه لم يكن من هذا الباب كقول تعالى: وما تلك بيمينك يا موسى { (الفران الكريم، طه: 17)، فإن قصد الإنسان لموسى عليه السلام، أو إظهار المعجز الذي لم يكن موسى يعلمه". الكفوي، الكليات، 517.

³ الكفوي، الكليات، 517.

⁴ أشرف محمود النواجي، مصطلحات علم أصول النحو: دراسة وكتشاف معجمي (القاهرة: دار غريب، 2001)، 123؛ طاهر سليمان حمودة، القياس في الدرس اللغوي- بحث في المنهج (الإسكندرية: الدار الجامعية، 1991)، 18.

⁵ كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن عبيد الله الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، 1: 15.

وَنَحْدُ- أَيْضًا- جلال الدين السيوطي [849-911هـ، 1445-1505م] يؤكد المعنى ذاته من خلال مُقَدِّمَتِهِ في "الأشباه والنظائر في النحو" ذاكِرًا السَّبَبَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى تَأْلِيفِ هَذَا الْكِتَابِ قَائِلًا إِنِّي "قَصَدْتُ أَنْ أَسْلُكَ بِالْعَرَبِيَّةِ سَبِيلَ الْفَقْهِ فِيمَا صَنَّفَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ وَالْقَوَاهُ مِنْ كُتُبِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ"¹.

5. 1. السِّياق اصطلاحًا - المفهوم والحدود:

لَيْسَ مِنْ نَافِلَةِ الْقَوْلِ أَنْ أُشِيرَ- بَدَاءَةً- إِلَى أَنَّ بَعْضَ اللُّغَوِيِّينَ يَرَوْنَ أَنَّ ثَمَّةَ صُعُوبَةٍ فِي اعْتِمَادِ تَعْرِيفٍ دَقِيقٍ وَجَامِعٍ لِلسِّياقِ مِنْ حَيْثُ الاصْطِلَاحُ؛ وَمَرَدُّهُمْ فِي تَعْلِيلِ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى تَجَدُّدِ التَّدَاوُلِ الْأَلْسِنِيِّ، وَإِلَى التَّطَوُّرِ الْمَتَسَارِعِ لِلنَّظَرِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الرِّكَونَ².

¹ جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو (صيدا: المكتبة العصرية، 1999)، 1: 10.
² علي نجيب إبراهيم، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، (دمشق: دار كنعان، 2002)، 15.

ولا رَيْبُ في أَنَّ كلمة "سياق" أَنَّ ثَمَّةَ ارتباطاً ما وَصِلَهُ مُتَقَارِبَةٌ بَيَّنَّ المعنى اللُّغَوِيَّ والمعنى الاصطِلَاحِيَّ¹؛

هما- كانطلاقةً أولى- مشتركان في المتابعة والقصد، حيثُ يُقصدُ بهما تتابُعُ الكلام على شكلٍ معيَّنٍ وانتظامُهُ

على معنًى مقصودٍ للمتكلم في ظِلِّ ما عُيِّرَ بِهِ مِنْ أَلْفَاظٍ¹.

¹ صحيحٌ أَنَّ المعجمات العربية القديمة لم تذكر صيغة "المصطلح" بمعناه الحرفي الصناعي المتعارف عليه اليوم وتحديدًا في العلوم المعرفية الحديثة التي تُجرى "علم المصطلحات" إلى أجزاء متشعبة، إلا أنه ورد في مواقع مختلفة ثلُّ على الجهد الواضح الذي بذله القدماء في تحديد مفهوم "المصطلح" إلى درجة أنَّ بعضهم عدَّ "المصطلحات"- بتسمياتها المختلفة- مفاتيح العلوم وبوابتها، فقد بيَّن التهانوي أنَّ "أكثر ما يُحتاج به في تحصيل العلوم المدونة والفنون المروجة إلى الأستاذة هو اشتباه الاصطلاح، فإن لكل علم اصطلاحاً خاصاً به، إذا لم يُعلم ذلك لا ييسر للشارع فيه الاهتداء إليه سبيلاً، وإلى فهمه سبيلاً". وذكر ابن فارس وابن جني والسبوطي وغيرهم- حينما عرّضوا لأصل اللغة وشأتها- عبارة "الاصطلاح"، فمثلاً كان ابن فارس قد أفرّد باباً في كتابه "الصاحبي" بعنوان: "باب القول على لغة العرب: أتوقفت، أو اصطلاح؟" أي هل اللغة توقيفية وُحي من السماء، أو هي من اصطلاح الناس وما تواضعوا عليه فيما بينهم؟ ونرى- أيضاً- ابن جني يعقّد باباً في هذا الشأن تحت عنوان: "باب القول على أصل اللغة ألهام هي أم اصطلاح؟". وعلى هذا المنوال فصل السبوطي الآراء المختلفة وإن لُسنا في صدد الحديث عن أصل اللغة- غير قوله المُعْتَمَد: "في بيان واضع اللغة: أتوقفت هي وُحي، أم اصطلاح ونواطؤ". وفيما نلحظه فقد تضمّن هذا- كما يؤكد الكتّاني- مفهوم الاصطلاح. ولعلنا نستجلي هذا المعنى خلال ما ذكره ابن جني نفسه موضعاً ما المقصود بـ"الاصطلاح" إذ قال في "الخصائص": "...ثم لنعُد فننقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحيًا. وذلك أنهم ذهبوا إلى أنَّ أصل اللغة لا بدَّ فيه من الموضوعة... والاصطلاح- كما يقول الكفوي- هو "اتفاق القوم على وضع الشيء"، وهو، في أبسط معانيه، إخراج الشيء عن المعنى اللغوي إلى معنى آخر لبيان المراد. ويضيف الكفوي أنَّ "الاصطلاح" يستعمل غالباً في العلم الذي تحصيل معلوماته بالنظر والاستدلال ومن خلال تتبع كلام العرب. ويذهب الكتّاني إلى أنَّ القدماء تنبّهوا إلى حقيقة وجود مفهوم "المصطلح"، ولكنهم كانوا يطلقون عليه تسميات أخرى كـ"الألقاب" و"المفردات" و"الألفاظ" و"التسمية"، فمثلاً- يذكر الجاحظ في "البيان والتبيين" أنَّ الخليل بن أحمد وضع لأوزان القصيد وقصار الأرجاز "الألقاب" وأسماء لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك "الألقاب" والأسماء. وينبغي لنا أن نشير إلى أنَّ "الاصطلاح" و"المصطلح" مشتق من المادة اللغوية "ص، ل، ح"، ومن معانيها- لغة- التي تنسجم مع المفهوم الاصطلاحى ما ذكره ابن منظور- مثلاً- على أنَّ التّصَالَح هو تصالح القوم فيما بينهم، فيقول: تصالح القوم بينهم... وقد اصطَلَحُوا وصالَحُوا وصالَحُوا...". وفي "اصطلاحوا" التي جاءت على وزن "افعلوا" (افعل) فليبت التاء صادًا، وأدغمَت الصادُ في "اصالَحُوا"، وكلاهما بمعنى واحد- كما يقول ابن منظور. وأضاف الزبيديُّ مُتَعَمِّدًا كلام ابن منظور أنَّ الاصطلاح هو "اتفاق طائفة مخصوصة على أمرٍ مخصوص". وأما في العصر الحديث نلحظ أنَّ تعريفات المصطلح تشعبت تشعبات كبيرة، الأمر الذي يحتاج إلى دراسة مستفيضة وواقفة حول هذا، فقد جاء في "المعجم الوسيط" أنَّ "الاصطلاح" هو مصدر الفعل "اصطَلَحَ" وهو "اتفاق طائفة على شيءٍ مخصوص، ولكل علم اصطلاحاته". ويرى القاسمي أنَّ المصطلح هو "كل وحدة لغوية" دالة مؤلّفة من كلمة (مصطلح بسيط)، أو من كلمات متعددة (مصطلح مركّب)، وتسمّى مفهومًا بشكلٍ وحيد الوجهة داخل ميدان ما". وأما بخصوص الدراسات الحديثة لعلم "المصطلح، ينقل إلينا محمود حجازي تعريفًا يصفه بأنه أفضل تعريف أوروبي اتفق عليه المتخصصون في "علم المصطلح"، وهو أنَّ "الكلمة الاصطلاحية أو العبارة الاصطلاحية: مفهوم مفرد أو عبارة مركبة استقر معناها، أو بالأحرى استخدامها وخدّد في وضوح. هو تعبيرٌ خاصٌ ضيقٌ في دلاليته المتخصصة، واضحٌ إلى أقصى درجة ممكنة، وله ما يُقَالُ في اللغات الأخرى، يرد دائمًا في سياق النظام الخاص بمصطلحات فرع محدّد، فيتحدّد بذلك وضوحه الضروري". ولعل المتأمل في هذا التعريف يجد أنَّه يركّز على جانبين هامّين من جوانب المصطلح: أوّلُهُما وضوح المصطلح، حيث يُطلب وضوحه إلى أقصى درجة ممكنة، والآخرُ ورُود المصطلح في سياق إطار خاص ضمن فرع محدّد. ويرى عبد الملك مرتاض أنَّه لا ينبغي أن يأتي المصطلح- إن كان وضعًا أو ترجمة- على شكل عبارة طويلة، وإلا فقد أهمّ خصائصه؛ لهذا يجب أن يكون لفظًا واحدًا متصلاً بسيطاً أو مركّباً، لا جملة من الكلام". ولدى دراسة "علم المصطلح" يجد الباحث أنَّ كثيراً من الباحثين ميّزوا بين المستوى النظري والمستوى التطبيقي، وهما: "علم المصطلح" Terminology الذي يعني الجانب النظري، و"المصطلحية" Terminography (وضغ المصطلحات) الذي يُمثّل الجانب التطبيقي. وقد انطلق هؤلاء الباحثون إلى التقريب بينهما على غرار التقسيم في منهجية اللسانيات العامة General Linguistics إلى قسمين: "اللسانيات النظرية Theoretic Linguistic"، و"اللسانيات التطبيقية" Applied Linguistic. ويشار إلى أنَّ من الباحثين من يرى أنَّ هناك التباساً وخطأ بين هذين العلمين، ومن الصّعبة بمكان أن نفرّق أو نفصل بينهما؛ لما لهما من تداخل وتكامل. ولكن الشاهد البوشيخي يُعرّف "الدراسة المصطلحية" بمجملها على أنَّها "ضرب من الدرس العلمي لمصطلحات مختلف العلوم وفق منهج خاص؛ بهدف تبين وبيان المفاهيم التي عُبِّرَتْ وتُعَبِّرُ عنها تلك المصطلحات في كلِّ علم في الواقع والتاريخ معاً". إضافة إلى ذلك، فيوسّعنا أنَّ تسلُّط الضنوء على ما يُسمّى بـ"التعريف المصطلحي" من خلال أهم نظريات المعنى المتعلقة تعلقاً وثيقاً بالتعريف عامة؛ وذلك وفق مناهج التعريف في اللسانيات الحديثة التي تحوي بدورها التقنيات الإجرائية Procedural Techniques التي سارَتْ عليها كثيرٌ من المعجمات المتخصصة في تعريف المداخل Introductions، والمصطلحات Terms. والحقيقة، أنَّ أهمية تعريف "المداخل" تأتي، لما لها من تأسيس وإبراز للجذور المعرفية-الإستمولوجية Epistemological Roots- كما يقول رونالد جيرى Ronald Gier- في تحديد المفاهيم Concepts المتوخّاة من المصطلحات العلمية والمعرفية. فالتعريف المصطلحي- بهذا- هو التعريف الذي يعتمده "علم المصطلح الحديث"، ويتوخّى منه تعريف المفهوم The Concept وليس الكلمة لغة مجردة. ونعني بـ"المفهوم" هنا التصوّر أو الفكرة التي يُعَبِّرُ عَنْهُ بمصطلح أو رمز، حيث يتكوّن هذا التصوّر من الخصائص المنطقية والوجودية المتعلقة بشيء أو مجموعة من الأشياء ذات الخصائص المشتركة. ومن الواضح، في هذا المضمار، أنَّه لا يمكن تعريف "المفهوم" ما لم يتمّ تحديد موقعه في "المنظومة المفاهيمية" التي تُشكّل الحقل العلمي أو التقني الذي ينتمي إليه ذلك "المفهوم"، بمعنى أنَّ معرفة علاقات "المفهوم" تتمّ بغيره من مفاهيم الحقل العلمي Scientific Field. وهو يختص بالآلفاظ التي تتصل بمجال من المجالات المعرفية في العلوم الإنسانية لدى جماعة من الباحثين في ميدان معيّن. ويرتبط التعريف "الاصطلاحى" ارتباطاً وثيقاً بالمعاجم المتخصصة، حيث يقوم على ركيزتين متكاملتين، وهما، أولاً، تحديد الخصائص الجوهرية لـ"المفهوم"، وثانياً، تحديد موقع "المفهوم" في "الحقل المفاهيمي" Conceptual Field وعلاقته مع

وينبغي لكلمة "السياق" أن توضع في معيارها الصحيح؛ كني لا تتشعب التعريفات وتتفرق السبل في تأطير دائرة البحث، فمن هنا يرى فيرث Firth أن معنى الكلمة، أي كلمة، لا ينكشف إلا من خلال وضعها في سياقات مختلفة ومجالات عديدة²، فإن الميزان الحقيقي، والموضوعي في الوقت نفسه، أن تُحدّد المعاني عبر القنوات العملية؛ تصديقاً لما ذكره فيتجنشتاين Wittgenstein بقوله: "لا تسأل عن المعنى، ولكن اسأل عن الاستعمال"³؛ إذ الاستعمال هو المحدّد النوعي للمعاني التركيبية⁴.

ويرى عبد القادر عبد الجليل أن السياق "هو ضمّ الوحدات اللغوية بعضها إلى بعض، وإحكام شدّ أجزائها اتصالاً وتتابعاً، وما تعكسه من دلالة في النصّ أو الحديث"⁵، فالمقصود بالسياق ما يُصاحِب اللَّفْظَ ممّا يُساعدُ على توضيح المعنى؛ ومثّل القرائن (Contexts) دوراً بارزاً في إظهار القيم السياقية وتوضيح دلالاتها، وجوانبها الخلاقية⁶.

ويذهب أوشان إلى أن السياق يُعبّر عنه بمجموع نصّ يحيط بعنصر لغويّ كالكلمة أو الجملة أو جزء من ملفوظ، ويتعلّق بمعناها وقيمتها أيضاً على أساس أنّه مجمّوع الظروف التي في إطارها يندرج فعل ما؛ من هنا تنتج عدّة سياقات⁷.

المفاهيم المنتمية لذلك الحقل، إذ إن كل مجال معرفي له منظومة مفهومية خاصة به تتألف من مجموع المفاهيم ذات العلاقة بذلك المجال. ولهذا، فإنّ التعريف "المصطلحي" ليس مجرد تلخيص للمضمون المدلولي للاسم في جملة أو عدة جمل، إنّما هو بناء يخضع لمبدأ الترتيب التدريجي للسمات الدلالية التي بوسعيها أن تُحدّد المصطلح في إطار مجموعة من العلاقات. وينبغي له أن يُلبي أربعة شروط وهي: أ- تحديد المجال المعرفي لـ "المصطلح". ب- تحديد علاقة "المصطلح" بالمصطلحات الأخرى المتعلقة به. ت- تعريف "المصطلح" من حيث "المفهوم". ث- الانطلاق من "المفهوم" نفسه وتعيينه؛ لتحديد "المصطلح"، وليس من خلال المعنى العام. انظر: محمد علي بن علي بن محمد التهانوي، *كشاف اصطلاحات الفنون* (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، 1: 5؛ الكفوي، *الكليات*، 129-130؛ ابن فارس، *الصاحبي* (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، [د.ت.])، 6-9؛ ابن جني، *الخصائص*، 1: 51-56؛ السيوطي، *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*، 1: 12-29؛ ابن منظور، *لسان العرب*، 5: 374؛ الجاحظ، *البيان والتبيين*، 1: 88؛ الزبيدي، *تاج العروس*، 4: 125-126؛ محمد الكتاني، *موسوعة المصطلح في التراث العربي: الديني والعلمي والأدبي* (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2014)، 3: 2503-2505؛ إبراهيم مدكور وآخرون، *المعجم الوسيط*، 520؛ علي القاسمي، *المصطلحية: مقدمة في علم المصطلح* (بغداد: دار الشؤون الثقافية والنشر، 1987)، 215؛ الشاهد البوشيخي، *نظرات في المصطلح والمنهج* (فاس: أنفو برانت، [د.ت.])، 9؛ محمود حجازي، *الأسس اللغوية لعلم المصطلح* (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، 1993)، 11-12؛ عبد الملك مرتاض، "صناعة المصطلح في العربية"، *مجلة اللغة العربية* 2 (1999)، 30.

¹ أشرف الكتاني، *الأدلة الاستثنائية عند الأصوليين* (عمّان: دار الفنايس، 2005)، 220.

² أحمد مختار عمر، *صناعة المعجم الحديث*، 132.

³ Janet Dean Fodor, "Semantics: Theories of Meaning in Generative Grammar", *Journal of Linguistics* 14 (1978), 115.

⁴ إدريس مقبول، *السياق في تداوليات أبي إسحاق الشاطبي* (الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2007)، 254.

⁵ عبد القادر عبد الجليل، *علم الصرف الصوتي* (عمّان: دار أمانة للنشر والتوزيع، 1998)، 155.

⁶ محمد أحمد أبو الفرج، *المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث* ([د.م.]: دار النهضة العربية، 1966)، 116؛ عبد القادر عبد الجليل، *علم الصرف الصوتي*، 155.

⁷ علي آيت أوشان، *السياق الشعري من البنية إلى القراءة*، 31.

ومن التعريفات الاصطلاحية التي تحتاج إلى عناية متأنية¹، لا سيما من قبل المختصين في علم المنطق، هو ما أوردته البستاني حينما عرض للسياق قائلاً: ".. والسياق البعيد عند المنطقيين هو الشكل الرابع من القياس، وهو ما كان الحد الأوسط فيه محمولاً في الكبرى، وموضوعاً في الصغرى نحو: كل جسم مؤلف وكل مؤلف محدث، فبعض المحدث جسم"².

6. 1. مصطلح "السياق" عند علماء الأصول:

من حيث نشأة المصطلح "سياق" فقد اهتم علماء الأصول اهتماماً بالغاً بالسياق؛ حتى عدا يُشكّل مدخلاً منهاجياً أساسياً للوصول إلى دراسة مؤدّى الدلالات وتحديدّها، واستخراج قُدّرات النصّ على استيعاب، بل إنّ "السياق" أضحي من أبرز محدّدات دلالة النصّ.

¹ لا يتسع المجال للإسهاب فيها وبحيثا في هذه الأطروحة؛ لأنّها تخصّ مصطلحات علم المنطق، والأجدر أن نلتزم بما نعرفه من حيث البحث الأكاديمي.

² البستاني، محيط المحيط، 441.

وعلى الرغم من اهتمام علماء الأصول¹ بالسياق واستعمالهم له في تفسير النصوص¹ إلا أنهم- كما

يؤكد عبد المجيد السوسو- لم يُقدِّموا بالحديث في أبواب أو مباحث مستقلة في كتب الأصول، بل كان حديثهم

1 "الأصول" جمع "أصل"، وهو- كما يقول ابن فارس- أصل الشيء وجذره وأساسه، أو ما يقوم عليه بناؤه مادياً أو معنوياً. ومنه كلمة "الأصل" التي تعني ما كان له أصل يرتكز عليه، أو عمق يمتد وراء ظاهره. وقد أورد الزاغبي الأصفهاني والفيومي أن أصل الشيء أسفله وأساسه والقاعدة التي تقوم عليه. وأصل الشيء: ثبت أصله وقوي ثم كثر حتى قيل: أصل كل شيء ما يستند وجود ذلك الشيء إليه، فالأصل أصل للولد، والنهر أصل للجول. كما أن الأصل- وفق ما يورده أبو هلال العسكري- هو الذي يُبدأ منه؛ ولذلك يقال: أصل الإنسان الثراب، وأصل هذا الحائط حجر واحد؛ لأنه بُدئ به في بُنيانه. من هنا يُعرِّف الشريف الجرجاني على أنه "ما يُبنى عليه غيره". ويُقال "أصل" (على وزن فعل) الفكر والرأي إذا كان جيداً وأصيلاً. وقد ورد لفظ "أصل" في القرآن مفرداً وجمعاً، نحو قوله تعالى: {الْم تَر كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} (القرآن الكريم، إبراهيم: 24)، ونحو قوله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} (القرآن الكريم، الحشر: 5). وذكر ابن الأعرابي أن الأصل هو العقل. وفي هذا المعنى نستشف العلاقة الرابطة بين "الأصل" و"العقل"، وكان هناك توازياً بينهما؛ لأن الأصل- فيما نستقرئه- تتطلب عقلاً يقظاً وقريحة فذة في قراءة النصوص واستنباط الأحكام واستنتاج المفاهيم؛ فلا أصول دون عقل منضبط ينطلق من قاعدة متينة وأساس صلب. ووفقاً إلى هذا المدلول فإنه بإمكاننا أن نربط بين "علم الأصول" و"أصول العلم" ربطاً متماهياً ومرتبياً في الوقت نفسه، ف"علم الأصول" هو- بمعناه العلم الشامل- هو العلم الذي يبحث في أصول الأشياء ومنطقتها ويفضي إلى الفلسفة الجوهرية التي يتأسس عليها، بينما "أصول العلم" هي الأصول والقواعد التي يقوم عليها هذا العلم أو ذلك ويتوصل بها- كما يشير الشريف الجرجاني في تعريفاته- كمرحلة ثانية تعقب مرحلة التنظير الأصولي. وهذا يعني- من وجهة نظري- أن "علم الأصول" أعم وأسبق من "أصول العلم". ومصطلح "الأصول" يخص علومها عديداً ويتداخل معها، كأصول الفقه، وأصول النحو، وأصول الكلام، وأصول العروض، وأصول الفلسفة... وغيرها من علوم "الأصول". ولهذا فمن الخطأ أن يُظن أن "علم الأصول" هو علم خاص بالفقه، بل إن كل علم- فيما نراه- له أصول وركائز يقوم عليها وينطلق منها. وعلم الأصول هو العلم الذي يتناول الأدلة (نحوها، فقها... إلخ) في تقنين الأحكام وما تقوم عليه من قواعد ومقاصد، ومن مراتب تلك الأدلة، وكيف يتم التعامل مع النص بمختلف دلالاته، ومع القياس وحدود استعماله. ويُقصد بـ"علماء الأصول"- عامة- هم العلماء الباحثون في أصل العلوم والتمسكون من هذا العلم بما يؤهله لأن يؤسسون ويُعلّقوا ويجهّدوا. ولعل في هذا المقام أود أن أشير برأيي إلى أن مصطلح "علم الأصول" و"الأصول" وعلماء والأصول"- وكل ما يتعلق به من تصرفات وتقلبات- هو مصطلح فضفاض، بلغة اللبس والغوض من جهة المعنى، والتنوع والتعدد من جهة الاستخدام. ومن يُنعم النظر في طبيعة المصطلح ومعالجته يتبدّل له فيما أراه- أن ثمة تشابهاً من حيث الوظائف المعرفية والتداولية"- إن جاز لي التعبير- بين الأصول والإبستمولوجيا، فالإبستمولوجيا- كما عرضنا سابقاً- تُعنى بدراسة مناهج العلوم وأصولها ومبادئها وتاريخها، أو هي- كما عرّفها يوسف خياط- الدراسة التي تبحث العلوم من حيث موضوعاتها ومبادئها وقوانينها وعلاقات بعضها ببعض، وتكشف عن أصلها ومداها. وعلى صعيد آخر، تُجدر الإشارة هنا إلى أن الباحث محمد الكتاني- وغيره من الباحثين- يرفض بشدة ما يُعارف عليه اليوم حول مفهوم مصطلح "الأصول" وعلم الأصول" والأصولي"، فيؤكد أن ثمة خطأ كبيراً وقع هذا كما شاع في العصر الحديث ومرده إلى ترجمة المقابل في اللغات الأجنبية، وبالتالي فلا مُبرّر لإطلاق مصطلح "الأصولي" على المُعالي في الدين أو المتطّرف في الأخذ بآراء السلف. وإذا كنّا نتحدّث حول "الأصل" و"الأصول" فإنه ينبغي أن نلفت الانتباه باختصار- إلى ما يُقابلها ويكملها في الوقت ذاته ألا وهو "الفرع" و"الفروع"، ف"الفرع" من كل شيء أعلاه. وهو ما يفرّع من أصله كفرع الشجرة. ويُقال: فرّع من الأصل فروعاً أي استخرج منه مسائل فرعية. و"الفرع" هو مصطلح لا يتجزأ من "الأصول"، وهو ما يُصطلح عليه في علوم كثيرة، كالفروع النحوية، والفروع الفقهية، والفروع الكلامية... وغيرها من الفروع. وفي ذلك يقول الكفوي إن "الأصول من حيث إنها مبنى وأساس لفرعها سُميت قواعد... والأصول تتحمل ما لا تتحمّله الفروع"، ثم يضرب الكفوي أمثلة جمّة في ذلك، فيقول، على سبيل المثال: "...والأصل في كلمة (من) ابتداء الغاية، والباقي متفرّع عنه عليه قاله المبرّد. وقال الآخرون: الأصل فيه هو التبعية والباقي متفرّع عنه عليه...". وهذا يعني أن النحاة استعملوا مصطلح "الفرع" في مقابل "الأصل"، وهي من صميم علم أصول النحو الذي يقوم على ركائز أهمها السماع، والقياس، والاستدلال، والعلم النحوي، والعوامل... إلخ. وإلى هذه العلاقات توة التهانوي إلى الرابط بين "الأصل" و"الفرع" قائلاً إن الأصل هو المحتاج إليه والفرع هو المحتاج". وعلى هذا درج الشريف الجرجاني في تعريفه بقوله إن "الأصل" عبارة عما يُفترق إليه، ولا يُفترق هو إلى غيره. ونلاحظ كذلك في موضع آخر- كما ينقل لنا الباحث نعمان بورفرد- أن روجر أرلندين Roger Arnaldez [1911-2006م] يقيم مقارنة بين منهج ابن حزم ومنهج سيبويه، مقررًا أن الأول بنّجه نحو البحث في الأصول، بينما بنّجه الثاني في الفروع النحوية المتمثلة بقواعد اللغة العربية. وفي تصانيف النحاة نجد أن النحاة عرّفوا "الأصل" تعريفات عديدة، منها، أنه: "أول يُبنى عليه ثان"، و"ما ينبغي أن يكون الشيء عليه"، و"ما حق التركيب أن يكون عليه وإن لم ينطق به". ونلاحظ كذلك أن "الأصل" في عرف النحاة يُطلق على معان كثيرة، منها: أ- الدليل الذي يستند إليه الحكم النحوي، نحو قولهم: الأصل في هذه المسألة السماع، أو القياس، أو الإجماع، ويقصدون بذلك "الدليل" عليها، ومن هنا سُميت "أدلة النحو" بـ"أصول النحو" كما يقول ابن الأنباري. ب- القاعدة الكلية التي تتسحب على الجزئيات والفروع التي مَهَّدَها النحاة؛ للتعامل والتعاطي مع أدلة النحو من أجل استنباط الحكم النحوي، كقولهم: "القليل لا يُعَدُّ به"، و"الأصل في الأسماء ألا تعمل"، وغيرها من القواعد الكلية لأصول النحو. ت- القاعدة الأصلية التي يستحقها الشيء والتي تُقابل القاعدة الفرعية، نحو قولهم: "الإعراب أصل في الأسماء"، بمعنى أن الأسماء تستحق أن تكون مُعرّبة؛ لا عتوارها المعاني؛ فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة. ث- المُقيس عليه خلال العملية القياسية التي يُحل فيها غير المنقول (أي الفرع) على المنقول (أي الأصل)، وهو ما يُطلق عليه بـ"القياس الاستعمالي" من لدن المتكلم، ومثال ذلك ما ذكره ابن الأنباري بقوله: "أجمعنا على أنه إذا قال العربي "كتب زيد" فإنه يجوز أن يستند هذا الفعل إلى كل اسم مُسمّى به تصح منه الكتابة سواء كان عربياً أو أعجمياً، نحو: "زيد، وعمر، وبشير، وأزديش، وإلى ما لا يدخل تحت الحصر، وإثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النقل محال...". ث- الظاهرة النحوية السابقة للشيء، نحو قول الخليل بن أحمد: "إن (لن) أصلها (لا و إن)"، وكقول ابن شقير: "...وأصل "الذي" هو "ذو" كقول الشاعر: إذا ما جرى لم يستشِرْني بدو جنى وليس يُعزّيني الذي هو قارف". انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، 1: 61؛ 2: 8؛ ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، 1: 46؛ 2: 666؛ لمع الأدلة في أصول النحو، 98؛ الرّماني، الفروق في اللغة، 156-157؛ الهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، 1: 123؛ الشريف الجرجاني، التّعاريف، 34؛ سيبويه، الكتاب، 3: 5، المبرّد، المقتضب، 2: 8؛ ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، 1: 46؛ 2: 666؛ لمع الأدلة في أصول النحو، 98؛ الرّماني،

عَنِ السِّيَاقِ مُتَنَازِعًا؛ لِهَذَا كَانَ لِزَامًا أَنْ يُعْمَلَ فِي جَمْعٍ مَا أَثْبَتَهُ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ²؛ كَيْ تَتَجَلَّى لَنَا رُؤْيُهُمْ وَمَنْظُورُهُمْ
لِلسِّيَاقِ، خَاصَّةً أَنَّ هَذِهِ الْآرَاءَ كَانَتْ الْإِنْطِلَاقَ الْأَوَّلَى فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ.

وَتَأْكِيدًا لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، يُبَيِّنُ رَدَّةَ اللَّهِ الطَّلَحِي أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُرُودِ لَفْظِ السِّيَاقِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ بِصِيغٍ
مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَبَايِنَةٍ؛ سِوَاكَ ذَلِكَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَصُولِ أَوْ اللَّغَوِيِّينَ أَوْ الْبَلَاغِيِّينَ أَوْ الْمَفْسِّرِينَ، إِلَّا أَنَّهُ يُسْتَعْمَلُ
اسْتِعْمَالَاتٍ "سِيَاقِيَّةً" مُخْتَلِفَةً قَابِلَةً لِتَعَدُّدِ الْفَهْمِ³.

وَبِنَاءٍ عَلَيْهِ، يُمْكِنُ - بِدَايَةٍ - إِطْلَاقُ حَقِيقَةٍ مَفَادُهَا أَنَّهُ مَعَ تَعْوِيلِ الْقَدَمَاءِ عَلَى السِّيَاقِ وَالْإِفَادَةِ مِنْهُ فِي
فَهْمِ النُّصُوصِ أَوْ بَنَائِهَا إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُعْتَدَ بِهِ مُصْطَلَحًا مُسْتَقِلًّا قَائِمًا بِذَاتِهِ؛ بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَمْ يَوْضَعْ لَهُ تَعْرِيفٌ مُحَدَّدٌ
وَمَعَيَّنٌ، وَلَمْ يُجَرَّ لَهُ فِي كُتُبِ التَّعْرِيفَاتِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ ذِكْرٌ أَوْ تَخْصِيصٌ⁴.

بَيَّنَدَ أَنَّ الْبَاحِثَةَ بَنِيَّةَ الْجَلَّاصِي تَذَهَبُ خِلَافَ ذَلِكَ، فَتَرَى أَنَّ وَعْيَ عُلَمَاءِ الْأَصُولِ بِقَضَايَا "السِّيَاقِ"
وَأَهَمِّيَّتِهِ فِي تَفْسِيرِ النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا، مُؤَكَّدَةً أَنَّ اهْتِمَامَ عُلَمَاءِ الْأَصُولِ بِمَبْحَثِ "السِّيَاقِ" وَأَثَرِهِ فِي
الدَّلَالَةِ كَانَ مُتَمَدِّدًا عَلَى مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةٍ؛ إِذْ تَوَارَدَتْ، فِي مِطَازِ الْمَصْنُوعَاتِ لَدَيْهِمْ، الْعِدِيدُ مِنَ الْمِصْطَلَحَاتِ الْمُتَّصِلَةِ
بِمَفْهُومِ "السِّيَاقِ" أَوْ بِكَيْفِيَّةِ تَوْظِيفِهِ، مِنْ بَيْنِهَا مُصْطَلَحُ "الْمَقَامِ"، وَ"الْمَسَاقِ"، وَ"مَقْتَضَى الْحَالِ"، وَ"الْقَرَائِنِ الْمُؤَثِّرَةِ
فِي مَعْنَى الْخُطَابِ"، وَالسَّبَبُ⁵.

الحدود في النحو، 73؛ الخضرى، حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل، 2:42؛ أبو بكر الحسن بن شقير البغدادى، المحلى: وجوه
النصب (إريد: مؤسسة الرسالة- دار الأمل، 1987)، 134-135؛ محمد الكثاني، موسوعة المصطلح في التراث العربى، 1: 222-224؛
2: 1843-1845؛ يوسف خياط، معجم المصطلحات العلمية والفنية، 11؛ جميل صليبا، المعجم الفلسفى (بيروت: دار الكتاب اللبنانى،
1982)، 1: 96-97؛ نعمان بوقرة، النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسى: قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللسانى وأبعاده
المعرفية (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004)، 31-32. المصدر باللغة الفرنسية هو: Roger Arnaldez, Grammaire et Théologie chez Ibn Hazam de Cordoue: Essai sur la structure et les conditions de la
pensée musulmane (Paris: J. Vrin, 1956), 55.

¹ تجب الإشارة هنا إلى أننا في مجال تعريف المصطلح- أدرجنا ما قاله العلماء حول خصيصة السِّيَاق وفقًا لمؤلفاتهم وتصنيفاتهم، فعندما
نتحدث عن "السِّيَاق عند علماء الأصول" فإن المقصود هنا هو ما خُوِّثَ مصنفات علماء الأصول حتى لو أن هذا العالم أو ذلك اشتهر في
مجال آخر، والأمر ينسحب على اللغويين البلاغيين والمفسرين. فمثلاً، استعنا في هذه الأطروحة بما قاله الزركشي، فجاءت أقواله حول
تعريف السِّيَاق في موقعين، موقع عند علماء الأصول؛ بسبب كتابه "البحر المحيط في أصول الفقه"، وموقع عند المفسرين؛ وذلك بسبب
كتابه "البرهان في علوم القرآن" الذي يُعدُّ من صميم علوم التفسير.

² عبد المجيد محمد السوسو، "السِّيَاق وأثره في دلالات الألفاظ دراسة أصولية"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية 74 (2008)،
20.

³ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السِّيَاق (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2003)، 41.

⁴ ردة الله الطلحي، دلالة السِّيَاق، 41.

⁵ بنينة الجلاصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي: آليات القراءة وسلطة النصاص (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2014)، 34.

وعليه، فقد عُدَّ في عُرف كثيرٍ مِنَ الدَّارِسِينَ - وبهذا المفهوم - أنَّ "السِّيَاقَ" هو مصطلحٌ فقهيٌّ في مَنْشئِهِ¹، إذ يُعَدُّ الشَّافِعِيُّ [150-204هـ، 767-820م] - كما يذهب كثيرٌ مِنَ الدَّارِسِينَ - أوَّلَ مَنْ اسْتَعْمَلَ

مصطلح "السِّيَاقِ" حينَ عَقَدَ بابًا في الرِّسَالَةِ "أَسْمَاءُ" بابَ الصَّنْفِ يُبَيِّنُ سِيَاقَهُ معناه".²

وقد أشارَ إليه في معرضِ كلامِهِ حَوْلَ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ قَائِلًا: "...فإنَّما خَاطَبَ اللهُ بكتابه العَرَبَ بلسانها، على ما تُعرَفُ مِنْ معانيها، وكانَ ما تُعرَفُ مِنْ معانيها: اتِّسَاعُ لسانها، وأنَّ فِطْرَتَهُ أَنْ يُخَاطَبَ بالشَّيْءِ مِنْهُ عامًّا ظاهرًا يُرادُّ بِهِ العامُّ الظَّاهِرُ، ويُستَعْنَى بأوَّلِ هذا مِنْهُ عَنْ آخِرِهِ. وعامًّا ظاهرًا يُرادُّ بِهِ العامُّ ويدخلُهُ الخاصُّ؛ فَيُسْتَدَلُّ على هذا ببعضِ ما خوطِبَ بِهِ فيه، وعامًّا ظاهرًا يُرادُّ بِهِ الخاصُّ. وظاهرًا يُعرَفُ في سياقِهِ أَنَّهُ يُرادُّ بِهِ غَيْرُ ظاهرِهِ، فكلُّ هذا موجودٌ عِلْمُهُ في أوَّلِ الكلامِ أو وسطِهِ أو آخِرِهِ. وتَبْتَدِئُ الشَّيْءَ مِنْ كلامِها يُبيِّنُ أوَّلَ لَفْظِها فيه عَنْ آخِرِهِ. وتَبْتَدِئُ الشَّيْءَ يُبيِّنُ آخِرَ لَفْظِها مِنْهُ عَنْ أوَّلِهِ. وتُكَلِّمُ بالشَّيْءِ تُعرَفُ بالمعنى دُونَ الإيضاحِ باللفظِ، كما تُعرَفُ الإشارةُ، ثُمَّ يَكُونُ هذا عِنْدَها مِنْ أَعْلَى كلامِها؛ لِانْفِرَادِ أَهْلِ عِلْمِها بِهِ، دُونَ أَهْلِ جِهَاتِها".³

كما اسْتَعْمَلَ الشَّاطِئِيُّ [...] 790-...هـ، ... 1388م] لَفْظَ "المساقِ" قاصِدًا بِهِ السِّيَاقَ، إذ: "المساقاتُ تختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأوقاتِ والنَّوْازِلِ، وهذا معلومٌ في عِلْمِ المعاني والبيانِ، والذي يَكُونُ على بَالٍ مِنَ المستمعِ والمتفهمِ: الالتفاتُ إلى أوَّلِ الكلامِ وآخِرِهِ بحسبِ القضيةِ، وما اقْتَضَاهُ الحالُ فيها، لا يُنْظَرُ إلى أوَّلِها دُونَ آخِرِها، ولا في آخِرِها دُونَ أوَّلِها... وعِلْمُ المعاني والبيانِ والبدیعِ إمَّا مدارُهُ على معرفةِ مقتضياتِ الأحوالِ حالِ الخطابِ مِنْ جِهَةِ نفسِ الخطابِ، أو المخاطَبِ، أو المخاطِبِ، أو الجميعِ، إذ الكلامُ الواحدُ يختلفُ فهمُهُ بحسبِ حالِئِهِ، وبحسبِ مخاطَبِئِهِ وبحسبِ غَيْرِ ذلك، كالاستفهامِ لفظَةً واحدةً، وتدخُلُهُ معانٍ أخرى مِنْ تقريرٍ وتوبيخٍ وغيرِ ذلك، وكالأمرِ يدخُلُهُ معنى الإباحةِ والتَّهْدِيدِ، والتَّعْجِيزِ وأشباهِها، ولا يَدُلُّ على معناها المُرادُّ إِلَّا الأمورُ

¹ عبد المجيد محمد السَّوسُو، "السِّيَاقُ وأثره في دلالات الألفاظ - دراسة أصولية"، *مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية* 74 (2008)، 22.

² محمَّد بن إدريس الشَّافِعِيُّ، *الرِّسَالَةُ* (القاهرة: مكتبة دار التراث، 2005)، 144.

³ الشَّافِعِيُّ، *الرِّسَالَةُ*، 135-136.

الخارجية، وعمدتها مقتضيات الأحوال... ومن ذلك: معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها، ومجاري حالة التنزيل¹.

ويتبدى لنا في موضع آخر أن الشاطبي يُشير إلى ضرورة أخذ السياق بالحسبان لدى قراءتنا للتصو؛ مؤكداً أنه لا بُدَّ في كلام العرب من اعتبار معنى السياق في دلالة الصيغ، وإلا صار ذلك ضرباً من الضحك والهزء² بمقصد النص؛ فلا يُحمل على المعنى الذي سيق لأجله الكلام. وقد علَّل الشاطبي ذلك أنك إذا نظرت إلى قولهم فلان أسد أو فلان عظيم الرَّماد... وما لا ينحصر من الأمثلة، وعُدَّ اللَّفْظُ بِمَجَرَّدِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْنَى مَعْقُولٌ، فكيف لو كان الأمر متعلِّقاً بالنص القرآني والحديث النبوي³! أي إنه - بهذا الاعتبار - لا يليق بهذه التصو أن تُفهم بمعزل عن سياقاتها.

وقد وضح الجويني [419-478هـ، 1028-1058م] - من قبل - أثر "السياق" في تقييد مُطلقِ النصوص قائلاً: "إنَّ الصَّيْغَةَ الَّتِي تُسَمَّى مُطْلَقَةً لَا تَكُونُ إِلَّا مُقْتَرَنَةً بِأَحْوَالٍ تُدُلُّ عَلَى أَنَّ مُطْلَقَهَا لَيْسَ يَبْغِي بِإِطْلَاقِهَا حِكَايَةً، وَلَيْسَ هَازِئًا بِهَا، فَإِذَا لَا تُلْقَى صَيْغَةً عَلَى حَقِّ الإِطْلَاقِ ... فَإِذَا كَانَتِ الصَّيْغَةُ الْمُطْلَقَةُ مَقْصُودَةً لِلْمُتَكَلِّمِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قِرَائِنِ التَّقْيِيدِ، وَهِيَ تَنْقَسِمُ إِلَى قِرَائِنٍ مَقَالٍ وَإِلَى قِرَائِنٍ أَحْوَالٍ⁴. ثُمَّ يُبَيِّنُ الْجَوْنِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ارْتِبَاطَ الْمَعَانِي بِ"السِّيَاقِ"، وَأَنَّ الْمَعْنَى لَا يَتَأَثَّرُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ الْفَهْمِ الْحَقِيقِيِّ لِتَرْكِيبِ النَّصِّ وَسِيَاقِهِ، فَيَقُولُ: "... فَإِنَّ الْمَعَانِيَ يَتَعَلَّقُ مُعْظَمُهَا بِفَهْمِ النَّظْمِ وَالسِّيَاقِ..."⁵.

كما خصَّص أبو حامد الغزالي [450-505هـ، 1058-1111م] للسياق مبحثاً منفرداً بعنوان: "فَهُمْ غَيْرِ الْمَنْطُوقِ بِهِ مِنَ الْمَنْطُوقِ بِدَلَالَةِ سِيَاقِ الْكَلَامِ وَمَقْصُودِهِ"⁶، حَيْثُ ضَرَبَ أَمْثَلَةً كَثِيرَةً تَشْرُحُ مَقْصُودَ دَلَالَةِ "السِّيَاقِ" نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٌّ وَلَا نَهْرُهُمَا...}⁷، وَفِيهَا يُفْهَمُ تَحْرِيمُ "السَّتَمِ" وَ"الْقَتْلِ" وَ"الضَّرْبِ"،

¹ إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات (الرياض: مكتبة الرشد، 1999)، 3: 309.

² الشاطبي، الموافقات، 3: 153.

³ ن. م، 3: 153.

⁴ إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني، البرهان في أصول الفقه (المنصورة: دار الوفاء، [د.ت.])، 1: 185.

⁵ الجويني، البرهان في أصول الفقه، 2: 870.

⁶ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية- كلية الشريعة، [د.ت.])، 3: 411.

⁷ القرآن الكريم، الإسراء: 23.

ولا يُمكنُ أَنْ يُتَوَصَّلَ إلى هذا المعنى ما لم يُفْهَمَ الكلام وما سيقَ لَهُ؛ مُؤَكِّدًا - الغزالي - أَنَّهُ لولا "معرفتنا بأنَّ الآيةَ سَيِّقَتْ لتعظيمِ الوالدينِ واحتراميهما لَمَا فَهَمْنَا مَنْعَ الضَّرْبِ والقَتْلِ مِنْ مَنْعِ التَّأْفِيفِ، إِذْ قَدْ يَقُولُ السُّلْطَانُ - إِذَا أَمَرَ بِقَتْلِ مُلْكٍ -: "لا تَقُلْ لَهُ أَفٍّ، لَكِنْ اقْتُلْهُ"... فَإِنْ قِيلَ: الضَّرْبُ حَرَامٌ قِيَاسًا عَلَى التَّأْفِيفِ؛ لِأَنَّ التَّأْفِيفَ إِنَّمَا حُرِّمَ لِلإِيذَاءِ، وَهَذَا الإِيذَاءُ قَوْفُهُ، قُلْنَا إِنْ أَرَدْتَ بِكَوْنِهِ قِيَاسًا: أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى تَأْمُلٍ وَاسْتِنْبَاطِ عِلَّةٍ، فَهُوَ خَطَأٌ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنَّهُ مَسْكُوتٌ فِيهِمْ مِنْ مَنْطُوقٍ، فَهُوَ صَحِيحٌ، بِشَرْطِ أَنْ يُفْهَمَ: أَنَّهُ أَسْبَقُ إِلَى الْفَهْمِ مِنَ الْمَنْطُوقِ، أَوْ هُوَ مَعَهُ، وَلَيْسَ مُتَأَخِّرًا عَنْهُ"¹.

وَيُعَلِّلُ الْغَزَالِيُّ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي مُؤَلَّفٍ ثَانٍ بِقَوْلِهِ: إِنَّ الْآيَةَ سَيِّقَتْ لِقَصْدٍ مَعْلُومٍ، وَهُوَ الْحَثُّ عَلَى تَوْقِيرِ الْوَالِدَيْنِ وَإِعْظَامِهِمَا واحتراميهما، وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا. وَالتَّأْفِيفُ إِيذَاءٌ، وَالإِيذَاءُ يُنَاقِضُ الْإِعْظَامَ الْوَاجِبَ، فَالضَّرْبُ وَأَنْوَاعُ التَّعْذِيبِ يَشْتَمِلُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْإِيذَاءِ، فَهُوَ بِمَنَاقِضَةِ الْوَاجِبِ أَوْلَى، فَقَدْ وَجَبَ فِيهَا الْعِلَّةُ وَزِيَادَةُ، فَكَانَ ذَلِكَ اعْتِبَارًا بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى"².

وَتَمَاشِيًا مَعَ الْمَعْنَى نَفْسِهِ يُفَصِّلُ الْغَزَالِيُّ الْمَقْصُودَ مِنَ السِّيَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ...}³، إِذْ إِنَّ الْبَيْعَ لَيْسَ مَقْصُودًا بِهِ النَّهْيُ عَنْهُ لِعَيْنِهِ، وَإِنَّمَا لِكَوْنِهِ مَانِعًا مِنَ السَّعْيِ الْوَاجِبِ إِلَى الْجُمُعَةِ، فَيَقُولُ الْغَزَالِيُّ: "فَإِنْ قِيلَ: وَيَمُ غُرِفَ هَذَا؟ وَهَلَّا قِيلَ: السَّعْيُ إِلَى الْجُمُعَةِ مَقْصُودٌ بِالْإِيجَابِ، وَالْمَنْعُ مِنَ الْبَيْعِ أَيْضًا مَقْصُودٌ؟ قُلْنَا: فَهُمْ ذَلِكَ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ فَهَمَّا لَا يُتِمَّازِي فِيهِ. فَإِنْ قِيلَ: السِّيَاقُ عِبَارَةٌ مَجْمَلَةٌ، فَمَا مَعْنَى السِّيَاقِ؟ وَمَا مُسْتَنَدُ هَذَا الْفَهْمِ؟ قُلْنَا: الْمَعْنَى بِهِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي سُورَةِ "الْجُمُعَةِ" إِنَّمَا نَزَلَتْ وَسَيِّقَتْ لِمَقْصَدٍ، وَهُوَ بَيَانُ الْجُمُعَةِ... وَمَا نَزَلَتْ الْآيَةُ لِبَيَانِ أَحْكَامِ الْبَيَاعَاتِ مَا يَحِلُّ مِنْهَا وَمَا يَحْرُمُ، فَالْتَّعَرُّضُ لِلْبَيْعِ - لِأَمْرِ يَرْجِعُ إِلَى الْبَيْعِ فِي سِيَاقِ هَذَا الْكَلَامِ - يَحْبِطُ الْكَلَامَ وَيُخْرِجُهُ عَنْ مَقْصُودِهِ، وَيَصْرِفُهُ إِلَى مَا لَيْسَ مَقْصُودًا بِهِ... وَلَيْسَ يَتَعَلَّقُ بِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ مَانِعًا لِلْسَّعْيِ الْوَاجِبِ. وَغَالِبُ الْأَمْرِ فِي الْعَادَاتِ جَرَيَانُ التَّكَاسُلِ وَالتَّسَاهُلِ فِي السَّعْيِ بِسَبَبِ الْبَيْعِ، فَإِنَّ وَقْتَ الْجُمُعَةِ يُوَافِي الْخُلُقَ وَهُمْ مَنَعْمَسُونَ

¹ الغزالي، المستصفى من علم الأصول، 3: 411-412.

² أبو حامد الغزالي، شفاء الغليل في بيان الشبهة والمخيل ومسالك التعليل (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1971)، 52-53.

³ القرآن الكريم، الجمعة: 9.

في المعاملات، فكان ذلك أمراً مقطوعاً به لا يُتَمَارَى فيه، فَعَقِلَ أَنَّ النَّهْيَ عَنْهُ: لِكَوْنِهِ مَانِعاً مِنَ السَّعْيِ
الواجب...¹.

وَتَوَقَّفَ الغزالي، في مضمَارِ السِّيَاقِ والقرينة، عِنْدَ القرائنِ المَقَالِيَّةِ التي أَطْلَقَ عَلَيْهَا قرائنَ الأحوال؛ وذلك
خلالَ استعراضِهِ رَأْيِ علماءِ الأصولِ في أَنَّ صَيَغَ العمومِ هي، في الحقيقة، لا دلالةَ فيها أصلاً على العموم؛ أي
استغراقِ جميعِ أفرادِها، وَأَنَّ هذه الدَّلَالَةَ تَابِعَةٌ لِلسِّيَاقِ. فَنَرَاهُ- الغزالي- يُظْهِرُ أَهَمِّيَّةَ ذلك في تحديدِ المعنى وَفَقاً
لسياقاتِ الكلامِ وقرائنِهِ قائلًا: إِنَّ "قَصْدَ الاستغراقِ يُعْلَمُ بِعِلْمٍ ضروريٍّ يحصلُ عَنْ قرائنِ أحوالٍ ورموزٍ وإشاراتٍ
وحركاتٍ مِنَ المتكَلِّمِ وَتَغْيِرَاتٍ فِي وَجْهِهِ، وَأُمُورٍ معلومةٍ مِنْ عَادَتِهِ ومقاصدِهِ وقرائنَ مختلفةٍ لا يمكنُ حَصْرُهَا في
جَنْسٍ ولا ضَبْطُهَا بِوصفٍ، بَلْ هِيَ كَالقَرَائِنِ الَّتِي يُعْلَمُ بِهَا حَجَلُ الْحَجَلِ، وَوَجَلُ الْوَجَلِ، وَجُنُجُ الْجُبَانِ، وكما يُعْلَمُ
قَصْدُ المتكَلِّمِ إِذَا قَالَ "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ" أَنَّهُ يُرِيدُ التَّحِيَّةَ أَوْ الاسْتِهْزَاءَ وَاللَّهُو"².

إِذَنْ، يَمَّا هُوَ غَيْرٌ خَافٍ أَنَّنَا نَلْحَظُ جَلِيًّا أَنَّ الغزاليَّ يعتمدُ على القرائنِ والسِّيَاقِ في تفسيرِ النَّصُوصِ؛
فَيُشِيرُ إِلَى ذلك بِقَوْلِهِ: "...ويكونُ طريقُ فَهْمِ المرادِ تَقَدُّمُ المعرفةِ بوضعِ اللَّغَةِ الَّتِي بها المخاطبةُ. ثُمَّ إِنْ كَانَ نَصًّا لا
يَحْتَمِلُ كَفَى معرفةِ اللَّغَةِ وَإِنْ تَطَرَّقَ إِلَيْهِ الاحتمالُ فلا يُعْرِفُ المرادُ مِنْهُ حقيقةً إِلَّا بِانْضِمَامِ قرينةٍ إِلَى اللَّفْظِ"³.

وَلَعَلَّ الزَّرْكَشِيَّ [745-794هـ، 1344-1392م]، مِنْ علماءِ الأصولِ، كَانَ أَكْثَرَهُمْ وضوحًا بشأنِ
مصطلحِ "السِّيَاقِ"، فَلَقَدْ أَفْرَدَ لَهُ عنوانًا أسماهُ "دلالةُ السِّيَاقِ"⁴. وَمَعَ ذلك، يُبَيِّنُ عبدُ المجيدِ السُّوسُو أَنَّهُ على
الرَّغْمِ مِنْ تعويلِ القدماءِ على السِّيَاقِ والإفادةِ مِنْهُ فِي فَهْمِ النَّصُوصِ وبيانِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَضَعُوا لَهُ تعريفًا محددًا
جامعًا، وَلَكِنْ المتأخِّلُ فِي مجموعِ النَّصُوصِ الَّتِي أشاروا إِلَى السِّيَاقِ يَمَكِّنُ القولَ إِنَّهُمْ يَقْصِدُونَ بالسِّيَاقِ جميعَ القرائنِ
الَّتِي تُسَهِّلُ فِي عَمَلِيَّةِ الفهمِ، قرينةً لفظيةً كَانَتْ أَمْ غَيْرَ لفظيةً"⁵.

¹ الغزالي، شفاء الغليل، 51-52.

² الغزالي، المستصفى، 1: 228.

³ ن.م، 1: 149.

⁴ بدر الدين محمد بن بهادر عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه (الكويت: وزارة الأوقاف بالكويت، 1988)، 6: 52.

⁵ عبد المجيد السُّوسُو، "السِّيَاقُ وأثره في دلالات الألفاظ"، 24.

وَنَقْرَأُ عَنِ السِّيَاقِ مَا جَاءَ عِنْدَ الْعَرَبِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ [577-660هـ، 1181-1262م]، حَيْثُ يَلْفُتُ فِيهِ الْأَنْظَارُ إِلَى أَنَّ "السِّيَاقَ" أَصْلٌ مُعْتَبَرٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، فَيَقُولُ إِنَّ "السِّيَاقَ" مُرْشِدٌ إِلَى تَبْيِينِ الْمَجْمَلَاتِ، وَتَرْجِيحِ الْمَحْتَمَلَاتِ، وَتَقْرِيرِ الْوَاضِحَاتِ. وَكُلُّ ذَلِكَ يُعَرِّفُ الْإِسْتِعْمَالَ، فَكُلُّ صِفَةٍ وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ الْمَدْحِ كَانَتْ مَدْحًا، وَكُلُّ صِفَةٍ وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ الذَّمِّ كَانَتْ ذَمًّا¹.

وَنَلْخِظُ - كَذَلِكَ - أَنَّ السَّرْخُسِيَّ [...] 490-هـ، ... 1097م] يَدْمِجُ فِيهِ تَعْرِيفَهُ لِلْسِّيَاقِ الْقَرِينَةَ بِالسِّيَاقِ؛ فَيَقُولُ إِنَّ الْقَرِينَةَ الَّتِي تَقْتَرُنُ بِاللَّفْظِ، وَتَكُونُ فَرْقًا فِيمَا بَيَّنَّ النَّصِّ وَالظَّاهِرُ هِيَ السِّيَاقُ، بِمَعْنَى ذَلِكَ الْغَرَضُ الَّذِي سِيقَ لِأَجْلِهِ الْكَلَامُ².

مِنْ هُنَا، فَقَدْ رَبَطَ السَّرْخُسِيُّ الْقَرِينَةَ بِالسِّيَاقِ - كَمَا أَشْرْنَا آتِفًا - بِمَفْهُومِ النَّصِّ؛ مُبَيِّنًا أَنَّ النَّصَّ - لَا سِيَّمَا النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ، يَزْدَادُ وَضوحًا وَبَيَانًا بِقَرِينَةٍ تَقْتَرُنُ بِاللَّفْظِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ لَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَوْجِبُ ذَلِكَ ظَاهِرًا بَدُونِ تِلْكَ الْقَرِينَةِ؛ فَيُعَرِّفُ بِهَذَا أَنَّ وَضوحَ الْمَعْنَى مِنْ قِبَلِ الْمُتَكَلِّمِ يَظْهَرُ عِنْدَ الْمَقَابِلَةِ بِالظَّاهِرِ عَامًّا كَانَ أَوْ خَاصًّا، فَيَكُونُ النَّصُّ ظَاهِرًا لَصِيغَةِ الْخُطَابِ - مَثَلًا - نَصًّا بِاعْتِبَارِ الْقَرِينَةِ الَّتِي كَانَ السِّيَاقُ لِأَجْلِهَا نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي إِطْلَاقِ الْبَيْعِ نَصٌّ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْبَيْعِ وَالرِّبَا بِمَعْنَى الْحَلِّ وَالْحَرْمَةِ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ كَانَ لِأَجْلِهَا؛ وَلَئِذَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَتْ رَدًّا عَلَى الَّذِينَ يُسَاوُونَ بَيْنَ الْبَيْعِ وَالرِّبَا³.

وَالْأَمْرُ الْمُتَثِيرُ، فِي هَذَا الصَّدَدِ أَيْضًا، أَنَّ أَبَا الْبَقَاءِ الْكُفَوِيَّ يُشِيرُ فِي مَعْجَمِهِ إِلَى مُصْطَلَحٍ يَحْتَاجُ إِلَى تَأْمُلٍ، أَلَّا هُوَ مُصْطَلَحُ "الْمُسَاوَةِ" مُعَرِّفًا إِيَّاهُ بِأَنَّهُ "يُسْتَعْمَلُ فِيمَا يَعُمُّ الْإِتِّحَادَ فِي الْمَفْهُومِ"⁴. وَهَذَا مَا حَاكَاهُ الْكُرْمِيُّ مُحَاوَلًا أَنْ يُجَلِّيَ مَا عَرَفَهُ الْكُفَوِيُّ، ف"المساوغة المتابعة في اتجاه واحد، وهي المُمَاثَلَةُ والمساواة والاتحاد في المفهوم، فالكلمات المساوغة هي المرادفة والمساوغة. والمساوغة مثل Parallelism"⁵. وَفِي الْمَقَابِلِ نَجِدُ أَصْحَابَ

¹ عَزَّ الذَّيْنِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، الْإِمَامُ فِي بَيَانِ أَدَلَّةِ الْأَحْكَامِ (بَيْرُوت: دَارُ الْبَشَائِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، 1987)، 159.

² أَحْمَدُ بْنُ أَبِي سَهْلٍ السَّرْخُسِيُّ، أَصُولُ السَّرْخُسِيِّ (بَيْرُوت: دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، 1993)، 1: 164.

³ السَّرْخُسِيُّ، أَصُولُ السَّرْخُسِيِّ، 1: 164.

⁴ أَبُو الْبَقَاءِ الْكُفَوِيُّ، الْكَلِمَاتُ - مَعْجَمُ فِي الْمَصْطَلَحَاتِ وَالْفُرُوقِ النُّغَوِيَّةِ (بَيْرُوت: مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، 1998)، 857.

⁵ الْكُرْمِيُّ، الْهَادِي إِلَى لُغَةِ الْعَرَبِ، 2: 409. مُصْطَلَحُ "parallelism" عَلَى الْمَسْتَوَى الدَّلَالِيِّ يَعْنِي التَّمَاثُلَ وَالتَّنَازُلَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، نَحْوَ قَوْلِ الْقَائِلِ: أَعْتَقْتُ أَنَّهُ يُبَالِغُ فِي الْمَوَازَاةِ بَيْنَ كِلَا الْحَالَتَيْنِ (I think he exaggerates the parallelism between the two cases). وَيُعَرِّفُ يُوْرِي لُوتْمَنُ YURI LOTMAN الـ Parallelism عَلَى أَنَّهُ تَقَارُبُ شَيْئَيْنِ أَوْ مَفْرَدَتَيْنِ لَتَبْيَانِ الْمُتَشَابِهَيْنِ وَالْمُخْتَلَفَيْنِ، وَهُوَ نَمُوذَجٌ تَكَرَّرِيٌّ مِلَانِمٌ لِلتَّنَوُّعِ، وَالتَّوَازِي الْوَاحِدُ يُمْكِنُ إِعَادَتُهُ مَرَّاتٍ عَدَّةٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَقْطَعٍ مُتَتَالٍ فِي النَّثْرِ، وَفِي الشَّعْرِ يَكُونُ فِي الْأَبْيَاتِ وَأَشْطَرِّهَا بِصُورِهِ نَفْسِيًّا. وَعَلَى الْمَسْتَوَى النَّحْوِيِّ فَإِنَّهُ يَعْنِي التَّرْكِيبَ الْمَوَازِيَّ أَوْ الْبِنَاءَ الْمُطَابِقَ، وَهُوَ أَنْ يَتطَابَقَ التَّرْكِيبُ النَّحْوِيُّ لِجُمْلَتَيْنِ مِنْ حَيْثُ

المعجمات يذهبون إلى تعريف "المساوقة" تعريفاً يُجانبُ التعريف اللغوي الذي عَرَضْنَا له آنفاً، فهي هو ذا- مثلاً- الجلالِي، بَعْدَ تسليطِهِ الضَّوْءَ على تَقْلِبَاتِ المعنى الواحدِ لمادّة (س، و، ق)، يقول: "...والمساوقة: المتابعة كَأَنَّ بعضَهَا يسوقُ بعضًا"¹.

وبوسعنا أن نُدرِجَ ما جَمَعَهُ الباحثون في استعمالِ علماءِ الأصولِ لكلمة "السياق" بأننا إذا نَظَرْنَا إلى كلمة "سياق" فسنلاحظُ أَنَّها مستعملةٌ عِنْدَ علماءِ الأصولِ كثيرًا وبتسمياتٍ مختلفةٍ وبألفاظٍ مرادفةٍ، نحو: "سياق الكلام"، و"سياق النظم"، و"المقام"، و"مقتضى الحال"، و"المقتضي"، و"لفظ التّأليف"، و"النّظم القرآني"، و"اللفظ الواضح فيما سيق له"، و"ما كان الكلامُ مَسْوقًا لأجلِهِ"، و"وما أوجبه نفسُ الكلامِ وسياقه"، و"ما كان السّياقُ لأجلِهِ"، والعمل بظاهرِ ما سيق الكلامُ له"، و"ما ثَبَتَ بنظمِهِ وسبقَ الكلامُ له"... إلى غَيْرِها من الاستعمالاتِ والمرادفاتِ².

عدّدُ العناصرِ في كليهما. ويُشارُ كذلك إلى أنَّ Parallelism تعني في علمِ البلاغةِ التّوازي، وهو خاصٌّ بعلمِ البديع الذي يبحثُ في جماليّاتِ النّصِّ بما لها من أثرٍ دلاليّ ينبع من التّناسب والتّناسق والتّماثل؛ وذلك عِبرَ تشكّلِ التّوازن في عددٍ من الطّواهر البديعيّة كالترصيع والترصيع والجناس والسّجع والتّطريب... وغيرها من المحسّناتِ البديعيّة. فالترصيع- مثلاً- (تعريفه اصطلاحاً: هو أن تكونَ كُلُّ لفظَةٍ من ألفاظِ الفصلِ الأوّلِ مساويةً لكلِّ لفظَةٍ من ألفاظِ الفصلِ الثّاني في الوزن والقافية)، يُحقّقُ التّوازي بين العباراتِ ممّا يحثّ تناسقاً على المستوى الصّوتي؛ ولذلك يقول قدامة بن جعفر إنّ التّرصيع يكشفُ لنا عن جانبِ التّوازي فنكونُ الألفاظَ متساويةً البناء، سليمةً من عيبِ الاشتباه وتُشِينُ التّعسف والاستكراه، نحو ما دَلَّلَ به أبو هلال العسكريُّ من قول امرئ القيس:

"سليمُ الشّظي، عَيْلُ الشّوى شَنِجُ النّسا له حَجَبَاتٌ مَشْرِفَاتٌ على الفال"

حيثُ يتبدّى التّوازي بيّن العبارتِ "سليم الشّظي"/ "عيل الشّوى"/ "شَنِجُ النّسا" في إطارِ مدحِ الشّاعر لفرسيه حينَ أطلقَ على هذه الفرسِ صفةَ القوّة والسرعة والصلابة، فتتألّفُ هذه الصّفاتُ متناغمةً تناغمًا موسيقيًا متوازياً أسهمَ في بُلُوْرَةِ صورةِ هذه الفرسِ.

؛ انظر: مبارك المبارك، **معجم المصطلحات اللّغويّة** (بيروت: دار الفكر اللّبناني، 1995)، 211؛ وجدي رزق غالي، **معجم لونهاج** (لنجلزيّة الحديثة) (القاهرة: الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر- لونهاج، 2007)، 817؛ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، **كتاب الصّناعتين: الكتابة والشعر** (القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، 1952)، 375؛ قدامة بن جعفر، **جواهر الألفاظ** (بيروت: المكتبة العلميّة)، 3؛ شرف الدين الحسين بن محمّد بن عبد الله الطّيّبي، **الشّبيان في البيان** (بيروت: دار الكتب العلميّة، 2004)، 239-251؛ يوري ميخائيلوفيتش لوتمان، **تحليل النّصّ الشعريّ- بنية القصيدة** (القاهرة: دار المعارف، 1995)، 129؛ عبد القادر عبد الجليل، **الأسلوبية وثلاثيّة الدوائر البلاغيّة** (سلطنة عُمان: دار صفاء للنّشر، 2002)، 572؛ بن عيسى باطاهر، **البلاغة العربيّة- مقدّمات وتطبيقات** (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدّة، 2008)، 337؛

Joanna Turnbull and Others, *Oxford Advanced Learner's Dictionary* (Oxford: University Press, 2010), 1102; Michael Rundell and Others, *Macmillan- English Dictionary for Advanced Learners* (London: Macmillan Publishers, 2010), 1084.

¹ الجلالِي، تلخيص الدّهب، 2: 308.

² الكنانِي، الأدلّة الاستثنائيّة عند الأصوليين، 218.

7. 1. مصطلح "السياق" عند اللغويين العرب:

يُزِرُّ الباحث ردة الله الطلحي دَوْرَ اللُّغَوِيِّينَ¹ والنَّحَاةِ الهامَّ في تأطير مفهوم "السياق" والإشارة إليه في كتبهم ومؤلفاتهم المنتشرة على مساحة واسعة، ولكنهم - على الرغم من هذا - استخدموا مصطلحات أخرى؛ للدلالة عليه نحو "الحال"، و"المقام"، و"الدليل"، و"القرينة" والموقف².

ويُعَدُّ الخليل بن أحمد [100-170هـ، 718-786م] من أوائل النحاة الذين اعتمدوا المنهج السياقي - كما يقول أسعد العوادي - في الكشف عن المعاني النحويَّة التي تشمل "سياق الحال" وعناصره المتمثلة بالمتكلم والمخاطب والعلاقة بينهما، وتشمل - المعاني النحويَّة - علم المخاطب بالمعنى السياقي المراد إلى غير ذلك مما يرتبط بـ "المقام"³.

وإلى هذه الحقيقة نستطيع أن نتبينها خلال ما نقله سيبويه عن الخليل⁴ في توجيه النص على "التعظيم والمدح" نحو قول العرب: "الحمد لله أهل الحمد" بقوله: "رغم الخليل أن نصّب هذا على أنك لم تُرد أن تُحدّث

¹ أود الإشارة - بدايةً - إلى أن هناك فرقاً بين "اللغويين" و"النحاة" من حيث الاصطلاح والتداول العلمي - وبناءً عليه، فقد استخدمت مصطلح "اللغويين" وليس "النحاة"، أي (السياق عند النحاة)؛ لأن "اللغويين" أشمل من ناحية الدراسة الإستمولوجية من النحويّة، لا سيما أنني في هذا الفصل أوطر لحقل معرفي ضخم، الهدف منه أخذ بعض التماذج؛ ولأن "السياق" بمفهومه العلم الشامل كان الوعاء الذي يحمل منظومة "السياق النحوي"، والرحم الذي يُحبّ مفرداته وتطبيقاته. ولعل كثيراً من الدارسين ممن لا يُقرّون بين "اللغوي" و"النحوي" تفرقاً دقيقاً غير مألوف؛ ذلك لأنهم - كما يقول الجابري - يصعب الفصل بوضوح بين "اللغوي" و"النحوي"، فاللغوي كان نحويّاً والنحوي كان لغويّاً، ولكن الفرق بينهما هو أن "اللغوي" كان يهتم أكثر باللغة كلفاظ ومعان في حين كان النحوي الشاغل لـ "النحوي" هو البحث عن شواهد للقواعد النحويّة التي يستنبطها أو يضعها وضعا. وليس بدعا من القول وحشوا في الكلام أن حملت أمثالت الكتاب عناوين تُبرر فهم مؤلفيها للفرق بين اللغويين والنحاة، فهي - مثل - السيوطي يُعنون كتابه بـ "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة"، وكذا الزبيدي يُعنون كتابه بـ "طبقات النحويين واللغويين"، ولو كان المعنى متشابهاً لاكتفى السيوطي والزبيدي (وغيرهم الكثير) بأحدهما دون الآخر. ونستطيع القول إن "علم اللغة" المنسوب إليه "اللغويون" أعظم من "علم النحو" المنسوب إليه "النحاة" أو "النحويون"، وعليه يذهب الباحث عبد التّواب الأكرت الذي يرى أن علم النحو هو جزء من ضمن العلوم اللغويّة، بالتحليل اللغوي هو دراسة اللغة بمستوياتها المختلفة؛ الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي... وغيرها من المجالات - كما يذكر عبده الرّاجحي - التي تتداخل فيه علوم إضافية يُستعان بها، كالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا (علم تطوّر الإنسان)، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم وظائف الأعضاء... إلخ. وقد أجازف في القول أن ابن خلدون نفسه رَسَمَ هذه الحدود قبل ستمائة عام تقريباً حينما عرّف "علم اللغة" تعريفاً واسعاً وشاملاً للمستويات التي ذكّرت آنفاً، بقوله: "هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغويّة". والمقصود بـ "الموضوعات اللغويّة" هو كلّ مستويات اللغة وعلومها؛ خاصة أنه يدرج كثيراً من المستويات اللغويّة تحت هذا السقف، كالمملكة اللغويّة، والنحو، والمعجم، والأصوات، والتصرف، والبلاغة، وفقه اللغة، والنظم، والنثر، والاشتراك، والتّرادف وغيرها من المستويات. أضف إلى ذلك أن من الأسباب التي دعتني إلى استخدام مصطلح "اللغويين" تلك المؤلفات التي حوت مسألة "السياق" خلال مؤلفات نحويّة-لغويّة صرّفت نحو سيبويه في "الكتاب"، وخلال مؤلفات غير نحويّة في أصلها نحو ابن خلدون في "المقدمة". انظر: محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، 84؛ عبد التّواب مرسي حسن الأكرت، اللغويون والمحدثون ومنهجهم في توثيق النص (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، 2011)، 9؛ عبده الرّاجحي، فقه اللغة في الكتب العربية (بيروت: دار النهضة العربية، [د.ت.]. 18-20؛ ابن خلدون، المقدمة (القاهرة: دار الفجر للتراث، 2004)، 703-705.

² ردة الله الطلحي، دلالة السياق، 42.

³ أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه: دراسة في النحو والدلالة (عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، 2010)، 35.

⁴ A. A. al-Nassir, *Sibawayh the Phonologist* (London: Kegan Paul International Ltd, 1993), 6.

النَّاسَ، وَلَا مَنْ تُخَاطَبُ بِأَمْرِ جَهْلُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَجَعَلْتَهُ ثَنَاءً وَتَعْظِيمًا¹. وكذلك في اهتمام الخليل بن أحمد بالعلاقة بين المتكلم والمخاطب، وذلك عند الحديث عن أن "قد" جواب لمن قال: لَمَّا يَفْعَلْ، فتقول في الجواب: قَدْ فَعَلَ، حَيْثُ "زَعَمَ الخليل أن هذا الكلام لِقَوْمٍ يَنْتَظِرُونَ الخبر"²، وهذا يعني أن المخاطب يحتاج إلى تأكيد الجواب، وهنا لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُراعى المتكلم حال المخاطب، فيستعمل "قد" التي تفيده التأكيد مع الماضي³.

وعلى هذا، فإن هذه الأمثلة وغيَرها لا تدع مجالاً للشك في أن الخليل اعتمد اعتماداً واضحاً وبارزاً على "سياق الحال" في التقييد النحوي، وبيان معاني التراكيب ودلالاتها؛ ولهذا فمن الطبيعي أن يتأثر به النحاة من بعده بهذه النظرات الثابتة - كما يؤكد العوادي - وهذا ما يتضح بجلاء عند سيبويه نفسه⁴.

وعندما نلج إلى كتاب سيبويه [148-180هـ، 765-796م]؛ لتتلمس مواطن "السياق" في كتابه، الذي يعد المصدر الأول والأهم في علم النحو⁵ - إلى درجة أن النحاة أنفسهم كانوا يطلقون عليه "قرآن النحو"⁶ - نجد أنه لم يُشير إلى لفظة "السياق" بصريح العبارة، ولكنه عبّر عنه خلال ألفاظ عديدة تكرر ذكرها في سائر أجزاء "الكتاب"، ومعظم هذه الألفاظ تتعلق بالكلام والمتكلم والمخاطب، وهي ألفاظ تتصل في معظمها - كما يؤكد أسعد العوادي - باللغة المنطوقة لا المكتوبة، إضافة إلى ألفاظ أخرى تُطالعنا أيضاً نحو "التباس" و"ملتبس" و"نية"، وهي تتصل بمدى التفاهم أو التواصل الذي يتم بين المتكلم والمخاطب أو انعدام هذا التفاهم⁷.

ثم يُشير العوادي إلى أن سيبويه استعمل في كتابه مصطلحاً كان قد تكرر في أكثر من موضع وهو مصطلح "الحال"، ولعله أقدم مصطلح - كما يؤكد العوادي - في التراث العربي والنحوي يقترب إلى مفهوم "سياق الحال"، وأغلب الظن أن هذا المصطلح عند سيبويه يرجع إلى الخليل⁸.

¹ سيبويه، الكتاب، 2: 65.

² سيبويه، الكتاب، 4: 223.

³ أسعد العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، 35.

⁴ العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، 36.

⁵ عبد العزيز عيده أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل (طرابلس: منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطالع، 1982)، 1: 247؛ بوهاس- جيوم- كولو غلي، التراث اللغوي العربي، 29.

⁶ A. al-Nassir, *Sibawayh the Phonologist*, 6.

⁷ العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، 51.

⁸ ن. م، 51.

وينطلق نهاد الموسى ومحمد حماسة عبد اللطيف، وعَبرَهما، مِنْ حَقِيقَةٍ، قَدْ غَابَتْ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْبَاحِثِينَ، مَفَادُهَا أَنَّ النَّحْوَ الْعَرَبِيَّ مِنْذُ نَشْأَتِهِ الْأُولَى قَدْ أُولَى "السِّيَاقَ" أَهْمِيَّتَهُ فِي تَحْلِيلِ التَّرَاكِبِ اللَّغَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ مِمَّا يُجْعَلُ مُعَالَجَاتِ سَبِيوِيهِ الْمُتَقَدِّمَةِ رَدًّا عَلَى مُتَأَخَّرِي النُّحَاةِ الَّذِينَ جَرَّدُوا الْجُمْلَةَ مِنْ سِيَاقِهَا¹. وعلى الرَّغْمِ مِمَّا ذَكَرَهُ أَسْعَدُ الْعَوَادِي بِمُخْصَصِ أَقْدَمِيَّةِ الْمَصْطَلَحِ عِنْدَ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ إِلَّا أَنَّهُ يَرَى جَلِيًّا أَنَّ فَضْلَ السَّبْقِ الْحَقِيقِيِّ فِي مَفْهُومِ "السِّيَاقِ" يَعُودُ إِلَى سَبِيوِيهِ، وَذَلِكَ فِي تَبْيِينِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ مُحِيطِ الْأَحْدَاثِ اللَّغَوِيَّةِ وَمَلَاسَاتِهَا الْخَارِجِيَّةِ وَتَشْكِيلِ النَّمَطِ التَّرْكِيبِيِّ، فَمَثَلًا لِحَدِّثِهِ يُشِيرُ إِلَى هَذَا فِي جُمْلَةِ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ "هَذَا بَابٌ يَكُونُ فِيهِ الْمُبْتَدَأُ مُضْمَرًا، وَيَكُونُ الْمَبْنَى عَلَيْهِ مَظْهَرًا، وَذَلِكَ أَنَّكَ رَأَيْتَ صُورَةَ شَخْصٍ فَصَارَ آيَةً فِي لَكَ فِي مَعْرِفَةِ الشَّخْصِ فَقُلْتَ: عَبْدُ اللَّهِ وَرَبِّي، كَأَنَّكَ قُلْتَ: ذَاكَ عَبْدُ اللَّهِ أَوْ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ، أَوْ سَمِعْتَ صَوْتًا فَصَارَ صَاحِبُ الصَّوْتِ آيَةً عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَقُلْتَ: زَيْدٌ وَرَبِّي، أَوْ مَسَسْتَ جَسَدًا، أَوْ شَمَمْتَ رِيحًا، فَقُلْتَ: زَيْدٌ أَوْ الْمِسْكُ، أَوْ دُقْتَ طَعَامًا فَقُلْتَ: الْعَسَلُ، أَوْ حَدَّثْتَ عَنْ رَجُلٍ فَصَارَ آيَةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ لَقُلْتَ: عَبْدُ اللَّهِ، كَأَنَّ رَجُلًا قَالَ: مَرَزْتُ بِرَجُلٍ رَاحِمٍ لِلْمَسَاكِينِ بَارٍ بِوَالِدَيْهِ فَقُلْتَ: فَلَانٌ وَاللَّهِ"².

وَيُعَقِّبُ الْعَوَادِي عَلَى مَا قَالَهُ سَبِيوِيهِ مُبَيِّنًا أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا النَّصَّ فَرِيدٌ؛ لِكَوْنِهِ النَّصَّ الْوَحِيدَ الَّذِي يُشْرِكُ الْحَوَاسَّ الْإِنْسَانِيَّةَ الْخَمْسَ جَمِيعًا فِي عَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ وَبِنَاءِ سِيَاقِ الْكَلَامِ، إِذْ تَقُومُ الْحَوَاسُّ بِدَوْرٍ كَبِيرٍ فِي إِنْشَاءِ الْكَلَامِ بِغِيَابِ عُنْصَرِ الْمُخَاطَبِ الَّذِي يُشَارِكُ الْمُتَكَلِّمَ فِي عَمَلِيَّةِ التَّخَاطُبِ وَالتَّفَاعُلِ.

إِذَنْ، لَقَدْ بَدَأْتُ مَلَاحِجَ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ مِنْذُ الْإِنْطِلَاقِ الْأُولَى لِلنَّحْوِ الْعَرَبِيِّ، فَهَا هُوَ ذَا سَبِيوِيهِ يُعَوِّلُ عَلَى "الْمَعْنَى السِّيَاقِيَّةِ" Contextual Meaning – إِنَّ جَارِي الْقَوْلُ – فِي دَرَاةِ الْكَلَامِ وَتَرَاكِبِهِ مَعَوَّلًا كَبِيرًا، وَيُؤَلِّيهِ عَنَاقِيَةً فَائِقَةً، فَيُشِيرُ فِي مَطَالَعِ كِتَابِهِ "الْكِتَابَ" فِي "بَابِ الْاسْتِقَامَةِ مِنَ الْكَلَامِ وَالْإِحَالَةِ" إِلَى أَنَّ مَدَارَ الْكَلَامِ مِنْ تَأْلِيفِ الْعِبَارَةِ وَمَا يَتَعَاوَرُهَا إِنَّمَا أَنَّهُ: مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ، نَحْوُ قَوْلِكَ: أَتَيْتُكَ أَمْسَ، وَسَاتَيْتُكَ غَدًا. أَوْ مُسْتَقِيمٌ كَذِبٌ، نَحْوُ: حَمَلْتُ الْجَبَلَ، وَشَرِبْتُ مَاءَ الْبَحْرِ. أَوْ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ، نَحْوُ: قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ، وَكَيْ زَيْدًا يَأْتِيكَ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ،

¹ نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء النظر اللغوي الحديث، 88؛ محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، 115.
² سبيوي، الكتاب، 2: 130.

وهو أن تضع اللَّفْظَ في غيرِ موضِعِهِ. أو المُحَال، نحو: أَتَيْتُكَ عَدَا، وَسَاتِيكَ أَمْسٍ، وهو أن تَنْقُضَ كَلَامَكَ بآخِرِهِ. أو المُحَالِ الكَذِبُ، نحو: سوفَ أَشْرَبُ ماءَ البحرِ أَمْسٍ¹.

وفي مَوْضِعٍ آخَرَ يُبَيِّنُ سَبِيوِيهِ أَنَّ معنى الجملة وصوابه واستقامته متعلّق بـ"السياق" الذي وَرَدَتْ فيه الجملة: "...وذلك أَنَّ رجلاً مِنْ إخوانِكَ ومَعْرِفَتِكَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَكَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ غَيْرِهِ بِأَمْرٍ قَالَ: أنا عبدُ اللَّهِ مُنْطَلِقًا، وهو زَيْدٌ مُنْطَلِقًا، كَانَ مُحَالًا؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَكَ بِالانْطِلَاقِ وَلَمْ يَقُلْ هو وأنا حَتَّى اسْتَعْنَيْتَ عَنِ التَّسْمِيَةِ؛ لِأَنَّ هُوَ وأنا علامتانِ لِلْمُضْمَرِ، وَإِنَّمَا يُضْمَرُ إِذَا عَلِمَ أَنَّكَ عَرَفْتَ مَنْ يَعْنِي، إِلَّا أَنَّ رجلاً لو كَانَ خَلْفَ حَائِطٍ، أو في موضعٍ بَهِلُهُ فيه، فَقُلْتَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أنا عبدُ اللَّهِ مُنْطَلِقًا في حاجَتِكَ، كَانَ حَسَنًا²."

ونرى الباحث إدريس مقبول يُعَقِّبُ على هذا المثال الذي طَرَحَهُ سَبِيوِيهِ قائلاً: إِنَّ هذا النَّصَّ لَيُعْكِسُ لنا أحدَ أَزْفَى إنجازاتِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ في المَقْبُولِيَّةِ الإِعْرَابِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ لِلْمَلْفُوظِيَّةِ: "انا عبدُ اللَّهِ مُنْطَلِقًا"، و"هو زَيْدٌ مُنْطَلِقًا"، ففي الوقت الذي يَعْرِفُ فيه المَخَاطَبُ مَنْ تَعْنِي، لا حاجةَ لذكرِ الظَّاهِرِ "عبدُ اللَّهِ" و"زَيْدٌ"؛ لِأَنَّ الإِضْمَارَ فِعْلٌ قَصْدِيٌّ نَفْسِيٌّ يُسْتَنْبِطُ اتِّفَاقًا ضَمْنِيًّا بَيْنَ المتكلمين على المعنى، أمَّا حينَ يَكُونُ السِّياقُ غَيْرَ السِّياقِ، والمَقَامُ غَيْرَ المَقَامِ، حيث لا يوجد اتِّفَاقٌ ولا تَوَاطُؤٌ حَوْلَ المعنى، بل هو مجهولٌ لدى المَخَاطَبِ، مستورٌ جوهريٌّ وحقيقتهُ عَنْهُ، فَانْعِدِ يَتَعَيَّنُ التَّصْرِيحُ والبيانُ والتَّوضِيحُ، وسَبِيوِيهِ لا يَنِي يُوَكِّدُ على فَرْقِ آخَرٍ، وهو قَصْدُ المتكلمِ في السِّياقِ المَقَامِيَّ الأوَّلَ إلى الإخبارِ عَنِ الحَالِ "مُنْطَلِقًا"، أمَّا في الثَّانِي فالإخبارُ عَنِ المَبْتَدَأِ "أنا" و"هو"، ثُمَّ في الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ عَنِ الحَالِ "مُنْطَلِقًا"³. وهذا يعني أَنَّ المقصودَ هو أَنَّ تُنَبِّهَهُ لَهُ مُنْطَلِقًا وليس أَنَّ تُعْرِفَهُ عبدُ اللَّهِ؛ لِأَنَّكَ ظَنَنْتَ أَنَّهُ يَجْهَلُهُ⁴.

ويُبرِّزُ إدريس مقبول، وهو متأثرٌ بما قامَ بِهِ سَبِيوِيهِ، أَهْمِيَّةَ هذا الطَّرْحِ بما يتعلّقُ بالسِّياقِ، فيقول: "...وانظُرْ إلى سَبِيوِيهِ كيفَ يُوَكِّدُ على أَنَّ الرَّجُلَ المَخَاطَبَ كَانَ خَلْفَ حَائِطٍ، أو مَوْضِعٍ بَهِلُهُ فيه، كَيْفَ يُوَثِّرُ مَوْقِعُهُ مِنْكَ

¹ سَبِيوِيهِ، الكتاب، 1: 25-26؛ محمّد عبد المطلب، البلاغة العربية - قراءة أخرى (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997)، 57-58؛ محمّد عبد اللطيف، النحو والدلالة، 65-66.

² سَبِيوِيهِ، الكتاب، 2: 80-81.

³ إدريس مقبول، الأفق التداولي: نظرية المعنى والسياق في الممارسة القرآنية العربية، 88-90.

⁴ George Bohas, *The Arabic Linguistics Tradition* (London: Routledge, 1990), 43-44.

في مجريات المعنى وبناء التركيب. وهو أمرٌ يدخل في أنظمة الدلالة العضوية Organic Semantics

System في شقٍّ من الدراسات التواصلية التي تُعنى بالأوضاع الجسميّة Postures وبمسألة التجاور والقرب

Proximity، أي المسافة التي تفصل المتخاطبين فيما بينهم، وهي مسألة عُرْفِيَّة تواصلية دقيقة¹.

ومن الأمثلة التي تدلُّ على مراعاة "السياق" في الفكر التحوي عند سيبويه رأيه في مسألة توجيه النصب

في قول العرب: انتَه خيرٌ لك، إذ يقول سيبويه: "نصبته؛ لأنك قد عرفت أنك عرفت أنك إذا قلت له: "انتَه"

أنك تحمله على أمرٍ آخر؛ فلذلك انتصب وحذوا الفعل؛ لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه

محمولٌ على أمرٍ حين قال له: انتَه، فصار بدلاً من قوله: انت خيرٌ لك، وأدخل في ما هو خيرٌ لك"².

وفي موضعٍ آخر يقول سيبويه: "هذا بابٌ ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل

إظهاره... وذلك قولك: زيداً، وعمراً، ورأسه. وذلك أنك رأيت رجلاً يضرب أو يشتتم أو يقتل، فكتفيت بما هو

فيه من عمله أن تلفظ له بعمله فقلت "زيداً": أي أوقع عملك بزيد، أو رأيت رجلاً يقول: أضرب شرَّ الناس،

فقلت "زيداً" أو رأيت رجلاً يتحدث حديثاً فقطعتُه فقلت: "حديثك"، أو قدِمَ رجلٌ من سفرٍ فقلت: "حديثك".

استغنيت عن الفعل بعلمه أنه مُستَحَبٌّ، فعلي هذا يجوز هذا وما أشبهه"³.

إذن، فـ"سياق الحال" حاضرٌ في الفكر التحوي عند سيبويه، حيث نرى أن تعليقه لكل الجمل التي تحتاج

إلى تقدير أو تفسير أو عامل للنصب إنما يتكئ على "السياق" الذي سبق لأجله الكلام، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً

بـ"نظم" الكلام الذي تلتئم أجزاؤه وأطرافه خلال فهم مقاصد "السياق"، وهو ما اعتمدته كثيرٌ من النحاة والمفسرين

في اكتناه التراكيب اللغوية في النص القرآني تحديداً⁴.

¹ مقبول، الأفق التداولي، 90.

² سيبويه، الكتاب، 2: 283-284.

³ ن. م، 1: 253.

⁴ عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث الدلالي، 91.

وكانَ عبدُ الحميدِ الفراهي [1280-1349هـ، 1863-1930م] - وهو أحدُ مدرسة النُّظْمِ القرآنيّ - قد تَحَدَّثَ عَنْ أثرِ سيبويه في النَّظَرِ إلى نَظْمِ النَّصِّ القرآنيّ، مُؤَكِّدًا مسألةَ السِّياقِ وأهميَّتها في فَهْمِ القضايا اللُّغويَّةِ والتَّراكيبِ النَّحويَّةِ في النَّصِّ القرآنيّ قائلاً إِنَّ الكلامَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ سِياقٍ، ولا بُدَّ لأجزائه مِنْ مَوْقِعِهِ يَخُصُّهُ¹. ولأهميَّةِ سيبويه ومكانته في الدِّرسِ اللِّسانيِّ القديمِ والمعاصر²، فَقَدْ أَوْضَحَ مُحَمَّدُ عبدُ المَطْلَبِ - حينما تَحَدَّثَ عَنْ "فلسفة النَّحْوِ - أَنَّ النُّحاةَ القدماءَ اهتمُّوا بالتَّراكيبِ اللُّغويَّةِ اهتمامًا بالغًا؛ وذلك لإدراكهم، بدايةً مِنْ سيبويه، أَنَّ الخبرةَ بتراكيبِ اللُّغةِ هي في الوقتِ نَفْسِهِ خِبرَةٌ بالأغراضِ الَّتِي تُعَبِّرُ عنها. وهذا يعني سيبويه كان قد أدركَ الارتباطَ القويَّ بَيْنَ ما يُسمَّى بالتَّراكيبِ وما يُسمَّى بالمعاني أو الأفكار؛ إذ إِنَّ العلاقةَ بَيْنَ الفِكرِ واللُّغةِ مِنْ بَعْضِ الوجوهِ هُؤَلاءِ النُّحاة³. وللمتأملِ فيما صَنَعَهُ سيبويه - كما يقولُ العالمُ الهولنديُّ الشهيرُ فيرستيج Versteegh - يكتشفُ أَنَّ الكتابةَ النَّحويَّةَ ما هي إلَّا تفسيرُ كلامِ العربِ تفسيرًا ينمُّ عَنْ مقاصدهم في الكلامِ، وينمُّ عَنْ إيضاحِ معاني التَّراكيبِ اللُّغويَّةِ المختلفة⁴.

وإلى هذه الحقيقةِ أَشارَ إليها - مِنْ قَبْلِ - الشَّاطِئِي واصِفًا سيبويه بأنَّه: "...إِنَّ تَكَلَّمَ في النَّحْوِ، فَقَدْ نَبَّهَ في كلامِهِ على مقاصدِ العربِ، وأنحاءِ تصرُّفاتِها في ألفاظِها ومعانيها، وَلَمْ يَفْتَصِرْ فيه على بَيانِ أَنَّ الفاعلَ مرفوعٌ والمفعولُ منصوبٌ ونحو ذلك، بَلْ هُوَ بَيَّنَّ في كُلِّ بابٍ ما يَلِيْقُ بِهِ حَتَّى إِنَّهُ احتَوَى عَلَى عِلْمِي المعاني والبيانِ، وَوُجُوهُ تَصَرُّفَاتِ الأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي"⁵.

وَلَعَلِّي أَخْلَصُ إلى القولِ إِنَّ النَّحْوَ لَمْ يَرْتَبِطْ عِنْدَ سيبويه بالقواعدِ الجامدةِ، وإِنَّمَا كانَ "المعنى" هو المرادُ والتَّصْيِبُ الأكبرُ مِنْ الاعتبارِ والتَّحليلِ، وكانَ "سياقُ الحالِ" هو المعوَّلُ عَلَيْهِ في كثيرٍ مِنَ التَّعْلِيلَاتِ النَّحويَّةِ، بَلْ لَقَدْ دَهَبَ مايكل كارتر Michael Carter إلى أبْعَدَ مِنْ هذا حينما أَكَّدَ أَنَّ سيبويه كانَ ينظرُ إلى الكلامِ

¹ عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام (أعظم كره-الهند: المطبعة الحميدية، 1967)، 25.
² يرى كارتر Carter أَنَّ سيبويه قدَّم لنا نموذجًا مِنْ التَّحليلِ البنيويِّ لم يعرفهُ الغربُ حَتَّى القرنِ العشرين، وهو منهجٌ قريبٌ ممَّا يُعرَفُ عندَ البنيويِّين بـ"تحليلِ المقوِّماتِ المباشرة" Immediate Constituent Analysis. انظر:

Michael G. Carter, "An Arab Grammarian of the Eighth Century" *Journal of the American Oriental Society* 93 (1973), 146.

³ مُحَمَّدُ عبدُ المَطْلَبِ، البلاغة والأسلوبية (القاهرة: الشركة المصريَّة العالميَّة للنشر-لونجمان، 1994)، 39.
⁴ Kees Versteegh, *The Arabic Language*, 107-108.

⁵ الشَّاطِئِي، الموافقات، 4: 60.

على أنه شكّل من أشكال السلوك الاجتماعي، بدليل أنه أطلق فيه أحكاماً حالية أو سلوكية أو ثقافية؛ شأن التراكيب اللغوية فيها شأن أنواع السلوك الإنساني¹.

ويرى كلٌّ من كارتر Carter وأرييه ليفين Aryeh Levin أن سيويته كان يعتمد على معرفة المتكلم بحدسيته وفطرته في الأداء اللغوي²، فما جاء في حذف المتكلم العربي وإضماره واختزاله واستغنائه واختصاره وتقديمه وتأخيرهِ وتنكيههِ وتعريفهِ، وعَبرها من الأساليب، أوردَ سيويته وفَسَّرَهُ وفقاً لمنهجهِ التعليلي الذي يقوم - برأينا - على استقرار الواقع اللغوي وسياقات الكلام المختلفة، ويكاد هذا المنهج التعليلي يختلط بعِلل أخرى تدخل ضمن نطاق "العِلل السياقية" من خلال صيغ شتى وفي مسائل عدّة لا تُحصى³.

وقد نقل لنا الجاحظ [159-255هـ، 774-868م] في صحيفة بشر بن المعتمر مقولةً كانت قد اشتملت على مصطلحي "المقام" والحال" اللذين يُعبران - إذا أُنعمنا النظر - عن مفهوم "السياق"، حيث يقول: "وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً؛ حتى يُقَسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويُقَسِّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات"⁴.

وكان المبرّد [210-286هـ، 825-899م] قد لَمَح للسياق من خلال تصريحه بمصطلح "دلالة الحال" و"المشاهدة"، فعلى سبيل المثال نراه يقول: "...لولا دلالة الحال على ذلك لم يجز الإضمار؛ لأنَّ الفعل إنما يُضَمَّر إذا دَلَّ عَلَيْهِ دَالٌّ"⁵. ويقول المبرّد في موضع آخر: "...فهذا لا يكون إلا لما تُشاهد من الحال؛ فلذلك اسْتَعْنَيْتَ عَنْ ذِكْرِ الفعل"⁶. ويُقَصِّد بـ"دلالة الحال" و"الحال" هنا "السياق" الذي يُشير إلى حقيقة الفعل المُضَمَّر.

¹ Michael Carter, "An Arab Grammarian of the Eighth Century", 146.

² Michael Carter, *Sībawayhi* (London: I. B. Tauris, 2004), 41.

³ Aryeh Levin, "Sībawayhi's Attitude to the Spoken Language", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 17 (1994), 205.

⁴ الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 135.

⁵ المبرّد، المقتضب، 3: 288.

⁶ ن. م، 3: 264.

وكذلك عَرَضَ الرُّمَّانِيُّ [296-384هـ، 908-994م] لمصطلح "دلالة الحال" ¹ الذي يُقَابِلُ مصطلح "سياق الحال" عِنْدَ سيبويه، فيقول: "طلب أو دلالة الخلف من المحذوف دلالة شيء يقتضي معنى ما لم يُذكر، مما تقديره أن يُذكر، وذلك نحو تكبير الناس عِنْدَ طلب الهلال يقتضي معنى رأي الهلال كأنه ناطق به، وتوقع الناس للهلال إذا قال قائل في تلك الحال: "الهلال" يقتضي هذا الهلال، والفعل للشاهد من نحو القرب والإعطاء إذا قال قائل: "وزيدًا" يقتضي: اضرب زيدًا أو أعط زيدًا، فهذه دلالة الحال التي تَصَحَّبُ الكلام" ².

وإذا تأملنا حقيقة مصطلح "السياق" عِنْدَ ابن جني [322-392هـ، 934-1002م] فَسَيَتَّضِحُ ذلك جليًّا، بل جعله ضابطًا نحويًّا مُسَوِّغًا عليه؛ فمثلاً نجدُه يُفْرِدُ بابًا أَسْمَاهُ "باب في أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه"، فذكر في هذا الباب: "من ذلك أن ترى رجلًا قد سدَّ سهمًا نحو الغرض ثم أرسله فتسمع صوتًا، فتقول: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، فأصاب الآن في حكم الملفوظ به البتة وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال نابت مناب اللفظ به، وكذلك قولهم لرجل فهو يسيفه في يده: زيدًا، أي اضرب زيدًا؛ فصارت شهادة الحال بالفعل بدلًا من اللفظ به" ³.

ونلاحظ ابن جني، بما يدلُّ على استحواذ "السياق" المتمثل بـ "الحال الشاهدة"، أنه يشترط لصحة حذف الموصوف أن يكون الحذف لائقًا به بأن يبقى معنى الجملة مفهومًا خلال وجود "الدليل" أو الحال الشاهدة" عليه، فمثلاً يقول: "ألا ترى أنك إذا قلت: مررت بطويل، لم يستبين من ظاهر هذا اللفظ أن الممرور به إنسان دون رُمح أو ثوب أو نحو ذلك. وإذا كان كذلك حذف الموصوف إنما متى قام الدليل عليه أو شهدت الحال" به. وكلما استنبه الموصوف كان حذفه غير لائق بالحديث ⁴.

¹ العوادي، سياق الحال، 36.

² أبو الحسن علي بن عبد الله الرَّمَّانِي، رسالتان في اللغة (عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 1984)، 81-82.

³ ابن جني، الخصائص، 1: 293.

⁴ ن. م، 1: 368.

ولعلنا إذا أنعمنا النظر فيما ذهب إليه ابن جني في تعريف "الإعراب" نستشف أهمية "المعنى السياقي" للتركيب، فالإعراب عنده هو "الإبانة عن المعاني بالألفاظ"، وأظن أنه لا يقصد معاني الألفاظ من حيث معناها الدلالي المجرد، إنما يتحدث عن دلالة أواخر الكلمات على معاني "نحوية"، فيقول بصريح العبارة: "ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه وشكر سعيد أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجاً واحداً؛ لاستنبه أحدهما من الآخر"¹. وبمقدورنا هنا أن نفسر طبيعة العلاقات التي تربط بين الكلمات؛ إذ إن الكلمات يتغير موقعها وفق غاية المتكلم ووجهة المتحدث إليه، وإلى هذا الحيشة يشير عبد الفتاح لاشين إلى أن الذي يفهم من ذلك أنه لا يقصد بـ "السياق النحوي" معرفته قواعد النحو وحدها، ولكن ما تُحدثه هذه القواعد، وما سيتبعه من معنى، وما يتولد عن هذا النظام اللغوي من مدلولات ومعاني².

8. 1. مصطلح "السياق" عند البلاغيين:

يؤكد بعض الباحثين في علم البلاغة أن الدرس البلاغي القديم حدد لنفسه في خطوته التمهيدية عمله بالنظر في المستوى الصيغي³، ونفى، بذلك، عن نفسه انشغاله بالمستوى الجمالي الذي ينأى عن دراسة أصناف التركيب، وإدراك المعنى. ولعل أخطر المقولات الموجهة ضد البلاغة - كما يقول محمد عبد المطلب - أن أصحابها لم يميزوا بين الوجه البلاغي ووظيفته داخل السياق، سواء في ذلك ما يتصل بمباحث البيان، أو ما يتصل بمباحث المعاني، وكأن كل ما قدمه البلاغيون من سياقات في علم المعاني بالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتذكير، والإيجاز والإطناب، عبث لا طائل من ورائه⁴.

ثم إن التأمل في رواة الرماني بوسعه أن يستكشف الوشيجة المتراصة بين اللفظ وإزاء المعنى، وبين المعنى وإزاء اللفظ، فيقول: "فإنما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة،

¹ ابن جني، الخصائص، 1: 46.

² عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر (الرياض: دار المريخ، 1980)، 85.

³ محمد عبد المطلب، البلاغة العربية - قراءة أخرى (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997)، 33.

⁴ محمد عبد المطلب، البلاغة العربية - قراءة أخرى، 35.

ومنها ما هو الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك، فهو ممكن كبلغة البلغاء من الناس. وليست البلاغة إفهام المعنى؛ لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيى؛ ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنه قد يتحقق اللفظ على المعنى وهو عتٌ مستكرٌ ونافرٌ متكلفٌ. وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ¹.

إذن، فقد التفت البلاغيون القدماء منذ بواكير مصنفاتهم إلى ظاهرة السياق من خلال مقولتهم: لكل مقام مقال²، ولكل كلمة مع صاحبها مقام؛ فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة السياق ورابطها بالصياغة

¹ أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (القاهرة: دار المعارف، 1968)، 75-76.

² أقرّد السكاكي عنواناً مستقلاً لهذه العبارة "الكل مقام مقال". وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أهمية البالغة لهذه الآراء، التي- برأبي- انطلق منها البلاغيون واستندوا عليها في بلورة فكرة السياق بمسمياته العديدة، نحو المقام والحال والقربة. انظر: أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000)، 256.

والأسلوب¹، أو بمعنى أدق، رَبطُوا الصِّياغةَ والأسلوبَ بالسياق. ويَحْدَدُ المفهومُ أصْبَحَ مِقياسُ الكلامِ عندهم في الحُسْنِ والقَبُولِ بحسبِ مناسبةِ الكلامِ لمقتضى الحال² وما يتناسبُ معه³.

¹ يعتقد كثير من النقاد المحدثين أن ثمة ارتباطاً بين البلاغة وعلم الأسلوب الحديث، فما هو شكري عياد يرى أن البلاغة قد أُرْسِتَ المبادئ الرئيسة لعلم الأسلوب الحديث، مؤكداً ذلك في مفتتح كتابه بقوله: "ولكنني إذ أقدم إليك هذا الكتاب لا أغريك ببضاعة جديدة مستوردة، فعلم الأسلوب ذو نسب عريق عندنا؛ لأن أصوله ترجع إلى علوم البلاغة". ويضيف مبيّناً أن مصطلح الأسلوبية يصلح إطلاقاً على القرنين الثالث والرابع للهجرة وهو أقرب من مصطلح البلاغة؛ وذلك للتشابه الشديد البارز بين ما ورد في الأسلوبية والبلاغة، وهذا يوحي بأن مصطلح الأسلوبية ليس غريباً عن الثقافة العربية، إذ لا ينحصر ضمن الثقافة العربية وحدها، وحينما نتتبع النصوص التي ترجع إلى تلك الحقبة الزمنية نلاحظ اقتراب مفهوم "الأسلوب" من الوضع الاصطلاحي ربما أكثر من كلمة "بلاغة" نفسها، ويُستشهد في ذلك بنصوص ابن قتيبة والخطابي والباقلاني والقرطاجني وغيرهم. ويُشير محمد عبد المطلب إلى أن دراسة مباحث الأسلوب ومفهومه في الدراسة العربية الحديثة تؤكد عملية التواصل بين القديم والجديد، فإن مباحث المحدثين، كالمرصفي والرافعي والزيات وغيرهم، قائمة في جوهرها على ما أصَّلَه القدماء من دراسات بلاغية، مع الإفادة في الوقت نفسه من التيارات الخصبة التي وفدت من الغرب مع مطلع النهضة العربية الحديثة، وإن كان ذلك كله لم يُهَيَّ لظهور النظرية العربية المتكاملة في دراسة الأسلوب. ويستقر الرأي عند عبد المطلب على أن الدرس البلاغي القديم كان ذا تأثير بالغ في مسيرة النقد العربي حتى يومنا هذا، وما زالت أغلب أدواته هي غدة النقد الأساسية، خاصة بما يتصل بنقد الخطاب الشعري. كما أن "الذي لا جدال فيه أن البلاغة هي (أسلوبية) القدماء؛ لأن المتابعة الصحيحة لمباحثها الكلية والفرعية تؤكد خطتها العلمية التي لم تتوقف لغيرها من العلوم القديمة، اللهم إلا علم (الأصول) الذي ازاها في علميتها، وهذه العلمية البلاغية لم تنحصر في المباحث البلاغية الخالصة، وإنما اتصلت بعلوم أخرى كعلم اللغة، وعلم النحو والصرف، بالإضافة إلى اتصالها بالمارسات النقدية القديمة للشعر والنثر، وهو ما أكد انفتاحها على الثقافة العربية القديمة جُملةً، والأدبية خاصة. ويُبين الهادي الجطلاوي أن البلاغة كانت عند العرب وعند الغربيين المنهج الأساسي المعتمد لتقويم الأعمال الفنية وبها يُحكَم على الأديب بأنه مُبدِع أو مُقلِّد وعلى أسلوبه بكونه رائِعاً أو ركيكاً، مما دفعت هذه المشابهة القوية بين البلاغة والأسلوبية ببعض اللسانيين الغربيين أن يعتوا البلاغة أسلوبيةً قديمة. ثم يتساءل الجطلاوي: هل يمكن القول قياساً إن الأسلوبية اليوم هي بلاغة المحدثين؟ فيؤكد جيباً أن الأسلوبيين يرفضون هذا التعريف للأسلوبية؛ لأنهم - وإن اعترفوا للبلاغة القديمة بخصال قليلة فإنهم يصفونها بعبور عديدة؛ لهذا فإنهم يرون في أن الأسلوبية وليدة البلاغة، وأنها بديل لها، وأنها تقوم على انقاض البلاغة القديمة، وأنها تحل محلها، وتواصل مهمتها معجلة في أهدافها ووسائل عملها. ويشير صلاح فضل في هذا الصدد إلى أنه عندما شُبَّ علم الأسلوب أضحي هو البلاغة الجديدة في دورها المزوج؛ كعلم للتعبير ونقد للأساليب الفردية، لكن هذا الدور لم يتكوّن مرةً واحدة، بل أخذ ينمو تدريجياً؛ ليكتسب من خلال "العلم الجديد" تحديداً دقيقاً لموضوعه وأهدافه ومناهجه. ونجد - مثلاً - أن البلاغة قد عرفت منذ القدم بأنها فن القول الجيد، إلا أن هذه الجودة قد فُتِرَتْ طبقاً لاتجاهات مختلفة، فحينما تنصرف إلى الجانب الأخلاقي فتصبح ملزمة للموقف والمقام ومطابقة لمقتضى الحال، وتنصرف حيناً آخر إلى ابتغاء هدف كالإقناع، أو إلى وضع القواعد اللازمة؛ لتتوافر في القول شروط الحسن والجمال، ولكن هذا الاتجاه الأخير لم يَسُدْ إلا في العصور المتأخرة، فأخذ الشراح يفسرون القول الجيد بأنه المفعّل بالمحسنات الجمالية؛ وبهذا تحوّلت البلاغة إلى نوع من النُحو المتقدم، حين أصبحت دراسة ترتفع فيها سلامة القول النحوية إلى مستوى أسلوبية معين. من هنا - كما يُعلّق صلاح فضل - فإذا كان قد قيل بأن البلاغة هي علم أسلوب الأقدمين فمن الملاحظ أن خطتها من العلم كان يوازي - بل يفوق في بعض الأحيان - تصوّرات العلوم الأخرى، فكثير من تحليلات التراث البلاغي المتصلة بمضمون التعبير تُضاهي المنطقة التي يُعْطِيها علم اللغة الحديث من قضايا تتصل باللغة والفكر والفصاحة، وبشكل القول وتكوينه، مما يشمل جوانبه الثلاثة: الصوتية والمعجمية والنحوية. وهذا بعد ذاته يعكس التعايش بين البلاغة والأسلوب، حيث لا تصبح العلاقة حينئذٍ مبنية على التوارث، بل على بحث بلاغة جديدة مواكبة للأسلوب تكون معه ضلعي المثلث يكتمل بالنحو، على أساس أننا عندما نبحث في التعبير، مشيرين إلى نموذج من المفروض أنه مثالي، وجانحين إلى التعميم بقدر الإمكان، فإننا نبحث في شكله ونظامه دون خروج عن المجال النحوي الخالص، فإذا اتّجه البحث نحو علاقته المضطربة بالعناصر الجمالية، وعمل على قبول وتثبيت التصوّرات والقوانين التي تقرّب العبارة من النموذج الجمالي المثالي فإنّه يعمل حينئذٍ في نطاق البلاغة وقواعدها في المقابل، نلاحظ أن بعض الباحثين يذهبون إلى أن العرب حقيقة لم يعنوا بالبحث في الأسلوب إلا في العصر الحديث؛ وذلك بعد أن تعدّدت أغراض القول وفنونه من نثر وشعر. وكانت هذه العناية، حديثاً، بتأثير من المناهج الغربية، فنجد - مثلاً - شوقي ضيف يدعم هذا الرأي بقوله إنه "من يقرن مباحث البلاغة العربية إلى مباحث البلاغة الغربية يلاحظ ثراً أن الغربيين عُنُوا في بلاغتهم بدراسة الأساليب والفنون الأدبية، بينما لم يَكُنْ يُعْنَى بهذه أسلافنا، إذ صَبَّوا عنايتهم على الكلمة والصورة". وقد عزا شوقي ضيف رأيه هذا إلى "أن ذلك يرجع في بعض الوجوه إلى أنهم قصّدوا بقواعدهم البلاغية تعليل بلاغة العبارة القرآنية، وما تحمل من خصائص تعبيرية وصور بيانية، واستوفوا تصوير ذلك تصويراً دقيقاً رائِعاً. وأيضاً من الأسباب التي دفعتهم في هذا الاتجاه طبيعة شعرنا القديم إذ كان في جملته وجدانياً غنائياً، يجري في أسلوب عامٍّ واحد سواء في معانيه أو في صوره وأخيلته وصيغ تعبيره"؛ لهذا فقد عدا التعامل مع الموروث الفني البلاغي في الأسلوب ومنهج البناء يتمثل في النظرة الجزئية، بل ظلت نظرهم تُصَبُّ على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات. وتجدر الإشارة هنا إلى أنني سأفصل لاحقاً في مفهوم الأسلوب وتعريفه بجوانبه اللغوية والاصطلاحية وسأحدث - أيضاً - عن علاقة الأسلوب بالنحو والسياق لدى النحاة العرب المحدثين، وعن منهج مدرسة "الأسلوبية" الحديثة وما لها من علاقة بالسياق، لا سيما عندما اتوّقت عند النظرية السياقية من منظور اللسانيين الغربيين في الفصل الرابع. انظر: شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، 1982)، 7؛ محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 3؛ عبد المطلب، البلاغة العربية - قراءة أخرى، 1-4؛ شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ (القاهرة: دار المعارف بمصر، [د.ت.])، 376؛ الهادي الجطلاوي، مدخل إلى الأسلوبية - تنظيراً وتطبيقاً (الدار البيضاء: النجاح الجديدة، 1992)، 17؛ أحمد الشايب، الأسلوب - دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1991)، 40-43؛ صلاح فضل، علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته (القاهرة: دار الشروق، 1998)، 175-181.

² سمير شريف استيتية، "روافد البلاغة: بحث في أصول التفكير البلاغي"، دراسات إسلامية مهداة إلى العلامة الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس بمناسبة بلوغه السبعين (عمّان: دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع، 2003)، 313-314.

³ محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 1994)، 304.

وَنَجِدُ الْخَطِيبَ الْقُرُونِيَّ [666-739هـ، 1268-1338م] يُمَيِّزُ بَيْنَ بِلَاغَةِ الْكَلَامِ وَبِلَاغَةِ الْمُتَكَلِّمِ،

وَيُعَرِّفُ كِلَا مِنْهُمَا عَلَى حِدَةٍ، فَيُعَرِّفُ بِلَاغَةَ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: "هي مطابقته لمقتضى الحالِ مَعَ فصاحتِهِ"¹.

ونستطيع أن نستشفَّ ممَّا عرَّفَهُ القزوينيُّ أَنَّهُ يُرَكِّزُ عَلَى جَانِبِ السِّيَاقِ بِمَا يَتَنَاغَمُ مَعَهُ بِوَسَاطَةِ أَلْفَاظٍ

مُنَاسِبَةٍ تَقْتَضِي وَصُولَ الْكَلَامِ تَامًّا فِي جَانِبٍ مِنَ الْفَصَاحَةِ لَا يَنْبُو عَنْهَا. وَهُوَ - بِتَقْدِيرِي - يَقْصِدُ بِهَذَا سِيَاقَ

الْمَوْقِفِ، وَهُوَ الْاسْتِخْدَامُ الْخَاصُّ لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ حِينَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ سِيَاقِ النَّصِّ وَسِيَاقِ الْمَوْقِفِ أَوْ

الْمَقَامِ، أَوْ كَمَا يُسَمِّيهِ الْبَلَاغِيُّونَ بِ"مَقْتَضَى الْحَالِ".

ثُمَّ نَلْحَظُ الْقَزْوِينِيَّ يَقْرُنُ بَيْنَ مَفْهُومِ الْفَصَاحَةِ بِتَرْكِيبِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَسْتَوَى النَّظْمِ، فَيَبَيِّنُ أَنَّ فَصَاحَةَ

الْكَلَامِ هِيَ "خُلُوصُهُ مِنْ ضَعْفِ التَّأْلِيفِ، وَتَنَافُرِ الْكَلِمَاتِ، وَالتَّعْقِيدِ مَعَ فَصَاحَتِهَا. فَالضَّعْفُ كَمَا فِي قَوْلِنَا -

ضَرَبَ غَلَامُهُ زَيْدًا - فَإِنَّ رَجُوعَ الضَّمِيرِ إِلَى الْمَفْعُولِ الْمُتَأَخِّرِ لَفْظًا مَمْتَنِعٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ رَجُوعُهُ إِلَى مَا هُوَ

مُتَأَخِّرٌ لَفْظًا وَرُبَّةً"².

وَتَعْلِيلُ الْقَزْوِينِيَّ يُفْضِي إِلَى حَقِيقَةٍ مَفَادُهَا أَنَّ ثَمَّةَ عِلَاقَةٍ بَارِزَةٍ بَيْنَ الْفَصَاحَةِ وَكَيْفِيَّةِ بِنَاءِ الْجُمْلَةِ نَحْوِيًّا مِنْ

جِهَةٍ، وَبِالتَّالِي، بَيِّنُ الْفَصَاحَةِ وَقَرَّائِنُ النَّظْمِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ لِهَذَا نَرَى عَبْدَ الْمُتَعَالِ الصَّعِيدِيَّ يَشْرُحُ مَا حَكَاهُ

الْقَزْوِينِيَّ بِقَوْلِهِ: "ضَعْفُ التَّأْلِيفِ هُوَ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ عَلَى خِلَافِ الْمَشْهُورِ مِنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ"³.

ثُمَّ نَلْمَحُ هَذِهِ الْمَعَانِيَّ عِنْدَ الْقَزْوِينِيَّ نَفْسِهِ وَهُوَ يَحَاوُلُ أَنْ يُرْسِّخَ هَذَا الْمَفْهُومَ فِي الْأَذْهَانِ، فَنَرَاهُ يُشَدِّدُ قَائِلًا

إِنَّ الْبِلَاغَةَ - وَهِيَ الْوَصُولُ إِلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ وَإِفْهَامُ الْمَخَاطَبِ بِمَقَاصِدِ الْخُطَابِ وَالْمَخَاطَبِ - رَاجِعَةٌ إِلَى طَبِيعَةِ اللَّفْظِ

باعتبارِ إِفَادَتِهِ الْمَعْنَى دَاخِلَ التَّرْكِيبِ⁴. وَيَنْعَثُ الْقَزْوِينِيُّ ذَلِكَ بِاكْتِمَالِ الْفَصَاحَةِ؛ لِأَنَّهُ طَابَقَ الْمَقَامَ الْمُنْشُودَ مِنْ

جِهَةٍ، وَلِأَنَّ بِلَاغَةَ الْكَلَامِ تَقُومُ - عِنْدَهُ - عَلَى رَكِيزَةِ الْإِعْجَازِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهُ؛ لِتَأْدِيَةِ الْمَعْنَى⁵.

¹ أبو عبد الله جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، الإيضاح لتلخيص المفتاح (القاهرة: مؤسسة المختار، 1998)، 9.

² الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، 15؛ عبد المتعال الصعدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (القاهرة: مكتبة الآداب، 1997)، 17-18.

³ عبد المتعال الصعدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، 18.

⁴ الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، 9.

⁵ ن. م، 9.

وَيَرَى السَّكَاكِي [555-626هـ، 1160-1229م] أَنَّهُ إِنْ كَانَ مُقْتَضَى الْحَالِ إِطْلَاقَ الْحُكْمِ فَحُسْنُ الْكَلَامِ تَجْرِيدُهُ مِنْ مُؤَكِّدَاتِ الْحُكْمِ، وَإِنْ كَانَ مُقْتَضَى الْحَالِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَحُسْنُ الْكَلَامِ تَحْلِيلُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمُقْتَضَى ضَعْفًا وَقُوَّةً. وَإِنْ كَانَ مُقْتَضَى الْحَالِ طَيِّئًا ذَكَرَ الْمُسْنَدَ إِلَيْهِ فَحُسْنُ الْكَلَامِ تَرْكُهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُقْتَضَى إِثْبَاتُهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ فَحُسْنُ الْكَلَامِ وَرُودُهُ عَلَى الْإِعْتِبَارِ الْمُنَاسِبِ، وَكَذَا إِذَا كَانَ الْمُقْتَضَى تَرْكُ الْمُسْنَدِ فَحُسْنُ الْكَلَامِ وَرُودُهُ عَارِيًّا عَنْ ذِكْرِهِ، وَإِنْ كَانَ الْمُقْتَضَى إِثْبَاتُهُ مُخَصَّصًا بِشَيْءٍ مِنَ التَّخْصِصَاتِ فَحُسْنُ الْكَلَامِ نَظْمُهُ عَلَى الْوُجُوهِ الْمُنَاسِبَةِ مِنَ الْإِعْتِبَارَاتِ الْمَقْدَّمِ ذِكْرُهَا، وَكَذَا إِنْ كَانَ الْمُقْتَضَى عِنْدَ انْتِظَامِ الْجُمْلَةِ مَعَ أُخْرَى فَصْلُهَا أَوْ وَصْلُهَا وَالْإِيجَازُ مَعَهَا أَوْ الْإِطْنَابُ، أَعْنِي طَيِّئًا جُمْلًا عَنِ الْبَيِّنِ وَلَا طَيِّبًا - فَحُسْنُ الْكَلَامِ تَأْلِيفُهُ مُطَابِقًا لِذَلِكَ¹.

إِذَنْ، فَلِلْمَقَامِ - الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ السِّيَاقُ - لَمْ يَبْرَحْ فَلَمَّ السَّكَاكِي وَهُوَ يُدَوِّنُ وَيُؤَكِّدُ مَرَّةً تَلَوَّ مَرَّةً أَنَّ الْفَيْصَلَ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي يَفْصِلُ أَنْوَاعَ الْجُمْلِ وَمَعَانِيهَا هُوَ "الْمَقَامُ"، فيقول: "لَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ مَقَامَاتِ الْكَلَامِ مُتَفَاوِتَةٌ، وَمَقَامُ التَّشْكُرِ يُبَايِنُ مَقَامَ الشُّكَايَةِ، وَمَقَامُ التَّهْنِئَةِ يُبَايِنُ مَقَامَ التَّعْزِيَةِ، وَمَقَامُ الْمَدْحِ يُبَايِنُ مَقَامَ الذَّمِّ، وَمَقَامُ التَّزْغِيْبِ يُبَايِنُ مَقَامَ التَّزْهِيْبِ... وَكَذَا مَقَامُ الْكَلَامِ ابْتِدَاءً يُعَايِرُ مَقَامَ الْكَلَامِ، بِنَاءً عَلَى الْاسْتِخْبَارِ أَوْ الْإِنْكَارِ، وَمَقَامُ الْبِنَاءِ عَلَى السُّؤَالِ يُعَايِرُ مَقَامَ الْبِنَاءِ عَلَى الْإِنْكَارِ؛ جَمِيعُ ذَلِكَ مَعْلُومٌ لِكُلِّ لَبِيبٍ... وَلِكُلِّ مَنْ كَانَ مُقْتَضَى عَيْزٍ مُقْتَضَى الْآخِرِ²".

وَلَعَلَّ مَا ذَكَرَهُ السَّجْلَمَاسِيُّ [...] (704-...هـ، 1305-...م)³ - لَدَى حَدِيثِهِ عَنِ الْإِيجَازِ بِالْحَذْفِ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ "الْإِكْتِفَاءُ" - يَتَشَبَّهُ بِمَفْهُومِ السِّيَاقِ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ، فَقَدْ عَرَفَهُ عَلَى أَنَّهُ "رَبْطُ الْقَوْلِ بِعَرَضٍ مَقْصُودٍ عَلَى الْقَصْدِ الْأَوَّلِ"⁴، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ بِهَذَا التَّعْرِيفِ أَنْ يَصِلَ إِلَى "الْمَعْنَى" الَّذِي سَبَقَ مِنْ أَجْلِهِ الْكَلَامُ بَلْ إِلَى

¹ السَّكَاكِي، مُفْتَاَحُ الْعُلُومِ، 256-257؛ الْقَزَوِينِي، التَّلْخِصُ فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ، 8.

² السَّكَاكِي، مُفْتَاَحُ الْعُلُومِ، 256.

³ تَارِيخُ الْوَفَاةِ الْمَدُونُ هُنَا هُوَ بِالنَّقْرِيبِ. وَحَوْلَ ذَلِكَ يَقُولُ أَمجد الطَّرَابِلَسِيّ خَلَالَ تَقْدِيمِهِ لِلْكِتَابِ الَّذِي حَقَّقَهُ عَلالُ الْغَازِي: "الَّذِي مَا زِلْنَا نَجْهَلُ الْكَثِيرَ عَنِ تَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ، بَلْ لَا نَكَادُ نَهْرَفُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ إِلَّا أَنَّهُ عَاشَ فِي الْمَغْرِبِ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ السَّابِعِ وَمُفْتَتِحِ الثَّامِنِ، وَأَنَّهُ انْتَهَى سَنَةَ 704 هـ مِنْ تَأْلِيفِ كِتَابِهِ "الْمَنْزَعُ الْبَدِيعِ فِي تَجْنِيسِ أَسَالِيبِ الْبَدِيعِ". وَنَسَبَهُ الْمَوْلُفُ إِلَى (سَجْلَمَاسِيٍّ) قَدْ تَدَلَّى عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الْعَرَبِيَّةَ كَانَتْ مَسْقُطَ رَأْسِهِ، أَوْ مَكَانَ نَشَأَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ، أَوْ كِلَيْهِمَا مَعًا. وَلِسَجْلَمَاسِيٍّ تَارِيخُهَا الْمَعْرُوفُ بِوَصْفِهَا أَحَدَ مَرَاكِزِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ فِي جَنُوبِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى...". انْظُرْ أَبُو مُحَمَّدٍ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيَّ السَّجْلَمَاسِيَّ، الْمَنْزَعُ الْبَدِيعِ فِي تَجْنِيسِ أَسَالِيبِ الْبَدِيعِ (الرِّبَاطُ: مَطْبَعَةُ الْمَعَارِفِ الْجَدِيدَةِ، 1980)، 12-15؛ خَيْرُ الدِّينِ الزَّرْكَلِيُّ، الْأَعْلَامُ (بَيْرُوت: دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَائِينِ، [د.ت.])، 181.

⁴ السَّجْلَمَاسِيَّ، الْمَنْزَعُ الْبَدِيعِ فِي تَجْنِيسِ أَسَالِيبِ الْبَدِيعِ، 188.

معنى المعنى. ثُمَّ يُضَيَّفُ مُعَرِّفًا للاكتفاء على أَنَّهُ حَذَفُ أَحَدِ المرتبطين بوجه اكتفاءً بالثاني، والذي يَدُلُّ على الحذفِ دلالةً مركَّبةً مِنْ دلالتَي إضافةٍ وسياقٍ، "أَمَّا الإضافةُ فالدَّلالةُ الْمُفْتَضِيَّةُ بِالجملةِ أَنَّها هنا مضافاً قَدْ أُنْجِزَ فِي الدَّهْنِ مَعَ المضافِ إِلَيْهِ الملفوظِ بِهِ، وهما يرتبطانِ فِي القَوْلِ المنطبقِ عَلَيْهِما حَذُّ المضافَيْنِ مِنْ جهةِ النَّحْوِ الَّذِي أَخَذَا مرتبطينِ منه، ودلالةُ حرفِ الشرطيَّةِ الْمُفْتَضِي الرِّبْطَ الاتِّصاليَّ، أو غَيْرُ ذلكِ مِنَ القرائنِ اللَّفْظِيَّةِ والأدلةِ المُقَالِيَّةِ. وَأَمَّ السِّياقُ فالدَّلالةُ القاطعةُ على الحذفِ، النَّاصَةُ عَلَيْهِ، المُبَرِّزَةُ لتقديره الشخصيِّ، أو لتقديره الواحدِ بالنَّوعِ مَنْزِلَةَ الشَّخْصِيِّ مِنَ القوَّةِ والفعلِ"¹.

وَيُفَرِّقُ السَّجْلَمَاسِيُّ بَيْنَ الدَّلالةِ اللَّفْظِيَّةِ والمُقَالِيَّةِ اللَّتَيْنِ تُسَمَّيانِ "سياقَ النَّصِّ" وَبَيْنَ دلالةِ السِّياقِ، فالأوَّلَى الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا "دلالةُ الإضافةِ" هي كَوْنُ اللَّفْظِ مضافاً - لغةً - إلى لَفْظٍ آخَرَ؛ فَيَتَرَكُ أَحَدُهَا لدلالةِ الثَّانِي عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ ارتباطُهما مِنْ جِهَةِ النَّحْوِ كَقَوْلِهِ تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا...}²، كَأَنَّ قَالَ: لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، وَقَوْلِهِ تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ...}³ فَإِنَّمَا "يُحَذَفُ الجوابُ فِي مثلِ هذهِ الأدواتِ المُفْتَضِيَّةِ الجوابِ لِقَصْدِ المبالغةِ؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَرَكُ مَعَ أَقْصَى تَخَيُّلِهِ بتقديرِ أشياءَ لَا يُحِيطُ بِهَا الوصفُ، وَذلكَ حَيْثُ يَسوقُ السِّياقَ إلى معْنَى واحدٍ تَقَعُ على أَحاءٍ كثيرةٍ، ووجوهٍ متعدِّدةٍ وآخِذَةً بالنَّوعِ، ولأَخِذٍ بعضها بَدَلِ بعضٍ فِي زمنٍ كَأَنَّها تَقَعُ فِيهِ دفعةً يحارُ الوَهْمُ وَيَعْظُمُ التَّخَيُّلُ لها بِذلك. ولو صُرِّحَ بالجوابِ لَوَقَفَ الدَّهْنُ عندَ المَصْرُوحِ بِهِ المعْنَى فلا يَكُونُ له ذلكَ الوَقْعُ، وتقديرُهُ فِي الآيةِ: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، أَيْ وَقَدْ فُتِّحَتْ. والواوِ واوِ الحالِ"⁴. وَأَمَّا الدَّلالةُ الثَّانِيَّةُ - دلالةُ السِّياقِ - فهي كما عَرَفَها بقَوْلِهِ: رَبَطُ القَوْلِ بغرضٍ مقصودٍ أَوَّلَى وأَوْضَحَ على الْقَصْدِ الأوَّلِ⁵، بِمعْنَى أَنَّ النَّصَّ يَحْمِلُ معْنَيْنِ أو قَصْدَيْنِ أَحَدُهما أَوَّلَى بالرَّعايةِ الاستدلاليةِ - لارتباطِهِ بالسِّياقِ.

¹ السَّجْلَمَاسِيُّ، المنزَعُ البديع، 189؛ الطَّلحي، دلالةُ السِّياق، 49.

² القرآن الكريم، الرَّعد: 31.

³ القرآن الكريم، الزَّمر: 73.

⁴ السَّجْلَمَاسِيُّ، المنزَعُ البديع، 189-190.

⁵ الطَّلحي، دلالةُ السِّياق، 50.

9.1. عبد القاهر الجرجاني ونظرية "النظم":

يرى كثيرٌ من الباحثين أنَّ فكرة "النَّظْم" كانت معروفةً، بدايةً، في محيطِ المشتغلين بمسألة الإعجازِ القرآنيّ، وكانت، كذلك، وليدة النَّظَرِ في النَّصِّ القرآنيّ؛ لا سيَّما في إنعام النَّظَرِ في ظواهر لغويّة ومباحث بلاغيّة مختلفة كالترّكيب والفواصل القرآنيّة وغيرها من الظواهر. وعلى الرَّغم من هذا فقد كانت الإشارةُ إلى هذا المصطلح قليلةً في البحوث القرآنيّة القديمة¹.

وقبل أن نخطّ رحالنا عند عبد القاهر الجرجاني- المؤسّس الحقيقي لنظرية النَّظْم- لا بدّ من التنويه إلى أنَّ روح هذه النظرية كانت- كما ذكرنا آنفاً- تبرزُ لدى التّحويين والبلاغيين قبله، فقد وضع الجاحظ رسالةً في نَظْم القرآن، وقال فيها: "وأجودُ الشّعْرِ إذا رأيتَه متلاحِمَ الأجزاء، سهَّلَ المخارج، فتعلم بذلك أنّه أفرغَ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً"². ويضيف الجاحظ قائلاً: ".. فإذا كان الشّعْر مُستَكْرَهاً، فكأنَّ ألفاظ البيت من الشّعْرِ لا يقع بعضها ماثلاً لبعض، كان من التنافر ما بين أولاد العلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقَّعها إلى جنب أختها مُرضياً موافقاً، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشّعْرِ مؤوَّنة"³. وهذا يعني أنَّ الجاحظ يُبيِّن لنا أثر النَّظْم وجوْديته في سلامة الشّعْرِ وسبكه، وأنَّ الكلمة إذا لم تقع إلى جانب أختها موقعاً سليماً صحيحاً، وفق سنن العربية وطرائقها فإنَّ الكلام يُصبح ممجوجاً ومرفوضاً نُطقاً ومعنى⁴.

ونلاحظ في موضع آخر أنَّ الجاحظ يتوسَّع في حديثه عن الوظيفة الهامة للإشارة في الكلام، التي تُعدُّ عنده مُعيناً على الفهم والإيضاح لمقصود التراكيب ومعانيها⁵، إلى درجة أنَّ الجاحظ عدَّ "الإشارة" إحدى سمات البلاغة؛ فيقول: "قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة"⁶. ثمَّ يضيف الجاحظ واصفاً هذه الدلالات التي تُرشدُ إلى المعنى المراد بقوله: ".. وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ

¹ محمد محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، 124.

² الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 50.

³ ن.م، 1: 48.

⁴ الشَّجراوي، الفكر البلاغي، 49-50.

⁵ كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسميّة: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، 34.

⁶ الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 88.

خمسَةُ أَشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ: أَوَّلُهَا اللَّفْظُ، ثُمَّ الْإِشَارَةُ، ثُمَّ الْعَقْدُ، ثُمَّ الْخَطُّ، ثُمَّ الْحَالُ الَّتِي تُسَمَّى نَصْبَةً. وَالتَّصْبَةُ هِيَ الْحَالُ الدَّالَّةُ، الَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ الْأَوْصَافِ، وَلَا تَقْصُرُ عَنْ تِلْكَ الدَّلَالَاتِ...¹

وَبَعْدَ ذَلِكَ نَلْحِظُ الْجَاحِظَ مُؤَكِّدًا طَبِيعَةَ الْإِرْتِبَاطِ الْوَثِيقِ مَا بَيَّنَّ اللَّفْظُ وَالْإِشَارَةُ فِي الْكَلَامِ؛ لِمَا لَهَذَا الْإِرْتِبَاطِ مِنْ دَوْرِ فَاعِلٍ فِي الْإِبَانَةِ عَنْ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ؛ فَيَقُولُ: "الْإِشَارَةُ وَاللَّفْظُ شَرِيكَانِ، وَنِعْمَ الْعَوْنُ هِيَ لَهُ، وَنِعْمَ التَّرْجَمَانُ هِيَ لَهُ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَنُوبُ عَنِ اللَّفْظِ، وَمَا تَغْنِي عَنِ الْخَطِّ...". وَفِي الْإِشَارَةِ بِالطَّرْفِ وَالْحَاجِبِ وَعَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْجَوَارِحِ، مَرْفُوقٌ كَبِيرٌ، وَمَعُونَةٌ حَاضِرَةٌ فِي أُمُورٍ يَسْتُرُّهَا بَعْضُ النَّاسِ مِنْ بَعْضٍ، وَيُخْفَوْنَهَا مِنَ الْجَلِيسِ وَعَيْرِ الْجَلِيسِ. وَلَوْلَا الْإِشَارَةُ لَمْ يَتَفَاهَمِ النَّاسُ مَعْنَى خَاصِّ الْخَاصِّ، وَلَجَهِلُوا هَذَا الْبَابَ الْبَتَّةَ...²

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ سَبَقُوا عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ فِي الْحَدِيثِ عَنِ "النَّظْمِ" الْمُبَرَّدُ [210-285هـ، 826-899م]، فَقَدْ عَرَضَ أَيْضًا لِلنَّظْمِ، وَلَوْ بِتَلْمِيحٍ مُخْتَصِرٍ، قَائِلًا: "إِنَّ حَقَّ الْبَلَاغَةِ إِحَاطَةُ الْقَوْلِ بِالْمَعْنَى، وَاخْتِيَارُ الْكَلَامِ، وَحُسْنُ النَّظْمِ؛ حَتَّى تَكُونَ الْكَلِمَةُ مَقَارِنَةً أَخْتَهَا، وَمَعَاذَةً شَكَلَهَا، وَأَنْ يُقَرَّبَ بِهَا الْبَعِيدُ، وَيُخَدَفَ مِنْهَا الْفَضُولُ"³.

وَلَعَلَّ أَبَا سَلِيمَانَ الْخَطَّابِيَّ [319-388هـ، 931-988م] كَانَ مِنْ بَيِّنِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَحَدَّثُوا حَوْلَ مَفْهُومِ "النَّظْمِ" بِصُورَةٍ وَاضِحَةٍ، بَلْ مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَأَثَّرَ بِهِمْ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ فِي نَظَرِيَّتِهِ وَتَوْجُّهِهِ، فَبَيَّنَ الْخَطَّابِيُّ سِمَاتِ النَّظْمِ وَخَصَائِصَهُ، وَأَثَرَهُ فِي الْمَعْنَى، قَائِلًا: "وَأَمَّا رِسْمُ النَّظْمِ فَالْحَاجَةُ إِلَى التَّقَافَةِ وَالْحَدَقِ فِيهَا أَكْثَرُ؛ لِأَنَّهَا لِحَاظُ الْأَلْفَاظِ، وَزِمَامُ الْمَعَانِي، وَبِهَا تَنْتَظِمُ أَجْزَاءُ الْكَلَامِ، وَيَلْتَمِمْ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ، فَتَقُومُ لَهُ صُورَةٌ فِي النَّفْسِ يَتَشَكَّلُ بِهَا الْبَيَانُ"⁴.

وَيَقُولُ الْخَطَّابِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ حَوْلَ "النَّظْمِ": "...إِنَّمَا يَقُومُ الْكَلَامُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ: لَفْظٌ حَامِلٌ، وَمَعْنَى بِهِ قَائِمٌ، وَرِبَاطٌ لِهَئِمَّا نَاطِمٌ. وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْقُرْآنَ وَجَدْتَ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنْهُ فِي غَايَةِ الشَّرَفِ وَالْفَضِيلَةِ؛ حَتَّى لَا

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 76.

² ن.م، 1: 77.

³ أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، البلاغة (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1985)، 81.

⁴ الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، 31؛ الشجرأوي، 50.

تري شيئاً من الألفاظ أفصح، ولا أجزَل، ولا أغدب من ألفاظه، ولا ترة نظماً حسناً تأليفاً، وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه¹.

ويُعقِبُ محمد أبو موسى على ما ذكره الخطابي مؤكِّداً أننا حينما نتأمل كلام الخطابي هذا نجدُه قريباً من "النَّظْم"؛ لأنَّه يعني الروابط بين الكلمات والجمل، وليسَ هذا إلاَّ تَوْحِي معاني النَّحْو كما ذهب إلى ذلك عبدُ القاهر الجرجاني².

كما تحدّث القاضي عبد الجبار عن النَّظْم، عندما عرَضَ لمفهوم الفصاحة، فقال: "...وَأَعْلَمُ أَنَّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بُدَّ مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام رابع؛ لأنَّه إما أن تُعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولا بُدَّ من الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بُدَّ من الاعتبار مثله في الكلمات إذا انضمَّ بعضها إلى بعض... إنَّ المعاني وإن كان لا بُدَّ منها فلا تظهر المزية وإن كانت تظهر في الكلام لأجلها؛ ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق، وقد يكون أحد المعنيين أحسن وأرفع والمُعبر عنه في الفصاحة أدون فهو ممّا لا بُدَّ من اعتباره وإن كانت المزية تظهر بغيره، على أننا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد؛ فإذاً يجب أن يكون الذي يُعتبر - هو - التزايد عند الألفاظ التي يُعبر بها عنها... ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره، وكذلك فيما إذا تغيّرت حركاتها..."³.

وقد وُضِعَ - كذلك - أبو هلال العسكري [306-395هـ، 920-1005م] بصنمته في نظرية "النَّظْم"، ولعلنا نلمح ذلك خلال قوله: "...فحسّن الرّصف أن تُوضَعَ الألفاظ في مواضعها، وتُمكن في أماكنها، ولا يُستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والتّيادة إلاَّ حذفاً لا يُفسد الكلام، ولا يعمي المعنى. وتُضم كل لفظة

¹ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، 23.

² محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، 126.

³ القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، 16: 199.

إلى شكلها، وتُضاف إلى لَفْظِهَا. وسوءُ الرَّصْفِ تقديمُ ما ينبغي تأخيرُهُ منها، وصَرَفُهَا عَنْ وُجُوهِهَا، وتغيِيرُ صيغَتِهَا، ومخالِفَةُ الاستعمالِ في نَظْمِهَا"¹.

1. 9. 1. عبدُ القاهرِ الجرجانيُّ وجوهرُ النظريةِ:

إِنَّ لِعَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ مَكَانَةً كَبِيرَةً فِي تَارِيخِ الْبَلَاغَةِ، إِذِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَضَعَ نَظَرِيَّتِي عِلْمِي الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَضْعًا بَارِزًا وَذَا مَيِّزَةٍ خَاصَّةٍ فِي كِتَابَيْهِ "دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ"، و"أَسْرَارُ الْبَلَاغَةِ"، كَمَا اسْتَطَاعَ بِذَلِكَ أَنْ يُرْسِيَ دَعَائِمَ نَظَرِيَّةِ "النَّظْمِ" إِرْسَاءً وَاضِحَةً مَعَالِمُهُ².

وَيُقَرَّرُ الباحثُ علي زوين أنَّنا حينَما نَصِلُ إلى عبد القاهر الجرجانيّ وجهوده المتميّزة في تطوير البحث البلاغيّ-النحويّ ينبغي أَنْ نَقِفَ وقفةً مُتَأَنِّيةً عِنْدَ آرائِهِ ونَظَرَاتِهِ؛ مِنْهُجًا ومادَّةً وأسلوبًا.³

كَانَ الْجُرْجَانِيُّ قَدْ بَيَّنَّ نَظْرِيَّةَ لُغَوِيَّةً مُتَكَامِلَةً، تَجَلَّتْ فِيهَا الصَّلََةُ بَيْنَ النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ، وَجَعَلَتْ مِنْهُمَا عِلْمًا وَاحِدًا مُتَرَابِطًا الْأَصُولَ وَالْفُرُوعَ، فَجَاءَتْ نَظْرِيَّةُ النَّظْمِ تَطْبِيقًا عَمَلِيًّا لِهَذَا الْإِتِّجَاهِ فِي الرِّبَاطِ بَيْنَ مَعَانِي النَّحْوِ وَمُعْطَايَاتِ الْبَلَاغَةِ وَفَنَوْنَهَا⁴. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْجُرْجَانِيَّ انْطَلَقَ فِي كَلَامِهِ عَنِ "النَّظْمِ" إِلَى تَوْحِيٍّ مَعَانِي النَّحْوِ بَيْنَ الْكَلِمِ، فَنَرَاهُ يُكْرِّرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مَرَّاتٍ عِدَّةً، نَحْوَ قَوْلِهِ: "...وَأَعْلَمُ أَنَّ لَيْسَ النَّظْمُ إِلَّا أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ الْوَضْعَ الَّذِي يَفْتَضِيهِ عِلْمُ النَّحْوِ، وَتَعْمَلَ عَلَى قَوَانِينِهِ وَأَصُولِهِ، وَتَعْرِفَ مَنَاجِجَهُ الَّتِي هَمَجَتْ، فَلَا تَزِيغُ عَنْهَا، وَتَحْفَظَ الرُّسُومَ الَّتِي رَسَمْتَ لَكَ، فَلَا تَحُلْ بِشَيْءٍ مِنْهَا، وَذَلِكَ أَنَّا لَا نَعْلَمُ شَيْئًا يَبْتَغِيهِ النَّاطِمُ بِنَظْمِهِ غَيْرَ أَنْ يَنْظُرَ فِي وَجْهِهِ كُلِّ بَابٍ وَفُرُوقِهِ، فَيَنْظُرَ فِي الْخَبَرِ إِلَى الْوُجُوهِ الَّتِي تَرَاهَا فِي قَوْلِكَ: زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ، وَزَيْدٌ يَنْطَلِقُ، وَمُنْطَلِقٌ زَيْدٌ، وَزَيْدٌ الْمُنْطَلِقُ، وَالْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ، وَزَيْدٌ هُوَ الْمُنْطَلِقُ، وَزَيْدٌ هُوَ الْمُنْطَلِقُ. وَفِي الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ إِلَى الْوُجُوهِ الَّتِي تَرَاهَا فِي قَوْلِكَ: إِنْ تَخْرُجْ أَخْرَجْ، وَإِنْ خَرَجْتَ خَرَجْتُ، وَإِنْ تَخْرُجْ فَأَنَا خَارِجٌ، وَأَنَا خَارِجٌ أَنْ خَرَجْتَ، وَأَنَا إِنْ خَرَجْتُ خَارِجٌ".⁵

¹ العسكريّ، الصّناعتيّ، 161.

² شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، 160-161.

³ علي زوين، البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986)، 160.

4 الشَّجَرَاوَى، 53.

⁵ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 62.

ومن اللافت أن نُشير هنا إلى أن باحثين كثيرين يرون في كتاب "دلائل الإعجاز" كتاباً في البلاغة، وهو في حقيقة الأمر ليس كما يرون، بل هو - كما صرح عبد القاهر القاهر نفسه في مقدمته الكتاب - "كلامٌ وجيزٌ يطلع به الناظر على أصول النحو جملةً، وكل ما به يكون النظم دفعاً، وينظر منه في مرآة ثريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد"¹.

وتتلخص نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض²، فالكلام في العربية على ثلاثة أقسام، اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق لا تخرج عن ثلاثة، وهي: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بحرف³. وبالتالي، وتناسباً مع هذا الرؤية، فقد استطاع الجرجاني أن يؤسس لهذا الاتجاه الذي لا بُد منه في فهم تلك القواعد، وتجاوز ظواهرها وأشكالها وعلاماتها إلى ما سماه في كتابه القيم الآخر "أسرار البلاغة"⁴.

وتشير الباحثة سناء البياتي إلى أن العمود الأساس الذي بُنيت عليه نظرية "النظم" هو "معاني النحو"⁵، مستشهدة بمواضع كثيرة، نحو قوله: "وَكُنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ لَيْسَ النَّظْمُ شَيْئًا غَيْرَ تَوْحِيٍّ مَعَانِي النَّحْوِ وَإِحْكَامِهِ فِيمَا بَيْنَ الْكَلِمِ، وَإِنَّا بَقِينَا الدَّهْرَ نُجْهِدُ أَفْكَارَنَا؛ حَتَّى نَعْلَمَ لِلْكَلِمِ الْمَفْرَدَةِ سَلَكًا يَنْظُمُهَا، وَجَامِعًا يَجْمَعُ شَمْلَهَا، وَيَجْعَلُ بَعْضُهَا بِسَبَبٍ مِنْ بَعْضٍ، غَيْرَ تَوْحِيٍّ مَعَانِي النَّحْوِ وَإِحْكَامِهِ فِيهَا، طَلَبْنَا مَا كُلُّ مُحَالٍ ذُوهُ..."⁶، ونحو قوله: "فَلَسْتُ بِوَاحِدٍ شَيْئًا يَرْجِعُ صَوَابُهُ إِنْ كَانَ صَوَابًا، وَخَطْؤُهُ إِنْ كَانَ خَطَأً إِلَى النَّظْمِ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الْاسْمِ وَهُوَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي النَّحْوِ قَدْ أُصِيبَ بِهِ مَوْضِعُهُ، وَاسْتُعْمِلَ فِي غَيْرِ مَا يَنْبَغِي لَهُ فَلَا تَرَى كَلَامًا قَدْ وُصِفَ بِصِحَّةِ نَظْمٍ أَوْ فَسَادِهِ أَوْ وَصْفٍ بِمَزِيَّةٍ وَفَضْلٍ فِيهِ إِلَّا وَأَنْتَ بَحْدٍ مَرْجِعُ تِلْكَ الصِّحَّةِ، وَذَلِكَ الْفَسَادِ، وَتِلْكَ الْمَزِيَّةِ، وَذَلِكَ الْفَضْلُ إِلَى مَعَانِي النَّحْوِ وَإِحْكَامِهِ، وَوَجَدْتُهُ يَدْخُلُ فِي أَصْلِ مِنْ أَصُولِهِ، وَيَتَّصِلُ بِبَابٍ فِي أَبْوَابِهِ"⁷.

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 3.

² ن. م، 15.

³ ن. م.

⁴ أحمد عبد الستار الجوارى، نحو المعاني (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006)، 20.

⁵ سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم (عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، 2003)، 13.

⁶ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 300؛ سناء البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، 13.

⁷ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 65؛ البياتي، قواعد النحو العربي، 13.

وثُمَّ يُبَيَّنُّ الباعثة سناء البياتي إلى دَوْر "السياق" اللغويِّ الفاعل في تحديد معاني النَّحو؛ وذلك خلال محاولتها لتفسير مصطلح "معاني النَّحو" عند الجرجاني، فنقول إنَّ الجرجانيَّ يَقْصِدُ بمعاني النَّحو هي تلك المعاني الذهنيَّة التي تَتَوَلَّدُ في فكر المتكلِّم عند نَظْم الجُمْل، تلك المعاني التي تَنشَأُ مِنْ تحديد العلاقات بَيْنَ الأشياءِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بالكَلِم، فتربطُها ببعضها، كما يربطُ السِّلْكُ الشَّقَافُ حَبَّاتِ العقدِ، وَلَمَّا كانتِ الجملة وحدة الكلام الصَّغرى، والمركَّب الذي يحمل في ثناياه فكرةً تامَّةً فَإِنَّا إذا أَرَدْنَا أَنْ نَكْشِفَ عَنْ معاني النَّحو التي تتألَّفُ مِنْهَا الجملة لا بُدَّ- كما يُوَكِّدُ مهدي المخزومي - مِنْ معرفة المعاني الذهنيَّة التي تتألَّفُ منها الفكرة، وهذا يتطلَّبُ التَّوَعُّلَ في الدَّهْن؛ لِكَيْ نَحْصِّنَ ما يجري في أذهاننا عند نَظْم الجُمْل¹.

فمثلاً، يرى الجرجانيُّ أنَّ معاني الكلام كُلِّها معانٍ لا تُتَصَوَّرُ إِلَّا فيما بَيْنَ شَيْئَيْنِ، إذ لا ينطق المتكلِّمُ بفعلٍ معيَّنٍ إِلَّا وهو يريدُ إسناده إلى شَيْءٍ ظاهرٍ في النَّظْم، أو غَيْرِ ظاهرٍ لدلالة النَّظْمِ عَلَيْهِ، فعندما نقول: "حَضَرَ زَيْدٌ" نكونُ قَدْ فَكَّرْنَا أَوَّلًا بِأَنْ تُسَيِّدَ الفعل "حَضَرَ" إلى "زَيْدٌ" ولو لَمْ يَكُنْ في الدَّهْنِ تفكيرٌ بالإِسنادِ يسبقُ النُّطْقَ بِالْمُسَيِّدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ لَكَانَتْ هذه الكلمات مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ لَيْسَ لها سوى دلالتها المعجميَّة. في حين لو سُئِلَ أَحَدُنَا: "ما فَعَلَ زَيْدٌ؟" فَأَجَابَ "حَرَجٌ"، فهل صحيحٌ أَنْ يَكُونَ النُّطْقُ بالفعل "حَرَجٌ" بلا قَصْدٍ إلى إسناده إلى ضمير (زَيْد) في الفعل؟ وَإِنَّمَا اسْتُعْنِيَ عَنْ إظهاره في النَّظْمِ لدلالة السياقِ عَلَيْهِ².

ويتمظهرُ المعنى مضافاً إلى "سياقِ المعنى" في منظورِ نظريَّة "النَّظْم"، ذلك أَنَّ أساسَ نظريَّته "المعنى"، بِحَيْثُ تَتَنَالَى الألفاظُ في تراكيبٍ مختلفةٍ للدَّلالةِ على المعاني المتفاوتة مِنْ ناحيةِ الوضوح والعمقِ والتأثيرِ في النفوسِ والزِّيَادَةِ والتَّقْصَانِ والتَّوَكُّيدِ والتَّنْفِي والإثباتِ وَغَيْرِهَا مِنْ الأغراضِ التي يرى الجرجانيُّ فيها أَكْثَرَ تَعَبُّرٍ عَنِ المفهومِ الجوهرِيِّ لِلْغَةِ ومدى الاستفادة منها³، فَقَدْ عَبَّرَ عَنِ المعاني بـ "معاني النَّحو"، وَجَعَلَ النَّظْمَ قائماً في "التَّركيبِ" لا في "التَّحليلِ"؛ لذا فهو، مِنْ هذه الوجهة، أَقْرَبُ إلى المنهج التَّركيبيِّ في نظريَّة المعنى، وإذا أَرَادَ تحليلاً للمعنى فهو

¹ البياتي، قواعد النَّحو العربيِّ في ضوء نظريَّة النَّظْم، 13؛ مهدي المخزومي، في النَّحو العربيِّ- نقد وتوجيه (صيدا: المكتبة العصريَّة، 1964)، 37.

² البياتي، قواعد النَّحو العربيِّ في ضوء نظريَّة النَّظْم، 541-542.

³ علي زوين، منهج البحث اللغوي، 162.

يبدأ بتحليل التركيب دفعةً واحدةً، أي إنّه ينظر إلى التركيب ككلٍّ متماسكاً ومتربطاً، فلا يُجزّئه إلى أجزاءٍ متفرقةٍ لا علاقةً بينها على خلافٍ ما فعله النحاة التقليديون¹ - كما يعتقّد زوين. وهذا الصّد يقول الجرجاني: "اعلم أنّك لن ترى عجباً أعجب من الذي عليه الناس في أمر النظم، وذلك أنّه ما من أحدٍ له أدنى معرفةٍ إلا وهو يعلم أنّها هنا نظماً أحسن من نظمٍ ثمّ تراهم إذا أنت أردت أن تبصرهم ذلك تسدّر أعينهم وتضلّ عنها أفهامهم. وسبب ذلك أنّهم أوّل شيءٍ عَدِمُوا العلم به نفسه من حيث حسبوه شيئاً غير توجّي معاني النحو، وجعلوه يكون في الألفاظ دون المعاني..."². وهذا معناه - كما يفصّل إحسان عباس - أنّ عبد القاهر الجرجاني مهتمّ بالوحدة في النظم والتأليف، وأنّه معنيّ برؤية الصورة النهائية للنظم مجتمعةً من "اللفظ والمعنى" دون انفصلهما أو تمييزهما كلاً على حدة³.

إذن، فعبد القاهر ينظر إلى النحو بمعناه العامّ، أي بمعنى العلاقات القائمة بين المعاني، لهذا يوضّح الأستاذ محمّد عبد المطلب بأنّ عبد القاهر يتعامل مع النحو على المستوى السطحيّ والمستوى العميق، وهو مشابهٌ لمنهج من ينتمون إلى نظرية النحو التوليديّ بعده أساس دراسة النصّ الأدبي⁴.

ويتعيّن بهذا بأنّ الجرجانيّ كان قد رصّد الظواهر التعبيريّة وحدّد مواصفاتها؛ بلاغةً ونحواً - كما يقول الباحث محمّد عبد المطلب. وعلى الرغم من أنّه - يعني الجرجانيّ - قد انطلق من خلفيّة دينيّة تدور حول النصّ القرآنيّ مقارنةً ذلك بالكلام الإنسانيّ، لكنّه قد تجاوز هذه الخلفيّة، وتحرك حركةً طليقةً استوعب فيها ما سبقه من جهودٍ، وصبّها في قالبٍ نظريّ، جمّع فيه بين المستوى الداخليّ العميق (Deep Structure)⁵ لتركيّب الجمل وبين المستوى السطحيّ (Surface Structure)⁶ للصياغة، وقدّم تحليلاتٍ مدهشةً من خلال كشفه

¹ علي زوين، منهج البحث اللغوي، 162.

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، 173.

³ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1993)، 434.

⁴ عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 55.

⁵ تعني البنية العميقة البناء الأساسي المجرّد، وهي التي تُعنى بالذلالّة والمعنى حيث يتحدّد المحتوى الدلاليّ للجملّة، أي إنّها مسؤولة عن المعنى، كما تجعله منطلقاً للاستقاقات التحويليّة، فتحتوي - بهذا - على عدد من الجمل الأساسية (النواة) القابلة للتحويل. وهذه البنية تهتمّ تختصّ بالمستوى الفونولوجي للكلمات والجمل والتراكيب. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ البنية العميقة تمثّل دوراً هاماً وبارزاً في تقرير العلاقة بين النحو والذلالّة.

⁶ تعني بالبنية السطحيّة هي التي تنطرق إلى ظاهر التركيب وليس إلى المكوّن الدلاليّ؛ فتحدّد شكل الجمل وتنظّمها كظاهرة مادّيّة، أي إنّها مرتبطة بالتحقق الماديّ للجملّة على المستوى الصوتي (المستوى السطحي) للكلمات والجمل والتراكيب. سنعرّض لهذه المصطلحات في الفصل الرابع المتعلّق بنظرية السباق في الفكر اللغويّ الغربيّ. انظر: فوزي حسن الشايب، محاضرات في اللسانيّات (عمان: منشورات وزارة الثقافة، 1999)، 399-400؛ محمّد عبد المنعم خفاجي وآخرون، الأسلوبية والبيان العربيّ (القاهرة: الدار المصريّة للبناء،

عَنِ الْعِلَاقَاتِ الدَّخَلِيَّةِ فِي الْخَطَابِ (Discourse)¹؛ بناءً على هذه الحقيقة، فَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ نَدَّعِي - عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ - بِأَنَّ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ قَدَّمَ نَظْرِيَّةً مُكْتَمَلَةً بِكُلِّ أُسُسِهَا الْفِكْرِيَّةِ وَإِجْرَاءَاتِهَا التَّطْبِيقِيَّةِ، دُونَ أَنْ نَشْعَرَ لَحْظَةً وَاحِدَةً بِانْفِصَالِهِ عَنِ النَّصِّ².

وَيُؤَكِّدُ نَصْرُ أَبُو زَيْدٍ أَنَّ قَوَانِينَ النَّحْوِ وَمَعَانِي الْأَلْفَاظِ تُثَمِّلُ عِنْدَ الْجُرْجَانِيِّ النَّظَامَ اللَّغَوِيَّ الْقَارِ فِي وَعْيِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَقُومُ اللَّغَةُ عَلَى أُسَاسِهِ بِوُضُوفِهَا الْإِتِّصَالِيَّةِ، وَنَتِيجَةً لِهَذَا، فَإِنَّ الْكَلَامَ هُوَ التَّحْقِيقُ الْفَعْلِيُّ لِهَذِهِ الْقَوَانِينِ فِي حَدَثٍ كَلَامِيٍّ بَعِيْنِهِ³.

وَمِنْ هُنَا، يَقُولُ الْجُرْجَانِيُّ: "وَمُخْتَصِرُ الْأَمْرِ أَنََّّهُ لَا يَكُونُ كَلَامٌ مِنْ جِزْءٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مُسْنَدٍ وَمُسْنَدٍ إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ السَّبِيلُ فِي كُلِّ حَرْفٍ رَأْيُهُ دَخْلُ عَلَى جُمْلَةٍ كَأَنَّ وَاحِدًا، أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: "كَأَنَّ" يَقْتَضِي مُشَبَّهًا وَمُشَبَّهًا بِهِ، كَقَوْلِكَ: "كَأَنَّ زَيْدًا الْأَسَدُ"، وَكَذَلِكَ لَوْ قُلْتَ "لَوْ" وَ"لَوْلَا" وَجَدْتَهُمَا يَقْتَضِيَانِ جُمْلَتَيْنِ تَكُونُ الثَّانِيَّةُ جَوَابًا لِلأُولَى"⁴.

وَعَلَى صَعِيدٍ آخَرَ، يَذْهَبُ الزَّهْرَاوِيُّ بِدِرَانٍ إِلَى أَنَّ إِذَا مَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ إِلَى مُصْطَلَحِ "الْمَقَامِ" عَلَى أَنَّهُ يُثَمِّلُ "سِيَاقَ الْمَوْقِفِ" وَجَدْنَا ذَلِكَ أَيْضًا وَاضِحًا عِنْدَ الْجُرْجَانِيِّ، فَنَرَاهُ يَرْبُطُ الْكَلَامَ بِمَقَامِ اسْتِعْمَالِهِ، وَمَرَاعَاةِ مَقْتَضَى حَالِهِ، وَهُوَ لُبُّ دِرَاسَةِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ عِنْدَهُ - عَلَى حَدِّ قَوْلِ دِرَانٍ - وَمُتَّبِيقٌ مِنْ نَظَرِيَّتِهِ وَمَفْهُومِهِ لِلنَّظْمِ، حَيْثُ ثَارَ عَلَى اللَّغَوِيِّينَ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفِيْدُوا مِنْ مَبْدَأٍ جَيِّدٍ وَضَعَهُ سَبِيْوِيَّةً، مُؤَدَّاهُ رُبْتُ الْكَلَامِ بِمَقَامِ اسْتِعْمَالِهِ⁵، بَلْ وَقَعَ فِي ظَنِّهِمُ الْخَاطِئُ أَنَّ كُلَّ تَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ أَوْ حَذْفٍ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَبَايَةِ وَالْإِهْتِمَامِ كَمَا قَالَ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ النُّحَاةِ الْعَرَبِ!

Noam Chomsky, 20؛ عبد الحكيم راضي، من آفاق الفكر البلاغي عند العرب (القاهرة: مكتبة الآداب، 2006)، 21؛ (1992) Syntactic Structures (London: Mouton, 1965), 93; Aspects of a Theory of Syntax (Cambridge: MIT Press, 1965), 16-18; 128-147; 189-199; John Lyons, New Horizons in Linguistics (England: Penguin Books, 1975), 128; Jerrold Katz, The Philosophy of Language (Oxford: Oxford University Press) 1985, 101.

¹ يشير الخطاب إلى أجزاء من اللغة يتلفظ بها المتكلم خلال عملية التواصل أو التفاهم مع غيره. ويُفَرَّقُ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ بَيْنَ الْحَدِيثِ الْمَنْطُوقِ وَبَيْنَ لِسَانِيَّاتِ النَّصِّ. وَفِي تَحْلِيلِ الْحَدِيثِ يَعْالِجُ الْبَاحِثُ - مَثَلًا - اخْتِيَارَ الْكَلِمَاتِ النَّحْوِيَّةِ مِثْلَ أَدَاةِ التَّعْرِيفِ وَالضَّمَامِ وَتَأْثِيرِهَا فِي تَرَاكِبِ الْحَدِيثِ، وَنَحْوَ دِرَاسَةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ مَا يَقُولُهُ النَّاسُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى التَّمَاثُلِ أَوْ التَّرَابُطِ وَالتَّنَاسُقِ. انظر:

Sami A. Hanna and others, Dictionary of Modern Linguistics: English-Arabic, 40.

² عبد المطَّلَب، البلاغة العربية - قراءة أخرى، 28.

³ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، 14.

⁴ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 18.

⁵ الزَّهْرَاوِيُّ بِدِرَانٍ، عَالِمُ اللَّغَةِ عَبْدِ الْقَاهِرِ - الْمَفْتَنُ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَنَحْوِهَا (القاهرة: دار المعارف، 1987)، 238-242.

واستنادًا إلى هذا، يُظهر عبد القادر حسين حقيقة المنهج الذي سارَ وَفَّقَهُ عبد القاهر الجرجاني، مُؤَكِّدًا أنَّ منهج الجرجاني هو منهج النَّحْوِ الَّذِي لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدُودِ الْحُكْمِ بِالصَّحَّةِ وَالْفَسَادِ، إِنَّمَا يَمْتَدُّ إِلَى الْبَحْثِ فِي الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تُقِيمُهَا اللَّغَةُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ، وَإِلَى اجْتِلَاءِ مَعَانِيهَا، وَكَشْفِ غَامِضِهَا؛ وبذلك اتَّسَعَ أَفْقُ النَّحْوِ، وَغَنِيَتْ مَادَّتُهُ، ودخلَ فيه كُلُّ مَا يُرَاعَى فِي "النَّظْمِ" مِنْ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ، وَمَا إِلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ الْجُودَةِ وَعَدَمِهَا، مِمَّا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْعَرَفُ فِيمَا بَعُدَ بِجَعْلِهَا عِلْمَ الْمَعَانِي، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْأَسَاسَ عِنْدَهُ هُوَ النَّحْوُ، عَلَى أَنْ يَشْمَلَ النَّحْوُ عِلْمَ الْمَعَانِي، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ الْقَوَاعِدَ النَّحْوِيَّةَ إِلَى الْجُودَةِ الْفَنِّيَّةِ. مِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْجَرْجَانِيَّ يَسُوقُ لَنَا فِصُولًا جَمَّةً فِي كِتَابِهِ "دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ" تَعْتَمِدُ كُلُّهَا عَلَى النَّحْوِ، بَلْ نَرَى بَعْضَ الْفِصُولِ يَعْتَمِدُ كُلِّيَّةً لَا عَلَى النَّحْوِ الشَّامِلِ الثَّرِيٍّ، بَلْ بِمَعْنَى الْإِعْرَابِ أَيْضًا¹.

فَالْفَصْلُ وَالْوَصْلُ - مثلاً - هما، فِي الْحَقِيقَةِ، مَوْضُوعَانِ يَرْتَكِزَانِ عَلَى أَسَاسِ كَوْنِ الْجُمْلَةِ الْأُولَى لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ، أَوْ لَيْسَ لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ²، وَجَمِيعُ صُورِ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ تَدْخُلُ فِي النِّطاقِ النَّحْوِيِّ³ وَالْحَيِّزِ الْإِعْرَابِيِّ. وَقَدْ أَفْرَدَ الْجَرْجَانِيُّ فِصْلًا كَامِلًا؛ لِتَأْكِيدِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ حَيْثُ يَسْتَهْلِكُ قَائِلًا: "وَإِذَا قَدْ عُرِفَتْ هَذِهِ الْأَصُولُ وَالْقَوَانِينُ فِي شَأْنِ فَصْلِ الْجُمْلِ وَوَصْلِهَا فَاعْلَمْ أَنَّا حَصَّلْنَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: جُمْلَةٌ حَالُهَا مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا حَالُ الصِّفَةِ مَعَ الْمَوْصُوفِ التَّأْكِيدِ مَعَ الْمُؤَكَّدِ، فَلَا يَكُونُ فِي الْعَطْفِ الْبَتَّةِ؛ لِشَبِّهِ الْعَطْفِ فِيهَا لَوْ عُطِفَتْ بِعَطْفِ شَيْءٍ عَلَى نَفْسِهِ، وَجُمْلَةٌ حَالُهَا مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا حَالُ الْاسْمِ يَكُونُ غَيْرَ الَّذِي قَبْلَهُ، إِلَّا أَنَّهُ يَشَارِكُهُ فِي حُكْمٍ وَيَدْخُلُ مَعَهُ فِي مَعْنَى، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ كِلَا الْاسْمَيْنِ فَاعِلًا، أَوْ مَفْعُولًا، أَوْ مُضَافًا إِلَيْهِ، فَيَكُونُ حَقُّهَا الْعَطْفُ. وَجُمْلَةٌ لَيْسَتْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَالَيْنِ، بَلْ سَبِيلُهَا مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا سَبِيلُ الْاسْمِ مَعَ الْاسْمِ لَا يَكُونُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ، فَلَا يَكُونُ إِيَّاهُ، وَلَا مِشَارِكًا لَهُ فِي مَعْنَى، بَلْ هُوَ شَيْءٌ إِنْ ذُكِرَ لَمْ يُذَكَّرْ إِلَّا بِأَمْرِ يَنْفَرِدُ بِهِ، وَيَكُونُ ذِكْرُ الَّذِي قَبْلَهُ، وَتَرْكُ الذِّكْرِ سَوَاءً؛ لِعَدَمِ التَّعَلُّقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ رَأْسًا، وَحَقُّ هَذَا تَرْكُ الْعَطْفِ الْبَتَّةِ، فَتَرْكُ

¹ عبد القادر حسين، دراسة في بلاغة عبد القادر الجرجاني- النظم، 31-32.

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، 171.

³ عبد القادر حسين، دراسة في بلاغة عبد القادر الجرجاني، 32.

العطف إما يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين أمرين، وكان له حال بين حالين...¹.

ونخلص مما سبق إلى القول إنَّ نظرية "النَّظْم" تُشكِّلُ نظريةً معرفيةً - إبستمولوجيةً - كمهادٍ حاضِرٍ لنظرية "السياق النَّحْوِي"، ولعلِّي لا أبالغ القول في أنَّ مفهوم "النَّظْم" عند عبد القاهر الجرجاني كان نابعاً من فهمه للسياق، وللمعاني السياقية - النحوية تحديداً، بل لعلِّي لا أبالغ - أيضاً - أنَّا لو استبدلنا "السياق" بـ "النَّظْم" لاستقامت النظرية، لا سيما في مفهوم "السياق" في اللسانيات الحديثة. وأظنُّ أنَّ كثيراً من الباحثين، خاصةً من قرأ عبد القاهر الجرجاني "الرَّجُل"، يشاطرونني التفكير، بل إنَّ منهم من ذهب إلى أنَّ هذه النظرية - كما يُؤكِّد سمير استيبيَّة - لا تزال بحاجة إلى مزيدٍ من البحث والتدقيق، إذ تُعدُّ نظرية "النَّظْم" التي أرسى قواعدَها عبدُ القاهر الجرجانيُّ معلِّماً بارزاً من معالم التفكير النَّحْوِي - اللُّغَوِي، وقد أُجريت أبحاث ودراسات كثيرة حول هذه النظرية، وعلى الرغم من ذلك ما زالت تحتاج إلى مزيدٍ من البحث والدراسة؛ كي تُكشَفَ خفاياها، وتُسكَّنَ أبعادها، وتُفجَّرَ ما فيها من طاقةٍ كامنة، حيثُ يمكنُ بذلك أن تكون أساساً لنظرية نحوية شاملة في معاني التراكيب وحقيقة دلالاتها².

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 187.
² سمير شريف استيبيَّة، منازل الرؤية: منهج تكاملي في قراءة النص (عمان: دار وائل، 2003)، 125.

10. 1. مصطلح "السياق" عند المفسرين:

يَتَبَوَّأُ النَّصُّ الْقَرَأَنِيَّ مَنَزِلَةً مُحَوَّرَةً فِي مَسَارِ تَشَكُّلِ الثَّقَافَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَحِينَمَا نُنْعِمُ النَّظَرَ فِي طَبِيعَةِ الْعِلَاقَةِ الَّتِي تَرْتَبُطُ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَمْعِيُّ بِهَذَا النَّصِّ¹ بَوَسْعِنَا أَنْ نَلْمَسَ الْمَكَانَةَ الْكَبْرَى الَّتِي أَوْلَاهَا النُّحَاةُ (الْمَفْسَّرُونَ) لِهَذَا النَّصِّ، وَبَعْدُنَا- أَيْضًا- عَدَّ نِتَاجِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ الْمَتَدَاخِلَةِ مَدْخَلًا رَئِيسًا وَبِمَةً بَارِزَةً لِفَهْمِ مَسَارِ الْفِكْرِ اللُّغَوِيِّ- النَّحْوِيِّ. وَبِهَذِهِ الرُّؤْيَا، يَأْتِي دَوْرُ النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ لِكُونِهِ شَاهِدًا لُغَوِيًّا وَثَقَافِيًّا وَحَضَارِيًّا²، إِذْ جَاءَ بِلُغَةٍ ذَلِكَ الزَّمَانِ، تَحْكُمُهَا- اللُّغَةُ- طَبِيعَةً فَرِيدَةً، وَتَحِيطُهَا ظُرُوفٌ وَمُنَاسِبَاتٌ وَسِيَاقَاتٌ، فَتَشَكَّلَتْ بِذَلِكَ- كَمَا يَقُولُ تَمَامُ حَسَّانٍ- مَنَظُومَةُ السِّيَاقِ اللُّغَوِيِّ. وَهَذِهِ الْمَنَظُومَةُ هِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَتَأَسَّسُ عَلَيْهِ الشِّئُ الْاجْتِمَاعِيُّ التَّطْبِيقِيُّ مِنْ وَجْهِ الْمَعْنَى، وَهُوَ الَّذِي تَتَمَثَّلُ فِيهِ الْعِلَاقَاتُ وَالظُّرُوفُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي تَسُوْدُ سَاعَةُ أَدَاءِ الْمَقَالِ³، وَبِالتَّالِي بِمَقْدُورِنَا أَنْ نَسْتَشِفَّ الْمَلَاحِظَ التَّدَاوُلِيَّةَ الَّتِي غَنِيَّ بِهَا الْمَفْسَّرُونَ فِي تَدَاوُلَاتِهِمْ وَتَعَاطِيهِمْ لـ "السِّيَاقِ".

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ وَمَا يَدُوْرُ حَوْلَهُ مِنْ دَرَسَاتٍ يُعَدُّ الْبَيْئَةَ الْحَاضِنَةَ الطَّبِيعِيَّةَ- كَمَا يَقُولُ طَاهِرُ حَمُودَةَ- الَّتِي أَنْضَجَتْ فِي أَحْضَانِهَا فُرُوعَ الدِّرَاسَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَبِالْبَلَاغِيَّةِ كُلِّهَا، فَضْلًا عَنْ أَنَّ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ، وَحَتَّى فِي الْمَرَاكِحِ الْأُولَى مِنْهُ كَانَ يُطَبَّقُ الْأَفْكَارَ السِّيَاقِيَّةَ بِشَدَّةٍ وَوُضُوحٍ⁴.

وَيَسْتَقَرُّ الْفَهْمُ عِنْدَ حَمُودَةَ أَنَّهُ مَنْ يَقْرَأُ فِي الْأَصُولِ الَّتِي التَّرَمَّ بِهَا الْمَفْسَّرُونَ فِي عَمَلِهِمْ وَيُقَارِئُهَا مَعَ النَّظَرِيَّاتِ اللَّسَانِيَّةِ الْحَدِيثَةِ- كَنْظَرِيَّةِ فِيرْت⁵ Firth- تَتَكَشَّفُ لَهُ أَصَالَةُ هَذِهِ الْفِكْرِ فِي الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، وَسَبْقُ تَطْبِيقِهَا فِيهِ عَلَى تَنْظِيرِ "فِيرْت" بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا⁶.

وَفِي حَدِيثِنَا عَنْ مُصْطَلَحِ "السِّيَاقِ" لَدَى الْمَفْسَّرِينَ لَا بُدَّ أَنْ نَقِفَ- بِدَايَةٍ- عِنْدَ أَبِي جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ [224-310هـ، 839-923م]، شَيْخِ الْمَفْسَّرِينَ كَمَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ، فَتَلَحَّظُ - كَمَا يَذْكُرُ الْبَاحِثُ مُحَمَّدُ الْمَالِكِي -

¹ مُحَمَّدُ الْجَابِرِيُّ، تَكْوِينُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ، 12-16.

² سَتِيفِنْ أُولْمَان، دَوْرُ الْكَلِمَةِ فِي اللُّغَةِ ([د.م.: مَكْتَبَةُ الشُّبَابِ، 1988)، 200.

³ تَمَامُ حَسَّانٍ، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ- مَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا، 337.

⁴ طَاهِرُ سَلِيمَانِ حَمُودَةَ، دَرَسَةُ الْمَعْنَى عِنْدَ الْأَصُولِيِّينَ (الْإِسْكَانْدَرِيَّةُ، الدَّارُ الْجَامِعِيَّةُ، [د.ت.])، 221.

⁵ سَاعَرَضُ لِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ بِتَوْسِيعٍ فِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ، وَهُوَ الْفَصْلُ الَّذِي سَاتَحَدَّثُ فِيهِ عَنْ نَظَرِيَّةِ السِّيَاقِ فِي الْفِكْرِ اللَّغَوِيِّ الْغَرِبِيِّ وَأَثَرِهَا فِي النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاوِرِ.

⁶ طَاهِرُ سَلِيمَانِ حَمُودَةَ، دَرَسَةُ الْمَعْنَى عِنْدَ الْأَصُولِيِّينَ، 221.

أنه يُلح على وجوب النظر إلى القرآن من زاوية العلاقات التحويلية والمقامية والأسلوبية القائمة بين الآيات والسور من خلال مراعاة السياق والاتساق بين أجزاء النص¹.

إن السياق وما يحوطه من ارتباطات غدا قواعد ينتهجها الطبري ويُعلن عنها في تفسيره، نحو قوله: "فَعَبَّرَ جَائِرٌ صَرَفُ الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حجة"، ويقول أيضًا في موقع آخر: "...فَاتَّبَاعُ الخطاب نظيره أَوَّلَى مِنْ صَرَفِ الكلام إلى غير نظيره"².

ومن اللافت، في هذا الصدد، أن نستقري ما أشار إليه القاضي عبد الجبار بأن الكلام المتعلق بالمحكم والمتشابه في القرآن إنما ينقسم إلى وجهين: أحدهما يتصل بالخطاب نفسه وموضوعه، والآخر يتصل بما يدل عليه من الأحكام العقلية والسمعية؛ لأن لكل واحد من هذين الوجهين تأثير³.

ثم يؤكد القاضي عبد الجبار أن الخطاب القرآني يرتبط بالقرائن التي بدورها إما أن تكون متصلة سمعًا، وإما أن تكون متصلة سمعًا وعقلًا، علمًا أن الدليل العقلي إن انفصل فهو كالمتمصل في أن الخطاب يرتب عليه؛ لأن - مثلاً - قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ } مع الدليل العقلي الدال على أنه لا يكلف من لا عقل له، أكد في بابه من أن يقول: يا أيها العقلاء اعبدوا ربكم⁴.

وبعد ذلك يبيّن القاضي عبد الجبار، أيضًا، بأن القرينة - التي تُقابل معنى "السياق" - هي مُستودع الفهم، خاصة أن ثمة اختلافًا عند الدارسين حول الخطاب الذي لا يستقل بنفسه، فبعض هذا الخطاب يوصف بالمحكم، وبعضه يوصف بأنه متشابه، وبعضه بأنه مجاز، وبعضه بأنه محذوف، إلى ما شاكل ذلك. وكل ما ذكر آنفًا يحتاج إلى قرينة دالة أو أكثر؛ كي يُعرف المراد بها، أو المقصود منها في فهم الخطاب القرآني⁵.

¹ محمد المالكي، دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن (المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996)، 146.

² محمد المالكي، دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره، 146.

³ القاضي عبد الجبار الهمداني، متشابه القرآن (القاهرة: دار التراث، 1969)، 1: 33.

⁴ القاضي عبد الجبار، متشابه القرآن، 1: 34.

⁵ ن. م، 1: 34.

وكان الرَّمَحْشَرِيُّ [467-583هـ، 1075-1144م] مِنْ أَوْلَئِكَ الْمَفْسِّرِينَ الَّذِي عُنُوا بِالسِّيَاقِ عِنَابَةً بِالْعَلَّةِ؛ بَلْ لَعَلَّهُ - كَمَا يَذْهَبُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْبَاحِثِينَ - مِنْ أَتَمِّزِ الْمَفْسِّرِينَ الَّذِينَ اسْتَنَدُوا إِلَى السِّيَاقِ وَاحْتَكَمُوا إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِمْ، خَاصَّةً أَنَّهُ - كَمَا يَصِفُهُ مُحَمَّدٌ أَبُو مُوسَى - النَّحْوِيُّ الْبَلَاغِيُّ¹ الَّذِي اعْتَنَى بِرَوَابِطِ الْكَلَامِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَبُجُوهِ الْعِلَاقَةِ وَالتَّرَكِيبِ وَالْإِعْرَابِ، فَتَجَدُّ الزَّرْكَشِيُّ - مَثَلًا - يُصَرِّحُ بِأَنَّ الرَّمَحْشَرِيَّ "يَجْعَلُ الَّذِي سَبَقَ لَهُ الْكَلَامُ مُعْتَمَدًا حَتَّى كَأَنَّهُ غَيْرُهُ مَطْرُوحٌ"²، أَيْ كَأَنَّ "السِّيَاقَ" مُقَدَّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ.

وَيَتَبَدَّى لَنَا مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّمَحْشَرِيَّ - كَعَبْرَةٍ مِنَ النُّحَاةِ وَالْمَفْسِّرِينَ - قَدْ تَأَثَّرُوا بِشَكْلِ جَلِيٍّ بِنَظَرِيَّةِ "النَّظْمِ" الَّتِي أَسَّسَ لَهَا عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ³، وَمَا كَتَابَ "الْكَشَافَ" - فِي تَقْدِيرِي - إِلَّا تَرْجُمَةً عَمَلِيَّةً لِأَرَاءِ الْجُرْجَانِيِّ، فَهِيَ هُوَ ذَا الرَّمَحْشَرِيُّ نَفْسُهُ يَصِفُ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - عِلْمِيَّ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ⁴ بِقَوْلِهِ: "ثُمَّ إِنَّ أَفْئَالَ الْعُلُومِ بِمَا يَعْمُرُ الْقَرَائِحَ، وَأَهْضَمَهَا بِمَا يُبْهِرُ الْأَلْبَابَ الْقَوَارِحَ مِنْ غَرَائِبِ نُكْتٍ⁵ يَلْطَفُ مَسَلِكُهَا، وَمُسْتَوْدَعَاتِ أَسْرَارٍ يَدُقُّ سِلْكُهَا، عِلْمُ التَّفْسِيرِ الَّذِي لَا يَتِمُّ لِنَعَاتِيهِ وَإِجَالَةِ النَّظَرِ فِيهِ كُلُّ ذِي عِلْمٍ، ذَكَرَ الْجَا حَظُّهُ فِي كِتَابِ "نَظْمِ الْقُرْآنِ"؛ فَالْفَقِيهَ وَإِنْ بَرَزَ عَلَى الْأَقْرَانِ فِي عِلْمِ "الْفَتَاوَى وَالْإِحْكَامِ"، وَالْوَاعِظُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَوْعَظَ، وَالنَّحْوِيُّ وَإِنْ كَانَ أَنْحَى مِنْ سَبِيحِيهِ، وَاللُّغَوِيُّ وَإِنْ عَلَكَ اللُّغَاتِ بِقُوَّةٍ لِحْيَتِهِ، لَا يَتَصَدَّى مِنْهُمْ أَحَدٌ لِسُلُوكِ تِلْكَ الطَّرَائِقِ، وَلَا يَعْوِضُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْحَقَائِقِ إِلَّا رَجُلًا قَدْ بَرَعَ فِي عِلْمَيْنِ مُخْتَصِّصِينَ بِالْقُرْآنِ: وَهُمَا عِلْمُ الْمَعَانِي وَعِلْمُ الْبَيَانِ"⁶.

¹ هذا الوصفُ مستقًى مِنَ الْبَاحِثِ مُحَمَّدِ أَبِي مُوسَى الَّذِي وَصَفَ الرَّمَحْشَرِيَّ عَلَى أَنَّهُ "نَحْوِيٌّ بِصِيرٍ بِالنَّحْوِ وَفَنَوِيٌّ، قَامَتْ دِرَاسَتُهُ الْبَلَاغِيَّةَ لِلْجُمْلَةِ عَلَى أَسَاسِ نَحْوِيَّةٍ... يَتَضَحُّ لَنَا هَذَا الْمَزْجُ الذَّكِيُّ بَيْنَ الْفِكْرَةِ النَّحْوِيَّةِ وَالرُّوحِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي دِرَاسَتِهِ لِلْجُمْلَةِ". انظر: مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ أَبُو مُوسَى، الْبَلَاغَةُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي تَفْسِيرِ الرَّمَحْشَرِيِّ وَأَثَرِهَا فِي الدِّرَاسَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ (الْقَاهِرَةُ: مَكْتَبَةُ وَهْبَةٍ، 1988)، 324.

² الزَّرْكَشِيُّ، الْبِرْهَانُ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ، (الْقَاهِرَةُ: مَكْتَبَةُ دَارِ الثَّرَاثِ، [د.ت.ا.]، 1: 317.

³ مُحَمَّدٌ أَبُو مُوسَى، الْبَلَاغَةُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي تَفْسِيرِ الرَّمَحْشَرِيِّ وَأَثَرِهَا فِي الدِّرَاسَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ، 125.

⁴ صَحِيحٌ أَنَّ عِلْمَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ مِنَ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ، وَلَكِنَّهُمَا وَفَّقَ نَظَرِيَّةَ "النَّظْمِ" عِنْدَ الْجُرْجَانِيِّ، وَوَفَّقَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الرَّمَحْشَرِيُّ هُمَا نَسِيجَانِ مَتَمَاسِكَانِ فِي الْأَدَاءِ النَّحْوِيِّ، إِذْ لَا انْفِكَافَ بَيْنَ الْمُسْتَوِيَّاتِ اللَّغَوِيَّةِ كُلِّهَا، وَمَا النَّحْوُ إِلَّا تَعَالُقُ الْكَلَامِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَتَأَلُّفُهُ، فَالنَّظْمُ هُوَ الضَّرْبُ مِنَ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْعِلَاقَاتِ النَّحْوِيَّةِ أَوْ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ وَبَيْنَ الْمَفْرَدَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الَّذِي يُصِيبُ الْمَتَكَلِّمَ تَوْفِيقًا يَتَلَاءَمُ مَعَ الْغَرَضِ الَّذِي سَبَقَ مِنْ أَجْلِ الْكَلَامِ. وَهَذَا مَا قَصَدَهُ - أَيْضًا - تَمَامُ حَسَنٍ بِإِنْشَاءِ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ بِوَاسِطَةِ مَا أَسَمَاهُ "الْقُرَائِنُ اللَّفْظِيَّةُ وَالْمَعْنَوِيَّةُ وَالْحَالِيَّةُ". انظر: تَمَامُ حَسَنٍ، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ - مَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا، 188-189؛ تَمَامُ حَسَنٍ، الْخُلَاصَةُ النَّحْوِيَّةُ، ([د.م.]: عَالَمُ الْكُتُبِ، 2000)، 22-23.

⁵ "النُّكْتُ" فِي اللُّغَةِ هِيَ الْأُمُورُ الْحَقِيقَةُ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى إِعْمَالِ عَقْلٍ وَجَهْدٍ فِي التَّفَكُّيرِ، وَهِيَ تُرَادَفُ مُصْطَلَحَ "الْطَّنَائِفِ"؛ لِهَذَا نَجَدُ كَثِيرًا مِنَ النُّحَاةِ وَالْمَفْسِّرِينَ يُعَوِّزُونَ فِي كُتُبِهِمْ بِمُصْطَلَحِ "النُّكْتُ"؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَقْدَرَةِ صَاحِبِ الْكِتَابِ فِي اكْتِنَاؤِهِ مَا خَفِيَ عَنِ النَّاسِ، وَفِي اسْتِنْبَاطِ دَقَائِقِ الْأُمُورِ، نَحْوُ: "النُّكْتُ فِي تَفْسِيرِ سَبِيحِيهِ" لِلأَعْلَمِ الشَّنْمَرِيِّ، وَ"النُّكْتُ وَالْعِيُونُ" فِي تَفْسِيرِ الْمَاوَرِدِيِّ، وَ"النُّكْتُ عَلَى الْأَلْفِيَّةِ وَالْكَافِيَّةِ وَالشَّافِيَّةِ وَالشَّدُورِ وَالزُّهَةِ" لِلسَّبُوطِيِّ، وَ"النُّكْتُ الْجَسَنُ فِي شَرْحِ غَايَةِ الْإِحْسَانِ" لِأَبِي حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَ"النُّكْتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَإِعْرَابِهِ" لِلْمَجَاشَعِيِّ... وَغَيْرِهَا الْكَثِيرُ.

⁶ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الرَّمَحْشَرِيِّ، الْكَشَافُ عَنْ حَقَائِقِ التَّنْزِيلِ وَعِيُونِ الْأَقَاوِيلِ فِي وَجُوهِ التَّأْوِيلِ (الْقَاهِرَةُ: مَكْتَبَةُ مِصْرَ، ([د.ت.ا.]، 8-9).

ونلاحظُ - بعد ذلك - أنَّ الرَّمْخَشَرِيَّ عَبَّرَ صَرَاحَةً عَنْ مفهوم "النَّظْم" فيما احتواه كلامُهُ السابقُ فيقولُ

مُسْتَدْرِكًا: "قَدْ عَلِمَ كَيْفَ يُرْتَّبُ الْكَلَامُ وَيُؤَلَّفُ، وَكَيْفَ يُنْظَمُ وَيُرْصَفُ"¹.

ويؤكدُ فاضل السَّامِرَائِي أَنَّهُ مَنْ يَقْرَأُ فِي كِتَابِ "الْكَشَافِ" يَتَبَيَّنُ لَهُ مَدَى اهْتِمَامِ الرَّمْخَشَرِيَّ -اهتمامًا بالغًا وواسعًا- بعلاقة النَّحْوِ بِالسِّيَاقِ، إِذْ يُوجِّهُ التَّرْتِيبَ النَّحْوِيَّ تَوْجِيهًا يُنَاسِبُ أَبْلَغَ المعاني، وذلك خلالَ الاعتمادِ على السِّيَاقِ، فيقولُ السَّامِرَائِي: إِنَّ مِنَ الْأُمُورِ البارِزةِ فِي دَرَسَاتِ أَبِي الْقَاسِمِ الرَّمْخَشَرِيَّ النَّظَرَ إِلَى عِلَاقَةِ النَّحْوِ بِالْمَعْنَى وَالبَلَاغَةِ، وَأَنَّ تَرْجِيحَهُ فِي الْإِعْرَابِ يَكُونُ بِمِقْدَارِ سُمُوِّ الْمَعْنَى بِالْبَلَاغَةِ². وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ حِينَ عَرَضَ الرَّمْخَشَرِيَّ فِي "الْكَشَافِ" مُفَسِّرًا قَوْلَهُ تَعَالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ♦ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}³: "...وارتفاعُ الحمدِ بالابتداءِ... وأصلُّهُ النَّصْبُ الَّذِي هُوَ قِرَاءَةُ بَعْضِهِمْ بِإِضْمَارِ فِعْلِهِ؛ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَنْصِبُهَا الْعَرَبُ بِأَفْعَالٍ مُضْمَرَةٍ فِي مَعْنَى الْإِخْبَارِ، كَقَوْلِهِمْ: "شَكَرًا لِلَّهِ، وَكُفْرًا، وَعَجَبًا" وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ! وَمِنْهَا: "سُبْحَانَكَ، وَمَعَادَ اللَّهِ" يُنْزِلُونَهَا مَنْزِلَةَ أَفْعَالِهَا، وَيَسُدُّونَ مِنْهَا مَسَدَهَا؛ وَلِذَلِكَ لَا يَسْتَعْمَلُونَهَا مَعَهَا، وَيَجْعَلُونَ اسْتِعْمَالَهَا كَالشَّرِيعَةِ الْمُنْسُوخَةِ. وَالْعَدْلُ⁴ بِهَا عَنِ النَّصْبِ إِلَى الرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ثَبَاتِ الْمَعْنَى وَاسْتِقْرَارِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا}⁵، رَفَعَ السَّلَامَ الثَّانِي⁶ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيَّاهُمْ بِتَحِيَّةٍ أَحْسَنَ مِنْ تَحِيَّتِهِمْ؛ لِأَنَّ الرَّفْعَ دَالٌّ عَلَى مَعْنَى ثَبَاتِ السَّلَامِ لَهُمْ دُونَ تَجَدُّدِهِ وَخُدُوثِهِ، وَالْمَعْنَى نَحْمَدُ اللَّهَ حَمْدًا..."⁷.

ويقولُ الرَّمْخَشَرِيُّ، فِي مَوْقِعٍ آخَرَ، فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَلَمْ ♦ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}⁸: "مَحَلُّ {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} الرَّفْعُ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذوفٌ، أَوْ خَبَرٌ -مَعَ {لَا رَيْبَ فِيهِ} لَ{ذَلِكَ}، أَوْ مُبْتَدَأٌ إِذَا جُعِلَ الظَّرْفُ الْمُقَدَّمُ خَبَرًا عَنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُنْصَبَ عَلَى الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَعْنَى الْإِشَارَةِ أَوْ الظَّرْفِ.

¹ الرَّمْخَشَرِيَّ، الْكَشَافُ عَنْ حَقَائِقِ التَّنْزِيلِ وَعَيُونَ الْأَقَاوِيلِ فِي وَجْهِهِ التَّأْوِيلِ، 9.

² فاضل صالح السَّامِرَائِي، الدَّرَاسَاتُ النَّحْوِيَّةُ وَاللُّغَوِيَّةُ عِنْدَ الرَّمْخَشَرِيَّ (بَغْدَاد: دَارُ النَّدِيمِ لِلصَّحَافَةِ وَالتَّنْشِيرِ وَالتَّوْزِيعِ، 1971)، 235.

³ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْفَاتِحَةُ: 2-3.

⁴ "الْعَدْلُ" فِي النَّحْوِ يَعْنِي التَّغْيِيرَ وَالتَّنْقِيلَ مِنْ حَالَةٍ أَعْرَابِيَّةٍ إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى، أَوْ التَّغْيِيرَ مِنْ صِبْغَةٍ (نَحْوِيَّةٍ أَوْ صَرْفِيَّةٍ) إِلَى صِبْغَةٍ أُخْرَى.

⁵ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، هُودٌ: 69. سَأَعْرِضُ لِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي عِنْدَمَا أَتَحَدَّثُ عَنْ "السِّيَاقِ فِي الْمَرْفُوعَاتِ" وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمَفْسُرُونَ وَالنُّحَاةُ فِي مَصْنَفَاتِهِمْ وَمُؤَلَّفَاتِهِمْ.

⁶ وَقَعْتُ عِنْدَ الرَّمْخَشَرِيَّ بِهَذِهِ الصِّبْغَةِ؛ حَمَلًا عَلَى اللَّفْظِ الْمَذْكُورِ لـ"السَّلَامِ"، وَلَيْسَ حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى الْمَكْنُونِ وَالْمَقْدَّرِ بِـ"كَلِمَةِ السَّلَامِ" الْمُؤَنَّنَةِ.

⁷ الرَّمْخَشَرِيَّ، الْكَشَافُ، 16؛ فاضل السَّامِرَائِي، الدَّرَاسَاتُ النَّحْوِيَّةُ وَاللُّغَوِيَّةُ عِنْدَ الرَّمْخَشَرِيَّ، 236.

⁸ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْبَقَرَةُ، 2-1.

والذي أُرْسِخَ عِزًّا في البلاغة أَنْ يُضْرَبَ عَنْ هذه الحالِ صَفْحًا، وَأَنْ يُقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ {أَلَمْ} جملةٌ بِرَأْسِهَا أو طائفةٌ مِنْ حُرُوفِ المعجمِ مُسْتَقَلَّةٌ بِنَفْسِهَا، و{ذَلِكَ الْكِتَابُ} جملةٌ ثَانِيَّةٌ، و{لَا رَيْبَ فِيهِ} ثَالِثَةٌ، و{هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} رَابِعَةٌ. وَقَدْ أُصِيبَ بِتَرْتِيبِهَا مَفْصَلُ البلاغةِ، وموجبُ حَسَنِ النَّظْمِ، حَيْثُ جِيءَ بِهَا مُتَنَاسِقَةً هَكَذَا مِنْ غَيْرِ حَرْفٍ نَسَقٍ؛ وذلك لِحَيْثُهَا مُتَاخِيَةً آخِذًا بَعْضُهَا بِغُنْيٍ بَعْضٍ؛ فَالثَّانِيَةُ مُتَّحِدَةٌ بِالأُولَى مُعْتَنَقَةٌ لَهَا، وَهَلُمَّ جَرًّا إِلَى الثَّالِثَةِ والرَّابِعَةِ"¹.

إِذَنْ، فَالسِّيَاقُ أَوْ (النَّظْمُ) حَاضِرَانِ بِكِلَيْتَيْهِمَا عِنْدَ الرَّمَحْشَرِيِّ، وَعَلَى هَذَا التَّوَجُّهِ يُعَلِّقُ الْبَاحِثُ مُحَمَّدُ أَبُو مُوسَى عَلَى أَسْلُوبِ الرَّمَحْشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ وَاسْتِعَانِيهِ بِالنَّظْمِ وَالسِّيَاقِ بِأَنَّ "عِلْمَ النَّظْمِ هُوَ الَّذِي يُبْرِزُ الْأَسْرَارَ وَالثَّنَكْتَ فِي أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ، وَيَكْشِفُ الْفُرُوقَ الْمَعْنَوِيَّةَ الدَّقِيقَةَ بَيْنَ خُصُوصِيَّاتِ التَّرَاكِبِ، وَيَرْبِطُ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّاتِ بِالسِّيَاقِ وَالْغَرَضِ الْعَامِّ"².

وَيَبْدُو مَلَمَحُ "السِّيَاقِ" وَتَلَاوُحِ الْقُرْآنِ وَاضِحًا عِنْدَ الرَّاعِبِ الْأَصْفَهَائِيِّ [502-...-1108م]، إِذْ يَنْصَبُ اهْتِمَامُهُ الشَّدِيدُ فِي تَسْلِيطِ الضَّوْءِ عَلَى السِّمَاتِ الدَّلَالِيَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ. وَلَعَلَّ عِبَارَةَ الزَّرْكَشِيِّ، حِينَمَا أَتَى عَلَى مَا قَامَ بِهِ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَائِيُّ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَتَحْدِيدًا فِي كِتَابِهِ "المفردات"، خَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ يَقُولُ: "...وَمِنْ أَحْسَنِهَا كِتَابُ الْمَفْرَدَاتِ لِلرَّاعِبِ وَهُوَ يَتَصَيَّدُ الْمَعَانِي مِنَ السِّيَاقِ"³. وَيَقُولُ فِي مَوْعٍ ثَانٍ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنِ "التَّفْسِيرِ بِالْمَقْتَضَى": "...أَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ قِسْمَانِ: أَحَدُهُمَا وَرَدَ تَفْسِيرُهُ بِالنَّقْلِ... وَقِسْمٌ لَمْ يَرِدْ... الثَّانِي مَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَقْلٌ عَنِ الْمَفْسِّرِينَ، وَهُوَ قَلِيلٌ، وَطَرِيقُ التَّوَصُّلِ إِلَى فَهْمِهِ النَّظَرُ إِلَى مَفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ مِنَ لُغَةِ الْعَرَبِ وَمَدُلُولَاتِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وَهَذَا يَعْنِي بِهِنَّ الرَّاعِبُ كَثِيرًا فِي كِتَابِ "المفردات" فيذكرُ قِيدًا زَائِدًا عَلَى أَهْلِ اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِ مَدُلُولِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّهُ اقْتَنَصَهُ مِنَ السِّيَاقِ"⁴.

¹ الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ، 37-38.

² أَبُو مُوسَى، الْبَلَاغَةُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي تَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِيِّ، 237.

³ الزَّرْكَشِيُّ، الْبِرْهَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، 1: 291.

⁴ ن. م، 2: 172.

ويرى الباحث أحمد فرحات أنَّ الرَّاعِبَ تَمَيَّزَ عَنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَهُ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ، وهو بذلك يُقَدِّمُ لنا ثروة هائلة في هذا الجانب، فما وصلنا مِنْ تفسيره يُعْطِينَا فكرةً عظيمةً عَنِ اهتمامه بهذا الجانب الذي يجعلُ فَهْمَنَا لِلُّغَةِ أَدَقَّ، وهو بذلك يُرَشِّحُنَا لإدراك أسرار التعبير في القرآن، ويجعلنا قادرين على تَدْوُقِ بلاغيته وسحر بيانه، واكتشاف ما انطوت عليه حروفه وكلماته مِنْ حَيٍّ المعاني ومكنونات المعارف والعلوم¹. ويكاد - برأيه - يُجْمِعُ العلماء والأعلام على أنَّ كتاب "المفردات" للرَّاعِبِ يأتي في المرتبة الأولى مِنْ الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا الموضوع، فليس هناك مؤلف في علوم القرآن، أو دارس، أو مُفسِّر، أو كاتبٌ بَعْدَ الرَّاعِبِ الأصفهانيِّ إلَّا ويشعرُ بالإجلال والإعجاب لهذا العمل العظيم الذي يُعَدُّ نقلةً كبيرةً في ميدانه ومُنْعَطَقًا هامًا في تاريخ معاجم المفردات القرآنية². وَمِنْ الأمثلة على هذا - وهي كثيرةٌ وغزيرةٌ - أنَّا نجدُ الرَّاعِبَ الأصفهانيَّ يَعْرضُ لِلْفَرْقِ بَيْنَ "الريِّح" - بصيغة المفرد - وَبَيْنَ "الرياح" - بصيغة الجمع - فيقول: "والريِّحُ معروفٌ، وهي فيما قيل الهواء المتحرِّك. وعامة المواضع التي ذَكَرَ اللهُ تعالى فيها إرسالَ الريِّحِ بِلَفْظِ الواحدِ فعبارةٌ مِنَ العَذَابِ، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه بِلَفْظِ الجمعِ فعبارةٌ عَنِ الرَّحْمَةِ، فَمِنْ الريِّحِ: (قوله تعالى) {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا}³ - (وقوله) {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا}⁴ - {كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ}⁵ - {اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ}⁶، وَقَالَ فِي الْجَمْعِ: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ}⁷ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مَبْثُرَاتٍ، {يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا}⁸، وَأَمَّا قَوْلُهُ: {يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا}⁹ فالأظهرُ فيه الرَّحْمَةُ، وقَرِئَ بلفظ الجمع وهو أَصَحُّ...¹⁰.

وعليه، يَتَبَيَّنُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الرَّاعِبَ أَنَّ لَفْظَ "الريِّح" إِنَّمَا يُسْتَحْدَمُ - بمعناه التداولي - فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ؛ لِيشِيرَ إِلَى العَذَابِ، وَلَفْظَ "الرياح" يُسْتَحْدَمُ؛ لِيُذَلَّ عَلَى الرَّحْمَةِ، ونلاحظُ كيفَ اسْتَنْبَطَ الرَّاعِبُ معنى الرَّحْمَةِ مِنْ

¹ أحمد حسن فرحات، معاجم مفردات القرآن - موازنات ومقترحات (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، [د.ت.]]، 22-23.

² أحمد فرحات، معاجم مفردات القرآن - موازنات ومقترحات، 18.

³ القرآن الكريم، القمر: 19.

⁴ القرآن الكريم، فُصِّلَتْ: 16.

⁵ القرآن الكريم، آل عمران: 117.

⁶ القرآن الكريم، إبراهيم: 18.

⁷ القرآن الكريم، الجُر: 22.

⁸ القرآن الكريم، الأعراف: 57.

⁹ القرآن الكريم، الرُّوم: 48.

¹⁰ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرَّاعِبِ الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (القاهرة: المكتبة التَّوَفِيقِيَّة، [د.ت.]]، 211.

خلال السياق، وذلك عندما اقترنت كلمة "ريح" بجملة قرينية - إن جاز لي التعبير - وهي "ثُبِيرُ سَحَابًا؛ الأمر الذي منحها دلالة الرحمة، وليس دلالة العذاب. ومُردُّ ذلك إلى السياق.

وكذلك عندما يعرض الراغب لكلمة "القرية" نراه يُعَدِّدُ الأوجه المختلفة لمعناها، فتتعيَّن بهذا معانٍ بلاغية-نحوية، فيقول: "القرية: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه النَّاسُ ولِلنَّاسِ جميعًا، ويُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما، قال تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} ¹ قال كثيرٌ من المفسرين معناه أهل القرية. وقال بعضهم بل القرية ها هنا القوم أنفسهم، وعلى هذا قوله: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} ²... ³.

ويعلق أحمد فرحات على توصيف الراغب لمعنى "القرية" بأنه بناءً على هذا لا يُجَنِّجُ إلى القول بالمجاز - على حذف المضاف - لأنَّ المعنى الذي يراه بعضهم مجازًا يكون حقيقياً بناءً على أنَّ "القرية" تُطلق على المكان والسُّكَّانِ معاً في أصل المعنى اللغوي، وتبقى القرينة هي الكفيلة بترجيح أحد المعنيين ⁴.

ونستحضر -تارةً أخرى- ما قاله الزركشي؛ لندلل على أهمية ملمح السياق في تفسير القرآن، فيربط السياق بالنحو والبلاغة، إذ يقول إنه ينبغي على المفسر أن يُلمَّ بالنحو إلمامًا وافيًا وواسعًا، فعليه - على سبيل المثال - أن يبيِّن مراتب الكلام ويفقهها؛ "فإنَّ مَرْتَبَةَ العَمْدَةِ قبلَ مَرْتَبَةِ الفُضْلَةِ، ومَرْتَبَةُ المَبْتَدَأِ قبلَ مَرْتَبَةِ الخَبَرِ... وإذا اتَّصَلَ الضَّمِيرُ بما مَرْتَبَتُهُ التَّقْدِيمُ وهو يعودُ على ما مَرْتَبَتُهُ التَّأخِيرُ، فلا يجوزُ أن يتقدَّم؛ لأنَّه يكونُ متقدِّمًا لفظًا ورتبةً، وإذا اتَّصَلَ الضَّمِيرُ بما مَرْتَبَتُهُ التَّأخِيرُ وهو يعودُ على ما مَرْتَبَتُهُ التَّقْدِيمُ فلا يجوزُ أن يتقدَّم؛ لأنَّه يكونُ مقدِّمًا لفظًا مؤخَّرًا رتبةً... ⁵. ثمَّ إنَّ معرفةَ كَوْنِ اللَّفْظِ والتَّركيبِ أَحْسَنَ وَأَفْصَحَ يُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِ البلاغة، وهو - بهذا الدَّمَجِ بَيْنَ النَّحْوِ والبلاغة - مِنْ أعظمِ أركانِ المفسِّر؛ لهذا "فإنَّه لا بُدَّ مِنْ مراعاةِ ما يَفْتَضِيهِ الإعجازُ، مِنْ الحقيقةِ والمجازِ، وتأليفِ النَّظْمِ ⁶، وأنَّ يُوَاحِىَ بَيْنَ المواردِ، ويعتمدَ ما سَبَقَ لَهُ الكلامُ؛ حتَّى لا يتنافرَ، وعَيَّرَ ذلك... ⁷.

¹ القرآن الكريم، يوسف: 82.

² القرآن الكريم، النحل: 112.

³ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 403.

⁴ فرحات، معاجم مفردات القرآن، 22.

⁵ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 1: 310.

⁶ أنظر - أبقا - فيما قاله عبدُ القاهر الجرجاني حَوْلَ "النَّظْمِ".

⁷ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 1: 311.

وَكَيْ يَدْعَمَ الزَّرْكَشِيُّ رَأْيَهُ نَرَاهُ يَسْتَعِينُ بِمَا قَالَهُ السَّكَاكِيُّ وَالتَّخَشُّرِيُّ حَوْلَ الطَّرِيقِ إِلَى التَّفْسِيرِ الصَّحِيحِ
بِالِاسْتِعَانَةِ بِالنَّظْمِ وَالْمَعْنَى وَالبَلَاغَةِ، فيقول مستشهدًا بقولهما: "واعلم أنَّ شَأْنَ الإعجازِ عجيبٌ، يُدْرِكُ ولا يمكنُ
وَصْفُهُ، كاستقامةِ الوزنِ تُدْرِكُ ولا يمكنُ وصفُها، وكالملاحيةِ، ولا طريقَ إلى تحصيلِهِ لِدَوِي الفِطْرِ السَّليمةِ إِلَّا إِتْقَانُ
عِلْمِي المعاني والبيانِ والتَّمَرُّنُ فيهما"¹. واعلم أنَّه "مِنْ حَقِّ مفسِّرِ كتابِ اللهِ الباهرِ، وكلامِهِ المعجزِ أن يتعاهدَ في
مذاهبِهِ بقاءَ النَّظْمِ على حُسْنِهِ، والبَلَاغَةِ على كمالِها، وما وَقَعَ بِهِ التَّحْدِي سَليماً مِنَ القادحِ، وإذا لم يتعاهدْ
أَوْضَاعَ اللُّغَةِ فهو مِنْ تعاهدِ النَّظْمِ والبَلَاغَةِ على مراحل..."².

ويتبدَّى لنا ممَّا ذَكَرَهُ الزَّرْكَشِيُّ أنَّ مراعاةَ اللُّغَةِ وَتَعَاهُدَ التَّرْكِيبِ وَالنَّظْمِ وَالسِّيَاقِ يَصَبُّ فِي صَمِيمِ التَّفْسِيرِ؛
بَلْ إِنَّهُ أَطْلَقَ عَلَيْهَا مِصْطَلَحَ "الصَّنَاعَةِ"؛ الَّتِي تَوَلَّى بِمَنْ يُتَّقِنُهَا بَأَن يَكُونَ مفسِّراً ماهِراً ضليعاً، فنجدُهُ يُوَكِّدُ هذا
المعنى بقوله: "...واعلم أنَّ معرفةَ هذه الصَّنَاعَةِ بأَوْضَاعِهَا هي عُمْدَةُ التَّفْسِيرِ المَطْلَعِ على عجائبِ كلامِ اللهِ، وهي
قاعدةُ الفصاحةِ وواسطةُ عِقْدِ البَلَاغَةِ..."³، ضَارِباً بِذَلِكَ مَثَلاً فِي حَذْفِ الواوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {الرَّحْمَنُ} ♦ عِلْمُ
الْقُرْآنِ ♦ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ♦ عِلْمُهُ الْبَيَانُ⁴، فَإِنَّ فِي حَذْفِ الواوِ فِي آيَةِ {عِلْمُهُ الْبَيَانُ} نُكْتَةً عِلْمِيَّةً وَأَمراً دَقِيقاً
يَطْلُبُ إِنْعَامَ نَظَرٍ وَتَأَمُّلاً، حَيْثُ جَعَلَ تَعْلِيمَ الْبَيَانِ فِي وَزَانِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُ كَالْبَدَلِ مِنْ قَوْلِهِ {خَلَقَ الْإِنْسَانَ}؛
لأنَّهُ حَيٌّ نَاطِقٌ؛ وَكَأَنَّهُ إِلَى نَحْوِهِ أَشَارَ أَهْلُ المنطقِ بقولهم فِي تَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ وَحَدِّهِ: حيوانٌ ناطقٌ. مِنْ هُنَا، فَلَا
شَكَّ فِي أَنَّ هَذِهِ "الصَّنَاعَةُ" وَالمعرفةُ النَّحْوِيَّةُ - الَّتِي تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا تَمَاهِيًا لِمَسْتَوِيَّاتٍ لُغَوِيَّةٍ عَدَّةٍ - "تُفِيدُ قُوَّةَ الْإِفْهَامِ
على مَا يَرِيدُ الْإِنْسَانُ وَيُرَادُّ مِنْهُ؛ لِيَتَمَكَّنَ بِهَا مِنْ اتِّبَاعِ التَّصْدِيقِ بِهِ، وَإِدْعَانِ النَّفْسِ لَهُ"⁵.

وَنَسْتَشِفُّ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الزَّرْكَشِيُّ بِأَنَّ السِّيَاقَ يَأْتِي فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى مِنْ حَيْثُ الْإِعْتِبَارُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ
الْقُرْآنِيَّةِ، أَيْ آيَةِ كَانَتْ - وَيَكُونُ الْقَوْلُ الَّذِي يَتَوَافَقُ وَسِيَاقَ الْآيَةِ هُوَ الْقَوْلُ الْمُعْتَمَدُ، فَقَدْ نَوَّهَ الزَّرْكَشِيُّ وَشَدَّدَ
مُجْمِلاً لِمَا شَرَحَهُ آنِفًا بِقَوْلِهِ: "لِيَكُنْ مَحَطُّ نَظَرِ المفسِّرِ مِرَاعَاةَ نَظْمِ الْكَلَامِ الَّذِي سَبَقَ لَهُ، وَإِنْ خَالَفَ أَضَلَّ الْوَضْعَ

¹ الزَّرْكَشِيُّ، البرهان، 1: 311.

² ن. م.

³ ن. م، 1: 312.

⁴ القرآن الكريم، الرحمن: 4-1.

⁵ الزَّرْكَشِيُّ، البرهان، 1: 312.

اللُّغَوِيَّ لِثَبُوتِ التَّجَوُّزِ؛ ولهذا ترى صاحب "الكشاف"¹ يجعلُ الَّذِي سَبَقَ لَهُ الْكَلَامُ مُعْتَمَدًا، حَتَّى كَأَنَّهُ غَيْرُهُ مَطْرُوحٌ².

بالإضافة إلى ذلك، نَلْحَظُ كَذَلِكَ أَنَّ الزَّرْكَشِيَّ نَفْسَهُ يَتَحَدَّثُ عَنِ السِّيَاقِ مِنْ خِلَالِ الْمُنَاسَبَةِ وَالْمُقَارَنَةِ بَيْنَ الْآيَاتِ، مَبِينًا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ دَعَامَةٍ تُؤْذِنُ بِاتِّصَالِ الْكَلَامِ، وَهِيَ قَرَائِنٌ مَعْنَوِيَّةٌ مُؤْذِنَةٌ بِالرِّبْطِ³، وَمَعْلَلًا أَنَّ فَائِدَتَهُ "جَعَلَ أَجْزَاءَ الْكَلَامِ بَعْضُهَا آخِذًا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ، فَيَقْوَى بِذَلِكَ الْارْتِبَاطُ، وَيَصِيرُ التَّأْلِيفُ حَالَهُ حَالُ الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ، الْمَتَلَاثِمِ الْأَجْزَاءِ"⁴. وَيُؤَكِّدُ أَنَّهُ "مِنْ مُحَاسِنِ الْكَلَامِ أَنْ يَرْتَبِطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مَنْقَطَعًا... حَتَّى تَكُونَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، مُتَّسِقَةً الْمَعَانِي، مُنْتَظِمَةً الْمَبَانِي... وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْحَثَ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا مَكْمَلَةً لِمَا قَبْلَهَا، أَوْ مُسْتَقَلَّةً. ثُمَّ الْمُسْتَقَلَّةُ؛ مَا وَجَّهَ مَنَاسِبَتَهَا لِمَا قَبْلَهَا؟ فَبِمَا فِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ؛ وَهَكَذَا فِي السُّورِ يُطْلَبُ وَجْهٌ اتِّصَالُهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سَبَقَتْ لَهُ... وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ...}⁵ إِلَى قَوْلِهِ: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ♦ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ...⁶ عَطَفَ قِصَّةً عَلَى قِصَّةٍ؛ مَعَ أَنَّ شَرْطَ الْعَطْفِ الْمَشَاكَلَةُ⁷، فَلَا يَحْسُنُ فِي نَظِيرِ الْآيَةِ: {أَلَمْ تَرَ} {أَوْ كَالَّذِي}. وَوَجْهٌ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَشَابَهَةِ أَنَّ {أَلَمْ تَرَ} بِمَنْزِلَةِ: هَلْ رَأَيْتَ كَالَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ؟ وَإِنَّمَا كَانَتْ بِمَنْزِلَتِهِ لِأَنَّ {أَلَمْ تَرَ} مُرَكَّبَةٌ مِنْ هِمزة الاستفهام وحرف النفي؛ وَلِذَلِكَ يُجَابُ بِ"بلى"، وَالِاسْتِفْهَامُ يُعْطِي النَّفْيَ، إِذْ حَقِيقَةُ الْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ غَيْرُ ثَابِتَةٍ عِنْدَ الْمُسْتَفْهِمِ؛ وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ حَرْفُ الْاسْتِفْهَامِ مَكَانَ حَرْفِ النَّفْيِ، وَنَفْيُ النَّفْيِ إِجْبَابٌ، فَصَارَ بِمِثَابَةِ "رَأَيْتَ" غَيْرَ أَنَّهُ مَقْصُودٌ بِهِ الْاسْتِفْهَامُ،

¹ يُقْصَدُ بِذَلِكَ الزَّمْخَشَرِيُّ الَّذِي أَلَفَ كِتَابَ "الْكَشَافِ عَنْ حَقَائِقِ التَّنْزِيلِ وَعيون الأَقْوِيلِ فِي وَجْهِ التَّأْوِيلِ"، وَهُوَ مِنْ عُمْدَةِ كُتُبِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيَّةِ.

² الزَّرْكَشِيُّ، الْبِرْهَانُ، 1: 317.

³ ن. م. 1: 46.

⁴ ن. م. 1: 35-36..

⁵ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: الْبَقَرَةُ، 258.

⁶ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: الْبَقَرَةُ، 258-259.

⁷ الْمَشَاكَلَةُ لُغَةً هِيَ الْمِمَالَةُ وَالْمَشَابَهَةُ وَالْمُضَاهَاةُ وَالْمُوَافَقَةُ... تَقُولُ الْعَرَبُ: "الْمَشَاكَلَةُ مِنَ الْأُمُورِ" أَيُّ: مَا وَافَقَ فَاعِلُهُ وَنَظِيرُهُ. وَالْمَشَاكَلَةُ اصطلاحًا: ذِكْرُ الشَّيْءِ بِلَفْظٍ غَيْرِهِ؛ لَوْقُوعِهِ فِي صَحْبِهِ تَحْقِيقًا أَوْ تَقْدِيرًا. وَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ أَنَّ الْمَشَاكَلَةَ نَوْعَانِ: أَلْفُظِيَّةٌ: تُظْهَرُ فِي اللَّفْظِ أَوْ الْمَفْرَدَاتِ، وَهِيَ الْمَشَاكَلَةُ الَّتِي تَقَعُ تَحْقِيقًا. 2- عَقْلِيَّةٌ: تُفْهَمُ بِالْعَقْلِ، وَيُقَدَّرُ فِيهَا الْمَعْنَى تَقْدِيرًا. وَبِحِثِّاجِ مَعْرِفَةِ هَذَا النَّوعِ إِلَى الْقَرِينَةِ. وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْمَشَاكَلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ { (الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: الْبَقَرَةُ، 15)، فَالْمَشَاكَلَةُ فِي قَوْلِهِ "يَسْتَهْزِئُونَ" الَّتِي وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ "مُسْتَهْزِئُونَ"، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ اللَّهَ يُجَازِيهِمْ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْاسْتَهْزَاءِ لَا تَجُوزُ عَلَى اللَّهِ، فَسُمِّيَ الْجَزَاءُ اسْتَهْزَاءً؛ لَوْقُوعِهِ فِي سِيَاقِ لَفْظِ الْاسْتَهْزَاءِ الْأَوَّلِ. وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} (الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: الشُّورَى: 40)، فَالْمَشَاكَلَةُ هُنَا فِي قَوْلِهِ "سَيِّئَةٌ" الثَّانِيَّةِ، وَهِيَ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ؛ لِأَنَّ الرَّدَّ عَلَى السَّيِّئَةِ لَا يُسَمَّى سَيِّئَةً، وَلَكِنَّهُ ذِكْرُ هَذَا اللَّفْظِ لَوْقُوعِهِ فِي صَحْبَةِ "سَيِّئَةٍ" الْأُولَى. وَقَدْ تَكَوَّنَ كَلِمَةُ "سَيِّئَةٌ" مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، فَهِيَ كَلِمَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي غَيْرِ مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيِّ؛ لِعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ؛ فَالسَّيِّئَةُ هِيَ سَبَبُ الْجَزَاءِ. انْظُرْ: بِنَ عَيْسَى بِاطَاهِر، الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ- مَقَدِّمَاتُ وَتَطْبِيقَاتُ (بِيْرُوت: دَارُ الْكِتَابِ الْجَدِيدِ الْمُتَّحِدَةِ، 2008)، 351-352؛ أَحْمَدُ مُصْطَفَى الْمِرَاغِي، عُلُومُ الْبَلَاغَةِ- الْبَيَانُ وَالْمَعَانِي وَالْبَدِيعُ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ الْأَفَاقِ الْعَرَبِيَّةِ، 2000)، 385.

ولم يمكن أن يُؤتى بحرفه لوجوده في اللَّفْظ؛ فلذلك أعطى معنى: هل رأيت. فإن قُلت: من أين جاءت "إلى" و"رأيت" يتعدى بنفسه؛ أُجيب؛ لِتَضْمُنِهِ معنى "هل رأيت"¹.

وبوسعنا أيضًا أن نتبين استعانة المفسر بالسياق؛ للكشف عن حقيقة المعاني وميزات التركيب من خلال ما يطرحه الكافيجي² [788-879هـ، 1386-1474م]، فيقول: "وأما التفسير في الغرْب، فهو كشف معاني القرآن، وبيان المراد. والمراد من معاني القرآن أعم، سواء كانت معاني لغوية أو شرعية، وسواء كانت بالموضع أو بمعونة المقام وسوق الكلام وبقرائن الأحوال... ونحو خواص التركيب اللازمة له بوجه من الوجوه"³.

وكان بُرهان الدين البقاعي⁴ [809-885هـ، 1406-1480م] قد أولى "السياق" والتناسب في النص القرآني أهمية كبرى، بل يرى الباحث عمر أبو خرمة أنه- البقاعي- من أبرز المفسرين الذين التفتوا إلى نحو النص على مستوى التطبيق في التراث العربي⁵، إذ نجد أنه خلال تفسيره يربط بين الجمل في المتتالية النصية، سواء على مستوى ربط السورة الواحدة، أو ربط السور المتتالية والمتباعدة، فنلاحظ أنه ربط سورة "الناس" - وهي السورة الأخيرة في القرآن من حيث الترتيب - بسورة "الفاتحة" - وهي أول سورة في القرآن - وما بعدها، فيقول خلال معرض كلامه في سورة "الناس": "...ومقصود هذه السورة معلول لمقصود الفاتحة، الذي هو المراقبة، وهي شاملة لجميع علوم القرآن، التي هي مُصادقة الله ومعاداة الشيطان، ببراعة الختام، وفذلكة النظام، كما كانت الفاتحة

¹ الزركشي، البرهان، 1: 36-37؛ 46.

² هو أبو عبد محيي الدين محمد بن سليمان الرومي الحنفي الكافيجي. وُلِدَ بـ "كحجة كي" من بلاد صروخان العثمانية. لُقِبَ بذلك؛ لكثرة اشتغاله بالكافية (كافية ابن الحاجب) في النحو، فقد أكثر من قراءتها، وأقرأ بها حتى نُسِبَ إليها بزيادة "جيم" كما هي عادة الأتراك في النسب. قَدِمَ الشام، والقاهرة وأقام فيها. وتصدى للتدريس والإفتاء، وصار له صيت عظيم، وشاع ذكره، وانتشرت تلامذته وقتواه، وتزاحموا عنده من سائر المذاهب والفنون. قِيلَ في وصفه: "كانت كتابته دالة على توسعه في العلوم، ومزيد استحضاره لها، وقد صار علامة الدهر، وأوحد العصر، ونادرة الزمان، والأستاذ في التفسير والنحو والصرف والإعراب والمعاني والبيان والمنطق والهيئة والحكمة والجدل بحيث لا يشق أحد غبارَه في شيء". من أشهر تلاميذه جلال الدين السيوطي الذي أثنى عليه كثيرًا، فيقول "لقد لزمته أربع عشرة سنة، فما جئته من مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعُه قَبْلَ ذلك، قال لي يومًا: أغرب "زيد قائم"، فقلت: قد صرنا في مقام الصغار ونسأل عن هذا! فقال لي: في "زيد قائم" مائة وثلاثة عشر بحثًا، فقلت: لا أقوم من هذا المجلس حتى أستفيدها، فأخرج لي تذكرته فكتبها منها". من أهم مؤلفات الكافيجي: "التيسير في علوم التفسير"، و"كشف النقاب للأصحاب والأحباب في إيجاز القرآن"، و"رسالة في علم التفسير ووجوه القراءات"، و"الكافي الشافي". انظر: السيوطي، بغية الوعاة، 1: 117-119؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7: 326-328.

³ محمد بن سليمان الكافيجي، التيسير في قواعد التفسير، 21.

⁴ يرى كثير من الباحثين وأصحاب التراجم أن البقاعي علمًا كبيرًا في التفسير لا سيما في كتابه "نظم الدرر"، ولعلهُ كما يقول فضل عباس- من أوسع المراجع في علم التناسب؛ ولذلك لا يكاد يخلو بحث من البحوث التي عرضت للتفسير وعلم المناسبات إلا ويُذكر فيها البقاعي وكتابه. ويشير حاجي خليفة في وصف كتاب "نظم الدرر" إلى أن هذا الكتاب "لم يسبقه إلخ أحد"، جَمَعَ فيه أسرار القرآن ما تتحيز منه العقول، وقد اتقن البقاعي فيه المناسبات، وأوضح المعاني المُشكلات. انظر: فضل حسن عباس، اتقان البرهان (عمان: دار الفرقان، 1997)، 2: 249؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 763-764.

⁵ عمر محمد أبو خرمة، نحو النص- نقد النظرية... وبناء أخرى (إربد: عالم الكتب الحديث، 2004)، 48.

شاملةً لذلك؛ لأنها براعة الاستهلال، ورعاية الجلال والجمال، فقد اتَّصَلَ الآخِرُ بالأَوَّلِ اتِّصَالَ الْعِلَّةِ بِالْمَعْلُولِ، والدَّلِيلِ بِالْمَدْلُولِ، والمَثَلِ بِالْمُمَثَّلِ...¹.

وَلَعَلَّ اللَّافِتَ، والمُتَّيِرَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، أَنَّ عنايةَ البقاعيِّ انصبَّت على رِبطِ الجملِ القرآنيَّةِ بَعْضُهَا بَعْضٍ، حَتَّى أَنَّنَا نَلْمِسُ جَلِيًّا أَنَّ عِنَايَتَهُ بِالْجَمَلِ تَفُوقُ عِنَايَتَهُ بِرِبطِ الْجُمْلَةِ فِيمَا تَحْوِيهِ مِنْ مَكُونَاتٍ وَعِنَايَتِهِ، وَهَذَا الصَّدَدِ يُعْلِنُ الْبَقَاعِيَّ قَائِلًا: "...وَهَذَا الْعِلْمُ²... يُكْشِفُ أَنَّ لِلْإِعْجَازِ طَرِيقَيْنِ: أَحَدُهُمَا نَظْمُ كُلِّ جُمْلَةٍ عَلَى حَيَالِهَا بِحَسَبِ التَّرْكِيبِ، والثَّانِي نَظْمُهَا مَعَ أُخْتِهَا بِالنَّظَرِ إِلَى التَّرْتِيبِ...³".

ثُمَّ يَتَحَدَّثُ الْبَقَاعِيُّ عَنْ طَبِيعَةِ هَذَا النَّظْمِ (الرَّيْطِ) مُؤَكِّدًا أَنَّهُ عِلْمٌ دَقِيقٌ يَتَطَلَّبُ إِلَى فِطْنَةٍ وَكَيْاسَةٍ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَتَّى لِأَحَدٍ بِمَجَرَّدِ الْقِرَاءَةِ أَوْ السَّمْعِ، بَلْ قَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاطِرِينَ فِي النَّصِّ الْقِرَائِيَّ أَنَّ ثَمَّةَ تَبَاعُدًا فِي أَغْرَاضِهِ، وَتَنَاقُضًا فِي مَقَاصِدِهِ، وَتَنَافُرًا فِي تَوَالِي الْآيَاتِ وَالسُّورِ وَنَسَقِهَا، وَهَذَا الظَّنُّ الَّذِي يَظُنُّهُ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ تَقَطُّعِهِمْ لِحَقِيقَةِ نَظْمِ الْقُرْآنِ، وَبِرَهَانٍ قَاطِعٍ عَلَى عَدَمِ تَأْمُلِهِمْ تَأْمُلًا فَاحِصًا لِمَقَاصِدِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ؛ وَنَتِيجَةً إِلَى هَذَا فَهُمْ يَفْقِدُونَ حَلْقَةَ التَّرَاوُطِ فِي النَّصِّ وَسِيَاقَاتِهِ الْمُتَابِعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى فَكِّ هَذَا الْعَمُوضِ الَّذِي قَدْ يَبْدُو لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى؛ لِجَهْلِهِمْ بِحَقِيقَةِ النَّصِّ وَبِمَقْتَضِيَّاتِ الْمُنَاسَبَاتِ وَالسِّيَاقَاتِ الْمُتَالِحَةِ⁴، فَنَرَاهُ يُظْهِرُ أَنَّهُ مَنْ يُدَقِّقُ النَّظَرَ فِي الْمَعْنَى عِنْدَهُ مَوْقِعَ الْإِعْجَازِ، وَمَنْ يَتَأَمَّلُ رَوْعَةَ الرَّيْطِ وَالنَّظْمِ بَيْنَ كُلِّ جُمْلَةٍ بِمَا تَلْتَمِهُ وَمَا تَلَاها تَتَجَلَّى لَدَيْهِ - كَمَا يُؤَكِّدُ الْبَقَاعِيُّ - دَقَائِقُهُ وَجَلَالُهُ لِحِكْمَةِ أَرَادَهَا اللَّهُ مُنْزَلَةً، وَأَحْكَمَهَا مُجْمَلَةً وَمُقَصَّلَةً؛ فَأَدْرَكَ ذِرْوَةَ إِحْكَامِ الرَّيْطِ كَمَا فِي الْأَوْجِ مِنْ حُسْنِ الْمَعْنَى وَاللَّفْظِ⁵، وَلَرَأَى أَنَّ "الْمَقْصُودَ بِالتَّرْتِيبِ مَعَانٍ جَلِيلَةٍ الْوَصْفِ، بِدِيعَةِ الرَّصْفِ، عَالِيَةِ الْأَمْرِ، عَظِيمَةِ الْقَدْرِ". وَمِنْ ثَمَّ يَنْكَشِفُ لَهُ غَامُضٌ مَعْنَاهُ، وَبِهِ تَتَبَيَّنُ أَسْرَارُ الْقِصَصِ الْمَكْرَرَاتِ، وَأَنَّ كُلَّ سُورَةٍ أُعِيدَتْ فِيهَا قِصَّةٌ فَلَمَعَتْ أَدْعَى فِي تِلْكَ السُّورَةِ اسْتِدْلَالٌ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الْقِصَّةِ دُونَ الْمَعْنَى الَّذِي سَيَقَتْ لَهُ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ⁶.

¹ برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1984)، 22: 423.

² يقصد علم "المناسبات".

³ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 1: 11.

⁴ البقاعي، نظم الدرر، 1: 11-12.

⁵ ن. م، 1: 11.

⁶ ن. م، 1: 12-14.

إِذَنْ، فَمَنْزِلَةُ السِّيَاقِ وَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ الْآيَاتِ وَالسُّورِ الْقِرْآنِيَّةِ وَمُطَابَقَةُ الْمَعْنَى لِمُقْتَضَى الْحَالِ - وَفَقَّ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْبِقَاعِي - تُسْنَهُمْ فِي بَلُورَةِ الْارْتِبَاطِ وَالتَّعْلُقِ بَيْنَ الْعُنَاوِ الْمَكُونَةِ لِلنَّصِّ الْقِرْآنِيِّ، وَيُسْنَهُمْ أَيْضًا فِي مَعْرِفَةِ سِرِّ الْبَلَاغَةِ وَمَقْصُودِ السُّورِ الْمَرْجُو؛ وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ عِلْمَ الْمُنَاسَبَةِ وَالسِّيَاقِ " فِي مَنْظُورِ الْبِقَاعِيِّ عِلْمٌ نَفِيسٌ، بَلْ فِي غَايَةِ النَّفَاسَةِ - كَمَا يُقَرَّرُ - وَلَا يَتَحَقَّقُ التَّفْسِيرُ إِلَّا بِهِ، كَمَا لَا يَتَحَقَّقُ عِلْمُ الْبَيَانِ (الْبَلَاغَةِ) إِلَّا بِالنَّحْوِ¹.

وَلَعَلَّنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ نُشِيرُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّلْحِي وَهُوَ يُجْمِلُ مَفْهُومَ السِّيَاقِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَفَاهِيمَ، وَهِيَ:

أَوَّلًا، أَنَّ السِّيَاقَ هُوَ الْعَرَضُ وَمَقْصُودُ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ إِبْرَادِ الْكَلَامِ، وَهُوَ - بِهَذَا الْمَعْنَى - وَاحِدٌ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظِ "السِّيَاقِ"، وَكَانَ اسْتِعْمَالُهَا بِهَذَا مِنْ مَنْضَبًا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَصُولِ، حَتَّى حَرَّرَ السَّجْلَمَانِيُّ مَفْهُومَ السِّيَاقِ نَصًّا².

وِثَانِيًا، أَنَّ السِّيَاقَ هُوَ الظُّرُوفُ وَالْمَوَاقِفُ وَالْأَحْدَاثُ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا النَّصُّ أَوْ نَزَلَ أَوْ قِيلَ بِشَأْنِهَا. وَلَعَلَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي عُبِّرَتْ عَنْ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ هِيَ لَفْظُ "الْحَالِ" وَ"الْمَقَامِ".

وِثَالثًا، أَنَّ السِّيَاقَ هُوَ مَا يُعْرَفُ الْآنَ بِ"السِّيَاقِ اللَّغَوِيِّ" الَّذِي يُمَثِّلُهُ الْكَلَامُ فِي مَوْضِعِ النَّظَرِ أَوِ التَّحْلِيلِ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى مَا يَسْبِقُ أَوْ مَا يَلْحَقُ بِهِ مِنْ كَلَامٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُضِيءَ دَلَالَةَ الْقَدْرِ مِنْهُ مَوْضِعَ التَّحْلِيلِ، أَوْ يَجْعَلَ مِنْهَا وَجْهًا اسْتِدْلَالِيًّا³.

¹ البِقَاعِي، نَظْمُ الدَّرَرِ، 1: 5-7؛ عَمْرُ أَبُو خَرْمَةَ، نَحْوُ النَّصِّ - نَقْدُ النَّظَرِيَّةِ... وَبِنَاءُ أُخْرَى، 50.

² رَدَةُ اللَّهِ الطَّلْحِي، دَلَالَةُ السِّيَاقِ، 50.

³ الطَّلْحِي، دَلَالَةُ السِّيَاقِ، 50-51.

الفصل الثاني:

منظومة السياق وتربطها بين الفكر اللغوي الغربي والنحاة

العرب المحدثين -

التأثر والأثر

1. 2. مدخل:

لا يمكن فهم الواقع الراهن للسانيات في الثقافة العربية، واستيعاب الدّهنية اللغوية للنحاة العرب المحدثين¹ إلا بالاستقراء الدقيق للملابسات والظروف التي تحف بعملية الالتقاء بين الثقافتين؛ الوافدة والمستقبلة²؛ لأن من شأن ذلك أن يفتح أمامنا طريقاً واضحاً في فهم "المنظومة السياقية"، وما لها من تداعيات على تفسير النصوص. ولعلّه من الأهمية بمكان أن نُشير - بدايةً - إلى أنّ اللغويين في الدرس اللساني الغربي تحديداً عُنوا عناية كبيرة بوظائف اللغة والقوانين التي "تتحكم" بنظام بنيتها وحركيتها على أساس أنها عبارة عن منظومة ذات معنى يُكشف عنه من خلال تلك الخاصية المميزة لفك الرموز؛ بمعنى أنّ اللغة نظام من الرموز الاصطلاحية وُجدت كافة مظاهر تركيبه - من نظام الأصوات، والصرف، والنحو - لخدمة الوظيفة الأساسية، وهي نقل المعنى³. وينبغي على ذلك، كما يؤكد كروز Cruse - أنّ اللغة هي الوسيلة الأساسية لنقل المعنى، إلا أنها ليست الوحيدة

¹ ينبغي في بادئ الأمر أن يؤكّد أنّ هؤلاء النحاة (العرب المحدثين) من حيث توجّههم نحو منظور "السياق" انقسموا إلى ثلاث فرق: 1- فريق استقى رأيه من التراث العربي القديم، ومما ذهب إليه اللغويون القدماء، وكانهم بذلك يسترجعون الملامح السياقية القديمة بأدوات حديثة، ولكنهم ينطلقون من حقيقة مفادها أنّ نظرية "السياق" هي نظرية عربية أصيلة، كان العرب سبقون إليها. 2- فريق تأثر بالمناهج اللغوية الغربية الحديثة، وسار على منوالها، فأخذوا منهم مجمل ما يتعلق بنظرية "السياق"، ودرجوا على تحليل المسائل اللغوية وتفسير النصوص المتعلقة بموضوع "السياق" وفقاً لهذه المناهج. 3- فريق وفق بين المتمسكين بالمنهج السياقي التراثي القديم وبين الأخذين بالنظريات اللسانية الغربية الحديثة، إذ سعى هذا الفريق إلى دمج هذين المنهجين؛ كمحاولة إلى مزوجة الأصالة والحداثة في الدرس اللساني الحديث.

² حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة - دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009)، 19.

³ D. A. Cruse, "Language, Meaning and Sense: Semantics", *An Encyclopaedia of Language* (London and New York: Routledge, 1990), 139-142.

فحسبُ في هذه المهمة، إنما ينبغي أن ننظرَ إليها في سياقِ المخزونِ الكاملِ مِنَ الرموزِ المستخدمةِ في التواصلِ البشري¹.

ونلاحظُ بهذا، أنَّ النُّحاةَ الغربيينَ سَعَوْا إلى تفكيكِ البنيةِ الدَّاخليةِ لِلُّغَةِ، وإلى دُمجِ هذا التفكيكِ بإشراكِ السِّياقِ؛ ليتسَّى لنا أن نعرفَ المعانيَ المترتبةَ للتراكيبِ والألفاظِ اللُّغويةِ، وكذلك لِتأويلِ المسائلِ اللُّغويةِ ذاتِ الإشكاليَّةِ، خاصَّةً أنَّ العالمَ الحديثَ باتَ يعتمدُ على اللُّغةِ كقناةِ اتِّصالٍ وإعلامٍ في مستوياتٍ رفيعةٍ وهامةٍ. وقد أكَّدهَ روبنز Robins أنَّ مُعْظَمَ السِّماتِ الَّتِي تُميِّزُ التاريخَ المعاصرَ في الغربِ إنما نشأت في عصرِ النَّهْضَةِ، واستمرَّتْ دُونَ انقطاعٍ حتَّى الوقتِ الرَّاهِنِ، وأنَّ الكثيرَ مِنْ تِلْكَ السِّماتِ كانَ لَهُ تأثيرٌ مباشرٌ في الاتجاهاتِ الَّتِي اتَّخَذَتْهَا الدِّرَاساتُ اللُّغويةُ فيما بَعْدُ².

ومِمَّا لا يَدْعُ مجالاً للشُّكِّ - كما يقولُ الباحثُ المعروفُ عبد السلام المسدي [1945-....م] - في أنَّ اللِّسانيَّاتِ ولجَّتْ كُلَّ مجالاتِ الاتِّصالاتِ الإنسانيَّةِ؛ حتَّى غَدَتْ ملتقىً لكلِّ العلومِ الإنسانيَّةِ، ولا يمكنُ أن نُقيمَ هذا الدَّورَ الرَّائدَ في مجالاتِ الحياةِ للألسنيَّةِ دُونَ أن نقرَّ بحضورِ الدَّلالةِ والمعاني في ذلك، كقُفْزِ أساسيٍّ وهامٍّ في فاعليةِ الخطابِ، إذ إنَّ اللِّسانيَّاتِ تَسْتَلْهُمُ الظَّاهِرَةَ اللُّغويةَ ونواميسَها مِنْ مصادِرَ لسانیَّةٍ وَغَيْرِ لسانیَّةٍ، بمعنى أَهْأ- العلومِ اللِّسانیَّةِ - تَعْتَمِدُ على كُلِّ منتجاتِ الفِكرِ مِنْ خلالِ منظورٍ خاصٍّ ومتداخلٍ في الوقتِ ذاتِهِ بَيْنَ مجالاتِ خطائيةٍ متعدِّدةٍ نَحْوِ الخطابِ الشِّعْريِّ والأدبيِّ والعلميِّ والدِّينيِّ³... إلخ.

مِنْ هُنَا، يُشيرُ الباحثُ حافظُ علوي [1971-....م] - إلى أنَّ حَدَسَ الأَثَرِوبولوجي الفرنسيِّ كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss [1908-2009م] كانَ صَادِقًا، عِنْدَمَا أشارَ إلى أنَّ اللِّسانيَّاتِ، بِحُكْمِ توجُّهها العلميِّ، ستصبحُ جَسْرًا تَعْبُرُهُ العلومُ الإنسانيَّةُ جميعُها، كعلمِ الاجتماعِ، والتَّاريخِ، والفلسفةِ، والأدبِ... وَغَيْرِها مِنَ العلومِ؛ وذلكَ سَعْيًا إلى تحصينِ مواقعِها ونتائجِها - على حَدِّ قَوْلِ ستروس - وهذا بالفعلِ ما حَصَلَ في الغربِ، إذ غَدَتْ اللِّسانيَّاتُ رائدةَ العلومِ الإنسانيَّةِ بإطلاقٍ، وهي تُحَقِّقُ لِنَفْسِها طابَعًا

¹ Cruse, "Language, Meaning and Sense: Semantics", *An Encyclopaedia of Language*, 142-143.

² ر. ه. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1997) 165.

³ عبد السلام المسدي، اللسانيَّات وأسسها المعرفية، 81.

الشمول والتفرد والخصوصية¹؛ حتى أصبح- كما يقول عبد السلام المسدي- من فضول القول لدى العلم والرجحان أن يتحدث المرء اليوم عن منزلة اللسانيات ووجاهة شأنها، فلو فعل لكان شأنه لديهم شأن من بنوه بالرياضيات الحديثة، بين أهل العلوم الدقيقة، أو شأن من يمتدح قيمة التحليل العضوية، وكشوف الأشعة في حقل العلوم الطبية².

2.2. "السياق" و"النص" - الترجمة والمفهوم:

تعددت التعريفات العربية والغربية- على حد السواء- لمفهوم النص ومدلولاته، ومن الضروري، بداءة- أن نُجلي الدلالة اللغوية لكلمة "نص" Text في اللغة العربية والغربية وفقاً لما أوردته المصادر والمراجع المختلفة، من أجل تلمس نقاط التشابه والاختلاف، وذلك "لأن اللغة في حقيقتها تمثل النظام المركزي الدال في بنية الثقافة بشكل عام"³.

وينحدر لفظ Context الذي يُترجم إلى العربية بمصطلح "السياق" من السابقة اللاتينية con بمعنى "مع" وكلمة Textus اللاتينية التي تعني "التسيج" أو "النص" أو "المثن"⁴. ويُشير بعض الباحثين إلى أن مصطلح Context كان يُستعمل بدايةً في معنى الكلمات التي تُصاحب المقطوعة الموسيقية⁵، ثم صارت تُستعمل في معنى "النص" فيقصدون بها تلك المجموعة من الجمل المترصة مكتوبة كانت أو مقروءة⁶.

وعلى سبيل تحليل المصطلح Context، يُبين صبحي الفقي أن مصطلح Con-text مكون من سابقة con، وهي تعني المشاركة، أي وجود أشياء مشتركة تقوم بتوضيح النص text، وهي فكرة تتضمن أموراً إضافية تحيط بالنص، كالبنية المحيطة التي يمكن وصفها بأنها الجسر بين النص والحل⁷.

¹ حافظ علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، 55.

² عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 7.

³ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن (بيروت: المركز الثقافي العربي، 178)، 178.

⁴ مجدي وهبة، معجم المصطلحات الأدبية (بيروت: مكتبة لبنان، [د.ت.])، 89.

⁵ كريم زكي حسام الدين، التحليل الدلالي: إجراءاته ومناهجه (القاهرة: دار غريب، 2000)، 98-97.

⁶ رولان بارت، هسهسة اللغة (حلب: مركز الإنماء الحضاري، 1999)، 96؛ كريم حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، 28.

⁷ صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 181.

يذهب كثيرٌ من الباحثين إلى أنَّ الإرهاصات الأولى لِنَشْأَةِ نظريَّةِ "السياق" وبروزِ مصطلح "سياق" Context أو "سياق الحال" Context of Situation ارتبطت ذهنياً وعملياً بالإنثربولوجي الاجتماعي Social Anthropologist برونسلاو مالينوفسكي¹ [Bronislaw Malinowski 1884-1942م]. وقد توصَّلَ مالينوفسكي إلى هذه الحقيقة حينما كان يحاول ترجمة بعض اللهجات المحليَّة²؛ فلم يستطع أن يترجمها ترجمةً دقيقةً؛ لما تحمله من الصَّعوبة والوعورة، فخرَّجَ مالينوفسكي بنتيجةٍ مفادها: أنَّ الكلامَ المنطوق يكونُ له معنىٌ فقط لو رَأَيْنَاهُ في السياق الذي استُخدِمَ فيه؛ فحينئذٍ سيكون واضحاً³؛ وبالتالي، يكونُ إيرادُ "السياق" في مثل هذه الحالة حلاً مناسباً لهذه الصَّعوبات التي يواجهها الباحث، وكأنَّ مالينوفسكي يقولُ إنَّ حلَّ إشكالِ المعنى في اللغات البدائية هو "السياق"⁴، إذ تتجلى فيه العوامل الاجتماعية المختلفة المُمَثِّلَةُ بالسلوك الجماعي⁵ - كما يُسمِّيهِ لويس Lewis أيضاً - وهي بدورها تُسَهِّلُ في فهمِ مضمونِ اللغة - أيًا كانت - حيثُ تنوِي داخلها "إحساسات خفية" Intuitions تُؤدِّي إلى إدراكِ مقتضيات الموقف⁶.

ثمَّ عبَّرَ مالينوفسكي عن أهميَّة أن يُنظَر إلى اللغة على أنَّها "أسلوب عملٍ وليست توثيق فِكْرٍ"، بمعنى أنَّ الأسلوبَ العمليَّ والسياقَ المُستخدَم في اللغة هو المعيارُ الصَّحيح والأدقُّ لدراسة اللغة - أي لغة - ولا يتحقَّق ذلك من خلال دراسة اللغة بأسلوبٍ توثيقيٍّ فكريٍّ مجرد⁷، أي إنَّ مالينوفسكي ركَّز - كما يقولُ علي عزت - على أنَّ اللغة بكيونيتها وسيلة للعمل وليست مقابلاً للفكر⁸.

إنَّ مقولات مالينوفسكي تُشير - كما يذهب علي عزت - إلى جملة من المبادئ الواضحة التي أثَّرت في الفكر اللغوي، حيثُ أكَّد أنَّ اللغة ليست مجرد أداة لتوصيل الأفكار، بل هي في المكان الأول جزء من نشاط اجتماعي مُتَّسق، وفي اللحظة التي تُفصل فيها الكلمة عن سياق هذه النشاط الذي يُعَلِّفها، أو عن سياق الموقف

¹ رَدَّة الله الطلحي، دلالة السياق، 182؛ أسعد العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، 39-40.

² Janssin, *Handbuch der Linguistik*, 235.

³ Palmer, *Semantics: A New Outline*, 47-48.

⁴ العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، 40.

⁵ Alessandro Duranti, *Linguistics Anthropology* (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), 89-90

⁶ م. ل. لويس، اللغة في المجتمع (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1959)، 129-132.

⁷ الطلحي، دلالة السياق، 183.

⁸ علي عزت، "اللغة ونظرية السياق"، مجلة الفكر المعاصر 76 (1971)، 19-20.

الذي تُستخدَم فيه تغدو كلمةً جوفاءً غَيْرَ ذاتِ مَعْنَى؛ لأنَّ الألفاظَ لا يُمكنُ أنْ تُوجدَ مِنْ فراغٍ¹. بلْ يذهبُ مالىنوفسكي إلى مَدَى أبْعَدَ مِنْ هذا في تقريرِ أثرِ السِّياقِ الخارجيّ في إداءِ اللّغةِ لوظيفتها مِنْ خلالِ تأكيدِهِ أنَّ اللّغةَ في جوهرها مُتأَصِّلَةٌ في حقيقةِ الثّقافةِ ونظمِ الحياةِ والعاداتِ عِنْدَ كلِّ جماعةٍ، ولا يمكنُ إيضاحُ اللّغةِ والكشفُ عَنْ معناها الحقيقيِّ الدّقيقِ إلّا بالرجوعِ الدّائمِ إلى المحيطِ الأوسعِ، وهو تلكَ الظروفُ الّتي يَتِمُّ فيها النُّطقُ والكلامُ². ولعلَّ خلاصةَ فكرةِ مالىنوفسكي عَنِ "السِّياقِ" تَتَمَثَّلُ في قَوْلِهِ إِنَّ "الكلامَ والموقفَ مرتبطانِ ببعضهما ارتباطاً لا يَنْفَصِمُ، وسياقُ الموقفِ لا غَيَّ عَنْهُ لِفَهْمِ الألفاظِ"³.

وإذا كانَ كثيرٌ مِنَ الباحثينَ يَرُدُّونَ مَنْشَأَ "السِّياقِ" إلى مالىنوفسكي إلّا أنَّ "النّظريّةَ السِّياقيّةَ ارتبطتْ، في العصرِ الحديثِ، باللسانيِّ John Rupert Firth [1890-1960م]⁴، فَقَدِ اهْتَمَّ فيرثُ Firth اهتماماً بالغاً بـ"سياقِ الموقفِ" Context of Situation وبَدَوْرِهِ في تحديدِ الدّلالةِ⁵، حَيْثُ رَبَطَ اللّغةَ بالمجتمعِ برابطٍ وثيقٍ حينَما ذَهَبَ إلى أنَّ الإنسانَ إمّا يتخاطبُ مَعَ غَيْرِهِ خلالَ مواقفَ اجتماعيّةٍ مختلفةٍ تُحدِّدُ شكلَ الأسلوبِ الّذي عليه أنْ يَعمَدَ، ونوعيّةِ الكلماتِ والألفاظِ الّتي عليه أنْ يختارَها، وبالتالي فُتْمَةُ إطارٍ خاصٍّ تُستعملُ اللّغةُ فيه؛ فَتَتَأَثَّرُ وَتَتَفَاعَلُ بمعطياتِهِ، وكذلك تَتَكَيَّفُ مَعَ عناصرِهِ. مِنْ هنا، فإنَّ فيرثَ Firth يَرَكِّزُ على العلاقاتِ السِّياقيّةِ والصّوتيّةِ والنّحويّةِ والدّلاليّةِ؛ مِنْ أَجْلِ تحديدِ المعنى، إذْ إنّ كلّ واحدةٍ مِنْ هذهِ العلاقاتِ تَحْمِلُ مَعَهَا في سياقِها الخاصِّ ما يربطُ بَعْيَها⁶.

فالسياقُ اللّغويُّ⁷ (Verbal Context) Linguistics Context⁸ عِنْدَ فيرثَ Firth لا

يَنْظُرُ إلى الكلماتِ كوحاداتٍ منعزلةٍ؛ لأنَّ الكلمةَ يتحدّدُ معناها ويتأطّرُ أدائها بعلاقاتِها مَعَ الكلماتِ الأخرى

¹ علي عَرَت، "اللّغة ونظريّة السِّياق"، 19.

² م. م. لويس، اللّغة في المجتمع، 48.

³ عَرَت، "اللّغة ونظريّة السِّياق"، 19؛ الطّليحي، دلالة السِّياق، 186.

⁴ R. L. Trask, A Student's Dictionary of Language and Linguistics (London: Arnold- A Member of the Hodder Headline Group, 1997), 86.

⁵ David Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, 79.

⁶ John Rupert Firth, Papers in Linguistics (London: Oxford University Press, 1957), 19.

⁷ مبارك مبارك، معجم مصطلحات اللّسانيّة: فرنسي-إنكليزي-عربي (بيروت: دار الفكر اللّبناني، 1995)، 61.

⁸ هذه تسميةٌ ثانيةٌ للسِّياق اللّغوي.

ومع "سياق الموقف" ¹ Context of Situation الذي بدوره يتكوّن من ثلاثة عناصر، وهي، أولاً، المتكلّم والسّامع ومن يشهد الكلام، ودور المشاهد في المراقبة أو المشاركة. وثانياً، العوامل والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بالحدث اللّغوي، ويشمل ذلك الزّمان والمكان. وثالثاً، أثر الحدث اللّغوي كالإقناع والفرح.² ويترتّب على ذلك تحليل السياق اللّغوي؛ صوتياً وصرفياً ونحوياً ومعجمياً، وبيان شخصية المتكلّم والمخاطب والظّروف المحيطة بالكلام، وبيان نوع الوظيفة الكلامية من مدح وذكّ وتزكّي وخوف وسرور وطلب، وبالتالي بيان الأثر الذي يتركه الكلام كالإقناع أو التصديق أو التّكذيب. من هنا، فإنّ "التّعبير السياقي" Contextual Expression يستمدّ معناه من العلاقة الإسنادية للكلمات، ويخصّص لبنية التّعبير، بمعنى أنّ مفهوم السياق هنا هي معالجة داخلية وخارجية للجملة.³

ويظهر إبراهيم خليل [1948-....م] أنّه على الرّغم من أنّ مالينوفسكي Malinowski كان قد استعمل مصطلح "السياق" Context رابطاً بين تحليل الخطاب وما وصفه بالإطار الاجتماعيّ والمكانيّ والزّمانيّ، إلّا أنّ فيرث Firth يطلّ منفرداً عن غيره بتطوير مصطلح "السياق"⁴، حيث استوت على سؤقيها، واكتملت جوانبها النظرية والتطبيقية - كما يقول أسعد العوادي -⁵؛ ليشمّل دراسة اللغة بصفة عامّة بما في ذلك نظامها الصوتي والدلالي والتحويلي، وفيما يتعلّق بهذا الجوانب فقد دعا فيرث Firth إلى دراسة أبعاد الحدث الكلامي Speech Act، كالظروف المحيطة بالمتكلّمين والسّامعين، وأثرها في توصيل المضمون.⁶

ثمّ يُفسّر إبراهيم خليل ما المقصود بـ "السياق اللّغوي" Linguistic Context عند فيرث من خلال التّفريق بينه وبين "سياق الحال" Context of Situation، فيقول إنّ "السياق اللّغوي" هو الذي يُعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاصّ في الحديث أو النصّ، وينفي عنها المعاني الأخرى التي يمكن أن تُؤدّيها في

¹ Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, 80-78.

² Sami A. Hanna and others, Dictionary of Modern Linguistics (Beirut: Librairie du liban, 1997), 28-29.

³ Sami Hanna, Ibid, 30.

⁴ إبراهيم خليل، النصّ الأدبيّ تحليله وبنائه: مدخل إجرائي (عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1995)، 23

⁵ العوادي، سياق الحال، 41.

⁶ إبراهيم خليل، النصّ الأدبيّ تحليله وبنائه: مدخل إجرائي، 23.

حديث أو نص آخر¹. وهذا يُفضي إلى حقيقة مفادها- كما يُشير كمال بشر- أن فيرث Firth كان قد نظّر إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابهة متداخلة، فهو وليد لحظة معينة بما يُصاحبها من صوت وصورة، ولكنه حصيلة المواقف الحية التي يُمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجمل تكسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث، أي من خلال "سياق الحال"؛ وعليه يُعتمد في كل تحليل لغوي².

وعلى صعيد آخر، نلاحظ امتداداً هائلاً ومحاولات كثيرة لترجمة المصطلحات، لا سيما أننا- برأيي- بوسعنا أن نتلمّس "البلبلة" في تعريف المصطلحات وكأهم تحت مظرة الموروث الثقافي القديم وسندان الوافد الجديد، فمثلاً نرى أنه على الرغم من تفريق تمام حسان³ بين "الموقف" و"المقام" بأن "الموقف" فردية و"المقامات" جماعية⁴، إلا أنه قد ذهب في ترجمته لمصطلح مالمينوفسكي (Context of Situation) Malinowski بـ "المقام"⁵ مع أن مالمينوفسكي نفسه قصّد "الموقف المتغيرة".

كما ترجم محمود فهمي حجازي [1940-....م] المصطلح نفسه بـ "السياق الاجتماعي" Social Context مُشيراً إلى أن مُصطلح Linguistics Context هو "السياق اللغوي"، ومُبيّناً- أيضاً- إلى أن "سياق الموقف" عند بالمر Palmer يُطلق عليه Non Linguistics Context، مع العلم بأن بالمر Palmer كان قد ذكر هذا التركيب، الذي يُترجم إلى "السياق غير اللغوي"⁶؛ ليصف به "سياق الموقف" وليس من قبيل استخدام مصطلح جديد بديل عن مصطلح "سياق الموقف"⁷.

ونجد كذلك أن تمام حسان [1918-2011م] يُفرّق بين "المقام" ومقتضى "الحال"⁸؛ بتأكيده أن مجموع الأشخاص المشاركين في "المقال" إيجاباً وسلباً، ثم العلاقات الاجتماعية، والظروف المختلفة في نطاق الزمان

¹ إبراهيم خليل، النص الأدبي تحليله وبنائه، 20.

² كمال بشر، دراسات في علم اللغة، 2: 172.

³ سنغرض لآراء تمام حسان بتوسّع فيما بعد في هذا الفصل، لا سيما أنه من الناحية المحدثين الذي تركوا بصمة فارقة في التعامل مع "النص اللغوي".

⁴ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 342.

⁵ حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 337.

⁶ Palmer, *Semantics*, 43.

⁷ محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998)، 159.

⁸ يكاد يكون مصطلحي "المقام" و"الحال" من أكثر المصطلحات استخداماً وتداولاً عند النحاة واللغويين والمفسرين العرب القدماء قبل تشكل أو تكون مصطلح "السياق"، لا سيما في البدايات الأولى التي تعامل فيها النحاة مع النصوص، كالنص القرآني، والنص الشعري. وقد أبرزنا في الفصل الأول عملية تطوّر مصطلح "السياق" بما تداخل فيه من مصطلحات وظروف وملابسات. أما في العصر الحديث، فكلا المصطلحين تبعاً نتيجة ترجمة مصطلحات متداخلة ومتشابهة في الوقت نفسه؛ لما تحدث عنه مالمينوفسكي وفيرث وغيرهما Context

والمكان هو ما يُسمَّى بـ"المقام"، وهو بهذا المعنى يختلفُ بعضُ الاختلافِ عن فهمِ الأوليِّ - على حدِّ قولِ تَمَّامِ حَسَّان - الذين رأوه حالاً ثابتةً State، ثمَّ جعلوا البلاغةَ مراعاةً لمُقتَضَى الحال¹.

بَيْنَمَا جَمَعَ مُحَمَّدُ الْعَمْرِي بَيْنَ مصطلحي "المقام" و"الحال" في تحليلِ الرُّؤيةِ البلاغيَّةِ؛ فَجَعَلَهُمَا مَعًا "عنواناً للعلاقةِ بَيْنَ الخطيبِ والمستمعِ، فالبلّاغِيَّونَ العربُ، وإنَّ لَمْ يَهْتَمُّوا كَثِيرًا بِالدراسةِ النَّفسِيَّةِ والأخلاقيَّةِ للمرسلِ والمتلقِّي حاولوا أَنْ يُدرِجُوا تَحْتَ عنوانِ "المقام" و"الحال" ملاحظاتٍ كثيرةً فيما ينبغي للخطيبِ أَنْ يكونَ عليه، أَوْ يُراعِيَهُ مِنْ أحوالِ المستمعين"².

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ المحطَّاتِ في بلورةِ "السياق" وتعالقهِ مَعَ الطَّرِجِ اللَّسَانِيِّ هي النَّظَرِيَّةُ "السَّوسِيَرِيَّةُ"، فَقَدْ أَشْرَنَّا سَابِقًا إِلَى أَنَّهُ مِنْ المبادئِ الَّتِي طَرَحَهَا فَرْدِينَانْد دِي سوسير Ferdinand De Saussure [1857-1913م] في محاضراتِهِ هي أولويَّةُ النَّسَقِ، وهو ما يتولَّدُ عن اندراجِ الجزئياتِ في سياقٍ ما، أو هو - بنيويًا - ما يتولَّدُ عَنِ حركةِ العلاقةِ بَيْنَ العناصرِ المكوِّنةِ للبنيةِ، على اعتبارِ أَنَّ هذه الحركةَ انتظامًا مُعَيَّنًا يُمْكِنُ مُلاحَظَتُهُ وَكَشْفُهُ. وهذه العناصرُ تدلُّ على أَنَّ اللُّغَةَ نظامٌ؛ لكونِ هذا النظامِ مؤلَّفًا مِنْ وحداتٍ لها تأثيرٌ متبادلٌ. هذا يعني أَنَّ جوهرَ نظريَّةِ سوسير هو فَهْمُ اللُّغَةِ على أَنَّها نظامٌ علاماتٍ System of Signs، نظامٌ كلُّ عناصرِهِ متماسكةٌ؛ فيقتضي كلُّ شيءٍ الآخرَ بشكلٍ متبادلٍ، ويتحدَّدُ فيه كلُّ عنصرٍ خلالَ موقعِهِ في الشَّبَكَةِ (النَّظامِ) الكلِّيَّةِ للعلاقاتِ. مِنْ هُنَا فَإِنَّ دِي سوسير يدعو إلى تحليلِ البنيةِ (النَّظامِ) ومعرفةِ عناصرِها المختلفةِ كالرموزِ والصُّورِ مِنْ خلالِ نسيجِ العلاقاتِ اللُّغويَّةِ وأنساقِها؛ لمعرفةِ ملابساتِ بنيتها مِنَ الدَّاخلِ والخارجِ. ولعلَّه مِنْ المجدِي هُنَا أَيْضًا أَنْ نُشيرَ إِلَى أَنَّ الدَّارسينَ يرجعونَ نشأةَ الدَّراساتِ البنيويَّةِ إِلَى دِي سوسير، حَيْثُ يَرَوْنَ أَنَّ آراءَهُ في التَّفَرُّقِ بَيْنَ اللُّغَةِ (Langue) والكلامِ (Parole)، والدَّالِّ والمدلولِ، وفي أولويَّةِ النَّسَقِ أو النَّظامِ على

Verbal Context – of Situation. أما لدى تَمَّامِ حَسَّانِ فَإِنَّ المقامَ - وإنَّ تَعَدَّدَتِ التَّعْرِيفاتُ لَدَيْهِ - بِضَمِّ المتكَلِّمِ والسَّامِعِ، والطَّرُوفِ الثقافيَّةِ، والعلاقاتِ الاجتماعيَّةِ، والأحداثِ الوارِدَةِ في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو ما يُسمَّى كَذَلِكَ بـ"مقام الموقف اللُّغوي". وبناءً عَلَيْهِ فهو يُمَثِّلُ أسلوبَ الكلامِ مِنْ أخبارٍ أو إِنْشاءٍ، وهو أَيْضًا امتزاجٌ بَيْنَ النَّحوِ والمعاني، وأساليبِ الجملِ ومواطنِ استعمالِها. أما "الحال" فهو مجموعَةُ الأشياءِ المشتركةِ بَيْنَ المتكَلِّمِ والسَّامِعِ، أَيْ بَيْنَ المرسلِ والمتلقِّي مِنْ خلالِ طبيعَةِ الثقافةِ الَّتِي تجمَعُها، والحالةِ النَّفسِيَّةِ الَّتِي عَلَيْهَا كُلُّ مِنْهُمَا. انْظُرْ: حَسَّان، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا، 337؛ 35؛ محمود السَّعْران، علم اللُّغَةِ، 310.

¹ حَسَّان، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا، 354.

² مُحَمَّدُ الْعَمْرِي، في بلاغةِ الخطابِ الإقناعي (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1986)، 18.

باقي عناصر الأسلوب، وفي التفرقة بين التزامن والتعاقب، هي التي أسست لنشأة الدراسات البنيوية. فاللغة عنده - مثلاً - هي الظاهرة الاجتماعية الموحدة لمجتمع معين التي يمكن عن طريق دراسة النماذج الكلامية الصادرة عن أفراد المجتمع الاهتداء إلى القواعد أو العوامل المشتركة التي تجعل منها لغة مشتركة بين جميع أفراد المجتمع المذكور. فهي بهذا النموذج المثالي الذي يوجه كلام الأفراد والذي يحاول هؤلاء أن يظنوا ضمن ضوابطه اللغوية أو السلوكية؛ كي يكونوا مفهوميين من سواهم. وأمّا الكلام فهو تلك "اللغة" التي يستعملها الناس في المجتمع الواحد. وهذا يختلف بالتأكيد من شخص إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى قليلاً أو كثيراً، ولكن يربط بينها جميعاً قواعد لغوية وسلوكية عامة تجعل منها لغة واحدة مفهومة في المجتمع الواحد.

ويرى نايف خرما أن سوسير Saussure ابتعد عن النظر في اللغات من وجهة النظر التاريخية أو المقارنة، وأكد بذلك أن أفضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية محددة، وأن نصل من هذا الوصف إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها أو نتوصل على الأقل إلى معرفة البنية أو التركيب الهيكلي لها؛ فكانت - كما يؤكد خرما - نظريته ثورة حقيقية على المفاهيم السائدة حتى عصره في أوروبا الذي كانوا يخضعون اللغات الحديثة لقواعد اللغتين اليونانية واللاتينية¹.

ونرى رومان ياكوبسون² Roman Jakobson [1896-1982م] يحاول تفسير مفهوم النحْو في النظرية السوسيرية³، فيقول إنَّ النَحْو بالنسبة إلى دي سوسير إنما يدخل في حقل العلاقات السياقية، وبهذا فإنَّ ليس ثمة حدود واضحة المعالم بين وقائع اللغة والكلام التي يمكن أن توجد في البنى النحوية⁴.

ويبدو أن تحديد دي سوسير للغة بوصفها الجزء "الاجتماعي من اللغة، والخارجي بالنسبة إلى الأفراد" بمقابل الكلام بوصفه مجرد فعل فردي، لا يعني بوجود شيفرة شخصية تزيل الانقطاع الزمني لأحداث الكلام المفردة، وتُعزِّز الحفاظ على الفرد. وبالتالي، فقد امتدت مسألة العلاقة بين الدال والمدلول، في لسانيات ما بعد

¹ نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، 86.

² عُرف أيضاً ياكوبسون في المجال الأدبي، لا سيما أسهاماته في النظرية البنيوية.

³ النظرية الخاصة بفرديناند دي سوسير.

⁴ رومان ياكوبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2002)، 34.

سوسير لَتَطُولُ الجانبِ الفونولوجيِّ لِلَّغَةِ، وَحَظِيَتْ - كما يقولُ ياكبسون - بالاهتمامِ اللَّسَانِيِّ القضاياِ المتشابهةِ لِلتَّفاعِلِ بَيْنَ المستوياتِ الفونولوجيةِ والمستوياتِ القواعديةِ زيادةً على حدودِها المتبادلة¹.

وفي المقابل، تُبيِّنُ الباحثةُ فاطمة بركة [1940-....م] أنَّ ياكبسون Jakobson ينظرُ إلى اللِّغَةِ مِنْ خلالِ العلاقاتِ القائمةِ بَيْنَ المستوياتِ اللُّغويةِ مجتمعةً، وبهذا فإنَّ النَّحْوَ عِنْدَهُ يَهْتَمُّ بعلاقاتِ البنيةِ بَيْنَ عناصرِ التَّركيبِ وتتابعِها المنطقيِّ المتسلسل²، وذلكَ عَبْرَ ما أسماهُ بـ "العلاقاتِ الثَّنائيةِ" الَّتِي تُسَيِّطُرُ عل مختلفِ المستوياتِ اللُّغويةِ نَحْوَ الانتقاءِ والتَّنسيقِ، أي انتقاءِ الكلماتِ والتَّنسيقِ بَيْنَها في الجملة. وكلُّ ذلكَ يتأتَّى خلالَ المشاركةِ الفاعلةِ بَيْنَ الخطابِ الدَّاخليِّ والخطابِ الدَّاخليِّ الْمُتمَثِّلِ بقنواتِ الاتِّصالِ اللُّغويِّ مِنْ مُرْسِلٍ وَمُسْتَقْبِلٍ³، وَوَقْفًا إلى هذا التَّنَاجِ فإنَّ النَّحْوَ الوظيفيَّ لا يَحْصُرُ دراسةَ النَّحْوِ في البنيةِ الظَّاهِرةِ فَقَطْ، بل يُراعي ملابساتِ الخطابِ وحالِ المخاطبينِ ومقاصدِ الكلامِ وأغراضِهِ⁴.

وَيُعَلِّقُ عبد الله الغدَّامي [1946-....م] على التَّظَرِّيَةِ "السِّيَاقِيَّةِ" عند ياكبسون فيقولُ إِنَّ السِّيَاقَ عِنْدَ ياكبسون هو الطَّاقَةُ المرجعيةُ الَّتِي يجري القولُ مِنْ فَوْقِهَا، فَتَمَثِّلُ خَلْفِيَّةً لِلرَّسَالَةِ (النَّصِّ) مُمَكِّنُ الملتقيِّ مِنْ تفسيرِ المقولةِ وفَهْمِهَا. ولا تكونُ الرِّسَالَةُ ذاتَ وظيفةٍ إِلَّا إذا أَسْعَفَهَا السِّيَاقُ بأسبابِ ذلكِ ووسائلِهِ، إذْ إِنَّ لِكُلِّ نَصٍّ سِياقًا يَحْتَوِيهِ، وَيُشَكِّلُ له حالةَ انتماءٍ وحالةَ إدراكٍ، وهو سابقٌ لَهُ في الوجودِ، فالسِّيَاقُ أَكْبَرُ وَأَضْخَمُ مِنَ الرِّسَالَةِ (النَّصِّ)، وموضوعُ النَّصِّ مِنَ السِّيَاقِ مِثْلَ موضوعِ الكلمةِ مِنَ الجملةِ؛ فلا قيمةَ للكلمةِ مِنْ دُونِ الجملةِ، مِثْلَمَا أَنَّهُ لا وجودَ للجملةِ مِنْ دُونِ الكلمةِ⁵.

ثُمَّ يُعَقِّبُ الغدَّامي بتأكيدِهِ أَنَّ القراءةَ هي عمليةٌ دخُولٍ إلى "السِّيَاقِ"، وهي محاولةٌ تصنيفِ النَّصِّ في سياقٍ يشملُهُ مَعَ أمثاله مِنَ النُّصوصِ، وينبني عَلَيْهِ المفهومُ القائلُ إِنَّ الضَّابِطَ في كُلِّ قِراءةٍ هو السِّيَاقُ، كما أَنَّ المعرفةَ التَّامَّةَ بالسِّيَاقِ هي شرطٌ رَئيسٌ للقراءةِ الصَّحيحةِ، ولا يُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ قِراءةً ما على أَنَّها صحيحةٌ إِلَّا إذا

¹ ياكوبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، 30-33.

² فاطمة الطُّبَال بركة، النظرية الأسنوية عند رومان جاكبسون (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1993)، 62.

³ فاطمة بركة، النظرية الأسنوية عند رومان جاكبسون، 63.

⁴ الجيلاني دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992)، 15.

⁵ عبد الله الغدَّامي، الخطيئة والتكفير، 80.

كَانَتْ مَنْطَلَقَةً مِنْ مَبْدَأِ "السِّيَاقِ"؛ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّصَّ، فِي حَدِّ ذَاتِهِ، تَوَلِيدُ سِيَاقِي يَنْشَأُ عَنْ عَمَلِيَّةِ الْاِقْتِبَاسِ الدَّائِمَةِ مِنَ الْمَسْتَوْدَعِ اللَّغَوِيِّ؛ لِئَوْسَاسٍ فِي دَاخِلَةِ شَيْفَرَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ تُمَيِّزُهُ كَنْصٍ، وَتَسْتَمِدُّ وُجُودَهَا مِنْ نَوْعِيَّةِ السِّيَاقِ وَالنَّصِّ، وَالْقَارِئُ، فِي هَذِهِ الْحَالِ، يَجِدُ مَسَاحَةً كَبِيرَةً فِي تَفْسِيرِ الشَّيْفَرَةِ وَتَحْلِيلِهَا، وَلَكِنَّهُ - مَعَ هَذِهِ الْمَسَاحَةِ - مُقَيَّدٌ بِمَفْهُومَاتِ السِّيَاقِ"¹.

مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، يَرَى بِالْمَرِ PALMER أَنَّ كُلًّا مِنْ مَالِينُوفْسكي Malinowski وفيرث Firth آمَنَا بِأَنَّ وَصَفَ اللَّغَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكْتَمَلَ دُونَ بَعْضِ الْإِشَارَاتِ إِلَى سِيَاقِ الْمَوْقِفِ الَّذِي فِيهِ تَعْمَلُ اللَّغَةُ، وَكَذَلِكَ، أَنَّ مَعْنَى اللَّغَةِ يَخْضَعُ كُلِّيًّا لِسِيَاقَاتِ الْمَوْقِفِ الَّذِي اسْتُعْمِلَتْ فِيهِ"².

وَلَعَلَّهُ مِنَ اللَّافِتِ مَا يُخْبِرُنَا بِهِ رُولَان بَارْت Roland Barthes [1915-1980م] فِي كِتَابِهِ "لَذَّةُ النَّصِّ"³ Le plaisir du texte بِأَنَّ كَلِمَةَ "نَصٍّ" Text تعني "النَّسِيجَ Tissue، حَيْثُ يَتَنَاغَمُ هَذَا النَّسِيجُ⁴ مَعَ الْمَعْنَى، وَبِالتَّالِي يَقِفُ الْمَعْنَى - بِحَقِيقَتِهِ - خَلْفَ هَذَا النَّصِّ أَوْ ذَاكَ⁵. وَلَعَلَّ الْعِلَاقَةَ الَّتِي تَرْبُطُ هَذَا النَّسِيجَ - أَيِ النَّصِّ - بِالْمَعْنَى تُدَكِّرُنَا - كَمَا يُوَكِّدُ بَارْت - بِالْعَنْكَبُوتِ الَّتِي تَذُوبُ هِيَ نَفْسُهَا فِي الْإِفْرَازَاتِ الَّتِي تَبْنِي مِنْهَا نَسِيجَهَا؛ وَانْطِلَاقًا مِنْ هَذَا فَإِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ نَظَرِيَّةَ النَّصِّ بِأَنَّهَا عِلْمُ صِنَاعَةِ النَّسِيجِ⁶ الَّذِي يُعْنَى بِهِ - فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ - الدَّلَالَةُ وَالْمَعْنَى الْمَرَادُ.

وَيُشِيرُ مَنْذَرُ عِيَّاشِي إِلَى أَنَّ بَارْت كَانَ يَرَى أَنَّ نَظَرِيَّةَ "النَّصِّ" مَوْضُوعَةٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهَا الْمُنَاسِبِ فِي الْمَجَالِ الْحَالِي لِنَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ، وَلَكِنَّهَا تَسْتَمِدُّ قُوَّتَهَا وَمَعْنَاهَا مِنْ تَمَوُّضِهَا بِالْمُنَاسِبِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعُلُومِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِلْأَثَرِ الْفَنِيِّ - تِلْكَ الْعُلُومِ الَّتِي كَانَتْ وَلَا تَزَالُ عُلُومًا لِلشَّكْلِ أَوْ لِلْمَضْمُونِ⁷.

¹ الغَدَامِي، الْخَطِيئَةُ وَالتَّكْفِيرُ، 80-78.

² Palmer, *Semantics*, 56.

³ اعْتَمَدْتُ تَرْجَمَةَ مَنْذَرِ عِيَّاشِي إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَتَرْجَمَةَ RICHARD MILLER إِلَى الْإِنْجِلِيزِيَّةِ.

⁴ رُولَان بَارْت، هَسْهَسَةُ اللَّغَةِ، 90.

⁵ Roland Barthes, *The Pleasure of the Text* (New York: Hill and Wang, 1998), 64.

⁶ رُولَان بَارْت، لَذَّةُ النَّصِّ (حَلَب: مَرْكَزُ الْإِنْمَاءِ الْحَضَارِيِّ، 1992)، 108-109.

⁷ مَنْذَرُ عِيَّاشِي، مَقَالَاتٌ فِي الْأَسْلُوبِيَّةِ (دَمَشَق: مَنَشُورَاتُ اتِّحَادِ الْكُتَّابِ الْعَرَبِ، 1990)، 208.

ويذهب بارت Barthes إلى أنَّ أساسَ مظاهر "ممارسة النصِّ" تكمنُ في الوقوفِ على "النصِّ في ذاتيَّته النصِّيَّة"، إذ إنَّ "ذاتيَّة النصِّ" تجلِّيها قراءةً للمكتوبِ تجعلُ "النصَّ" كاملاً يقومُ بنفسِه إزاءَ كلامٍ آخرَ يظهرُ عبرَ إنجازِ لغويٍّ مختلفٍ¹. وانسجماً مع ذلك؛ فإنَّ بارت Barthes يرى - بنظرةٍ فلسفيَّة - أنَّ النصَّ جمْع. وهذا لا يعني فقط أنَّ النصَّ يحتوي على عددٍ من المعاني، ولكنَّه يعني أنَّه يُنجزُ جمْع المعنى نفسه: إنَّه جمْع لا يُنْتزَل؛ إذ إنَّ "النصَّ" ليسَ مشاركةً وجوديَّة للمعاني، ولكنَّه مَمْرٌ وانتقالٌ، وإذا كان هو كذلك، فإنَّه لا يستطيعُ إذنُ أنَّ يصدُرَ عن تأويلٍ واحدٍ، ولكنَّه يصدُرُ عن انفجارٍ وانتشارٍ².

ويُخلصُ بارت Barthes إلى القولِ اللَّافِتِ والمثيرِ على أنَّه ليسَ ثمة "قواعد" للنصِّ، وهي على الرغمِ من هذا منسوجةٌ تمامًا من الاستشهادات، والمراجع، والأصداءِ من لغاتٍ ثقافيَّة سابقةٍ أو معاصرةٍ حيثُ تخترقه من طرفٍ إلى طرفٍ من خلالِ تجسيمٍ صوتيٍّ واسعٍ³.

ويُعَدُّ التعريفُ الذي وَضَعَهُ يوليا كريستيفا Julia Kristeva [1941-....م] للنصِّ من التعريفاتِ التي حظيتْ باهتمامِ الدارسين، بل لقد حافَظَ هذا التعريفُ على مكانته من بينِ تعريفاتٍ كثيرةٍ حاولتْ أن تُحدِّدَ - هذه التعريفاتُ - مفهومَ النصِّ، فالنصُّ عند كريستيفا Kristeva هو جهازٌ "عبر لساني" Translinguistics يُعيدُ توزيعَ نظامِ اللسانِ (Langue) بواسطة رَبطِه بالكلامِ (Parole) التواصلي⁴؛ وذلك بهدفِ تحقيقِ الإخبارِ المباشرِ مع أنماطٍ عديدةٍ من الملفوظاتِ السابقةِ عليه أو المعاصرة له⁵. وهذا يدلُّ إلى أنَّ النصَّ - في طبيعته - ممارسةٌ دلاليَّة مركَّبة يلزمُ الإمساكُ بحروفها عبرَ نظريَّةٍ للفعلِ الدالِّ الخصوصيِّ الذي يُمارَسُ دورُهُ داخلها بواسطة اللسان⁶. وبناءً علىٰه، يرى سعيد يقطين أنَّه بهذا التعريفِ يتحدَّدُ النصُّ كـ "إنتاجيَّة" Productivity، ومعنى ذلك أنَّ علاقته باللسانِ الذي يَقَعُ فيه إنما هي علاقةٌ إعادة توزيع (هدم-بناء)⁷.

¹ منذر عيَّاشي، مقالات في الأسلوبية، 202.

² رولان بارت، هسهسة اللغة، 90.

³ بارت، هسهسة اللغة، 90-91.

⁴ سعيد يقطين، انفتاح النصِّ الروائي - النصِّ والسياق (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1989)، 19.

⁵ يوليا كريستيفا، علم النصِّ (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1991)، 14.

⁶ يوليا كريستيفا، علم النصِّ، 14.

⁷ سعيد يقطين، انفتاح النصِّ الروائي - النصِّ والسياق، 20.

فـ"النص" - بهذا - وفق ما يراه سعيد بحيري، الذي يُعدُّ أحدَ الباحثين في علم النص - وحدة كبرى شاملة لا تُصمَّمها وحدة أكبر منها، وهذه الوحدة الكبرى تتشكَّل من أجزاءٍ مختلفة تُقع من الناحية النحويَّة على مسو أفقي، ومن الناحية الدلاليَّة على مسو رأسي، ويتكوَّن المستوى الأوَّل من وحدات نصيَّة صغرى تربط بينها علاقات نحويَّة، ويتكوَّن المستوى الثاني من تصوُّراتٍ كليَّة تربط بينها علاقات التماسك الدلاليَّة المنطقيَّة، ومن ثمَّ يصعُب أن يُعتمد في تحليل النص على نظريَّة بعينها، وإنما يمكن أن تتبى نظريَّة كليَّة، تتفرَّع إلى نظرياتٍ تحتيَّة تستوعب كلَّ المستويات¹.

إذن، فلا ريب في إن دراسة "السياق" احتلَّت مجالاً واسعاً من الفكر اللغوي الغربي؛ لأهميَّته الكبرى، وقدَّرته الهائلة - كما يقول أحمد مختار عمر - في توجيه علم الدلالة، حيثُ نظر علماء اللغة الغربيون إلى "السياق" في نظريَّة سميت Smith، وتأثروا بما يُسمَّى بـ"المنهج السياقي أو العملي"، ولكن، وللحق - كما يؤكِّد أحمد عمر وديفيد كريستال David Crystal - فإنَّ عالم اللغة الإنجليزي فيرث Firth هو رائدُ هي النظريَّة وزعيمها². وعلى الرغم من هذا، فقد شرَّع أحمد مختار عمر نفسه في ردِّ السبق في نظريَّة "السياق" إلى أصحابها الحقيقيين، وهم علماء العرب - على حدِّ قوله، فنراه يؤكِّد أنَّ هذه النظريَّة إنما هي نظريَّة عربيَّة أصلاً، وإذا كان فيرث Firth قد حرَّج بهذه النظريَّة بعد تأملٍ ونظرٍ، فإنَّ عبد القاهر الجرجاني قد سبقه بزهاء ثمانية قرون إلى هذه النظريَّة³، وذلك من خلال قول الجرجاني في "النظم"، إذ قال: "... لا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"⁴.

إذن، لعلَّ الفهم السائد في الفكر الحديث - والعربي منه خاصَّة - يرى أننا حينما نتحدَّث عن "نص" يتبادر إلى الذهن أنَّه يتميَّز بطولٍ مُعيَّن لا يجب أن تكون دونه وإلا سقطت عنه هذه الصفة⁵ - كما يُشير إلى ذلك الباحث حسين خمرى. ولكننا إذا أنعمنا النَّظر فيما ذهب إليه القدماء نكتشفُ أمرًا مثيرًا ومغايرًا للفكرة

¹ سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات (القاهرة: مؤسسة دار المختار للنشر والتوزيع، 2004)، 108.

² أحمد مختار عمر، علم الدلالة (الكويت: مكتبة دار المعرفة، 1998)، 68-69؛ David Crystal, *Ibid*, 79.

³ أحمد عمر، علم الدلالة، 75.

⁴ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 38.

⁵ حسين خمرى، نظريَّة النص - من بنية المعنى إلى سيميائية الدال (بيروت: الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، 2007)، 201.

السائدة، وهو أنهم كانوا يُطْلَقُونَ على الجملة الواحدة نصًّا كاملاً قائماً بذاته، فها هو ذا ابن عقيل يُعَبِّرُ عَنْ مفهوم الجملة تعبيراً يقترب من مفهوم النص؛ ذلك أَنَّ الجملة عنده هي "الكلام الذي يَحْسُنُ الوقوفُ عنده"¹.

ويرى حلمي خليل أَنَّ فكرة "سياق الحال" Context of situation هي فكرة قديمة، أحيّاها

فيرث Firth، وهي فكرة تنبّه إليها أفلاطون وعلماء البلاغة العرب، عيّر أَنَّ فيرث استطاع أن يصوغ منها نظرية علمية، وهي إن التفت في بعض جوانبها مع آراء القدماء إلا أنّها تختلف من حيث المنهج والتطبيق والتحليل².

كما يُقرّرُ الباحث مصطفى العبيدان - وفق ما يراه - أَنَّ فكرة "القارئ الحالية" Context of

Situation التي جاء بها علماء الأصول؛ لفهم الوحدة الكلامية تُكَمِّلُ فكرة "القارئ اللفظية" عندهم، وكلا

نوعي القارئ - الحالية واللفظية - تُشكِّلان النظرية السياقية عند علماء الأصول. وهذا المفهوم يلتقي بمفهوم

"السياق" في النظرية السياقية عند فيرث وأتباعه، إذ إن كلمة "السياق" عند أصحاب هذه النظرية تعني النظم

اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم بأوسع معاني هذه العبارة³، فالسياق على هذا التفسير ينبغي ألا يشمل

الكلمات والجملة الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل ينبغي أن يشمل النص كُله، وكل ما يتصل بالكلمة من

ظروف وملابس⁴. فضلاً عن أَنَّ العناصر عيّر اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تُنطَقُ فيه الكلمات لها هي الأخرى

أهميتها البالغة في هذا الشأن - كما يقول اللساني ستيفن أولمان⁵ Stephen Ullmann [1914 -

1976م] - وهذا يعني أَنَّ علماء الأصول وأصحاب النظرية السياقية الحديثة يلتقون على رأي واحد، وهو أَنَّ

"السياق" يُحدّد معنى الوحدات الكلامية⁶ التي يتفوّع بها الناطق باللغة⁷.

وقد تُدَكِّرُنَا هذه المسألة بالممارسات التقديرية العربية القديمة؛ فنلاحظ أَنَّ العرب قديماً اهتموا بالبيت

الشعري الواحد مُقرّرين أَنَّ أحسنه هو ما استقلّ بذاته وانفرد بمعناه، بل إنهم يعيّنون على الشاعر الذي لا يتمكن

¹ ابن عقيل، شرح الألفية، 14.

² حلمي خليل، العربية وعلم اللغة النبوي، 132.

³ موسى العبيدان، دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين، 200.

⁴ Otto Jespersen, *The Philosophy of Grammar*, 61.

⁵ أولمان، دور الكلمة في اللغة، 57؛ Stephen Ullmann, *Words in Their Use*, 68.

⁶ Otto Jespersen, *Ibid*, 61.

⁷ العبيدان، دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين، 200.

من إنهاء معناه في البيت الواحد ويُكمله في البيت الذي يليه. وقد نظّر لهذه المسألة الجاحظ عندما قال في معرض كلامه: "حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد"¹.

ولعلّ هذا الكلام يُحيلنا إلى ما أشار إليه سميّر معلوف من أن العرب القدماء أولوا النصّ - علماً ودراسةً - اهتماماً بالغاً، فقد كان منبع اهتمام العرب بالنصّ - عبر زمانهم المتطاوّل بدءاً بالنصّ الأسطوري ثمّ الشعري ثمّ الدينيّ على اختلافه - اهتمامهم باللغة صانعة النصّ - على حدّ قوله -، فهي، كما ذهبوا إلى ذلك، أداة العلاقة بين الإنسان والأشياء، وهي التي تتكوّن من الكلمات الخالقة، وقد أدّى "النصّ" مكانة الأمثال يبحث عنه داخله؛ لأنّه يُفترض أن يكون فيه دائماً؛ فاللغة حافظته وراعتة، وهي التي تصنعه وتقيمه².

وقد عرّف الشريف الجرجاني [740-816هـ، 1339-1413م] "عبارة النصّ"³ بقوله: هي النظم المعنويّ المسوّق له الكلام. سُميت عبارة؛ لأنّ المستدلّ يعبر عن النظم إلى المعنى، والمتكلم من المعنى إلى النظم، فكانت هي موضع العبور فإذا عمل بموجب الكلام من الأمر والنهي يُسمى استدلالاً بعبارة النصّ"⁴. وهذا يعني أنّ ثمة ترابطاً غير قابل للانفكاك بين "النصّ" Text و"السياق" Context الذي سيق فيه ومن أجله؛ كي نستدلّ على معاني النظم (النحو) بقنواته المختلفة المترابطة من مخاطب ومخاطب، لا سيما أنّ الشريف الجرجانيّ نفسه قد شرّع في تعريف "النصّ" على أنّه "ما ازداد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم، وهو سوّق الكلام لأجل ذلك المعنى"⁵، ثمّ يضرب مثلاً على هذا التعريف بقوله: "... فإذا قيل: أحسنوا إلى فلان الذي يفرّج بفرحي ويعمّم بعمي، كان نصّاً في بيان محبته"⁶.

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 50.

² سميّر معلوف، "الصورة الذهنية: دراسة في تصوّر المعنى" مجلة جامعة دمشق 26 (2010)، 117.

³ لسنّث هنا في صدد عرض دلالة النصّ عند علماء الأصول والفقهاء، فهو موضوع قائم بذاته، يحتاج إلى بحثٍ مستقلّ. ولعلّي أسرد بعض هذه المصطلحات، نحو: دلالة العبارة، إشارة النصّ، دلالة النصّ، اقتضاء النصّ، الظاهر، النصّ، المفسّر، المحكم، الخفيّ، المشكّل، المُجمل، المتشابه، دلالة اللفظ العام، دلالة اللفظ الخاص، دلالة اللفظ المشترك... وغيرها من الموضوعات الخاصة بمفهوم النصّ ودلالاته. للاستزادة انظر: السرخسي في الأصول، والشاطبي في الموافقات، الفخر الرازي في المحصول، والغزالي في المستصفى، والمنحول، والزركشي في البحر المحيط، والقرافي في نفاس الأصول، وأبو زرعة العراقي في الغيث الهامع، والشوكاني في إرشاد الفحول، ابن حزم في الإحكام في أصول الأحكام... وغيرها من المؤلفات في علم الأصول.

⁴ الشريف الجرجاني، التعريفات، 161-162.

⁵ ن. م، 265.

⁶ ن. م.

إِنَّ مَنْ أَنْعَمَ النَّظَرُ فِيمَا قَالَهُ الشَّرِيفُ الْجَرَجَانِيُّ سَيَلَا حِطُّ تِلْكَ الْقَرَابَةِ الْمُتَّحِدَةِ - كما أشرنا آنفاً - بَيْنَ "النَّصِّ" و"السِّيَاقِ"، وكأنَّ الجَرَجَانِيَّ يُؤْطَرُّ مفهوم "النَّصِّ" داخلَ دائرة "السِّيَاقِ"؛ إذ لا بُدَّ مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ "النَّصِّ" - أيَّا كَانَ - تعامُلاً سِيَاقِيًّا يُفْضِي إِلَى فَهْمٍ مَقاصِدِ الْكَلَامِ (الخطاب).

و"النَّصُّ" بمعناه اللَّغَوِيّ يَتَصَافَرُ مَعَ المعنى الاصطلاحِيّ، فَقَدْ تَدَاوَرَ معنى "نَصٍّ" على معانٍ متعدِّدَةٍ، تَصَبُّ - فيما نراه - فِي قَالِبٍ وَاحِدٍ، حَيْثُ نَقَرُّ عَنْهُ ابْنَ مَنْظُورٍ وَغَيْرُهُ أَنَّ "النَّصَّ" (ن، ص، ص): رَفْعُ الشَّيْءِ. نَصَّ الْحَدِيثَ يَنْصُهُ نَصًّا. وَنَصَّ الْمَتَاعَ: جَعَلَ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ¹. وَنَصَّتِ الطَّبِيبَةُ جِيدَهَا: رَفَعَتْهُ²... وَيُقَالُ: وَضَعَ عَلَى الْمِنْصَةِ أَيَّ عَلَى غَايَةِ الْفُضِيحَةِ وَالشُّهْرَةِ وَالظُّهْرِ. وَ الْمِنْصَةُ مَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ الْعُرُوسُ؛ لِتَرَى. وَهَذَا يُدَلُّ أَنَّ مِنْ معاني "النَّصِّ" الرَّفْعَ بنوعِيهِ الْحَسَنِيِّ وَالْمَجْرَدِ³، وَهُوَ أَصْلُ "النَّصِّ" كما قال الزُّبَيْدِيُّ⁴.

وَيُشِيرُ الْأَزْهَرِيُّ إِلَى أَنَّ "النَّصَّ" أَصْلُهُ مِنْتَهَى الْأَشْيَاءِ، وَمَبْلُغُ أَقْصَاءِ، وَمِنْهُ قِيلَ: نَصَصْتُ الرَّجُلَ إِذَا اسْتَقْصَيْتَ مَسْأَلَتَهُ عَنِ الشَّيْءِ حَتَّى يَسْتَخْرِجَ كُلَّ مَا عِنْدَهُ، وَكَذَلِكَ النَّصُّ فِي السَّيْرِ إِذَا هُوَ أَقْصَى مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ الدَّابَّةُ⁵.

إِضَافَةً إِلَى هَذَا، يَذْكُرُ الْفَيْرُوزَابَادِيُّ أَنَّ "النَّصَّ" يَعْنِي التَّوْقِيفَ، وَهُوَ الْأَمْرُ التَّوْقِيفِيُّ الَّذِي وَجَدَ "هَكَذَا" دُونَ أَنْ يَتَدَخَّلَ الْإِنْسَانُ فِيهِ؛ لَافِتًا إِلَى النَّصِّ الْقَرَّائِيِّ، الَّذِي يُعَرَّفُ عَلَى أَنَّهُ نَصٌّ تَوْقِيفِيٌّ⁶. كما نَحْدُ ابْنَ مَنْظُورٍ نَفْسُهُ يَسْرُدُ هَذَا الْمَعْنَى مُبَيَّنًا مُصْطَلَحَ "نَصِّ الْقُرْآنِ" وَ"نَصِّ السُّنَّةِ"⁷.

وَيَأْتِي "النَّصُّ" بِمَعْنَى الْإِسْتِقْصَاءِ وَالذَّلِيلِ وَالتَّعْيِينِ، فَقَدْ بَيَّنَّ الزُّبَيْدِيُّ أَنَّ "النَّصَّ" هُوَ "التَّعْيِينُ عَلَى شَيْءٍ مَا"، وَكُلُّ ذَلِكَ مَجَازٌ، مِنْ النَّصِّ بِمَعْنَى الرَّفْعِ وَالظُّهْرِ. قُلْتُ: وَمِنْهُ أُخِذَ نَصُّ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، وَهُوَ اللَّفْظُ الدَّلَالُ عَلَى مَعْنَى لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ: وَقِيلَ: نَصُّ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ: مَا دَلَّ ظَاهِرُ لَفْظِهِمَا عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَكَذَا نَصُّ الْفُقَهَاءِ

¹ الْكَتَّانِي، مَوْسُوعَةُ الْمِصْطَلَحِ فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، 3: 2851.

² ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، 8: 575.

³ الزُّنَادُ، نَسِيجُ النَّصِّ، 12.

⁴ الزُّبَيْدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ، 9: 369.

⁵ الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، 12: 116-117.

⁶ الْفَيْرُوزَابَادِيُّ، الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ، 2: 364؛ الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، 12: 116.

⁷ ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، 8: 576.

الذي هو بمعنى الدليل...¹. ويستدلُّ الغزالي على معنى "النَّصِّ" الاصطلاحيِّ من خلال المفهوم اللغويِّ، فيقول: "والنَّصُّ في اللغة- بمعنى الظَّهور، تقول العرب: نَصَبَتِ الظَّبِيَّةُ رَأْسَهَا إِذَا رَفَعَتْهُ وَأَطْهَرَتْهُ، وَنُصِّيَ الْكَرْسِيُّ مَنْصَةً إِذَا تَظَهَّرَ عَلَيْهِ الْعُرُسُ"².

ومن معاني "النَّصِّ" الحركة والتَّحريكُ، إذ أشارَ الرَّازِيُّ وَغَيْرُهُ في معنى الفعلِ الرَّبَاعِيِّ "نَصَنَصَ" إلى أنَّ العربَ تقولُ "نَصَنَصَ الشَّيْءَ" أي حَرَكَهُ... وَوَرَدَ في بعضِ الأحاديثِ: "وَهُوَ يُنْصِنُ لِسَانَهُ" أي يُحَرِّكُهُ ويتحدَّثُ به"³. ومنه- كما ذَكَرَ الفَيْرُزْآبَادِيُّ- قَوْلُهُمْ: "فُلَانٌ يَنْصُ أَنْفَهُ غَضَبًا"⁴، أي يُحَرِّكُ أَنْفَهُ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، ويُقالُ كذلك هو "نَصَّاصَ الْأَنْفِ"⁵، أي متحرِّكُ الْأَنْفِ عِنْدَ انفعالاتِهِ وَغَضَبِهِ.

فَإِذَنْ، هذه المعاني كُلُّهَا تعودُ إلى جامعٍ واحدٍ وهو "الارتفاع" أو هو- كما يقولُ الأزْهَرُ الرَّنَادُ- "أَظْهَرُ مُكَوِّنَاتِ الشَّيْءِ"، أو "أَقْصَاهَا"، وبالتالي بمقدورنا أَنْ نَتَوَصَّلَ بِمَا سَبَقَ في فَهْمِ إِجْرَاءِ "النَّصِّ" في الاصطلاحِ على كائِنْ لُغَوِيٍّ، حَيْثُ يُطْلَقُ "النَّصُّ" على ما بِهِ يَظْهَرُ المعنى أَيْ الشَّكْلُ الصَّوْتِيُّ المسموعُ مِنَ الْكَلَامِ، أَوِ الشَّكْلُ المرئيُّ مِنْهُ عِنْدَمَا يُتَرَجَّمُ إلى المكتوبِ⁶. وبناءً عليه، فإنَّ هذا الشَّكْلَ الصَّوْتِيَّ- كما يُعْلَلُ الرَّنَادُ مُقْتَضِيًا طَرَحَ خومسكي Chomsky- يُمَثِّلُ آخِرَ طَوْرٍ يَبْلُغُهُ الْكَلَامُ في تَوَلُّدِهِ (البنية السطحية Surface Structure)، إذ ينطلقُ تركيبُ الملفوظِ مِنَ الْإِسَاسِ Base حَيْثُ تجتمعُ العناصرُ المقوليَّةُ Categories بالصَّيْغِ الصَّرْفِيَّةِ الحاصِلَةِ في المعجمِ Lexicon، ثُمَّ تَنْتَظِمُهَا الْقَوَاعِدُ التَّرْكِيْبِيَّةُ في بنيةٍ تُطَابِقُهَا بنيةٌ دلاليَّةٌ (البنية العميقة Deep Structure)، ثُمَّ تجري على هذه البنية تحولاتُ Transformation تأخُذُ بَعْدَهَا شكلاً صوتيًّا هو ما يُمَثِّلُ حَدَثًا يُسْمَعُ وَيُنْقَلُ عَنْ طَرِيقِ فَنَاءٍ ما⁷. وانطلاقاً من ذلك، فإنَّ "النَّصَّ"- بما يُقَابَلُهُ مِنْ تَرْجُمَةِ Text الَّتِي تعني النَّسِيحَ- عبارةٌ عَنْ نَسِيحٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ يترابطُ بَعْضُهَا بَبَعْضٍ، حَيْثُ تَجْمَعُ هذه

¹ الزَّيْدِي، تاج العروس، 9: 369-370.

² الغزالي، المستصفى في علم الأصول، 3: 85.

³ أبو بكر الرَّازِي، مختار الصَّحاح، 282-381؛ ابن منظور، لسان العرب، 8: 575.

⁴ الفَيْرُزْآبَادِيُّ، القاموس المحيط، 2: 364.

⁵ ن.م.

⁶ الرَّنَادُ، نسيح النَّصِّ، 12.

⁷ ن.م، 12.

الخيوط عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نُطْلَقُ عليه مصطلح "نص"، إذ قامت علوم عديدة ومناهج كثيرة للبحث في هذا التراث، وتعددت هذه العلوم منذ أقدم العصور، وتقاطعت مناهجها بحكم التقائها في موضوع بحث واحد هو "النص"، ومن ثم تفرقت به اللسانيات الحديثة، وقد مرّ هذا التفرّد بمراحل عديدة، عند كل واحدة منها يقوم حدّ يبيّن تلك العلوم المشتركة في النص¹.

والأمر اللافت أنّ منظور "النص" خلال الرؤية والاتجاه في التراث اللساني القديم يُقابل الاتجاه اللساني نفسه في العصر الحديث، ويتماها مع مسالكه، حيث يُحدّد تزفيتان تودورف Tzvetan Todorov [1939-....م] - مثلاً - بنية النصّ بقوله إنّه "يمكن أن يتطابق النصّ مع جملة، كما يمكن أن يتطابق مع كتاب بأكمله، ويُعرف النصّ باستقلاليته وانغلاقه"².

ويكاد يتفق الباحثون المُحدّثون على أنّ مصطلح النصّ - أيّاً كان هذا النصّ - يُثير إشكالية نقدية في الدراسات اللغوية الحديثة، وقد خلقت هذه الإشكالية اختلافاً ملموساً في مناهج البحث وتباين مفهوم النصّ وسماته؛ ممّا جعل البحث النصّي بحثاً صعباً يتطلّب دراسة واسعة بمناهله المعرفية التي صدر عنها³.

ويُصرّح أحمد درويش أنّ "النص" بصفته حالة ذهنية لا يمكن الوصول إليه إلّا خلال الحس Intuition وإعمال الفكر، وبذلك نلاحظ أنّه - درويش - يركّز على النصّ في ذاته، ف"النص" وحده يُتيح معايير التحليل للقارئ؛ لأنّ جوهر النصّ، في حقيقته، موجود في نفس مؤلّفه، وعليه فإنّ اللغة - بهذه الرؤية - تُعدّ شخصية المؤلّف (صاحب النصّ)، وتظلّ غير منفصلة عن بقية الوسائل الفنية الأخرى التي يمتلكها⁴.

من هنا، تتجلى الأسلوبية في أنّها علم وصفي يبحث في الخصائص والسمات التي تُميّز "النص" عن طريق التحليل الموضوعي للأثر الذي تتمحور حوله الدراسة الأسلوبية، ووفقاً لهذا، تتلافح الأسلوبية بـ"النص"

¹ الرّناد، نسيج النصّ، 12.

² خمري، نظرية النصّ - من بنية المعنى إلى سيميائية الدالّ، 201.

³ عثمان أبو زنيد، نحو النصّ: إطار نظري ودراسات تطبيقية (إربد: عالم الكتب الحديث، 2009)، 11.

⁴ أحمد درويش، "الأسلوب" مجلة فصول 15 (1984)، 67.

و"النص" بالأسلوبية¹، في كون أن أحدهما يُكَمِّلُ الآخرَ بقوة متجاذبة فيما بينهما؛ فلا أسلوب - على المستوى التحويلي - دون نص يُبحث فيه، ولا نص دون أسلوب يُبحث فيه.

وقد وظف هذه الرؤية العملية الباحث رابح بن خوية، في معرض كلامه حول نظرية ياكوبسون Jakobson، مؤكداً أن الأسلوب هو الوظيفة المركزية للمنظمة للخطاب Discourse، ويتحدد بتوافقي عمليتين متواليتين وانسجامها في الوظيفة، وهما، أولاً، اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة، وثانياً، تركيب الأدوات تركيباً تقتضي بعضه قواعد النحو وتسمح ببعضه الآخر سبل التصرف في الاستعمال². ويبرز أحمد عفيفي ما يجب أن يفهمه الدارس للنص، فيقول إنه ينبغي أن يكون فهماً أساسياً معمقاً؛ لأن النص، في جوهره، وسيلة لنقل الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين، فهو ينقل شيئاً ما إلى المخاطب (المتلقي)، وهو ليس هدفاً في حد ذاته، إنما هو طريق للخطاب³ والقناة المؤدية لهذا الطريق. فالنص - بهذا المنظور - علم قائم بذاته، ونتاجاً لذلك تطفو على السطح الأداة التي يُنقل بها النص، وهذه الأداة هي اللغة⁴.

3. 2. "نحو النص" - تخوم وفضاءات:

يَقْصِدُ اللِّسَانِيُّونَ بـ"نحو النص" Text Grammar على أنه مجموعة القواعد النحوية النصية التي تُنظَّمُ عالم النص أو تُنظَّمُ بناء النص⁵. ومن يتتبع خطى الدراسات اللسانية الحديثة وتاريخ تطورها ير أن معظم الباحثين يؤكدون أن الاتجاه إلى النص يُعدُّ فتحاً جديداً - كما تقول خولة الإبراهيمي - وهو التحول الأساسي الذي حدث في السنوات الأخيرة حيث استطاع هذا التوجه اللساني أن يربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية كالبعد

¹ فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية (القاهرة: الدار الفنية، 1990)، 30.

² رابح بن خوية، مقدمة في الأسلوبية (إربد: عالم الكتب الحديث، 2013)، 64؛ عنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، 154؛ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، 138-140.

³ أحمد عفيفي، نحو النص، 20.

⁴ ن. م، 20.

⁵ J. S. Petofi & H. Rieser, *Studies in Text Grammar* (Dordrecht-Holland: Reidel Publishing Company, 1973), 13; Van Dijk, *Some Aspects of Text Grammar: A Study in Theoretical Linguistics and Poetics* (Mouton: The Hague, 1972), 8.

النبويّ والدلاليّ والتداوليّ¹، لذلك، لم يُعَدِ الانتقالُ مِنْ نحوِ الجملةِ إلى نحوِ النَّصِّ أمراً دخليّاً يُثيرُ الاستغرابَ والدّهشةَ في مجالِ الدّراساتِ اللّغويّةِ واللّسانيّةِ على وَجْهِ الخصوصِ، بل باتتِ العلاقةُ بَيْنَهُمَا مفهومةً دونَ إشكالٍ في الرّبطِ المعرفيّ، خاصّةً بَعْدَ تَأطيرِ مجالاتِ كُلِّ منهما، إذ لم تُعَدِ العلاقةُ بَيْنَ "لسانيّاتِ النَّصِّ" و"لسانيّاتِ الجملةِ" علاقةً تنازُعٍ وانفصالٍ كما كانَ يُعتقدُ بعضُ الدّارسينَ²، بل عَدَّتْ علاقةً ترابطُ واشتمالاً يُعزّزُها الواقعُ التداوليّ الذي أثبتَ أنَّ "نحو النَّصِّ" يتضمّنُ "نحو الجملةِ" تَبَعاً لِتَضَمُّنِ النَّصِّ جملةً؛ وعليه فإنَّ كلَّ ما يدخلُ في موضوعِ "لسانيّاتِ الجملةِ" هو في الحقيقةِ يتداخلُ مَعَ "لسانيّاتِ النَّصِّ".

ويستهلُّ أحمد عفيفي حديثه حَوْلَ "نحو النَّصِّ" مُعرِّفاً إيَّاه على أنَّ مصطلحَ "نحو النَّصِّ" هو أحدِ المصطلحاتِ الّتي حدّدتْ لنفسِها هدفاً محدّداً وهو الوصفُ والدّراسةُ اللّغويّةُ للأبنيةِ النَّصِّيّةِ، وتحليلُ المظاهرِ المتنوّعةِ لأشكالِ التّواصلِ النَّصِّيِّ. وقد اشتركَ مَعَ مصطلحِ "نحو النَّصِّ" مِنْ أَجْلِ تحقيقِ هذا الهدفِ بعضُ المصطلحاتِ والحقولِ المعرفيّةِ الّتي تُعنى أيضاً بالنّصِّ، مِنْها: "علم النَّصِّ"، و"علمُ اللّغةِ النَّصِّيِّ"، و"نظريّةُ النَّصِّ"³، وإن كان - كما يرى سعيد بحيري - مصطلحُ "نحو النَّصِّ" أكثرَ اقتراباً مِنْ تحقيقِ الهدفِ، وتوضيحِ صورةِ التّماسكِ والتّرايطِ النَّصِّيِّ وذلك مِنْ خلالِ ما ذَهَبَ إِلَيْهِ اللّسانيُّ المعروفُ فان ديك [Van Dijk 1943-....م] نفسه - المؤسّس الحقيقِيّ لعلمِ النَّصِّ⁴ - إلى أنَّ "علمَ لغةِ النَّصِّ" تكمنُ وظيفتُهُ الأولى في دراسةِ "نحو النَّصِّ"⁵.

وينطلقُ الباحثُ سعيد بحيري [1953-....م] مِنْ قاعدةٍ مُتَكَوِّها أنَّ الصّلةَ بَيْنَ نحوِ الجملةِ ونحوِ النَّصِّ وثيقةٌ إلى الحدِّ الّذي لم تُنَجَحْ مَعَهُ كُلُّ محاولاتِ التّمييزِ بَيْنَهُمَا. ولكنَّ هذا الأمرَ لا يعني الإخفاقَ في وَضْعِ تصوّراتٍ واضحةٍ عَنَ مهامِ نحوِ النَّصِّ⁶. فمثلاً يذهبُ فان ديك [Van Dijk 1943-....م] أنَّ نحوَ الجملةِ

¹ خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللّسانيّات (الجزائر: دار القصة للنشر، 2006)، 167؛ سعيد بحيري، علم لغة النَّصِّ - الاتّجاهات والمفاهيم، 20.

² محمّد خطّابي، لسانيّات النَّصِّ - مدخل إلى انسجام النَّصِّ، 34.

³ أحمد عفيفي، نحو النَّصِّ: اتّجاه جديد في الدّرس النّحويّ (القاهرة: مكتبة زهراء الشّرق، 2001)، 31.

⁴ حسين خمري، نظريّة النَّصِّ، 23.

⁵ بحيري، علم لغة النَّصِّ، 222، 311.

⁶ ن.م، 119.

يُشَكِّلُ جزءًا وَكَمًا غَيْرَ قَلِيلٍ مِنْ نَحْوِ النَّصِّ؛ إِذْ إِنَّ أَمَمَ مَهْمَةً لِنَحْوِ النَّصِّ هِيَ صِياغَةُ قَوَاعِدَ مُمَكِّنًا مِنْ حَصْرِ كُلِّ النَّصُوصِ النَّحْوِيَّةِ فِي لُغَةٍ مَا بَوْضُوحٍ، وَكَذَلِكَ مِنْ تَرْوِيدِنَا بِوَصْفِ الْأُبْنِيَّةِ وَالتَّرَاكِبِ¹.

وَيُبَيِّنُ فَا ن دِيك Van Dijk أَنَّهُ عِنْدَمَا تَرْتَبِطُ اللِّسَانِيَّاتُ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، بِدَرَاةِ الْجَمَلِ وَمَكُونَاتِهَا، وَتَنْشَغُلُ أَسَاسًا بَوْضِعَ مَبَادِي النَّحْوِ، فَإِنَّ "عِلْمَ النَّصِّ" يُدْرَسُ الْأَقْوَالَ اللُّغَوِيَّةَ فِي كُلِّيَّتِهَا، كَمَا يَدْرُسُ الْأَشْكَالَ وَالْبُنْيَانِ الْخَاصَّةَ بِهَا، تِلْكَ الَّتِي لَا يُمْكِنُ وَصْفُهَا بِوَاسِطَةِ النَّحْوِ. وَمِنْ هَذِهِ الزَّاوِيَةِ يَقْتَرِبُ "عِلْمُ النَّصِّ" مِنْ "عِلْمِ الْبَلَاغَةِ"، بَلْ يُمْكِنُ عُدُّهُ مُمَثِّلًا مُعَاوِرًا لَهُ².

وَمِنْ هَذَا الْمَنْظُورِ، يُسَلِّطُ سَعِيدٌ بِحِيرِي الضُّوءَ عَلَى الْمَجَالَاتِ الْحَيَوِيَّةِ الَّتِي تَخْصُ "النَّصِّ"، فَيَقُولُ إِنَّ عِلْمَ لُغَةِ "النَّصِّ" إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ يَخْتَصُّ بِتَصَوُّرِ مَهْمَةٍ جَدِيدَةٍ لَهُ تَتَجَاوَرُ مَهْمَتُهُ التَّقْلِيدِيَّةَ الْمُتَعَارَفَ عَلَيْهَا، إِذْ لَمْ يُعَدَّ يُقْتَصَرُ عَلَى مَجَرَّدِ تَنْظِيمِ الْحَقَائِقِ اللُّغَوِيَّةِ، وَلَمْ يُعَدَّ يُعْنَى بِالْمَسْتَوِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ الصَّوْتِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ وَالِدَّلَالِيَّةِ مِنْ خِلَالِ ظَوَاهِرِ كُلِّ مَسْتَوًى وَتَحْلِيلِهَا فِي أَطَارِ مَنَاهِجٍ تَتَّسِمُ بِمَوْضُوعِيَّةٍ مَرْنَةٍ، بَلْ تَعَدُّ مَهْمَتُهُ إِلَى الْاهْتِمَامِ بِالِاتِّصَالِ اللُّغَوِيِّ، وَأَطْرَافِهِ وَشُرُوطِهِ، وَقَوَاعِدِهِ، وَخَوَاصِّهِ، وَآثَارِهِ، وَأَشْكَالِ التَّفَاعُلِ، وَمَسْتَوِيَّاتِ الْاسْتِخْدَامِ، وَأَوْجُهُ التَّأْثِيرِ الَّتِي تُحَقِّقُهَا الْأَشْكَالُ النَّصِّيَّةُ فِي الْمُتَلَقِّي، وَأَنْوَاعِ الْمُتَلَقِّينَ، وَصُورِ التَّلَقِّي، وَانْفِتَاحِ النَّصِّ، وَتَعَدُّ قِرَاءَتِهِ³.

إِضَافَةً إِلَى هَذَا التَّوَصُّيفِ، نَحْدُ أَحْمَدَ عَبْدَ الرَّاضِي يُجْرِي مُقَارَنَةً فِي مَفْهُومِ "نَحْوِ النَّصِّ"؛ فَيُشِيرُ إِلَى أَنَّ "نَحْوِ النَّصِّ" هُوَ فَرْعٌ عَنِ عِلْمِ النَّصِّ، وَمُرْتَبِطٌ بِهِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا، فَقَدْ أُضِيفَتْ كَلِمَةُ "نَحْوِ" إِلَى كَلِمَةِ "النَّصِّ" تَمَيِّزًا لَهُ عَنِ "نَحْوِ الْجُمْلَةِ"، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ "نَحْوِ النَّصِّ" يَتَعَامَلُ مَعَ النَّصِّ الَّذِي تَوَافَرَتْ لَهُ مُعَايِيرُهُ الَّتِي ذَكَرَهَا بِوَجْرَانْد⁴.

كَانَ رُوبَرْتُ دِي بُوْجْرَانْد⁵ Robert De Beaugrande قَدْ أَسْهَبَ فِي تَفْصِيلِ نَظَرِيَّتِهِ فِيمَا يُعْرَفُ بِـ "النَّصِّيَّةِ" Textuality، فَوَضَعَ سَبْعَةً مُعَايِيرَ اشْتَرَطَ فِيهَا أَنْ تَتَوَفَّرَ فِي النَّصِّ مَجْتَمَعَةٌ؛ كَيْ يَتَحَقَّقَ

¹ Van Dijk, *Some Aspects of Text Grammar*, 272.

² فَا ن دِيك، النَّصُّ: بَنِيَاتُهُ وَوُظَانُهُ- مَدْخُلُ أَوَّلِي إِلَى عِلْمِ النَّصِّ (الدَّارُ الْبَيْضَاءُ: أَفْرِيْقِيَا الشَّرْقُ، 1997)، 46.

³ بِحِيرِي، عِلْمُ لُغَةِ النَّصِّ، 140.

⁴ أَحْمَدُ عَبْدُ الرَّاضِي، نَحْوُ النَّصِّ بَيْنَ الْأَصَالَةِ وَالْحَدَاثَةِ (الْقَاهِرَةُ: مَكْتَبَةُ الثَّقَافَةِ الدِّينِيَّةِ، 2008)، 26-27.

⁵ انْظُرْ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ وَمَا عَرَضْنَا لَهُ فِي مَفْهُومِ "الْإِتْسَاقِ" وَمَا لَهُ مِنْ عِلَاقَةٍ دَلَالِيَّةٍ وَوُظَيْفِيَّةٍ مَعَ "السِّيَاقِ".

الاكتمال النصي "النصية" بوجودها، ولجعل النص أساساً مشروعاً لدراسة النص نحويًا، أو ما يُسمّى بـ "نحو النص".

وهذا المعايير هي¹: 1. السبك (الاتساق) Cohesion.

2. الالتحام (الحبك) Coherence.

3. القصد Intentionality.

4. القبول Acceptability.

5. المقاميّة (رعاية الموقف) Situationality.

6. التناص Intertextuality.

7. الإعلاميّة Informativity².

ثمّ يناقش محمد عبد اللطيف هذا الاتجاه الدّراسي للنصّ مبينًا أنّه إنّ لم تتوفّر هذه المعايير فإنّ تحليله لا يُسمّى "نحو نصّ"، وبالتالي؛ لكي يكون هذا التحليل تحليلًا نصّيًا لا بدّ أن يؤسّس على النصّ نفسه³.

ويرى كلٌّ من الباحثين مايكل هاليداي Michael Halliday [1925-....م] ورقية حسن Ruqaiya Hasan [1931-2015م] أنّ النصّ يكتسب نصّيته من وجود خمسة اعتبارات مختلفة تشكّل ما يُسمّى بـ "نحو النصّ"، وهذه الاعتبارات بدورها تربط بين جمل لغويّة في متتالية خطيّة. وهذه الاعتبارات الخمسة هي: 1- الإحالة. 2- الاستبدال. 3- الحذف. 4- الوصل. 5- الاتساق⁴.

وبهذا، فإنّ الباحثين يفرّقان بين الخطاب والنصّ؛ على أنّ نصّية النصّ هي قضية داخلية وتكمّن وظيفة المتلقّي أمامها في الحكم بوجودها أو عدمه، وبالتالي فإنّ الرباط داخل النصّ هي النصّية بذاتها، بمعنى أنّها الخاصيّة التي تُحوّل الخطاب إلى نصّ؛ لأنّ الخطاب - من وجهة نظرهما - هو ما فوق الجملة، في حين أنّ النصّ هو تلك

¹ أود أن أشير إلى أنّ بعض الاختلافات في تسمية هذه المصطلحات لدى الباحثين العرب؛ وذلك نابع من تعدّد الترجمات للنصّ الأصلي.
² روبرت دي بوجراند، النصّ والخطاب والإجراء (القاهرة: عالم الكتب، 1998)، 103-105؛ محمد الأخضر الصنّيجي، مدخل إلى علم النصّ ومجالاته التطبيقية ([د.م.]: الدار العربية للعلوم - ناشرون، 2008)، 82؛ سعيد بحيري، علم اللغة النصّي - المفاهيم والاتجاهات (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 1997)، 141؛ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصّي - دراسة تطبيقية على السور المكيّة، (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، 36؛ 86.

³ محمد حماسة عبد اللطيف، الإبداع الموازي (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2001)، 15.

⁴ M. A. K. Halliday and Ruqaiya Hasan, *Cohesion in English* (London: Longman Group Ltd, 1976), 4; 13; Ramzi Munir Baalbaki, *Dictionary of Linguistics Terms: English-Arabic* (Beirut: Dar el-LLm Lilmalayin, 1990), 502

الروابط التي تسمح بالحكم على الخطاب؛ فيؤدّي هذا الفهم بالضرورة إلى عدّ كلّ عملٍ كتابيّ نصًّا، إذ لا يخلو أيُّ عملٍ كتابيّ، مهما كان جنسه أو نوعه، من تلك الروابط، أو أدوات الاتِّساق¹.

ولأهميّة علم "نحو النصّ" في دراسة التراكيب النحويّة من خلال "السياق" الذي جيء به، يُبيّن أحمد عفيفي أنّ "النحو" يجتذب النصّ نفسه أكثر ممّا يجتذب الكلمة أو الجملة، ووفقًا لهذا، فإنّ تجزئة "النصّ" ليست إلاّ وهما أو خيالاً- على حدّ قولهِ- وبهذا المفهوم يتجاوز "النصّ" كلّ حدود المعيارية لـ "نحو الجملة" Sentence Grammar، كما أنّه يتجاوز كلّ عادات القراءة التقليديّة، وطرق التحليل النحويّة المعروفة².

ثمّ يضيف أحمد عفيفي أنّ هذا "النصّ" المنجز الذي لا يتمّ تحليله نحويًّا إلاّ عن طريق مراعاة التفاعل والتّرايط بين جسد "النصّ" بأجزائه من ناحية، ومدلولاته المتنوّعة من ناحية ثانية، وكذلك عن طريق مراعاة التّفاعل بين المبدع والمتلقّي من خلال مراعاة "السياق" الذي يشغل جزءًا هامًّا من اهتمام "نحو النصّ". فالنحو- عامّةً- هو ذلك العلم الذي يُفصّح ويكشف عن خبايا المباني اللّغويّة وطريقة ارتباطها بالمعاني والدلالات العقليّة والتفسيّة؛ وبهذا فإنّ مهمّة النحو أن يجلّي مزايا النظام اللّغويّ في النصّ، وفدّرتّه على التعبير الدقيق خلال وسائل "التماسك النّصيّ" لفظًا ومعنى، فتلك الوسائل التي تساعد "النصّ" على تلاحم أجزائه وترباطها؛ ليعطي معناه للمتلقّي كما أرادهُ المتكلّم أو صاحب النصّ³؛ لأنّ "المعنى" يمنح النصّ شخصيّة، و"النصّ" يمنح اللّغة شخصيّة- على حدّ قول هاليداى ورقية حسن⁴.

ولعلّه من اللاّفت أنّ نذكر هنا ما يبيّنه الباحث أولسن ستين Olsen Stien حول أهميّة "السياق" في تحليل النصّ، فيرى أنّ من المآخذ التي تُؤخذ على البنيويّة اللّغويّة إخفاقها في إيجاد البديل الذي يساعدنا في

¹ T. Sanders and H. Pander Maat, *Cohesion and Coherence: Linguistics Approaches* (Netherlands: Utricht Institute of Linguistics OTS- Utrecht University, 2006), 591-595; P Carrell, "Cohesion is Not Coherence", *TESOL Quarterly* 16 (1982), 479-488; Joanna Turnbull and Others, *Oxford Advanced Learner's Dictionary* (Oxford: University Press, 2012), 285; David Crystal, *A Dictionary of Linguistics and Phonetics*, 350, Glenn Fulcher, "Cohesion and Coherence in Theory and Reading Research", *Journal of Research in Reading* 12, 2 (1989), 146-163.

² أحمد عفيفي، نحو النصّ: اتّجاه جديد في الدرس النحوي، 9.

³ عفيفي، نحو النصّ، 9.

⁴ M. Halliday and Ruqaiya Hasan, *Cohesion in English*, 299.

فَهُم النَّصَّ دُونَ الاعتمادِ عَلَى السِّيَاقِ¹. وَتُعَلِّقُ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلٌ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ مِنَ الثَّابِتِ أَنَّ النَّصَّ لَا يُسْتَطَاعُ تَفْسِيرُهُ مَا لَمْ تَتِمَّ الْعُودَةُ إِلَى النَّصِّ، بَلْ إِنَّ كُلَّ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ النَّصُّ مِنْ دَلَالَاتٍ وَتَرَكَيبٍ وَأَسَالِيبٍ بِلَاغِيَّةٍ لَا يَتَحَقَّقُ تَفْسِيرُهُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ. كَمَا أَنَّ النَّصَّ لَا يُحَقِّقُ تَوَاصُلَهُ مَعَ الْقَارِئِ إِلَّا اعْتِمَادًا عَلَى "السِّيَاقِ" بِكُلِّ أَنْوَاعِهِ².

إِذَنْ، إِنَّ "النَّصَّ" بِحِدِّ ذَاتِهِ كَائِنْ حَيْثُ يَتَشَكَّلُ مَعَ الْقِرَاءَةِ الْوَاعِيَةِ الْفَاحِصَةِ، وَيَتَكَوَّنُ مَعَ التَّحْلِيلِ الْعَمِيقِ الَّذِي يَجْعَلُ لـ"السِّيَاقِ" دَوْرًا أَسَاسِيًّا وَفَاعِلًا عِنْدَ تَحْلِيلِ "النَّصِّ"، لِأَنَّ "السِّيَاقَ" - كَمَا يُبَيِّنُ جون لاينز John Lyons - هُوَ الَّذِي يُجَدِّدُ مَكُونَاتِ النَّصِّ، بَلْ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُهَا، فَ"النَّصُّ" وَمَحْتَوَاتُهُ إِنَّمَا هُمَا أَمْرَانِ مُتَكَامِلَانِ، فَكِلَاهُمَا يَعْضُدُ الْآخَرَ وَيُقَوِّيهِ³.

فـ"السِّيَاقُ" - كَمَا لَاحِظْنَا آنِفًا - عُنْصُرٌ حَاسِمٌ فِي "نَحْوِ النَّصِّ"، وَمَكُونٌ حَيَوِيٌّ، فِي تَحْلِيلِ النَّصِّ، وَمَرْدُّ ذَلِكَ أَنَّ "الْمَعْنَى" لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ "تَسْيِيقِ" الْوَحْدَةِ اللَّغَوِيَّةِ⁴ بِالْكَامِلِ، أَيْ أَنَّ نَضْعَهَا فِي سِيَاقَاتِهَا الْمُنَاسِبَةِ لَهَا مَعَ الْأَخْذِ بِالْحَسْبَانِ كُلِّ "السِّيَاقَاتِ" الْمُحْتَمَلَةِ، كَالسِّيَاقِ الثَّقَافِيِّ، وَالاجْتِمَاعِيِّ، وَالْعَاطِفِيِّ، وَالتَّارِيخِيِّ... وَغَيْرِهَا مِنْ السِّيَاقَاتِ، وَمِنْ هُنَا فَمِنْ الْأَجْدَرِ - كَمَا يُؤَكِّدُ مُحَمَّدٌ فَهْمِي حِجَازِي، وَمِنْ قَبْلِهِ لاينز Lyons - أَنَّ تَتَدَاخَلَ السِّيَاقَاتُ كُلُّهَا وَتَتَأَرَّرُ فِي التَّحْلِيلِ النَّصِّيِّ⁵ إِلَى الْحِدِّ الَّذِي يُمَكِّنُ لَنَا أَنَّ نَسْتَخْدِمُ كَلِمَةَ "السِّيَاقِ" دُونَ تَمْيِيزِ بَيْنِ "السِّيَاقِ اللَّغَوِيِّ" مِنْ جَانِبٍ، وَ"السِّيَاقِ الْاجْتِمَاعِيِّ" مِنْ جَانِبٍ آخَرَ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ. وَهَذَا يُفَضِّلِي - بِالضَّرُورَةِ - إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَى فِي تِلْكَ "السِّيَاقَاتِ" تَوَافُقُ الْوُقُوعِ أَوْ الرِّصْفِ⁶. وَمِنْ هُنَا نَرَى بِوَجْهِانٍ Beaugrande ودريسلر Dressler [1931-....م] يُؤَكِّدَانِ أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا أَلَّا نَعْزِلَ النُّصُوصَ عَنِ

¹ Olsen Haugom Stien, *The Structure of Literary Understanding* (Cambridge: Cambridge University Press, 1978), 46.

² إِبْرَاهِيمُ خَلِيلٌ، النَّصُّ الْأَدَبِيُّ - تَحْلِيلُهُ وَبِنَاؤُهُ، 37.

³ John Lyons, *Linguistic Semantics: An Introduction* (Cambridge: Cambridge University Press, 1995), 93.

⁴ أَحْمَدُ مَخْتَارُ عَمْرٍ، عِلْمُ الدَّلَالَةِ، 68.

⁵ John Lyons, *Linguistic Semantics: An Introduction*, 93.

⁶ مُحَمَّدٌ فَهْمِي حِجَازِي، مَدْخُلٌ إِلَى عِلْمِ اللُّغَةِ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ قِبَاءِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ، 1998)، 159-160.

"السياقات" الواقعية؛ فنحن - في الواقع - الذين نبني النماذج اللغوية، حيث نستخدم اللغة في نصوص واقعية في ضوء المعرفة الإدراكية الواسعة¹.

وقد أظهر أحمد مختار عمر هذا "الواقع" اللغوي خلال تأكيديه أنه إذا كانت نظريته "السياق" هامة بالنسبة إلى النظر النحوي على مستوى الجملة فإن ذلك يعكس، بكل وضوح، هذه الأهمية البالغة التي يقوم بها "السياق"، حيث يحدد مجالات الترابط والانتظام بالنسبة إلى كل كلمة في الجملة النحوية²، مما يعني تحديد استعمالات هذه الكلمة أو غيرها في اللغة، وبلاستناد إلى هذا المبدأ اللساني "لا يصح إغفال السياق" الذي ترد في الكلمة في الجملة³.

ويعود بوجراند ليؤكد ثانية أن "نحو النص" بإمكانه أن يكشف التقاب عن كل ما يحوط بعالم "النص" في الخطاب التي يطرق عليه الجديد من التجميعات والقيود والتعديلات والتوجهيات، ولا يتأتى هذا الكشف (التفسير) إلا من خلال "السياق" ومجموعة القواعد الحاكمة لـ "نحو النص"⁴. ونتيجة إلى هذا، يقترح جابر عصفور أن تؤجل عملية تحليل النص إلى ما بعد أن ينتهي منه المتكلم أو المبدع، فإن كان هدف المبدع (صاحب النص/ المتكلم) أن يكشف عما في داخله بفعل التعبير، فإن هذا يعد بمثابة "الفعل اللازم لا يتعدى إلى غير صاحبه إلا بعد اكتماله أو انتهائه"⁵.

إذن، فـ "نحو النص"، الذي يتعالق مع منظومة السياق تعالفاً متيناً دون انفكاك، إنما يتعامل مع النص على أنه بنية كلية، ووحدية متكاملة، ومن ثم فإن المدخل إلى التحليل النحوي للنص يتم عبر تحليل الميزات والخصائص التي تؤدي إلى "تماسك النص"؛ فتكشف عن مكونات "النص" التنظيمية⁶ والنظمية كشفاً نحوياً رجباً خلال ترابط أجزائه المتمثلة بالجميل والكلمات.

¹ Robert-Alain De Beaugrande and Wolfgang Ulrich Dressler, *Introduction to Text Linguistics* (London: Longman, 1981), 93.

² أحمد مختار عمر، علم الدلالة، 78.

³ عمر، علم الدلالة، 80.

⁴ روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، 47.

⁵ جابر عصفور، نظريات معاصرة (القاهرة: مكتبة الأسرة-الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998)، 38.

⁶ M. Halliday and Ruqaiya Hasan, *Cohesion in English*, 4.

ف"التَّرابُطُ" أو "التَّماسُكُ" يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ مَرْتَكِزَاتِ "نَحْوِ النَّصِّ"، بَلْ إِنَّهُ يَشْغُلُ حَيِّزًا كَبِيرًا فِي حَقْلِ الدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ المعاصر؛ ولهذا فَقَدْ شَرَعَ علماءُ النَّصِّ يُوَلُّونَ "التَّماسُكُ" عِنَايَةً قَصْوَى، إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُمْ - كَمَا يَقُولُ صَلاَحُ فَضْلٍ - جَعَلُوا "التَّماسُكُ" النَّحْوِيَّ خَاصِيَّةً دَلَالِيَّةً لِلخَطَابِ تَعْتَمِدُ عَلَى فَهْمِ كُلِّ جُمْلَةٍ مَكُونَةٍ لِلنَّصِّ فِي عِلَاقَتِهَا بِمَا يُفْهَمُ مِنَ الْجُمْلَةِ الأُخْرَى الْمِلَازِمَةِ، وَيُشْرَحُونَ الْعَوَامِلَ الَّتِي يَتَعَمَدُ عَلَيْهَا "التَّرابُطُ" ("التَّماسُكُ")؛ حَيْثُ تَحَسَّدَتْ أَمَامَهُمْ فَائِدَةُ التَّرابُطِ والتَّلاحُمِ بَدءًا بِالتَّرابُطِ بَيْنَ الْمُسْتَوِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ¹ فِي النَّصِّ الْوَاحِدِ²؛ وَبِالتَّالِي كَانَ هَذَا الْإِصْرَارُ مِنْ "نَحَاةِ النَّصِّ" عَلَى رَفْضِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْمُسْتَوِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وَنَتَجَتْ حَقِيقَةٌ أَنَّ مَنْ أَهَمَّ مَلَامِحِ "نَحْوِ النَّصِّ" دِرَاسَةُ الرِّوَابِطِ النَّحْوِيَّةِ مَعَ تَأْكِيدِ الْمَرْجِ بَيْنَ الْمُسْتَوِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، حَيْثُ يُؤَدِّي كُلُّ ذَلِكَ إِلَى "الْإِتِّسَاقِ"³ Coherence الَّذِي يَتَضَعُ خِلَالَ النَّظَرِ الْكَلْبِيِّ إِلَى النَّصِّ دُونَ فَضْلِ بَيْنِ أَجْزَائِهِ - كَمَا يُشِيرُ عَلِي أَبُو الْمَكَارِمِ - ف"الْإِتِّسَاقُ" اللُّغَوِيُّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْزَلَ مُسْتَوًى مِنْ مُسْتَوِيَّاتِ النِّشَاطِ اللُّغَوِيِّ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ مُسْتَوِيَّاتِ هَذَا النِّشَاطِ الصَّوْتِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ وَالتَّحْوِيَّةِ وَالْمَعْجَمِيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ⁴، إِذْ إِنَّ "نَحْوِ النَّصِّ" - كَمَا يُبَيِّنُ سَعِيدُ بَحِيرِي - يُدَوِّرُ فِي مِيدَانٍ أَكْثَرَ رَحَابَةً وَاتِّسَاعًا وَشُمُولًا فِي الْمَرْجِ بَيْنَ كُلِّ هَذِهِ الْمُسْتَوِيَّاتِ الْمُتَدَاخِلَةِ، الَّتِي لَا يَنْبَغِي الْفَصْلُ بَيْنَهَا، وَبِذَلِكَ يَكُونُ لِلْوَصْفِ النَّصِّيِّ خَاصِيَّةً جَوْهَرِيَّةً تُفَرِّقُهُ عَنِ الْوَصْفِ الْبَلَاغِيِّ وَالْأُسْلُوبِيِّ، بِمَعْنَى أَنَّ تَكُونَ النَّظَرِ نَظَرًا شُمُولِيَّةً ذَاتَ أَفْقٍ بَحْثِيٍّ وَاسِعٍ مِنْ خِلَالِ نَمَازِجِ نَصِيَّةٍ ثَرِيَّةٍ الْمَكُونَاتِ، تَتَجَاوَزُ حُدُودَ النَّمَاذِجِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْأُسْلُوبِيَّةِ⁵.

4. 2. اصطلاح "السِّيَاقِ" وَمَرَافِقُهُ الْمُسْتَحْدَثَةُ:

¹ المقصودُ بـ"المُسْتَوِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ" هِيَ تِلْكَ الْمُسْتَوِيَّاتُ الَّتِي تُبْحَثُ فِي عِلْمِ اللُّغَوِيَّاتِ. مِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الْمُسْتَوِيَّاتِ: الْمُسْتَوَى الصَّوْتِيّ Phonetics and Phonology، وَالْمُسْتَوَى الصَّرْفِيّ Morphology، وَالْمُسْتَوَى النَّحْوِيّ Syntax، وَالْمُسْتَوَى الْمَعْجَمِيّ Lexicology، وَالْمُسْتَوَى الدَّلَالِيّ Semantics، وَالْمُسْتَوَى التَّوَالِيّ Pragmatics، وَمُسْتَوَى تَحْلِيلِ الْخَطَابِ Discourse Analysis، وَالْمُسْتَوَى الْأُسْلُوبِيّ Stylistics، وَالْمُسْتَوَى السِّيمَانِيّ-الْعِلَامَاتِيّ Semiotics. انْظُرْ:

David Crystal, *A Dictionary of Linguistics and Phonetics*, 198-199; Hickey, Raymond and Stanislaw Puppel, "Levels of Language", *Language History and Linguistic Modelling. A Festschrift for Jacek Fisiak on his 60th Birthday* (Berlin: Mouton de Gruyter, 1997), 3-4; Robert Rezetko and Ian Young, *Historical Linguistics and Biblical Hebrew: Steps Toward an Integrated Approach* (Atlanta- USA: SBL Press, 2014), 48; 225.

² صَلاَحُ فَضْلٍ، *بَلَاغَةُ الْخَطَابِ وَعِلْمُ النَّصِّ*، 263.

³ انْظُرْ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ فِيمَا أُشْرْتُ إِلَيْهِ إِلَى مُصْطَلَحِ "الْإِتِّسَاقِ" Coherence وَمَا لَهُ مِنْ عِلَاقَةٍ وَثِيقَةٍ بِ"السِّيَاقِ".

⁴ عَلِي أَبُو الْمَكَارِمِ، *الظُّوَاهِرُ اللُّغَوِيَّةُ فِي الثَّرَاثِ النَّحْوِيِّ*، 325.

⁵ سَعِيدُ بَحِيرِي، *عِلْمُ لُغَةِ النَّصِّ*، 60.

يرى محمد حبّص أنّ مصطلح "السياق"، في الدراسات اللغوية الحديثة، من المصطلحات العصبية على التحديد الدقيق، وإن كان في حقيقته نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة تماسكاً وأضبّطها منهجاً¹.

وقد لاحظنا أنّها، أنّه ليس بمقدور من يعرض للسياق أن يقطعه عن أهمّ مكوناته الأساسية، وهو النصّ، بل بات وكأنّه من المسلم به أنّ دراسة "السياق" من ناحية منهجية تستوجب أن يرسو على مرافئ كثيرة يتلاقح معها²؛ كي يصحّ أن يُطلق عليه "سياق"، فهذا هو ذا جميل صليبا يُعرّف "سياق الكلام" على أنّه أسلوب الكلام ومجرأه، حيث نقول: "وقعت هذه العبارة في سياق الكلام"، أي جاءت متفقة مع مجمل النص³. ويُضيف صليبا قائلاً: أنّه للتقيد بسياق الكلام في تفسير النصوص وتأويلها فائدة منهجية؛ لأنّ معنى العبارة يختلف باختلاف مجرى الكلام، فإذا شئت أن تُفسّر عبارة من نصّ وجب عليك أن تُفسّر بها بحسب موقعها في سياق ذلك النص⁴.

وقد يئنّ بعض الباحثين أنّه كي نتوصّل إلى معرفة المقصود من السياق، ينبغي أن نبحت في كيفية تشكيل الخطاب Discourse للفترة التي قيل فيها النصّ، بما يُسمّى بـ"الغّة العصر"؛ ووفقاً لذلك، يمكن أن نتكلّم صياغة "سياق النصّ" وتشكّله، الأمر الذي يُيسّر عملية "تفسير النصّ"⁵.

وُثِّبُ الباحثة خولة الإبراهيمي المدى المعرفي لنظرية "السياق" فتوكّدت أنّ "النظرية السياقية" في أساسها تعتمد في تحديد الدلالات اللغوية على المنهج الذي اشتهرت به الدراسات الفيلولوجية في تحقيقها للنصوص، حيث يرى أصحاب هذه النظرية أنّه يجب على الباحث تتبّع جميع السياقات واستقراؤها التي تحقّقت فيها⁶، إذ "ليس للكلمة دلالة بذاتها بل لها استعمال فحسب" - كما ذهب إلى ذلك فيتغنشتاين Wittgenstein⁷.

¹ حبّص، البحث الدلالي عند الأصوليين، 28.

² من هنا جاءت فكرة العنوان "اصطلاح السياق مرافقه المستحدثة"، وذلك لأنّ دراسة "السياق" - لا سيّما "السياق النحوي" - تستدعي أن يستحضر الباحث مجالات وأطرًا لسانية شتى، وأن يتوقف عند مفاهيم لغوية تتشابك وتتداخل فيما بينها.

³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، 681.

⁴ صليبا، المعجم الفلسفي، 681.

⁵ دود غوربيز' ودن عرب، انصايكلوفاדיה של הרעיונות: תרבות, מהשבה, תקשורת (תל אביב: דפוס כתר, 2012), 1048.

⁶ خولة الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، 120.

⁷ أحمد مختار عمر، علم الدلالة، 86.

وبناءً عليه، يقول سالم شاكِر إنَّ هذه النَّظَرِيَّةَ تُنْصَوِي على فائدةٍ عَظْمَى؛ لِمَا لها مِنْ أَمِيَّةٍ بالغَةٍ، فَتُخَبِّرُنَا عَنْ واقع الاستعمالات اللُّغَوِيَّةِ المتداولة¹.

ويعرضُ مُحَمَّدُ الخولي في معجمه تعريفًا لمصطلح "السِّيَاق" مُعَرِّفًا إيَّاهُ على أَنَّهُ البيئَةُ اللُّغَوِيَّةُ Linguistics Context الَّتِي تُحِيطُ بِصَوْتٍ، أو فونيم، أو مورفيم، أو كلمة، أو عبارة، أو جملة².

في حين، يرى كلٌّ مِنْ دافيد جوربيتش David Gurevitz ودان عاراف Dan Arav أَنَّ اللُّغَةَ عبارةٌ عَنْ إشاراتٍ دالَّةٍ סימנים Signs لا تعملُ في فَصَاءٍ خالٍ، بَلْ هي مُتَعَلِّقَةٌ بِسِيَاقٍ ثقافيٍّ وتاريخيٍّ. كما أَنَّ أيَّ تَغْيِيرٍ في "السِّيَاقِ" يُنتِجُ بالضرورة تَغْيِيرًا في معاني هذه الإشارات. مِنْ هنا، فَإِنَّ "السِّيَاقَ" يَتَّكِي على ثلاثِ قنواتٍ مِنَ الاتِّصالِ، هي: المرسل، والمتلقي، والرَّسالة. ويتعيَّنُ لِقَائِ شيفراتِ هذه الرَّسالةِ أَنْ نَفْكَ حَلَقَةً الوصلِ الدِّيناميَّةَ للعلاقاتِ الَّتِي تجمعُ بَيْنَها³. وبناءً عليه، فَإِنَّهُ بوسعنا أَنْ نَعْرِفَ "المعنى السِّيَاقِيَّ" على أَنَّهُ- في أحيانٍ كثيرةٍ- تلاقٍ تناصيٍّ Intertextual ثقافيٍّ وحيويٍّ في الوقتِ ذاتِهِ يَنْ أطرافِ القنواتِ الخطابيَّةِ المشتركةِ، بدايةً مِنَ المرسلِ، ومورورًا بالمرسلِ إِلَيْهِ، وانتهاءً بالنَّصِّ (الرَّسالةِ) الَّتِي تَرْتِبطُ بَيْنَهُمَا⁴.

وَمِنَ اللَّافَتِ، والمثيرُ في الوقتِ نَفْسِهِ، ما أَثارَهُ ياكبسون مِنْ أَنَّ المنطلقاتِ الأساسيَّةَ لـ"التماهي السِّيَاقِيَّةِ"- إنَّ جازَ لي فَهْمُ ذلك- تقومُ على عَدَمِ ثباتِ "الإشاراتِ السِّيَاقِيَّةِ" Contextual Signs، الَّتِي عَبَّرَ عَنْها دي سوسير De Saussure أيضًا، في كَوْنِها نظامًا اعتباطيًا Arbitrary بَيْنَ الدَّالِّ والمدلولِ، حَيْثُ يُنتِجُ عَدَمُ الثَّبَاتِ لبعضِ الدَّوالِّ Signifiers؛ لِأَنَّها تَكُونُ في حالةِ "الدَّوالِّ العائمةِ" Floating signifiers، وهي بِدَوْرِها خَصَّصَتْ لعمليَّةِ ترميزٍ ثقافيٍّ Cultural Coding قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ في حَيَازِ سِلْسِلَةِ المعنى الدَّالِّ⁵. مِنْ هُنَا فَإِنَّ أيَّ تَغْيِيرٍ في شيفرةِ القراءةِ الثَّقافيَّةِ يُوَدِّي بالضرورةِ إلى تَغْيِيرٍ في العلاقاتِ داخلِ الإشارةِ الدَّالَّةِ. مِنْ هنا، فَإِنَّ طَلَبَ الفهمِ العميقِ لمعنى "النَّصِّ"- أَيَّا كانَ- يَجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ بالحسبانِ "السِّيَاقُ"

¹ سالم شاكِر، مدخل إلى علم الدلالة، 31.

² مُحَمَّدُ علي الخولي، معجم علم اللُّغة النَّظَرِيَّةِ (بيروت: مكتبة لبنان، 1982)، 156.

³ دود غوربيج' دود عرب، انصايكلوفديا של הרעיונות: תרבות, מחשבה, תקשורת, 1048.

⁴ גורביץ', אנציקלופדיה של הרעיונות: תרבות, מחשבה, תקשורת, 1048.

⁵ R. Jakobson, "Shifters, Verbal Categories and the Russian Verb", *Selected of Roman Jakobson* 2 (1971), 130-147.

الذي أشرف على إنتاج هذا "النص" من خلال استيضاح الخلفية التاريخية والثقافية والنفسية والاجتماعية التي من شأنها أن تسهم في تشكّل النص¹.

ويذهب عدد من الباحثين اللسانيين إلى أن المعنى - بمفهومي الضيق والواسع - إنما يقوم على معطيات "السياق" الذي ترد فيه الألفاظ مجتمعة ومتعلقة فيما بينها²، وبالتالي، فإن البحث عن العلاقة بين مفهومنا عن الشيء والشيء نفسه ليس هاماً من الناحية المعنوية، بل تكمن الأهمية في دراسة المعنى خارج أصل الدلالة، وفي التعرف على طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول، وكذلك، في فهم الدور الذي تؤديه الكلمات في السياق المحيط بها، وبالطريقة التي تستعمل فيها³؛ ونتيجة إلى هذا يغدو المعنى حصيلة لاستعمال الكلام في الجمل والتراكيب، من حيث وُزُوْدُها في سياقات مختلفة⁴.

ولمن يتتبع تعريفات "السياق" فإنه سيكتشف أن كثيراً من الباحثين يستخدمون مصطلحات مساندة؛ لتعيين "السياق"، نحو "الملابسات" و"الظروف" و"الأحوال"، وقد جمعها الباحث محمد يونس علي خلال تعريفه للسياق بقوله إن "السياق" هو مجموعة الملابسات والأحوال والظروف التي تتكاثف جميعاً في التأثير في دلالة الخطاب، ومن جملتها الإشارات والإيماءات المساعدة التي يستعين بها المتكلم؛ لإيضاح فكرته، وإبلاغها إلى السامع، كما تتداخل عوامل أخرى، منها ما يتعلق بشخصيات المتخاطبين وحياتهم الخاصة، وتاريخهم الاجتماعي، والعلاقة بينهم، ومن هذه العلاقات ما هو وليد الموقف بحكم ظروف الزمان والمكان التي يقع فيها الخطاب⁵.

ونلاحظ - كذلك - أن "السياق" ارتبط بمفهوم "الاستعمال"؛ وذلك لأن اللغة، في جوهرها، يجب أن توضع في حيز من الاستعمال؛ كي تُسمّى لغةً، وأيضاً، وعليه نرى محمد أبو الفرج - مثلاً - يُعرّف "السياق" بقوله: "وأقصد بالسياق هنا ما يُصاحِبُ اللَّفْظَ ممَّا يُساعدُ على توضيح المعنى، وقد يكون التوضيح بما ترد فيه

¹ غوربين' وعرب، انديكولوفديا של העיונות، 1048.

² نسيم عون، الألفية - محاضرات في علم الدلالة (بيروت: دار الفارابي، 2005)، 158.

³ مورييس أبو ناصر، "مدخل إلى علم الدلالة الألسني"، مجلة الفكر العربي المعاصر 18 (1982)، 33-32.

⁴ عمر، علم الدلالة، 72.

⁵ محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2007)، 160.

اللفظة من الاستعمال؛ وقد يكون ما يُصاحِب اللفظ من غير الكلام مُفسِّراً للكلام، وقد تكون العلاقة بين هذا الكلام وبين شيءٍ آخر... داعياً إلى استعمال اللفظ بالطريقة التي يُستعمل بها في اللغة¹.

5. 2. مكوّنات "السياق النحوي" - بين النوع والوظيفة:

انطلق، في بادئ الأمر، من ركيزة هامة أُسِّند عليها في هذه الأطروحة، وهي أن تعريف "السياق النحوي" يتأتى من خلال تمازج عناصر مكوّنة مختلفة؛ فهو بهذا المعنى منظومة متكاملة ممّا يتّصلُ بعلوم النحو بمعناها الواسع، وعليه نؤكد نقطتين في غاية الأهمية، وهما، أولاً، أن "النحو"² ليس المقصود به تلك المسائل الإعرابية وما يطرأ على الكلمات من تغيير إثر العوامل الداخلة، وهو ما يُسمّى بالمُعَرَّب، أو ما لم يطرأ عليها أيُّ تغيير حتى يتغيّر العوامل وهو ما يُسمّى بالبناء³، إنّما النحو هو معاني التراكيب اللغوية بأجزائها وكتابتها من خلال أداة السياق. وثانياً، أن "السياق النحوي" ما هو إلا سياق النظم والأداء الكلامي، وتوافقاً مع هذه المعنى ينبغي أن تتضافر المستويات اللغوية كلّها والظروف المحيطة بها⁴؛ كي ينتج "السياق النحوي"، فالتقديم والتأخير - مثلاً - لا بُدّ من فهم تلك العوامل التي تُسهم في بناء تصوّر نحوي؛ لمكوّنات هذا السياق، والأنواع المتداخلة فيه؛ لتتضح هويّة "السياق النحوي". فثمة فرق عند النحاة والمفسرين بين "الحمد لله" وبين "الله الحمد"، فالطريق إلى توصّل المعنى النحوي الدقيق يكمن في إدراك معنى "السياق النحوي" لكلا الجملتين.

إنّ السياق - كما يقول هاليداى - جزء من التخطيط الكلّي، إذ ليس هناك انفصال بين "ماذا نقول؟" و"كيف نقول؟"؛ ذلك أنّ اللغة إمّا تكون لغة عن طريق استعمال في السياق، بل إنّ كلّ ما في اللغة مرتبط بالسياق⁵. ويُشبهه يحيى أحمد هذا المعنى بعمل السلك الكهربائي في تضافر عناصر اللغة مجتمعة التي من شأنها أن

¹ محمّد أحمد أبو الفرج، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث (القاهرة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1966)، 116.

² انظر تفصيلنا وتعليلنا حول مفهوم النحو في الفصل الثالث.

³ ابن فلاح البيني، المغني في النحو، 209-212.

⁴ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 234.

⁵ Michael Halliday, *Language as Social Semiotics: The Social Interpretation of Language and Meaning* (Baltimore: University Park Press, 1978), 33.

تُسهم في أداء الفكرة التي يريد المتكلم توصيلها؛ فالسلك الكهربائي الواحد يتكوّن من مجموعة أسلاكٍ شعيرية دقيقة، ولا نستطيع عندئذٍ أن نقول إن سلكاً بعينه من هذه الأسلاك الدقيقة مسؤول عن توصيل الكهرباء، فهذه الوظيفة تقوم بها هذه الأسلاك الدقيقة كلها مجتمعة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى اللغة، فلا يمكن أن يستقل عنصر أو مستوى لغويّ بأداء الوظيفة، وبالتالي فإنّ السياق هو المشرف على هذه العملية اللغوية¹. ولذلك فنحن نحتاج إلى "السياق" ليس فقط؛ لكي نتمكن من معرفة مدى ملاءمة الكلام أو اللغة المستعملة في هذا الظرف أو ذاك، ولكن، أيضاً؛ لكي نستطيع أن نفهّر الأساليب اللغوية والمستويات اللغوية وطبيعة اللغة نفسها، ولأنّ جزءاً كبيراً من دلالات المفردات ومعاني الجمل المستعملة يعتمد على الخبرة المشتركة ما بين المتكلم والمتلقي، وكل ذلك منوطاً بـ"السياق" الذي بدوره يكشف عن العلاقات الجامعة بين المتكلم والمتلقي².

وهذا ما يوضّحه عبد الرحمن بودرع بقوله إنّ "السياق" في حقيقته هو إطار عامّ تنتظم فيه عناصر النصّ، ووحداته اللغوية، وهو مقياس تتّصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يُقدّمها النصّ للقارئ. ومن ثمّ فإنّ "السياق" يضبط حركات الإحالة بين عناصر النصّ؛ فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصفها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار "السياق"³.

ومن ثمّ يتّبين لنا أنّه من يتّقصّ آثار الباحثين، وهم يُعدّدون أنواع السياقات المختلفة، يصطدم بكثير من التشعبات والحلّط بشأن أنواع السياقات؛ لهذا كان إزاماً عليّ أن أُلهم هذا الشّعث، فأرتّب هذه الأنواع ترتيباً مُنضبطاً بعيداً عن تقسيمات اللسانيين المتداخلة. ولعليّ في ذلك أستوحي ما ذكره رشيد يحيوي في أنّ "ما يخصّ مصطلحي المقام والسياق - على سبيل المثال - فإنّ المتصفّح لأنظار الباحثين في الموضوع يلاحظ جرّيان كثير منهنّ على تداول المصطلحين معاً للمفهوم نفسه..."⁴.

¹ يحيى أحمد، "الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة"، مجلة عالم الفكر 3 (1989)، 84.

² أحمد، "الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة"، 84.

³ عبد الرحمن بودرع، منهج السياق في فهم النصّ (الدار البيضاء: مكتبة الثقافة، 2008)، 43.

⁴ رشيد يحيوي، التّبالغ والتّبالغة: نحو نظرية تواصلية في التراث (عمّان: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، 2014)، 279.

من هنا، بوسعنا أن نُشيرَ إلى أهمِّ أنواعِ السياقِ¹، لا سيَّما تلكَ التي تدعُمُ موضوعَ هذه الأطروحة،

وهي:

1. 5. 2. السياق الصوتي:

يُندرجُ "السياقُ الصوتيُّ" Phonological Context تحتَ أركانِ "السياقِ اللُّغويِّ العامِّ"، ويتمثَّلُ في حركةِ الأصواتِ داخلَ الوحدةِ اللُّغويَّةِ، والوحداتِ الأخرى التي تُؤلِّفُ النَّصَّ أو التَّركيبَ²، حيثُ يَهْتَمُّ هذا النَّوعُ من السياقِ بدراسةِ الصَّوتِ داخلِ سياقِهِ- وليسَ مجردًا- من حيثُ كميَّةِ الهوائِ اللازمةِ لإنتاجِهِ، ودرجاتِ الجُهدِ، والهُمَسِ... وسواها³، وبالتالي تختلفُ الأصواتُ المجرَّدةُ عَنِ الأصواتِ وهي تؤدي وظائفَها داخلَ السياقِ خلالَ قرائنٍ صوتيَّةٍ منطوقَةٍ، كالتنغيمِ Intonation، والنَّبرِ Stress، والإيقاعِ Rhythm، والسَّجَعِ Assonance، والفاصلةِ القرآنيَّةِ Qur'anic Comma، وغيرها من المظاهرِ الصوتيَّةِ السياقيَّةِ⁴.

وقد عبَّرَ عُلماءُ الصَّوتِ المحدثونَ عَنِ الأصواتِ المجرَّدةِ بـ"الفونيمات" Phonemes، وتحدَّثوا عَنِ عناصرِها الجزئيَّةِ المُسمَّاةِ بـ"الألوفونات" (البدائل الصوتيَّة) Allophones، أو "الشَّوَعاتِ الفونيميَّة" Phonemes Variants، فعَرَّفوها على أنَّها "مظاهرٌ ماديَّةٌ متباينةٌ للفونيم⁵، ووفقًا إلى هذا ذهبَ ماريو باي Mario Pei [1978-1901] إلى أنَّ استعمالَ كُلِّ منها يتوقَّفُ أساسًا على مَوْقعِهِ في الكلمة، وعلى الأصواتِ المجاورةِ له"⁶.

¹ أودُّ أن أؤكدَ هنا أنَّ الهدفَ من هذا العرض هو التَّعريفُ المختصرُ ببعضِ أنواعِ السياقِ؛ تعريفًا بها، وإتمامًا إبستمولوجيًا لِمَا تحمَّلهُ من الحَقولِ المعرفيَّةِ، وتساوقًا معَ النظريَّاتِ السياقيَّةِ الحديثةِ خاصَّةً، وإلا لَلزَمَ مِنِّي أن أعقِدَ لكلِّ نوعٍ منها بحثًا منفردًا، لا يتسعُ المجالُ لعرضِهِ في هذه الأطروحة. كما أنَّني أريدُ من خلالِ عَرَضِ بعضِ أنواعِ السياقِ أن أظهرَ طبيعةَ العلاقاتِ المتشابهةِ والمركبةِ المستكنَّةِ في "السياقِ النحويِّ"، إذ إنَّ "السياقَ النحويَّ" فيما نراه، وفيما سنعرِّضُ له في الجزء الثاني من هذا الفصل، وفي الفصل الثالث الخاصِّ بالتَّراكيبِ النحويَّةِ القرآنيَّةِ، يُعدُّ برأيي- مجموعةَ السياقاتِ المختلفةِ التي تتداخلُ في إبرازِ معنى التَّركيبِ النحويِّ- بمعناه الواسعِ الشَّامِلِ، فظاهرةُ "التنغيمِ" Intonation- مثلاً- هو ظاهرةٌ صوتيَّةٌ في أصلِها، ولكنَّ فقهَها وفهمَ مقاصدها يأخذنا إلى أن نتغيَّ الجانِبَ النحويَّ فيه، بمعنى أنَّ "التنغيمَ" لم يَغْضُظْ ظاهرةً صوتيَّةً مجردةً، بل هو، بالنسبةِ إلى درسِ السياقِ "ظاهرةٌ نحويَّةٌ Syntactic Phenomenon من الطرازِ الأوَّلِ. ولعلَّ هذه الفكرة هي من ضمنِ الأفكارِ المركزيَّةِ التي تتحنَّتْ حَوْلَها هذه الأطروحة.

² عبد القادر عبد الجليل، علم الصَّرفِ الصوتيِّ، 155.

³ عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبيةُ وثلاثيةُ الدَّوائرِ البلاغيَّةِ (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2002)، 214.

⁴ عبد الجليل، الأسلوبيةُ وثلاثيةُ الدَّوائرِ البلاغيَّةِ، 217.

⁵ Dwight Bolinger, *Aspects of Language* (New York: Harcourt Breca & World, 1968), 43.

⁶ ماريو باي، أسس علم اللُّغة (القاهرة: عالم الكتب، 1998)، 88.

ويُشيرُ عبد القادر عبد الجليل أنَّه يمكنُ أنْ نُطَلِّقَ على "الألوفون المتغيِّر السِّيَاقِيّ" Variant of Context، بلْ نَحْدُ أنْ بعضَ اللِّسَانِيَّيْنَ المحدثينَ يُسَمُّوْنَهُ "المتغيِّرَ عَبرَ الوظيفيِّ" Unfunction Variant؛ لأنَّه يُؤَثِّرُ في المعنى، بِقَدْرِ ما يُلَحَظُ التَّلَوُّنُ التُّطْقِيّ¹، وبالتالي يُسَهِّمُ في إدراكِ الدَّلالاتِ المختلفةِ عَبرَ طَبِيعَةِ الصَّوْتِ النَّاتِجِ عَبرَ "النَّظَامِ الصَّوْتِيّ" Acoustic System، الأمرُ الَّذِي جَعَلَ بعضَ الباحثينَ الاستنتاجَ بأنَّ "السِّيَاقِ الصَّوْتِيّ" وتردُّداتِ الصَّوْتِ الفيزيائيَّةِ (المظاهر الصَّوْتِيَّة) إمَّا يَنسَجُمُ - غالبًا - مَعَ دلالةِ الكلامِ مِنْ خلالِ "هيئَةِ الصَّوْتِ"، و"الصَّوْتِ اللَّغَوِيّ" الَّذِي يُكَلِّفُ سِيَّاقٍ مُعَيَّنٍ هُوَ، في الحقيقةِ، بوسَعِهِ أنْ يُرْشِدَنَا إلى استشعارِ مقصودِ الكلامِ وإدراكِ المعاني الَّتِي تحيطُ بِهِ².

ويقولُ أحمد عمر حوَل ظاهرةِ "التنغيم" إنَّ طرقَ الأداءِ الَّتِي يَتَمُّ بِها نطقُ الجملةِ في كثيرٍ مِنْ لغاتِ العالمِ لَهُ أثَرٌ كَبِيرٌ في المعاني الَّتِي يُرادُّ إبلاغُها، وفي هذه الحالةِ تقومُ درجاتُ الصَّوْتِ بِدَوْرِها المُمَيِّزِ على مستوى الجملةِ أو على العبارةِ أو مجموعةِ الكلماتِ³.

ونلاحظُ أنَّ بعضَ النُّحاةِ المحدثينَ يُرجِعُونَ نظريَّةَ "السِّيَاقِ الصَّوْتِيّ" إلى علماءِ اللِّغَةِ العَرَبِ، حيثُ يقولُ عبد القادر عبد الجليل أنَّ العَرَبَ أدركوا "القرائنَ الصَّوْتِيَّةَ السِّيَاقِيَّةَ"، نَحْوَ قَوْلِ النُّحاةِ: "يجوزُ حَذْفُ همزةِ الاستفهامِ إذا فُهِمَ المعنى ودَلَّ عَلَيْهِ دليلٌ"⁴، نَحْوَ قَوْلِ عَمْرِ بْنِ أَبِي ربيعةَ:

"ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّهَا، قُلْتُ: بَهْرًا عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ"⁵

والتَّقْدِيرُ: "أُحِبُّهَا. وهذه إشارةٌ واضحةٌ - كما يُوَكِّدُ عبد الجليل - إلى "السِّيَاقِ الصَّوْتِيّ"⁶ الَّذِي يُعَدُّ جُزْءًا مِنْ سِيَّاقِ التَّرْكِيبِ العامِّ⁷.

¹ عبد الجليل، علم الصَّوْتِ الصَّوْتِيّ، 155.

² Dominic W. Massaro and Michael M. Cohen, "Phonological Context in Speech Perception", *Perception & Psychophysics* 34 (1983), 347-348.

³ أحمد مختار عمر، دراسة الصَّوْتِ اللَّغَوِيّ (القاهرة: عالم الكتب، 1976)، 192.

⁴ المبرد، المقتضب، 3: 294؛ ابن يعيش، شرح المِفْصَل، 1: 267.

⁵ سيبويه، الكتاب 1: 311؛ الرَّجَاجِي، اللَّامَات، 124؛ ابن جَنِّي، الخصائص، 2: 281؛ السِّيرَافِي، شرح أبيات سيبويه، 1: 267؛ ابن يعيش، شرح المِفْصَل، 1: 121؛ ابن هشام، مغني اللِّبِيب، 1: 76.

⁶ تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ ظواهرَ لِسَانِيَّةً أُخْرَى تدخلُ في هذا المجال، كالحذفِ الحرفيِّ، نحو الفرقِ في قولهِ تعالى: {لَمْ أَكُنْ} وَبَيَّنَّ "لَمْ أَكُنْ"، تناسُبًا مَعَ سِيَّاقِ الآياتِ.

⁷ عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، 217.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن جني في قوله: "... وذلك أن تكون في مدح إنسانٍ والثناءِ عليه، فتقول: "كَانَ وَاللَّهِ رَجُلًا!"، فتزید فی قوَّة اللَّفْظِ بـ"اللَّهِ" هذه الكلمة، ولتَمَكِّنَ في تمطيط اللَّامِ، وإطالةِ الصَّوْتِ بها وعليها، أي: رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً، أو كريماً، أو نحو ذلك. وكذلك نقول: "سَأَلْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ إِنْسَانًا!" وتُكَمِّنُ الصَّوْتِ بِإِنْسَانٍ وتَفْخِمْهُ، فتستغني بذلك عَنْ وَصْفِهِ بقولك: إِنْسَانًا سَمَحًا، أو جَوَادًا، أو نُحْوُ ذلك. وكذلك إذا دَمَمْتُهُ وَوَصَفْتُهُ بالضَّيْقِ، قُلْتَ: "سَأَلْنَاهُ وَكَانَ إِنْسَانًا!" وتزوي وَجْهَكَ وتُقَطِّبُهُ، فيعني ذلك عَنْ قَوْلِكَ: إِنْسَانًا لَيْمًا...¹. كما نَحْدُ- أَيْضًا، والأمثلة كثيرة جدًا- أنَّ عبدَ القاهرِ الجرجانيَّ كَانَ قَدْ أَشَارَ إِلَى طَبِيعَةِ هَذَا النَّوعِ مِنَ السِّيَاقِ بِقَوْلِهِ: "... وَالْأَلْفَاظُ لَا تَتَفَاضَلُ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَلْفَاظٌ مُجَرَّدَةٌ، وَلَا مِنْ حَيْثُ هِيَ كَلِمٌ مُفْرَدَةٌ... وَإِنَّ الْأَلْفَاظَ تَثْبُتُ لَهَا الْفَضِيلَةُ وَخِلَافُهَا فِي مُلَاءَمَةٍ مَعْنَى اللَّفْظَةِ لِمَعْنَى الَّتِي تَلِيهَا"².

2. 5. 2. السِّيَاقُ الصَّرْفِيُّ:

نَعْنِي بِ"السِّيَاقِ الصَّرْفِيِّ" Morphological Context ذلك "السِّيَاقُ" الَّذِي يَعْزِضُ لِدِرَاسَةِ الْوَحْدَاتِ اللَّغَوِيَّةِ، لَا بِوَصْفِهَا صِيغًا صَرْفِيَّةً أَوْ أَلْفَاظًا مَبْتَوْرَةً عَنِ الْجُمْلَةِ، وَإِنَّمَا بِحَسَبِ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ خَوَاصِّ وَقِيَمٍ وَإِشَارَاتٍ- صَرْفِيَّةٍ عَلَى مَسْتَوَى شَكْلِ الْكَلِمَاتِ- تَفِيدُ فِي خِدْمَةِ الْجُمْلَةِ أَوْ الْعِبَارَةِ، وَتُسَاعِدُ عَلَى إِثْرَاءِ مَحْتَوَى الدَّلَالَةِ دَاخِلِ التَّرَاكِبِ اللَّغَوِيَّةِ³. فَالْوَحْدَاتُ الصَّرْفِيَّةُ أَوْ "المورفيمات Morphemes- كما يُبَيِّنُ عبدُ الجليل- سواءً كَانَتْ حُرَّةً، أَوْ مَقْبُودَةً، أَوْ مُحَايَدَةً لَا مَعْنَى لَهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ ضِمْنَ سِيَاقٍ تَرْكِيبِيٍّ مَعَيَّنٍ⁴، نُحْوُ أَحْرَفِ الْمُضَارَعَةِ وَسَوَاهَا، حَيْثُ تُمَارَسُ وَظِيفَتُهَا دَاخِلَ الْجُمْلَةِ⁵.

¹ ابن جني، الخصائص، 2: 373.

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، 38.

³ عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، 156.

⁴ عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، 218؛ علم اللسانيات الحديثة، 547.

⁵ عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة: نظم التحكم وقواعد البيانات (عمان: دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2002)، 547.

ويرى تمام حسان أنَّ المبنى الصَّرْفِيَّ الواحد هو في حقيقة الأمر متعدّد المعنى، ومُحتَمِلٌ كلٌّ معنًى ممّا نُسب إليه، وهو، كلفظةٍ مجرّدةٍ، يُعدُّ خارجَ السياقِ إلّا إذا تحقّق المعنى بعلاقةٍ ما في سياقٍ ما، وهذا المعنى - أو تلك المعاني - إنّما تُحدّدُها القرائن اللّفظيّةُ والمعنويّةُ¹.

ويدرس "السياق الصَّرْفِيُّ" مستوياتٍ صرفيّةً عديدةً، منها القرائن الصَّرْفِيّةُ، واللّواحقُ، والسّوابقُ، والزّوائدُ التي تتّصلُ بالصّيغِ المختلفةِ، فمورفيمُ الطَّلَبِ - مثلاً - تدلُّ عليه صيغُهُ "اسْتَفْعَل"²، ومورفيمُ التّكسيرِ تدلُّ عليه صيغُ التّكسيرِ، ومورفيمُ التّعديّ تدلُّ عليه صيغُهُما "أَفْعَل" و"فَعَلَ"³؛ مِنْ هنا يذهبُ تمام حسان إلى أنَّ كلَّ صيغةٍ لها معنًى وظيفيٌّ خاصٌّ هو المورفيمُ، كالمشاركة في صيغة "فَاعَلَ"⁴، فالمورفيمُ عنده هو اصطلاحٌ تركيبِيٌّ بنائيٌّ، لا يُعالجُ علاجاً ذهنياً غيّرَ شكليٍّ، فهو "ليْسَ عنصراً صرفيّاً"، ولكنّه وحدةٌ صرفيّةٌ في نظامٍ مِنَ المورفيماتِ المتكاملةِ، فالعلامةُ هي العنصرُ الذي يُعبّرُ عَنِ المورفيمِ تعبيراً شكليّاً، وهي توجدُ في النّطْقِ، وهي إمّا أن تكونَ عنصراً أبجديّاً أو فوقَ الأبجديّ، بمعنى أنّها تكونُ في شكلها كميّةً، أو نبراً، أو تنغيماً، ويُعبّرُ عنها إمّا إيجابياً بوجودها، وإمّا سلبياً بعدم وجودها⁵.

¹ تمام حسان، اللغة العربيّة مبناها ومعناها، 165.

² فاضل صالح السّامرائي، معاني الأبنية في العربيّة (عمّان: دار عمار للنشر والتّوزيع، 2007)، 142-143.

³ عبد الجليل، علم الصّرف الصّوتيّ، 156.

⁴ تمام حسان، مناهج البحث في اللغة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1990)، 174.

⁵ ن. م، 172-173.

3. 5. 2. السياق اللغوي:

"السياق اللغوي"¹ Linguistic Context² هو بناء نصي متكامل من فقرات مترابطة في علاقته بأي جزء من أجزائه التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة³، حيث يعني "السياق اللغوي" مجموعة من الكلمات وثيقة الترابط، فيُلقي الضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب، إنما على معنى النص وغايته بأكمله⁴. ويُعرف فان ديك⁵ Van Dijk "السياق اللغوي" على أنه حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاوزة وكلمات أخرى؛ مما يُكسبها معنى خاصاً محدداً، وهو يقوم بعملية توضيحية للعلاقات الدلالية والتحويلية عندما يُستخدَم مقياساً للأنماط اللغوية المختلفة وأنواعها⁶.

ويرى كل من عبد القادر عبد الجليل وأحمد قدور أن "السياق اللغوي" هو كل ما يتعلق بالإطار الداخلي وما يحتويه من قرائن تساعد على كشف دلالة الوحدة اللغوية الوظيفية، وهي تسبح في نطاق التركيب⁷؛ ذلك لأن المعنى الذي يُقدِّمه "السياق"، لا سيَّما اللغوي، هو معنى معين له حدود واضحة، وسمات محددة غير قابلة للتعدد؛ من هنا وجب الاستعانة والعودة إلى نظام اللغة بأكمله (الصوتي، الصوري، التحويلي، التركيبي، المعجمي، الدلالي)⁸.

وقد أشار أحمد مختار عمر أن المقصود بـ "السياق اللغوي" هو دراسة النص القرآني من خلال علاقات ألفاظه بعضها ببعض، والأدوات المستعملة للربط بين هذه الألفاظ، وما يترتب على تلك العلائق من دلالات جزئية وكلية؛ وكتيجة إلى ذلك، ينبغي من تسجيل كامل بين هذه الأنواع في دراسة النص القرآني، منها ما يتعلق

¹ أدرجت هذا النوع من ضمن أنواع السياق- على الرغم من تقاطعه بأنواع سياقية أخرى كالسياق التحويلي والسياق الدلالي- وذلك لشهرة المصطلح عند اللغويين المحدثين خاصة، ولأنَّ يُعَبَّرُ عَنْ ترجمة مشهورة في الغرب وقد نُقِلَتْ إلى الدراسات العربية دون تصنيف وترشيح. من هنا، أظن أن "السياق اللغوي" يُمَثِّلُ سياق المستويات اللغوية المتداولة عند اللسانيين الغربيين تحديداً، كالمستوى الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي.

² هناك من يُطَلِّقون عليه verbal Context. انظر فيما أشرت إليه سابقاً حول نظرية السياق عند فيرث Firth.

³ بالمر، علم الدلالة، 69؛ 141.

⁴ Palmer, *Semantics*, 92-93.

⁵ اقترح فان ديك تقسيم "السياق" إلى خمسة مستويات، وهي: 1- السياق التداولي (النص كفعل كلامي). 2- السياق الإدراكي أو المعرفي. 3- السياق النفسي الاجتماعي. 4- السياق الاجتماعي (النص في التفاعل). 5- السياق الثقافي (النص كظاهرة ثقافية). انظر: فان ديك، النص بنياته ووظائفه، 66-72؛ علي أوشان، السياق والنص الشعري، 82-85؛ منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، 172؛ صلاح فضل، بلاغة الخطاب، 246.

⁶ أحمد قدور، مبادئ اللسانيات (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1996)، 295.

⁷ عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، 542.

⁸ أحمد قدور، مبادئ اللسانيات، 295.

بالعوامل المحيطة بالنص كأسباب النزول، والحوادث التاريخية، ومنها ما يجعل النص بنية لغوية هي مجال الدراسة والتحليل¹.

ولعل الحديث عن "السياق اللغوي" يفضي بالضرورة إلى الحديث عن "السياق النحوي"، وبناءً عليه، بوسعنا أن نعرف "السياق النحوي" على أنه تلك الشبكة من العلاقات القواعدية (اللغوية) التي تحكم بناء الوحدات اللغوية داخل النص، وغنيها تقوم كل علاقة بمهمة وظيفية تساعد على بيان الدلالة النحوية، من خلال القرائن النحوية المختلفة، كالإعراب².

فالإعراب - مثلاً - يُعدُّ قرينةً سياقيةً تتعاون وتنازُر مع غيرها من القرائن والسيقات في رسم شبكة البيانات الدلالية؛ لهذا فقد عدَّ بعض النحاة القدماء أصلاً، وأساساً لبيان الدلالة النحوية، وأنه كلُّ النحو بقولهم "إنَّ النحو هو الإعراب"، بمعنى أنه القرينة السياقية الكبرى، وبواسطته - كما بيَّن النحاة - ينكشف المعنى، وتتميز معاني التراكيب والجمل، وتظهر أغراض المتكلمين³.

وهذا ما بيَّنه تمام حسان لدى عرضه لنظرية "السياق" عند فيرث مؤكِّداً أنَّ المعنى لا ينكشف إلا من خلال وضع الوحدة اللغوية في سياقات مختلفة؛ لأنَّ معظم الوحدات الدلالية إنما تقع في مجاورة وحدات أخرى، وأنَّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحريها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها⁴. وبالتالي، فإنَّ "السياق اللغوي" لا ينظر إلى الكلمات التي تُصاغ منها الجملة كوحدات منعزلة، بل إنَّ الكلمة يتحدَّد معناها النحوي بعلاقتها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية⁵.

ويذهب مصطفى النحاس إلى أنَّ "السياق اللغوي" هو الإطار الداخلي للغة، ونقصه به ذلك النص الذي تُذكر فيه الكلمة، وما يشتمل عليها من عناصر لغوية مختلفة تُفيد في الكشف عن المعنى الوظيفي لهذه الكلمة. والمقصود هنا بالإطار الداخلي هو البنية اللغوية على مختلف مستوياتها من صوت وصرف وتركيب ودلالة

¹ أحمد مختار عمر، علم الدلالة، 84.

² عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، 218.

³ عبد الجليل، الأسلوبية، 218.

⁴ تمام حسان، الأصول، 68-69.

⁵ ن. م، 250.

وخطاً¹؛ ف"النص" هنا- كما يقول محمد عبد اللطيف- يعتمد على مجموعة من العناصر الداخلية التي تتمثل في ذكر جملة سابقة أو لاحقة. ففي الجملة ذاتها يتحول مدلول عنصر آخر إلى دلالة نحوية أخرى غير المعهودة، كما- مثلاً- في قوله تعالى: {أتأمر الله فلا تستعجلوه...}²، إذ تُعدُّ جملة "فلا تستعجلوه" قرينة لغوية سياقية صرّفت الفعل الماضي "أتأمر" عن الدلالة على الزمن الماضي إلى إرادة الدلالة على المستقبل؛ وقد صُرف الفعل عن دلالته بصرف الفاعل "أمر الله"، بل إنَّ هذا الانتقال من الماضي إلى المستقبل بوساطة الفاعل هو الذي حدّد الدلالة النحوية للجملة؛ لأنَّ العناصر المكوّنة للجملة لن تبقى دون تغيير إذا صُرف عنصر منها عن دلالته الأولى بقرينة ما³.

4. 5. 2. السياق العاطفي:

يرتبط "السياق العاطفي" Emotional Context- كما يؤكّد تحسين الوزان - بدرجة الانفعال⁴، وهو الذي يُحدّد طبيعة استعمال الكلمات بين دلالتيها الموضوعية التي تُفيد العموم، ودلالاتها العاطفية التي تُفيد الخصوص، فيحدّد درجة القوة والضعف في الانفعال، ممّا يُقتضي تأكيداً أو مبالغة أو اعتدالاً، لتكوّن طريقة الأداء الصوتية كافية لشحن المفردات بكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية⁵. فيُعَبِّب محمود السّعران بأننا إذا قلنا إنَّ التأثير له ارتباط بالمتكلم فإنَّ ذلك يعني أنَّ هذا المضمون أو الارتباط النفسي يختلف بطبيعة الأمر من متكلم إلى آخر⁶.

ولعلنا نُشير هنا إلى أنَّ أصحاب هذا المذهب هم "السلوكيون" Behaviorism، حيثُ يعدّون اللغة سلوكاً اجتماعياً يقتضي مثيراً واستجابةً على هذا المثير؛ وبالتالي، فهو يُركّز على الجوانب النفسية والمادية، وكثيراً ما ينفر من التنظيم المعجمي؛ إذ إنَّ الألفاظ لا قيمة لها خارج الاستعمال والتداول، وبلومفيلد Leonard

¹ مصطفى النّحاس، من قضايا اللغة (الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، 1995)، 167.

² القرآن الكريم: النحل، 1.

³ محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، 117.

⁴ تحسين عبد الرضا الوزان، الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث (عمان: دار دجلة، 2011)،

424.

⁵ أحمد مختار عمر، علم الدلالة، 70.

⁶ محمود السّعران، علم اللغة، 302.

Bloomfield [1887-1949م] هو أَوَّلُ القائلين بهذه النظرية، فيرى من خلالها أنَّ فحوى أيِّ إشارة لغويّة ما، لا يستطيع أن يكون ثابتاً متكوّناً إلّا في عِلْمِ النَّفْسِ ودراسته¹، وَوَقْفًا إلى هذا، فإنَّ "السلوكيين" يهتمون بدراسة الموقع الذي حَلَّت فيه الكلمة وردود الفعل السلوكيّة؛ ومن ثَمَّ، فإنَّنا نستعينُ بجزئيات "السياق"، التي تدور وَفَق هذه المدرسة في فلكِ النَّفْسِ وانفعالاتها، وتفصيلات الحدث الإيصاليِّ وعناصره بَيْنَ مرسلٍ، ومتلقٍ، وأحوال الرسالة (الكلام)².

ويتحدّث بلومفيلد Bloomfield عَنْ تلك الصّعوبات التي قَدْ تواجَها في تحديد المعنى جرّاء اختلاف وجهات النّظر وتباينها، فألوان الطّيف - مثلاً - يُعرّفها علماء الطّبيعة تعريفاً يُخالفُ التعريف المألوف الذي دَرَجَتْ عَلَيْهِ اللّغة العاديّة التي ترى في الطّيف ألواناً متعدّدة، كالأحمر والأخضر والأصفر، ومن هذه الصّعوبات تَعُدُّدُ المواقف التي تُستخدَم فيها الكلمة المراد معناها، ومن ثَمَّ نَحْدُ الصّعوبة الخاصّة بمزاج المتكلّم وحالته النفسيّة والثّقافيّة؛ لأنَّ استخدام الكلمات في غَيْرِ المواقف التي اعتادَ عليها النَّاسُ يحتاجُ إلى فَهْم "السياق" الذي وُضِع فيه³، وإلى إدراك الحثثات المحيطة بهذا الكلمات أو التّراكيب.

إنَّ "المعنى السياقيّ" عِنْدَ السلوكيين إمّا يتكوّن من الجوانب اللّغويّة التي تتعلّق بها الكلام، فلا يمكن أن نتجاهلَ شخصيّة المتكلّم، وشخصيّة السّامع، وهو ما يُطلَقُ عليه - كما يقولُ محمود السّعران - "العناصر الاجتماعيّة"⁴، حيثُ إنَّ لِكُلِّ كلمةٍ جَوْاً عاطفياً يُحيطُ بها، وينفُذُ منها، فيمنَحُها ألواناً مُؤقَّتةً على حسب استعمالها، وعليه فإنَّ كلَّ كلمةٍ تُذكرُ يكونُ صداها لدى المتلقّي تابعاً لحالته النفسيّة⁵.

ويضربُ أحمد مختار عمر مثلاً حوْلَ مفهوم "السياق العاطفيّ" عَبْرَ كلمتي "يكره" و"يُبغض"، فعلى الرّغم من اشتراكهما في أصل المعنى إلّا أنَّ المتكلّم وحالته النفسيّة هما اللّذان يمكنُ أن يُسيطرَا عليه حينَ النّطق بأحدهما؛ إذ لهما أجواء نفسيّة تتحكّم بمقاصد النّطق بإحدهما⁶.

¹ فايز الدّاية، علم الدّلالة العربيّ- النظريّة والتّطبيق (دمشق: دار الفكر، 1996)، 219.

² الدّاية، علم الدّلالة العربيّ- النظريّة والتّطبيق، 219.

³ Bloomfield, *Language*, 139-140.

⁴ السّعران، علم اللّغة، 309.

⁵ نور الهدى لوشن، علم الدّلالة دراسةً وتطبيقاً (بنغازي- ليبيا: منشورات جامعة قار يونس، 1995)، 99.

⁶ عمر، علم الدّلالة، 71.

ويُخصُّ أولمان Ullmann "السياق العاطفي"، بما درج عليه - تحديداً - السلوكيون من خلال منظومة المعنى، قائلاً إنهم ربطوا بين المعنى والسلوك الإنساني، إذ الكلام عندهم لا يعدُّو أنَّ يكون مجموعة من المثيرات والاستجابات المباشرة وغير المباشرة، وعلى هذا الأساس فإنَّ معنى أيِّ لفظ هو ما يُثيره هذا اللفظ من استجابة عند السامع¹، والأمر ينسحب كذلك على الجمل والتراكيب اللغوية.

5. 5. 2. السياق الثقافي:

يَنجَلِي "السياق الثقافي"² Cultural Context بطرائق انتماء أصناف النَّاسِ إلى الثقافات المختلفة، والتَّخصُّصاتِ المختلفة، واستناداً إلى هذا "التقسيم السياقي" تكونُ الكلمةُ أو الجملةُ، أو العبارةُ واحدةً بلفظها، ولكنَّ معانيها تتعدَّدُ وتختلفُ حسبَ المحيطِ والبيئة التي يُتداولُ فيها هذه الكلمةُ أو تلك، وهذا التَّركيبُ أو ذاك³. وينطلقُ "السياق الثقافي" من تحديدِ المحيطِ الثقافيِّ أو الاجتماعيِّ الذي يمكنُ أن تُستخدَمَ فيه الكلمةُ أو التَّركيبُ⁴؛ وذلك من خلالِ تداولِ التراكيبِ اللغوية - بكلِّ مكوِّناتها - في ذلك المحيطِ بالمعنى الذي عرَّفها وتعارفَ عليها، الأمر الذي ينبغي أن يتطابق فيه المحيط الثقافي والطبقة الاجتماعية في الاستعمال الكلامي - اللغوي للألفاظ والكلمات والجمل والعبارات... إلخ⁵.

ومن هنا يؤكِّد أحمد عمر أنَّ تفسيرَ كلمةٍ ما هو في حدِّ ذاته يختلفُ تبعاً لاختلافِ الطبقات، حيثُ لو وُضعتِ الكلمةُ في سياقها الملائم لطبقة اجتماعية ما لكانَ مفهومها واضحاً؛ وذلك لأنَّ "السياق" تتخلَّلهُ القرائن⁶.

¹ أولمان، دور الكلمة في اللغة، 64.

² هناك من يُسمِّيهِ Culture of Context.

³ نور الهدى لوشن، علم الدلالة دراسةً وتطبيقاً، 100-99.

⁴ عمر، علم الدلالة، 71.

⁵ تحسين الوزان، الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، 439.

⁶ عمر، علم الدلالة، 71.

ومن اللافت أنَّ نُشيرَ هنا، يُؤكِّدُ إدوارد ساپير Edward Sapir [1884-1939م] أنَّه ليسَ بالإمكانِ فصلُ اللُّغةِ عنِ ثقافةِ البيئَةِ الَّتِي تتحدَّثُ فيها، فكلمةُ "ثقافة" بمعناها الشَّامِلِ تدلُّ على مجموعةِ التَّصوُّراتِ والتَّمثُّلاتِ الَّتِي تُؤلِّفُ النَّظَرَةَ الَّتِي يكوِّنها مجتمعٌ ما عنِ العالمِ المحيطِ بهِ، ولهذا فإنَّ اللُّغةَ هي جزءٌ أساسيٌّ منِ هذه الثقافة، بل هي إحدى مكوِّناتها الأساسية¹.

يبيدُ أنَّ هذا الطَّرحَ أخذتْ بُعْدًا مكثًّا آخرَ حينما شرَّحَ بنيامين وورف Benjamin Whorf [1897-1941] نظريَّةَ ساپير Sapir، حيثُ ذهبَ وورف Whorf إلى أنَّنا- في الحقيقة- لَسْنَا على عِلْمٍ بخلفيَّةِ لغتنا، مثلما أنَّنا لا نكوْنُ على عِلْمٍ بوجودِ الهواءِ إلى أنَّ نشعرَ بالاختناقِ، وبالتالي، فإنَّنا لو نَظَرْنَا إلى لغتنا لأدركنا أنَّ اللُّغةَ لا تُعَبِّرُ عنِ أفكارنا فَحَسْبُ، إِنَّمَا تُجَسِّدُ الأفكارَ، ونحنُ بدورنا نُحلِّلُ الطَّبيعةَ عَبْرَ خطوطِ تَرسُّمِها لغتنا الأصليَّة².

ومن الجديرِ أنَّ نُشيرَ هنا إلى أنَّ "السِّيَاقَ" الثقافيَّ هو رَكِيزَةٌ أساسيَّةٌ في عمليةِ التَّرجمةِ خاصَّةً، إذ لا يمكنُ الاستغناءُ عنه، بل ينبغي على المترجمِ أن يأخذَ بعينِ الاعتبارِ "السِّيَاقَ الثقافيَّ" للنَّصِّ المترجمِ؛ حتَّى تكونَ التَّرجمةُ صحيحةً ومحاكيَّةً لِلُّغةِ الأَصْلِ؛ لأنَّ التَّرجمةَ- في حقيقتها- علمٌ دقيقٌ يحتاجُ إلى احتواءِ كلِّ المؤثِّراتِ النَّاتِجةِ والمتولِّدةِ عنِ ثقافةٍ مجتمعٍ ما، أو حضارةٍ ما؛ فإذا اعتمدَ المُترجمُ التَّرجمةَ الحرفيَّةَ في اللُّغةِ فإنَّه بعمله هذا لا يصلُ إلى المعنى المنشودِ إلَّا بالاعتمادِ والرَّجوعِ إلى "السِّيَاقِ الثقافيِّ"³.

6. 5. 2. السِّيَاق الاجتماعي:

يَهْتَمُّ "السِّيَاقُ الاجتماعيُّ" Social Context بالعلاقاتِ القائمةِ بَيْنَ مجتمعٍ ما واستعمالِ اللُّغةِ فيه، وينعكسُ ذلكُ خلالَ تفاعلِ النَّصِّ، حيثُ إنَّ "المواقفَ الاجتماعيَّةَ"⁴ Social Situations هي الَّتِي تُنتِجُ فيها

¹ ميشال زكريا، الألسنيَّة: المبادئ والأعلام (بيروت: المؤسسة الجامعيَّة للدراسات والنَّشر والتَّوزيع، 1983)، 220.

² بالمر، علم الدلالة، 86.

³ عبد الفَّتاح أحمد يوسف، قراءة النَّصِّ وسؤال الثقافة (عمَّان: عالم الكتب الحديث للنَّشر، 1999)، 31.

⁴ Harriet Luria & Deborah M. Seymour & Trudy Smoke, *Language and Linguistics in Context: Readings and Applications for Teachers* (New Jersey: Lawrence Relbaum Associates Publishers, 2006), 133-134.

النصوص التي تتأثر بخصائص ذات طابع أعم، فهي سياقات ومقامات خاضعة لمعايير معينة، وتتركز باستمرار، إذ إن ثمة "مقامات" ذات طبيعة عامة أو خاصة تُمنح فيها المفردة أو التركيب "قيمة سياقية" عبر الفعل الكلامي¹ Speech Act؛ ذلك لأن "النص" كفعل كلامي لا يُحدده "المقام الاجتماعي" فقط، بل إن "المقام الاجتماعي" نفسه تُحدده كيميته استعمال اللغة²، ووفقاً إلى هذا، فإن دراسة "اللغة" خلال منحنى استخدامها في مجتمع ما يُسهم في فهم سياق الكلام والعوامل التي ترتبط بالنص من ناحية اجتماعية³. وكل هذا من شأنه أن نُدرِك تلك العوامل المختلفة والمتشعبة التي تُؤدّي دوراً مسانداً في فهم "النص" عبر ما وصفه فان ديك Van Dijk بالإيجاءات الاجتماعية⁴.

ويرى محمد أبو الفرج أن "السياق الاجتماعي" هو "سياق الحال" Context of Situation الذي أشار إليه فيرث Firth، وبناءً عليه، فإن "السياق الاجتماعي" مُتعمّم للمعنى لا يمكن الاستغناء عنه في تفسير اللغة، ف"سياق الحال" كاصطلاح فيّ يُعنى بدراسة الكلام واللغة في المحيط الذي يقع فيه⁵. فاللغة - من هذا المنظور - مرتبطة بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً؛ حتى إن علماء اللغة المحدثين أجمعوا - بل بات أمراً بديهياً - على أن اللغة نشاط اجتماعي للإنسان⁶، وليست مجرد تعبير عن الفكر كما كانت تُعرف قديماً - على حدّ قول أبو الفرج - فالإنسان غير مفصول عن العالم الذي يعيش فيه، إنّه - كما يقول فيرث - ليس إلا جزءاً منه، فالكلام ليس مجرد تحريك اللسان، بل هو أكثر من ذلك، فإننا لا نفتح آذاننا؛ لكي نلتقط بعض الأصوات، ولكن آذاننا مُهتمة بما يجري حولنا؛ لهذا فإننا لا نعيش على وجه الحقيقة في الحاضر، إنما نحن نستمر في الماضي في أيّ موقفٍ نجد فيه أنفسنا⁷.

¹ سنتحدث عن نظرية "الأفعال الكلامية" لاحقاً. انظر: "منحنى التداولية وتفاعلات السياق".

² أوشان، السياق والنص الشعري: من البنية إلى القراءة، 87.

³ Janet Holmes, *An Introduction to Sociolinguistics* (London: Longman, 2001), 5-6.

⁴ فان ديك، النص بنياته ووظائفه: مدخل أولي إلى علم النص، 72.

⁵ محمد أحمد أبو الفرج، المعاجم العربية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، 121.

⁶ مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997)، 69.

⁷ John Rupert Firth, *The Tongues of Men and Speech* (London: Oxford University Press, 1966), 20-22.

ومن اللَّافِتِ في هذا الصَّدَدِ ما شَرَعَ بِهِ الباحثُ مُحَمَّدُ أَبُو الفرج - وهو تلميذُ دَرَسَ على يَدِ فيرث - فَقَدْ راحَ يُنَمِّقُ مفهومَ "السِّيَاقِ الاجتماعيِّ" في "لسانِ العربِ" لابنِ منظورٍ على أَنَّهُ يُمَثِّلُ جانبَ "السِّيَاقِ الاجتماعيِّ" لِلُّغَةِ، فيؤَكِّدُ أَنَّ ابنَ منظورٍ في "لسانِ العربِ" على وَجْهِ الخُصُوصِ كانَ يُكثِّرُ مِنَ الحديثِ عَنِ المعنى الاجتماعيِّ للكلمةِ؛ وذلكَ بِأَن يُورِدَ تفصيلاً في المحيطِ الَّذي تُقالُ فيه، وَمِنْ ذلكَ مادَّةُ "نكح" ¹، فيقولُ ابنُ منظورٍ: "وَأَنْكَحَهُ الْمَرْأَةُ: زَوَّجَهُ إِيَّاهَا. وَأَنْكَحَهَا زَوْجَهَا. وَالاسْمُ النَّكْحُ وَالنَّكْحُ، وَكَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَأْتِي الْحَيَّ خَاطِبًا؛ فيقومُ في نادِيهِمْ، فيقولُ: خَطْبُ، أَيُّ جِئْتُ خَاطِبًا، فيُقالُ لَهُ: نَكْحُ: أَيُّ أَنْكَحْنَاكَ إِيَّاهَا، ويُقالُ نُكْحُ إِلَّا أَنَّ نَكْحًا هُنَا؛ لِيُوازِنَ خَطْبًا..."².

إذن، فإنَّ جذورَ اللُّغة - كما يؤكِّدُ يحيى أحمد - تمتدُّ إلى البنى الاجتماعيَّةِ بكافَّةِ أشكالِها، فلا يمكنُ فَصْلُ اللُّغةِ عَنِ الثَّقَافَةِ والتَّراثِ والعاداتِ والتَّقاليدِ؛ ذلكَ لأنَّ الطَّوَاهِرَ الاجتماعيَّةَ الَّتِي يربطُ بها الفردُ بحكم انتمائه إلى مجتمعٍ ما تُفرضُ عليه سلوكًا لغويًّا معيَّنًا، ويظهرُ ذلكَ بوضوحٍ في أساليبِ التَّخاطُبِ الَّتِي "يُنْتَقِيها" الفردُ في المواقِفِ المختلفةِ؛ فالتَّحدُّثُ إلى رئيسِ الدَّولةِ، وإلى زميلٍ في العملِ، وإلى عاملٍ بسيطٍ في دائرةِ العملِ، لا يَتَّخِذُ مجرَّدَ أشكالٍ لغويَّةٍ مختلفةٍ، وإنَّما نَحْدُ الأشكالَ اللُّغويَّةَ مستمدَّةً مِنَ الأعرافِ الاجتماعيَّةِ ³. وَمِنْ ثَمَّ، فإنَّ البنيةَ الاجتماعيَّةَ تنعكسُ في التَّراكيبِ اللُّغويَّةِ الَّتِي نستعملُها، كاللِّكْنَةِ الَّتِي يتحدَّثُ بها الشَّخْصُ؛ فهي تعكسُ مظهرًا اجتماعيًّا، بل نستطيعُ مِنْ خلالها أَنْ نُقرِّرَ مباشرةً أَنَّ هذا الشَّخْصَ ينتمي إلى شريحةٍ اجتماعيَّةٍ معيَّنة، وكالتَّغْيِمِ؛ إذ بإمكاننا أَنْ نتعرَّفَ على الفئةِ الاجتماعيَّةِ الَّتِي ينتمي إليها الشَّخْصُ خلالَ طريقةِ تَحَدُّثِهِ ⁴.

¹ مُحَمَّدُ أَبُو الفرج، المعاجم العربيَّة في ضوءِ دراساتِ علمِ اللُّغة الحديث، 122.

² ابنُ منظور، لسانِ العرب، 2: 626.

³ أحمد، "الاتِّجاه الوظيفيُّ ودوره في تحليل اللُّغة"، 72.

⁴ ن. م، 72.

7. 5. 2. السّياق الصّغير والسّياق الكبير:

يتحدّث الأسلوبيون تحديداً عن نوعين من السّياق، وهما: "السّياق الصّغير" Micro Context و"السّياق الصّغير" Macro Context أمّا "السّياق الصّغير" فيقصدون به الجوار المباشر لللفظ قبله أو بعده¹، ويُعنى بدراسة الكيفيات التي تتفاعل بها الكلمات، فيُبرّر بعضها بعضاً، ويؤثّر بعضها في بعض².

وأما "السّياق الكبير" فهو الدّائرة الأوسع من الجوار المباشر لللفظ؛ كالجملّة أو الفقرة أو الخطاب، وقد يتّخذ هذا المصطلح أسلوبياً دلالة خاصّة تتمثّل في جملة المعطيات التي تُحصّر القارئ أو المتلقّي وهو يتلقّى النّصّ بموجب مخزونه الثّقافي والاجتماعي³.

وتعليقاً على هذين النوعين أو "الحجمين" من السّياق - على حدّ قول ردة الله الطّلحي -، فيُفَارِهُمَا من خلال تفريقنا لـ "سياق النّص" (السّياق اللّغوي) و "سياق الموقف" (السّياق غير اللّغوي)، بمعنى أنّ "السّياق الكبير" هو سياق خاصّ بالمسافة السّطريّة الأطول مضافاً إلى السّياق الطّبيعيّ الفيزيائيّ كالأشياء والأشخاص والمكان والزّمان... إلخ، والمعارف وعلاقة المرسل بالمتلقّي، ومضافاً كذلك إلى السّياق التّاريخي والاجتماعي⁴.

ولعلّنا نلاحظ، كما يقول الطّلحي، هذا التّشابّه حين يختلط "السّياق الأكبر" بما هو تاريخي أو اجتماعي، وهو ما يذكّرنا بتسلسل السّياقات التي أشار إليها فيرث Firth، وتجعل السّياقات متدرّجة، ومنضوياً فيها الأصغر في الأكبر حتّى "سياق الثّقافة" Context of Culture.

¹ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، 175.

² الطّلحي، دلالة السّياق، 54.

³ المسدي، الأسلوبية والأسلوب، 175.

⁴ الطّلحي، دلالة السّياق، 54.

6. 2. مَنَحَى "التَّداوُلِيَّة"¹ وتفاعلات "السياق":

في الحقيقة، ليسَ للدَّرسِ "التَّداوُلِيّ المعاصرِ" مصدرٌ واحدٌ انبثقَ منه، ولكن تنوّعتْ مصادرُ استمداده²، إذ إنّ لكلِّ مفهومٍ من مفاهيمه الكبرى حقلاً معرفيًّا انبثقَ عنه³. وعلى الرَّغمِ من الخلافِ الدائرِ بينَ اللسانيّين حولَ مؤيِّسِ هذه النَّظريَّة الحقيقيّ، إلّا أنّ جون أوستن John Astin [1911-1960م] وتلميذه سيرل John Searle [1932-....م] يُعدّانِ من أوائلِ مَنْ وَضَعُوا بصماتِهم على نواة "التَّداوُلِيَّة"⁴ من خلالِ عِلْمِ فلسفةِ اللّغة⁵ و"الأفعالِ الكلاميّة"⁶ Speech Acts، ثُمَّ أَخَذَ هذا العِلْمُ بالتطوُّر؛ لِيَتَضَمَّنَ حقولاً معرفيّةً أخرى

1 هناك ترجماتٌ كثيرةٌ لمصطلح Pragmatics، وهي التَّداوُلِيَّة، والنَّزاعِيَّة، والنَّوَصَلِيَّة، والوظائفِيَّة، والتَّخاطبِيَّة، والمقامِيَّة. وعلى الرَّغمِ من هذا، فإنِّي أميلُ إلى استخدامِ مصطلح "التَّداوُلِيَّة"؛ لأنَّه الأكثرُ رواجاً في الكتابة الأكاديميّة العربيَّة، والأقربُ -برأيي- إلى التَّرجمة الصحيحة. فها هو محمود أحمد نحلة يؤكِّد ذلك بقوله إنَّ مصطلح "التَّداوُلِيَّة" هو أكثرُ التَّرجماتِ شيوعاً، وأقربُها إلى طبيعة البحث فيها؛ لما يتضمَّنُه الفعلُ "تداوُل" من دلالة التَّفاعل والواقعيَّة والممارسة والتَّعالُق، وكلُّها معانٍ يسعى هذا العِلْمُ -"التَّداوُلِيَّة"؛ لاستكشافها في نظام اللّغة واستعمالها ولعلَّ من أوائلِ مَنْ اقترحَ هذه التَّرجمة وأصلَّ لها كان طه عبد الرَّحمن الذي أكَّد أنَّ الفعلَ "تداوُل" في قولنا: "تداوُلَ النَّاسُ كذا بَيْنَهُمْ" يُعْبِدُ معنى تنقلُّه النَّاسُ وأداروهُ بَيْنَهُمْ، حَيْثُ جَعَلَهُ مرادفاً للفعلِ "دارَ" الذي من معانيه: نَقَلَ الشَّيْءَ وجريَّاهُ، نَحَوَ قولهم: "دارَ على الأُسُنَّ" أي جرى عليه. انظر: محمود أحمد نحلة، *أفاق جديدة في البحث اللُّغوي المعاصر* ([القاهرة]: مصر: دار المعرفة الجامعيَّة، 2002)، 52؛ طه عبد الرَّحمن، *تجديد المنهج في تقويم التراث* (الرباط: المركز الثقافي العربي، 1993)، 243-244؛ إدريس مقبول، *الأسس الإستمولوجيّة والتَّداوُلِيَّة للنظر النحويّ عند سيبويه* (إربد: عالم الكتب الحديث، 2007)، 262.

2 يرى مسعود صحراوي، أنّه على الرَّغمِ من الحقولِ المعرفيّة المتداخلة في مصطلح "التَّداوُلِيَّة"، إلّا أنَّ أقربَ حقْلٍ معرفيٍّ إلى "التَّداوُلِيَّة" Pragmatics -في منظوري- هو اللسانيّات Linguistics، وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّه من المشروع البحثُ في صلة هذا العِلْمِ التَّواصليّ الجديد باللسانيّات وبغير اللسانيّات من الحقولِ المعرفيّة الأخرى، إمّا لأنَّه يشاركُ معها في بعضِ الأسسِ العلميَّة، نظريَّةً كانت أو إجرائيّة. انظر: مسعود صحراوي، "في الجهاز المفاهيمي للدَّرسِ التَّداوُلِيّ المعاصر"، *التَّداوُلِيَّات علم استعمال اللّغة* (إربد: عالم الكتب الحديث، 2011)، 31.

3 تلاقحتْ عدَّة حقولٍ معرفيّة في نشأة "التَّداوُلِيَّة" وصياغة هويَّتها اللسانيَّة؛ فقد انطلقتْ من الفلسفة، نحو "أوستن Austin وسيرل Searle، وفريجه Frege، وراسل Russell، وفغنشتاين Wittgenstein، وستراوسن Strawson، وكارناب Carnap، وبار هيلل Bar-Hillel، ومن علم الاجتماع، نحو: غوفمان Goffman، ومن اللسانيّات الاجتماعيَّة والأنثولوجيّة والنَّفسية والبلاغيَّة وتحليل الخطاب، نحو: غمبرز Gaumperz، وباليو ألتو Palo Alto، وأنسكومبر Anscombe، وبيرلمان Perelman، وديكرو Ducrot، وأوركينيوني Orecchioni، وغيرهم من العلماء الذين أسهموا بحقولهم وميادينهم المعرفيّة تحديد الأطر المعرفيّة الإستمولوجيّة لما يُسمَّى بعلم "التَّداوُلِيَّة" Pragmatics. انظر: فيليب بلانشيه، *التَّداوُلِيَّة من أوستن إلى غوفمان* (اللاذقيَّة: دار الحوار للنشر والتَّوزيع، 2007)، 17-18؛ عبد السلام إسماعيلي علوي، "ما التَّداوُلِيَّات؟"، *التَّداوُلِيَّات علم استعمال اللّغة* (إربد: عالم الكتب الحديث، 2011)، 17.

4 دוד غوربيني' دود لوب، *أمنسيكولوجيا של הרעיונות: תרבות, מחשבה, תקשורת*, 994.

5 فيليب بلانشيه، *التَّداوُلِيَّة من أوستن إلى غوفمان*, 20.

6 تُنسبُ نظريَّة "الأفعالِ الكلاميّة" Speech Acts إلى جون أوستن John Austin، الَّتِي جُمِعَتْ خلالَ محاضراتِهِ الَّتِي أَلْفَاهَا في جامعة هارفرد Harvard في كتابِ سَمِّي "كيف نصنع الأشياء بالكلمات" How to Do Things with Words، ثُمَّ جاءَ تلميذه جون سيرل John Searle وطوَّرَ هذه النَّظريَّة. وانطلاقاً من مفهوم "التَّداوُلِيَّة" الَّتِي تُعْنَى بالبحثِ في علاقة العلامة اللُّغويَّة بمستعملِها؛ متجاوزةً بذلك استعمالَ اللّغة إلى الإنجاز، فإنَّ الحديثَ عن "التَّداوُلِيَّة" يُحيلُنَا مباشرةً إلى الحديثِ عن "الأفعالِ الكلاميّة" أو "أفعالِ الكلام" -كتسميةٍ ثانيَّة؛ وذلك لأنَّها تعكسُ لنا الجانبَ الماديَّ النَّطبيقيّ للأعمالِ التَّداوُلِيَّة. بناءً عليه، تُعرَّفُ "الأفعالِ الكلاميّة" على أنَّها: كلُّ ملفوظٍ ينهضُ على نظامٍ شكليّ إنجازيّ، ودلاليّ تأثيريّ، فضلاً عن ذلك فهي- الأفعالِ الكلاميّة- تُعَدُّ نشاطاً مادياً نحوياً يتوسَّلُ بأفعالٍ قوليّةٍ إلى تحقيقِ أغراضٍ إنجازيّة، كالطلب، والأمر، والوعد، والوعيد... إلخ، وإلى تحقيقِ غاياتٍ تأثيريّةٍ تخصُّ ردودَ فعلٍ المتلقّي، كالرفض والقبول. من هنا، نستطيع القول إنَّ نظريَّة "الأفعالِ الكلاميّة" تقومُ على اللّغة على أنَّها أداة أعمالٍ مختلفة في آنٍ واحدٍ، وما القولُ إلا واحدٌ منها، فعندما يتحدَّثُ المتكلِّمُ فإنَّه في الواقع يُخَيِّرُ عن شيءٍ، أو يُصرِّحُ تصرُّحاً ما، أو يأمرُ، أو يَنْهَى، أو يُلتمِسُ، أو يشكُرُ... إلخ. ووفقاً إلى هذا فإنَّ هذه النَّظريَّة تنظرُ إلى عمليَّة التَّخاطبِ على أنَّها مخاطبةٌ مرتبطةٌ بموقفٍ يُعَيَّنُ عنه، فالطلبُ -مثلاً- يُعَيَّنُ عن رغبةٍ في شيءٍ ما، والمدحُ يُعَيَّنُ عن رضا، والشكْرُ يُعَيَّنُ عن امتنان... وغيرَها من عمليَّة التَّخاطبِ. وقد قَسَمَ أوستن "الأفعالِ الكلاميّة" إلى ثلاثة أقسام: 1- القولُ اللَّفْظي: ويقصِّدُ به عمليَّةُ النُّطقِ بالجملة المفيدة الَّتِي تُتَّقَى مع قواعد اللّغة. 2- الفعلُ غَيْرُ اللَّفْظي (الفعلُ المتضمَّنُ في القول): ويرادُ به الحدثُ الَّذِي يقصِّدُهُ المتكلِّمُ بالجملة، كالأمر، أو النَّصيحة وما إلى ذلك. 3- الفعلُ المتربُّبُ (أو النَّاتِج) عن القول: وهو التأثيرُ الَّذِي يكونُ للحدثِ اللَّفْظيِّ في المتلقّي، كطاعة الأمر، أو الاقتناع بالنَّصيحة، أو تصديق المتكلِّمِ أو تكذيبه. ومن الهامِ أنْ نُشيرَ هنا إلى أنَّ نظريَّة "الأفعالِ الكلاميّة" تُعْنَى بتصنيفِ أحداثِ الكلامِ إلى أنواع، كالتمييزِ بينَ أفعالِ الكلامِ المباشرِ وغيرِ المباشرِ، والوضعيَّة والتَّخاطبيَّة، والحرفيّة وغيرِ الحرفيّة، ودراسة طرائق نجاح تلك "الأفعالِ" وإخفاقها، وتغيُّرِ معانِ الجملِ تبعاً للسياق، كتحوُّلِ الخبرِ إلى إنشَاء... إلخ. ويبيِّنُ عبد الهادي الشَّهري

لسانيتها، وعبر لسانيتها. ولكن الأساس الذي تنطلق منه التداولية Pragmatics¹ هو - كما ذكر ستيفين ليفنسون² Stephen Levinson [1947-....م] - دراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة، ثم ينتقل تأثير هذا الاختيار عن طريق التواصل والتفاعل حسب المرسل وحسب رغبة المتلقي³.

في حين، يرى شاهر الحسن أن ميلاد "التداولية" كانت على يد الفيلسوف تشارل موريس Charles Morris [1901-1979م] الذي جزء دراسته للرموز اللغوية إلى ثلاثة جوانب، وهي، أولاً: الجانب النحوي Syntax، ويعنى بعلاقة الرموز اللغوية بعضها ببعض، وثانياً: الجانب الدلالي Semantics، ويعنى بالرموز اللغوية وعلاقتها بالأشياء التي تدل عليها، وثالثاً: الجانب البراغماتي (التداولي) Pragmatics، ويعنى بعلاقة الرموز اللغوية بالمتلقي، وبالظواهر النفسية والحياتية، والاجتماعية المرافقة لاستعمال هذه الرموز وتوظيفها⁴.

أن "التلفظ" هو الذي تُحدّد المرجع الإشاري للرموز اللغوية، ويُعبّر عن المقاصد، ويُحقّق الأهداف من خلال الجحاج- مثلاً- فيُنجز بالّلغة فعلاً معيّناً؛ لينبني عليه فعل آخر، فيتنامى الخطاب Discourse. ووفقاً لهذه الوظيفة فإن "فعل اللغة" ينتج بسبب أهمية البعد التداولي وحضوره في دراسة استعمالات اللغة كإطار يمكن استخدامه لتفسير المعاني اللغوية المختلفة ووظائفها في مجالات الحياة العامة؛ انظر: صحرابي، "في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر"، *التداوليات علم استعمال اللغة* (إربد: عالم الكتب الحديث، 2011)، 29؛ محمد محمد يونس علي، *مقدمة في علمي الدلالة والخطاب* (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004)، 34-35؛ عبد الهادي الشهري، *إستراتيجيات الخطاب*، 18.

¹ يرجع أصل كلمة Pragmatics إلى الكلمة اللاتينية Pragma، التي تعني "الفعل"، وبالتالي أصبحت الكلمة بفضل اللاحقة Suffix تُطلق على كل ما هو عملي أو واقعي. ويُشير ديفيد كريستال إلى أنه قد اشتُقّت من هذا المصطلح (Pragmatics) مصطلحات إضافية تهتم بجوانب لغوية ذات علاقة بالتداولية، نحو: Applied Pragmatics، General Pragmatics، Sociopragmatics، Pragmalinguistics. انظر: نوازي سعودي أبو زيد، *في تداولية الخطاب الأدبي- المبادئ والإجراءات* (الجزائر: بيت الحكمة للنشر والتوزيع، 2009)، 18.

David Crystal, *A Dictionary of Linguistics and Phonetics*, 271.

² من الجدير أن أشير هنا إلى أن ستيفين ليفنسون Stephen Levinson كان قد اقترح تعريفات عدة للتداولية Pragmatics، أهمها: 1- ما دام التركيب دراسة للخصائص التأليفية بين الكلمات، والدلالة بحثاً في المعنى وما يعكسه من أشياء ملموسة أو مجردة، فإن "التداولية" هي دراسة لاستعمال اللغوي Language Usage الذي يقوم به أشخاص لهم معارف خاصة ووضعية اجتماعية معينة. 2- "التداولية" دراسة للمبادئ التي توّهلنا لإدراك غرابية بعض الجمل، أو عدم مقبوليتها، أو عدم ورودها في لغة المتكلم. 3- "التداولية" هي دراسة اللغة في إطارها الوظيفي، أو من وجهتها الوظيفية Functional Perspective، وبالتالي فإن هذا يعني شرح التراكيب اللغوية وفهمها بالاعتماد على علي واستدلالات غير لغوية (سياقات خارجية) Non-Linguistics. 4- "التداولية" دراسة للعلاقات بين اللغة Language والسياق Context، أو هي دراسة لكفاية مستعملي اللغة في ربطهم اللغة بسياقاتها الخاصة. 5- "التداولية" جزء من "الإنجاز" Part of Performance (بمفهوم نوع خومسكي Noam Chomsky)، وهذا ما ذهب إليه كاتز فودر Katz Fodor، حين عدّ النظرية "التداولية" أو نظرية "الانتقاء التركيبي" Theory of Setting Selection يؤمن بتعلق بدراسة الجمل الصحيحة في سياقاتها. 6- "التداولية" دراسة كل مظاهر المعنى Aspect of Meaning من غير أن نفصلها عن نظرية الدلالة Semantics Theory، إلا أن "الدلالة" Semantics محدودة في عنصر شرط الصدق في حين تتناول "التداولية" التعابير التي لا تُعَلّل بشرط الصدق (الملفوظات الإنشائية، العال المقامية والإنجازية...). 7- "التداولية" دراسة لظواهر بنية الخطاب اللغوي Linguistics Discourse من تصميمات واقتضاءات، أو ما يُسمّى بـ"الأفعال الكلامية" Speech of Acts. انظر: Stephen C. Levinson, *Pragmatics* (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), 5-35.

³ Stephen Levinson, *Pragmatics*, 25.

⁴ شاهر الحسن، *علم الدلالة السيميائية والبراغماتية في اللغة العربية* (عمان: دار الفكر للطباعة والنشر، 2001)، 157.

وَبَعْضُ النَّظَرِ عَنِ الْمُؤَسَّسِ الْحَقِيقِيِّ لِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ لَدَى عُلَمَاءِ اللُّغَةِ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ "التَّداوُلِيَّةَ" بِمَفْهُومِهَا الْحَدِيثِ¹ - تَبَلُّوْرَتْ مِنْ رَحِمِ اللِّسَانِيَّاتِ، لَا سِيَّمَا فِي تَحْلِيلِ الظَّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ، إِذْ بَدَأَتْ "المدرسة التداوليَّة" - إِنَّ حَقِّي لِي أَنَّ أُطْلِقَ عَلَيْهَا هَذِهِ التَّسْمِيَةَ - تَمْتَلِكُ أُسُسًا وَقَوَاعِدَ مِنْهَجِيَّةً فِي تَحْلِيلِ النَّصِّ بِمَا يَحْتَوِيهِ مِنْ مَنْظُومَةِ الْكَلَامِ - بِصِفَةِ خَاصَّةٍ - وَوُضَائِفِ الْأَقْوَالِ اللُّغَوِيَّةِ وَخَصَائِصِهَا خِلَالَ إِجْرَاءَاتِ التَّوَاصُلِ بِشَكْلِ عَامٍّ²، فَهِيَ - كَمَا يُشِيرُ مَسْعُودُ صَحْرَاوِي - لَيْسَتْ عِلْمًا مَحْضًا بِالْمَعْنَى التَّقْلِيدِيَّةِ يَكْتَفِي بِوَصْفِ الْبَنَى اللُّغَوِيَّةِ وَتَفْسِيرِهَا وَيَتَوَقَّفُ عِنْدَ حُدُودِهَا وَأَشْكَالِهَا الظَّاهِرَةِ، إِنَّمَا هِيَ عِلْمٌ جَدِيدٌ لِلتَّوَاصُلِ يَدْرُسُ الظَّوَاهِرَ اللُّغَوِيَّةَ فِي مَجَالِ الْاسْتِعْمَالِ³؛ وَيدْمِجُ، مِنْ ثَمَّ، مَشَارِيعَ مَعْرِفِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي دَرَاةٍ ظَاهِرَةِ التَّوَاصُلِ اللُّغَوِيِّ وَتَفْسِيرِهِ⁴.

وبهذا المفهوم، تُعَدُّ التَّداوُلِيَّةُ عِلْمَ الْاسْتِعْمَالِ اللَّسَانِيِّ ضِمْنَ "السِّيَاقِ" - كَمَا يَذْكُرُ مُحَمَّدٌ خَطَّابِي - وَهِيَ - بِتَوْسُّعٍ أَكْثَرَ - اسْتِعْمَالُ الْعِلَاقَاتِ ضِمْنَ "السِّيَاقِ"؛ مِمَّا دَفَعَتْ بِلِسَانِيَّيْنِ كَثِيرَيْنِ إِلَى إِعَادَةِ تَسْمِيَةِ التَّداوُلِيَّةِ بِ"النَّظَرِيَّةِ السِّيَاقِيَّةِ"⁵.

ويستندُ مَسْعُودُ صَحْرَاوِي - مِنْ خِلَالِ قِرَاءَتِهِ لِلتَّداوُلِيَّيْنِ - إِلَى أَنَّنا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَفْصِّلَ فِي عِلَاقَةِ "السِّيَاقِ" بـ"التَّداوُلِيَّةِ" لَوَجَدْنَا أَنَّ "السِّيَاقَ"، الْمُتَمَثِّلَ بِالْحَالِ وَالْمَقَامِ، هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِطَارِ الْمَعْرِفِيِّ فِي ظِلِّ مَجْمُوعَةِ الْمَقَارِبَاتِ الَّتِي تَشْتَرِكُ عِنْدَ مَعَالَجَتِهَا لِلْمَسَائِلِ اللُّغَوِيَّةِ فِي الْإِهْتِمَامِ بِثَلَاثَةِ مَعْطِيَّاتٍ لَهَا دَوْرٌ فَاعِلٌ فِي تَوْجِيهِ التَّبَادُلِ الْكَلَامِيِّ، وَهِيَ:

1. المتكليمون (المخاطب والمخاطب).

2. السِّيَاق (الحال والمقام).

¹ هناك مِنْ الْبَاحِثِينَ الْمَحْدِثِينَ يَرَوْنَ أَنَّ التَّداوُلِيَّةَ مِنْهَجٌ عَرَبِيٌّ أَصِيلٌ عَالِجُهُ اللُّغَوِيُّونَ الْعَرَبُ الْقَدَمَاءُ، وَبِالْثَّالِثِي فَإِنَّ الدَّرْسَ اللَّسَانِيَّ الْحَدِيثَ لَمْ يُنْصَفْ هُؤَلَاءِ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْسِيسِهِمْ لِعِلْمٍ قَدِيمٍ، يُدْعَى بِأَنَّهُ وَلِيْدُ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. انْظُرْ: مَسْعُودُ صَحْرَاوِي، التَّداوُلِيَّةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ - دَرَاةٌ تَدَاوُلِيَّةٌ لظَاهِرَةِ "الْأَفْعَالِ الْكَلَامِيَّةِ" فِي الثَّرَاثِ اللَّسَانِيِّ الْعَرَبِيِّ (بِیروت: دار الطليعة، 2005)، 5-9.

² صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، 20.

³ Joanna Turnbull and others, *Oxford Advanced Learner's Dictionary*, 1189; Michael Hoey and others, *Macmillan: English Dictionary for Advanced Learners*, 1162.

⁴ مَسْعُودُ صَحْرَاوِي، التَّداوُلِيَّةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ - دَرَاةٌ تَدَاوُلِيَّةٌ لظَاهِرَةِ "الْأَفْعَالِ الْكَلَامِيَّةِ" فِي الثَّرَاثِ اللَّسَانِيِّ الْعَرَبِيِّ (بِیروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2005)، 16.

⁵ مُحَمَّدٌ خَطَّابِي، لِسَانِيَّاتُ النَّصِّ، 298-299.

3. الاستعمالات العادية للكلام (الاستعمال العفوي والتلقائي للكلام)¹.

وبناءً على ذلك، نرى أحمد المتوكل يُعقّب في تفسيره هذه الأركان مُؤكِّداً أنَّ الجانب "التداولي" يَضُمُّ دَوْرَ المتلقّي، والمقام، وغاية النصّ، وكيفية التّواصل، والغرض منه²، حيثُ يترتّب على هذا الأمر أنَّ العبارات اللّغويّة يجبُ أن لا تعدو - كما يؤكّد مسعود صحراوي ثانيةً - كدواتٍ منعزلة، بل كأدواتٍ يستعملها المتكلّم داخل "سياق" تُحدِّده العبارات اللّسانية³.

ويجدرُ بنا - هنا - أن نطلق من حقيقة هامّة مفادها أنّه إن كان ثمة "تعريفٌ صحيحٌ للسياق" في أحدِ جوانبه، إلّا أنّه لا يُمثِّل - كما يقول عبد الهادي الشّهري - في عمومهِ إلّا التعريف الضيّق؛ فقد عُدَّ مصطلحُ "السياق" من المصطلحات الشائعة - و"السهلة الممتنعة" برأيي - التي تُؤثّر في الدرس اللّغوي الحديث؛ ليتّسع مفهومُ "السياق"، خصوصاً ضمن الدّراسات التداوليّة، بل إنَّ التداوليّة تعدُّ "السياق" من أُسسها المكيّنة الأصيلة؛ ولهذا تجاوَزَ الباحثون واللّسانيّون التعريف التّمودجيّ إلى التعريف الأوسع للسياق⁴. وعليه فإنَّ "السياق" في عُرْف التداوليّة هو "مجموعة الظروف التي تحفُّ فعل التّلفُّظ بموقف الكلام، وتُسمّى هذه الظروف في بعض الأحيان بـ "السياق" نفسه⁵.

إذن، فـ "التداوليّة" لا يمكنُ لها أن تستغني عن "السياق"؛ لأنَّ "السياق" هو ركنٌ رئيسٌ فيها، ومن هنا يُعرّف فيليب بلانشيه Philippe Blanchet [1961-....م] "التداوليّة" على أنّها دراسة اللّغة بوصفها ظاهرةً خطائيّةً وتواصليةً واجتماعيّةً في الوقت نفسه⁶، وهي - كتعريفٍ إضافيٍّ لدى بلانشيه - مجموعة من البحوث المنطقيّة اللّسانية، وتهتمُّ باستعمال اللّغة وبفضيّة التلاؤم بين التّعبير الرّمزيّة والسيّاقات المرجعيّة والمقاميّة والحديثيّة

¹ مسعود صحراوي، التداوليّة عند العلماء العرب، 16.

² أحمد المتوكل، قضايا اللّغة العربيّة في اللّسانيّات الوظيفيّة. البنية التّحتيّة أو التّمثيل الدّلاليّ التّداولي (الرّباط: دار الامان، 1995)، 19.

³ صحراوي، التداوليّة عند العلماء العرب، 16.

⁴ عبد الهادي الشّهري، إستراتيجيات الخطاب: مقارنة لغويّة تداوليّة، 40-41.

⁵ Oswald Ducrot and Tzvetan Todorov, *Encyclopedic Dictionary of the Science of Language* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1979), 333.

⁶ فيليب بلانشيه، التداوليّة من أوستن إلى غوفمان، 19.

والبشرية¹، أي إنها تُعنى بدراسة اللغة في مقام الاستعمال آخذة بالحسبان مجموع العناصر اللغوية والنفسية والاجتماعية والثقافية² وغير ذلك مما يتكوّن منه السياق الذي يُبرز العلاقة بين الخطاب وتفسيره.

كما يؤكد أوستين Austin نفسه أنّ ظروف التلقّظ (الكلام) تقوم بدور هام جداً، وأنّ الكلمات يجب أن يُفسّر قسّم وافر منها بواسطة "السياق" الذي وُضِع لها أو الذي تُطَق فيه بها في الواقع خلال التبادل اللساني³. ووفقاً لهذا يُعقّب سيرل Searle أنّه عندما أتكلّم، فأنا أحوّل إيصال بعض الأشياء إلى المخاطبين بدعوته إلى التعرف على مقصدي من توصيل تلك الأشياء بالذات، فأحصل على "الأثر المنتظر" حينما أدعوه إلى معرفة غرضي من تقديم هذا الأثر له، وما إن يتعرّف مخاطبي على ما في غرضي أن أحصل عليه؛ حتى تتحقّق النتيجة عموماً⁴. وانطلاقاً من هذا، يرى محمد يونس علي أنّ "التداولية" - في جوهرها العميق - هي دراسة كيف يكون للمقولات معانٍ في المقامات الخطابية، "المقولات" هنا هي تجلّيات فعلية وتحقّقات وتجسّدات عملية للجمل، وهي تنتمي إلى منظومة الكلام⁵ "السوسيري" (Parole).

ويطرح مسعود صحراوي على هذا المفهوم مثلاً يُبيّن طبيعة الاستدلالات "التداولية" التي تتكّى على الأعراف الاجتماعية - السياقية، وذلك نحو التّخاطب بين اثنين:

- هل تريد فنجاناً من القهوة؟

- إنها تحول بيني وبين النوم.

وتعلو على السطح ها هنا بعض التساؤلات: كيف عرّف السائل أنّ محاوره يرفض القهوة؟ وكيف عرّف المحيّب أنّ القهوة تحول بينه وبين النوم؟ وكيف تمّ الاتفاق والتواطؤ بينهما من جهة، وبين أفراد المجتمع من جهة أخرى على ذلك؟ فيُجيب مسعود صحراوي بقوله إنهما يُعالجان تلك الملفوظات باستدلالات ومعلومات مُستفّاة من معارف مُستمدّة من الواقع الخارجي، وباتفاق بين أفراد المجموعات اللغوية المتواطئة والمُتفقّة على ذلك؟⁶.

¹ بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، 18.

² دود غوربيز' دود عرب، انصايكلوفديا של העיונות: תרבות, מחשבה, תקשורת, 993.

³ John L. Austin, *How to Do Things with Words* (Oxford: Oxford University Press, 1962), 113.

⁴ John R. Searle, *Speech Acts* (Cambridge: Cambridge University Press, 1969), 83-84.

⁵ محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، 14.

⁶ صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، 29-30.

إِذَنْ، نَلْحَظُ أَنَّ "التَّداوُلِيَّةَ" - بِمَا أَتَمَّا نَشَأَتْ فِي حُضْنِ الفِلْسَفَةِ، فَهِيَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ - كَمَا يُبَيِّنُ عَبْدُ السَّلَامِ علوي- "مَحَاوِلَةً لِلْإِجَابَةِ عَنْ أَسْئَلَةٍ مِنْ قَبِيلِ: "مَاذَا نَفْعُلُ حِينَ نَتَكَلَّمُ؟ مَاذَا نَقُولُ بِالضَّبْطِ؟ وَمَاذَا نَطْلُبُ مِنْ جَارِنَا عَلَى الْمَائِدَةِ مَا إِذَا كَانَ فِي اسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يُنَاوِلَنَا الْمَلَحَ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ يَبْدُو بِإِمْكَانِهِ؟ مَنْ يَتَكَلَّمُ إِذَنْ وَلِمَنْ؟ وَلِأَجْلِ مَنْ؟ مَنْ تَنْظُنِّي أَكُونُ حَتَّى تَكَلِّمَنِي هَكَذَا؟ مَا الَّذِي يَجِبُ مَعْرِفَتُهُ لِرَفْعِ الْإِبْهَامِ؟... هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَقْتَصِرَ عَلَى الْمَعْنَى الْحَرْفِيَّةِ لِقَضِيَّةٍ مَا؟ مَا هِيَ اسْتِعْمَالَاتُ اللَّغَةِ؟ إِلَى أَيِّ حَدٍّ يَكُونُ الْوَاقِعُ الْإِنْسَانِي مُحَدَّدًا بِكَفَايَتِهِ اللَّغَوِيَّةِ؟"¹.

وَيَتَبَدَّى لَنَا خِلَالَ هَذِهِ الْأَطَارِيحِ أَنَّ "السِّيَاقَ" وَ"التَّداوُلِيَّةَ" يَلْتَقِيَانِ فِي مَفْتَرِقٍ وَاحِدٍ - إِنَّ شَيْئَنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى اللَّغَةِ كَكَائِنٍ دِينَامِيٍّ - وَبِخُصُوصٍ هَذَا الْمَفْهُومِ يُؤَكِّدُ مَسْعُودُ صَحْرَاوِي أَنَّ قَضِيَّةَ "التَّداوُلِيَّةِ" تَعْنِي إِجْبَادَ الْقَوَانِينِ الْكَلِمِيَّةِ لِلْإِسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ، وَالتَّعَرُّفَ عَلَى الْقُدْرَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلتَّوَاصُلِ اللَّغَوِيِّ، وَتَعْدُو "التَّداوُلِيَّةُ"، مِنْ ثَمَّ، جَدِيدَةً بِأَنْ تُعَرَّفَ عَلَى أَتَمَّا: "عِلْمُ اسْتِعْمَالِ اللَّغَةِ، وَقَدْ نَقُولُ فِي تَعْرِيفِهَا: بِأَتَمَّا نَسَقُ مَعْرِفَتِي اسْتِدْلَالِيَّ عَامٌّ يُعَالِجُ الْمَفْهُومَاتِ ضِمْنَ سِيَاقَاتِهَا التَّلَفُّظِيَّةِ، وَالخَطَابَاتِ ضِمْنَ أَحْوَالِهَا التَّخاطُوبِيَّةِ"².

وَتَسَاوُفًا مَعَ هَذَا الْإِتِّجَاهِ وَالتَّحْلِيلِ، يُظْهِرُ صَابِرُ الْحَبَاشَةِ أَنَّ "التَّداوُلِيَّةَ" "هِيَ عِلْمُ الْإِسْتِعْمَالِ اللَّسَانِيِّ فِي السِّيَاقِ، أَوْ بِمَعْنَى أَشْمَلٍ عِلْمُ اسْتِعْمَالِ الْعَلَامَاتِ (Signs) فِي السِّيَاقِ"³، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ كُلٌّ مِنْ جِيفْرِ لِيش وَجِنِّي توماس بِأَنَّ التَّداوُلِيَّةَ، بِشَكْلِ تَقْرِيبيٍّ، هِيَ دَرَاةُ الْمَعْنَى فِي الْأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيِبِ اللَّغَوِيَّةِ عِنْدَ مُسْتَحْدِمِهَا وَمُفَسِّرِهَا⁴. وَبِالتَّالِي، فَإِذَا كَانَ التَّحْلِيلُ التَّحْوِيَّ يُحَدِّدُ اسْتِقَامَةَ الشَّكْلِ التَّرَكِيْبِيِّ لِلجُمْلَةِ - أَوِ الْمَفْهُومِ فِي عُرْفِ التَّداوُلِيَّةِ - فَإِنَّ التَّحْلِيلَ "التَّداوُلِيَّ" يَتَدَخَّلُ عَبْرَ آليَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ بِجِهَازِهِ الْمَفَاهِيمِيِّ؛ فَيَنْظُرُ "فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ تَكْوِينِ الشَّكْلِ التَّرَكِيْبِيِّ، نَحْوَ إِزَالَةِ الْغُمُوضِ، وَإِسْنَادِ الْمَرَاجِعِ، وَإِلْغَاءِ الْكَلِمَاتِ الْمُتَبَهِّمَةِ، وَمِنْ ثَمَّ يَأْخُذُ التَّحْلِيلُ "التَّداوُلِيَّ" عَلَى عَاتِقِهِ إِعَادَةَ النَّظَرِ فِي تَأْوِيلِ الْمَفْهُومِ، عَادًا أَنَّ أَفْضَلَ شَكْلِ نَحْكُمُ فِيهِ عَلَى الْكَلَامِ الْمَفْهُومِ (التَّرَكِيْبِ

¹ عبد السلام علوي، "ما التَّداوُلِيَّاتُ؟"، التَّداوُلِيَّاتُ عِلْمُ اسْتِعْمَالِ اللَّغَةِ، 17.

² صحراوي، "في الجهاز المفاهيمي للدرس التَّداوُلِيَّ المعاصر"، 32.

³ صابر الحباشة، مغامرة المعنى من النحو إلى التَّداوُلِيَّة: قراءة في "شروح التلخيص" للخطيب القزويني (دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، 2011)، 24.

⁴ Geoffrey Leech and Jenny Thomas, "Language, Meaning and Context: Pragmatics", *An Encyclopaedia of Language*, 173.

المنطوق) هو ذاك الذي يقودُ إلى تأويلٍ وتفسيرٍ للملفوظ يكونُ مُنسَجَمًا مَعَ مبدأ الإفادة¹، الذي تَحَدَّثَ عَنْهُ سيبويه قديمًا حَوْلَ استقامة الكلام واستحاليته.

وكنتيجه إلى فقه مفهوم "التداولية" بوسعنا أن نرى سَمَتَ التَّطَرُّعِ الجرجانية في "النَّظْم" ² بعبون تداولية حديثة، فعلى سبيل المثال³ يذهبُ غوتلوب فريج Gottlob Frege [1848-1925م] إلى أنه بما أن معنى جملة ما مرتبطٌ بمعاني الكلمات التي تُكوِّنها، فإنَّ معنى الكلمة يجبُ أن يُدْرَكَ خلالَ معاني الجملة؛ ذلك لأنَّ معنى كلمة ما هو في الحقيقة يعني مشاركتها "النَّسَقِيَّة" في معاني الجملة التي تظهرُ فيها⁴. ويُعَقِّبُ عبد السلام علوي على فكرة فريج Frege هذا بقوله إنَّ فَهْمَ المستوى النَّحْوِيِّ الْمُتَمَثِّلِ في الكلمات المرتبطة بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِنَّمَا يَنْكَشِفُ عَبْرَ بَحْثِيَّةٍ طَبِيعَةِ أَفْكَارِ الْمُتَكَلِّمِ وَأَحَاسِيْسِهِ وما يُبْرِئُها أو يستدعيها الخطابُ The Discourse، وهذه العوامل لا يمكنُ الكَشْفُ عنها إلا بمعرفة "الاستعمال في المقام"، وعليه، فإنَّ المعنى الدَّلَالِيَّ لجملة ما يَتَمَثَّلُ في محتواها مِنْ خِلالِ التَّلَفُّظِ بهذه الجملة في "سِيَّاقٍ" ما هو بمثابة المعنى التداولي أو الاستعمالي⁵. وهذه الحقيقة "التداولية" كَانَ قَدْ عَبَّرَ عنها أيضًا إميل بنفنيست Émile Benveniste بقوله "إنَّ العملية التَّلَفُّظِيَّةَ هي حَيْثُ يُوظَّفُ اللَّسَانُ بواسطة فِعْلٍ الاستعمال"، كما "أنَّنا في العملية التَّلَفُّظِيَّةَ نأخذُ بِعَيْنِ الاعتبار، على التوالي، الحدثَ نَفْسَهُ، والسِّيَاقَ المَقَامِيَّ الذي يَحَقِّقُ فيه، وآلياتِ إِمْتَامِهِ"⁶. ولعلَّ هذا الرَّأْيَ عِنْدَ بنفنيست Benveniste نابعٌ مِنْ خِلالَ رُؤْيَيْهِ لِلْغَةِ بِوَصْفِهَا نِظَامًا مَجْرَدًا، أو طاقةً مخزونةً في ذهن الإنسان، وهي لا تتحوَّلُ إلى كلامٍ حقيقيٍّ، ولا إلى نَصٍّ أو خطابٍ إلا مِنْ خِلالِ عملية التَّلَفُّظِ أو عملية التَّحَدُّثِ ذاتِها⁷.

¹ صابر الحباشة، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية، 25.

² انظرُ فيما عَرَضْتُ له في الفصل الأول حَوْلَ نظرية "النَّظْم" عِنْدَ عبد القاهر الجرجاني.

³ لا يَتَسَعُ المجالُ هنا إلى ذِكْرِ أمثلةٍ عديدةٍ؛ لِضِيقِ مساحةِ الأطروحة، ولأنَّ الهدفَ المرجوَّ مِنْ إدراج "منحى التداولية وتفاعلات النَّصِّ" هو إظهارُ التَّعَالُقِ بَيْنَ طَرِيقَةِ نَهْجِ "التداولية" في التَّعَامُلِ مَعَ القُضَايَا النَّحْوِيَّةِ وَبَيْنَ منظومةِ "السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ"، قديمًا وحديثًا. ونستطيعُ القولُ إنَّ بعضَ الباحثين المعاصرين باتوا يَغْرِضُونَ لمسائل النَّحْوِ المختلفة مِنَ النَّاحِيَةِ "التداولية" الحديثة، سَعْيًا بِتَقْدِيرِيٍّ- وِراءَ "عَصْرَنَةِ" Modernization المفاهيم اللغوية Linguistics Concepts والمصطلحات اللسانية "التقليدية"، ومحاولةً في مجاراة حركة الدرس اللساني الحديث عَبْرَ "إسقاط" الموادِّ النَّحْوِيَّةِ الكلاسيكية على أَرْضِ النظريات اللسانية الحديثة بما فيها "التداوليات" التي لا تعرفُ- برأْيِي- حدودًا لبحث مسائل اللُّغَةِ؛ لكوْنِها- كما أشرْتُ سابقًا- منبثقةً عَنْ علومِ الفلسفة.

⁴ علوي، "ما التداوليات؟"، التداوليات علم استعمال اللغة، 18.

⁵ ن. م، 18.

⁶ علوي، "ما التداوليات؟"، 19؛ Émile Benveniste, *Problems in General Linguistics* (Florida: University of Miami Press, 1971), 71-74.

⁷ مسعود صحراوي، "في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر"، التداوليات علم استعمال اللغة، 29.

وَمَا لَا شَكَّ فِيهِ - كَذَلِكَ - أَنَّ "النَّصَّ" حَاضِرٌ فِي الْمَفْهُومِ "التَّداوُلِيَّ" لِللُّغَةِ، وَخَوَّلَ هَذِهِ الصِّلَةَ يَذْهَبُ سَعِيدٌ يَقْطِينُ إِلَى أَنَّ كُلَّ "نَصٍّ" كَيْفَمَا كَانَ نَوْعُهُ إِنَّمَا يَتِمُّ إِنْتِاجُهُ وَفَهْمُهُ ضِمْنَ بَنِيَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، وَتَكْمُلُ إِنْتِاجِيَّتُهُ فِي التَّفَاعُلِ مَعَهُ فِي إِطَارِ الْبَنِيَّةِ نَفْسِهَا، وَبِانْعِدَامِ هَذَا التَّفَاعُلِ تَنْعَدِمُ إِنْتِاجِيَّةُ النَّصِّ؛ مِنْ هُنَا نَجِدُ الْعَدِيدَ مِنَ اللَّسَانِيِّينَ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ "النَّصِّ" أَوْ "الْخَطَابِ" يُحَدِّدُونَهُ وَهُوَ قَيْدُ الْاسْتِعْمَالِ؛ لِأَنَّهُمْ انْطَلَقُوا مِنْ حَقِيقَةِ أَنَّ غِيَابَ هَذَا الْاسْتِعْمَالِ وَالتَّداوُلِ يُعَيِّبُ التَّوَاصُلَ أَوْ التَّفَاعُلَ مَعَهُ¹.

وَيُلَفِّتُ سَعِيدٌ يَقْطِينُ الْإِنْتِبَاهَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا عَرَفْتُهُ مِنْ تَطَوُّرٍ وَتَحْوِيرٍ بِابْتِعَادِهَا عَنْ مُحِيطِهَا اللُّغَوِيِّ الْأَوَّلِ جُغَرَاْفِيًّا، الْأَمْرَ الَّذِي مَسَّ بَنِيَّتَهَا الصَّوْتِيَّةَ وَالتَّرْكِيبِيَّةَ وَالْمَعْجَمِيَّةَ بِاخْتِلَافِ الْمَنَاطِقِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ "الْعَرَبِيَّةُ" - عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ - فِي التَّوَاصُلِ الْيَوْمِيِّ، إِلَّا أَنَّ قَوَاعِدَهَا وَضَوَابِطَهَا وَقِيَمَهَا الْكِتَابِيَّةَ ظَلَّتْ مُهَيِّمَةً وَمُسْتَمِرَّةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَبَدُّلِ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَانِ وَامْتِدَادِ رَقْعَتِهَا فِي مَنَاطِقَ بَعِيدَةٍ².

وَإِذَا أُتِيحَ لِي أَنْ أَجْمَلَ وَأُخْتَزِلَ مَعْنَى "التَّداوُلِيَّةِ" اللَّسَانِيَّةِ كَنَوْعٍ مِنَ الْإِجْمَالِ فَبُوسَعِي أَنَّ أَقُولَ إِنَّ ["التَّداوُلِيَّةَ" هِيَ "سِيَاقُ" اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ]. فَمِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ "الْمُخْتَصِرِ" - وَلَعَلِّي أَوْفَّقُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِطَرِيقَةٍ دَقِيقَةٍ مُخْتَزَلَةٍ - نَسْتَطِيعُ أَنْ تَطْفُو عَلَى السَّطْحِ مُصْطَلَحَاتٌ لُغَوِيَّةٌ تَتَدَاخَلُ وَتَتَشَابَهُ فِي عِلْمِ "التَّداوُلِيَّةِ" مِنْ جِهَةٍ، وَفِي عِلْمِ "السِّيَاقِ" مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، مِنْ هَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، التَّرْكِيبُ Structures، مَعَانِي التَّحْوِيرِ Meanings of the Syntax، اللَّسَانِيَّاتُ التَّطْبِيقِيَّةُ Applied Linguistics - وَإِنْ كَانَ لَهَا حَقْلٌ معرفيٌّ مُسْتَقِلٌّ بِذَاتِهِ -، فِلْسَفَةُ اللُّغَةِ Philosophy of Language، لِسَانِيَّاتُ النَّصِّ Text Linguistics، الْخَطَابُ Discourse، التَّحْلِيلُ النَّصِّيُّ Textual Analysis، عِلْمُ الدَّلَالَةِ Semantics، السَّمِّيَاةُ Semiotics، اللَّسَانِيَّاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ Sociolinguistics، اللَّسَانِيَّاتُ النَّفْسِيَّةُ Psycholinguistics، اللَّسَانِيَّاتُ الْإِنْشَوْبُولُوجِيَّةُ Anthrology، الدَّائِيَّةُ فِي اللُّغَةِ Subjectivity in Language، الْأَفْعَالُ الْكَلَامِيَّةُ Speech Acts، الطَّرُوفُ اللُّغَوِيَّةُ

¹ سَعِيدٌ يَقْطِينُ، انْفَتْاحُ النَّصِّ الرَّوَايِي: النَّصِّ وَالسِّيَاقِ، 134.

² يَقْطِينُ، انْفَتْاحُ النَّصِّ الرَّوَايِي، 134.

Conditions in Language، فوق لسانية (ما وراء اللّغة) Metalinguistics، الغموض اللّغويّ

Ambiguity وعيها من القول اللّسانيّة.

7. 2. محطّات في التفكير النّحويّ - السّياقيّ؛ علائق ووشائج:

سأحاول في هذه المحطّات أن استعرض أهمّ ملامح "السّياقيّ النّحويّ" لدى النّحاة العرب المحدثين، على اختلاف توجّهاتهم وآرائهم اللّغويّة، فمن هؤلاء النّحاة من سعى إلى تطوير فكرة "السّياقيّ" وصياغة "نظريّة" أو "طرح" جديد، متأثرين بذلك بالرّؤية السّياقيّة الغربيّة ومُستندين إليها، ومنهم من يحاول أن يردّ فكرة "السّياقيّ" إلى النّحاة العرب القدماء، ومنهم من يدمج بين النّظريّة السّياقيّة الغربيّة الحديثة وبين النّظريّة السّياقيّة العربيّة القديمة.

وينبغي أن أنوّه هنا إلى أنّ هذه المحطّات ما هي إلّا صورة مصعّرة عن بعض النّماذج العربيّة الحديثة، إذ إنّ من الأهداف الرّئيسة لهذه الصّورة المصعّرة هو إيجاد تلك العلاقة بين منظومة السّياقيّ - إن صحّ التعبير - القديمة والحديثة من جهة، الغربيّة والعربيّة من جهة أخرى. وهذا ما أكّدناه في بداية هذا الفصل - الفصل الثّاني - على أنّ فهم الواقع الرّاهن للسانيات في الثّقافة اللّغويّة للنّحاة العرب المحدثين إنّما يتأتّى من خلال الاستقراء الدّقيق للملابسات والظّروف التي تحيط بعملية الالتقاء بين المدرسة اللّغويّة العربيّة الوافدة وبين المدرسة اللّغويّة العربيّة الحديثة المستقبليّة¹.

¹ حافظ إسماعيلي علوي، اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة المعاصرة - دراسة تحليليّة نقدية في قضايا التّلقّي وإشكالاته (بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2009)، 19.

1. 7. 2. تمام حسان ونظريته في "تضافر القرائن":

لعلّ من أهمّ النظريات - إن جاز التعبير بوصفها نظرية - للنحاة أو (اللغويين)¹ العرب في العصر الحديث، نظرية "تضافر القرائن" لتمام حسان [1918-2011م]، وتتمثل هذه النظرية في أنّه لا يمكن أن تصل قرينة² من القرائن إلى قيمة تجعلها مستقلة بمفردها بالدلالة على باب نحويّ من أبواب "السياق"، وليس من شأن النحوي العربي أن يكون لإحداها ذلك الأمر مهما بلغت أهميتها في المعنى؛ لأنّ القرائن جميعاً يحكم استعمالها ظاهرة كبرى، هي ظاهرة "تضافر القرائن" التي ترجع في أساسها إلى أنّه لا يمكن لقرينة واحدة أن تدلّ بمفردها على

¹ تكاد كلمة "نحوي" و"نحويين" و"نحاة" لا تستعمل في العصر الحديث؛ ولكنّ الشائع اليوم هو استخدام كلمة "لغوي" أو "عالم لغوي". ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى تطور دلالة الكلمة في اللغة، واستخداماتها المتعددة، وكذلك إلى طبيعة الحقبة الزمنية المعيشية، فكانت كلمة "نحاة" توحى بالقديم أو بالنحوي الذي يُلجئ بمسائل النحو، فمثلاً - لدى علماء اللغة المحدثين ثمة فرق في طبيعة التطرّف والتوجّه بين نحوي من النحاة القدماء كسيبويه والمبرد والسيوافي وابن هشام... وغيرهم، وبين "نحوي" من النحاة المحدثين مع جفّظ أسماهم. (اعتقد أن الأمر يحتاج إلى دراسة دلالية - تداولية بهذا الخصوص، كما أننا لا نبخس النحاة المحدثين حقهم أو نقف من شأن إسهاماتهم أبداً!! - ولكنها النظرة الشائعة حتى في الدراسات الحديثة، الأمر الذي جعلني أنوّه إلى هذه المسألة. وعلى الرغم من هذا، فلنمكّن فاق نحوي حديث نحاة قداماء كثرًا، وتفقّ عليهم برويته الواسعة الثاقبة في طرح القضية النحوية ومعالجتها علاجاً ينمّ على أفق رُحْبٍ وآلياتٍ عملية لم تكن متوفرة لدى القدماء).

² القرينة لغة من الإقتران، وهي بمعنى المصاحبة والتلازم. ومادة (ق، ر، ن) - كما يذكر ابن فارس - أصلان، يدلّ أحدهما على جمع شيء إلى شيء، ويدلّ الآخر على الشيء الذي يبتأ القرينة نفس الإنسان، كأنهما قد تقارنا. والإقتران عند الراغب الأصفهاني كالازدواج في كونه اجتماع شئيين أو أشياء في معنى من المعاني. والقرينة اصطلاحاً - كما عرفها الشريف الجرجاني - هي أمر يُشير إلى المطلوب. والقرينة عند المحدثين تحمل المعنى نفسه، فمثلاً يُعرّفها إميل بديع يعقوب على أنّها كلّ ما يدلّ على المقصود. ويُعرّفها محمد فريد وجدي بأنها "ما يدلّ على المراد". ولعلنا بهذا نجد ارتباطاً واضحاً بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي. فالقرينة - إذن - ما يُستدلّ به، وهي عند علماء الأصول "ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، كما يقول الشوكاني. وقد وردت كلمة "القرينة" في مصنفات بعض النحاة القدماء، إذ أورد الطبري - مثلاً - عن بعض نحاة الكوفة عند تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هٰذِي أَوْ فِي ضُلَالٍ مُّبِينٍ} (القرآن الكريم، سبأ: 24) أنّهم يَرَوْنَ في معنى "أو" ومعنى "الواو" في هذا الموضع في المعنى، إلا أنّ القرينة على غير ذلك، لا تكون "أو" بمنزلة "الواو"، ولكنها تكون في الأمر المفوض، كما تقول: "إنّ شئت فخذ درهماً أو اثنين". وهذا يعني أنّهم عرفوا المصطلح وأدركوا مفهومه، ثمّ ضنّج بعد ذلك هذا المصطلح؛ حتّى غدا متعارفاً عليه عند علماء النحو والبلاغة والتفسير والفقه والكلّام. ومن أمثلة ذلك ما جاء عند أبي حيان الأندلسي بقوله: "... وإذا اجتمع شرطان، فالثاني شرط الأول، متأخّر في اللفظ متقدّم في الوقوع ما لم تدلّ عليه قرينة على الترتيب". ولعلنا نشير هنا أنّ مصطلح "القرينة" كان يتجدد في الاستخدام والتفسير مع معنى "السياق"؛ ف"هي الدليل الذي به يفهم ويُفسّر به ما غمض أو التيسر في الكلام؛ فتأتي "القرينة" كأداة مساندة في تفسير الكلام على مستوى المفردة الواحدة، وعلى مستوى الجملة والتركيب، وعلى مستوى النصّ كلّ. وعرفت الجامي القرينة في سياق حديثه عن الفاعل والمفعول بقوله: "... والقرينة أي الأمر الدالّ عليهما (الفاعل والمفعول) لا بالوضع". وأضافت الكفوي على هذا التعريف قائلاً إنّ القرينة تؤخذ من لاحق الكلام الدالّ على مخصوص المقصود أو سابقه. ويُعرّفها مصطفى الزرقا - من المحدثين - على أنّها "كلّ أمارّة ظاهرة تقارن شيئاً خفياً؛ فتدلّ عليه، وهي مأخوذة من المقارنة بمعنى المرافقة والمصاحبة". انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 2: 394-395؛ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 402؛ الشريف الجرجاني، التعريفات، 233؛ إميل بديع يعقوب، موسوعة النحو والصرف والإعراب (بيروت: دار العلم للملايين، 1986)، 522؛ محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين (بيروت: دار المعرفة، 1971)، 771؛ محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985)، 56؛ أبو حيان الأندلسي، البحر المحیط، 7: 771؛ الخليل بن أحمد، العين، 5: 142-143؛ الجوهری، الصحاح، 6: 2181-2182؛ نور الدين عبد الرحمن الجامي، الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب (بغداد: مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 1982)، 1: 256؛ الكفوي، الكلّيات، 734؛ مصطفى أحمد الزرقا، المدخل الفقهي العام (دمشق: دار القلم، 1998)، 2: 936؛ مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية (القاهرة: لونجمان، 1997)، 32-33؛ فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية: تأليفها وأقسامها (بغداد: منشورات المجمع العلمي، 1998)، 59-68؛ محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى - أنظمة الدلالة في العربية (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2007)، 341-342.

مَعْنَى، حَيْثُ إِنَّ الإِدْرَاكَ الْإِنْسَانِي¹ - عَلَى حَدِّ قَوْل تَمَام حَسَّان - لَا تُسَعِّفُهُ الْقَرِينَةُ الْوَاحِدَةُ؛ لِأَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْقَرِينَةِ أَنْ تَدْخُلَ فِي تَحَالُفٍ مَعَ عَدَدٍ مِنَ الْقَرَائِنِ الْآخَرَى، كُلَّمَا اخْتَلَفَ الْمَدْلُولُ².

وبهذا المفهوم فَقَدْ قَوْلَبَ تَمَام حَسَّانُ فِكْرَتَهُ، إِذْ إِنَّ الْمَعْنَى عِنْدَهُ إِنَّمَا يَتَحَصَّلُ مِنْ عِدَّةٍ قَرَائِنَ تَمْنَحُهَا الْأَنْظُمَةُ اللَّغَوِيَّةُ؛ كَالنِّظَامِ الصَّوْتِيِّ، وَالنِّظَامِ الصَّرْفِيِّ، وَالنِّظَامِ النَّحْوِيِّ، فَلَا يُمْكِنُ لِقَرِينَةٍ وَاحِدَةٍ مَهْمَا كَانَتْ أَهْمِيَّتُهَا أَنْ تُوصَلَ إِلَى الْمَعْنَى النَّحْوِيِّ؛ فَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَضَافَرَ مَعَهَا قَرَائِنُ أُخْرَى³.

وهذا يعني أَنَّ "القرينة" عِنْدَ تَمَام حَسَّان تُعَدُّ عَامِلًا مُسَاعِدًا يُعِينُ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ، فَتُخْرِجُ الْجُمْلَةَ مِنْ كَوْنِهَا مَلْبَسَةً غَامِضَةً، إِذْ قَدْ يَكُونُ اللَّبْسُ فِيهَا لِبْسًا مَفْرَطًا فَيُحْكِمُهَا، وَبِالتَّالِي فَإِنَّمَا تُعْلَمُ السَّمَاعُ أَيَّ الْأَشْيَاءِ يَنْسَجُمُ مَعَ أَهْلِهَا، وَأَيَّ الْأَشْيَاءِ تَابِعٌ لِأَيِّهَا، كَمَا يُعْلَمُ كَيْفَ يَكُونُ الْارْتِبَاطُ مُحْكَمًا، وَيَتِمَّتُّ بِالْمُورِفِمَاتِ النَّحْوِيَّةِ، أَيْ الْأَلْفَافِ الْوُضُفِيَّةِ وَالتَّصْرِيفَاتِ فَضْلًا عَنْ وَسَائِلَ أُخْرَى كَالْتَّنْغِيمِ وَالتَّنْبِيرِ وَالْوَقْفِ وَالرُّتْبَةِ النَّحْوِيَّةِ وَغَيْرِهَا، فَكُلَّمَا كَانَتْ الْجُمْلَةُ أَشَدَّ تَعْقِيدًا كَانَ هَذَا أَدْعَى إِلَى الْاِتِّكَالِ إِلَى الْعَوَامِلِ مِنْ أَجْلِ الْوَصُولِ إِلَى الْمَعْنَى⁴.

وَنُقَسِّمُ "الْقَرَائِنَ" عِنْدَ تَمَام حَسَّانَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

أَوَّلًا - قَرَائِنُ مَقَالِيَّةٌ: حَيْثُ تُقَسِّمُ بِدَوْرِهَا إِلَى قِسْمَيْنِ:

أ. قَرَائِنُ مَعْنَوِيَّةٌ⁵: وَتَتِمَّتُّ بِالْعَلَاقَاتِ "السِّيَاقِيَّةِ" الَّتِي تُفِيدُ مَعْرِفَتَهَا فِي تَحْدِيدِ الْمَعْنَى النَّحْوِيِّ⁶. وَتَشْمَلُ هَذِهِ الْقَرَائِنُ عَلَى:

¹ تَمَام حَسَّان، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا، 93.

² ن. م.، 93.

³ تَمَام حَسَّان، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، 193؛ مَقَالَاتُ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ (الْقَاهِرَةُ: عَالَمُ الْكُتُبِ، 2006)، 1: 135.

⁴ تَمَام حَسَّان، اللُّغَةُ بَيْنَ الْمَعْيَارِيَّةِ وَالْوُصْفِيَّةِ، 232.

⁵ يُعْرَفُهَا فخر الدِّين قِبَاوَةُ عَلَى أَنَّهَا الْمَعْنِيَّةُ بِكَشْفِ الْعَلَاقَاتِ السِّيَاقِيَّةِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ؛ لِأَنَّ النَّصَّ الْمَقْصُودَ تَحْلِيلُهُ بِالاعْتِمَادِ عَلَيْهَا يَتَضَمَّنُ وُضَائِفَ وَمَعَانِي وَعَلَاقَاتٍ فِي النَّظْمِ وَالسِّيَاقِ؛ لِذَا خَلَا لِبَعْضِهِمْ أَنْ يُسَمِّيَهَا "الْأَدْلَةُ التَّرَكِيبِيَّةُ". انْظُرْ: فخر الدِّين قِبَاوَةُ، التَّحْلِيلُ النَّحْوِيُّ، أَصُولُهُ وَأَدْلَتُهُ (الْجِيزَةُ: الشَّرْكَةُ الْمَصْرِِّيَّةُ الْعَالَمِيَّةُ لِلنَّشْرِ، 2002)، 173.

⁶ حَسَّان، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، 190.

1. الإسناد Predication¹: حيثُ أدرجَ ضِمْنَهَا قرينةَ الإسنادِ الحاصلةِ بَيْنَ طرفي الجملةِ الاسميّةِ والفعليّةِ وما

سمّاهُ بالجملةِ الوصفيةِ². والإسنادُ- كما يُصرّحُ عَنْهُ تَمَامَ حَسَنانِ - هو المعنى نَفْسُهُ؛ فإذا أدركَ المرءُ العلاقةَ بَيْنَ ركني

الإسنادِ، وعَرَفَ وَجْهَ الاتِّصالِ بَيْنَهُمَا أدركَ بذلك المعنى المراد³.

2. التَّخصيصُ Specialization: وهي علاقةٌ سياقيّةٌ كبرى وشَمَلٌ بها المفاعيل⁴، فهي - بهذا المعنى - قرينةٌ

بالعُلةِ الأهميّةِ والامتدادِ، لا سيّما أنَّ مصطلحَ "التَّخصيصِ" كانَ تَمَامَ حَسَنانِ قدِ استقاهُ مِنَ المعاني الّتي تُضفيها

المنصوباتُ على علاقةِ الإسنادِ، فهو يرى أنَّ هذه المعاني في جملتها تُفيدُ تخصيصَ الإسنادِ، وتُحدِّدُ وَجْهَ العلاقةِ

الإسناديّةِ بَيْنَ ركني الإسنادِ⁵.

3. النسبة Attribution: وهي قرينةٌ كبرى كالتَّخصيصِ، وتدخلُ تحتها قرائنُ فرعيّةٌ، والنَّسَبَةُ قَيْدٌ عامٌّ على

علاقةِ الإسنادِ، أو ما وَقَعَ في نطاقها كذلك، أو بتعبيرٍ أدقَّ، هي ما سمّاهُ النُّحاةُ "تعليقًا". وتختلفُ قرينةُ "النَّسبةِ"

عَنْ قرينةِ "التَّخصيصِ" في كَوْنِ "النَّسبةِ" تأتي للإلحاقِ، وفي كَوْنِ "التَّخصيصِ" تأتي لتضييقِ دائرةِ الشَّيْءِ⁶. وقد

شَمَلَ حَسَنانِ بقرينةِ "النَّسبةِ" المجروراتِ، فيقولُ: "المعاني الّتي تدخلُ تحتَ عنوانِ النَّسبةِ، وتُتَّخَذُ قرائنَ في التَّحليلِ

والإعرابِ، وفي فَهْمِ النَّصِّ بصورةٍ عامّةٍ هي تسميةُ معاني جروفِ الجرِّ ومعها معنى الإضافة⁷.

4. التَّبعيةُ Dependency: وتندرجُ تحتها قرائنُ صغرى، كما تختلفُ باختلافِ المعنى الّذي يُضفيهِ التَّابعُ إلى

متبوعه، وتتمثَّلُ في أربعِ قرائنَ هي النَّعْثُ، والعَطْفُ، والتَّوَكُّيدُ، والبَدَلُ⁸. وقد سُمِّيَتِ العلاقةُ بَيْنَ علاقةِ التَّبعيةِ؛

لأنَّها تأتي متأخِّرةً في الرِّتبةِ، ولأنَّها تَتَّبِعُ متبوعها في إعرابه، ونوعه، وعدده، فهي تقومُ على علائقٍ لفظيّةٍ، غَيْرِ أنَّ

1 أوْدُ أنَّ أوْكَدَ هنا أنَّ هناك إمكانياتٍ كثيرةً لترجمة المصطلحاتِ الّتي ذَكَرَها تَمَامَ حَسَنانِ في نظريّته، ولكنّي ارتأيتُ الأقربَ من مقصودِهِ فيها؛ لتكونَ فرصةً لمن يريدُ أن يكتبَ حولَ نظريّته أن يستعين بها. وأرجو أن أكونَ قد وفَّقتُ في هذه التَّرجمة.

2 حَسَنانِ، اللُّغةُ المِعرابِيَّةُ والوصفيَّةُ، 191-192.

3 حَسَنانِ، اللُّغةُ العربيَّةُ، 192.

4 حافظ علوي، اللُّسانيَّاتُ في الثَّقافة العربيَّةِ المعاصرة، 245.

5 تَمَامَ حَسَنانِ، "القرائنُ النُّحويَّةُ وإطراحُ العاملِ والإعرابِيَّينِ التَّقديريِّ والمُحلِّيِّ"، اللُّسانُ العربيُّ 11 ([د.ت.])، 42.

6 حَسَنانِ، اللُّغةُ العربيَّةُ، 201.

7 ن.م.

8 حافظ علوي، اللُّسانيَّاتُ في الثَّقافة العربيَّةِ المعاصرة، 246.

هناك علاقة معنوية تُفهم من خلال "السياق" تقودنا إلى معرفة وجه ارتباط التابع بمتبوعه، وهذه العلاقة هي التي يُعَوَّل عليها تمام حسان في اتخاذها قرينة معنوية¹.

5. المخالفة Differentiation: هي مصطلح كوفي، حيثُ اتَّخَذَ منه الكوفيون قيمة معنوية عَوَّلُوا عَلَيْهَا فِي الْكَشْفِ عَنْ عاملِ النَّصْبِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي خَالَفُوا فِيهَا الْبَصَرِيَّينَ، نَحْوُ الْخِلَافِ فِي عاملِ النَّصْبِ فِي الظَّرْفِ الْوَاقِعِ حَبْرًا، إِذْ ذَهَبَ الْكُوفِيُّونَ إِلَى أَنَّ عاملِ النَّصْبِ فِي قَوْلِنَا: "زَيْدٌ أَمَامَكَ" هُوَ الْمَخَالَفَةُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ حَبْرَ الْمَبْتَدَأِ فِي الْمَعْنَى هُوَ الْمَبْتَدَأُ، فَلَمَّا خَالَفَهُ فِي "زَيْدٌ أَمَامَكَ"، إِذْ "أَمَامَكَ" لَيْسَتْ عَلَى مَعْنَى "زَيْدٌ"، فَوَجَبَ لذلِكَ نَصْبُ الْخَبَرِ. بَيْنَمَا يَرَى الْبَصَرِيُّونَ أَنَّهُ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، وَتَقْدِيرُهُ: زَيْدٌ اسْتَقَرَّ أَمَامَكَ.

ب. قرائن لفظية: تُسَهِّمُ هَذِهِ الْقَرَائِنُ فِي التَّعَرُّفِ عَلَى الْأَبْوَابِ النَّحْوِيَّةِ؛ حَتَّى إِذَا تَعَدَّدَ مِنْ قَرَائِنِ فَهْمِ "الْقَرَائِنِ الْمَعْنَوِيَّةِ"؛ إِذْ تَكُونُ أَيْسَرَ وَصُولًا إِلَى الْفَهْمِ مِنَ الْقَرَائِنِ الْمَعْنَوِيَّةِ. وَتَشْمَلُ الْقَرَائِنُ اللَّفْظِيَّةُ عَلَى:

1. العلامة الإعرابية (Parsing Sings (Desinence) : هذه القرينة هي أَوْفَرُ الْقَرَائِنِ حِطًّا، وَأَكْثَرُهَا اهْتِمَامًا، وَأَوَّلَاهَا عِنْدَ النُّحَاةِ، فَقَدْ جَعَلُوا الْإِعْرَابَ نَظَرِيَّةً كَامِلَةً² تَدَوَّرُ فِي رَحَاها مَسَائِلُ نَحْوِيَّةٌ هَامَّةٌ، كَمَسْأَلَةِ الْعَامِلِ، وَالْإِعْرَابِ الْحَلِّيِّ وَالتَّقْدِيرِيِّ. وَيُفْرَزُ تَمَامَ حَسَانِ أَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الْقَرِينَةِ بِتَأْكِيدِهِ أَنَّ النُّحَاةَ اتَّخَذُوا الْمَفْرَعِ فِي اسْتِعَابِ الْمَعَانِي، وَالْحُكْمِ فِي تَمْيِيزِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ؛ حَيْثُ تَتَضَافَرُ هَذِهِ الْقَرِينَةُ مَعَ الْقَرَائِنِ الْمَعْنَوِيَّةِ؛ لِيَحْصَلَ بِمَجْمُوعِ تَضَافُرِهَا مَعًا التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ³.

2. الرُّتْبَةُ (Rank) Placing: هي علاقة بَيْنَ جَزَائِنِ مُرْتَبَيْنِ مِنْ أَجْزَاءِ السِّيَاقِ، يَدُلُّ مَوْقِعُ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الْآخِرِ عَلَى مَعْنَاهُ⁴. وَبِهَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِ"الرُّتْبَةِ" مَوْقِعَ الْكَلِمَةِ مَعَ اخْتِهَا تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، وَبِالنَّظَرِ فِي كِتَابِ النَّحْوِ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إِلَى قِسْمَيْنِ، أَوَّلُهُمَا: الرُّتْبَةُ الْمَحْفُوظَةُ، أَوِ الْمَقِيدَةُ الَّتِي تَلْزِمُ مَعَهَا الْكَلِمَةُ مَوْضِعًا وَاحِدًا لَا تَبَرُّحُ، سِوَاكَ كَانَ مُتَقَدِّمًا أَمْ مُتَأَخِّرًا، كَرْتْبَةِ الْفَاعِلِ الْمُتَأَخِّرِ وَجُوبًا عَنْ فِعْلِهِ، وَكَرْتْبَةِ الْمَجْرُورِ بَعْدَ حَرْفِ الْجَرِّ... إلخ. وَثَانِيَهُمَا:

¹ حسان، اللغة العربية، 204.

² علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، 246.

³ حسان، اللغة العربية، 205-206.

⁴ ن. م، 209.

الرتبة غير المحفوظة، أو الحرّة التي لا تتقيّد في الكلمة بموضع واحد، بل تَبْرَحُهُ مُتَقَدِّمَةً أو مُتَأَخِّرَةً عَنْ ضَمِيمَتِهَا، كرتبة المبتدأ مَعَ خَبَرِهِ، والفاعل مَعَ مفعولِهِ¹، ولكن بِشَرَطِ أَمْنِ اللَّبْسِ².

ولا شَكَّ في أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ هو الْأَهَمُّ بما يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ "السِّيَاقِ"؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ النَّحْوِيَّةَ إِذَا اتَّخَذَتْ لها مَوْضِعًا في السِّيَاقِ، لا يُمْكِنُ لها أَنْ تَبْرَحَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ يُعَدُّ قَرِينَةً عَلَيْهَا، وَإِذَا تَمَّ التَّعَرُّفُ عَلَى مَوْضِعِ كُلِّ كَلِمَةٍ في الْجُمْلَةِ، كَانَ ذَلِكَ التَّعَرُّفُ مَعِينًا عَلَى فَهْمِ الْعِلَاقَاتِ السِّيَاقِيَّةِ الَّتِي تُدْرِكُ الْمَعَانِي مِنْ خِلَالِ تَرَابِطِهَا مَرْتَبَةً، فعندما نَعْلَمُ أَنَّ الْفِعْلَ يَسْبِقُ فاعِلَهُ وجوبًا، وَأَنَّ الْفَاعِلَ، بناءً على ذلك، يأتي مُتَأَخِّرًا عَنْ فاعِلِهِ، أَدْرَكْنَا أَنَّ الْاسْمَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ الْفِعْلِ هو الْفَاعِلُ عَادَةً، وعندما تَصْبِحُ الرِّتْبَةُ الْحَرَّةُ طَلَبًا لِأَمْنِ اللَّبْسِ رتبةً مُقَيَّدَةً، يُلْزَمُ مَعَهَا كُلُّ حَرْفٍ مَوْضِعُهُ، نَحْوُ عَدَمِ ظُهُورِ الْحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ عَلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ؛ بِسَبَبِ التَّعَدُّرِ، وَصَلَحَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنْهُمَا فاعِلًا أو مفعولًا، وَجَبَ حينَهَا تَقْدِيمُ الْفَاعِلِ وتأخيرِ الْمَفْعُولِ نَحْوُ قولنا: "شَاهَدَ مُوسَى عِيسَى"؛ دَفْعًا لِللَّبْسِ³.

وهذا الْكَلَامُ يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْقَرِينَةَ في غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ لَا سِيَّما حينَمَا "يَسْتَعْصِي التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْأَبْوَابِ النَّحْوِيَّةِ بِوِاسْطَتِهَا حِينَ يَكُونُ الْإِعْرَابُ تَقْدِيرِيًّا، أو مُحَلِّيًّا، أو بِالْحَذْفِ مِنْهَا لَيْسَتْ ظَاهِرَةً؛ فَيُسْتَفَادُ مِنْهَا مَعْنَى الْبَابِ"⁴.

3. مَبْنَى الصِّيْغَةِ⁵ Construction of Mood: تقومُ هَذِهِ الْقَرِينَةُ عَلَى الْعِلَاقَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ مَسَائِلِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، حَيْثُ تُشِيرُ الدِّرَاسَاتُ اللَّغَوِيَّةُ أَنَّ النَّحْوَ وَالصَّرْفَ انبَثَقَا مِنْ رَجَمٍ وَاحِدَةٍ؛ وَبِالتَّالِي فَهُمَا يُسْهِمَانِ في بِنَاءِ الْجُمْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَالبُنْيَةُ هِيَ دَلَالَةُ صُورَةِ الْكَلِمَةِ عَلَى الْمَعْنَى النَّحْوِيَّةِ، وَهِيَ إِطَارٌ ذَهَبِيٌّ لِلْكَلِمَةِ الْمَفْرَدَةِ، فَهِيَ مَفْهُومٌ صَرِيحٌ لَا يُنْطَقُ، أَمَّا فَهِيَ مَفْهُومٌ مَعْجَمِيٌّ مَنْطُوقٌ. فَمَثَلًا، صِيْغَةُ "فَاعِلٍ" هِيَ بُنْيَةٌ عَامَّةٌ لَعَدَدٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ، وَهِيَ ذَاتُ مَعْنَى وَظِيفِيٍّ صَرِيحٍ. وَكَلِمَةُ "كَاتَبَ" - عِنْدَ إِفْرَادِهَا فِي الْمَعْجَمِ - هِيَ كَلِمَةٌ مَنْطُوقَةٌ بِالْقُوَّةِ لَا بِالْفِعْلِ، وَقَوْلُنَا "هَذَا كَاتِبٌ" عِنْدَ التُّطْقِ أَوِ الْكِتَابَةِ تُعَدُّ لَفْظًا مَنْطُوقًا، أَوْ مَكْتُوبًا بِالْفِعْلِ⁶. وَحِينَما نَقُولُ: "ذَهَبَ رَيْدٌ" عَلِمْنَا مِنْ

¹ فخر الدّين قباوة، التّحليل النّحويّ أصوله وأدلتها، 179-180.

² حسان، "القرآن النحويّ"، 50.

³ حسان، اللغة العربيّة، 207-208.

⁴ حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، 205؛ علوي، اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، 246.

⁵ علوي، اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، 246.

⁶ تَمَام حسان، البيان في روائع القرآن- دراسة لغويّة وأسلوبية للنصّ القرآنيّ (القاهرة: عالم الكتب، 1993)، 17-18.

خلال الوزن الصرفي لـ "ذَهَبَ" أنه فعل، وعلّمنا أنّ "زَيْدٌ" فاعل، لأنّه اسم، وعرفنا اسميّة خلال عِلْمِ الصَّرْفِ كذلك، وبالتالي، تأتي أهميّة معرفة الصّيغة في إفادتها التّمييز بين أجزاء الجملة. فضلاً عن أنّ الصّيغة قد تحمل معنى تدلّ عليه، بغضّ النظر عن دورها في فهم العلاقات السياقية، فمن المقرّر من ناحية صرفيّة أنّ وزن "فَعَلَ" - مثلاً - يدلّ على فعلٍ ماضٍ إضافةً إلى كونه وزناً يدلّ على السّجاياء والصفات اللازمة. وانطلاقاً من هذا، تكون الصّيغة قرينةً لفظيّةً على الباب النّحويّ، فلأسماء صيغتها، وللصفات والأفعال صيغتها ودلالاتها ذات أثرٍ نحويّ، يمثّل في علاقاتها السياقية، إذ إنّ معنى الصّيغة الصرفيّة يُنبئ عن تلك العلاقات¹.

4. المطابقة Concordance: تحصل المطابقة بين أجزاء الجملة أو التّركيب النّحويّ، فتتوثّق الصّلة بينها، وتصبح الكلمات فيما بينها مترابطةً مترابطةً؛ وبهذا تغدو المطابقة قرينةً على الباب الذي تقع فيه على وجهٍ من الأوجه التّالية²:

- العلامة الإعرابيّة.

- الشّخص (التّكلم، والخطاب، والغيبة).

- العدد (الإفراد، والتّثنية، والجمع).

- التّوع (التّذكير، والتّأنيث).

- التّعين (التّعريف والتّنكير)³.

5. الرّبط Connection: يُقصدُ بالربط اتّصالُ أجزاء الكلام ببعضه ببعضٍ داخل الجملة؛ بهدف الكشف عن تلك العلاقة الجامعة بين أجزائهما، التي من شأنها أنّ تُعيّن على فهم الجملة خلال هذا الرّبط، نحو الرّبط بين المبتدأ والخبر، وبين الموصول وصلته، وبين الحال وصاحبه، وبين البدل والمُبدل منه، وبين الصّفة والموصوف، وبين القسم وجوابه، وبين الضّمير والعائد عليه... وغيرها من الرّوابط النّحويّة⁴. فمثلاً في قوله تعالى: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ

¹ حسّان، اللغة العربيّة، 210.

² ن. م، 211-212.

³ تَمّام حسّان، مقالات في اللغة والأدب، 257؛ علوي، اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة المعاصرة، 246.

⁴ حسّان، اللغة العربيّة، 214-215.

لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}، فَإِنَّ الصَّمِيرَ الْعَائِدَ فِي "مِنْهُمْ" عَلَى "الكَافِرِينَ" لَا عَلَى "الْأَبْوَابِ"، وَلَوْ عَادَ عَلَى "الْأَبْوَابِ" لَقَالَ "مِنْهَا"¹.

وهذا يعني أَنَّ نِظَامَ الرِّبْطِ وَالْإِرْتِبَاطِ يَبَيِّنُ أَجْزَاءَ الْكَلَامِ هُوَ بِحَدِّ ذَاتِهِ مِنْ ضِمَنِ تِلْكَ النُّظُمِ السِّيَاقِيَّةِ؛ حَيْثُ إِنَّ لِّلْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ نِظَامًا سِيَاقِيًّا خَاصًّا بِهَا، الَّذِي عَلَى ضَوْئِهِ يَكُونُ بِنَاءُ تَرَكَيبِهَا مُتَنَاسِبَةً مَعَ الْمَعَانِي الْمُرَادُ تَأْدِيَتِهَا.

6. التَّضَامُ² Cohesion: يَنْطَلِقُ تَمَامُ حَسَنِ مِنْ حَقِيقَةِ لُغَوِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ مِتْكَلِّمَ اللِّغَةِ إِنَّمَا يَضْعُ كَلَامَهُ وَفُقْ مَبَادِيَّ وَقَوَاعِدَ؛ لِتُحَقِّقَ بِذَلِكَ الْفَائِدَةَ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ مِنْ بَيِّنٍ مَا يَحْكُمُ مَفْرَدَاتِ التَّرْكِيبِ اللَّغَوِيِّ مِنْ تَرَاصٍ وَسَبْكِ وَانْسِجَامٍ هُوَ تَضَامُهَا فِيمَا بَيَّنَّهَا. مِنْ هُنَا يُفَسِّرُ تَمَامُ حَسَنِ "التَّضَامَ" بِقَوْلِهِ إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالتَّضَامِ هُوَ أَنْ يَسْتَلْزِمَ أَحَدُ الْعَنْصَرَيْنِ التَّحْلِيلَيْنِ التَّحْوِيَّيْنِ عُنْصَرًا آخَرَ؛ فَيُسَمَّى "التَّضَامَ" هُنَا بِ"تَضَامِ التَّلَازِمِ"، أَوْ يَتَنَافَى مَعَهُ فَلَا يَتَلَاقَى بِهِ، فَيَسْتَلْزِمُ أَحَدُ الْعَنْصَرَيْنِ عَدَمَ إِيرَادِ عُنْصَرٍ آخَرَ مَعَهُ، وَهَذَا مَا يُسَمَّى "تَضَامَ التَّنَافِي"³. وَبِهَذَا فَإِنَّ تَمَامَ حَسَنِ يَكُونُ بِتَعْرِيفِهِ هَذَا قَدْ أَشَارَ إِلَى جِهَتِي التَّضَامِ بِالْعَنْصَرِ، وَالْعَنْصَرُ يَشْمَلُ الْكَلِمَةَ وَغَيْرَهَا، كَمَا أَنَّ ضَمَّ التَّنَافِي الَّذِي يُمَثِّلُ جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِ التَّضَامِ، وَهُوَ سَلْبُ التَّضَامِ.

7. الأداة Particle: يَأْتِي دَوْرُ الْأَدَاةِ الْهَامَّةِ فِي تَحْدِيدِ الْمَعَانِي التَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا هَذِهِ الْأَدَوَاتُ، لَا سِيَّمَا أَنَّ الْأَدَوَاتِ تُسْتَعْمَلُ لِلرِّبْطِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ، وَكَذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى فِي غَيْرِهَا، الْأَمْرُ الَّذِي يُدْخِلُهَا فِي بِنَاءِ الْجُمْلَةِ كَمَرْكَبٍ أَسَاسِيٍّ، فَنَحْنُ نَفْهَمُ - مِثَالًا - مَعْنَى الشَّرْطِ مِنْ خِلَالِ أَدَوَاتِهِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ، وَنَفْهَمُ الِاسْتِفْهَامَ عَبْرَ أَدَوَاتِهَا الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا؛ وَمِنْ هُنَا تَكْمُنُ أَهْمِيَّةُ قَرِينَةِ "الْأَدَاةِ"، وَبِالتَّالِي يَنْبَغُ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ تَمَامَ حَسَنِ إِدْرَاجَهَا ضِمْنَ الْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ⁴.

وهذه القرينة تنقسم عند تمام حسان إلى قسمين:

أ- الأداة الأصلية: وهي حروف المعاني، كحروف الجرِّ، والنَّسخ، والعطف... إلخ.

¹ ن. م، 215.

² علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، 247.

³ حسان، اللغة العربية، 217.

⁴ حسان، "القرائن التحوية"، 50.

ب- الأداة المحوِّلة: وقد تكون ظرفيّة، نحو استعمالِ الظَّرْفِ في تعليقِ جملِ الاستفهام، أو اسميّة، نحو الأسماءِ المبهمةِ مثل "كيف" و"كم"....، أو فعليةٌ نحو "كَانَ وأخواتها"، و"كَادَ وأخواتها"....، أو ضميريةٌ نحو نَقْلِ "مَنْ" و"ما" و"أيّ" إلى معاني الشرط والاستفهام والمصدرية والظرفية والتعجب¹.

ويؤكِّدُ تمامُ حَسَنانَ أَنَّ الأدواتَ وُضِعَتْ في أصلِها؛ للدلالة على المعاني الصَّرْفِيَّةِ العامَّةِ، الَّتِي حَقُّها أَنْ تؤدَّى بالحرفِ، وَمِنْ ثَمَّ تكونُ كُلُّ أداةٍ قرينةً لفظيّةً على المعنى الَّذي سَيَقُتْ لَهُ، وَمِنْ الأدواتِ ما يدخلُ على الجملة، ومنها ما يدخلُ على الكلماتِ؛ فتربطُ الكلمةَ بعنصرٍ آخَرَ مِنْ عناصرِ الجملة².

8. التَّنْغِيمُ³ Intonation: هي الإطارُ الصَّوْتِيُّ الَّذِي تُقَالُ فيه الجملةُ في "السِّيَاقِ"⁴، وذلك عِنْدَ ارتفاعِ الصَّوْتِ وانخفاضِهِ أثناءَ الكلامِ، وهو ذو وظيفةٍ نَحْوِيَّةٍ، نَحْوُ تحديدِ النَّقْيِ في جملةٍ لَمْ تُسْتَعْمَلْ فيها أداةُ استفهامٍ⁵. وَكَوْنُ "النَّغْمَةِ" قرينةً يعني أَنَّ كُلَّ معنىٍّ مِنْ معاني الأساليبِ النَّحْوِيَّةِ، لَهُ ما يُناسِبُهُ مِنَ التَّنْغِيمِ، فبمقدورنا، مِنْ خلالِ النَّغْمَةِ، أَنْ نعرفَ ما إذا كانتْ جملةٌ "ما هذا" استفهامًا حقيقيًّا، أَمْ استفهامًا إنكارِيًّا احتجاجيًّا⁶، وبناءً عَلَيْهِ لا يمكنُ أَنْ نتصوَّرَ التَّنْغِيمَ إِلَّا في الكلامِ المنطوقِ الَّذي نجدُ فيه نغمةً صوتيّةً تُعبِّرُ عَنْ مشاعرِ المتكلِّمِ المختلفةِ مِنْ فرحٍ، وحزنٍ، ونفيٍّ، وإثباتٍ، وتهكُّمٍ، وسخريةٍ...إلخ.

ثانيًا- قرائنُ حاليةٍ: وهي القرائنُ الَّتِي تُسْتَمَدُّ مِنْ ظروفِ أداءِ المقالِ⁷ الَّتِي تُسمَّى بـ"المقام"⁸.

وهذه القرائنُ المختلفةُ كُلُّها- القرائنُ المقالةَّةُ بركنِها المعنويَّةِ واللفظيَّةِ والقرائنُ الحاليَّةُ- تتعاونُ فيما يَبْنِيها وتتضافرُ على إيضاحِ المعنى النَّحْوِيِّ وبيانه؛ لهذا فإنَّ المعاني النَّحْوِيَّةَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْها بطائفةٍ مِنَ القرائنِ، فالفاعلُ- مثلاً- يكونُ فاعلًا؛ لأنَّه:

1- اسمٌ: قرينةُ البنية.

¹ حَسَنان، اللُّغة العربيَّة، 125.
² تمام حَسَنان، الخلاصة النَّحْوِيَّة، 70.
³ علوي، اللِّسانِيَّات في النَّقَاطَةِ العربيَّة المعاصرة، 247.
⁴ حَسَنان، اللُّغة العربيَّة، 226.
⁵ تمام حَسَنان، مناهج البحث في اللُّغة، 164.
⁶ تمام حَسَنان، مقالات في اللُّغة والأدب، 258.
⁷ حَسَنان، "القرائن النَّحْوِيَّة"، 51-52.
⁸ لا حاجة لأنْ نفصلَ هنا حَوْلَ "القرينة الحاليَّة"؛ لأنَّها تتقاطعُ مَعَ فكرةِ "السِّيَاقِ عندِ البلاغيِّين"، ومفهومِ "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"؛ وبالتالي في شرحها سُبْعُ تَكَرَّارًا لِمَا ذَكَرْتُهُ سابقًا. انظر: الفصل الأوَّل لدى حديثنا حَوْلَ "السِّيَاقِ عندِ البلاغيِّين".

2- مرفوع: قرينه العلامة الإعرابية.

3- تقدّمه فعل: قرينه الرتبة.

4- الفعل مبني للمعلوم: قرينه البنية في الفعل.

5- أُسند إليه القيام بالفعل أو الاتّصاف به: قرينه الإسناد¹.

ولعلنا نفهم من هذا- إضافة إلى ما ذكر آنفا- أنّ تمام حسان استمدّ في تحليله "القرائي" هذا من خمسة مصادر، تتمثل، أولاً: بالنظام الصوتي، وثانياً: بالنظام الصرفي، وثالثاً: بالنظام النحوي، ورابعاً: بدلالة السياق، وخامساً: بالدلالة الحالية². ثمّ يؤكّد تمام حسان أنّ النظام النحوي المبني على أسس عديدة، تُعدّ "دلالة السياق"- من بينها- أكبر القرائن النحوية، من حيث إنّ "السياق" يشتمل على جميع القرائن المعنوية واللفظية وقرينة المقام أيضاً³.

ويتبدّى لنا أنّ تمام حسان كان قد استقى نظريته هذه، التي هي في نهاية المطاف ركنٌ مكيّنٌ من أركان "السياق النحوي" دون أدنى شكّ، استقاهها من نحاة سابقين له، على رأسهم عبد القاهر الجرجاني في نظرية "النظم"، وكذلك من بعض النحاة الذين كان لهم ميزة خاصة في الفكر النحوي التجديدي كابن هشام الأنصاري، الذي بدّره أشار إلى القرائن بشكلٍ لافت⁴.

وبناءً على ذلك، يرى تمام حسان أنّ جميع "القرائن" في اللغة العربية تنطوي كلها تحت ما سمّاه "قرائن التعليق"⁵، وهي إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بوساطة القرائن اللفظية والمعنوية والحالية⁶. وهي - إذا أعمنا النظر - تُترجم، نوعاً ما، الفكرة الرئيسة عند عبد القاهر الجرجاني في نظريته لمفهوم النحو العربي المتمثلة بـ "النظم"؛ وبهذا فإنّ التعليق هو الإطار الضروريّ للتحليل النحويّ أو الأعرابي، وهو يُحدّد- في حقيقته- الأبواب النحوية في "السياق"، ويُفسّر العلاقات بينّها بصورة شاملة في التحليل النحويّ لهذه المعاني الوظيفية النحوية، ووسيلته في

¹ حسان، اللغة العربية، 196.

² انظر في بداية هذا الفصل؛ فقد عرّضتُ لمعنى الدلالة الحالية عند تمام حسان لدى تفسير مصطلحي "المقام" و"الحال" والفرق بينهما.

³ تمام حسان، "القرائن النحوية"، اللسان العربي 11 (د. ت)، 38.

⁴ انظر في الفصل الثالث لدى حديثنا حول "قرائن الحذف" عند ابن هشام الأنصاري.

⁵ حسان، اللغة العربية، 188.

⁶ ن. م، 193.

ذلك "القرائن"، وهذا ما عبّر عنه تمام حسان نفسه عن هذا التأثير محيلاً ذلك إلى الجرجاني خلال قوله إن "هذا هو السبيل، فكسنت بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو غومل بخلاف هذه المعاملة، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحة النظم أو فسادِهِ، أو وُصف بمزية أو فضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وتلك الفساد، تلك المزية، وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل باب من أبوابه¹.

من هنا، يُعلّق محمد صلاح الدين الشريف أن مصطلح "التعليق" - الذي أشار إليه تمام حسان - ما هو إلا تعريب لمفهوم السنّي حديث هو "العلاقات السياقية"، والذي كان صلب الدراسة التحويلية في المدرسة البنيوية. ولولا أنه قال: "ولما ينبغي لنا أن نتصدى للتعليق النحوي بالتفصيل تحت عنوانين أحدهما العلاقات السياقية أو ما يُسميه الغربيون والثاني هو القرائن اللفظية² لما أدركنا أن قرائن التعليق تعريب بمفهوم العلاقات السياقية. ذلك أن وضعه لهذا المصطلح لم يكن مجرد ترجمة وإنما كان تعريباً بمعنى التأصيل والتأصيل³.

إضافة إلى النحاة القدماء الذين تأثر بهم تمام حسان، لا بد أن أؤكد أنه تمام حسان تأثر تأثراً بالغا بأستاذه فيرث، حيث حاول تمام حسان - فيما اعتقده - أن "يسقط" نظرية فيرث السياقية على قواعد النحو العربي، محاولاً أن يدمج بين رؤية النحاة القدماء "المجددين" وبين النظرية اللسانية الحديثة لا سيما تلك الأفكار اللغوية المتمثلة بنظرية فيرث.

وبالإضافة إلى هذا، حاول تمام حسان أن يضع الجوانب الإعرابية في موضعها الصحيح - كما يقول الباحث محمد عبد اللطيف - وذلك في إطار نظرية "القرائن التحويلية"، حينما ركّز في نظريته على العلاقات المتشابهة في الجملة ودلائل هذه العلاقات أو القرائن التحويلية التي يكشف عن هذه العلاقات مع مراعاة أن

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 82-83.

² حسان، اللغة العربية، 189.

³ محمد صلاح الدين الشريف، "النظام اللغوي بين الشكل والمعنى من خلال كتاب تمام حسان "اللغة العربية مبناها ومعناها""، حوليات الجامعة التونسية 17 (1979)، 216.

المعاني التحويلية هي وظائف للمباني التي يتكوّن منها المبنى الأكبر للسياق. وهذا يعني أنّ الكشف عن العلاقات السياقية هو الغاية من "الإعراب"¹.

إذن، فقد بيّن تمام حسان أهمية "السياق" في فهم معنى التركيب التحويلي، وهذا الأمر انعكس بشكل واضح في معالجته التحويلية للنص القرآني، حيث يركز أساساً على فقه الأساليب اللغوية القرآنية، بما هي علاقات بيّن عناصر منتظمة بما يُحقّق مناسبة المعنى، ويعتمد في هذا "السياق" على الظروف الحسية والتفسيّة المحيطة بالنص، وعلى المحيط الاجتماعي بما فيه من عادات وتقاليد، ممّا يؤكّد ضرورة المعرفة التامة بأسباب النزول، وأخبار العرب وحياتهم العقلية والروحية والاجتماعية بصفة عامّة؛ وبناءً عليه، تمتدّ قرينته "السياق" على مساحة واسعة من المبادئ التحويلية الأساسية التي تبدأ باللغة وتنتهي بهذه "القرائن" المتعدّدة².

لقد جاءت أفكار تمام حسان على امتداد عدّة كتب مقالات، ولكنها أشهرها في التعامل مع النصّ القرآني بشكل خاصّ ومباشر كان كتاب "البيان في روائع القرآن"، حيث سعى في هذا الكتاب إلى ترجمة نظريته في القرائن والسياق من خلال النصّ القرآني، حيث يؤكّد أنّ الدراسة اللغوية في هذه الكتاب إمّا تتمّ من خلال موقف القرآن من القرائن اللفظية الدالة على المعنى التحويلي، وهي الإعراب والبنية والربط والتضام وقرينته السياق، وهي - أي قرينة السياق - أكبر القرائن التحويلية³.

ثمّ يبيّن تمام حسان أنّ المقصود بالدراسة الأسلوبية للنصّ القرآني في هذا الكتاب إمّا تبدأ بالنظر في استعمال الأسلوب القرآني للقيم الصوتية كالإيقاع والفاصلة... إلخ، وبالنظر إلى ظواهر أسلوبية وردت في القرآن كالتوكيد والتفني والتعجب والشرط... إلخ، من خلال تصريف النصّ القرآني في أنماط الجمل التي يُعبر بها عن هذه الظواهر⁴.

¹ محمّد عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، 287-288.

² حسان، اللغة العربية، 221.

³ تمام حسان، البيان في روائع القرآن- دراسة لغوية وأسلوبية للنصّ القرآني، 12.

⁴ ن. م، 13.

ومن الأمثلة العملية¹ التي يطرحها تمام حسان ما يتعلق بالقرينة المبنوية - كما يُسميها - أي المتعلقة
 المبنى اللفظي ما ورد في قوله تعالى: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ...}؛² مؤكِّداً
 أنَّ الدليل على أنَّ "إن" هي "إن" المخففة من الثقلية وأنَّ معنى السياق في هذا الموضع هو التأكيد وليس الشرط؛
 وذلك لكون الفعل "يكاد" مرفوعاً غير مجزوم، إضافةً إلى وجود اللام في خبر "إن" المخففة وعدم وجود ما يصلح
 للشرط³.

ويضيف تمام حسان أنه من اعتماد القرينة السياقية على قرينة نحوية علاقة ما نجد في قوله تعالى:
 {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ...}؛⁴ إذ يأذن التركيب أنَّ يكون خبر المبتدأ
 إما "الغفور" وإما "ذو الرحمة"، باعتبار أنَّ "الغفور" صفة للمبتدأ، وإما جملة "لو يؤاخذهم" باعتبار ما قبلها صفتين
 للمبتدأ، وتأتي القرينة السياقية من الإضراب عن تعجيل العذاب إلى ضرب موعد مقبل لهم، والدليل على هذا -
 كما يقول حسان - قوله تعالى فيما بعد: {بَلْ هُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مُؤْتَلًّا}؛⁵ فدل ذلك على أنَّ الخبر
 هو: لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ}، وقد جاءت القرينة السياقية الدالة على ذلك من علاقة الإضراب
 المعبر عنها بحرف الإضراب "بل"⁶.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} ♦ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
 حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}؛⁷ إذ إنَّ "الجارَّ والمجرور في "لكم" الأولى يمتنع تعليقها بالفعل "خَلَقَهَا" بسبب
 علاقة التوازي بين ما في الآيتين بواسطة العطف، هكذا:

أ - لكم فيها دِفْءٌ ومنافع ومنها تأكلون.

ب - ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون.

¹ نكتفي ببعض الأمثلة من ضمن مئات الأمثلة؛ لأنَّ المجال لا يتيح لي ذلك، ولأنَّ الهدف من هذه الأمثلة هو أخذ تصوُّر لمفهوم السياق
 عند تمام حسان السياق.

² القرآن الكريم، القلم: 51.

³ تمام حسان، البيان في روائع القرآن، 212.

⁴ القرآن الكريم، الكهف: 58.

⁵ القرآن الكريم، الكهف: 58.

⁶ تمام حسان، البيان في روائع القرآن، 213.

⁷ القرآن الكريم، النحل: 6-5.

مما يجعل الجارَّ والمجرورَ خبراً مقدَّماً في الحالتين، وهكذا تكونُ جملةُ "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا" جملةً مستقلةً¹.

كما يَضْرِبُ تَمَامُ حَسَنٍ أَمثلةً لتلكِ الظُّروفِ الحسِّيَّةِ والنَّفسيَّةِ المحيطةِ بالنَّصِّ القرآنيِّ نحو قوله تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَّى النِّسَاءِ اللَّائِي لَا تُؤْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}² فيقول: ".فالتَّركيبُ صالحٌ لمعنى "وترغبون في أن تنكحوهن" وكذلك "وترغبون عن أن تنكحوهن"، وقد حَذَفَ حرفَ الجرِّ قَصْداً؛ ليعمَّ التَّركيبُ حالتي الرِّغبةِ فيهنَّ والرِّغبةِ عنهنَّ؛ لأنَّ اليتيمةَ ذاتِ المالِ إمَّا أَنْ تكونَ جميلةً فيرغبَ وليُّها في أن ينكحها استثناءً بما لها وجمالها، وإمَّا أَنْ تكونَ قبيحةً فيعضلها رغبةً عنها وطمعاً في مالها، وهكذا تكونُ الظُّروفُ النَّفسيَّةُ مُتَّكِّفاً لقرينةِ السياقِ دالَّةً على أنَّ حَذَفَ حرفَ الجرِّ مقصودٌ؛ لِيَشْمَلَ التَّركيبُ الحالتينِ كلتيهما حالةَ الرِّغبةِ فيهنَّ وحالةَ العزوفِ عَنْهُنَّ مَعَ استبقائهنَّ مِنْ أَجْلِ مالهنَّ في الحالتينِ"³.

وبعدَ هذه الأمثلةِ وَغَيْرِهَا يُلَخِّصُ تَمَامُ حَسَنٍ أَهميَّةَ قرينةِ السياقِ في معالجةِ القضايا النَّحويَّةِ في النَّصِّ القرآنيِّ، فيؤكِّدُ ذلكَ بقوله: "وهكذا تمتدُّ قرينةُ السياقِ على مساحةٍ واسعةٍ مِنْ التَّكَاثُرِ تَبْدَأُ بِاللُّغَةِ مِنْ حَيْثُ مَبَانِيهَا الصَّرْفِيَّةُ وعلاقتها النَّحويَّةُ ومفرداتها المعجميَّةُ وتشملُ الدَّلالاتِ بأنواعها مِنْ عَرَفِيَّةٍ إلى عَقْلِيَّةٍ إلى طَبِيعِيَّةٍ، كما تشتملُ على المقامِ بما فيه مِنْ عناصرٍ حَسِّيَّةٍ ونَفْسِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ كالعاداتِ والتقاليدِ ومأثوراتِ التَّراثِ... مما يجعلُ قرينةُ السياقِ كبرى القرائنِ بِحَقٍّ؛ لأنَّ الفرقَ بَيْنَ الاستدلالِ بها على المعنى وَبَيْنَ الاستدلالِ بالقرائنِ اللَّفْظِيَّةِ النَّحويَّةِ هو فَرْقٌ ما بَيْنَ الاعتدادِ بِحَرْفِيَّةِ النَّصِّ والاعتدادِ بِروحِ النَّصِّ. وقرينةُ السياقِ هي الَّتِي يَحْكُمُ بِوَاسِطَتِهَا على ما إذا كَانَ المعنى المقصودُ هو الأصليُّ أو المجازيُّ، وهي (أي قرينةُ السياقِ) الَّتِي تقضي بأنَّ في الكلامِ كنايةً أو توريةً أو جناساً... إلخ، وهي الَّتِي تدلُّ عِنْدَ غِيَابِ القرينةِ اللَّفْظِيَّةِ على أنَّ المقصودَ هذا المعنى دُونَ ذَاكَ إِذْ يَكُونُ كلاهما محتملاً..."⁴.

¹ حَسَنٍ، البَيَانُ فِي رَوَايَةِ الْقُرْآنِ، 213-214.

² الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، النِّسَاءُ: 127.

³ حَسَنٍ، البَيَانُ فِي رَوَايَةِ الْقُرْآنِ، 218-219.

⁴ ن. م، 221-222.

ولم يكتفِ تمام حستان بالأمثلة التحويلية فقط، بل نراه في بعض المواضع يدمج ظواهر صوتية ودلالية بالتحوّل حيث تستقلّ النغمة بالدلالة على المعنى، فتكوّن - هذه النغمة - القرينة الوحيدة في الكلام، نحو حذف الأداة في الجملة العربية ولا سيما تلك الأدوات التي لها حقّ الصدارة¹، ففي قوله تعالى: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}²، حُذِفَتِ الـ"يا" ودلّ سياق الآية مصحوباً بالنغمة الندائية على أنّ هذا التركيب إنّما هو تركيب ندائي يهدف إلى المناداة ودعوة المخاطب (يوسف).

2. 7. 2. السامرائي وتداول منظومة "السياق" في تفسير النصّ القرآني:

عندما نتأمل ما قام به فاضل السامرائي [1933-....م] على امتداد سنوات طويلة، يتبدى لنا مدى اهتمامه البالغ بالسياق، بل لا يخلو كتاب من كتبه إلّا والسيّاق حاضر بكثافة، بل قد نجد في بعض كتبه أنّ لفظة "سياق" و"السياق" تجاوزت العشرات إلى المئات.

ونستطيع القول إنّ السامرائي، من خلال مؤلفاته، كان قد شغل بتفسير الآيات والمواضع المتشابهة في النصّ القرآني تفسيراً سياقيّاً، حيث يحاول من خلاله أن يجد الفروق اللغوية-التحويلية وذلك بعرض الآية والحديث عن سياقها، ثمّ بمقارنة هذه الآية بآيات أخرى في سياقات مغايرة؛ وبالتالي يتمّ التعرف على المعنى التحويلي للمسألة التحويلية في هذه الآية خلال سياقها وسياق غيرها من الآيات.

يُعرّف السامرائي "السياق" على أنّه مجرى الكلام وتسلسله واتّصال بعضه ببعض، وهو من أهمّ القرائن التي يفهم خلالها الكلام والتي تدلّ على المعنى المراد³، وهو يتداخل مع المقام الذي يعني تلك الحالة التي يقال في الكلام، وانطلاقاً من هذا، فإنّ مراعاة السياق هو في غاية الأهمية في أجل تحليل الجملة العربية، والتعمّق في مفهوم تراكيبيها⁴، ففي قوله تعالى - مثلاً - {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}⁵، لا يتضح معنى الآية إلّا من السياق الذي

¹ تمام حستان، "القرائن التحويلية واطراح العامل والإعرابيين التقديري والمحلي"، مجلة اللسان العربي 11 (1974)، 50.

² القرآن الكريم، يوسف: 29.

³ فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى (عمّان، دار الفكر ناشرون وموزعون، 2007)، 56-58.

⁴ فاضل السامرائي، الجملة العربية والمعنى، 57.

⁵ القرآن الكريم، الدخان: 49.

وَرَدَتْ فيه؛ لأنَّ ظاهرَ العبارةِ التَّكْرِيمُ وحقيقتها التَّحْقِيرُ والاستهزاء¹. إذن، فسياقُ هذه الجملةُ تدلُّ على أنَّ المخاطَبَ هو الحقيرُ الدَّليلُ، وبالتالي فإنَّ مقامَ الآيةِ تدخلُ في بابِ المدحِ الَّذي يُرادُّ به الدَّمُّ، نحو مَنْ يقولُ ساخرًا وذاً: "أَنْتَ أَشْعَرُ مِنَ الْمُتَنَبِّيِّ، وَهُوَ أَجْوَدُ مِنْ حَاتِمٍ، وَأَنْتَ أَفْحَى مِنْ سَيْبُوَيْهِ"، فحقيقتها المعنى مخالفةُ لظاهرِ اللَّفْظِ، والَّذي يُبَيِّنُ ذلكَ هو السِّياقُ والمقامُ الَّذي تُقالُ فيه العبارةُ². وكذلك الأمرُ - والأمثلةُ القرآنيَّةُ كثيرةٌ في النِّصِّ القرآنيِّ، كما يُبيِّنُ السَّامِرانيُّ - نحو قولِهِ تعالى: {وَلَا بُؤْيُوهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ}³، فليسَ هناكَ ضميرٌ عائِدٌ في "أبويهِ"، إلَّا أنَّ السِّياقَ هو الَّذي يكشفُ عَن أنَّ مرجعَ الضَّميرِ في "أبويهِ" وهو "الميت"؛ وذلكَ بقريضةِ توزيعِ الإرث⁴.

وبهذا، فإنَّ التفسيرَ عِنْدَ السَّامِرانيِّ هو عبارةٌ عَن تلكَ الطَّريقةِ الَّتِي يُبيِّنُ فيها المفسِّرُ أسرارَ التَّركيبِ في التعبيرِ القرآنيِّ، حَيْثُ تَنْصَبُ فيه العنايةُ على بيانِ أسرارِ التعبيرِ مِنَ النَّاحِيَةِ الفَنِّيَّةِ الأَدائِيَّةِ لِلتَّركيبِ كالتَّقديمِ والتَّأخيرِ، والدَّكْرِ والحذفِ، واختيارِ لفظَةٍ دُونَ أُخرى، وما إلى ذلكَ بما يتعلَّقُ بأحوالِ التعبيرِ القرآنيِّ⁵. وفيما نراه، فإنَّ أهمَّ عنصرٍ يَتَّخِذُهُ السَّامِرانيُّ في تفسيرِهِ النِّصِّ القرآنيِّ هو السِّياقُ، فبعدَ أنْ تحدَّثَ عَن تلكَ الأمورِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا المفسِّرُ⁶؛ كي يتصدَّى للتفسيرِ، شَدَّدَ على "النَّظَرِ في السِّياقِ"، شارحًا إيَّاه - السِّياقَ - بأنَّه من خلالِ السِّياقِ تَتَضَحُّ كثيرٌ من الأمورِ، ويَتَضَحُّ سببُ اختيارِ لفظَةٍ دُونَ أُخرى، وتركيبِ دُونَ آخَرٍ، ويتَضَحُّ - مثلاً - سببُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ، والدَّكْرِ والحذفِ⁷.

ويؤكِّدُ السَّامِرانيُّ أنَّ "السِّياقَ" هو مِنْ أَهمِّ القرائنِ الَّتِي تدلُّ على المعنى، وأنَّ عَدَمَ النَّظَرِ فيه قد يوقِعُ في الغلطِ أو عَدَمَ الدَّقَّةِ في الحكمِ، مستدلاً بذلكَ على نحوِ قولِ الأخفشِ في زيادةِ "من" الجارَّةِ، فإنَّه لم يشترطْ لزيادتها تنكيرَ المجرورِ ولا سَبْقَهُ بنفيٍّ أو شبهه، واستدلَّ على رأيِهِ بقولِهِ تعالى: {يَعْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}⁸، فقد ذَهَبَ

¹ السَّامِرانيُّ، الجملةُ العربيَّةُ، 57؛ الزَّرَكشيُّ، البرهان، 2: 200-201.

² السَّامِرانيُّ، الجملةُ العربيَّةُ، 58-59؛ الثَّعالبيُّ، فقه اللغة وسرُّ العربيَّة، 498.

³ القرآن الكريم، النساء: 11.

⁴ السَّامِرانيُّ، الجملةُ العربيَّةُ، 58.

⁵ فاضل صالح السَّامِرانيُّ، على طريق التفسير البياني (عمان: دار الفكر ناشرون وموزعون، 2010)، 1: 6.

⁶ مِنْ الأمورِ الَّتِي ذَكَرَهَا السَّامِرانيُّ: التَّبَحُّرُ في علمِ اللُّغَةِ، التَّبَحُّرُ في علمِ النِّصْرِيفِ، التَّبَحُّرُ في علمِ النُّحوِ، التَّبَحُّرُ في علومِ البلاغةِ، القراءات، أسبابُ النزولِ. انظر: فاضل السَّامِرانيُّ، على طريق التفسير البياني، 1: 11-11.

⁷ فاضل السَّامِرانيُّ، على طريق التفسير البياني، 1: 11.

⁸ القرآن الكريم، نوح: 4.

إلى أنها زائدةٌ بدليل قوله تعالى في آيةٍ أخرى: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}¹، وهذا الاستدلال - كما يُردُّ السامرائي - باطلٌ، فإنه ينبغي أن يُنظرَ في السياقِ بخصوص تأويل الأخفش؛ ذلك لأنَّ قِسْمًا مِنَ الأعمالِ يدعو إلى مغفرة بعضِ الذنوبِ، وبعضها يدعو إلى مغفرة الذنوبِ كُلِّها². وكأنَّ السامرائي يريد أن يقول إنَّ الأخفش لم يُراعِ سياق الآياتِ، واستنادًا على السياقِ فإنه الآية {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} تعني أنَّ "مِنْ" هنا تبعيضيةٌ وليست زائدةً، أي: من بعضِ ذنوبِكُمْ وليس كلِّ ذنوبِكُمْ، بينما يدلُّ سياقُ الآية في قوله تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} على مغفرة كلِّ الذنوبِ وليس بعضًا منها فقط.

ومِنَ الأمثلةِ على حضور "السياق" وأهميته عند السامرائي ما يعرضُ له في تفسيره لأسلوب الشرط في قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا...}³ حيثُ يقولُ فاضل السامرائي إنَّ جملة الشرط هنا جاءت بفعل الشرط الماضي "وَمَنْ كَفَرَ"، وهذا التعبيرُ نظيرُ قوله تعالى في آيةٍ سابقة: {وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}⁴؛ فجاء الشرطُ الأوَّلُ مضارعًا "يَشْكُرْ"، والثاني ماضيًا "كَفَرَ"، فأما مجيء فعل الشرط مضارعًا "يَشْكُرْ"؛ فهو للدلالة على الشكرِ يتكرَّرُ، ذلك أنَّ كلَّ نعمةٍ تمرُّ بالإنسانِ ينبغي أن يشكر الله عليها، وهذا الشكرُ ينبغي أن يتكرَّرَ، فجاء بصيغة الفعل المضارع الذي يدلُّ على الديمومة والاستمرارِ متناسبًا مع سياق الآية ومعناها، وجاء فعل الشرط "وَمَنْ كَفَرَ" على صيغة الماضي؛ لأنَّ الكُفْرَ لا يتكرَّرُ كتكرَّرِ الشُّكْرِ، بل قد يحصلُ ابتداءً ويبقى صاحبه عليه⁵ - على حدِّ قول السامرائي.

وعليه، يُفصِّلُ السامرائي بأنَّ هذا هو الظاهرُ في استعمال أسلوب الشرط في النصِّ القرآني⁶ على أنَّه يُؤتى بفعل الشرط مضارعًا فيما يتكرَّرُ حدوثه، ويُؤتى به ماضيًا فيما لا يتكرَّرُ حدوثه⁷.

¹ القرآن الكريم، الصَّف: 12.

² السامرائي، على طريق التفسير البياني، 1: 11-12.

³ القرآن الكريم، لقمان: 23.

⁴ القرآن الكريم، لقمان: 12.

⁵ السامرائي، على طريق التفسير البياني، 2: 359.

⁶ السامرائي، معاني النحو، 4: 436-438.

⁷ السامرائي، على طريق التفسير البياني، 2: 359؛ معاني النحو، 4: 436-438.

ثُمَّ جَاءَ قَوْلُهُ: "فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ" بما يتناسبُ مَعَ سياقِ الآيةِ، إذْ جَعَلَ الكُفْرَ فاعلاً والمُخاطَبَ مفعولاً به، والمعنى لا تحزن لكفره؛ وكأنَّه ينهى الكُفْرَ أن يكون سبباً في حزنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فنهأه اللهُ أن يفعل ذلك رَأْفَةً بِهِ، وإشفاقاً عَلَيْهِ، وَقَدْ وَقَعَ "الكُفْرُ" فاعلاً وهو المنهَى، نحو قولنا: لا يضرب أخوك خالداً)، فالمنهَى عَنِ الضَّرْبِ هو أخوك. هذا إضافةً إلى ما فيه مِنَ التَّعبيرِ المجازيِّ، فكأنَّ "الكُفْرَ" ذاتٌ عاقلة، ولو قال في هذا الموضع: "لا تحزن لكفره" لَمْ يُؤدِّ هذا المعنى - كما يُوَكِّدُ السَّامِرِيُّ¹..

ونلاحظُ السَّامِرِيُّ، بعدَ ذلك، يتحدَّثُ حَوْلَ جوابِ الشَّرْطِ الَّذِي اقترنَ بالفاءِ في قوله "فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ"، فيقولُ إِنَّ هذه الفاءَ هي الفاءُ الرَّابِطَةُ لجوابِ الشَّرْطِ، وقد جاءَ فيها تنصيصاً على أَنَّ مَنْ "في قوله" مَنْ كَفَرَ "اسمُ شرطٍ، ولو لَمْ يَأْتِ بالفاءِ لاحتمالُ أَنْ تكونَ "مَنْ" اسماً موصولاً وليسَ اسمَ شرطٍ كما هو في هذا الموضعِ القرآنيِّ. فضلاً عَنِ أَنَّ مجيءَ الفاءِ هنا يفيدُ العمومَ، أي: كلَّ مَنْ كَفَرَ؛ لأنَّ أسماءَ الشَّرْطِ تُفيدُ العمومَ، وأمَّا الاسمُ الموصولُ فهو مِنَ المعارفِ، وَقَدْ يُرادُ به شخصٌ معيَّنٌ، أو أشخاصٌ بأعيانهم؛ فلا يشملُ العمومَ، نحو: مَنْ زارني أكرمتُهُ، و"زارني مَنْ أُحِبُّهُ"، وَقَدْ يُرادُ بِهِ الجنسُ أَيْضاً. ولهذا، فإنَّ اسمَ الشَّرْطِ يُرادُ بِهِ العمومُ، فجاءتِ الفاءُ في هذا الموضعِ القرآنيِّ للدَّلالةِ على هذا المعنى².

وفي قوله بعدَ ذلك: "إِنَّا مَرْجِعُهُمْ" جيءَ بضميرِ الجمعِ الَّذِي يُفيدُ التَّعْظِيمِ في "إِنَّا"، في حين نرى في موضعٍ آخَرَ يقولُ: {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}³ بضميرِ الإفرادِ، ويعودُ السَّبَبُ في ذلك إلى اختلافِ سياقِ الموضعينِ، ففي هذه الآيةِ "إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ" جاءتْ في موطنِ النَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ: (لا تشرك بالله... وإنْ جاهداك على أنْ تُشْرِكَ بي...)، فَأَفْرَدَ "إِلَيَّ"؛ للدَّلالةِ على الوحْدانيَّةِ في حين لم يكنِ السِّياقُ في الآيةِ الثَّانِيَةِ "إِنَّا مَرْجِعُهُمْ" كما هو في الآيةِ السَّابِقَةِ؛ فجاءَ بضميرِ التَّعْظِيمِ. كما أنَّه كانَ قَدْ قَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ "إِنَّا" الَّذِي هو الخبرُ على المبتدأ؛ لإفادةِ الحصرِ، أيْ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ لا إلى غَيْرِنَا⁴.

¹ السَّامِرِيُّ، على طريقِ التفسيرِ البيانيِّ، 2: 407-408.

² ن.م، 2: 408.

³ القرآن الكريم، لقمان: 15.

⁴ السَّامِرِيُّ، على طريقِ التفسيرِ البيانيِّ، 2: 408.

كما أنه قيل في هذه الموضع: "إلينا مرجعهم" ولم يقل: "ثم إلينا مرجعهم" - كما هو في مواضع أخرى في السورة نفسها في قوله: {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ¹ - وذلك؛ لإرادة تقريب المرجع إليه، وهو الله، وذلك أن حرف العطف "ثم" يفيد المهلة والتراخي، فلم تُذكر هنا، على خلاف الموضع الآخر الذي قال فيه: {وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} ²؛ مجاهدة الوالدين قد تستغرق وقتاً طويلاً ³، لا سيما في قوله بعد ذلك مباشرة: {وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} ⁴، فأمر بمصاحبتهم بالمعروف وإن امتدت الحياة بهما ⁵، وبما أن سياق الآية مبني على الإمهال والتأخير؛ فناسب ذكر "ثم" دون الفاء أو غيرها ⁶.

كما نلاحظ أن السامرائي لا يكتفي بتعزيز الملمح السياقي في النص القرآني، بل يحاول مناقشة كثير من المسائل التحويلية واللغوية؛ بهدف استيعاب تركيب الجملة القرآنية، ومعرفة الأسباب الكامنة وراء ترابط الكلمات فيما بينها، وبالتالي يحاول تفسير لم ورد هذا التركيب ولم يرد في غيره؟ ولم جاء على هذا الشكل ولم يأت على شكل آخر، فراه يقول في تفسيره لقوله تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} ⁷: "في هذه الآية أمورٌ بيانيةٌ دقيقةٌ نذكر منها:

1 - أنه قال: "فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ" ولم يقل "فلم تُغن"؛ ذلك أن التقي بـ"ما" أكد؛ لأنه جواب لـ"لقد" في قوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} ⁸. و"لقد" جواب قسم مُقدَّر ويدل على ذلك الاستعمال القرآني في نحو هذا الاستعمال.

¹ القرآن الكريم، لقمان: 15.

² القرآن الكريم، لقمان: 15.

³ نصن الآيات هو: {ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير} ♦ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون}. القرآن الكريم، لقمان: 14-15.

⁴ القرآن الكريم، لقمان: 15.

⁵ السامرائي، على طريق التفسير البياني، 2: 408.

⁶ ن. م، 2: 410.

⁷ القرآن الكريم، هود: 101.

⁸ القرآن الكريم، هود: 96.

2- وقال: "آلهُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ"، ولم يقل "اللاتي"؛ وذلك للدلالة على الكثرة، فإنَّ الوصفَ لغيرِ العاقلِ بالمفرد يدلُّ على الكثرة، فقَوْلُكَ "أنهارٌ جارِيَةٌ" يدلُّ على كثرة الأنهار، وهي أكثر من "أنهارٌ جارياتٌ"، ونحو "أشجارٌ مشمِراتٌ" و "أشجارٌ مثمرةٌ"¹.

3- وقال: "يَدْعُونَ" بالفعل المضارع؛ وذلك لحكاية الحال الماضية، بمعنى أنَّ الفعل المضارع "يَدْعُونَ" يَصَوِّرُ حالهم في ذلك الوقت بلسان الحكاية. أو أنَّه جاءَ بالفعل المضارع "يَدْعُونَ"؛ للدلالة على استمرار عبادتهم لها؛ لأنَّ الفعل المضارع يدلُّ على الاستمرار والتَّيَمُّومِ².

4- وقال: "مِنْ شَيْءٍ"، وهذه الـ"مِنْ" هي "مِنْ" المؤكِّدة الدَّالَّةُ على الاستغراق، أي لم تُعِنْ أَيَّ شَيْءٍ، على سبيل الاستغراق، فقَوْلُهُ "مِنْ شَيْءٍ" يحتملُ أن يكونَ المعنى نَفْيُ أَيِّ شَيْءٍ مِنَ الإغناء أو أَيِّ شَيْءٍ مِنَ الأشياءِ.

5- وقال: {وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ³}، فنفي بـ"ما" ولم يَنْفِ بـ"لم"، فلم يَقُلْ "ولم يزدوهم"؛ وذلك للتأكيد كما دُكِرَ سابقاً. ولتوضيح المعنى فقد جاءَ على لسان النبيِّ نوح - عليه السَّلام - في موضعٍ آخر: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاً وَهَمَّاراً ♦ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً⁴}، فنفي بـ"لم" بقوله "فَلَمْ يَزِدْهُمْ" ولم يَنْفِ بـ"ما"؛ وذلك لأنَّ هذه الزيادة دون ما دُكِرَ في سورة هود. فقد قال في سورة "نوح" إنَّ دعاءَهُ زادهم فراراً، وما دُكِرَ في سورة "هود" أنَّ أهْلَهُم زادهم هلاكاً وتحسيراً؛ وبالتالي، فلا شكَّ - كما يُبيِّن السَّامِراني - أنَّ الزيادة في سورة "هود" كانت أشدَّ وأفظعَ فَنَفَى بـ"ما"⁵.

ويُشِيرُ السَّامِراني في موضعٍ آخر إلى سياقِ التَّقديمِ والتَّأخيرِ، فيقولُ إنَّ النَّصَّ القرآنيَّ استخدمَ أَوْجُهًا عدَّةً للتَّقديمِ والتَّأخيرِ، كتقديم اللَّفْظِ على عاملِهِ، فَمِنْ هذا البابِ تقديمُ المفعولِ به على الفاعلِ، وتقديمُ الحالِ على فعلِهِ، وتقديمُ الظَّرْفِ والجارِّ والمجرورِ على فعلِهِما، وتقديمُ الخبرِ على المبتدأ ونحو ذلك. وهذا التَّقديمُ في الغالبِ يُفِيدُ الاختصاصَ، إذْ إنَّ قَوْلَكَ: "أُنْجِذْتُ خالداً" يُفِيدُ أَنَّكَ أُنْجِذْتُ خالداً ولا يفيدُ أَنَّكَ حَصَصْتَ خالداً

¹ السَّامِراني، على طريق التفسير البياني، 3: 313-314؛ الألوسي، روح المعاني، 12: 138.

² السَّامِراني، على طريق التفسير البياني، 3: 314.

³ التَّبْيِيبُ هو التَّخْسيرُ.

⁴ القرآن الكريم، نوح: 5-6.

⁵ السَّامِراني، على طريق التفسير البياني، 3: 314-315.

بالتَّجَاةِ، بَلْ يَجُوزُ أَنَّكَ أَنْجَدْتَ غَيْرَهُ أَوْ لَضَمِّ تُنْجِدُ أَحَدًا مَعَهُ، وَلَكِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: "خَالِدًا أَنْجَدْتُ" أَفَادَ ذَلِكَ أَنَّكَ خَصَّصْتَ خَالِدًا بِالتَّجْدَةِ، وَأَنَّكَ لَمْ تُنْجِدْ أَحَدًا آخَرَ غَيْرَهُ¹.

ومثل ذلك - كما يقول السامرائي - في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ♦ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ²، فقد قدّم المفعول به "إِيَّاكَ" على فعل العبادَةِ وعلى فعل الاستعانةِ دونَ فعل الهدايةِ، فلم يقل: "إِيَّاْنَا أَهْدِ" كما قال في الفعلينِ الأولينِ "نعبدُ" و"نستعينُ"؛ وسبب ذلك - كما يُبيِّنُ السامرائي - أَنَّ العبادَةَ والاستعانةَ مختصَّانِ باللهِ، فلا يُعْبَدُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، ولا يُسْتَعَانُ إِلَّا بِهِ، وهذا نظيرُ قوله تعالى: {بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}³، وقوله: {وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}⁴، فَقَدَّمَ المفعولُ بِهِ على فعلِ العبادَةِ في الموضعينِ؛ وذلك لأنَّ العبادَةَ مختصَّةٌ باللهِ. ومثل التقديمِ على فعلِ الاستعانةِ في قوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}⁵، وقوله: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنْتَبْتُ}⁶، فَقَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ؛ للدلالةِ على الاختصاصِ؛ وذلك لأنَّ التَّوَكَّلَ لا يكونُ إِلَّا على اللَّهِ وَحْدَهُ، والإِنَابَةُ لَيْسَتْ إِلَّا إِلَيْهِ وَحْدَهُ⁷. مِنْ هُنَا، فَإِنَّ التَّقْدِيمَ والتَّأخِيرَ فِي النَّصِّ الْقِرَائِيِّ لَهُ أَسْبَابٌ عَدِيدَةٌ يَقْتَضِيهَا السِّيَاقُ والمَقَامُ، يَجْمَعُهَا قَوْلُ النُّحَاةِ: إِنَّ التَّقْدِيمَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْعَنَاءِ والاهْتِمَامِ، فَمَا كَانَتْ بِهِ عَنَائَتُكَ أَكْبَرَ قَدَمَتُهُ فِي الْكَلَامِ. والعنايةُ بالكلمةِ لا تكونُ مِنْ حَيْثُ إِهْمَا كَلِمَةٌ مَعِيْنَةٌ، بَلْ تَكُونُ بِحَسَبِ مَقْتَضَى الْحَالِ وَالسِّيَاقِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي التَّرْكِيْبِ النَّحْوِيِّ فِي النَّصِّ الْقِرَائِيِّ⁸.

وبعدَ هذه الأمثلةِ المقتضيةِ، يجدُرُ هُنَا أَنْ أُؤَكِّدَ أَنَّ الْأَمْرَ اللَّافَتَ عِنْدَ السَّامِرَائِيِّ - وَهُوَ مَا نَجِدُهُ فِي قِطَاعٍ وَاسِعٍ مِنْ مَوْثِقَاتِهِ - أَنَّهُ يَدْمِجُ بَيْنَ مَا يُسَمِّيهِ "التَّشَابُهَ والاختلافَ فِي التَّعْبِيرِ الْقِرَائِيِّ"⁹ وَبَيْنَ السِّيَاقِ، فَيَتَعَاطَى فِي

¹ فاضل صالح السامرائي، **التعبير القرآني** (عمان: دار عمار، 2007)، 49.

² القرآن الكريم، الفاتحة: 5-6.

³ القرآن الكريم، الزمر: 66.

⁴ القرآن الكريم، البقرة: 172.

⁵ القرآن الكريم، إبراهيم: 12.

⁶ القرآن الكريم، هود: 88.

⁷ السامرائي، **التعبير القرآني**، 49-50.

⁸ ن. م، 51-52.

⁹ يقول السامرائي في هذا الصدد: "نَمَّ قَرَرْتُ أَنَّ أَدْرَسَ النَّصَّ الْقِرَائِيَّ، فَبَدَأْتُ أُجْرِي مَوَازِنَاتٍ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ حَيْثُ التَّشَابُهَ والاختلافُ فِي التَّعْبِيرِ، وَالتَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ، وَالتَّوَكُّلِ والحذفِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ لُغَوِيَّةٍ وَبَلَاغِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ، وَأَفْحَصُهَا فَحْصًا دَقِيقًا...". ويقول في موضعٍ آخَرَ: "فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آيَاتٌ وَتَعْبِيرَاتٌ تَتَشَابَهُ مَعَ تَعْبِيرَاتٍ أُخْرَى وَلَا تَخْتَلِفُ عَنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنَ ضَعِيفَةٍ كَأَنَّ يَكُونُ الاختلافُ فِي حَرْفٍ أَوْ كَلِمَةٍ أَوْ فِي نَحْوِ ذَلِكَ. وَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا التَّشَابَهَ وَجَدْتَهُ أَمْرًا مَقْصُودًا فِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِهِ قَائِمًا عَلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْفَنِّ وَالبَلَاغَةِ والإِعْجَازِ...". انظر: السامرائي، **التعبير القرآني**، 7؛ 173.

تفسيره مع النص القرآني على عرض المواضع التي تتشابه وتختلف فيها الآيات، التي تبدو للوهلة الأولى أنها متشابهة، ولمن يدقق النظر يتبدى له، من جهة أخرى، أن فيها اختلافًا ما، وهذا الاختلاف إنما مرده - كما يؤكد السامرائي - إلى السياق؛ لهذا نراه يقول: "ليس في القرآن قصة ذكرت في أكثر من موطن تناقض إحداها الأخرى، ولا مسألة تردّد ذكرها اختلقت في فحواها وحقيقتها عنها في موطن آخر مهما اختلفتا في التعبير أو في ذكر ما وقع فيهما"¹.

ومثل ذلك - ما ذكره السامرائي - ما ورد في قصة النبي إبراهيم - عليه السلام - حين جاءته الملائكة، فقد قال في سورة "الذاريات": {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} ♦ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلام قَوْمٍ مُنْكَرُونَ ♦ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ...²، وقال في سورة "الحجر": {وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} ♦ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ³، فقد ذكر في الموضع الأول أنهم حيّوه فردّ عليهم التحيّة: {فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ}، وذكر في الموضع الثاني أنهم حيّوه ولكنه لم يذكر أنه ردّ التحيّة: {فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ}. كما ذكر في الموضع الأول أنه جاء بعجل سمين، ولم يذكر ذلك في الموضع الثاني. وبناءً على هذه الحقيقة يتساءل السامرائي: ما حقيقة الأمر، أهو ردّ التحيّة أم لم يردّها؟ وهل جاءهم بعجل؟ ولم لم يذكر ذلك إذن في الموضع الثاني⁴.

والجواب⁵ الذي يطرحه السامرائي هو أن كلّ تفصيل ذكره القرآن إنما هو قد حصل وربما حصل غيره مما لم يذكره القرآن؛ لأنّه لا داعي لذكره، ولكنه ذكر في كلّ موطن ما يقتضيه السياق والغرض من ذكر القصة. وهذا هو شأن ما يرد في النص القرآني، ففي كلّ موطن يذكر جانبًا يتناسب مع الغرض الذي سيق لأجله المقام الذي ترد فيه⁶.

¹ السامرائي، على طريق التفسير البياني، 1: 14.

² القرآن الكريم، الذاريات: 24-26.

³ القرآن الكريم، الحجر: 51-52.

⁴ السامرائي، على طريق التفسير البياني، 1: 15-16.

⁵ يُفصّل السامرائي الإجابة حول هذين الموضعين، ولا حاجة إلى أن نذكر ذلك هنا؛ لما فيه من الإطالة، ولما فيه من تعليل غير نحوي.

⁶ السامرائي، على طريق التفسير البياني، 1: 16-17.

3. 7. 2. محمد عبد اللطيف والتفاعل بين العناصر النحوية:

يرتكز "السياق" عند محمد حماسة عبد اللطيف [1941-2015م] على المعنى التحوي المتضمن داخل التركيب المنطوق به بطريقة ما؛ ووفقاً لهذا يقوم "السياق" بتحديد "الدلالة"¹ المقصودة من الكلمة داخل جملتها²، فيبني على هذا تصوّره بأنّه لا تكون للعلاقة النحوية مَيِّزَةٌ في ذاتها، ولا للكلمات المختارة مَيِّزَةٌ في ذاتها، ولا لوضع الكلمات المختارة في موضعها الصحيح مَيِّزَةٌ في ذاتها ما لم يكن ذلك كلّهُ في سياقٍ مُلائم³.

ويشير عبد اللطيف إلى طبيعة التفاعل بين العناصر النحوية والدلالية بقوله إنّ كما يمدّ العنصر النحوي العنصر الدلالي بالمعنى الأساسي في الجملة يمدّ العنصر الدلالي العنصر النحوي كذلك ببعض الجوانب التي تساعد على تحديده وتمييزه، إذ إنّ بين الجانبين أخذًا وعطاءً وتأثيرًا مستمرًا؛ فلا يمكن بحال نُكرانُ دلالة سياق النصّ اللغوي وسياق الموقف المُلايس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير. ولا يخفى كذلك أنّ دلالة "السياق" تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصّها في مواقف مختلفة تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها⁴.

ويشرع محمد عبد اللطيف في التأكيد بأنّ كلّ ظاهرة - أيّا ما كانت - مقرونة بسياقها، رهنٌ بها؛ فقد تكون الظاهرة النحوية المخالفة دليل قوة إذا جعلها "السياق" كذلك، وقد تكون غير كاشفة عن شيء من هذا كلّهِ؛ لأنّ تلك الظاهرة قد أصبحت جزءاً من التعبيرات الموروثة التي ألفت حتى لم يعد يلاحظها إلا المشتغلون بأمر النحو⁵. ولهذا، فإنّ كلّ ظاهرة تُفسّر في سياق نصّها وترتبط بالكيان النصّي المعين بحيث تكون ملمحاً نحويّاً يُعدّ لبنة من لبنات "نحو النص" في النص الواحد⁶.

¹ يُقصدُ بها أيضاً الدلالة النحوية، وليس الدلالة المعجمية فقط.

² محمد عبد اللطيف، النحو والدلالة، 98.

³ عبد اللطيف، النحو والدلالة، 98.

⁴ عبد اللطيف، النحو والدلالة، 113.

⁵ محمد حماسة عبد اللطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر - دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور (القاهرة: دار غريب، 2001)،

9.

⁶ محمد عبد اللطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر، 11.

وَلَعَلَّنَا نَلْحَظُ - بِشَكْلِ لَافِتٍ وَمَثِيرٍ - تَأَثَّرَ مُحَمَّدُ عَبْدِ اللَّطِيفِ بِمَنْظُومَةِ السِّيَاقِ مِنْ خِلَالِ آرَاءِ وَمُؤَلَّفَاتِهِ،
 فعلى سبيل المثال يُلَخِّصُ كتابه بعنوان "ظواهر نحوية في الشعر الحر - دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور"
 وما يقوم عليه بأنّ الفكرة المركزية التي تقف من وراء هذه الدراسة والتّهج الذي اتّبعه هو "السّياق"، فبعد أن
 استشهد في بداية المؤلّف بسببويه وابن جني في تعاملهما مع الشّعر وما تحوّل من جوانب نحويّة راح - محمد عبد
 اللّطيف - يُؤكّد أنّ كتابه جاء تفسيراً لبعض الظواهر النحويّة المرتبطة بالسّياق، مُبَيِّنًا أنّ هذا النّوع من التّفسير،
 الذي يربط الظاهرة النحويّة بالسّياق النّصّي، قد سنّه أسلاف لنا عظماء كابن جني وعبد القاهر الجرجاني
 والزمخشري وغيرهم¹ - على حدّ قولهِ. وكأنّه - في رأيي - يمنح نفسه شرعيّة وغطاءً لمثل هذا العمل، خاصّة أنّنا
 نتحدّث عن تفسيرٍ نحويٍّ لشعر التّفصيليّة الحديث، بمعنى أنّه يُحاوِلُ إسقاط التّظنّيّة القديمة على الأعمال الحديثة.
 ولعلّنا نفهم أيضاً من نهجِه هذا أنّ تعامل سببويه وابن جني والجرجاني وغيرهم هو بمثابة تفسيرٍ سياقيٍّ لمسائل
 النّحو من خلال النّصّ الشعريّ.

ثمّ نلاحظُ عبد اللّطيف يُظهر أهميّة هذا التّوجّه عبر إبراز ملامح "السّياق" في تفسير النّصّ القرآنيّ،
 فيقول: "وقد تجلّى هذا النّوع من التّفسير في النّصوص القرآنيّة، وهذا يؤكّد أنّ هذا الضّرب من التّفسير مرتبطٌ
 بالنّصّ مقترنٌ به، وسوف أسوق هنا موقفين من كلام ابن جني يؤكّدان ما أنا بصددِه، أولهما ما قاله ابن جني في
 توجيه قراءة الحسن البصريّ لقوله تعالى: {سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} ² حتّى تنتج عنها واو مدّ، يقول: "وزاد في
 احتمال الواو في هذا الموضع أنّه موضعٌ وعيدٌ وإغلاظٌ، فمكّن الصّوت فيه ³، وزاد إشباعه واعتمادُه فألحقت الواو
 فيه" ⁴. والآخر ما قاله في توجيه قراءة عليّ بن أبي طالب وابن مسعودٍ لقوله تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا
 رُئُوسُكَ} ⁵ بترخيم (مالك) فصارت (ونادوا يا مال)، يقول: "وذلك أنّهم لعظم ما هم عليه ضعفت قواهم، ودلّت

¹ عبد اللّطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر، 11-12.

² القرآن الكريم، الأعراف: 145.

³ أشار ابن جني إلى هذا المفهوم اللّغويّ في موضع آخر في كتاب "الخصائص" مؤكّداً أنّ هذه الفكرة اللّطيفة والدقائق التي لا يوصل
 إليها بثناقب الفهم هي المعاني الموجبة، لأنّ يكون الكلام على هذا النّحو أو ذاك من التّركيب، فإذا كان ما يُراد التّعبيرُ عنه قوياً جاء التّعبيرُ
 عنه بالقوّة نفسها. وقد كان بعض النّحاة القدماء يعتقدون أنّ الأصوات تابعة للمعاني فمتى قويّت؛ قويّت، ومتى ضعفت؛ ضعفت. انظر:

ابن جني، الخصائص، 2: 210.

⁴ ابن جني، المحتسب، 2: 279.

⁵ القرآن الكريم، الزّخرف: 77.

نفوسهم، وصَغُرَ كَلامُهم، فكان هذا مِنْ مواضع الاختصارِ ضرورةً عليه، ووقوفًا دُونَ تجاوزِهِ إلى ما يستعملُه المالكُ لقوله القادر على التَّصَرُّفِ في منطقِهِ"¹. فهذه اللَّمَحَاتُ الدَّالَّةُ معالِمٌ هاديةٌ على طريقِ هذا النَّمَطِ المأمولِ الَّذِي يربطُ بَيْنَ الاستعمالِ الصَّرْفِيِّ أو التَّحْوِيِّ والسِّيَاقِ التَّصَيِّفِيِّ والدَّلَالِيِّ الواردِ فيه سواءً أَكَانَ موافقًا لنظامِ القواعدِ المقرَّرةِ أَمْ مُخَالِفًا لها².

وَيَعْرِضُ مُحَمَّدُ عَبْدِ اللَّطِيفِ لِمَسْأَلَةِ السِّيَاقِ- بتأثيرٍ واضحٍ مِنْ عبدِ القاهرِ الجرجانيِّ- مِنْ خلالِ تلكِ الأمورِ الَّتِي ينبغي أَنْ تُلاحَظَ وتُرصدَ في اختيارِ الصِّيَغِ الخاصَّةِ، والوظائفِ التَّحْوِيَّةِ الَّتِي تشغلُها، ويُلاحَظُ في ذلكِ كَلِّهِ الكيفيَّةُ الَّتِي وَرَدَتْ بها في الجملةِ، وبالتالي تعليلُ هذا التَّركيبِ أو ذاكِ. وكلُّ هذا يُرصدُ مِنْ خلالِ البناءِ الخاصِّ بالجملةِ؛ فَيُراعى في هذا السَّبِيلِ الإطلاقيُّ، والتَّقْيِيدُ، والإفرادُ، والتَّركيبُ، والتَّوَحُّدُ، والتَّعَدُّدُ، وتحتِ كُلِّ مِنْ هذهِ فروعٍ، فَتَحْتَ الإطلاقيِّ والتَّقْيِيدِ هناكِ الفعلُ المطلقُ والفعلُ المقيَّدُ، والمطلقُ هو الفعلُ المبنيُّ للمعلومِ عَينُ المَوْكَدِ المسندُ إلى فاعلِهِ فقط الَّذِي لا يتعلَّقُ به ظرفٌ ولا جارٌ ومجرورٌ، ولمْ يُدْكَرْ لَهُ أيُّ مفعولٍ مِنْ المفاعيلِ المختلفةِ، فإذا زِدْتَ شَيْئًا مِنْ هذهِ كانَ الفعلُ مقيَّدًا، وهنا يختلفُ معنى المطلقِ عَنِ معنى المقيَّدِ في الإفادَةِ، إذ لَيْسَ هناكِ معنًى ضَمَمْتَ إِلَيْهِ شَيْئًا آخَرَ، وإِنَّمَا هو معنًى جديدٌ مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ³. وهكذا يكونُ الأمرُ أَبَدًا، كُلَّمَا زِدْتَ شَيْئًا وَجَدْتَ المعنى قَدْ صارَ عَينَ الَّذِي كانَ، وَمِنْ أَجْلِ ذلكِ صلَحَ المجازاةُ بالفعلِ الواحدِ إذا أُتِيَ بِهِ مطلقًا في الشَّرْطِ ومعدًى إلى شَيْءٍ في الجزاءِ كقوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}⁴، ونحو قولِهِ: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}⁵ مَعَ العلمِ بأنَّ الشَّرْطَ ينبغي أَنْ يكونَ عَينَ الجزاءِ مِنْ حَيْثُ كانَ الشَّرْطُ سببًا والجزاءُ مسببًا، وأنَّهُ محالٌّ أَنْ يكونَ الشَّيْءُ سببًا لنفسِهِ، فلولا أَنَّ المعنى في "أَحْسَنْتُمْ" الثَّانِيَةِ عَينُ المعنى في "أَحْسَنْتُمْ" الأولى، وأَما في حُكْمِ فعلٍ ثانٍ لَمَّا ساءَ ذلكِ⁶.

¹ ابن جني، المحتسب، 2: 257؛ محمد حماسة عبد اللطيف، اللغة وبناء الشعر (القاهرة: دار غريب، 2001)، 20.

² عبد اللطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر، 12.

³ محمد عبد اللطيف، اللغة وبناء الشعر، 34-35.

⁴ القرآن الكريم، الإسراء: 7.

⁵ القرآن الكريم، الشعراء: 130.

⁶ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 411-412.

4. 7. 2. كمال بشر و"النزعة الصوتية السياقية":

اهتمَّ كمال بشر [1921-2015م] اهتمامًا واضحًا بنظرية السياق وما يتقاطع معها من نظريات وعلوم، فقد علّق على ما جاء به فيرث Firth بأنّ المعنى عنده هو نتيجة تلك العلاقات المتشابهة المتداخلة، وهو، نتيجةً إلى هذا، نتاج لحظة معينة بما يُرافقها من صَوْتٍ وصُورَةٍ، وكذلك هو نتيجة المواقف الحية التي يُمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجملُ تكسب دلالته في النهاية من خلال ملابسات الأحداث، أي من خلال السياق الذي يُعتمد عليه في كلِّ تحليل لغوي¹.

ينطلق كمال بشر من حقيقة مفادها أنّ السياق هو مبدأ هامٌّ في الدرس اللغوي، قديمه وحديثه على سواء، وإنّ اختلاف درجة الاهتمام به من حيث الزمان ومناهج البحث في اللغة، ف"السياق" بمثابة العنصر الفاعل في توضيح الكلام، بل في الوصول إلى معرفة مبناه ومعناه بواسطة تلك العلاقات الداخلية (السياق اللغوي) والعلاقات الخارجية (السياق الاجتماعي - المقام)²، ومعنى ذلك - كما يؤكّد بشر - أنّ عدم الاهتمام به وأخذه في الحسبان قد يميل الكلام إلى مجرّد ضوضاء - على حدّ تعبيره³.

من هنا، يرى كمال بشر أنّ اللغويّ المحترف ذا الخبرة والدراية هو من يهتم اهتمامًا شديدًا بالسياق اللغوي؛ ذلك لأنّ مسؤولية هذا اللغويّ تتركز في الأساس على النظر الثاقب في البناء (النص) وفي طرائق تشكيله من حيث الاتساق والمواءمة بين وحداته المكوّنة من صحّة في الاختيار والموقع والربط والإعراب⁴.

وبهذا، نلاحظ أنّ كمال بشر كان يرى النحو برؤية مغايرة لما اعتاد عليه النحاة التقليديون، فالتحو⁵ - عنده - ليس الإعراب، والإعراب ليس النحو. إنّ النحو في نظر كمال بشر هو علم التراكيب، وذلك حينما نريد

¹ كمال بشر، دراسات في علم اللغة، 2: 172.

² كمال بشر، خاطرات مؤتلفات في اللغة والثقافة (القاهرة: دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2007)، 32.

³ كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والحديث (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2005)، 367-368.

⁴ بشر، التفكير اللغوي بين القديم والحديث، 368.

⁵ يرى كمال بشر أنّ النحو ينبغي أن يُبحث من أربعة أوجه: وهي: 1- الاختيار: ويعني اختيار الوحدات أو المورفيمات التي تكون التراكيب. 2- الضمّ والموقعية: وهذا الوجه يحتاج إلى معرفة جيدة بقواعد التركيب والبناء، وإلى إدراك واع بنظام ترتيب المورفيمات، ووضعها في نسق ذي معنى واضح يتناغم مع قواعد قواعد اللغة، نحو قولنا: "جاء الطالب راكبًا"، إذ جاء ترتيب المورفيمات وضم بعضها إلى بعض مطابقًا لقواعد النحو على خلاف إذا قلنا: "أل + جاء + مكرًا + طالب"، فهذه كلّها مورفيمات عربية قابلة وصالحة لأن نصنع منها تركيبًا لغويًا عربيًا، ولكنّ ضمّها ها هنا جاء بطريقة غير صحيحة لا توافق قواعد النحو في اللغة العربية. وأيضًا، قد يشمل معنى "الضمّ" التبادل بين المورفيمات الصالحة لصنع تراكيب عربية صحيحة، ومع هذا فإنّ نتيجة التبادل تؤدي إلى اختلاف التركيب؛ وذلك بسبب اختلاف بعض المورفيمات، ومن ثم تكون الفرصة سانحة للحصول على عدّة تراكيب يكون بعضها أوفق من

بناءً جملة أو مقالة، فإن هذه الجملة مكونة من مفردات لكل منها موقعها، ولا بُدَّ لهذا الموقع أن يتفق بعضه مع بعض¹.

لقد كانت لكمال بشر إضافة لافتة جديدة بالعناية، إذ إنَّ "السياق" عنده "مسرَّح لغوي" - كما يُطلق عليه - وهو مُتمثِّل بـ "المقام"، و"مجريات الحال"، و"السياق" بحدِّ ذاته ليس مجرد مكان يُلقى فيه الكلام، وإنما هو إطار اجتماعي ذو عناصر متكاملة يأخذ بعضها بحجر بعض²؛ فهناك الموقف كُلُّهُ بمن فيه من متكلمي "بائين" ومستمعين "متلقين"، وعلاقة بعضهم ببعض، وهناك - أيضاً - ما في المواقف من الأشياء والموضوعات المختلفة التي تُفيد في فهم الكلام، والوقوف على خواصه³.

ونلاحظ أنَّ كمال بشر يسعى إلى تصحيح مفاهيم "مغلوطه" علقت في أذهان الباحثين بخصوص السياق والمعنى اللغوي، فيؤكد أنه لو عدنا الفهقرى لرأينا أنَّ منطلقات "علم الدلالة" الحديث بما يُعرف بالـ Semantics حوت في طياتها فهمًا مغلوطًا لدى علماء اللغة لمقصود هذا العلم، ولنظريته الواسعة التي أقيمت على أساس مغاير لما ذهبوا إليه، فضيقوا بذلك، الخناق على أبوابه الرخبة، وأبعده المتراصة فضلوا وأصلوا - كما يقول - بل نجد كثيرًا من علماء اللغة يزرون في علم "الدلالة" أنه يدرس المعنى على مستوى اللَّفظة المفردة على غرار ما يجري في المعجمات وما يُشأجها من كتب اللغة التي تُعنى بجمع الثروة اللفظية وتفسيرها بوجه من الوجوه. وهذه الرؤية إلى حقيقة اللغة هي نظرة ضيقة، قنعت بالأمور السطحية، ولم تأت بجديد في هذا الشأن أكثر من تقديم تسمية جديدة لدراسة قديمة معروفة⁴.

الأخرى نسبة إلى الفكرة أو السياق أو المقام، على نحو: - "إذا جئت أكرمك". - "أكرمك إذا جئت". - إن جئت أكرمك. - أن تجي فإننا أكرمك... من هنا يؤكد كمال بشر أنَّ الضمَّ يقوم على أساس المفاضلة في اختيار التركيب وفقت للسياق المتحدَّث عنه. 3- التعليق: وهو ربط الكلام بعضه ببعض بما يتماشى مع قواعد النحو العربي، كالمطابقة في العدد والنوع والتعريف والتذكير، وكان يكون الحال نكرة مشتقًا وصاحبه معرفة... إلخ. 4- الإعراب، الذي يأتي في مرحلة متأخرة من ضمن المراحل التي ذُكرت أنفاً. وجراء ذلك، ينتقد كمال بشر النحاة من خلال اهتمامهم المبالغ فيه بالإعراب إلى درجة أنهم أصبح المفهوم الأوحَد للنحو، وهو ليس على هذه الحقيقة. كما أنهم لم ينظروا في قواعد الجملة والتركيب من خلال الموقعية والتعليق، الأمر الذي ضحَّى - على حد قول كمال بشر - بكثير من حقائق اللغة. ولعل الأمر اللافت هنا أنَّ كمال بشر، وإن كان صاحب انتقاد لاذع للنحاة القدماء، إلا أنَّ أشاد بما قام به عبد القاهر الجرجاني واصفاً إياه بأنه كان أعمق في النظر حتى من النحاة المحترفين؛ فقد بنى - الجرجاني - نظرية "النظم" على قواعد النحو وقوانينه، لا على إعرابه، وكل ذلك تناسبًا مع سياق الكلام ومقاصده. انظر: كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والحديث، 35-37.

¹ كمال بشر، حوارات في اللغة والثقافة. الواقع المأمول (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2009)، 120.

² كمال بشر، فن الكلام (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2003)، 79.

³ كمال بشر، دراسات في علم اللغة (القاهرة: دار المعارف، 1971)، 86.

⁴ كمال بشر، دراسات في علم اللغة، 153.

إضافةً إلى ذلك، فقد غَلَبَتْ على كمال بشر النَزْعَةُ الصَّوْتِيَّةُ، منطلقًا مِنْ اتِّجَاهٍ لَافِتٍ في دراسةِ المستوى اللُّغَوِيِّ من خلالِ اعتمادِ الدَّرْسِ الصَّوْتِيِّ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا من الظَّوَاهِرِ والمسائلِ اللُّغَوِيَّةِ والنَّحْوِيَّةِ لا بُدَّ لها أَنْ تُفسَّرَ، أَوَّلًا، تفسيرًا صوتيًا بكلِّ جوانبه وظواهره، وثانيًا، تفسيرًا سياقيًا¹.

وعليه، يقول كمال بشر إِنَّ النَّحْوَ في حقيقته مرتبطٌ كُلُّ الارتباطِ بالجانبِ الصَّوْتِيِّ، ويتمثَّلُ "التفسيرُ الصَّوْتِيُّ" في أَنَّهُ لدينا في النَّحْوِ العربيِّ مسائلٌ وأبوابٌ مختلفةٌ، ليس مِنَ السَّهْلِ تحليلُها، أو استيعابُ خواصِّها بدقةٍ دونَ النَّظَرِ في هيئتها الصَّوْتِيَّةِ². كما يتمثَّلُ "التفسيرُ السياقيُّ" في أَنَّ ثَمَّةَ مسائلَ نحويَّةً كأسلوبِ النداءِ، والتَّديبةِ، والاستغاثَةِ، التحذيرِ، والإغراءِ، وأسماءِ الأفعال... وغيرها مِنَ المسائلِ النَّحْوِيَّةِ، لا يمكنُ تحليلُها تحليلًا دقيقًا، ولا يمكنُ فهمُها فهمًا سليمًا، إِلَّا خلالَ رُبُطِها بمقاماتٍ وسياقاتها الاجتماعيةِ والثَّقافيَّةِ³ الَّتِي تتَّصلُ بها اتِّصالًا مباشرًا عَبْرَ تلكَ القناةِ السياقيَّةِ بَيْنَ متكلِّمٍ ومُخاطَبٍ، حَيْثُ تربطُهما علاقاتٌ مخصوصةٌ، تقتضي إلقاءَ الكلامِ بتلوييناتٍ موسيقيَّةٍ- على حَدِّ قَوْلِهِ- تُفَصِّحُ عَنْ مضمونِ الرِّسَالَةِ⁴.

فالتَّعْنِيمُ⁵ Intonation- مثلاً- يُعَدُّ عِنْدَ كمال بشر عاملاً هامًّا في تصنيفِ الجملِ مِنْ حَيْثُ أنماطُها المختلفةُ: مِنْ إثباتيَّةٍ، واستفهاميَّةٍ، وتعجَّبيَّةٍ... إلخ، إِذْ تُصاغُ كُلُّ واحدةٍ منها وَفَقًا للونِ موسيقيٍّ معيَّنٍ، على الرَّغمِ

¹ كمال بشر، علم الأصوات، 545.

² بشر، علم الأصوات، 545.

³ كمال بشر، علم اللُّغة الاجتماعيَّة- مدخل (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1994)، 235-237.

⁴ بشر، علم الأصوات، 545.

⁵ التَّعْنِيم Intonation مصطلحٌ لسانِي، يعني- كما يعرفه علماء اللُّغة- التَّباين بين الارتفاع والانخفاض في درجة الصَّوْتِ النَّاتِجِ عن التَّغْيِيرِ في نسبة ذبذبة الوترين الصَّوْتِيَّيْنِ الَّتِي تُحْدِثُ نَغْمَةً موسيقيَّةً، أيَّ إِنَّ هذا التَّعْنِيمَ بهذا المفهوم يَدُلُّ على العنصر الموسيقيِّ في نظام اللُّغة. وَيُعَدُّ التَّعْنِيمُ والتَّعْنِيمُ من الفونيمات فوق التَّركيبيَّةِ، أو الثَّانَوِيَّةِ الَّتِي تصاحب نطقنا للكلمات والجمل، ويرتبطُ كُلُّ منها بالنَّظامِ الصَّوْتِيِّ لِلُّغة. ويمثِّلُ التَّعْنِيمُ أثناءَ الكلامِ دورًا وظيفيًّا للتَّفْريقِ بين الأنواع المختلفة للتَّركيبِ، نحو الفرق بين التَّقرير والاستفهام، وأيضًا؛ للدَّلالة على انتهاء الجملة، والتَّعبير عن الدَّهْشَةِ، أو التَّهْكِمْ، أو الرِّضَا، أو الغضب، أو التَّعْجَبِ، أو التَّأَلُّمِ، والإِنْكَارِ، والاستفهام، والنداء... إلخ، فمثلاً ثَمَّةُ فَرْقٍ بَيْنَ: "محمَّدٌ موجودٌ؟" (بنغمة صاعدة الَّتِي تدلُّ على الاستفهام)، وبَيْنَ: "محمَّدٌ موجودٌ". (بنغمة مستوية الَّتِي تدلُّ على التَّقرير والإخبار). يُشار إلى أَنَّ هناك مصطلحاتٍ أُخْرَى تنبع عن التَّعْنِيمِ، نحو: الوظيفة الانفعاليَّةِ، أنماط التَّعْنِيمِ، لغات تنغيميَّة. يرى كمال بشر أَنَّ "التَّعْنِيمَ" هو قَمَّةُ الظَّوَاهِرِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي تكسو المنطوق كُلَّهُ، وهو الخاصِّيَّةُ الصَّوْتِيَّةُ الجامعة الَّتِي تكسو المنطوق بأكمله، وتتخلَّلُ عناصره المكوِّنة له، وتكسبه تلويًا موسيقيًّا معيَّنًا حسب مبناه ومعناه، وحسب مقاصده التَّعبيريَّةِ وَفَقًا للسياق. وللفتِّ الانتباه، تجدرُ الإشارةُ هنا إلى التَّفْريقِ بَيْنَ مصطلحي التَّعْنِيمِ Intonation والتَّعْنِيمِ Tonality، فالنَّغْمِيَّةُ باختصار- بمفهومها العامِّ الواسع ذاتُ علاقةٍ بالصَّوْتِ الموسيقيِّ حَيْثُ تُعرَّفُ كنظامٍ نغميٍّ يُحْدِثُ علاقاتَ ترتيبيَّةٍ بَيْنَ مختلفِ درجاتِ الحَدَّةِ، تبعًا للتَّناغمِ الصَّوْتِيِّ، بالنَّسبةِ إلى المركزِ النغميِّ، أي نغمة القرار إلى جانب تآلفاتها والسَّلامِ الموسيقيَّةِ المرتبطة بها الَّتِي تدور في فلكها الجملُ الموسيقيَّةُ الَّتِي من شأنها أَنْ تتوالى وتتآلف في الوقت نفسه. إذن، فالنَّغْمِيَّةُ مِرَّةٌ تدلُّ غالبًا على الحركات، وبالتالي تدلُّ على الارتفاع المميِّز للحركات. انظر: بشر، علم الأصوات، 531؛ تمام حستان، مناهج البحث في اللُّغة، 160-164؛ مبارك، معجم المصطلحات اللُّغويَّة، 290؛

Ramzi Baalbaki, Dictionary of Linguistics Terms, 258; Sami Hanna, Dictionary of Modern Linguistics, 67-70; David Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, 182-183; R. L. Trask, A student's Dictionary of Language and Linguistics, 117.

مِمَّا قَدْ تَحْتَوِيهِ الْجُمْلَةُ مِنْ أَدَوَاتٍ صَرْفِيَّةٍ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُسَهِّمَ فِي تَحْدِيدِ نَوْعِهَا¹، وَهُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْ فِكْرَةِ "السِّيَاقِ التَّنْغِيمِيِّ".

وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا}²، فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَدَاةُ اسْتِفْهَامٍ "هَلْ"، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ بِاسْتِفْهَامِيَّةٍ، إِذْ يُقَدَّرُ الْمَفْسَّرُونَ أَنَّ "هَلْ" هُنَا بِمَعْنَى "قَدْ"، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْجُمْلَةَ هُنَا جُمْلَةٌ تَقْرِيرِيَّةٌ وَلَيْسَتْ اسْتِفْهَامِيَّةً؛ ذَلِكَ أَنَّ تَنْغِيمَ الْآيَةِ هُوَ الْفَيْصَلُ فِي تَحْدِيدِ هَذَا الْمَعْنَى³، فَضْلًا عَنْ سِيَاقِ الْآيَةِ لَا لَا يُرَادُّ بِهِ الْاسْتِفْهَامُ. وَنَرَى فِي الْمَقَابِلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ}⁴، أَنَّ الْمَفْسَّرِينَ يُفَرِّزُونَ أَنَّ جُمْلَةَ "تَبْتَغِي" هِيَ جُمْلَةٌ اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ "أَتَبْتَغِي" بِإِثْبَاتِ هَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ ذَلِكَ - كَمَا يُؤَكِّدُ كَمَالُ بَشْرٍ - إِلَى تَنْغِيمِ التَّطْقِ بِصُورَةٍ اسْتِفْهَامِيَّةٍ⁵.

إِذَنْ، نَلَاخِظُ هُنَا أَنَّ كَمَالَ بَشْرٍ يَتَحَدَّثُ بِمَا أَسْمَاهُ بِالْوُضُفَةِ الدَّلَالِيَّةِ السِّيَاقِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالتَّنْغِيمِ، فِي هَذِهِ الْوُضُفَةِ يُنْبِئُ التَّنْغِيمُ مِنْ خِلَالِ اخْتِلَافِ النَّعْمَاتِ تَنَاعُمًا مَعَ اخْتِلَافِ الْمَوَاقِفِ السِّيَاقِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، مِنْ حَالَاتِ الرِّضَا وَالْقَبُولِ، وَالتَّجَرُّ وَالتَّهَكُّمِ وَالْغَضَبِ، الْأَمْرُ الَّذِي يُنْبِئُ عَنْ حَالَاتٍ أَوْ وَجْهَاتٍ نَظَرٍ شَخْصِيَّةٍ فِي عَمَلِيَّةِ الْاِتِّصَالِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ، حَيْثُ تَأْتِي الْعِبَارَةُ، أَوِ الْجُمْلَةُ الْوَاحِدَةُ بِأَنْمَاطٍ تَنْغِيمِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَفَقًّا لِلْسِّيَاقِ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ اللَّغَةِ بِقَوْلِهِمْ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ". وَيُظْهَرُ هَذَا فِي عِبَارَتِنَا فِي اللَّغَةِ الْحِكْمِيَّةِ "لَا يَا شَيْخَ"، حَيْثُ دَرَجَتِ الْأَلْسُنُ عَلَى أَدَائِهَا بِصُورٍ تَنْغِيمِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَفَقًّا لِلْمَقَامِ وَالسِّيَاقِ وَمَقْصُودِهَا التَّعْبِيرِيِّ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَأْتِي النَّعْمَاتُ مَصْحُوبَةً بِسَمَاتٍ صَوْتِيَّةٍ أُخْرَى، كَالنَّزْرِ الْقَوِيِّ لِبَعْضِ الْمَقَاطِعِ، وَتَطْوِيلِ الْحَرَكَاتِ، مَعَ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ أَوْ الْإِشَارَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ. وَكُلُّهَا، إِضَافَةً إِلَى أَنْمَاطِ التَّنْغِيمِ، تَقْوُدُ إِلَى اخْتِلَافٍ فِي الْمَعْنَى الدَّلَالِيَّةِ السِّيَاقِيَّةِ⁷.

¹ كَمَالُ بَشْرٍ، دَرَاَسَاتُ فِي عِلْمِ اللَّغَةِ (مِصْر: دَارُ الْمَعَارِفِ، 1969)، 2: 25.

² الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْإِنْسَانُ: 1.

³ بَشْرٍ، عِلْمُ الْأَصْوَاتِ، 544-541.

⁴ وَرَوَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ بِالرَّسْمِ الْعُثْمَانِيِّ بِالتَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ "مَرْضَاتٍ".

⁵ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، التَّحْرِيمُ: 1.

⁶ بَشْرٍ، عِلْمُ الْأَصْوَاتِ، 542.

⁷ ن. م، 540-539.

إنَّ الأمثلة التي يضرُّها كمال بشر كثيرة، وفيها يسعى إلى أن يؤكد أنَّ كلَّ المظاهر اللغوية هي في جوهرها ترتبط بطبيعة التراكيب ونوعياتها ومعانيها، وتتعلَّق كذلك بالسياقات الاتصالية للكلام التي لا حصر لها؛ لأنَّها مرتبطة بأحوال المتكلِّم والمخاطب، وما يحيطها من أوضاع ثقافية واجتماعية ونفسية.

وبتقديري، فإنَّ ما ذهب إليه كمال بشر - الباحث المعروف في ميدان اللغة - إنما هو في حقيقته طرُح جريء حاول من خلاله أن يتلمَّس مواطن الالتباس والخلط التي وقَّع فيه كثير من علماء اللغة؛ لما في ذلك من تبعات سلبية في فهم اللغة ومضمونها الذي لا يتوقَّف عند حدٍّ، ولما في ذلك من تأثير في الدارسين والباحثين.

كما أنَّه أراد أن يسلِّط الضوء على الجوانب الصوتية من خلال معالجة القضايا النحوية؛ إذ إنَّ علم الصوت في الدراسة اللغوية هو العمود الفقري لكلِّ دراسة لغوية، وكأنَّه يؤكد أنَّ أيَّ دراسة، مهما كان مستواها اللغوي، ينبغي أن تُعالج معالجة سياقية.

5. 7. 2. عائشة عبد الرحمن و"تدبر" مواضع السياق:

تُعَدُّ دراسات عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) [1913-1998م] للنصِّ القرآني، لا سيَّما التفسير البياني والإعجاز البياني اللغوي من أبرز الدراسات اللغوية والأدبية للقرآن - كما يؤكد الباحث محمد الأشقر - إذ حرصت على أن تفهم النصَّ القرآني فهماً مستشفقاً لروح العربية وطرائقها، ومُحتَكِمةً إلى النصِّ وحده حينما ينجم خلاف بين المفسرين والنحاة من خلال تتبُّع دقيق لمعجم ألفاظه، وتدبرٍ واعٍ لدلالة سياقه - على حدِّ قول الأشقر - والإصغاء والتأمل إلى إحياء التعبير في صورته البيانية - اللغوية¹.

وقد كانت عائشة عبد الرحمن أحد هؤلاء الباحثين الذين يرون بأنَّ ثمة خلطاً سار عليه كثير من النحاة والدارسين² حينما خلطوا بين مصطلحي النحو والإعراب، فالتَّحَوُّ - بمعناه الأوسع - يدمج بين صحَّة تأليف

¹ محمد أحمد الأشقر، الدراسات الأدبية لأسلوب القرآن الكريم في العصر الحديث (عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، 2003)، 113-114.

² لعليَّ ألفت الانتباه هنا إلى أنَّ عائشة عبد الرحمن كانت قد تأثَّرت بزوجها أمين الخولي [1966-1985م] الذي كان يُطلَق عليه آنذاك بـ"شيخ المجيدين". من أشهر كتبه كتاب "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب". انظر: أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب (القاهرة: دار المعرفة، 1961)، 119؛ يبنى طريف الخولي، أمين الخولي والأبعاد الفلسفية للتجديد (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012)، 22.

الكلام من أجل الإبانة عما في النفس من مقاصد وسياقات، وبَيِّنَ معرفة أحوال الأواخر من إعراب وبناء. وهو ما يُشكِّلُ أزمة لغوية في حياتنا التعليمية والعملية¹.

كما تُبيِّنُ عائشة عبد الرحمن بأنَّ التَّصَدِّي لمسألة "السياق" في النصِّ القرآني هي من أدقِّ المسائل اللغوية والأسلوبية؛ وتؤكدُ- تناسبا مع هذا القول- أنَّ تفسير ولو كلمة واحدة من كلمات النصِّ القرآني يتوجَّبُ على المتصدِّي له أن يستقرِّى مواضع وُروِد الكلمات بمختلف صيغها في القرآن، إضافة إلى أنَّه لا ينبغي أن نتناول موضوعا قرآنيا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية² دون استيعابٍ لنظائرها، وتدبُّر سياقاتها الخاصِّ في الآية والسورة، وسياقاتها العامِّ في القرآن كله³.

وتُبيِّنُ عائشة عبد الرحمن في مواضع كثيرة أنَّ ضوابط المنهج الذي ينبغي أن يحتكم إليه من يتعامل مع النصِّ القرآني وتفسيره هو الالتزام بالسياق، والالتزام بدلالات الألفاظ كما يعطيها الاستقراء الكامل لكلِّ مواضع ورود اللَّفْظ في القرآن، علة أنَّ الاحتكام إلى "السياق" يُعَدُّ المَوْجَّه الأَدَقُّ والأَجْدَى في فهم النصِّ⁴.

ومن الأمثلة التي تُشير إلى منظور السياق وتداوله في الفكر اللغوي عند عائشة عبد الرحمن قولها في تفسير قوله تعالى: {قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفُ} ⁵: إنَّ هذه الآية هي من ضمن الآيات التي يستشهد بها النحاة

1 عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة (القاهرة: دار المعارف، 1971)، 191؛ طه الزاوي، نظرات في اللغة والنحو (بيروت: المكتبة الأهلية، 1962)، 30.

2 بداية، قبل أن أبدأ بتعريف سريع للأسلوبية Stylistics، ينبغي أن أُشير إلى هناك خلافاً بين الباحثين حول منشأ الأسلوبية، وحول أصلاتها. كما أنَّ هناك اختلافاً واضحاً في تعريف الأسلوبية بين النظرية الغربية والعربية الحديثة. إلى ذلك، فإنَّ هناك تعريفات كثيرة للأسلوبية، أهمُّها- بما يتصل بموضوع اللغة والنحو والتفسير- أنَّ الأسلوبية عبارة عن مجموعة محدَّدة من السمات والمؤشرات الأسلوبية، وهي تلك الوظائف والارتباطات بين العناصر اللغوية؛ ويتمُّ هذا الترابط عن صيغ وتركيب تفاعلية ديناميكية لتؤدي معنىً جمالياً معيَّناً. وبهذا، فإنَّ الأسلوبية تتداخل فيها مجالات عدَّة، كالآداب، والبلاغة، وجماليَّة التراكيب اللغوية... إلخ. كما تبحث "الأسلوبية" في مجالاتٍ ومناحٍ مختلفة، أهمُّها تلك العلاقة بين المخاطب والخطاب نفسه (النص)، وتلك العلاقة بين الخطاب بالمخاطب، وعلى غرار ذلك ينبع ما يُسمَّى بتلمس طبيعة الأسلوب من خلال وصف النصِّ وصفاً لغوياً. وأضاف عبد السلام المسدي أنَّ الأسلوبية ذو مدلول إنساني ذاتي ونسطيع القول- بناءً على المراجع- أنَّ الأسلوبية تتقاطع مع ما يسمَّى بتحليل الخطاب Discourse Analysis. ويُعرَّف منذر العياشي الأسلوبية بأنَّها: علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها- أيضاً، علم يدرس الخطاب مورِّعاً على مبدأ هوية الأجناس؛ ولهذا، كان موضوع هذا العلم متعدِّد المستويات، مختلف المشارب والاهتمامات، متنوِّع الأهداف والاتجاهات. ولخص أحمد الشايب الأسلوبية على أنَّها: "فنُّ الكلام، وطريقة الكتابة، والصورة اللفظية التي نعيِّر بها عن المعاني". وانطلاقاً من هذه الحقيقة نجد كثيراً من الباحثين والدارسين يَغرضون للنصِّ القرآني عَرْضاً أسلوبياً، لا سيما تلك التراسبات والمؤلَّفات التي تعالج النصِّ القرآني معالجات أدبيَّة-لغوية، وهو ما أطلق عليه بـ "التفسير الأدبي للقرآن"، علماً أنَّ الضوِّء يكون موجَّهاً إلى جماليَّات اللغة والتراكيب في النصِّ القرآني. ويتحدَّث بعض الباحثين أنَّ للأسلوبية جنوراً من التراث العربي القديم لا سيما في علوم البلاغة معاني النحو، وأعلامه كثر منهم: عبد القاهر الجاحظ، والجرجاني، وحازم القرطاجني. ولكنَّه، على الرَّغم من هذا، لم يكن علماً قائماً بذاته كما هي في العصر الحديث. انظر: شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوبية، 43-49؛ المسدي، الأسلوب والأسلوبية، 242؛ منذر العياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، 27؛ أبو العوس، الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، 37.

3 عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (القاهرة: دار المعارف بمصر، [د.ت])، 11.

4 عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري (القاهرة: مكتبة المعارف، 1970)، 30.

5 القرآن الكريم، يوسف: 85.

في تأويل حذف حرف "لا"، والتقدير: "تالله لا تفتأ تذكر يوسف"، والذي نفهمه - كما تؤكد عبد الرحمن - هو أنه متى اطرد الحذف - كقولهم - فالسياق حتماً مُستغنٍ عن المحذوف، ولا وجه إذن لتقدير الحرف، ثم تأويل حذفه؛ وذلك لأنَّ السياق متى أعطى المعنى المراد، مستغنياً عن هذا الحرف أو عن غيره، كان ذكره من الفضول أو الحشو الذي يتنزه عنه الكلام البليغ، فضلاً عن البيان المعجز. من هنا أرى النحاة والمفسرين - كما تقول عائشة عبد الرحمن - في تقدير حرف نفي محذوف، حمّلوا "تفتأ" على "ما زال" أم الباب من أفعال الاستمرار، وكأنه قد فاتهم أنَّ الفعل "زال" لا تكون فعل استمرارٍ إلا منفيةً، فإذا لم يسبقها حرف نفي فهي تامة بمعنى الزوال الذي هو نقيض البقاء. كما أنَّ استعمالها تامةً كثيرٌ في العربية. وهي تتصرف فيه: فعلاً ومصدرًا واسم فاعلٍ واسم مفعولٍ وظرف زمانٍ ومكانٍ... على حين تُفيد "فتى" معنى الاستمرار أصالةً مستغنيةً عن حرف النفي. ولا تأتي تامةً في العربية... والفعل "فتى" قلما يتصرف فيها إلا بالفعل ماضياً ومضارعاً: فتى يفتأ. ولا ينفك عنهما معنى الاستمرار¹.

ثم تدعم عائشة عبد الرحمن رأيها بما ذكره ابن هشام من أنَّ ما أجازوا فيه الحذف بغير اطراد أنه فيه في آية: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا...}² على تقدير: "لئلا تضلوا"، مُعقِّباً بأنه قد قيل إنَّ المحذوف هنا هو المضاف، أي: كراهة أن تضلوا³. ثم تقول عبد الرحمن: إنَّ هذه الآية هي من آيات الأحكام في تشريع المواريث، وسياقها مستغنٍ تماماً عن تقدير حرف محذوفٍ لم يجد البيان القرآني حاجةً إلى ذكره؛ إذ لا يخطر على البال إيهام أن يكون المعنى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ لِيَضِلُّوا! وإنما يُبَيِّنُ اللَّهُ لنا ما نتقي به الضلال. وعليه، فمتى دلَّ السياق على المعنى المراد فإنه يُستغنى عن الحرف الذي قدَّرهُ النحاة والمفسرون؛ فذكر المحذوف الذي لا حاجة له تأباه اللغة العربية، إذ لو كان الحذف ممَّا يوقع في شبهة إيهام؛ لاقتضى المقام، في مثل هذه الآية، وجوب ذكره دفعاً لأيٍّ وهم أو لبس⁴.

¹ عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، 178-179.

² القرآن الكريم، النساء: 186.

³ ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 155.

⁴ عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، 179.

وفي موضع آخر، نلاحظ أنَّ السياقَ كانَ له الدَّورُ الفاعلُ في أنَّ تذهب عائشة عبد الرَّحمن إلى أنَّ القَسَمَ في قوله تعالى: {وَالضُّحَى} وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ♦ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} ¹، خَرَجَ عَنْ معناه اللُّغويِّ إلى معنَى غَيْرِ الَّذِي تَعَارَفَ عَلَيْهِ النُّحَاةُ وَالْمُفَسِّرُونَ في تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ²، حَيْثُ تَقُولُ إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تُسْتَهْلُ بِالْقَسَمِ بِوَاسِطَةِ "الْوَاوِ" (وَالضُّحَى)، وَهُوَ الرَّأْيُ السَّائِدُ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ هَذَا الْقَسَمَ يَحْمِلُ مَعْنَى التَّعْظِيمِ لِلْمَقْسَمِ بِهِ، وَقَدْ التَّمَسُّوا الْعُظْمَةَ فِي "اللَّيْلِ"، مُطْلَقَ اللَّيْلِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مَقِيدٌ فِي الْآيَةِ بِ"إِذَا سَجَى"، وَبَيَّاتٍ أُخْرَى تَلِيهِ ³. ثُمَّ تَوَكَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنَّ الَّذِي أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ قَلْبُهَا بَعْدَ طَوِيلٍ تَدْبُرٍ - عَلَى حَدِّ قَوْلِهَا - أَنَّ الْقَسَمَ هُنَا خَرَجَ عَنْ أَصْلِ الْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ فِي الْقَسَمِ لِلتَّعْظِيمِ إِلَى مَعْنَى بَيَّاتٍ، عَلَى نَحْوِ مَا تَخْرُجُ أَسَالِيبُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالِاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ مَعْنَاهَا الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ، فِ "الْوَاوِ" فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَلَفُتْ لَفْظًا قَوِيًّا إِلَى حِسِّيَّاتٍ مَدْرَكَةٍ لَيْسَتْ مَوْضِعَ غَرَابَةٍ أَوْ جَدَلٍ. وَمَا يُلْمَحُ فِيهِ الْإِعْظَامُ إِنَّمَا يُفَصِّدُ بِهِ قُوَّةَ اللَّفْظِ. كَمَا أَنَّ اخْتِيَارَ الْمَقْسَمِ بِهِ تُرَاعَى فِيهِ الصِّفَةُ الَّتِي تَنَاسِبُ السِّيَاقَ وَالْمَوْقِفَ ⁴.

وفي موضعٍ ثَانٍ، وَبِخُصُوصٍ مَسْأَلَةِ "الْقَسَمِ" التَّحْوِيَّةِ تَعْرِضُ عَائِشَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} ⁵، فَتُبَيِّنُ أَنَّ جَمْعَةَ الْمَفْسِّرِينَ يَكْتَفُونَ بِالْقَوْلِ هُنَا إِنَّ "لَا أُقْسِمُ" مَعْنَاهَا: أُقْسِمُ، حَيْثُ زِيدَتْ "لَا"؛ لِلتَّأْكِيدِ، وَلَمْ يُشِيرُوا فِي تَفْسِيرِهِمْ - كَمَا تَرَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ - إِلَى الْمَقْتَضَى الْبَيَّاتِيِّ لِلْعُدُولِ عَنْ "أُقْسِمُ" إِلَى "لَا أُقْسِمُ"، أَوْ إِضَاحٍ وَجِهٍ تَأْكِيدِ الْقَسَمِ، بِنَقِيضِهِ وَهُوَ النَّفْيُ! ⁶.

وَتُوضِّحُ عَائِشَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ تَرْكِيبَ "لَا أُقْسِمُ" هُوَ عِبَارَةٌ مِنْ عِبَارَاتِ الْعَرَبِ فِي الْقَسَمِ، يُرَادُ بِهَا تَأْكِيدُ الْخَبَرِ، كَأَنَّهُ فِي ثُبُوتِهِ وَظُهُورِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى قَسَمٍ. إِضَافَةً إِلَى هَذَا، يُوْتَى بِ"لَا أُقْسِمُ" إِذَا أُريدَ تَعْظِيمُ الْمَقْسَمِ بِهِ، كَأَنَّ الْقَائِلَ يَقُولُ: إِنِّي لَا أُعْظِمُهُ بِالْقَسَمِ؛ لِأَنَّهُ عَظِيمٌ فِي نَفْسِهِ. وَحِينَمَا نَسْتَقْرِئُ كُلَّ مَوَاضِعِ الْإِسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ لِهَذَا الْأَسْلُوبِ فِي نَفْيِ الْقَسَمِ نَجِدُ، أَوَّلًا: أَنَّ "لَا أُقْسِمُ" لَمْ تُسْتَعْمَلْ إِلَّا حِينَ يَكُونُ الْفِعْلُ مُسْتَدًّا إِلَى اللَّهِ،

¹ القرآن الكريم، الضحى: 1-3.

² عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم (القاهرة: دار المعارف، [د.ت.])، 1: 25.

³ عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، 1: 24-25.

⁴ عبد الرحمن، التفسير البياني، 1: 25.

⁵ القرآن الكريم، البلد، 1-2.

⁶ عبد الرحمن، التفسير البياني، 1: 165.

وثانيًا: أن فعل القسم لم يأت في النص القرآني كـلِّه مُسْنَدًا إلى الله، إلّا مع "لا" التّأنيّة. وهذا الاستقراء صريح الدّلالة على أن الله لَيْسَ في حاجةٍ إلى القسم، وأنّ نفي الحاجة إلى القسم تأكيدٌ له. وهذا يشابه مألوف استعمالنا عندما نقول: "لا أوصيك بفلان"؛ تأكيدًا للتوصية. كما نقول: "بغير يمين؛ تأكيدًا للثقة التي لا نحتاج معها إلى يمين¹. وعليه، فإنّ السياق هنا يدلُّ على أن "لا" في "لا أقسم" هي نافيةٌ وليست زائدةً، وقد وُجّهَ إليه أن القسم للتّعظيم، فلمّا منع ظاهرُ السياق هنا أن يكون المقسم به موضع تعظيم، قيل إنّ "لا نافيةٌ وليست مؤكّدةً، وقد هدى تدبُّر الظّاهرة الأسلوبية، إلى تأكيد القسم بنفي الحاجة إليه حين يكونُ فِعْلُ الْقَسَمِ مُسْنَدًا إلى الله².

فضلاً عن أنّ في لَفْظِ "أقسم" هنا مَلْحَظًا ذا بالٍ - على حدّ تعبير عائشة عبد الرّحمن - فقد يبدو من السّهل هنا أن تُفسّر الفعل "أقسم" بلفظ الفعل "أخلف"، وليس في استعمال العرب، لهذين الفعلين المترادفين في المعنى، ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر كما وَرَدَ في أشعارهم ومعجماتهم، ولكنّ استقراء الكلمتين في النصّ القرآني يمنع هذا التّرادف: فَلَقَدْ جَاءَتْ مَادَّةُ "حلف" في القرآن في ثلاثة عشر موضعًا كلّها، بغير استثناء، في مقام الحنث باليمين، نحو: {وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}³، وجيء بالفعل مرّةً واحدةً مُسْنَدًا إلى الذين آمنوا؛ فَلَزِمَتْهُمْ كِفَارَةُ الحنث باليمين: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ}⁴. وأمّا الْقَسَمُ فيغلبُ مجيئه في الإيمان الصادقة نحو: {فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ♦ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}⁵. وتُعقَّبُ عائشة عبد الرّحمن على هذا الكلام فتقول إنّه، استنادًا إلى هذا الاستعمال القرآني، لا يهون أن نفسير القسم بالحلف، إذ إنّ سياق الآيات وَحَجَّ النصّ القرآني فيهما يلفتُ إلى فرقٍ دقيقٍ بين اللَّفْظَيْنِ، وبالتالي فهو فرقٌ يُؤدُّنُ باختلافٍ مدلولٍ كلٍّ منهما من خلال استعراض سياقاتهما⁶.

وفي موضعٍ آخر، لا تأخذ عائشة عبد الرّحمن برأي النّحاة والمفسّرين، بل توجّه لهم انتقادًا في عدم النّظر إلى سياق الآيات الخاصّ الذي من شأنه أن يكشف عن المعنى التّحويّ لها، وذلك عندما يعدُّ النّحاة الباء في آية

¹ ن. م، 1: 166.

² عبد الرّحمن، التفسير البياني، 1: 169-170.

³ القرآن الكريم، المجادلة: 18.

⁴ القرآن الكريم، المائدة: 89.

⁵ القرآن الكريم، الواقعة: 75-76.

⁶ عبد الرّحمن، التفسير البياني، 1: 166-168.

{ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ }¹ زائدة للتأكيد، وذلك في هذه الآية وفي مواضع قرآنية أخرى اقترنت فيها خبر "ما" بالباء، فتقول: لقد جرى التَّحَاةُ والمفسِّرون على القول بأنَّ هذه الباء زائدة في خبر "ما"، كما تأتي زائدة في خبر "ليس"، فهي تعمل في لفظ الخبر، ويبقى الحكم الإعرابي على أصله منصوبًا بفتحة مقدَّرة على آخر الخبر، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد². كما أنَّه مع تَنَبُّهِهم إلى أنَّ من هذه المواضع ما تكون الزيادة فيه واجبةً وغالبةً وضرورةً، جَرَّتِ الصَّنْعَةُ الإعرابية على قصرِ عَمَلِها على اللَّفْظِ دونَ المعنى³!

فتَرَدُّ عائشة عبد الرحمن عليهم مؤكِّدة أنَّ لهذه الآيات، التي يقترن فيها خبر "ما" النافية، وخبر "ليس" بالباء لها سياقها اللغوي الخاصُّ يجدر أن يُلتَمَسَ إليه، فحينما نُدَقِّق في هذه الآيات يتبيَّن لنا أنَّ مجيء هذه الباء مُطَرِّدٌ في هذا الأسلوب، وأنَّ السِّبَاقَ فيها هو سياقٌ جحدٍ وإنكارٍ؛ تقريبًا لهذا النَّفْيِ، نحو: { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ }⁴، ونحو: { وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ }⁵، وغيرها من المواضع القرآنية. فهل يكفي - كما تتساءل - القول بأنَّ الباء زِيدَتْ لجرِّد تأكيد النَّفْيِ، علِّمًا أنَّ اللَّغَةَ العربيَّةَ تعرفُ أساليبَ عدَّةً للتَّأكيد اللَّفْظِيَّ والمعنويَّ، كالقسم والتكرار وأدوات التأكيد المعروفة⁶؟

وترى عائشة عبد الرحمن أنَّ هذه الباء لا تُؤخِّدُ هنا بمعزلٍ عن نظائرها، وقد نلحظُ في آياتٍ قرآنية أنَّ الباء تقترن بخبر النَّفْيِ بـ "ليس" - مثلاً - فلا تُؤكِّد النَّفْيَ، بل تنقضُّه وتردِّه تقريرًا وإلزامًا نحو قوله تعالى: { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ }⁷، وغيرها من الآيات، إذ إنَّ الباء فيها لم تُؤكِّد النَّفْيَ.

وتحاول عائشة عبد الرحمن في موضعٍ آخر أن تجدَ تعليلًا سياقيًا للظَّاهِرة اللُّغويَّة في قوله تعالى: { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا }⁸، فتقول: إنَّ النَّصَّ القرآنيَّ يصرفُ الحدثَ عمدًا عن مُحدِّثِهِ في أحداثِ اليوم الآخر، فلا يُسندُ إليه، وإمَّا يُؤتَى به مبنياً للمجهول، أو مسندًا إلى غير فاعله، على المطاوعة أو المجاز كما في هذه الآية { إِذَا

¹ القرآن الكريم، القلم: 2.
² عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، 168.
³ ن. م، 168.
⁴ القرآن الكريم، يوسف: 17.
⁵ القرآن الكريم، فاطر: 22.
⁶ عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، 172.
⁷ القرآن الكريم، الزمر: 36.
⁸ القرآن الكريم، الزلزلة: 1.

زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا { وفي آياتٍ أخرى نحو: { إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ◆ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا }¹، ونحو: { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ◆ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ◆ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ }²، وهي - فيما نرى - ظاهرة لغوية مُطَرَّدَةٌ، وَحْوُهَا قَدْ شُغِلَ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ سَعِيًّا فِي تَأْوِيلِ الْفَاعِلِ. وَلَكِنَّ الْمَنْهَجَ³ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ - وَفَقَ رُؤْيَا الْبَاحِثَةِ عَائِشَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نَتَأَوَّلَ الْفَاعِلَ، خَاصَّةً أَنَّ النَّصَّ الْقَرَأَنِيَّ كَانَ قَدْ أَخْفَى الْفَاعِلَ عَنْ عَمْدٍ وَقَصْدٍ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نَتَعَلَّقَ - عَلَى حَدِّ قَوْلِهَا - بِمَا لَمْ يَشَأْ لَنَا النَّصُّ الْقَرَأَنِيَّ أَنْ نَتَعَلَّقَ بِهِ⁴.

وتذهب عائشة عبد الرحمن إلى أَنَّ البناءَ للمجهول هو بمثابة تركيزٍ للاهتمام بالحدث بصرف النظر عن مُحْدِثِهِ. وبناءً عليه، فإنَّ في هذا الإسنادِ النَّحْوِيَّ تقريرًا لوقوع الأحداثِ في طواعيةٍ وتلقائيةٍ على وَجْهِ التَّسْخِيرِ، فالأحداثُ تقعُ طواعيةً لا تحتاجُ إلى أمرٍ أو فاعلٍ⁵.

ثُمَّ تَوَكَّدَ أَنَّ الْمَفْسِّرِينَ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى حَقِيقَةِ السِّيَاقِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَقَالُوا إِنَّ الْفَاعِلَ خُذِفَ لِلْعِلْمِ بِهِ، مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ يَسْتَدْعِي مِنْهُمْ أَنْ يَتَنَبَّهُوا إِلَى أَنَّ حَذْفَ الْفَاعِلِ الْحَقِيقِيِّ، وَمُجِيءَ التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ عَلَى صُورَةِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ وَنَائِبِ الْفَاعِلِ إِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ ظَاهِرَةٍ لُغَوِيَّةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ لَهَا سِيَاقُهَا وَمَقَامُهَا الْخَاصُّ، مِمَّا يُؤْنَسُ إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِالْفَاعِلِ لَيْسَ هُوَ السَّرُّ الْبَيَانِيُّ فِي بِنَاءِ "زُلْزِلَتْ" لِلْمَجْهُولِ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَاهِرَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ مُطَرَّدَةٌ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ؛ تَرْكِيزًا لِلْإِهْتِمَامِ فِي الْحَدِثِ ذَاتِهِ، وَإِنْجَاءً بِأَنَّ الْحَدِثَ يَقَعُ عَنْ طَوَاعِيَةٍ، وَيَسْتَجِيبُ لَتَسْخِيرٍ تَلْقَائِيٍّ. كَمَا أَنَّ مُجِيءَ الْفِعْلِ مَاضِيًّا هُوَ - وَفَقَ مَا تُصَوِّرُ لَنَا عَائِشَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - تَقْرِيرٌ بِأَنَّهُ حَدَثٌ فَعَلًا، وَقَدْ صُدِرَ بِ"إِذَا"، فَصَرَفَتْهُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ دُونَ أَنْ يَقْقَدَ التَّعْبِيرُ أَثَرَهُ الَّذِي يُوْحِي بِهِ اسْتِعْمَالُ الْمَاضِي بَدَلًا مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ الصَّرِيحِ، عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْمُبَاغَةِ فِي "إِذَا" لَهَا أَثَرُهَا النَّحْوِيُّ وَالْبَيَانِيُّ فِي هَذَا السِّيَاقِ⁶. وَبِهَذَا، فَإِنَّ "السَّرَّ" - كَمَا تُطْلَقُ عَلَيْهِ - الَّذِي يَقِفُ وَرَاءَ هَذَا التَّرْكِيبِ اللَّغَوِيِّ يَكْمُنُ فِي طَبِيعَةِ الْأَدَاءِ الَّذِي يُحَاكِي سِيَاقَ الْآيَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنَاطَ الْقُوَّةِ فِي التَّعْبِيرِ هُوَ

¹ القرآن الكريم، الواقعة: 4-5

² القرآن الكريم، التَّكْوِير: 1-3.

³ مِنَ الْمَثِيرِ أَنَّ عَائِشَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ تَسْتَخْدِمُ كَلِمَةَ "مِنْ مَنَاجِزٍ"، وَهَذَا بَدَلٌ - بِرَأْيِي - عَلَى أَمْرَيْنِ، الْأَوَّلُ: أَنَّهَا تَرِيدُ أَنْ تَوَكَّدَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ حَوْلَهَا هِيَ مَنَاجِزٌ لُغَوِيَّةٌ بَيَانِيَّةٌ تَتَّخِذُ طَرِيقًا لَهَا وَخَاصًّا بِهَا، وَالثَّانِي: أَنَّهَا مَنَاجِزٌ لِبَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ، لَا سِيَّمَا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَى هَذِهِ الْأَرَاءِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُشِيرْ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ تُثَبِّتْ ذَلِكَ فِي هَوَاشِ الْكِتَابِ.

⁴ عبد الرحمن، التفسير البياني، 1: 80-81.

⁵ ن. م، 1: 81.

⁶ ن. م، 1: 82.

بغتة المفاجأة، وتأكيد الحدث، وصرفُ الذهنِ إليه. ولا شيء من ذلك يتعلّق فيما بما شُغِلَ به النّحاة والمفسّرون من تأويلٍ وتقديرٍ¹.

وكأنّ عائشة عبد الرحمن تريد أن تؤكد أنّ تفسير النّصّ القرآنيّ يتطلّب وقفاتٍ متأنيّة على مقتضى السياق في الآيات، وليّسن فقط في تحديد الوجه الإعرابيّ للكلمات أو الجُمْل، وهذا ما عبّرت عنه جليّاً، تعقيباً على تفسير الآية السّابقة، بقولها: "وندعُ لغيرنا من المفسّرين أن يشتغلوا بتسوية الصّنع الإعرابيّة، فليتمسوا عاملاً مُضمّراً في "إذا"..."². وهذا الكلام - في أراه - يعني أنّ الباحثة تريد أن توطّر لمفهوم جديد في التعاطي مع النّصّ القرآنيّ، فالتفسير النّحويّ - إن جاز لي أن أطلق عليه هذه التّسمية فيما تقوم به الباحثة - ليس إيجاد الوظائف التّحويّة، بل هو إيجاد المعاني التّحويّة المقترنة بالسياق، ووضع الكلمات تحت مجهر سياق الآيات وما يتعلّق بها من مقتضيات وتداعيات، فنّمّة فرّق بين "الإعراب النّحويّ" وبين "الإعراب السياقيّ"، إن وُفِّقَ في فهم فكرها التّفسيريّ.

¹ عبد الرحمن، التفسير البياني، 1: 82.

² ن. م، 1: 83.

الفصل الثالث:

مظاهر السياق النحوي في كتب التفسير -

الرؤية والممارسة

1. 3. مدخل:

قامت علاقة الإنسان، منذ إدراكه ووعيه الواقع، على التفسير، وعدا هذا التفسير ديدن الإنسان؛ لأن التفسير في جوهره يوضح ما حوله، ويجعله قادرا على التعامل مع ما يحيط به، والبحث عن أسباب وجوده وعمل هذا الوجود¹.

كان هذا شأن الإنسان عامة، وشأن الإنسان الذي يبحث في "لغته" - أيًا كانت - التي تعكس صورته، قبل كل شيء، خلال محاولته تفسيرها، وبالتالي، تفسيره هو كإنسان، لا سيما أن "اللغة بنت الاجتماع"² - كما يقول الزاوي - وخاصة أن التفسير المناسب إنما يكشف عن بُعد جماعي فيما يبدو للوهلة الأولى أنه فردي؛ وذلك - كما يشير ناصف مصطفى - أن النص لا يتحرك من فراغ³.

من هنا، لم يكن غريبا أن يكون لمن يرى أن اللغة والتفسير كيان واحد متراس لا ينفصلان؛ فقوامهما، على مستوى الأداء الوظيفي، أن نكتشف المعنى ونحايته⁴ - على حد قول مصطفى ناصف - ف"التفسير"، بحد ذاته، يحيط اللقائم عن اللغة عبر قناته الرئيسة ألا وهي "المعنى"، وعلى غرار هذه المعاني والدلالات فإن "اللغة والتفسير" يكونان قد استجابا للعالم الذي نعيشه في المجال الإنساني⁵.

¹ سمير أحمد معلوف، "الصورة الذهنية دراسة في تصور المعنى"، مجلة جامعة دمشق 26 (2010)، 117.

² مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب (القاهرة: مكتبة الإيمان، [د.ت.]، 1: 47.

³ مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1995)، 187.

⁴ ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، 186.

⁵ ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، 186.

وعَبَّرَ خَافٍ عِنْدَ الْبَاحِثِينَ أَنَّ "مِلَادَ الْإِسْلَامِ" - كَمَا وَرَدَ فِي مُوسُوعَةِ رُوتْلِيدْجِ Routledge Encyclopedia - فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ لِلْمِلَادِ يُعَدُّ الْحَدَثَ الْأَهَمُّ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ؛ لِمَا أَنْتَجَتْ مِنْ تَحَوُّلَاتٍ كَبِيرَةٍ عَلَى صُعُدٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَا سِيَّمَا عَلَى الصَّعِيدِ اللُّغَوِيِّ¹، تَزَامُنًا مَعَ نَزُولِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ شَأْنُهَا شَأْنُ اللُّغَاتِ جَمْعًا فِي هَذِهِ "السِّيَرَةِ"، فَبِهَا - أَيْ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - وَبِهَا وَبَعْلُومِهَا يُرْجَعُ لِفَهْمِ النَّصُوصِ، خَاصَّةً النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، بَلْ إِنَّ فِقَّةَ عِلْمِهَا يُعَدُّ مِنَ الْأَدَوَاتِ اللَّازِمَةِ لِفَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَتَفْسِيرِهِ²، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ الْمُتَدَاخِلَةَ فِيهَا، كَعِلْمِ الْقُرْآنِ وَعِلْمِ التَّفْسِيرِ وَعِلْمِ الْفِقْهِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ، تَظَلُّ - كَمَا يُبَيِّنُ نَهَادُ الْمَوْسَى - قَرَاءَاتٍ هَادِيَةً إِلَى تَدْبِيرِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، وَنَتَاجُ ذَلِكَ يَتَلَخَّصُ فِي أَنَّ "اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ" - مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا أَدَاةً لِلتَّعْبِيرِ وَالْفَهْمِ - هِيَ لِسَانُ هَذَا التَّرَاثِ جَمِيعًا، عَلَى هَذَا الْمَدَى الزَّمَانِيِّ الْمُتَطَاوِلِ³.

وَيَنْطَلِقُ حَسِينُ نَصَّار، فِي حَدِيثِهِ حَوْلَ نَشْأَةِ اللُّغَةِ وَتَطَوُّرِهَا، مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ ارْتَقَتْ فِي أَوَاخِرِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ⁴، وَتَطَوَّرَتْ لِهَاجَتِهَا إِلَى لُغَةٍ مُوَحَّدَةٍ يُجْمَعُ عَلَى فَصَاحَتِهَا، بَدَأَتْ وَكَمَتْ قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ⁵، وَشَاعَتْ فِي أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الشُّعْرَاءِ وَالْفَصَحَاءِ وَالْبُلَغَاءِ⁶.

وَقَدْ وَضَّحَ فِيرْسْتِيخُ الْبَاحِثِ الْهَوْلَنْدِيِّ الشَّهِيرِ Versteegh أَنَّ سَبِيحَهُ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ مَا نَطَقَ بِهِ الْعَرَبِيُّ "الَّذِي يُوثَّقُ بِعَرَبِيَّتِهِ" صَحِيحٌ وَمَقْبُولٌ، وَإِنْ بَدَأَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنَّهُ مُخَالَفٌ لِمَا تَعَارَفَ عَلَيْهِ النُّحَاةُ مِنْ قَوَاعِدِ وَأَصُولِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ الْفَصَحَاءِ هِيَ مِنَ الْمَنَابِعِ الْمُعْتَمَدَةِ الَّتِي تُسْتَقْفَى مِنْهَا اللُّغَةُ وَتُبْنَى عَلَيْهَا الْقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ وَاللُّغَوِيَّةُ⁷.

¹ Mona Baker and Others, *Routledge Encyclopedia of Translation Studies*, 317.

² نهاده الموسى، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ: قِيمُ الثَّبُوتِ وَقَوَى التَّحَوُّلِ (عمان: دار الشروق، 2007)، 52.

³ نهاده الموسى، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ: قِيمُ الثَّبُوتِ وَقَوَى التَّحَوُّلِ، 52.

⁴ بكري شيخ أمين، التَّعْبِيرُ الْفَنِّي فِي الْقُرْآنِ (بيروت: دار الشروق، 1973)، 143-145.

⁵ حسين نصَّار، المعجم العربي: نشأته وتطوره (القاهرة: دار مصر للطباعة، 1988)، 1: 15.

⁶ عبد الرحمن بن محمد بن سعد الحجيلي، الجهود اللُّغَوِيَّةُ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى لِلْهَجْرَةِ وَتَأَثُّرُهَا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، 2010)، 31.

⁷ Kees Versteegh, *Landmarks in Linguistics Thought*, 140-142.

وَبَعْضِ النَّظَرِ عَنِ الآرَاءِ الْمُخْتَلَفَةِ حَوْلَ لُغَةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، فَقَدْ أُبْرَزَ زَكِي مَبَارَكٌ - وَغَيْرُهُ الْكَثِيرُ¹ - أَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ بِلُغَةِ النَّثْرِ وَلَيْسَ بِلُغَةِ الشَّعْرِ، وَقَدْ نَزَلَ بِلُغَةٍ عَلَى قَوْمٍ رُبُّوْا عَلَى الْفَصَاحَةِ، وَنَشَأُوا عَلَى حَلْبَةِ الْبَلَاغَةِ؛ فَكَانَ نَسِيحُ لُغَةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ مِنْ مَادَّةِ لُغَتِهِمْ، وَكَانَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ أَلْفَاظِهِمْ، وَعَلَى أَسَالِيْبِ بِلَاغَتِهِمْ². وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ إِنَّمَا هُوَ مَنْقُولٌ عَنِ ابْنِ خَلْدُونٍ فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ عَنِ "عِلْمِ التَّفْسِيرِ"، إِذْ قَالَ فِي ذَلِكَ: "...وَأَمَّا التَّفْسِيرُ فَاعْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيْبِ بِلَاغَتِهِمْ، فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ، وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مَفْرَدَاتِهِ وَتَرْكِيبِهِ³.

وَكَانَ الرَّافِعِيُّ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ - أَيْضًا - يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ لُغَةَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ نَزَلَتْ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ⁴، وَهِيَ - بِرَأْيِهِ - أَفْصَحُ الْأَسَالِيْبِ الْعَرَبِيَّةِ بِلَا مِرَاءٍ؛ وَكَأَنَّ الظُّرُوفَ آنَذَاكَ قَدْ هُيِّئَتْ؛ لِحَمْلِ هَذَا النَّصِّ؛ لِمَا لَهَا مِنْ بِلَاغَةٍ فِي التَّرَاكِيبِ، وَفَصَاحَةٍ فِي الْأَلْفَاظِ⁵.

وَيُرَدُّ الْبَاحِثُ زَهِيرُ زَاهِدٍ عَلَى رَأْيِ الرَّافِعِيِّ، وَعَلَى مَنْ ذَهَبَ مَذْهَبُهُ مِنَ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ، بِأَنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ لَا بِلِسَانِ قَبِيلَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَهِيَ أَقْرَبُ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَقْبَلُهَا الْمَنْطِقُ، فَاسْمُ "الْعَرَبِ" يَتَنَاوَلُ الْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ جَمِيعَهَا تَنَآوُلًا وَاحِدًا يَشْمَلُ حِجَازَهَا وَمَنَاهَا وَنَجْدَهَا وَكُلَّ مَكَانٍ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَهُوَ مَا يُنَاسِبُ وَيُطَابِقُ مَا صَرَّحَ بِهِ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ فِي ثَلَاثَةِ عَشَرَ مَوْضِعًا⁶، مِنْهَا - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}⁷، وَنَحْوُ قَوْلِهِ: {وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}⁸.

¹ هَذَا الرَّأْيُ هُوَ مُحَلٌّ لِجَمَاعٍ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ.

² زَكِي مَبَارَكٌ، النَّثْرُ الْفَنِّي فِي الْقُرْنِ الرَّابِعِ، (الْقَاهِرَةُ: دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ، [د.ت.ا]، 46.

³ ابْنُ خَلْدُونٍ، الْمَقْدَمَةُ، 528.

⁴ يُعْلِلُ الرَّافِعِيُّ سَبَبَ فَصَاحَةِ لُغَةِ قُرَيْشٍ بِأَسْبَابٍ عَدِيدَةٍ، مِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ مُخْتَلَفَةَ اللَّغَاتِ وَاللَّهْجَاتِ، وَيَأْخُذُونَ مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْهَا؛ فَيُدِيرُونَ بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ، وَيُجْزُونَ عَلَى قِيَاسِهِ؛ فَاتَّفَقَتْ فِي ذَلِكَ حَيَاتُهُمُ اللُّغَوِيَّةُ وَحَيَاتُهُمُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى التَّجَارَةِ. وَبَنَاءً عَلَيْهِ فَقَدْ رَفَعَتْ. كَمَا يَقُولُ الرَّافِعِيُّ - أَدْوَاهُ، وَسَمَنْتَ طِبَانَهُمْ، وَقَوِيَتْ سَلَانَتُهُمْ؛ حَتَّى صَارُوا فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ أَجَوْدَ الْعَرَبِ انْتِقَاءً لِلْأَفْصَحِ مِنَ الْأَلْفَاظِ، وَأَسْهَلَهَا عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ النُّطْقِ، أَوْ أَحْسَنَهَا مَسْمُوعًا، وَابْتَنَاهَا إِبَانَةً عَمَّا فِي النَّفْسِ. وَهَذَا الرَّأْيُ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِنَّمَا جَرَى عَلَى لِسَانِ أَغْلَبِ اللُّغَوِيِّينَ وَالْمُفَسِّرِينَ الْقَدَمَاءِ، وَتَأَثَّرَ بِهِ الْمُحَدِّثُونَ كَالرَّافِعِيِّ وَطَه حَسِينٍ وَغَيْرُهُمْ، فَقَدْ كَانَ ابْنُ قُتَيْبَةَ يَقُولُ إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ إِلَّا بِلُغَةِ قُرَيْشٍ مُسْتَدَلًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِيهِ؛ فَقَوْمُ الرَّسُولِ هُمُ الْعَرَبُ وَمِنْهُمْ قُرَيْشٌ. أَنْظَرُ: مُصْطَفَى الرَّافِعِيِّ، تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ، 1: 78؛ ابْنُ فَارَسٍ، الصَّاحِبِيُّ، 43؛ زَهِيرُ غَازِي زَاهِدٍ، فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَأَسَالِيْبِ تَعْبِيرِهِ (عَمَّان: دَارُ صِفَاءِ النَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ، 2012)، 63.

⁵ الرَّافِعِيُّ، تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ، 1: 79.

⁶ زَهِيرُ زَاهِدٍ، فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَأَسَالِيْبِ تَعْبِيرِهِ، 61-63.

⁷ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، يَوْسُفُ: 2.

⁸ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، التَّحْلُ: 103.

إِذَنْ، فقد أَحَسَّ العربُ ما كَانَ بَيِّنَ الْقُرْآنِ وَبَيِّنَ هَذِهِ اللَّغَةِ، فِي أَطَارِ خَصَائِصِهَا- مِنْ صِلَةٍ؛ فَتَدَاعَى النُّحَاةُ إِلَى الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ يَدْرُسُونَهُ وَيَكْشِفُونَ عَنْ خَصَائِصِهِ؛ رَجَاءً أَنْ يُعَيِّنَهُمْ ذَلِكَ- كَمَا يُوَكِّدُ السَّيِّدُ أَحْمَدُ خَلِيلٌ- عَلَى فَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ فَهْمًا تَتَكَشَّفُ لَهُمْ بِهِ مَعَانِيهِ، وَتَتَضَحُّ لَهُمْ بِهِ مَقَاصِدُهُ¹.

إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، فَقَدْ بَيَّنَّ الْبَاحِثُ الشَّهِيرُ يَاسِرُ سُلَيْمَانُ Yasir Suleiman أَنَّ الْقُرْآنَ وَالشَّعْرَ الْجَاهِلِيَّ لَمْ يَكُونَا الْمَصْدَرِ الْأَسَاسِيَّ لِلنُّحَاةِ، بَلْ يُضَافُ إِلَيْهِمَا لَهْجَاتُ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ حَتَّى الْقَرْنِ التَّاسِعِ لِلْمِيلَادِ؛ لَكُونَ هَذِهِ اللَّهْجَاتُ تُنْبِئُ عَنِ الْأَهَمِّيَّةِ الْكَبْرَى فِي مَقَايِيسِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ حِينَ أُحِقَّتْ لَهُجَاتُهُمْ بِمَعْيَارِ النَّقَاءِ Purity، وَالصَّحَّةِ Correctness، وَالْفَصَاحَةِ Eloquence².

وَيُسَجَّلُ التَّهَانَوِيُّ مِلَاحِظَةً هَامَّةً تُسَهِّلُ فِي فَهْمِ آيَةِ التَّفْسِيرِ مُنْذُ الْبَدَايَاتِ الْأُولَى الَّتِي رَافَقَتْ نَزُولَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، فَيَقُولُ إِنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ فِي زَمَنِ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ³، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ ظَوَاهِرَهُ وَأَحْكَامَهُ، أَمَّا دَقَائِقُ بَاطِنِهِ فَأَمَّا كَانَتْ تَظْهَرُ بَعْدَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِفْسَارِ⁴. ثُمَّ يُعَلِّقُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِقَوْلِهِ: "...وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَى مَا كَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مَعَ أَحْكَامِ الظَّوَاهِرِ لِقُصُورِنَا عَنْ مَدَارِكِ أَحْكَامِ اللَّغَةِ بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ، فَنَحْنُ أَشَدُّ احْتِيَاجًا إِلَى التَّفْسِيرِ"⁵.

وَمِنْ ثَمَّ، يُؤَكِّدُ خَالِدُ الْعَلَكُ أَنَّهُ مُنْذُ اللَّحْظَاتِ الْأُولَى لِنَزُولِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ أَثَارَ حَرَكَةٍ فِكْرِيَّةٍ ثَقَافِيَّةٍ عِنْدَ الْعَرَبِ، حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَى الْاِتِّفَاتِ إِلَى مَا جَاءَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ فِي أُسَالِيْبِ التَّعْبِيرِ، وَالْبَيَانِ، بِمَا لَمْ يَعْهَدُوهُ مِنْ قَبْلُ⁶، وَإِلَى تَفْسِيرِ الظَّوَاهِرِ اللَّغَوِيَّةِ فِي هَذَا النَّصِّ.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ كَانَ الْمَصْدَرِ الْأَوَّلَ الَّذِي اعْتَمَدَ عَلَيْهِ النُّحَاةُ وَاعْتَدُّوا بِهِ فِي تَقْعِيدِ الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَاللَّغَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ⁷، حَيْثُ كَانَ الْاِنْطِلَاقُ مِنْهُ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ الرُّجُوعُ فِي اسْتِقْرَاءِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ⁸. وَقَدْ أَجْمَعَ عُلَمَاءُ

¹ السَّيِّدُ أَحْمَدُ خَلِيلٌ، دَرَاثَاتُ فِي الْقُرْآنِ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ الْمَعَارِفِ بِمِصْرَ، [د.ت.ا.]، 30-31.

² Yasir Suleiman, "Ideology and the Standardization of Arabic", *Arabic Language and Linguistics*, Edited by: Reem Bassiouney and E. Graham Katz, (Washington: Georgetown University Press), 203.

³ مُحَمَّدٌ حَسِينُ آلِ يَاسِينَ، الدَّرَاسَاتُ اللَّغَوِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ إِلَى نَهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ (بَيْرُوتُ: مَنَشُورَاتُ دَارِ مَكْتَبَةِ الْحَيَاةِ، 1980)، 30-33.

⁴ التَّهَانَوِيُّ، كَشَافُ اصْطِلَاحَاتِ الْفُنُونِ، 1: 32-33.

⁵ التَّهَانَوِيُّ، كَشَافُ اصْطِلَاحَاتِ الْفُنُونِ، 1: 33.

⁶ خَالِدُ الْعَلَكُ، أُصُولُ التَّفْسِيرِ وَقَوَاعِدُهُ، 32.

⁷ أَحْمَدُ مَكِّي الْأَنْصَارِيُّ، نَظَرِيَّةُ النَّحْوِ الْقُرْآنِيِّ- نَشَاتُهَا وَمَقَوِّمَاتُهَا الْأَسَاسِيَّةُ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ الْقِبْلَةِ الثَّقَافِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، 1984)، 15.

⁸ الْهَادِي الْجَطْلَاوِي، قَضَايَا اللَّغَةِ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ (صَفَاقْس- الْجُمْهُورِيَّةُ التُّونِسِيَّةُ، دَارُ مُحَمَّدٍ الْحَامِي، 1998)، 7.

الأصول والنُحاة والمفسرون على أنَّ القرآن هو المصدر السَّماعيُّ الأوَّل الذي يُخْتَجُّ ويُستَدَلُّ بِهِ¹، إلى درجة أنَّ السِّيوطي أشار إلى أنَّ كلَّ ما وَرَدَ أَنَّهُ قَرِئَ بالقرآن جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان مُتَوَاتِرًا أم آحادًا، أم شاذًّا².

وَلَعَلَّ الاحتجاج بالقراءة الشاذَّة هو دليل ظاهر على مرجعية القرآن اللُّغويَّة؛ إذ أَكَّدَ السِّيوطي أنَّ النَّاسَ أَطْبَقُوا على الاحتجاج بالقراءات³ الشاذَّة⁴ في العربية إذا لم تُخَالَفْ قِيَّاسًا معروفًا، ويزيد هذا التأكيد بقوله: "وما دَكَّرْتُهُ مِنَ الاحتجاج بالقراءة الشاذَّة لا أَعْلَمُ فيه خِلَافًا بَيْنَ النُّحَاةِ وَإِنْ احْتُلِفَ في الاحتجاج بها في الفقه"⁵. ويأتي ذلك على عَدِّ أنَّ التَّطَرُّقَ إلى النَّصِّ القرآني يُفْضِي بالضرورة إلى التَّطَرُّقِ إلى القراءات القرآنيَّة التي اهتمَّ بها علماء اللُّغة والمفسرون؛ باعتبارها- كما يُوَكِّدُ عبد العال مكرم- شواهد سماعيَّة حَفِظَتْ معظم الظواهر اللُّغويَّة واللَّهجيَّة في اللُّغة العربيَّة⁶.

وهذا ما ذَهَبَ إِلَيْهِ فؤاد سزكين [Fuat Sezgin 1924-....م]- في أنَّ ظهورَ عَدَدٍ مِنَ القراءات القرآنيَّة المختلفة بَعْدَ تدوين النَّصِّ الرَّسميِّ في المصحف العثماني- على حَدِّ قَوْلِهِ- سَاعَدَ على نشوء دراسة النَّصِّ القرآنيِّ في وقتٍ مبكِّرٍ جدًّا، بل تَطَوَّرَ، على ضَوْءِ هذه الدَّراسات، تَطَوُّرًا سريعًا⁷، وهذا ما ذَهَبَ إِلَيْهِ ألفريد بيستون [Alfred Beeston 1911-1995م]، مُضِيفًا أنَّ لغة القرآن أثَّرت تأثيرًا واضحًا في الدَّارسين والباحثين عَنْ طَبِيعَةِ "اللُّغة القرآنيَّة" وبالتالي أَسْهَمَ في تنشيط حركة التَّأليفِ فيما بَعْدَ بأشكاله وأنماطه المختلفة⁸.

¹ أحمد الأنصاري، نظرية النحو القرآني، 23-24.

² السِّيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، 36.

³ عَرَفَ ابنُ الجزريَّ القراءات بقوله: "هي علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزْو النَّاقِلَةِ". والمقصود بـ"عزْو النَّاقِلَةِ" النَّاقِلُ الَّذِي نَقَلَ القراءة روايةً وطريقًا. وعَرَفَهَا الزَّرْكَشِيُّ على أَنَّهَا "اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كُتُبِ الحروف أو كُتُبِهَا مِنْ تخفيف وتشكيل وغيرهما". ويرى الزَّرْكَشِيُّ إلى أنَّ معرفة توجيه القراءات وتبيين ما ذَهَبَ إِلَيْهِ كُلُّ قَارِئٍ هو فنٌّ جليل، بِهِ تُعْرَفُ جلالَةُ المعاني وجزالَتُهَا. انظر: ابن الجزري، منجد المقرئين ومرشد الطالبين (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2000)، 3؛ الزَّرْكَشِيُّ، البرهان في علوم القرآن، 1: 465؛ 489 عبد الهادي الفضلي، القراءات القرآنيَّة- تاريخ وتعريف (جدة: دار المجمع العلمي، 1979)، 63.

⁴ ذَكَرَ السِّيوطي أنَّ القراءات تنقسم إلى متواترٍ وأحاديٍّ وشاذٍّ، فالمتواترُ هي القراءات السبعة المشهورة، والأحاديُّ هي قراءاتُ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هي تمامُ العشر، وبلحقُ بها قراءة الصَّحابة، والشَّاذُّ هي قراءة التَّابِعِينَ كالأعمش ويحيى بن وثَّابٍ وابن جُبَيْرٍ ونحوهم. انظر: السِّيوطي، الإِتقان في علوم العلوم، 1: 210.

⁵ السِّيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، 36.

⁶ عبد العال سالم مكرم، قضايا قرآنيَّة في ضوء الدَّراسات اللُّغويَّة (بيروت: مؤسسة الرِّسالة، 1998)، 42.

⁷ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي (الرياض- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، 1991)، 1.

20.

⁸ A. F. L. Beeston, *The Arabic Language Today* (London: Hutchinson University Library, 1970), 12-15.

وإنَّه من الطَّبِيعِيّ - كما يذكر أبو شهبه - أن يكون علم التفسير هو أوَّل ما يُدَوَّن من علوم القرآن¹؛ إذ هو الأصل في فهم القرآن وتدبره، وعليه يتوقَّف استنباط الأحكام².

ويُلفتُ محمد العلاني الانتباه إلى أنَّ الاهتمام الكبير باللغة العربيَّة في القرون الإسلاميَّة الأولى يَدُلُّ دلالة واضحة على ما تركه النصُّ القرآنيُّ من أثرٍ في النفوس، وما أحسَّ به النُّجاة من ضرورة فهم لغة النصِّ القرآنيِّ؛ فالقرآن - إضافة إلى قُدسيَّته الدينيَّة ومركزِيته الاجتماعيَّة والحضاريَّة - نصٌّ لغويٌّ تتعدَّد معاني ألفاظه، ودلالات نظمه، وتفسير آياته، وتتَّسع تأويلاته بحسب المقاربات العلميَّة التي تُوظَّف له³.

ويُبيِّن محمد التويري أنَّ ليس من الغلوِّ في شيءٍ أن نقول إنَّ النصَّ القرآنيَّ كان بالنسبة إلى الثقافة الإسلاميَّة العامل الأساسيُّ الذي حدَّد معالم الفكر، ورسم آفاقه، فسبَّبه نشأت جملة العلوم التي دارت في فلكه كال تفسير والنحو وعلوم اللغة والبلاغة والفقه وعلم الكلام... وغيرها من العلوم التي تتركز على النصِّ القرآنيِّ⁴. ويرى الباقلانيُّ أنَّ النصَّ القرآنيَّ هو نظام لغويٌّ يقوم على غير مثال، حيث يقوم على تصوُّف وجوهه، وتباين مذهبهم، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصُّ به، ويتميَّز في تصوُّفه من أساليب الكلام المعتاد⁵.

لقد كان النصُّ القرآنيُّ، في نظر علماء اللغة ومن هذا التصوُّر، ظاهرة لغويَّة مُميَّزة، فنجد - مثلاً - مالك بن نبي [1905-1973م] يقول في توصيف لغة القرآن "إنَّ ظاهرة لغويَّة كهذه فريدة في تاريخ اللغات، إذ لم يحدث للغة العربيَّة تطوُّر تدريجيٌّ، بل بعض ما يُشبه الانفجار التوريِّ المباغت كما كانت الظاهرة القرآنيَّة...

¹ يذهب محمد أبو شهبه إلى أنَّ أوَّل كتاب دُوِّن ونسَّطبع أن تصفه بأنَّه كتابٌ تفسيريٌّ لعلوم القرآن (كاصطلاح مستقلٍّ) وبمعنى الفنِّ المُدَوَّن هو كتابٌ لمؤلف مغمور لم يُعرف لفقدان الورقة الأولى من المخطوطة، وهي مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب توجد في دار الكتب ببرلين، كان آرثر جيفري Arthur Jeffery (1892-1959) قد وقَّفت على التصحيح والطبع. ويذكر أبو شهبه أنَّ صاحب كتاب "المباني في نظم المعاني" قسَّم الكتاب إلى عشرة فصول، نحو: المكي والمدني، نزول القرآن، التفسير والتأويل، المُحكَّم والمُتَشابه، نزول القرين على سبعة أحرف... إلى غيرها من الفصول. ويُشار إلى أنَّ المتعارفات عليه لدى الباحثين أنَّ أوَّل ظهور المصطلح كان على يد أبي الفرج ابن الجوزي؛ بناءً على ما ذكره السيوطي في "الاتقان". والذي أريد أن أقرِّه إليه هو عنوان الكتاب "المباني في نظم المعاني" وفيه من الإشارة ما فيه حَوْل التحام المبني والنظم والمعنى، وكلَّ هذه الكلمات في العنوان - بغضِّ النظر إنَّ كان الكتاب سبَّاقاً لمصطلح علوم القرآن أم لا - لم تأت مصادفةً وعقوبةً، بل هي تحمل - برأيي - فكراً مقصوداً مُمنهجاً. انظر: محمد محمد أبو شهبه، المدخل لدراسة القرآن الكريم (الرياض: دار اللواء للنشر والتوزيع، 1987)، 34.

² محمد أبو شهبه، المدخل لدراسة القرآن الكريم، 31.

³ محمد الحبيب العلاني، الشاهد القرآني في كتاب "المفصل" للزمخشري (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2014)، 16.

⁴ محمد التويري، علم الكلام والنظريَّة البلاغيَّة عند العرب (تونس- صفاقس: دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، 2001)، 7.

⁵ الباقلاني، إعجاز القرآن، 35.

وبهذا، تكون اللغة العربية قد مرّت طفرة من المرحلة اللّهيّة الجاهليّة إلى لغة منظمّة فنيّاً؛ لكي تنقل فكرة الثقافة الجديدة، والحضارة الوليدة¹.

وتأسيساً على ذلك، يُشير مالك بن نبي إلى أنّ المسألة اللّغويّة التي أثارها النصّ القرآني تستحقّ في ذاتها دراسة جادّة لألفاظه وتراكيبه، فمن يتتبع ما ظفر به علّم التفسير من ذلك المجال الرّحيب باستطاعته أن يلاحظ امتداد الظاهرة القرآنيّة وما تحمله من تجاوز لحدود اللّغة التقليديّة للأدب الجاهليّ؛ وذلك من خلال إحداثه انقلاباً هائلاً في الأدب العربيّ بتغييره الأداة الفنيّة في التعبير².

ووفقاً إلى هذا الرّؤية، يؤكّد أدونيس أنّ النصّ القرآنيّ تحطّى الأجناس القوليّة السائدة لدى نزوله، كالشعر الجاهليّ منها بصفة خاصّة - وأصبح النصّ القرآنيّ النمّذج الذي تحوّل إلى محور لكلّ التّصوص الثقافيّة التي تتحرّك في سياقها وفضائها، سواء لتدعيم تفوّقه أو لقراءته وتفسيره؛ فأفرز - بهذا التّوجّه - مناهج كثيرة متعدّدة في دراسة فنون القول والبيان، وبالتالي عدّا مفهوم "النصّ" بمثل مفهوم محوريّ ومركزيّ في "علوم القرآن"³. ولا أدلّ على ذلك ممّا دونه ابن قُتيبة [213-276هـ، 828-881م] على حوّل أسلوب "النصّ القرآنيّ" وتأثير متكلّمي العربيّة منه، بقوله: "إنّما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره، واتّسع علمه، وفهم مذهب العرب واقتناها في الأساليب"⁴، ضارباً - ابن قُتيبة مثلاً بالخطيب المصنّع البليغ، إذ يقول: "...فالخطيب من العرب إذا ارتحل كلاماً في نكاح أو حمالة أو تخصيص أو صلح أو ما شابه ذلك، لم يأت به عن وادٍ واحد، بل يفتن فيختصر تارة إرادة التّخفيف، ويُطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرّر تارة إرادة التّوكيد، ويخفي بعض معانيه؛ حتى يعمّص على أكثر السامعين، ويكشف بعضها؛ حتى يفهمه بعض الأعجميين، ويشير إلى الشّيء ويكفي عنه. وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدّر الحفل، وكثّر الحشد، وجلالة المقام..."⁵.

¹ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنيّة، 232-233.

² ن. م، 234.

³ أدونيس، الشعرية العربية، 41.

⁴ أبو محمّد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ، تأويل مشكل القرآن (القاهرة: دار التراث، 1973)، 12.

⁵ ابن قتيبة الدينوريّ، تأويل مشكل القرآن، 13.

ونلاحظُ الباحثَ رابعَ بنِ خوية يُعَلِّقُ على هذا الكلام؛ فيؤكِّدُ أنَّه منَ الجُلِّيِّ أنَّ ما دَوَّنه ابنُ قُتَيْبَةَ لا يحملُ المعانيَ اللُّغويَّةَ للأسلوبِ العربيِّ المتأثِّرِ بالنَّصِّ القرآنيِّ فحسبُ، بل إنَّ الأسلوبَ في نَظَرِ ابنِ قُتَيْبَةَ قُنُ القَوْلِ ومعرفةُ دواعيه، وملايساته، وظروفه، وحالته، والاعتدادُ بالمتلقِّي. ولعلَّ الَّذي يستدعي انتباهنا في نصِّ ابنِ قُتَيْبَةَ أنَّه رَبَطَ "الأسلوبَ" بطرقِ أداءِ المعنى، وبالكيفية التي يُشكِّلُ بها المتكلِّمُ كلامه¹.

وفي ذلك، وما يتعلَّقُ بتفسيرِ النَّصِّ القرآنيِّ، يعتمدُ محمدُ المباركُ تَهَجًّا ورؤيَّةً في "التفسيرِ"، تنمُّ عَنْ جانبٍ لا فِتٍ منَ جوانبِ التفسيرِ، وتُجَلِّي مكانةَ التفسيرِ، لا سيَّما اللُّغويَّ مِنْهُ، في العلومِ القرآنيَّةِ، حيثُ يرى أنَّه على التفسيرِ أن يكونَ شاملاً ورابطاً، بمعنى أن يشملَ الجوانبَ "التفسيرية" كُلَّها؛ بدءاً منَ فكرةِ النَّصِّ، وهَدَفِهِ، والحوِّ الَّذي يُثْبِتُهُ، ووصولاً إلى أسلوبِ² التعبيرِ وفنِّهِ، والأسلوبِ اللَّفْظيِّ³، مَعَ بَيانِ خصائصِ هذا الفنِّ وانسجامِهِ مَعَ الموضوعِ في النَّصِّ الَّذي هو موضوعُ الدَّارسةِ⁴.

ثمَّ يُؤكِّدُ المباركُ أنَّ "التفسيرَ الأدبيَّ"⁵ - كما أَطْلَقَ عَلَيْهِ - في دراسةِ الآياتِ يقومُ على عَرْضِ الطَّرِيقَةِ الأدبيَّةِ أو فنِّ التعبيرِ عَنْ تِلْكَ المعاني والأفكارِ، كالوصفِ والقَصصِ والمثلِ المضروبِ والعرضِ المباشرِ، مَعَ إبرازِ ملامحِ هذا الفنِّ وتَناعُجِهِ في النَّصِّ القرآنيِّ. ثمَّ يُشْرَعُ بدراسةِ الآياتِ مِنْ حَيْثُ تراكيبُها وجملُها ومفرداتها، وما لهذه التَّراكيبِ والألفاظِ مِنْ خصائصَ وميَّزَاتٍ بارزةٍ، سواءً مِنْ جهةِ أداءِ المعنى وحُسنِ التعبيرِ عنه وقُوَّتِهِ ودِقَّتِهِ، أَمْ مِنْ جهةِ اللَّفْظِ وجرسِهِ ونغمَتِهِ⁶.

¹ رابع بن خوية، مقدمة في الأسلوبية، 12-13.

² الأسلوب في اللغة يعني الطَّرِيقَ، أو الفنَّ، أو الوجهَ، أو المذهبَ. ولا شكَّ في أنَّ لكلَّ أسلوبٍ الخاصَّ بِهِ في التعبيرِ عن المشاعر والأفكار بالكتابة، أو التَّأليفِ، أو التَّصويرِ، أو الموسيقى؛ ولذلك قيل: الأسلوبُ في الأصل "ما يَنْسِبُ بِهِ الشَّخْصُ في التعبيرِ عَنْ أَفكارِهِ، وتَصَوُّيرِ خياليهِ، وتَخْيِيرِ ألفاظِهِ، وتكوِينِ جُمْلِهِ. ويُطْلَقُ الأسلوبُ عِنْدَ الفلاسفةِ على كَيْفِيَّةِ تعبيرِ المرءِ عَنْ أَفكارِهِ وعلى نوعِ الحركةِ الَّتِي يجعلُها في هذه الأفكارِ. انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، 1: 80-80.

³ محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن (د.م.]: دار الفكر، 1973)، 9.

⁴ محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، 8.

⁵ لا يقصد محمد المبارك - برأيي - "التفسير الأدبي" بمعناه الأدبي الحديث المجرد Literature، بل يقصد تلك النظرة الشمولية التي ينبغي لمفسر النصِّ القرآني أن يحيط بها، وخلال مستويات "لسانية" عدَّة، كالمستوى الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي، والبلاغي... إلخ. وهذا ما كشفت عنه خلال مقدمة الكتاب بقوله: "...وطريقتي في التفسير الأدبي لهذه النصوص القرآنية تقوم على تلخيص الكفرة العامة للسورة أو النص، ثم ينسج ما تضمنته من أفكار، وكشف ما بين هذه الأفكار من صلة وربطها بما تضمنته القرآن من مفاهيم وأفكار. وأعمد في ذلك إلى عرض معاني الآيات والأفكار التي تضمنتها عرضاً مباشراً هو حصيلته ما انتهى إليه رأيي في معانيها...". انظر: المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، 7.

⁶ المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، 7-8.

2. 3. الإعراب والتفسير بمعية السياق:

ينبغي لنا، بداءةً- وقَبْلَ الولوجِ ي معالجة التراكيب النحويّة وما لهُ مِنْ سياقاتٍ مُفسّرة وكاشفة عن الأداء النحويّ للنصّ القرآنيّ- أن نَنعِياً العلاقة الجامعة بين حقيقة الإعراب وجوهر التفسير وما لهما في تداخلٍ دلاليٍّ ووظيفيٍّ، الأمر الذي قد يَغيبُ عَنْ كثيرٍ مِنَ الباحثين والدارسين للنصّ القرآنيّ مِنْ حيثُ جوانبه النحويّة والتركيبية. مِنْ هنا، نَلحظُ أنَّ فؤاد سزكين Fuat Sezgin- يوكّد أنَّ الدِّراسَاتِ اللُّغويّة والنَّحويّة ارتبطتْ في أبسطِ صُورها فَوْرَ تدوين القرآن¹، وكذلك في إطارِ دراسة النصّ القرآنيّ². ويُظهِرُ سزكين أنَّ هناك رواياتٍ كثيرة تُؤكّد أنَّ أبا الأسود الدُّؤليّ³ [...] 69هـ، ...-688م] في قَد قامَ بِوَضْعِ أوَّلِ علاماتٍ تُدُلُّ على الحركاتِ والتَّونينِ⁴.

إنَّ العنايةَ بِعلمِ التَّركيبِ هو جانبٌ هامٌّ مِنْ علمِ الدَّلالة العامِّ؛ وذلك لأنَّه يرتبطُ بِعلمِ النَّحوِ الذي له دورٌ فاعلٌ في معرفة معاني التراكيب مِنْ حيثُ الحركاتِ الدَّالة على ذلك؛ وَعَلَيْهِ نَجِدُ عبدَ القاهر الجرجانيّ يُظهِرُ أَهميَّةَ هذا المقصودِ بقوله: "...إذْ كَانَ قَدْ عُلِمَ أنَّ الألفاظَ مغلقةً على معانيها حتَّى يكون الإعرابُ هو الذي يفتحُها"⁵.

مِنْ ثَمَّ، نُلَاحِظُ أنَّ مناهجَ المفسِّرينَ في التَّأويلِ إمَّا يتركزُ على أنَّ تفسيرَ المعنى هو- في حقيقة الأمرِ- إيضاحُهُ، وكذلك عِلْمُ النَّحوِ والإعرابِ، فَقَدْ بيَّنَ العكبريُّ هذا المفهومَ مُؤكِّداً أنَّ "أقومُ طريقٍ يُسَلِّكُ في الوقوفِ على معنى القرآن، ويُتوصَّلُ بِهِ إلى تبيينِ أغراضِهِ وَمَعْرَاضِهِ هو مَعْرِفَةُ إعرابه واشتقاقِ مَقاصِدِهِ مِنْ أُنْحاءِ خَطابه، وَالنَّظَرِ في وُجُوهِ الْقُرْآنِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ الْمفسِّرينَ الَّذِينَ يُعْتَدُّ بِتفسيرِهِمْ"⁶.

¹ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، 1: 20.

² نشأة محمد رضا ظبيان، علوم اللغة العربية في الآيات المعجزات- علم أصوات اللسان العربي (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997)، 9.

³ مِنَ الباحثين مَنْ يرى أنَّ أبا الأسود الدُّؤليّ لَمْ يَكُنِ المؤسِّسَ الحقيقيَّ لِلنَّحوِ العربيِّ، مِنْ أشهر هؤلاء، في العصر الحديث، هنري فليش Henri Fleisch [1904-1985م] الذي يرى أنَّ واضعَ علومِ النَّحوِ العربيِّ الأوَّلِ والحقيقيِّ هو عبدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِسْحاقَ الَّذِي عَقَّبَ أبا الأسود الدُّؤليّ، وبالتالي شَكَّلَ- ابنُ أَبِي إِسْحاقَ- إحدى المصادرَ المبكرةَ لِسَبْيُوِيَّةِ. انظر: Jeroslav Stetkevych, *The Modern Arabic Literary Language: Lexical and Stylistic Developments*, 2.

⁴ سزكين، تاريخ التراث العربي، 1: 20؛ الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، 13-14.

⁵ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 23.

⁶ العكبري، إملأ ما مَنْ به الرحمن مِنْ وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، 20.

وَإِذَنْ، كَانَ الْإِعْرَابُ مِنْ أَدَوَاتِ الْمَفْسِرِ لَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُفَسِّرَ مِنْ دُونِهِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْمَفْسِرِينَ كَانُوا يَجْعَلُونَ مِنْ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ عِلْمًا وَيَعُدُّهُ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ التَّفْسِيرِ، فَقَدْ ذَكَرَ الزَّرْكَشِيُّ فِيمَا يَجِبُ عَلَى الْمَفْسِرِ الْبِدَايَةَ بِهِ مُعْتَدًّا بِاعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ التَّرَاكِبِ بِحَسَبِ الْإِعْرَابِ وَمُقَابِلِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مُؤَدِّيَّةُ أَصْلِ الْمَعْنَى، وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمَرْكَبُ بِحَسَبِ الْوَضْعِ وَذَلِكَ مُتَعَلِّقٌ بِعِلْمِ النَّحْوِ¹.

وَوُفَّقًا لِهَذَا الْمَقْتَضَى عَرَّفَ السِّيُوطِيُّ النَّحْوَ عَلَى أَنَّهُ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ يَنْظُرُ بِهَا أَصْحَابُهَا فِي أَلْفَاظِ كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ جِهَةٍ مَا يَتَأَلَّفُ بِحَسَبِ اسْتِعْمَالِهِمْ لِتَعْرِيفِ النَّسَبَةِ بَيْنَ صِيَغَةِ النَّظْمِ وَصُورَةِ الْمَعْنَى؛ فَيَتَوَصَّلُ بِإِحْدَاهَا إِلَى الْأُخْرَى². وَنَفَهُمُ مِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ طَبِيعَةَ تَصَوُّرِ النَّحْوِ وَوُضُوفَتِهِ وَأَهَمِّيَّتِهِ، فَالنَّحْوُ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ تَخْتَصُّ بِدِرَاسَةِ قَوَانِينِ التَّرَاكِبِ أَوْ النُّظْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَوُضَائِفِهَا وَمُكَوِّنَاتِهَا، وَالصِّلَةُ بَيْنَ النَّمَطِ التَّرَكِيبِيِّ وَمَدْلُولِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي إِطَارِ مَا تَوَاضَعَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ فِي اسْتِعْمَالِ لُغَتِهِمْ³.

وَيُعَلِّقُ مُحَمَّدُ الرَّمَالِيُّ عَلَى تَعْرِيفِ السِّيُوطِيِّ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ - أَيْ السِّيُوطِيُّ - حِينَ جَعَلَ غَايَةَ النَّحْوِ "مَعْرِفَةَ النَّسَبَةِ بَيْنَ صِيَغَةِ النَّظْمِ وَصُورَةِ الْمَعْنَى" إِنَّمَا يُشِيرُ إِلَى فَهْمٍ عَمِيقٍ لَوُضُوفَةِ النَّحْوِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْرَدِ كَوْنِهِ قَوَاعِدَ وَقَوَانِينَ لَضَبِ حَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ أَوْ حَتَّى بِنَاءِ الْجُمْلِ فَرَبَطَ السِّيُوطِيُّ بَيْنَ "صِيَغَةِ النَّظْمِ" وَ"صُورَةِ الْمَعْنَى". كَمَا أَنَّ اخْتِيَارَ السِّيُوطِيِّ هَذَيْنِ الْمَصْطَلَحَيْنِ بِالذَّاتِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ "الْجُمْلَةِ" وَ"مَعْنَاهَا" لَدَلِيلٌ عَلَى دِقَّةِ الْحِسِّ النَّحْوِيِّ عِنْدَهُ. وَاسْتِنَاجًا لِهَذَا، فَقَدْ نَصَّ عَلَى قَضِيَّةٍ هَامَةٍ جَدًّا، هِيَ - إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ - الْقَضِيَّةُ نَفْسُهَا الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهَا الدِّرَاسَاتُ النَّحْوِيَّةُ الْحَدِيثَةُ، خَاصَّةً لَدَى التَّحْوِيلِيِّينَ Transformations، وَهِيَ قَضِيَّةُ طَبِيعَةِ الصِّلَةِ بَيْنَ التَّرَكِيبِ وَالْمَعْنَى، وَبِالتَّالِي فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الصِّلَةَ الْوُثِيقَةَ وَالْمُتَبَادَلَةَ بَيْنَ التَّرَكِيبِ وَالْمَعْنَى وَأَنَّ فَهْمَ أَحَدِهِمَا بِوُضُوحٍ مَتَوَقَّفٌ عَلَى فَهْمِ الْآخَرِ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ لَمْ تُفْهَمْ الْوُضُوفَةُ النَّحْوِيَّةُ لِمَكُونَاتِ التَّرَكِيبِ وَلَمْ يُفْهَمْ سِرُّ وَضْعِهَا عَلَى نَظْمٍ خَاصٍّ - فَضْلًا عَنْ

¹ الزَّرْكَشِيُّ، الْبِرْهَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، 2: 173.

² السِّيُوطِيُّ، الْاِقْتِرَاحُ فِي أَصُولِ النَّحْوِ، 7.

³ مَمْدُوحُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّمَالِيِّ، الْعَرَبِيَّةُ وَالْوُضَائِفُ النَّحْوِيَّةُ - دِرَاسَةٌ فِي اتِّسَاعِ النِّظَامِ وَالْأَسَالِيبِ ([د. م.]: دَارُ الْمَعَارِفِ الْجَامِعِيَّةِ، 1996)، 15-16.

دَلَالِهَا الْمُعْجَمِيَّةُ - تَعَسَّرَ فَهْمُ الْمَعْنَى فَهَمًّا كَامِلًا تَمَامًا كَمَا لَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ أَنْ تُعَبَّرَ عَنْهُ وَاضِحًا فِي الذِّهْنِ بِدَرَجَةٍ كَافِيَةٍ صَعُبَ تَحْدِيدُ بِنَاءِ الْجُمْلَةِ وَنَظْمِهَا¹.

وَيُلَفِّتُ مُحَمَّدٌ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ الْإِتْبَاهَ إِلَى أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ ذَاتُ سِمَاتٍ وَمُمَيَّزَاتٍ اهْتَمَّتْ لَهَا النُّحَاةُ الْقَدَمَاءُ أَمْثَالُ سِيَبُوهٍ وَغَيْرِهِ؛ فَاهْتَمُّوا بِالتَّرَاكِبِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ الْخَبْرَةَ بِتَرَاكِبِ اللُّغَةِ هِيَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ خَبْرَةٌ بِالْأَعْرَاضِ الَّتِي تُعَبَّرُ عَنْهَا، بِمَعْنَى أَنَّ النُّحَاةَ كَانُوا قَدْ أَدْرَكُوا أَنَّ ثَمَّةَ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بَيْنَ مَا يُسَمَّى بِالْمَعَانِي وَالْأَفْكَارِ، إِذْ شَعَلَتْ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ - بَيْنَ الْفِكْرِ وَاللُّغَةِ - هَؤُلَاءِ النُّحَاةُ².

إِذَنْ، فَثَمَّةُ وَشِجَعَةٍ مَتَرَاصَّةٍ بَيْنَ الْإِعْرَابِ وَالْمَعْنَى، وَعَلَى هَذَا دَلَّلَ الْكِشِي [615-695هـ، 1219-1296م] بِشَكْلِ لَافٍ وَمَثِيرٍ خِلَالَ تَعْرِيفِهِ لِلْإِعْرَابِ، حَيْثُ يَقُولُ: "الْإِعْرَابُ اخْتِلَافٌ آخِرُ الْكَلِمَةِ بِاخْتِلَافِ الْعَامِلِ... وَالْإِعْرَابُ وَضِعٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَحْوَالِ الذَّاتِ، كَمَا أَنَّ الْكَلِمَةَ وَضِعَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الذَّاتِ، وَلِذَاكَ لَا تَخْتَلِفُ الْكَلِمَةُ لِأَنَّ مَدْلُوكَهَا لَا يَخْتَلِفُ، وَيَخْتَلِفُ الْإِعْرَابُ؛ لِأَنَّ مَدْلُوكَهُ يَخْتَلِفُ"³.

وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا، فَإِنَّ الَّذِي يُدَقِّقُ فِي الرَّابِطَةِ الَّتِي تَجْمَعُ مُصْطَلَحِي "الْإِعْرَابِ" وَ"التَّفْسِيرِ" يَجِدُ عِلَاقَةً مَتَرَاصَّةً غَيْرَ مَبْتَوْرَةٍ، فَلَمَّا يَتَنَبَّهُ وَيُلْتَفِتُ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الدَّارِسِينَ. فَالْإِعْرَابُ لَعْنٌ هُوَ "الْإِبَانَةُ"⁴، كَمَا يَقُولُ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَالْأَزْهَرِيُّ وَابْنُ مَنْظُورٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعْجَمَاتِ. وَ"يُقَالُ: أَعْرَبَ⁵ عَنْهُ لِسَانُهُ وَعَرَّبَ أَيُّ أَبَانَ وَأَفْصَحَ⁶. وَأَعْرَبَ عَنِ الرَّجُلِ: بَيَّنَّ عَنْهُ. وَعَرَّبَ عَنْهُ: تَكَلَّمَ بِحُجَّتِهِ⁷... وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْإِعْرَابُ إِعْرَابًا؛ لِتَبَيُّنِهِ وَإِيضَاحِهِ...

¹ ممدوح الزمالي، العربية والوظائف النحوية- دراسة في اتساع النظام والأساليب، 16.

² عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 38.

³ محمد بن أحمد عبد اللطيف القرشي الكيشي، الإرشاد إلى علم الإعراب (القاهرة: دار الحديث، 2004)، 16.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، 6: 155.

⁵ لعلنا نشير هنا إلى أمر جنير بالانقفا، وهو ما يتعلق بمقلوب مادة (عرب) إلى (عبر)، فقد ذكر ابن سيده وغيره أن "عبر الرويا يعبرها عبرًا وعبارةً وعبرًا: فسرها، نحو قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّوْيَا تَعْبُرُونَ} (القرآن الكريم، يوسف: 43). أي تُفسرون. وعبر عن ما في نفسه: أعرب عنها. واستعبره إياها: سأله تعبيرها. وعبر السبيل يعبرها عبورًا: شقها. وهم عابرو سبيل وعبار سبيل. وعبر السقر يعبره عبورًا: شقه. وعبر الكتاب يعبره عبورًا: تدبره. ويتجلى في هذا العجالة المختصرة لمادة (ع، ب، ر) تشابه دلالي في (عرب) و(فسر) و(عبر) التي تحمل معنى الإبانة والتوضيح والكشف عما خفي. انظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 2: 130-131.

⁶ الخليل بن أحمد، كتاب العين، 2: 1164.

⁷ الرّمخسري، أساس البلاغة، 1: 641.

ويُقال: أَعْرَبَ عَمَّا فِي ضَمِيرِكَ، أيُّ أَثْنٍ¹. وَمِنْ هَذَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي أَفْصَحَ بِالْكَلَامِ: أَعْرَبَ... وَأَعْرَبَ الْكَلَامَ وَأَعْرَبَ بِهِ: بَيَّنَّهُ...².

وَقَدْ قَرَنَ بَعْضُ الْمُعْجَمِيِّينَ "الإعراب" بِعَدَمِ الْخَطَأِ فِي أَدَاءِ الْكَلَامِ³، وَفِي هَذَا يَقُولُ الرَّبِيدِيُّ إِنَّ مَعْنَى "الإعراب" هُوَ أَنْ لَا تَلْحَنَ فِي الْكَلَامِ⁴. لِهَذَا، يُقَالُ: "أَعْرَبَ كَلَامَهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنَ فِي الْإِعْرَابِ. وَالرَّجُلُ إِذَا أَفْصَحَ فِي الْكَلَامِ يُقَالُ لَهُ: قَدْ أَعْرَبَ. وَأَعْرَبَ عَنِ الرَّجُلِ: بَيَّنَّ عَنْهُ. وَأَعْرَبَ عَنْهُ، أَيُّ تَكَلَّمَ بِحُجَّتِهِ"⁵. وَذَكَرَ الْجَلَالِيُّ أَنَّ الْعَرَبَ يَقُولُ: "تُعَرِّبُ عَنْ نَفْسِهَا، أَيُّ: تُفْصِحُ، وَيُقَالُ: عَرَّبْتُ عَنِ الْقَوْمِ إِذَا تَكَلَّمْتُ عَنْهُمْ، وَاحْتَجَجْتُ لَهُمْ. وَقِيلَ: إِنَّ "أَعْرَبَ" بِمَعْنَى "عَرَّبَ"... فَإِنَّمَا كَانَ يُعَرَّبُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ..."⁶.

إِضَافَةً إِلَى الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ الْمُجَرَّدِ، فَإِنَّ الْمَفْهُومَ الْإِعْرَابِيَّ لِلْإِعْرَابِ يُسْتَمَدُّ مِنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، يَذْكُرُ ابْنُ سَيِّدِهِ أَنَّ "الإعرابَ الَّذِي هُوَ النَّحْوُ إِنَّمَا هُوَ الْإِبَانَةُ عَنِ الْمَعْنَى بِالْأَلْفَاظِ"⁷. وَلَعَلَّنَا نَلْحَظُ مَفْرَدَاتِ "الْإِبَانَةُ"⁸ وَ"الْإِفْصَاحُ"⁹ وَ"الْكَشْفُ" وَ"الْإِيضَاحُ" فِي تَعْرِيفِ "الإعرابِ"؛ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ اتِّحَادًا بَيْنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ وَالْمَعْنَى الْإِعْرَابِيَّةِ.

وَالْتَفْسِيرُ - لَعْنَةً - هُوَ الْإِبَانَةُ¹⁰ وَالْإِيضَاحُ¹¹ أَيْضًا، كَمَا هُوَ الْمَعْنَى نَفْسُهُ فِي الْإِعْرَابِ، فَقَدْ ذَكَرَ الْأَزْهَرِيُّ أَنَّ مَعْنَى التَّفْسِيرِ هُوَ الْإِبَانَةُ وَكَشْفُ الْمُعْطَى¹²، وَهُوَ كَشْفُ الْمَرَادِ عَنِ اللَّفْظِ الْمُشْكِلِ¹³. كَمَا بَيَّنَّ أَبُو حَيَّانٍ

¹ الرَّبِيدِيُّ، تاج العروس، 2: 215.

² ابن منظور، لسان العرب، 6: 155-156.

³ الفيرز آبادي، القاموس المحيط، 1: 129.

⁴ الطاهر الزاوي، مختار القاموس، 413.

⁵ الرَّبِيدِيُّ، تاج العروس، 2: 215-216؛ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 2: 128.

⁶ الجلال، تلخيص الذهب من لسان العرب، 2: 507.

⁷ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 2: 126.

⁸ الزاوي، مختار القاموس، 413.

⁹ الفيرز آبادي، القاموس المحيط، 1: 128.

¹⁰ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2: 148؛ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 8: 480.

¹¹ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون (القاهرة: دار الحديث، 2005)، 1: 17.

¹² الجلال، تلخيص الذهب من لسان العرب، 3: 70؛ الزاوي، مختار القاموس، 477.

¹³ الأزهرى، تهذيب اللغة، 12: 147.

الأندلسي أن التفسير في اللغة الاستبانة والكشف¹؛ ومنه ما ورد في النص القرآني نفسه نحو قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنِ تَفْسِيرًا}²، أي بياناً وتفصيلاً³، وإظهاراً⁴ وكشفاً عن المعنى⁵.

وكان الخليل بن أحمد قد عرّف التفسير بقوله إنَّ التفسير هو بيان وتفصيل للكتاب⁶. نقول: فسره يُفسره فسراً وفسره تفسيراً أي أبانه⁷. واستفسرته كذا: أي سألته أن يُفسره لي⁸. وكلُّ شيء يُعرف به تفسيرُ الشيء فهو التفسير⁹. ويشير الزمخشري إلى اقتران مادة (ف، س، ر) بالنص القرآني، فيقول: "فسر: هذا كلام يحتاج إلى فسّر وتفسير، وفسر القرآن وفسره"¹⁰. ويذكر الكافيجي أنَّ التفسير "مأخوذ من الفسر، وهو الكشف والإظهار"¹¹... يُقال: أسفر الصُّبح إذا أضاء إضاءة لا شبهة فيه، وسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفت نقابها. ثمَّ يربط الكافيجي العلاقة بين "الفسر"، المكوّن لكلمة "التفسير"، وبين "السفر" ربطاً دلاليّاً يثير التفكير والتأمل، فيقول: "...ويقرب منه (أي الفسر) السفر كقرب لفظه، وهذا قال البعض: هو مقلوب السفر... ولهذا سمي السفر سفرًا؛ لأنه يُظهر"¹² عن أخلاق الرجال"¹³.

وحول هذا المعنى يؤكّد الزاغب الأصفهاني فيقول إنَّ "الفسر" والسفر "يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكنَّ جعل "الفسر" لإظهار المعنى المعقول، وجعل "السفر" لإبراز الأعيان للأبصار فقليل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح"¹⁴.

¹ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، 1: 26.

² القرآن الكريم، الفرقان: 33.

³ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، 11: 37؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (القاهرة: دار الحديث، 2002)، 7: 30.

⁴ محمد بن مصلح الدين مصطفى الفوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999)، 6: 289.

⁵ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 19: 23.

⁶ الخليل بن أحمد، كتاب العين، 3: 1395؛ الجوهري، الصحاح، 2: 498.

⁷ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 8: 480.

⁸ الجوهري، الصحاح، 2: 498.

⁹ الخليل بن أحمد، كتاب العين، 3: 1395؛ الجلال، تلخيص الذهب من لسان العرب، 3: 70.

¹⁰ الزمخشري، أساس البلاغة، 2: 22.

¹¹ الشريف الجرجاني، التعريفات، 22.

¹² النص المشهور الذي يتردّد في كتب الحديث هي: "السفر يُسفر عن أخلاق الرجال". من الشراح من يقول إنه حديث، ومنهم من يقول إنه كلام صحيح وليس بحديث. انظر: إسماعيل بن محمد العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ([د. م.]: مكتبة العلم الحديث، [د. ت.])، 1: 516-517.

¹³ الكافيجي، التفسير في قواعد علم التفسير، 21.

¹⁴ الزاغب الأصفهاني، المفردات، 1: 47؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2: 148؛ فهد الرّومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، 163.

وَيُعَرَّفُ أَبُو الْبَقَاءِ الْكُفَوِيُّ "التَّفْسِيرَ" بِأَنَّهُ "الاستبانة والكشف والعبارة عَنِ الشَّيْءِ بِلَفْظٍ أَسْهَلٍ وَأَيْسَرَ مِنْ لَفْظِ الْأَصْلِ"¹. ثُمَّ يُعَرَّفُ، بَعْدَ ذَلِكَ، "تفسير" القرآن- وهو ما وَرَدَ عِنْدَ أَبِي حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ قَبْلُ- عَلَى أَنَّهُ "عِلْمٌ يَبْحَثُ فِي كَيْفِيَّةِ التَّطْقِيقِ بِالْفَافِ الْقُرْآنِ وَمَدْلُولَاتِهَا وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرَكِيبِيَّةِ"² وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةُ التَّرَكِيبِيَّةِ"³. وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَانِ "أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ لَبْسٌ وَخَفَاءٌ فَيُؤَنَّى بِمَا يَزِيدُهُ وَيُقَسِّرُهُ"⁴. وَنَسْتَشْفِهُ مِنْ هَذَا أَنَّ تَفْسِيرَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ عِنْدَ أَبِي حَيَّانٍ وَالْكُفَوِيِّ لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ شَرْحِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْسِيرِ مَعَانِيهَا، بَلْ يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى تَفْسِيرِ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ عَلَى مَسْتَوَى الْكَلِمَةِ، وَكَذَلِكَ عَلَى مَسْتَوَى الْجُمْلَةِ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ بِ"أَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرَكِيبِيَّةِ وَمَعَانِيهَا التَّرَكِيبِيَّةِ".

وَيُقَسِّرُ التَّهَانَوِيُّ الْمَقْصُودَ مِنْ تَعْرِيفِ أَبِي حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيِّ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِ"أَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرَكِيبِيَّةِ" عِلْمُ الصَّرْفِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ وَالبَدِيعِ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِ"مَعَانِيهَا التَّرَكِيبِيَّةِ" يُحْمَلُ عَلَيْهَا التَّرَكِيبُ؛ بِاسْتِخْرَاجِ مَعَانِي النَّحْوِ فِيهَا، وَاسْتِنْبَاطِ أَحْكَامِ هَذِهِ التَّرَاكِبِ، وَهَذَا الْاسْتِنْبَاطُ- كَمَا يَذْكُرُ التَّهَانَوِيُّ- يُسْتَمَدُّ مِنْ عِلْمِ اللَّغَةِ، وَالنَّحْوِ، وَالتَّصْرِيفِ، وَعِلْمِ الْبَيَانِ، وَأَصُولِ الْفَقْهِ، وَالْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَبِحَتَّاجٍ- أَيْضًا- إِلَى مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ وَالتَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ⁵.

كَمَا نَقَرُّ تَعْرِيفًا مُطَوَّلًا لِلتَّفْسِيرِ عِنْدَ التَّهَانَوِيِّ نَفْسِهِ يَدُلُّ- هَذَا التَّعْرِيفُ- عَلَى الْمَسَاحَةِ الْهَائِلَةِ الَّتِي يَصْطَفُّهَا عِلْمُ التَّفْسِيرِ مِنْ مَجَالَاتٍ وَعُلُومٍ وَفُرُوعٍ، حَيْثُ يَقُولُ: "وَهُوَ عِلْمٌ يُعَرِّفُ بِهِ نَزُولَ الْآيَاتِ، وَشَوُّوْهَا، وَأَقَاصِيصُهَا، وَالْأَسْبَابُ النَّازِلَةُ فِيهَا. ثُمَّ تَرْتِيبُ مَكِّيَّهَا وَمَدَنِيَّهَا، وَتَحْكَمُهَا وَمُتَشَابِهِيَّهَا، وَنَاسِخِهَا وَمَنْسُوخِهَا، وَخَاصِيَّهَا وَعَامِيَّهَا، وَمُطْلَقِهَا وَمُقَيَّدِهَا، وَمُجْمَلِهَا وَمُفَسَّرِهَا، وَحَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَوَعْدِهَا وَوَعِيدِهَا، وَأَمْرِهَا وَنَهْيِهَا، وَأَمْثَالُهَا وَغَيْرِهَا..."⁶.

¹ الْكُفَوِيُّ، الْكَلْبَاتِ، 260.

² ن. م، 260.

³ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 1: 26.

⁴ الْكُفَوِيُّ، الْكَلْبَاتِ، 260.

⁵ التَّهَانَوِيُّ، كَشَافُ اصْطِلَاحَاتِ الْفَنُونِ، 1: 32.

⁶ ن. م، 1: 31.

وإنَّ مِنْ بَيِّنِ الآرَاءِ الَّتِي تَسْتَوْقِفُ مَنْ يَحِثُّ فِي الْعَلَاقَةِ مَا بَيَّنَّ "الإعراب" و"التفسير" وتُعَزِّزُ مكانة "الإعراب" في الكشفِ عَنِ المعاني النَّحْوِيَّةِ - بكلِّ مستوياتها وتجلياتها - ما أشارَ إليه أبو البقاء العُكْبَرِيُّ [538-616هـ، 1143-1219م] بقوله إنَّ أقومَ طريقٍ يُسَلِّكُ في الوقوفِ على القرآن، ويُتَوَصَّلُ به إلى تبينِ أغراضِهِ ومَعْرَاضِهِ، معرفَةُ إعرابه، واشتقاقُ مقاصدِهِ مِنْ أُنْحَاءِ خطابِهِ، والنَّظَرُ في وجوهِ القراءاتِ المنقولةِ عَنِ الأئمةِ الأئِثْبَاتِ¹. كما يتحدَّثُ القَيْسِيُّ [355-437هـ، 966-1045م] حَوْلَ هذا المعنى مُؤَكِّدًا أَنَّ معرفَةَ الإعرابِ خِلالَ تفسِيرِ النَّصِّ القرآنيِّ هو أَفْضَلُ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الطَّالِبُ لعلومِ القرآن، وَلَفْهَمِ معانيه، عَبْرَ الوقوفِ على تَصَرُّفِ حركاتِهِ وسواكِه، وينبغي - وفقًا لهذا - أَنْ يَكُونَ مَطَّلَعًا على المعاني الَّتِي قَدْ تَخْتَلَفُ باختلافِ الحركاتِ، مُتَفَهِّمًا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ؛ إِذْ بِمَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الإعرابِ تُعْرَفُ أَكْثَرُ المعاني، وَيَنْجَلِي الإِشْكَالُ؛ فَتُظْهِرُ الفَوَائِدُ، وَيُفْهَمُ الخطابُ، وَتَصِحُّ معرفَةُ حَقِيقَةِ المَرَادِ².

وَأُظْهِرُ أَنَّ الأَمْرَ لَا يَقْتَضِرُ فَقْطًى على المعنى اللَّغَوِيِّ للإعرابِ، بَلْ حِينَما نَتَأَمَّلُ ما جَاءَ بِهِ النُّحَاةُ فِي تعريفِ "الإعرابِ" اصطلاحًا وَحَوًّا، يَتَبَدَّى لَنَا أَنَّ المعاني كُلَّهَا تَتَّحِدُ؛ لِتَضُبَّ فِي قَالِبٍ وَاحِدٍ، أَلَا وَهُوَ الإِبَانَةُ وَالظُّهُورُ، فـ"الإعرابُ" عِنْدَ النُّحَاةِ - كما يَذْكُرُ ابنُ مالِكٍ وَعَيزَةُ - هو "ما جِيَءَ بِهِ؛ لِإِبْيَانِ مقتضى العاملِ مِنْ حركةٍ أَوْ حَرْفٍ أَوْ سَكُونٍ أَوْ حَذْفٍ. فَإِذَا قُلْتُ: "ضَرَبَ زَيْدٌ غَلامَ عَمْرٍو" فَالضَّمُّ فِي "زَيْدٌ" جِيَءَ بِهِ؛ بَيَانًا لِمَا اقْتَضَاهُ فِيهِ العاملُ الَّذِي هو "ضَرَبَ" مِنَ الفاعليَّةِ، وَالْفَتْحُ فِي "غَلامَ" جِيَءَ بِهِ؛ بَيَانًا لِمَا اقْتَضَاهُ فِيهِ "ضَرَبَ" مِنَ المفعوليَّةِ، وَالْجُرُّ فِي "عَمْرٍو" جِيَءَ بِهِ؛ بَيَانًا لِمَا اقْتَضَاهُ فِيهِ العاملُ الَّذِي هو "غَلامَ" مِنَ الإِضافَةِ..."³.

وهذا الكلامُ يعني أَنَّ الإعرابَ - في حَقِيقَتِهِ النَّحْوِيَّةِ - ما هو إِلَّا إِبَانَةُ عَنِ تَغْيِيرِ حركاتِ الأَوَاخِرِ، وبِالتَّالِي؛ لِيَدُلَّ هذا التَّغْيِيرُ - في الحركاتِ - على تَغْيِيرٍ في المعنى المُرْتَبِّ عَلَيْهِ⁴، وفي هذا يقولُ الشَّاطِئِيُّ: "...والحاصلُ

¹ أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، التَّيْبَانُ فِي إعرابِ القرآن (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1998)، 1: 9.

² أبو محمَّد مَكِّي بن أبي طالب القَيْسِيُّ، مشكَلُ إعرابِ القرآن (دمشق: دار البشائر للطباعة والنَّشْر والتَّوزيع، 2003)، 1: 101.

³ ابن مالِك، شرح التَّسْهِيلِ، 1: 34.

⁴ ابن الحاجب، الأَمَالِي النَّحْوِيَّة، 4: 108؛ العكبري، مسائل الخلاف، 118؛ الكافي، شرح قواعد الإعراب، 45.

أَنَّ هذه الأشياءَ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا إعرابٌ "علاماتٌ على معانٍ تَعْتَوِرُ الْمُعَرَّبَ والألفاظُ الدَّالَّةُ على تلك المعاني هو العوامل"¹.

إِذَنْ، فَالْإِعْرَابُ وَالتَّفْسِيرُ، مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ، يَدُورَانِ فِي الرَّحَى نَفْسِهِ، وَبِالتَّالِي يَسْتَنْدُ كُلُّ مِنْهُمَا إِلَى "السِّيَاقِ" فِي الْكَشْفِ عَنْ غِمَارِ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ وَمَقَاصِدِ التَّرَاكِبِ اللُّغَوِيَّةِ فِي النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ. وَنَجِدُ الْكَفَوِيَّ يُطْلَقُ تَسْمِيَةً لَافْتَةً تَرْبِطُ الْإِعْرَابَ بِالتَّفْسِيرِ، بِمِصْطَلَحِ "تَفْسِيرِ الْإِعْرَابِ" مُعَرِّفًا إِيَّاهُ بِأَنَّهُ "مِلَاحِظَةُ الصَّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ". وَكَانَ أَبُو حَيَّانٍ قَدْ أَشَارَ بِشَكْلِ لَافِتٍ إِلَى مَسْأَلَةٍ هَامَّةٍ تَكْشِفُ عَنْ تَعَالُقِ التَّفْسِيرِ بِالْإِعْرَابِ، فَنَرَاهُ يَقُولُ: "...فَجَدِيرٌ لِمَنْ تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَى عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَتَرَقَّتْ إِلَى التَّحْقِيقِ فِيهِ وَالتَّحْرِيرِ، أَنْ يَعْتَكِفَ عَلَى كِتَابِ سِيَوِيهِ، فَهُوَ فِي هَذَا الْفَرْقِ الْمُعْوَلُ عَلَيْهِ، وَالْمُسْتَنْدُ فِي حَلِّ الْمَشْكَلاتِ إِلَيْهِ..."².

وَلَعَلَّ مَنْ يَتَأَمَّلُ فِيمَا شَرَعَ بِهِ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلِسِيُّ فِي مَقَدِّمَةِ تَفْسِيرِهِ يَلْحَظُ أَنَّ مَسْأَلَةَ النَّحْوِ وَالْإِعْرَابِ حَاضِرَةٌ عِنْدَهُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، وَإِنْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّةِ الْجَانِبِ النَّحْوِيِّ وَالْإِعْرَابِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، حَيْثُ يَقُولُ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: "فَلَنَذْكُرَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّفْسِيرِ مِنَ الْعُلُومِ... وَنُنَبِّهَ عَلَى أَحْسَنِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي فِي تِلْكَ الْعُلُومِ الْحَاجِجِ إِلَيْهَا فِيهِ النَّظَرُ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ مِنْ وَجْهِ: الْوَجْهُ الْأَوَّلُ - عِلْمُ اللَّغَةِ اسْمًا وَفِعْلًا وَحَرْفًا... الْوَجْهُ الثَّانِي - مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الَّتِي لِلْكَلِمِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ إِفْرَادِهَا وَمِنْ جِهَةٍ تَرْكِيبِهَا... الْوَجْهُ الثَّالِثُ - كَوْنُ اللَّفْظِ أَوْ التَّرْكِيبِ أَحْسَنَ وَأَفْصَحَ... وَمَعَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَرْتَقِي مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ ذَرْوَتُهُ، وَلَا يَمْتَلِي مِنْهُ صَهْوَتُهُ، إِلَّا مَنْ كَانَ مُتَبَجِّجًا فِي عِلْمِ اللِّسَانِ، مُتَرَوِّيًا مِنْهُ إِلَى رَتَبَةِ الْإِحْسَانِ..."³.

وَوَفَّقًا لِهَذَا، تَرْتَبَتْ شُرُوطُ التَّفْسِيرِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ "يَخْضَعَ" بِمَعْنَاهَا الْإِيجَابِيَّ - لَهَا الْمَفْسِّرُونَ؛ كَيْ يَتَحَقَّقَ لَهُمْ مَأْمُوهُهُمْ فِي فَلَكَ شَيْفَرَاتِ النَّصِّ - إِنْ جَازَ لِي التَّعْبِيرُ - فَنُلَاحِظُ السِّيَاطِيَّ - مَثَلًا - يَعُدُّ "السِّيَاقَ" مِنْ الشُّرُوطِ

¹ الشَّاطِطِي، الْمَقَاصِدُ الشَّافِيَّة، 1: 71.

² أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلِسِيِّ، الْبَحْرُ الْمَحِيط، 1: 11.

³ ن. م، 1: 14-17.

التي يجب مراعاتها والأخذ بها في تفسير النص القرآني، وبناءً عليه فعلى المفسر مراعاة المعنى الحقيقي والمجازي، ومراعاة التأليف، والغرض الذي سيق به¹.

ولعلَّ المقصود بـ"مراعاة التأليف" - كما هو ظاهر في رأي السيوطي - مراعاة التركيب وتعلق الكلمات بعضها ببعض، الأمر الذي يُفضي إلى أثر العامل الحركات الإعرابية أو العلامات البنائية من خلال تأليف الكلمات واجتماعها.

كما تكشف لنا خلود العموش، خلال حديثها حول "السياق" و"الإعراب"، أن ثمة مظاهر متعدّدة في النصّ القرآنيّ يظهر فيها أثر "السياق" في علاقته بالإعراب، على نحو اهتمام المُعرّب بتمام المعنى واكتمال "السياق" باكتمال الجمل المكوّنة له، وكذلك على نحو شرح المعنى بعد اختيار كلّ وجه من وجوه الإعراب، والاستعانة بالمعنى في توجيه الإعراب، واستصحاب الحال، والحال المشاهدة في توجيه الإعراب، ويتمثّل كذلك في مجموعة من الملاحظات السياقية التي يُثيرها النحاة خلال تصديهم لإعراب النصّ²، حيث يقوم كلّ ذلك حسب القصد والمعنى.

ويرى الباحث محمد أبو الفرج أنّ المقصود بـ"السياق التفسيري" هو ما يُصاحب اللفظ ممّا يُساعد على توضيح المعنى³، وقد يكون توضيح المعنى بما تردّ فيه اللفظة من الاستعمال، وقد يكون ما يُصاحب اللفظ من غير الكلام مُفسّرًا للكلام، حيث تُمثّل القرائن دورًا بارزًا وهامًا في إظهار القيم السياقية وتوضيح دلالتها، وجوانبها الخلافية⁴. ومن ثمّ، يرى كثير من النحاة والمفسرين أنّ عدم اعتبار السياق للنصّ يؤدي إلى الخطأ في فهم النصّ، سواء كان هذا الخطأ كليًا أو جزئيًا.

¹ السيوطي، الإتقان، 19.

² خلود العموش، الخطاب القرآني، 372.

³ محمد أحمد أبو الفرج، المعاجم اللغوية ضوء دراسات علم اللغة الحديث ([د.م.: دار النهضة العربية، 1966]، 116).

⁴ عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، 155.

3.3. المعنى في ظل "سياق المبنى":

يرى سزكين Sezgin أنَّ تفسير القرآن لابن عباس كان أوَّل محاولة للتفسير اللغويِّ من خلال الشرح اللغويِّ للمفردات، وبهذا، فهو يُعدُّ - في رأي سزكين - أوَّل دراسة لغويَّة في علم المفردات في التراث العربي¹. ثُمَّ تبعه - أي ابن عباس - تلاميذه، فوسَّعوا دائرة هذه الدراسات؛ لتشمل مجالات لغويَّة أخرى، ومن هؤلاء: مجاهد، وعكرمة، وابن جُبَيْر، وقتادة، والضحاك²... وغيرهم.

وفيما بعد، لم يُعدِّ التفسير منطويًا على تفسير المفردات اللغويَّة من أجل إيجاد "المعنى المؤطر" تحت مظلة الكلمة الواحدة فلا يبرحها، بل عدا التفسير اللغوي (التحوي)، وفق قراءتنا، يبحث - ولا يزال - عن استكناه "المعنى الكلِّي"؛ وغدا المعنى يتَّبع مكانة مرموقة في التحليل التحوي، فهو الوجه الآخر للأحداث اللغويَّة - كما يؤكد الباحث محمد شرف الدين - وما الألفاظ إلا تعبير عنه، وهو "المسؤول" عن كثير من أوجه السلوك التركيبي، وكيفية بناء الجملة؛ ممَّا جعل ابن الشجريُّ يحلُّه محلًّا متقدِّمًا، فذكره في قائمة الوسائل التي يسلكها التحوي؛ لتخريج تركيب ما³.

وإذا حاولنا تتبُّع أثر المعنى في تفسير المبنى وإنتاجه - كظاهرة لغويَّة - نلاحظ أنَّ سيبويه نفسه كان يحرصُ الحرصَ كلَّه - كما يقول عبد العزيز أبو عبد الله - على أن يُصَحِّح المعنى قبل أن يُصَحِّح الإعراب، بل كانت عنايته بالمعنى قبل عنايته بالتركيب واللفظ، ولو تعارض أقوى الرأيين إعرابًا مع المعنى الذي يقتضيه الحال، رجع إلى الأقوى ما دام المعنى يأنلف به ويطرَّد معه⁴.

فالمعنى - عند سيبويه - أوَّلُ والإعرابُ ثانيًا⁵، فهو يتحسَّس المعنى الذي يُساقُّ له الكلام، فإن أفلد الإعرابُ الظاهرُ فبحه ومُجنَّه مَضَى يحتال لغيره، وكم ردَّ سيبويه أمثلة وتراكيب يُظهِر في أول الأمر مسيرتها

¹ سزكين، تاريخ التراث العربي، 1: 64.

² ن. م، 1: 65.

³ محمد عبد السلام شرف الدين، الإعراب بين الشكل والنسبة (القاهرة: دار مرجان للطباعة، 1984)، 68.

⁴ عبد العزيز عبده أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل (طرابلس: منشورات الكتاب والتوزيع، 1982)، 1: 307.

⁵ لعلِّي أنوه هنا إلى المأخذ الذي حملهُ ابنُ جني على سيبويه في تفسير الكلام، وخاصة ما اعتراه خدْفٌ، على المعنى دون تقدير الإعراب، فيقول ابنُ جني في هذا: "ومنه قولهم: أهلك والليل، فإذا فسروه، قالوا: أراد: الحقُّ أهلك وسابق الليل". وقد ذكر سيبويه هذا المثال في حديثه عن "التحذير"، إذ قدَّر أنَّ الأصل في الجملة هو: "بابز أهلك قبل الليل". وبهذا نرى اعتراض ابن جني على هذا التقدير؛ لأنَّ

للقواعد العربية وانسجامها معها؛ وذلك لأنها في اعتباره قد جفت المعنى وابتعدت عنه ونبتت بالعرض الذي سيقت من أجله وكم انتقد وجه "انتقاداً" للنحاة الذين كانوا يحرصون فقط على الإعراب أولاً وإن فسد به المعنى؛ فلم يكن طبق المعنى الذي قصده المتكلم؛ ومن أجل ذلك كان يعرض إلى ما أشكل معناه بالتفسير والتحليل، مُصريحاً بأن الذي حمّله على ذلك هو أولية المعنى في تفسير الجمل والتراكيب¹!

إضافة إلى هذا، فقد أكد الباحث عبد العزيز أبو عبد الله أن انطباع سيوييه بالأساليب العربية وعلميه التام بمقتضيات الأحوال والسياق جعله يصحح التراكيب على ضوء المعاني، ففي حالة لم يلتزم الأعراب مع هذه المعاني لم يصح عند سيوييه الكلام². ومن الأمثلة التي تعكس اهتمام سيوييه بالمعنى - على حساب الإعراب - ما ذكره النحاة في عدم جواز مجيء اسم "كان" وخبرها نكرتين، فيقول: "وإذا قلت 'كان رجل' ذاهباً" فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله، ولو قلت: "كان رجل من آل فلان فارساً" حسن؛ لأنه قد يحتاج إلى من تعلمه أن ذلك في آل فلان وقد يجهله. ولو قلت: "كان رجل في قوم عاقلاً" لم يحسن؛ لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا عامل، وأن يكون من قوم؛ فعلى هذا النحو يحسن ويقبح³.

ولعلنا نفهم من قول سيوييه أن الفاصل الذي يحكم إن كان التركيب "حسناً" مقبولاً، أو إن كان "قبيحاً"⁴ غير مقبول ومستساغ هو المعنى وسياقه الذي يوضع فيه؛ حتى لو استقام التركيب من حيث الحركات الإعرابية الدالة على حالها الإعرابية؛ لهذا نلاحظ المبرّد يردف معلّفاً: "ألا ترى أنك لو قلت: 'كان رجل' قائماً"، و"كان إنساناً طريقاً" لم تفد بهذا معنى؛ لأن هذا بما يعلم الناس أنه قد كان، وأنه بما سيكون، وإنما وضع الخبر للفائدة، وكأن المبرّد يقول إن ذلك يتعارض مع أهم مقومات التركيب النحوي، ألا وهو المعنى السياقي.

سيوييه - في رأي ابن جني - كان قد غيّر في الحالة الإعرابية للفظه "اللّيل"، فبعد أن كانت منصوبة أصبحت مجرورة بتقدير الظرف "قيل". وهذا الأمر يقضي إلى ما أشرت إليه أنفاً في أن سيوييه كان في بعض الأحيان يطغى عليه الاهتمام بالمعنى على حساب المبنى.

أنظر: ابن جني، الخصائص، 1: 67؛ سيوييه، الكتاب، 1: 275؛ Bohas, *The Arabic Linguistics Tradition*, 40.

¹ عبد العزيز أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، 1: 306.

² أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين، 1: 308.

³ سيوييه، الكتاب، 1: 54.

⁴ راجع الفصل الأول فيما يتعلق بمفهوم السياق والمعنى عند سيوييه.

لَيْسَ هذا فحسب، بل قَدْ تَنَبَّهَ النُّحَاةُ إِلَى أَنَّ الْمَقْصَدَ الرَّئِيسَ مِنَ الدَّرَاسَةِ اللُّغَوِيَّةِ عَامَّةً، وَالتَّحْوِيَّةِ خَاصَّةً لَا تَكْمُنُ فِي الْمَعْنَى وَحْدَهُ، بَلْ فِي وَضُوحِ الْمَعْنَى؛ وَبِنَاءٍ عَلَيْهِ كَانَ أَحْوَفَ مَا كَانُوا يَخَافُونَهُ اللَّبْسُ؛ فَأَجَازُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِخَرْقِ الْقَاعِدَةِ إِذَا أُمِنَ اللَّبْسُ، نَحْوَ قَوْلِنَا: "حَرَقَ الثَّوبَ الْمَسْمَارَ"؛ فَحَتَّى إِذَا لَمْ تَظْهَرْ الْحَرَكَاتُ، فَلَمَعْنَى مَعْرُوفٌ لِسِيَاقِهِ الْمَوْضُوعِ لَهُ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ لِلثَّوبِ أَنْ يَحْرَقَ الْمَسْمَارَ، وَعَلَيْهِ فَ"الثَّوبُ" هُوَ الْمَفْعُولُ بِهِ، وَ"المَسْمَارُ" هُوَ الْفَاعِلُ، وَفِي ذَلِكَ قَالَ ابْنُ مَالِكٍ فِي أَلْفَيْتِهِ:

"وَرَفَعُ مَفْعُولٍ بِهِ لَا يَلْتَبِسُ نَصْبُ فَاعِلٍ أَجْزُهُ وَلَا تَقَسُّ"¹

وَحَوْلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، يُؤَكِّدُ نَهَادُ الْمَوْسَى أَنَّ الْمَعْنَى عُدَّ مَسْتَوًى ثَابِتًا يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ، لَا سِيَّمَا الْمَسْتَوَى الدَّلَالِيَّ-النَّحْوِيَّ، فَكَانَ النُّحَاةُ يَصْدُرُونَ عَنْهُ فِي التَّفْسِيرِ النَّحْوِيِّ وَاللُّغَوِيِّ، خَاصَّةً إِذَا تَخَلَّفَ التَّفْسِيرُ عَلَى الْمَسْتَوَى النَّحْوِيِّ الْخَالِصِ². وَفِي هَذَا يَرَى عَبْدُ السَّلَامِ حَامِدٌ أَنَّ هَذِهِ الْعِلَاقَةَ- فِيمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ مَالِكٍ- تَوَثَّرَ فِي تَحْدِيدِ نَوْعِ الْعِلَاقَةِ بِالْمَعْنَى؛ فَلَمَعْنَى فِي هَذِهِ الْحَالَةِ هُوَ الَّذِي يُوَثِّرُ "وَيَتَحَكَّمُ" فِي الْعِلَاقَةِ؛ فَيَجْعَلُهَا مُسْتَقَرَّةً فِي شَكْلِ مُعَيَّنٍ كَأَنَّ نَقْرًا فِي نَصٍّ مَا هَذِهِ الْجُمْلَةُ: "أَخْيَا الْيَائِسَ الْأَمَلَ" عَلَى مَسْتَوَى الْكَلَامِ غَيْرِ الْمَضْبُوطِ؛ فَتَفْهَمُ الْمَعْنَى وَتُدْرِكُ حَقِيقَةَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ "اليائس" وَ"الأمل"، وَتَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الْجَانِبِ أَنَّ نَصَبَ الْأَوَّلِ "اليائس"؛ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ، وَنَرَفَعَ الثَّانِي "الأمل"؛ لِأَنَّهُ فَاعِلٌ³. وَهَذَا يُقْضَى بِالضَّرُورَةِ- كَمَا يَقُولُ عَبْدُ السَّلَامِ حَامِدٌ- إِلَى أَنَّ "مَعْنَى النَّحْوِ" هُوَ، فِي الْحَقِيقَةِ، وَظِيفَةُ الْمَبْنَى عَلَى مَسْتَوَى النِّظَامِ النَّحْوِيِّ، أَيْ إِنَّهُ مَعْنَى وَظِيفَتُهُ.

وَلَعَلَّ التَّأَمُّلَ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ هَشَامٍ يَكْتَشِفُ التَّحَامَّ الْمَعْنَى بِالْمَبْنَى مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالتَّحَامَّ الْمَعْنَى الْإِعْرَابِيَّ الْوُظُفِيَّ بِالْمَعْنَى الْمَعْجَمِيِّ الْوُظُفِيَّ؛ وَذَلِكَ حِينَمَا يَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ نَصِلَ إِلَى الْإِعْرَابِ بِالْعَتَمَادِ عَلَى الْمَعْنَى الْوُظُفِيَّةِ وَحْدَهُ، فَفِي إِعْرَابِهِ كَلِمَةُ "كَأَلَّ" فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً}،⁴ فَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ ضَرُورَةَ فَهْمِ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ لِبَيَانِ إِعْرَابِهَا، أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تُعْرَبَ عَلَى خَمْسَةِ وُجُوهِ بِنَاءٍ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ مَعْجَمِيَّةٍ

¹ ابن مالك، شرح الكافية، 2: 213.

² نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، 73.

³ عبد السلام حامد، الشكل والدلالة، 62.

⁴ القرآن الكريم، النساء: 12.

مختلفة، وهي: أولاً، إذا كانت بمعنى "الورثة" إذا لم يكن فيهم أبٌ فما عَلاً ولا ابنٌ فما أَسْفَلَ، فهي على تقدير مضافٍ، أي ذاكلاًة، وهو إمّا حالٌ منصوبةٌ من ضمير "يُورَثُ"، و"كان" حينئذٍ ناقصةٌ أو تامةٌ، وإمّا خبرٌ و"يُورَثُ" صفةٌ. وثانياً، أمّا إذا كانت بمعنى "الميت" الذي لم يترك ولداً ولا والدًا؛ فهي أيضاً حالٌ أو خبرٌ، ولكن من غير تقدير مضافٍ. وثالثاً، أمّا إذا كانت بمعنى "القربة"؛ فهي مفعولٌ لأجله¹.

ويؤكد الباحث حسين خمرى أنَّ الاهتمام بالنص القرآني انصبَّ على معانيه كـ"معاني القرآن للقرآني"، وعلى مقاصده الشرعية، وتفسير آياته وألفاظه، وعلى المناسبة بين الآيات وأسباب التنزيل عند علماء التفسير والتأويل، أو استخراج أحكامه كما درج على ذلك علماء الأصول². ولكن الاهتمام ببناء النص القرآني تحجده - كما يذهب خمرى - قليلاً بالمقارنة مع الاهتمام بقضايا الأخرى، إذ لم يعرض المفسرون إلى هذا الجانب إلا في معرض حديثهم عن الإعجاز وخاصة هؤلاء المفسرين الذين تناولوا النص القرآني من جانب النظم. وعلى الرغم من هذا لم نعدِم بعض الإشارات التي تُثير هذا الجانب لا سيما عند الزركشي في كتابه "البرهان"³.

إلى جانب هذا، نجد زهير غازي يسعي جاهداً في محاولة ربط ما أسماه بـ"المعرفة اللغوية" في النص القرآني، مبيناً أنَّ المعرفة اللغوية هي مجموعة التصورات النظرية لبنية اللغة، فمنذ عصر مبكر شغل النص القرآني العلماء؛ ليتدبره خلال تفسير ألفاظه وتراكيبه، وضبط قراءته، ومعرفة أحكامه وصور دلالاته؛ فنشأت من ذلك العلوم العربية⁴.

ويؤكد أنَّ مصطلح "الإعراب" - الذي انطلق من لدن أبي الأسود الدؤلي في نقطه⁵؛ كمحاولة في إيجاد ضوابط لغوية لحركات أواخر الكلمات - لم يكن بدلالاته الضيقة التي شغلت مدّيسي النحو، إمّا كان بمعناه الأوسع وهو البيان والإيضاح، وذلك من خلال إقامة أصوات الكلمة المنطوقة وصحة بنيتها ثم صحة التركيب ثم صحة

¹ ابن هشام الأنصاري، معني اللبيب، 2: 528-529.

² حسين خمرى، نظرية النص - من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، 200.

³ خمرى، نظرية النص، 200.

⁴ زهير زاهد، في النص القرآني وأساليب تعبيره، 68.

⁵ Kees Versteegh, *The Arabic Language*, 108.

الدلالة. وإلى جانب تطوّر علم النّحو في عصر الخليل بن أحمد كانت هناك جهودٌ للمفسّرين في تفسير النّصّ القرآنيّ، وفي محاولة إبراز مزاياه التركيبيّة بما يتعلّق بالإعجاز¹ البيانيّ بنظّم الكلام عبّر الأساليب والسياقات².

وإذن، فإنّ "السياق" يُعدُّ من أهمّ مظاهر الدلالة على المعاني، حيثُ يكشف عن معنى الكلمة الاستعماليّ، وعن معنى الجملة الوظيفيّ. وتشرح الباحثة لى فائق هذه الحقيقة بقولها إنّنا نجد أنّ البحث في "السياق" قد اقترن بالتركيب، بل هو الأهمّ فيه، إذ لا يمكن أن نفصل دراسة "السياق" عن التركيب فصلاً تامّاً، فلا يبيّن معنى الكلمة نحويّاً إذا لم تأتلف في سياق ما، وتكُن عناصر تحليل السياق على هذه الحال، حيثُ تبدأ من الصّوت المنفرد Sound، فتُرَكَّب في كلمة Word، والكلمة تكون في الجملة Sentence، أي التركيب Syntax؛ لتظهر العلائق التّحويليّة Grammatical Relation³.

ويصرّح موسى العبيدان أنّ العناصر التّحويليّة والصّوتيّة تشترك في اللّغة في تكوين تراكيب Structures ذات درجاتٍ من التعقيد، كالجمل Sentences، والجُمُيلات⁴ Clauses، وأشباه الجمل⁵ Phrases، والكلمات Words، والمقاطع⁶ Syllables. وقد تتداخل هذه التراكيب في اللّغة؛ فتُسهم في تكوين ما أطلق عليها "الجملة المعقّدة"، وهي ما اصطُلح عليه في النّحو العربيّ بالجملة الكبرى، وهو أن يوضع تركيبٌ نحويّ ضمن آخر أشتمل منه، فقولنا مثلاً: "زَيْدٌ أبوه غلامٌ منطلقٌ" جملةٌ كبرى، وجملةٌ: "غلامٌ منطلقٌ" جملةٌ صغرى؛ لكونها وقّعت خبراً، وجملةٌ: "أبوه غلامٌ منطلقٌ" جملةٌ كبرى باعتبار "غلامٌ منطلقٌ"، وهي في الوقت نفسه جملةٌ صغرى باعتبار الجملة كلّها (جميع الكلام)⁷.

ومن ثمّ يقولُ يُشيرُ العبيدان إلى أنّ النسبة بين أجزاء الكلام، والتعليق بين مكونات الجملة من اسمٍ واسمٍ، أو فعلٍ واسمٍ، أو حرفٍ واسمٍ⁸، هي نسبةٌ نفسيّةٌ، قائمةٌ بالنّفس ومقصودُ الدّهن لا بالكلام ذاته، ومَرْدُ

¹ Versteegh, *The Arabic Language*, 42.

² زاهد، في النّصّ القرآنيّ وأساليب تعبيره، 68.

³ لى فائق، الوظيفة اللّغوية في الدراسات العربيّة الحديثة (بغداد: جامعة بغداد، 2000)، 98.

⁴ نحو جملة الشرط، وجملة الصّلة، والجملة الواقعة خبراً... إلخ.

⁵ نحو الجملة الظرفيّة، والجارّ والمجرور، والمركّب الإضافيّ، والمركّب الوصفيّ.

⁶ موسى بن مصطفى العبيدان، دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين (دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطبّاعيّة، 2002)، 15.

⁷ موسى العبيدان، دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين، 15.

⁸ هذا التعريف للجرجانيّ حول التعليق. انظر: الشّريف الجرجانيّ، التعريفات، 132.

هذه التراكيب وحاكمها هو السياق؛ مُستدلاً بما ذكره الدماميني على أن "النسبة أمرٌ نفساني لا يقبل التجزؤ، ولا يقوم إلا بمحل واحد؛ وذلك لأن إيقاع التعليق بين طرفي المركب (أو الجملة) معقول للمتكلم وصورته اللفظية تحصل في ذهنه قبل التّفوّه بها". وهذا يعني أن النّحاة وعلماء الأصول يحلون مجرد الكلام والنسبة المكوّنة لأجزائه إلى العامل النفسي¹، الذي تدفعه "الحوافز السياقية" لتكوين هذا التركيب أو ذاك².

ومن زاوية أخرى، لعلّ تعدّد الأوجه الإعرابية هو خير شاهد على تعالق المعنى بالمبنى، وبالعكس، ذلك أن هذا التعدّد قد يكون بتعدّد المعنى للمبنى الواحد كلمة كانت أم عبارة، وقد يكون باحتمال الموضع في أكثر من وجه للقراءة القرآنية؛ إذ إنّ كلّ قراءة تُعطي معنى³.

وهذا النوع من تعدّد الوجوه الإعرابية هو وليد "الغموض" في تعدّد القراءة، وشريك "التفسير المفتوح" - إن صحّ التعبير - وذلك بسبب أن ثمة مواضع قرآنية لا تستغرفها قراءة واحدة، ولا تستهلكها، إنّما - كما يقول زهير زاهد - يبقى متفجراً بالمعاني والصّور المتوالدة، وكلّ ذلك يندرج تحت الدّور الكبير لطبيعة النصّ وشكله، وأيضاً للتجربة الجمالية - على حدّ قوله - في قراءة النصّ وفهمه⁴.

وإذا تّبّعنا ما ذكره الزّجاجي نلاحظ أنّ مبنى الكلمات وحركات الأواخر فيها، من خلال سياقاتها المختلفة، تُنبئ عن أهميّة كبرى في أداء المعنى، فيقول "إنّ للإعراب دوراً هاماً في وظيفة التفاهم والتّخاطب، فإنّ سأل سائل: قدّ ذكرت أنّ الإعراب داخل في الكلام. فما الذي دعا إليه، وأُحتجج إليه من أجله؟ فالجواب أنّ يُقال: إنّ الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، فتكون فاعلةً ومفعولةً، ومضافةً، ومضافاً إليها، ولم تكن في صورها وأُنبئتها أدلةً على هذه المعاني، بل كانت مشتركةً، جعلت حركات الإعراب فيها تُنبئ عن هذه المعاني، فقالوا: "ضرب زيدٌ عمراً"، فدلّوا برُفع "زيد" على أنّ الفعل له، وبِنَصْبِ "عمرو" على أنّ الفعل واقعٌ عليه. وقالوا: ضرب زيدٌ؛ فدلّوا بتغيير أول الفعل ورفْع زيدٍ على أنّ الفعل ما لم يُسمَّ فاعله، وأنّ المفعول نائب منابه. وقالوا: هذا

¹ الدماميني، تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، 1: 72.

² العبيدان، دلالة تركيب الجمل، 16.

³ زاهد، في النصّ القرآني وأساليب تعبيره، 31.

⁴ زاهد، في النصّ القرآني، 31-32.

غلام زَيْدٍ؛ فَدَلُّوا بِخَفْضِ زَيْدٍ عَلَى إِضَافَةِ الْغَلَامِ إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ هَذِهِ الْمَعَانِي جَعَلُوا هَذِهِ الْحَرَكَاتِ دَلَالًا عَلَيْهَا؛ لِيَتَسَعُّوا فِي كَلَامِهِمْ، وَيُقَدِّمُوا الْفَاعِلَ إِنْ أَرَادُوا ذَلِكَ، وَالْمَفْعُولَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى تَقْدِيمِهِ، وَتَكُونُ - بِذَلِكَ - الْحَرَكَاتُ دَالَّةً عَلَى الْمَعَانِي¹.

4. 3. سياقات النَّحْوِ بَيْنَ الْمَقَاصِدِ وَالتَّفْسِيرِ:

يُمَثِّلُ عِلْمُ النَّحْوِ حَجَرَ الزَّائِيَةِ لِطُرُقِ تَرْكِيبِ الْكَلَامِ فِي الْجُمْلَةِ - كَمَا يَقُولُ النُّحَاةُ² - فَالنَّحْوُ بِمَعْنَاهُ اللَّغَوِيُّ هُوَ الطَّرِيقُ أَوِ الْجِهَةُ، وَبِمَعْنَاهُ الْإِصْطِلَاحِيُّ هُوَ "إِنْتِحَاءُ سَمْتِ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَصْرِفِهِ مِنْ إِعْرَابٍ وَغَيْرِهِ كَالْتَّنْيَةِ وَالْجَمْعِ وَالتَّحْقِيرِ وَالتَّكْسِيرِ وَالْإِضَافَةِ وَالتَّسْبِيبِ وَالتَّوَكُّفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ"³. وَيَبَيِّنُ السَّيْرَانِيُّ مَعَانِيَ النَّحْوِ عَلَى أَنَّهَا "مَنْقُسَمَةٌ بَيْنَ حَرَكَاتِ اللَّفْظِ وَسَكَنَاتِهِ، وَيَبَيِّنُ وَضْعَ الْحُرُوفِ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُقْتَضِيَةِ لَهَا، وَيَبَيِّنُ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ بِالتَّوَكُّفِ وَالتَّأْخِيرِ وَتَوَحُّجِ الصَّوَابِ فِي ذَلِكَ، وَتَحْتَبِ الْخَطَأَ مِنْ ذَلِكَ".

وَيُفَصِّلُ الْأَزْهَرِيُّ الْقَوْلَ فِي مَعْنَى "النَّحْوِ" بِمَا لَهُ مِنْ عِلَاقَةٍ بِمِصْطَلَحِ "الْقَصْدِ"، فَيَذْكُرُ أَنَّ النَّحْوَ - لُغَةً - هُوَ الْقَصْدُ نَحْوَ الشَّيْءِ، حَيْثُ تَقُولُ الْعَرَبُ: نَحَوْتُ نَحْوَ فُلَانٍ، أَيْ قَصَدْتُ قَصْدَهُ⁴، وَإِنْتِحَاءُ أَيْ قَصْدُهُ⁵. ثُمَّ يُوَكِّدُ حَقِيقَةً لَطَالَمَا تَدَاوَلَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ وَخُوتُهُ الْمَصْنُفَاتُ النَّحْوِيَّةُ قَائِلًا: "...وَبَلَّغْنَا أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ (الدَّوْلِيَّ) وَضَعَ وَجْهَ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَالَ لِلنَّاسِ: انْحُوا نَحْوَهُ فَسَمِيَ نَحْوًا..."⁶.

إِنَّ التَّوَكُّفَ وَالتَّأْلِيفَ⁷ الْمُنَاسِبَ لِلْكَلِمَاتِ هُوَ الْمَكُونُ لِلْجُمْلَةِ. وَعِلْمُ النَّحْوِ - بِهَذَا الرُّؤْيَا - يَعْنِي الْعِلْمَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَوْقِعِ الْكَلِمَةِ وَدَوْرِ تَرْكِيبِ الْكَلِمَاتِ فِي صِنَاعَةِ الْجُمْلَةِ، حَيْثُ إِنَّ لَهُ تَأْثِيرَهُ الْخَاصَّ فِي مَعْرِفَةِ مَعَانِي

¹ الرَّجَاجِيُّ، الْإِيضَاحُ، 69؛ السَّيُوطِيُّ، الْأَشْبَاهُ وَالنِّظَائِرُ، 1: 78.

² عَلِيُّ أَبِي الْمَكَارِمِ، الظَّوَاهِرُ اللَّغَوِيَّةُ فِي التَّرَاثِ النَّحْوِيِّ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ غَرِيبٍ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، 2006)، 22.

³ ابْنُ جَنِّي، الْخَصَانِصُ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ، [د.ت.ا.])، 1: 34.

⁴ الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، 5: 163؛ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ، كِتَابُ الْعَيْنِ، 3: 1481؛ الزَّوَاي، مَخْتَارُ الْقَامُوسِ، 502.

⁵ الزَّمَخْشَرِيُّ، أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ، 2: 257.

⁶ الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، 5: 163.

⁷ مِنْ مَعَانِي التَّأْلِيفِ هُوَ الْجَمْعُ وَالْوَصْلُ؛ إِذْ يُقَالُ: "أَلَفْتُ الْأَشْيَاءَ إِذَا جَمَعْتُهَا وَوَصَلْتُ بَيْنَهَا، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ". مِنْ هُنَا، نَرَى أَنَّ هُنَاكَ اتِّصَالًا وَتَقَارُبًا دَلَالِيًّا بَيْنَ "التَّوَكُّفِ" وَالتَّأْلِيفِ، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَنَا نَنْوُهُ إِلَيْهِ. انْظُرْ: مُحَمَّدُ الْكَتَّانِي، مَوْسُوعَةُ الْمِصْطَلَحِ فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، 1: 438.

الجملة القرآنية، بل إن معرفة المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول به والصفة والظرف والحال... كل ذلك له تأثيره في معرفة معنى الجملة¹.

ولعلنا بهذا التأصيل نُسلط الضوء على أهمية الرابط الوثيق بين النحو والإعراب من جهة، وبين تألف هذين الملمحين مع مسألة السياق في سياقاته التي يجب أن تُورد مؤردها وتُزخزخ عنها مغاليق ما يُسمى بـ "مقطعية" الدراسة اللغوية وفصل مستوى أو مصطلح عن آخر.

ويُعَدُّ الإعراب من أخص خصائص اللغة العربية ونحوها، إذ إن الوسم الإعرابي - كما يُسميه المنصف عاشور - وما أفضى إليه من آراء ومبادئ إنما يجري بالأساس في دائرة أقسام الكلام وما له من معانٍ إعرابية وظيفية (Functional Parsing)، فذهب النحاة إلى أن الغاية من استخدام مبدأ الإعراب هو تحديد دوره في التوضيح والبيان ورفع الالتباس والاحتمال عن الكلم وتغييرها؛ لاختلاف المعاني التي يحتاج إليها المتكلم²، لا سيما أن أصول (ع، ر، ب) استعملت للتعبير عن كل ما يحقق هذه الغاية التواصلية التي تدل على الإبانة عن الحاجة والتحسين والتغيير والانتقال والتوال³ - كما يُشير إلى ذلك أبو حيان الأندلسي⁴.

وينبغي لنا أن نُفصل القول فيما حوته الذهنية الفكرية لدى النحاة بأن العرب استعملوا كلمة "إعراب"

سواء عَنَوْا بذلك إعراب الكلمة (Declension of the Word) أو إعراب الجملة (Analysis of the Sentence)⁵؛ لأن صميم هذا الرأي نابع من الفهم الضيق لحقيقة الإعراب، بمعنى أن الإعراب ليس مجرد متابعة التغيرات الناجمة في أواخر الكلمات؛ لدخول العوامل عليها، إنما الإعراب - بمفهومه الشامل - يمثل النحو بصورته الكلية التي يرتبها الدرس اللساني الحديث، والتي تلمس آثارها بعض النحاة القدماء المجدين⁶ أمثال ابن جني وعبد القاهر الجرجاني وابن هشام وابن مضاء القرطبي وغيرهم.

¹ محمد باقر سعيد روشن، تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه (بيروت: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2014)، 513.

² المنصف عاشور، ظاهرة الاسم في التفكير النحوي - بحث في مقولة الاسمية بين التمام والنقصان (تونس: منشورات كلية الآداب منوبة، 1999)، 254.

³ هذه المعاني في حقيقتها معنى الإعراب لغة، وهي بالتالي تُفصي إلى معنى "الإعراب" اصطلاحاً. للتوسع انظر:

⁴ أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998)، 2: 833.

⁵ Antoine El-Dahdah, A Dictionary of Terms of Declension and Structure in Universal Arabic Grammar (Beirut: Librairie Du Liban, 1988), 230.

⁶ أعني بالمجدين هنا هؤلاء النحاة الذين لم ينقلوا نقلاً "جامداً" عما سبقوهم، ولم يكتفوا بظاهر المتون والحواشي، بل كانت رؤيتهم للنحو رؤية نيرة وجديدة نسبة إلى عصرهم - وفقاً للمختصين في علم النحو واللسان في العصر الحديث - فكانوا سباقين في طرح قضايا لغوية

وعلى صعيد آخر، فقد تضافر مفهوم "المقاصد" مع مصطلح "التحوي" و"السياق" و"فهم النص"؛
لِيُنتِجَ - برأيي - حقولاً معرفية متداخلة غير قابلة للتفكيك، حيث تُسهّم في بناء تصوّر شامل لمكونات "النص"
التحويّ وسياقاته، ففي ذلك يقول الشاطبي في حقيقة "النص" و"الكلام": "وإن كان قد جيء به مضمناً في
الكلام العربيّ فله مقاصد تختص به يدلُّ عليها المساق (السياق) الحكميُّ أيضاً، وهذا المساق يختص بمعرفته
العارفون بمقاصد العرب"¹.

ومن يتأمل فيما حواه كتاب "الموافقات" للشاطبي يجد أن أجزاءه تُعج بما يُسمّى "فقه المقاصد"، ولعلّ
الأمر البارز - فيما يتعلّق بموضوع البحث - أنّه حينما تحدّث عن الاجتهاد في تفسير النصوص واستنباط دلالاته
أشار إلى أنّه لا بُدّ من إتقان العربية إتقاناً بالغا؛ كي يتحقّق شرط الاجتهاد للمجتهد، حيث يقول: "الاجتهاد
إذا تعلّق بالاستنباط من النصوص فلا بُدّ من العلم بالعربية"².

وتبعاً لهذا، يستخلص الباحث أحمد الريسوني أنّ الشاطبي يستوجب أن يُنظر إلى المقاصد في ضوء
لغتها العربية، وفي ضوء المعهود من أساليب العرب³؛ مُستندلاً بقول الشاطبي نفسه في أنّ العرب "فيما فُطِرَتْ
عليه من لسانها تُخاطب بالعام يُراد به ظاهره، وبالعام يُراد به العام في وجهه والخاص في وجهه، وبالعام يُراد به
الخاص، والظاهر يُراد به غير الظاهر. وكلّ ذلك يُعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره. وتتكلم (أي العرب)
بالكلام يُنبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله. وتتكلم بالشيء يُعرف بالمعنى كما يُعرف بالإشارة. وتُسمّى
الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد. وكلّ ذلك معروف عندها (أي عند العرب) لا ترتأب في شيء
منه هي، ولا من تعلّق بعلم كلامها، فإذا كان كذلك فالقرآن - في معانيه وأساليبه - على هذا الترتيب"⁴.

لافتة، وعرض مسائل نحوية مثيرة؛ حتى غدت آراؤهم مهبط أخذ وارتشاف، ومعلماً يستحق الإشادة، لا سيما أن هؤلاء أثروا تأثيراً بالغاً
في كثير من النحاة المحدثين، عرباً ومشرقين.

¹ الشاطبي، الموافقات، 3: 276.

² ن.م، 4: 162.

³ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الشاطبي (هيرندن - فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي،
1995)، 296.

⁴ الشاطبي، الموافقات، 2: 65-66؛ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الشاطبي، 296.

وهذا الكلام- كما يُشيرُ الرّيسوني- يدلُّ على أنَّ الشّاطِبيَّ يُكثِّرُ مِنْ تَأْكِيدِ أَهْمِيَّةِ احْتِرَامِ حُدُودِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالِاتِّزَامِ بِقَوَاعِدِهَا فِي فَهْمِ مَقَاصِدِ النّصُوصِ، بَلْ إِنَّهُ يُكْرِّرُ هَذَا الْمَفْهُومَ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ فُرْصَةٌ وَوَجَدَ لَذَلِكَ مَنَاسِبَةً¹؛ مُتَّكِئًا عَلَى رَكِيزَةٍ رَئِيسِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ هُوَ الْمُرْجِمُ عَنِ مَقَاصِدِ النّصِّ وَمَعَانِيهِ².

إِذَنْ، فَتَمَّةٌ عِلَاقَةٌ بَيْنَ "الْمَقَاصِدِ" وَ"السِّيَاقِ" مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ فَهْمِ الْمَقَاصِدِ وَفَقْهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ وَنَتِيجَةً لِهَذَا يَرَى الشّاطِبيُّ أَنَّ الْأَدَوَاتِ الَّتِي تُفْهَمُ بِهَا الْمَقَاصِدُ هِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَنَحْوُهَا، وَبِالتَّالِي؛ فَعَلَى النَّظَرِ فِي النّصُوصِ، فِيمَا تَحْوِيهِ مِنْ أَصُولٍ وَفُرُوعٍ، وَسِيَاقَاتٍ وَقِرَائِنٍ، أَنْ لَا يَغْرِضَ لَهَا حَتَّى يَكُونَ عَالِمًا مُدْرِكًَا حَقِيقِيًّا بِنَحْوِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَعِلْمِهَا³.

ثُمَّ نَجِدُ أَنَّ الشّاطِبيَّ يَقِفُ عِنْدَ الْمَرَادِ بِفَهْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَائِلًا: "لَا أَعْنِي بِذَلِكَ النَّحْوَ وَخَدَهُ، وَلَا التَّصْرِيفَ وَخَدَهُ، وَلَا اللُّغَةَ وَلَا الْمَعَانِي، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللِّسَانِ، بَلِ الْمَرَادُ جَمْلُهُ عِلْمُ اللِّسَانِ أَلْفَاظًا وَمَعَانِي"⁴. وَمِنْ هُنَا يَتَوَصَّلُ الشّاطِبيُّ إِلَى قَرَارٍ مَفَادُهُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلسَانِ الْعَرَبِ عَلَى الْجُمْلَةِ، فَطُلِبَ فَهْمُهُ إِمَّا يَكُونُ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ خَاصَّةً، فَمَنْ أَرَادَ تَفْهَمَهُ فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ يُفْهَمُ⁵.

وَبَوْسَعِنَا أَنْ نَسْتَشْفَّ حَقِيقَةَ مَفْهُومِ "الْمَقَاصِدِ" مِنْ خِلَالِ تَأْسِيسِ نَظَرِيَّةِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ، حَيْثُ يُبْنَى التَّصَوُّرُ التَّحْوِيُّ لِلنَّصِّ؛ مِنْ أَجْلِ اسْتِنْبَاطِ الْمَعَانِي وَالِدَّلَالَاتِ التَّرْكِيبِيَّةِ، خِلَالَ ضَرُورَةِ مَرَاعَاةِ السِّيَاقِ وَالتَّنْظَرِ فِي مَقَاصِدِ الْخُطَابِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ مَعْرِفَةَ طَبِيعَةِ النّصِّ⁶ (مَخَاطَبُ-خُطَابُ-مَخَاطَبُ...); مِنْ هُنَا نَلْحِظُ الشّاطِبيَّ يَعْتَرِضُ عَلَى ابْنِ مَالِكٍ فِي مَسْأَلَةِ "الْقِيَاسِ" حِينَمَا كَوَّنَ النُّحَاةَ يَقِيسُونَ عَلَى الْكَلَامِ غَيْرِ الْمُسْتَعْمَلِ؛ فَيَجْعَلُونَهُ قَاعِدَةً يُقَاسُ عَلَيْهَا، مُؤَكِّدًا- الشّاطِبيُّ- أَنَّ الْمُعْتَمَدَ فِي الْقِيَاسِ عِنْدَ وَاضِعِيهِ الْأَوَّلِينَ إِمَّا هُوَ اتِّبَاعُ صُلْبِ كَلَامِ الْعَرَبِ⁷، بَيْنَمَا يَظْهَرُ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَقْصُدْ فِي ذَلِكَ الْقَلِيلَ أَنْ يُقَاسَ عَلَيْهِ⁸ كَمَا نَهَجَ بَعْضُ النُّحَاةِ، فَإِنَّ الَّذِينَ اعْتَنَوْا بِالْقِيَاسِ لَمْ

¹ الرّيسوني، نظرية المقاصد، 296.

² الشّاطِبي، الموافقات، 4: 324.

³ الشّاطِبي، الاعتصام (الرياض الحديثة، [د.ت.])، 2: 293.

⁴ الشّاطِبي، الموافقات، 4: 114.

⁵ ن.م، 2: 64.

⁶ سلوى عرب، "المعايير الأصولية في نماذج من اعتراضات الشّاطِبي على ابن مالك"، مجلة العلوم العربية 7 (2010)، 22-23.

⁷ الشّاطِبي، المقاصد الشّافعية، 4: 180.

⁸ ن.م، 3: 457.

يُثْبِتُوا شَيْئًا، وَلَا نَفَوْهُ إِلَّا بَعْدَ الاستقراءِ ومزاولةِ العربِ، ومداخلةِ كلامِها، وفهمِ مقاصدِها، إضافةً مَعَ ما يَنْضَمُّ إلى ذلك مِنَ القرائنِ والسيِّقاتِ ومقتضياتِ الأحوالِ، وَلَنْ يُدْرِكَ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ مَالَ مقاصدِ العربِ¹.

ولا بُدَّ للتفسيرِ - أيا كان مجاله - أَنْ يستندَ على رَكِيزَةٍ وَعَنيِ المقاصدِ وَعَنيًا شاملاً، وهذا ما أَكَّدهُ سيبويه بِقَوْلِهِ: "قِفْ حَيْثُ وَقُفُّوا ثُمَّ فَسِّرْ"². وهذا يعني أَنَّهُ ينبغي لِمَنْ يُفَسِّرُ الظَّاهِرَةَ اللُّغَوِيَّةَ وَيُقِيسُ عَلَيْهَا أَنْ يَقِفَ، بِدَايَةٍ، على ما تَكَلَّمَ بِهِ العربُ، وعلى المقاصدِ الَّتِي اعتمدوها في ذلك. وَنَلَحْظُ، بناءً على هذا، أَنَّ الشَّاطِطِيَّ يُعَقِّبُ على هذا الكلامِ بَأَنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ لَا يَفْهَمُهُ حَقُّ الفهمِ إِلَّا مَنْ قَتَلَ كَلَامَ العربِ عِلْمًا، وَأَحَاطَ بِمَقاصِدِهِ³.

مِنْ هُنَا، يُجَلِّي الباحثُ خالدَ العَلَّ حقيقةَ ارتباطِ النَّحْوِ والإعرابِ بالتفسيرِ مِنْ جِهَةٍ، وفي المقابلِ حقيقةَ الارتباطِ بَيْنَ المعنى والمبنى في التفسيرِ، فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ عِلْمَ النَّحْوِ والإعرابِ هُمَا مِنْ عِلُومِ التفسيرِ؛ لِأَنَّهُ بِهِ يَتَضَخُّ معنى القرآنِ، وَتُدْرِكُ مقاصدُهُ، ثُمَّ بهذا العِلْمِ تستقيمُ قِراءةُ القارئِ للقرآنِ، فلا يَقَعُ مِنْهُ لَحْنٌ أَوْ خَطَأٌ فِيهِ، كما أَنَّ بِالنَّحْوِ والإعرابِ يكونُ الكشفُ عَنِ المعاني بالألفاظِ، أيْ بواسطةِ الألفاظِ؛ ولذلكِ اتَّجَهَتْ مناهجُ المفسِّرينَ في تفسيرِ النَّصِّ القرآنيِّ إلى أَنْ يكونَ مَعَ تفسيرِ المعنى إيضاحُ المبنى، وكلُّ ذلكِ يَعْتَمِدُ بالتَّأَكِيدِ على عِلْمِ النَّحْوِ والإعرابِ⁴، خلالَ تعالُّقِ كُلِّ هذهِ المصطلحاتِ في دائرةِ المقاصدِ السِّيَاقِيَّةِ.

5. 3. أسبابُ النُّزولِ واستدعاءُ السِّيَاقِ:

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ أسبابَ النُّزولِ تُعَدُّ عاملاً مُسَهِّماً في فَهْمِ الملابساتِ والظُّروفِ الَّتِي تُحِيطُ بِالنَّصِّ القرآنيِّ، وفي فَهْمِ "السِّيَاقِ العامِّ والخاصِّ للسُّورَةِ أَوْ الآيَاتِ الَّتِي صِيغَتْ عَلَيْهِ التَّرَاكِيْبُ القرآنيَّةُ"⁵. وهذا يعني أَنَّ أسبابَ النُّزولِ ترتبطُ بِالنَّصِّ القرآنيِّ مِنْ جِهَةٍ كَوْنِهِ حَادِثَةً اسْتَدْعَتْ نَزُولَ النَّصِّ القرآنيِّ، وهذهِ الحادثةُ تحملُ مَلابساتٍ وظُروفاً

¹ الشَّاطِطِي، المقاصدِ الشَّافِيَّة، 4: 493.

² سيبويه، الكتاب، 1: 266.

³ الشَّاطِطِي، المقاصدِ، 1: 617-618.

⁴ خالد عبد الرَّحْمَنِ العَلَّ، أصولُ التفسيرِ وقواعده (بيروت: دار النَّفائسِ، 1986)، 156.

⁵ عماد الدين الرَّشِيد، أسبابُ النُّزولِ وأثرها في بيانِ النُّصوصِ - دراسةٌ مقارَنةٌ بينِ أصولِ التفسيرِ وأصولِ الفقه (د.م.): دارُ الشُّهاب، [د.ت.]، 119.

تتعلّق بهذا النصّ الذي نَزَلَ لأجلها. ويُبيّن حسنُ العطار [1180-1250هـ، 1766-1835م] أنّه غالباً ما تُمَهَّد أسبابُ النزولِ للمضمون الذي جاءت به الآية من أحكام ونحوها¹.

كما يُلَفِّتُ السيوطي الانتباه إلى حقيقة قد تفوت كثيراً من الدارسين والباحثين في العلوم القرآنية إلى أنّ "أسباب النزول" ليس المقصود بها مجرد دراسات تاريخية وأنها تؤخذ على مجرى الاستعراض التاريخي؛ فإنّ ذلك يُعدّ خطأ في استيعاب مفهوم "أسباب النزول" - على حدّ قوله - بل إنّ لمعرفة "أسباب النزول" فوائد جمّة، أهمّها الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال² الذي قد يعترض طريق التفسير. وأضاف أبو حيّان الأندلسي أنّه من لم يكن على بصيرة من أسباب النزول وقَعَ في خطأ عظيم³.

واستناداً إلى هذا المعنى، يرى الطاهر ابن عاشور أنّ لأسباب النزول أثراً بالغاً في التفسير وفي فهم دلالات النصّ، وما يُحدّثه من بيان لا يستغني عنه المفسّر؛ لأنّ فيها بيان المجمل، أو إيضاح خفيٍّ وموجزٍ، ومنه - وهو الأمر اللافت هنا - ما يكون وحده تفسيراً، ومنه ما يدلّ المفسّر على طلب الأدلّة التي بها تأويل الآية، أو نحو ذلك⁴.

ثمّ يؤكّد ابن عاشور أنّ من أسباب النزول ما يُنبّه المفسّر إلى أدراك خصوصيات لغويّة وأسلوبية وبلاغية تتبّع مقتضى المقامات سياقات النصّ؛ إذ تُعين على تصوير مقام الكلام وسياقه⁵.

ونلاحظُ الباحث أحمد سليمان ياقوت يحاول أن يُقارب بين أسباب النزول والنحو حينما ربط حقيقة أنّ التفسير هو عالم متكامل من عدّة علوم تتضافر وتجتمع فيما بينهما، مؤكّداً إلى أنّ التفسير والنحو سارا في طريق واحدة لا تنفك أحدهما عن الأخرى منذ نشأته⁶، إذ إنّ التفسير هو علم يُفهم به النصّ القرآني من خلال بيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه. ويُستمدّ ذلك من علم اللغة والنحو بكلّ مجالاته ومستوياته، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول.

¹ حسن العطار، حاشية العطار على جمع الجوامع (بيروت: دار الكتب العلميّة، [د.ت.])، 1: 60.

² جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 2002)، 7.

³ أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 1: 59.

⁴ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1: 47.

⁵ ن.م، 1: 47.

⁶ أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعيّة، 1994)، 231.

ويرى الباحث صبحي الصالح أنَّ سَبَبَ النُّزُولِ هو معرفُهُ هذه الحادثة لا الحادثة نَفْسِها، فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ أسبابَ النُّزُولِ هي ما نَزَلَتْ الآيةُ أو الآياتُ بسببِهِ متضمنةً لَهُ أو محييةً لحكمِهِ أَيْامَ وقوعِهِ¹، وهو ما بَيَّنَّ الزُّركَشِيُّ في أَنَّ إذا قيل: "قَدْ نَزَلَتْ هذه الآيةُ في كذا" فَإِنَّ المرادَ بذلك أَنَّها تتضمنُ هذا الحُكْمَ أو ذاك، لا أَنَّ هذا كانَ السَّبَبَ في نزولِها، فهو مِنْ جنسِ الاستدلالِ على الآيةِ بالحكم، لا مِنْ جنسِ التَّقْلِيلِ لِمَا وَقَعَ². كما يُوَكِّدُ مُحَمَّدُ السَّيِّسيُّ أَنَّ طبيعةَ نزولِ النَّصِّ القرآنيِّ مُنَجَّمًا يُرْشِدُنَا إلى أَهمِّيَّةِ تَتَبُعِ الحادثةِ أو السَّبَبِ العامِّ أو الخاصِّ، وهذا الأمرُ كَفِيلٌ في فَهْمِ تلكَ الظُّروفِ المؤطَّرةِ بحالٍ مِنَ الأحوالِ، وبهذا وكأَنَّ لكلِّ سببٍ مِنْ أسبابِ النُّزُولِ سياقًا خاصًّا- على حدِّ تعبيرِهِ- يُؤَوِّى إِلَيْهِ سابقًا أو لاحقًا، فعندَ عَرَضِ أيِّ سورةٍ مِنْ سورِ القرآنِ يظهرُ لنا مدى وحدةِ التَّنْظِيمِ المعنويِّ في الآيةِ الواحدةِ وفي علاقتها بما قبلُها وما بَعْدَها وفي السُّورةِ الواحدةِ بالنَّظَرِ إلى علاقتها بما قَبْلُ وما بَعْدُ، بَلْ في النَّصِّ القرآنيِّ كُلِّهِ بترتيبِ سورِهِ وآياتِهِ، فهو وإنْ تَفَرَّقَتْ آياتُهُ، وتبايَنَ موقعُها في التَّرتيبِ، وأزمنةُ النُّزُولِ وأمكنةُها فهو مترابطٌ في سياقٍ منظومٍ؛ سورًا وموضوعاتٍ ومعانيٍّ ومقاصدٍ³.

إِذَنْ، فأَسبابُ النُّزُولِ تختصُّ بالبيئةِ المحيطةِ لبعضِ مِنَ الآياتِ- أو مقطعِ Segment مِنَ الآياتِ إنْ صَحَّ التَّعبيرُ- أو للسُّورةِ القرآنيَّةِ كاملةً، وهذا بحَدِّ ذاته تقاطعٌ مَعَ مفهومِ "السياق" الَّذي هو- كما عَرَّفْنَاهُ سابقًا- البيئةُ الَّتِي حَضَنَتْ هذا التَّركيبَ أو ذاك، فأَسبابُ النُّزُولِ، بهذا المعنى، هي الآليَّةُ الَّتِي تمنحُ المتلقِّيَ إشاراتٍ signs في التَّعرُّفِ عَن قَرَبِ على طبيعةِ النَّصِّ، فهي وليدَةٌ واقعِها، وهي تُحاكي عَصَرَ نزولِها متحدِّثةً عَنْهُ أو مُبَيِّنَةً لِحُكْمِهِ أَيْامَ وقوعِهِ⁴. ولعلَّ هذا السَّبَبَ جَعَلَ أبا حَيَّانٍ الأندلسيَّ يُوَكِّدُ أَنَّ أَوَّلَ ما يبدَأُ به في تفسيرِ الآياتِ هو ذِكْرُ سببِ نزولِها. ولعلَّ هذا الأمرُ يُفْضِي إلى العلاقةِ الجامعةِ بَيْنَ التَّفسيرِ اللُّغويِّ وبَيْنَ أسبابِ النُّزُولِ لا سيَّما أَنَّ تفسيرَ "البحرِ المحيطِ" لأبي حَيَّانٍ الأندلسيِّ هو تفسيرٌ في أساسِهِ تفسيرٌ لغويٌّ. وإنْ دَلَّ ذلك على شَيْءٍ فَإِنَّمَا يدلُّ على اهتمامِ أبي حَيَّانٍ بعرضِ أسبابِ النُّزُولِ قَبْلَ الخوضِ في تفسيرِ النَّصِّ القرآنيِّ لغويًّا ونحوًّا.

¹ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، 54.

² الزُّركَشِيُّ، البرهان، 1: 31-32؛ السُّيوطي، الإتقان، 1: 126-127؛ ابن حجر العسقلاني، العجائب في بيان الأسباب (بيروت: دار ابن حزم، 2002)، 18.

³ مُحَمَّدُ السَّيِّسي، "إعمال السياق واعتباره في الدرس القرآني"، 349.

⁴ فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، 1: 253.

ففي قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} ¹ نلاحظ أنه، كي نفهم سياق الآية التَّحْوِيّ، ونفهم حقيقة الزَّمنِ التَّحْوِيّ فيها، ينبغي أولاً أن نتعرّف على سبب نزولها. من هنا، نلاحظ الزَّخْشَرِيّ يُبَيِّنُ في تفسير هذه الآية أن المقصود بـ"الفتح" هنا هو فتح مكة ²، وقد نزلت حينما رَجَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ - عليه السلام - مِنْ مَكَّةَ عامَ الحديبية؛ وعداً له بالفتح، إذ لم يتمَّ الفتح فعلاً، فجاء به على لفظ الماضي كإخبارٍ مِنَ اللَّهِ؛ "لأنَّها في تحقُّقها وتيقُّنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى" ³.

إذن، فصيغة "فَتَحْنَا" تدلُّ حقيقةً على المستقبل بالنسبة إلى وقت نزول الآية؛ وذلك في سياق حكاية الحال الآتية التي تمثَّلت بالوعد الإلهي، ونتيجةً إلى هذا يربط ابن عاشور بين السياق الزمني لفعل "فَتَحْنَا"، على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الفتح لم يتمَّ بعد، ويبيِّن مفتح سورة التحل في قوله تعالى: {أَتَى أَمْرٌ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ} ⁴، مِنْ حَيْثُ مفهوم الفعل ⁵، وارتباطه بحقيقة التركيب التَّحْوِيّ وما يحوطه ⁶؛ ومعنى "فَتَحْنَا": سَنَفْتَحُ، وإمّا جاء في الإخبار بلفظ الماضي؛ لتحقُّقه وتيقُّنه، وقد شبَّه الزَّمنَ المستقبل بالزَّمنِ الماضي، فاستعملت له الصيغة الموضوعية للمضي ⁷. وخلال تفسير الآية، يُعَقِّبُ ابن عاشور على الأداء التَّحْوِيّ لكلمة "إِنَّا" في "إِنَّا فَتَحْنَا..."، رابطاً الجانب التداولي آنذاك - برأيي - بسبب نزول الآية، فيقول إنَّ افتتاح الكلام بحرف "إِن" ناشئ على ما أحلَّ للمسلمين مِنَ الكآبة على أن أُجِيبَ المشركون إلى سؤالهم الهدنة.

وفي قوله تعالى: {الم ♦ غُلِبَتِ الرُّومُ ♦ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ♦} في بضعة سنين... ⁸ يبيِّن لنا أنَّ بعض المفسرين قد عَرَضُوا لهذه الآيات عرضاً لغوياً بالاستعانة بسبب النزول، إذ إنَّ سبب نزول هذه الآية لم يبرح فكرهم، ولولا معرفته ذلك السبب لَمَا جاء تفسيرهم على هذه الشاكلة، فمثلاً يقول ابن عاشور: "قوله {غُلِبَتِ الرُّومُ} خبرٌ مستعملٌ في لازم فائدته على طريق الكناية، أي نخبرُ نعلمُ بأنَّ الرُّومَ غُلِبَتْ،

¹ القرآن الكريم، الفتح: 1.

² ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 13: 429-340.

³ الزَّخْشَرِيّ، الكشاف، 4: 225-226.

⁴ القرآن الكريم، التحل: 1.

⁵ ابن عاشور، التحرير والتوير، 26: 144.

⁶ انظر لاجئاً إلى ما عَرَضْتُ له تحت عنوان: السياق الزمني للفعل.

⁷ ابن عاشور، التحرير والتوير، 26: 144.

⁸ القرآن الكريم، الروم: 1-4.

فلا يهنگم ذلك... فإننا نعلم أنهم سيغلبون من غلبوهم بعد بضع سنين بحيث لا يعد الغلب في مثله غلباً. فالمقصود من الكلام هو جملة "وهم من بعد غلبهم سيغلبون" ♦ في بضع سنين" وكان ما قبله تمهيداً له. وإسناد الفعل إلى المجهول؛ لأن الغرض هو الحديث عن المغلوب لا على الغالب، ولأنه قد عرف أن الذين غلبوا الروم هم الفرس¹.

وفي قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ♦ اللَّهُ الصَّمَدُ}²، يشير أبو البقاء العكبري إلى أن الضمير "هو" يحتمل وجهين، أما الوجه الأول فهو أن يكون الضمير ضمير الشأن، والتأويل: قل: الأمر أو الشأن الله أحد؛ فيكون الضمير للشأن في موضع المبتدأ، و"الله أحد" جملة من مبتدأ وخبر في موضع الخبر لـ"هو". ثم نلاحظ العكبري يعتمد على سبب نزول الآية؛ ليضيف فهماً جديداً، حيث يرى أنه يجوز أن يكون الضمير "هو" جواباً لسؤال مُقدّر، أي: المسؤول عنه "هو"؛ لأن غير المؤمنين قالوا للنبي محمد - عليه السلام -: "أرأيت من نحاس أم من ذهب؟"³؛ فنزلت هذه الآية؛ بياناً وتوضيحاً إذ جاء الضمير "هو" بمعنى المسؤول عنه، والتأويل: "قل ربّي الله أحد"؛ وبناءً عليه يكون الضمير "هو" في موضع المبتدأ المسؤول عنه، و"الله خبراً، و"أحد" - في هذه الحالة - إما أن يكون بدلاً من "الله"، أو خبراً لمبتدأ محذوف، أو أن تُعرب "الله" بدلاً من الضمير "هو" و"أحد" خبراً⁴. وقد أكد هذا المعنى التحويلي للضمير "هو" السمين الحلي؛ مبيناً بصريح العبارة أن الوجه الإعرابي الأول إنما مرده إلى ما يفهم من السياق ومن سبب نزول الآية⁵.

وعليه، فإن العلاقة بين أسباب النزول والسياق بادية، وهي علاقة مشتركة متراصة في كثير من الأحيان - كما شاهدنا في بعض الأمثلة القليلة أعلاه - وكما أن أسباب النزول تُعين إلى معرفة السياق، فإن السياق يُعد وسيلة مؤثرة في بيان الأصح من أسباب النزول.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 21: 42-41.

² القرآن الكريم، الإخلاص: 2-1.

³ الطبري، جامع البيان، 7: 582.

⁴ العكبري، التبيان، 2: 297؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 5: 347.

⁵ السمين الحلي، الدر المصون، 11: 149.

6. 3. سياق المكي والمدني وأثره في معالجات المفسرين:

أُتِطِلُّ، بدايةً، مِنْ تَأْكِيدِ نَقْطَةٍ هَامَّةٍ، وَهِيَ أَنَّنَا لَسْنَا هُنَا فِي صَدَدِ دِرَاسَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ دِرَاسَةً مُوسَّعَةً¹ يَقدَّرُ مَا نَريدُ أَنْ نُسلِّطَ الضَّوْءَ عَلَى أَهْمِيَّةِ مَوْضُوعِ السُّورِ والآيَاتِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعَيَّنَ الدَّارِسُ، بِمَجَالَاتٍ بَحْثِيَّةٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا النَّحْوُ، عَلَى التَّعَرُّفِ عَلَى طَبِيعَةِ التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ وَمَا لَهُ مِنْ وَشَائِجٍ سِيَاقِيَّةٍ عَلَى مُسْتَوَى النُّظْمِ²، وَالتَّعَرُّفِ عَلَى أَنَّ السِّيَاقَ لَا يُدَّ لَهُ أَنْ يَتَلَصَّقَ بِالْمَكُونِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ بِطَرِيقَةٍ مَا.

لَقَدْ انْقَسَمَتْ مَرَحَلَةُ نَزُولِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ إِلَى مَرَحَلَتَيْنِ، يَرَاهُمَا الْمَفْسَّرُونَ مِنْ إِحْدَى الْعَلَامَاتِ الْفَارِقَةِ الَّتِي تَوَثَّرَتْ فِي طَبِيعَةِ الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ، وَتَحْدِيدِ مَسَارِهِ الْأُسْلُوبِيِّ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، لَا سِيَّمَا أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ تَزَامَنَ وَفَقًّا لِلظُّرُوفِ وَالْحَيْثِيَّاتِ³ وَأَسْبَابِ النَّزُولِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَدْوَرُهَا تَسْتَدْعِي مُمَيِّزًا أَوْ لُغَةً مَا يُوَافِقُ فِيهِ التَّرْكِيبُ الْجَوِّ الْخَاصَّ لِلزَّمَنِ الَّذِي قِيلَتْ فِيهِ هَذِهِ السُّورَةُ أَوْ تِلْكَ، وَبِالتَّالِي يُسْتَعَانُ بِكُلِّ هَذَا فِي تَفْسِيرِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ؛ إِذْ إِنَّ مَعْرِفَةَ مَكَانِ نَزُولِ الْآيَةِ وَزَمَنِهَا تُعَيِّنُ عَلَى فَهْمِ الْمُرَادِ مِنْهَا، وَمَعْرِفَةُ مَدْلُولَاتِهَا، وَمَا يُرَادُ فِيهَا⁴.

وَلِلْمَفْسَّرِينَ وَالتَّحْقِيقِ آرَاءُ وَمَسَالِكُ مُخْتَلِفَةٌ فِي تَحْدِيدِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ⁵ مِنَ الْآيَاتِ وَالسُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ، أَكْثَرُ قَبُولًا - عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْبَاحِثِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُدَيْعِ - هُوَ مَرَاعَاةُ زَمَنِ النَّزُولِ وَجَعْلُ الْمُهْجَرَةِ هِيَ الْفَاصِلُ بَيْنَهُمَا، فَالْمَكِّيُّ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْمُهْجَرَةِ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ مَكَّةَ، وَالْمَدَنِيُّ مَا نَزَلَ بَعْدَ الْمُهْجَرَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ⁶.

كَمَا تَحَدَّثُ الْمَفْسَّرُونَ حَوْلَ الضَّابِطِ لِمَعْرِفَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ⁷ - وَإِنْ حَمَلَ هُوَ الْآخِرُ خِلَافًا طَوِيلًا يَبْنِي الْمَفْسَّرِينَ أَنْفُسَهُمْ - فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الضَّابِطَ يَنْقَسِمُ إِلَى طَرِيقَيْنِ: طَرِيقٌ سَمَاعِيٌّ، وَطَرِيقٌ قِيَاسِيٌّ⁸، فَأَمَّا السَّمَاعِيُّ فَهُوَ

¹ أَرَى أَنَّ مَوْضُوعَ "سِيَاقِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ" يَحْتَاجُ إِلَى دِرَاسَةٍ مُوسَّعَةٍ تَعْرِضُ الْمَسْأَلَةَ مِنْ جَوَانِبِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، وَلَا سِيَّمَا سِيَاقَ الظُّوَاهِرِ اللَّغَوِيَّةِ وَالِدَّلَالِيَّةِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، وَهِيَ دِرَاسَةٌ جَدِيدَةٌ بِالْبَحْثِ وَالْعَنَاقِيَّةِ.

² مُحَمَّدٌ جَعْفَرُ شَمْسِ الدِّينِ، مَبَاحِثُ وَنَفَحَاتُ قُرْآنِيَّةٍ (بِيبْرُوت: دَارُ الْهَادِي لِلطَّبَاعَةِ وَالتَّنْشِيرِ وَالتَّوْزِيعِ، 2009)، 61.

³ مُحَمَّدٌ شَمْسِ الدِّينِ، مَبَاحِثُ وَنَفَحَاتُ قُرْآنِيَّةٍ، 61.

⁴ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، حُسَيْنُ أَحْمَدَ، الْمَكِّيُّ وَالْمَدَنِيُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (الْقَاهِرَةُ: دَارُ ابْنِ عَفَّانَ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، 1999)، 1: 137.

⁵ انْظُرْ مَا قَالَهُ الْأَجْهَوْرِيُّ حَوْلَ الْخِلَافَاتِ الْعَدِيدَةِ وَالْأَرَاءِ الْمُتَشَعِّبَةِ بِخُصُوصٍ تَحْدِيدِ "الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ" فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ. عَطِيَّةُ بْنُ عَطِيَّةِ الْأَجْهَوْرِيِّ، إِرْشَادُ الرَّحْمَنِ لِأَسْبَابِ النَّزُولِ وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَالْمُنْشَابِهِ وَتَجْوِيدِ الْقُرْآنِ (الدَّارُ الْبَيْضَاءُ: مَرْكَزُ التَّرَاثِ الثَّقَافِيِّ الْمَغْرِبِيِّ، 2009)، 1: 36.

⁶ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ يُوْسُفَ الْجُدَيْعِ، الْمَقْدَمَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ (بِيبْرُوت: مُؤَسَّسَةُ الرِّيَّانِ، 2001)، 57.

⁷ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْمَفْسَّرِينَ حَوْلَ بَعْضِ السُّورِ وَالْآيَاتِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ الْأَرْجَحَ هُوَ أَنَّ عَدَدَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ هُوَ (86) سِتٌّ وَثَمَانُونَ سُورَةً، وَعَدَدُ السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ هُوَ (28) ثَمَانِي وَعَشْرُونَ سُورَةً. انْظُرْ: شَمْسُ الدِّينِ، مَبَاحِثُ وَنَفَحَاتُ قُرْآنِيَّةٍ، 69-70.

⁸ الزَّرْكَشِيُّ، الْبَرْهَانُ، 1: 189.

ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي - مثلاً - أن كل سورة فيها كلمة "كلًا" للزجر فهي مكّية، وكل سورة فيها فريضة فهي مدنية¹.

وعليه، يذهب كثير من الباحثين في علوم التفسير واللغة إلى أن معرفة كون الآية مكّية أو مدنية يُعدُّ في حدّ ذاته من القرائن الحالية التي لها علاقة كبيرة في ظهور الكلام وضعًا، أو بمقتضى الفهم العربي في معنى من المعاني ومعرفة المراد منه، بخلاف ما إذا المراد الحقيقي من بينها دون مثل هذه القرائن المبينة².

واستنادًا إلى هذا، فقد اجتهد بعض المفسرين في إبراز بعض الخصائص الأسلوبية التي تُميّز المكّي والمدني³، وإن كانت هذه الخصائص تحمل نقاشًا وخلافًا بينهم، ولكنها، في الوقت نفسه، آية تُسهّم في فهم طبيعة الآيات المكّية والمدنية، وتوظيف ذلك في الجانب اللغوي والتحوي.

ومن أمثلة الخصائص⁴ - على سبيل المثال - التي تُميّز السور والآيات المكّية كلمة "كلًا"، فهي من الكلمات التي انفرد بها القرآن المكّي، وهي غالبًا تردّ لمعنى الردع والزجر، وقد تأتي بمعنى "حقًا"⁵. يقول ابن هشام والسيوطي وغيرهما إنك متى سمعت "كلًا" في سورة فاحكم بأنها مكّية؛ لأن فيها معنى التهديد والوعيد، وأكثر ما نزل ذلك بمكة؛ لأن العتو كان بها⁶. وهذا الكلام يجعلنا نفيّد من أن لفظة "كلًا" تخص السور المكّية؛ التي بدورها كانت تُركّز على الأمور العقديّة والإيمانيّة التي تتراوح بين الوعد والوعيد، والبشير والندير⁷.

¹ الأجهوري، إرشاد الزّحمن لأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه وتجويد القرآن، 1: 36.

² عبد الله بن يوسف الجُدَيْع، المقدمات الأساسية في علوم القرآن (بيروت: مؤسسة الرّيان، 2001)، 57.

³ محمّد شمس الدّين، مباحث ونفحات قرآنية، 67.

⁴ محمّد الهادي كريدان، مكّي القرآن ومدنيّه (طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1984)، 29-32.

⁵ لسنا هنا في صدد ذكر كلّ الخصائص؛ لأن الأمر لا يتسع، وفيه ما فيه من الإطناب والتشعب. وإنما هو صورة مصغرة فقط، أريد من خلالها أنؤكد حقيقة ما يتقاطع مع "السياق" ويتعلّق فيه. ومن يتصفح المؤلفات المتعلقة بالمكّي والمدني سيجد أنهم يُشيرون إلى مميّزات الأسلوبية للمكّي والمدني، فمثلاً يقولون في خصائص المكّي الأسلوبية: - قصر الآيات والسور. - كثرة أسلوب التأكيد ووسائل التقرير، ترسيخًا للمعاني، كالإكثار من القسم، وضرب الأمثال، والتشبيه. - كثرة الفواصل. - قوة العبارة والإيقاع. - شيوع الأسلوب الإنشائي من أمر ونهي، واستفهام وتمنّي وتقرير. ومن حيث الخصائص الموضوعية فإن السور المكّية تمتاز ب: - معالجة قضايا العقيدة، ودعوة الإنسان إلى الإيمان بالله، وتثبيت الإيمان. - إعلاء قيمة الأخلاق والآداب والفضائل والقيم والتشريعات العامة. - الاعتناء بقصص الأنبياء مع أقوامهم وأخبار الأمم الغابرة. ويقولون في الخصائص الأسلوبية للسور والآيات المدنية: - طول أكثر السور؛ مراعاة لموضوعاتها، وحاجة المخاطبين إلى تفصيل في ذلك. - النداء بالخطاب الإيماني بـ "يا أيّها الذين آمنوا". وقد ورد عن بعض المفسرين قولهم إن النداء القرآني بـ "يا أيّها الناس" يدلّ على أن السورة مكّية؛ لأنها خطاب عام للناس، وأن النداء القرآني بـ "يا أيّها المؤمنون" و "يا أيّها الذين آمنوا" تدلّ على أن السورة مدنية. للتوسع والاستزادة انظر: عبد الرزاق أحمد، المكّي والمدني، 1: 168-174؛ محمّد الشّاي، المكّي والمدني في القرآن الكريم، 41-53؛ فاروق حمادة، مدخل إلى علوم القرآن والتفسير، نور الدين عتر، علوم القرآن، 66-67.

⁶ السيوطي، الإتقان، 1: 23.

⁷ ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 212؛ السيوطي، الإتقان، 1: 221.

⁸ الشّهرستاني، الملل والنحل، 1: 48.

وهذا الكلام يحملنا على أن نؤكد أن كل ذلك، في حقيقته، مرتبط بـ"السياق المكاني والزمني" - إن جاز لي التعبير بذلك - فتمه فرق بين العهد المكّي والمدني من حيث أحوال الخطاب الموجّه إلى المسلمين والناس، أي قبل تأسيس الدولة وبعدها؛ بما لكل من العهدين من سياقات ومفردات وآليات تخصّ بهما. ولعلّه من اللافت أن نُشير هنا إلى أن الزركشي كان قد عقّد فصلاً كاملاً لكلمة "كلّا" في النصّ القرآني، وأنّه تحدّث عن معانيها تبعاً للوقف¹، فنراه يؤكد أن "كلّا" تأتي في القرآن على ثلاثة أقسام: إحداها: ما يجوز الوقف عليه والابتداء به جميعاً باعتبار معنيين نحو قوله تعالى: {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا} ². والثاني: ما لا يتوقّف عليه ولا يُبدأ به، نحو قوله تعالى: {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ} ♦ قال كلاً ³. والثالث: ما يُبدأ به، ولا يجوز الوقف عليه، نحو قوله تعالى: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} ⁴.

ويُعقّب محمد كريدان على هذا التقسيم بقوله: يبدو أن الزركشي استوحى هذا التقسيم من ملاحظة المعنى كما ظهر له من سياق الآيات حين وُجدت معها لفظه "كلّا" ⁵. وهذا يعني أن "السياق" هو المنظور الذي أخذّه الزركشي بالحسبان في تحديد معاني "كلّا"، بل في حقيقة الوقف والابتداء الذي بطبيعته هو مصطلح قرآني خاصّ بأحكام التلاوة والتجويد، ومتعلّق بالمستوى الصوتي-النحويّ في النصّ القرآني.

ولعلّه من الجدير أن نذكر هنا أن سياق "كلّا" في النصّ القرآني المكّي يؤتّى به -عموماً- لزيادة التوكيد، وفي هذا يقول السيوطي إن "كلّا" هي حرف بمعنى "لا" غير أنّه أكّد في النفي من "لا" ⁶؛ لزيادة مبناه بالكاف وتشديد اللام ⁷، ومن ذلك قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} ♦ أَطْلَعَ الْعَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ♦ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ⁸، فقد بيّن أبو حيّان الأندلسي أن "كلّا"

¹ الزركشي، البرهان، 1: 308.

² القرآن الكريم، المؤمنون: 100. والآية كاملة هي: {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.

³ القرآن الكريم، الشعراء: 62-63. وتتابع الآيتين هو: {فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ} ♦ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

⁴ القرآن الكريم، النبا: 4. وتتابع الآيات هو: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ} ♦ عَنِ النَّبَا الْعَظِيمِ ♦ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ♦ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}.

⁵ محمد كريدان، مكّي القرآن ومدنيّه، 34.

⁶ أحمد البقري، أساليب النفي في القرآن، 174.

⁷ السيوطي، الإتقان، 1: 107.

⁸ القرآن الكريم، مريم: 77-79.

هنا استُخدمت للردع والتنبية على الخطأ الذي هو مخطئ فيما تصوّره لنفسه ويتمناه، فليُردِّع عنه¹. وهذا ما أكّده الألويسي بأنّ "كلّا"² هنا استُعملت للردع والزجر³ عن التّفوّه بتلك العظيمة، وفي ذلك تنبيه على خطئه. وهذا- كما يوضّح ابن هشام والالوسي وغيرهما- مذهب الخليل وسيبويه والأخفش والمبرد وعامة البصريين في هذا الحرف⁴، في حين أنّ مذهب الكسائي على أنّها بمعنى "حقّا"⁵.

إضافة إلى هذا، يذكر ابن عاشور أنّ القرينة في حرف التنفيس في "سَنَكُتُب" تدلّ على تحقيق أنّ ذلك واقع لا محالة⁶، وهي قرينة تؤكّد ما قبلها، بمعنى أنّ تتابع "كلّا" والسّين في "سَنَكُتُب" هو في حقيقة الأمر تتابع توكيد وتوكيد.

ومن الخصائص - أيضًا - التي تُميّز السّور والآيات المكيّة التّكرار، حيث نجد هذه الظاهرة اللّغويّة أشدّ وضوحًا في السّور المكيّة منها في السّور المدنيّة⁷، نحو قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}⁸، التي تكرّرت إحدى وثلاثين مرّة في سورة "الرحمن". وقد اجتهد النّحاة والمفسّرون في تفسير هذا التّكرار، فكان الاتّجاه الذي ساد في آرائهم هو توكيد الموضوع المتحدّث عنه وفقًا لسياق الآيات وتناوبها، حيث يقول القرطبي في ذلك إنّ التّكرار في هذه الآيات جاء للتأكّد والمبالغة في التّقرير، واتّخاذ الحجّة عليهم⁹، فقد عدّد الله في هذه السّورة نعمه وآلاءه الكثيرة¹⁰، ثُمَّ أَتْبَعَ كُلَّ خَلَّةٍ وَصَفَهَا وَنَعَمَةٍ وَضَعَهَا بِهِ، وجعل قوله {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} فاصلة بين كلّ نعمتين؛ ليُنَبِّهَهُم على النّعم ويُقرّر بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره ويُنكره: أَلَمْ تَكُنْ فقيراً فأعنيّتك أَفَتُنْكِرُ هذا؟! أَلَمْ تَكُنْ خاملاً فعزّزتك أَفَتُنْكِرُ هذا؟! أَلَمْ تَكُنْ راجلاً فحملتك أَفَتُنْكِرُ هذا؟!¹¹.

¹ أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 7: 294.

² يوضّح الألويسي أنّ "كلّا" في هذا الموضع القرآني هو أوّل موضع وقع في القرآن، وقد تكرّر في النّصف الأخير ثلاثة وثلاثين موضعاً. انظر: الألويسي، روح المعاني، 9: 178.

³ ابن عطية، المحرر الوجيز، 9: 528.

⁴ ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 212؛ الالوسي، روح المعاني، 9: 178.

⁵ المرادي، الجني الداني، 577.

⁶ ابن عاشور، التحرير والتّوير، 16: 162.

⁷ كريدان، مكي القرآن ومدنيّة، 97.

⁸ القرآن الكريم، الرحمن: 13.

⁹ شيخ زاده، الحاشية، 8: 57، القنوي، الحاشية، 18: 356.

¹⁰ أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 10: 58.

¹¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 9: 135؛ الشّوكاني، فتح القدير، 5: 189.

إذن فسياقُ السّورة كلّهُ، وتُسلسلُ المقاطع والآيات التي دُكر في كلّ النّعم كانت "سبباً نحوياً" - إن صحّ التعبير- في تكرار هذه الآية على امتداد إحدى وثلاثين مرّةً، وهذا السّببُ التّحويُّ هو التّأكيد والتّشديد على كلّ ألوانِ الآلاء. واستناداً إلى هذا نلحظُ التّكرارَ البارزَ في هذه السّورة المكتّبة؛ لأنّ مقتضى الحالِ آنذاك يتطلّبُ أن يُبرَزَ فضلُ الله على العالمين من الجنّ والإنس¹. ولعلّ هذا الأمر جعل أبو السّعود في تفسيره يُبيّنُ أنّ الفاءَ في "فَبِأَيِّ" هي فاءٌ جيء بها دونَ غيِّها، كالواو أو ثَمَّ مثلاً؛ لترتيب الإنكار والتّوبيخ على ما فصل من فنون النّعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشّكر حتّى². كما أنّ التّعرّضَ للرّبوويّة من خلال قوله "رَبِّكُمَا" في {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ} دونَ الألوهيّة وغيرها، هي إشارةٌ سياقيّةٌ لعنوان الرّبوويّة المُنبِئة عن المالكيّة الكليّة خلال عنصر الإضافة في "رَبِّكُمَا"؛ من أجل تأكيد التّكثير وتشديد التّوبيخ لهم إذ بعد كلّ هذه الآلاء والنّعم توجّب عليهم أن يشكروا لا أن يكفروا ويحدوا بالآئ³.

والأمرُ اللافتُ والمثير هو أنّ الذي بما عرّض له الألوسي سيكتشف أنّه راح يُفسّر الآية بعد كلّ مقطعٍ تفسيريّاً سياقيّاً يتناسب مع ما دُكر من نّعم وآلاء تسبق الآية⁴، فلم يكتفِ بما اكتفى به كثير من المفسرين بأنّ الآية فُسِّرت سابقاً، فلمن أراد أن يعرف المعنى فليعدّ إلى الموضع الأوّل من هذه السّورة. وإنّ دلّ ذلك على شيءٍ فإنّما يدلّ على اهتمام الألوسي بإبراز المعاني التّحويّة والسّياقيّة والدلاليّة الكامنة في كلّ تكرارٍ من {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ}⁵. ولهذا نراه يُلخّصُ تكرارَ هذه الآية خلال الموضع الأخير في السّورة {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ}⁶ بقوله: "قد دُكر إحدى وثلاثين مرّةً، ثمانية منها عقيب تعداد عجائب خلقه تعالى، ودُكر المبدأ والمعاد، وسبعة عقيب دُكر ما يُشعّرُ بالنار وأهوالها على عددِ أبواب جهنّم، وثمانية في وصف الجنّتين الأوليين ومثلها في

¹ ابن عطية، المحرّر الوجيز، 14: 186.

² أبو السّعود، إرشاد العقل، 5: 662.

³ ن. م، 5: 662.

⁴ للنّسّع والأمثلة أنظر: الألوسي، روح المعاني، 13: 423-458.

⁵ الألوسي، روح المعاني، 13: 224-423.

⁶ القرآن الكريم، الرّحمن: 73.

وصفِ الجنتين اللتين دوتهما على عددِ أبوابِ الجنة فكأنَّهُ أُشيرَ بذلك إلى أنَّ مَنْ اعتقدَ الثمانية الأولى وعَمِلَ بموجبها استحقَّ كلتا الجنتينِ مِنَ اللهِ تعالى وَوَقَاهُ جَهَنَّمَ ذَاتَ الأبوابِ السبعة...¹.

بالإضافة إلى هذا، حينَ نتبَّع القرآنَ المكيَّ نجدُ أنَّ بعضَ الآياتِ قد تكررَ لفظُها أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ في سورٍ مختلفةٍ نَحْوَ قولِهِ تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ²، فقد وَرَدَتْ في سورة "يونس"، و"الأنبياء"، و"التحل"، و"سبأ"، و"يس"، و"المُلْك". والمتأملُ في السياقِ الذي تردُّ فيه هذه الآيةُ المكرَّرة يرى أنَّ كلَّ آيةٍ منها لها سياقُها الخاصُّ وإنَّ كَانَ الاستعجالُ مِنَ القومِ يجمعُها جميعاً³.

ففي سورة "يونس" يتحدَّثُ سياقُ الآيةِ {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} عَنْ هذا الوعيدِ الذي يسألون عنه في تحدٍّ واستعجالٍ، والأرجحُ أن يكونَ هو القضاءُ بينهم بالقسطِ كما قضى اللهُ بينَ الأممِ التي جاءتْ رسلُها فكذَّبَتْ فأخذَ اللهُ المكذَّبينَ؛ فجاءَ الجوابُ: {قُلْ لَا أَفْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} ⁴. وأمَّا في سورة "التمل" فقد وَرَدَ أنَّ المقصودَ بـ"الوعيد" هو وعدُ العذابِ، أيُّ بأنَّ العذابَ نازلٌ بالمكذِّبِ⁵، فأتبعَتْ هذه الآيةُ بالآيةِ: {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} ⁶، وهذا يعني أنَّهم استعجلوا العذابَ الموعودَ فقليلٌ لهم: عسى أن يكونَ رَدِفُكُمْ بَعْضُهُ⁷.

إضافةً إلى هذا، فإنَّ مِنَ التراكيبِ النحويَّةِ المميَّزةِ في النصِّ القرآنيِّ ما تَعاقَبَتْ فيها الكلمةُ على امتدادِ جملٍ متتابعةٍ، نَحْوَ قولِهِ تعالى: {الْحَاقَّةُ ♦ مَا الْحَاقَّةُ ♦ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} ⁸، ونَحْوُ: {الْقَارِعَةُ ♦ مَا الْقَارِعَةُ ♦ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} ⁹، وذلك في سياقِ التعظيمِ؛ وإيهامِ التعظيمِ في جملةٍ: "ما الحاقَّة"¹⁰، كما يقولُ ابنُ عطيةٍ

¹ الألويسي، روح المعاني، 13: 458.

² القرآن الكريم، يونس: 48؛ الأنبياء: 38؛ التمل: 71؛ سبأ: 29؛ يس: 48؛ الملك: 25.

³ كريدان، مكي القرآن ومدنيّة، 98.

⁴ القرآن الكريم، يونس: 49.

⁵ كريدان، مكي القرآن ومدنيّة، 99.

⁶ القرآن الكريم، التمل: 72.

⁷ النسفي، مدارك التنزيل، 3: 221.

⁸ القرآن الكريم، الحاقّة: 3-1.

⁹ القرآن الكريم، القارعة: 3-1.

¹⁰ ثمة إعرابات عدّة لهذه الجمل الثلاث، منها: {الحاقّة}: مبتدأ أولٌ مرفوع، أو خبر لمبتدأ محذوف، أو نعت لمنعوت. و {ما الحاقّة}: ما: اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ثانٍ. والحاقّة خبرها مرفوع. والجملة الاسميّة "ما الحاقّة" في محل رفع المبتدأ الأول "الحاقّة". و "ما أدراك ما الحاقّة": الواو حرف عطف، ما: اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، أدراك: فعلٌ ماضٍ... والكاف: ضمير متّصل في محل نصب

الأندلسي؛ لِيَتَحَيَّلَ السَّامِعُ أَقْصَى جَهْدَهُ¹ مِنْ خِلَالِ طَبِيعَةِ هَذَا التَّرْكِيبِ، وَفِي سِيَاقِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّعْظِيمِ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ"، فَإِنَّ فِيهَا² مَا لَمْ تَدْرِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَتَفْصِيلِ صِفَاتِهَا. وَالَّذِي يَزِيدُ مِنْ سِيَاقِ التَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ³ كَلِمَةُ "مَا" الَّتِي تُفِيدُ التَّقْرِيرَ وَالتَّوْقِيفَ⁴.

وَفِي الْمَقَابِلِ، فَإِنَّ مِنَ الْخَصَائِصِ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَصَرِ - الَّتِي تُمَيِّزُ السُّورَ وَالْآيَاتِ الْمَدْنِيَّةَ هُوَ النَّدَاءُ بِصِيغَةِ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"⁵، فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ كَرِيدَانُ إِنَّ هَذِهِ الْخَصِيصَةَ هِيَ مِنْ بَيْنِ الْخَصَائِصِ الَّتِي تَمْتَّازُ بِهَا السُّورُ الْمَدْنِيَّةُ، وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ اللَّغَوِيَّةُ هِيَ ظَاهِرَةٌ وَاضِحَةٌ وَغَالِبَةٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الْأَسْلُوبِيَّةِ الَّتِي تَكْثُرُ فِي أَجْوَاءِ الْآيَاتِ الْمَدْنِيَّةِ⁶. وَبِمَكْنَى أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هَذَا - كَمَا يُوَكِّدُ كَرِيدَانُ - أَنَّهُ بِتَغْيِيرِ مَكَانِ التَّنْزِيلِ فَقَدْ تَغَيَّرَتْ مَوْضُوعَاتُهُ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ؛ فَتَغَيَّرَ أَسْلُوبُ الْخُطَابِ فِي الْآيَاتِ الْمَدْنِيَّةِ. وَعَلَيْهِ فَإِنَّ غَلْبَةَ الْخُطَابِ بِصِيغَةِ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"؛ جَاءَتْ بِسَبَبِ طَبِيعَةِ الْخُطَابِ فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَبِسَبَبِ تِلْكَ الْأَحْكَامِ وَالتَّشْرِيعَاتِ وَالْأَوَامِرِ وَالتَّوَاهِي الْمَوْجَّهَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي مَجْتَمَعٍ أَصْبَحَ قَائِمًا بِذَاتِهِ⁷ عَلَى خِلَافِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ⁸. وَكَأَنَّ هُوَ مَعْرُوفٌ، فَإِنَّ النَّدَاءَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ طَلَبٌ يُسْتَخْدَمُ لِلْفَتَنِ الْإِتْبَاهِ، فَيَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ اهْتِمَامِ الْمُتَكَلِّمِ بِهَذَا الطَّلَبِ، وَحِرْصِهِ عَلَى تَنْفِيزِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَعَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِهِ مَقْصُورٌ عَلَى الْمَنَادِي مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى⁹. وَبِالتَّالِي فَإِنَّ طَبِيعَةَ اخْتِلَافِ نَمَطِي النَّدَاءِ إِنَّمَا يَنْسَجُمُ مَعَ الْعَهْدِ الَّذِي قَبِلَ فِيهِ التَّرْكِيبُ النَّدَائِي.

مَفْعُولٌ بِهِ، وَالْفَاعِلُ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ: "هُوَ"، وَالْجُمْلَةُ الْفَعْلِيَّةُ "مَا أَدْرَاكَ" مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ "الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ"، وَ"وَمَا الْحَاقَّةُ" كِإِعْرَابٍ "مَا الْحَاقَّةُ" الَّتِي تَسْبِقُهَا، وَهِيَ جُمْلَةٌ اِسْمِيَّةٌ فِي مَحَلِّ نَصْبِ مَفْعُولٍ بِهِ ثَانٍ لِلْفِعْلِ "أَدْرَاكَ"، أَوْ فِي مَحَلِّ نَصْبِ الْمَفْعُولَيْنِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ لِمَنْ يَرَى أَنَّ الْفِعْلَ "أَدْرَى" يَتَعَدَّى إِلَى ثَلَاثَةِ مَفَاعِلٍ، وَهُوَ بِمَعْنَى "أَعْلَمَ". أَنْظَرُ: عَبْدُ اللَّهِ عَلَوَانُ وَآخَرُونَ، إِعْرَابُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، 4: 252؛ دُرُوش، إِعْرَابُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبَيَانُهُ، 8: 45.

¹ ابْنُ عَطِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيِّ، الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ، 15: 59.

² أَيُّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

³ ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْوِيرُ، 29: 111.

⁴ ابْنُ عَطِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيِّ، الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ، 15: 59.

⁵ أَقْتَصِرُ عَلَى خَصِيصَةِ اِسْلُوبِيَّةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّ الْهَدَفَ هُوَ الْإِقَاءُ الضَّوِّءُ - كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا - عَلَى مَا يَمْتَّازُ بِهِ الْقُرْآنُ الْمَدْنِيُّ، وَمَا لَهُ مِنْ عِلَاقَةٍ فِي سِيَاقِ التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ.

⁶ كَرِيدَانُ، مَكِّي الْقُرْآنُ وَمَدْنِيَّةُ، 198-199.

⁷ تَوْضُحٌ عَائِشَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَسْأَلَةٌ هَامَّةٌ وَهِيَ أَنَّ عِنَايَةَ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ اتَّجَهَتْ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ إِلَى تَقْرِيرِ أَصُولِ الدَّعْوَةِ، وَفِي الْعَهْدِ الْمَدْنِيِّ اتَّجَهَتْ إِلَى التَّشْرِيعِ وَبَيَانِ الْأَحْكَامِ، وَلَا يَعْْنِي هَذَا أَنَّ تَخْلُوَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ مِنْ أَحْكَامٍ وَتَشْرِيعٍ، وَلَا أَنَّ تَخْلُوَ السُّورِ الْمَدْنِيَّةِ مِنْ أَصُولٍ عَامَّةٍ لِلْعَقِيدَةِ. انْظُرْ: عَائِشَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، التَّفْسِيرُ الْبَيَانِيُّ، 1: 79.

⁸ كَرِيدَانُ، مَكِّي الْقُرْآنُ وَمَدْنِيَّةُ، 198-200.

⁹ ن. م، 201.

وأعتقد أنه الذي يتأمل ذلك ملياً يستشف بأن هذا التغيّر والتنوّع ما بيّن الأسلوب المكّي والمدنيّ مرّده إلى التغيّر السياقيّ الاجتماعيّ الذي تعرّضت له حياة النّاس آنذاك، وانتقلهم من بيئة إلى أخرى¹، ومن مجتمع إلى آخر، وبناءً عليه اتّخذ السّياق - إن صحّ التعبير - مساراً جديداً بمفرداتٍ وتراكيبٍ جديدةٍ تحاكي الواقع المعيش. وعلى جانبٍ آخر، نستطيع أن نستلهم من هذا الأمر أن هذه السيرورة ليست متعلّقة بلغة أو فئة من النّاس، بل هي طبيعة اللّغات والمجتمعات البشريّة التي تحيا بين زمنين مختلفين.

7. 3. الجملة الاسميّة والفعلية بين الثبوت والحدوث:

ترتكز بنية الجملة في اللغة العربيّة على وظيفتين، هما إمّثالان الدّعمة الأصليّة في الجملة، وقد سمّاهما سيبويه المُسنَد والمُسند إليه²، وعرفهما بأتهما: ما لا يُغني واحدٌ منهما عن الآخر، ولا يحد المتكلّم منه بدءاً. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنيّ عليه³، وهو قولك: "عبد الله أخوك"، و"هذا أخوك". ومثل ذلك "يذهب عبد الله" فلا بُدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأوّل بُدّ من الآخر في الابتداء⁴.

وتوافقاً مع هذه الرّؤية، فقد بات من المُسلم به، في نظر النّحاة وتقسيماتهم، أن ثمة نوعين أساسيين من الجمل⁵ في اللغة العربيّة هما اللّذان يُشكّلان لبّ الكلام النّحويّ، وهما: الجملة الاسميّة، والجملة الفعلية⁶. ومع هذا، فقد اجتهد كثير من النّحاة في تحديد الدّلالة النّحويّة لكلا الجملتين، فاضطرت بذلك الآراء، لا سيّما أن هذه المسألة تتعلّق بتفريعات كثيرة، منها - على سبيل المثال - اعتبار جمل التّواسخ الفعلية التي هي في أصلها جملة

¹ السّيد أحمد خليل، دراسات في القرآن (القاهرة: دار المعارف بمصر، [د.ت.]، 30-31.

² عبد اللّطيف، بناء الجملة العربيّة، 28.

³ يقصد سيبويه بـ"المبنيّ عليه" الخبر. ويجدر أن أشير هنا أنّه لا يقصد المبنيّ الذي يُقابل الإعراب.

⁴ سيبويه، الكتاب، 1: 23.

⁵ هناك تقسيمات أخرى للجملة الاسميّة والفعلية أضافها بعض النّحاة ودار حولها خلافت بين القبول والرفض نحو الجملة الظرفيّة، والجملة الشرطيّة، ولكنهما لا يدخلان هنا في صميم البحث الذي أعكف عليه في هذه الصفحات.

⁶ عبد الله محمّد، النّحو العربيّ بين القديم والحديث، 146.

اسمياً¹، واعتبارُ الجملة الشرطية، والجملة الاستفهامية... وغيرها مِنَ الأبوابِ التحويلية التي كانت ولا تزال مثارَ خلافٍ بَيْنَ النُّحاةِ القدماءِ والمحدثين.

ويُبيِّن ابن هشام أنَّ تقسيمَ الجملة إلى اسمية وفعليّة - لا سيما عندَ البصريين - مرَدُّه إلى صَدْرِ الجملة، أي إنَّ تقسيمهم جاء بناءً على الكلمة الأولى في الجملة، فيقول إنَّ الجملة الاسمية هي التي صدرَها اسمٌ، كـ"زيدٌ قائمٌ"، و"هيئاتُ العقيق"، و"قائمُ الزيدان" - عندَ مَنْ جَوَّزَه - وهو الأخفش والكوفيون. وإنَّ الجملة الفعلية هي التي صدرَها فعلٌ كـ"قامَ زيدٌ"، و"ضربَ اللَّصُّ"، و"كانَ زيدٌ قائماً"، و"ظننْتُ قائماً"، و"يقومُ زيدٌ"، و"فمٌ"².

وبعيداً عن هذه الخلافات التي مِنْ شأنِها أنْ تَجَرَّ تفريعاتٍ ومسائلَ واسعة النطاق، أستطيع أنْ أُؤكِّدَ أنْ مدارَ بحثي يدور حَوْلَ الجملِ الإسنادية، تلك الجملِ التي تحوي علاقةً إسناديةً ما³، لإفادة المعنى التام - كما يعرفُها النُّحاةُ. وأظنُّ أنَّ النُّحاةَ القدماءَ والمحدثين - معاً - كانوا قد اتَّفَقوا واختلَفوا في الوقتِ نفسه في تحديدِ بعضِ الجملِ لِكَوْنِها اسميةً أم فعليةً؛ بناءً على "معنى الإسناد"، وعلى الرِّغمِ مِنْ هذا فإنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى إعادةِ تصنيفٍ - كما يُبيِّنُ محمد عبد اللطيف⁴، حيثُ يُصرِّحُ بأنَّ النُّحاةَ، قدماءُهم ومُحدثينهم، انطلقوا مِنْ قاعدةِ الإسنادِ في الجملِ الاسمية والفعلية، ولكنَّهم فَصَّلُوا في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ بَيْنَ "اللفظِ والمعنى" في الجملِ، في حين أنَّه لا يمكنُ الفصلُ بينهما وإهمالُ أحدهما لحسابِ الآخر؛ فالكلامُ الحيُّ - كما يؤكِّدُ محمد عبد اللطيف - أشكالٌ أو أنماطٌ تركيبيةٌ مرتبطةٌ بضرورةٍ بدلالاتها، ولا يمكنُ تجريدُ اللفظِ مِنْ دلالاته، وهذه الدلالةُ مُستَمَدَّةٌ مِنْ روافدٍ عدَّةٍ، وسياقاتٍ مختلفةٍ: مِنْ صيغةِ الكلمة، وموقعها في الجملة ورَبْطُها بما قبلها وما بعدها، ومضاميتها لصيغٍ خاصةٍ أو وظائفٍ خاصةٍ، وعلاميتها الإعرابية إذا وُجِدَتْ، وعَبَّرَ ذَلِكَ مِنْ العلاقاتِ السياقية التي تتعاونُ في جلاءِ المعنى⁵.

¹ مِنْ الآراءِ اللَّافَةِ لدى النُّحاةِ المحدثين هو ما ذَهَبَ إليه الباحثُ محمد عبد اللطيف، حيثُ يَرَجِّحُ أنَّ جملةَ "كان" الناقصة وأخواتها إنما هي جملة اسمية وليست جملة فعلية كما ذَهَبَ لذلك بعضُ النُّحاةِ القدماءِ والمحدثين؛ وذلك بتعليلِ أنَّ "كان" وأخواتها تدخلُ على الجملةِ الاسمية لإفادةِ معنًى خاصٍّ؛ وذلك لأنَّ الجملةَ، أي جملةَ، لا تُنسَبُ إلى الأداةِ الداخلةِ عليها، وإنما تُنسَبُ إليها في معناها الجُمْلِيَّةِ؛ فيقال: جملةٌ نفيةٌ، أو جملةٌ استفهاميةٌ، أو جملةٌ شرطيةٌ... إلخ. انظر: محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2001)، 80.

² ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 433.

³ يرى محمد خير الحلواني أنَّ المعنى الإسنادي في الجملة - بمعناها التحويلي - هو ما اشتملَ على مسندٍ ومسندٍ إليه. ويقولُ في موضعٍ آخر: "يكفي أن تقومَ الجملة على الإسناد، فإذا تَمَّ لها المسندُ والمسندُ إليه كانت جملةً". انظر: الحلواني، مفهوم الجملة، 196؛ المختار من أبواب النحو، 73.

⁴ محمد عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، 58.

⁵ عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة، 58-59.

وإذا أُنعمنا النظر سنتبين أن حقيقة الثبوت والتجدد في الجملة الاسمية أو الفعلية إنما مرادها إلى الفرق بين الاسم والفعل، ذلك الفرق الذي نصبه النحاة لدى حديثهم عن وظائف الاسم من جهة، ووظائف الفعل من جهة ثانية، بل يكاد يصبح هذا الفرق موضع إجماع بين النحاة أنفسهم، ففي هذا يصرخ عبد القاهر الجرجاني بأن "موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشئ من غير أن يقتضي بتجدده شيئاً بعد شئ". فإذا قلت: "زيد منطلق" فقد أثبتت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و"عمرو قصير". فكما لا تقصدُها هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجهُهما وثبُتُهما فقط وتقتضي وجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: "زيد منطلق"، لأكثر من إثباته لـ "زيد". وأما الفعل فإنه يُقصدُ فيه إلى ذلك؛ فإذا قلت: "زيد ها هو ذا ينطلق"، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يُزاوِلُهُ وَيُزَجِّجُهُ¹.

ويُخرجُ فاضل السامرائي الفرق الدلالي بين الفعل والاسم بأن سبب دلالة الفعل على التجدد في مقابل دلالة الاسم على الثبوت هو تضمُّنُ الفعل الزَّمنَ بخلاف الاسم، فالزَّمنُ بطبيعته متجددٌ ينتقل من حالٍ إلى حالٍ، وبهذا اكتسب الفعل بما فيه من تضمُّنِ الزَّمنِ هذه السِّمة².

وانطلاقاً من هذه الفائدة التحويلية، وما يُقابلها من شواهد لغوية، تؤكد الباحثة بتول ناصر أن النحاة أرسوا ضابطاً - وأن لم يكن مطرداً - بأن الجملة الاسمية تُفيد الثبوت والدوام³، والجملة الفعلية تُفيد التنقل والتغير⁴. فإذا أراد المتكلم أن يُخبر عن خصالٍ دائمةٍ ولازمةٍ وثابتةٍ فيمن يُحدث عنهم أخبر بالجملة الاسمية، وإذا أراد المتكلم أن يتحدث عن أمرٍ متجددٍ وغير ثابتٍ أخبر بالجملة الفعلية⁵.

ويتوصل الباحث كريم الخالدي إلى أن النحاة وجدوا أن الكلام يأتي على فرعين رئيسين من التراكيب:

وهما:

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 174.

² السامرائي، معاني الأبنية في العربية، 9.

³ شكر عبد الله، دلالة الجملة الاسمية، 56.

⁴ عباس علي الأوسي، الإحالة في القرآن الكريم (عمان: دار الرضوان للنشر والتوزيع، 2014)، 205.

⁵ بتول ناصر، لدى الإعراب لدى النحاة القدماء، 178.

أ. التراكيب التي تأتي على معنى التجدد والحدوث والتغير، وهي ما كان معبراً عنها بالفعل وما يُأْتَلَفُ مَعَهُ.

ب. التراكيب التي تدل على معنى الثبوت والاستقرار، وهي ما كان معبراً عنهما بالاسم وما أُلْتَفَ مَعَهُ¹.

ويُشِيرُ كَرِيمُ الْخَالِدِي، في مَوْضِعٍ آخَرَ، أَنَّ ابْنَ جَنِّي كَانَ قَدْ كَشَفَ بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ الْفَرْقَ بَيْنَ دَلَالَةِ الْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ وَبَيْنَ دَلَالَةِ الْجُمْلَةِ الْفَعْلِيَّةِ²؛ مُبَيِّنًا اخْتِصَاصَ كُلِّ مِنْهُمَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ مَعْنَى، فَقَالَ: "فَقُولُكَ: "إِذَا زُرْتَنِي فَأَنَا مِمَّنْ يُحْسِنُ إِلَيْكَ"، أَيْ فَحَرِيٌّ بِي أَنْ أُحْسِنَ إِلَيْكَ، وَلَوْ جَاءَ بِالْفِعْلِ مَصَارِحًا بِهِ فَقَالَ: "إِذَا زُرْتَنِي أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ"، لَمْ يَكُنْ مِنْ لَفْظِهِ، ذَكَرَ عَادَتَهُ الَّتِي يَسْتَعْمَلُهَا مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى زَائِرِهِ، وَجَارَ أَيْضًا أَنْ يُظَنَّ بِهِ عَجْزٌ أَوْ نَفُورٌ دُونَهُ، فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ عَادَتُهُ وَمُظَنَّةٌ مِنْهُ كَانَ النَّفُوسُ إِلَى وَقُوعِهِ أَسْكَنَ، وَبِهِ أَوْثَقُ، فَاعْرِفْ هَذَا الْمَعَارِضَ فِي الْقَوْلِ، وَلَا تَرَيَنَّهَا تَصَرُّفًا وَاتِّسَاعًا فِي اللَّغَةِ مَجْرَدَةً عَنِ الْأَغْرَاضِ الْمُرَادَةِ فِيهَا وَالْمَعَانِي الْحَوَّلَةِ عَلَيْهَا"³.

ثُمَّ يُعَلِّلُ الْخَالِدِي حَقِيقَةَ السِّيَاقِ الْاسْمِيَّةِ وَالْفَعْلِيَّةِ مِنْ خِلَالِ الرُّفْعِ وَالنَّصْبِ، فَيَقُولُ إِنَّ الضَّمَّةَ تَقُودُ إِلَى السِّيَاقِ الْاسْمِيِّ أَيْ إِنَّ اللَّفْظَةَ الْمَرْفُوعَةَ فِي تَأْلِيفِ اسْمِيٍّ يَدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ وَالْإِعْتِيَادِ، فَالْعَرَبِيُّ حِينَمَا يَسْمَعُ الْاسْمَ مَرْفُوعًا يَنْصَرِفُ ذَهْنُهُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، أَمَّا إِذَا سَمِعَهُ مَنْصُوبًا انْصَرَفَ ذَهْنُهُ إِلَى حَدَثٍ وَقَعَ فِي ذَلِكَ الْاسْمِ⁴.

وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ، فَسَرَّ بَعْضُ النُّحَاةِ سَبَبَ اخْتِيَارِ سَيَبُوهِ الرُّفْعِ عَلَى النَّصْبِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّفْعَ فِي تَخْرِيجِ الْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ أَثْبَتٌ، نَحْوُ قَوْلِ الْقَائِلِ: "رَأَيْتُ زَيْدًا فَإِذَا لَهُ عِلْمٌ عِلْمُ الْفَقْهَاءِ"، بِرُّفْعِ "عِلْمٌ" الْمُضَافَةِ إِلَى "الْفَقْهَاءِ"، وَفِي الْمَقَابِلِ نَحْوُ قَوْلِ الْقَائِلِ: "رَأَيْتُ زَيْدًا فَإِذَا لَهُ صَوْتٌ صَوْتُ حَمَارٍ" بِنَصْبِ "صَوْتٌ" الْمُضَافَةِ إِلَى "حَمَارٍ"؛ وَالدَّافِعُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ فِي النَّصْبِ إِشْعَارًا بِالْفِعْلِ، وَهِيَ فِي صِبْغَةِ الْفِعْلِ (جُمْلَةٌ فَعْلِيَّةٌ) إِشْعَارٌ بِالتَّجَدُّدِ وَالْحَدُوثِ، الْأَمْرُ الَّذِي لَا يَجُودُ فِي الرُّفْعِ الَّذِي يَسْتَدْعِي اسْمًا (جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ)، وَلِذَلِكَ الْاسْمُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لَازِمَةٌ، فَيَقُولُ سَيَبُوهُ مُضِيقًا: "أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَقْدَرَ مَعَ النَّصْبِ نَحْمَدُ اللَّهَ الْحَمْدَ، وَمَعَ الرُّفْعِ ثَابِتٌ لِلَّهِ أَوْ مُسْتَقَرٌّ"⁵.

¹ كَرِيمُ الْخَالِدِي، نَظَرِيَّةُ الْمَعْنَى فِي الدِّرَاسَاتِ النَّحْوِيَّةِ، 326.

² ن. م.، 328.

³ ابْنُ جَنِّي، الْمُحْتَسَبُ، 2: 274.

⁴ الْخَالِدِي، الْبَدِيلُ الْمَعْنَوِيُّ مِنْ ظَاهِرَةِ الْحَذْفِ، 36.

⁵ أَيْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ.

⁶ سَيَبُوهُ، الْكِتَابُ، 1: 481.

ولكني نُدرك دلالة كلٍّ من الجمل الاسمية والفعليّة كانَ لزامًا - في اعتقدهُ - أن نفهم سياقَ الجمل في النصِّ القرآنيِّ. والأمثلة في ذلك كثيرة، أكتفي ببعض النماذج فقط؛ لاستيحاء بعض الصّور السياقيّة النّحويّة:

ففي قَوْلِهِ تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} ♦

اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} ¹ نلاحظُ أنَّ ثمةَ صورتينِ تركيبيتينِ متقابلتينِ في هذه الآية؛ حيثُ إنَّ لِتَصَرُّفِ المنافقينِ "موقفينِ نحويّينِ" - إنَّ صَحَّ التعبيرُ - وهما:

1. الموقفُ الأوّلُ: "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا": وفيه أنَّ تلكَ الفئةَ مِنَ النَّاسِ، وهم المنافقون ²، حينما تلتقي بالمؤمنينِ فإنَّهم يقولون لهم: "آمنّا".

2. الموقفُ الثّاني: "وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ": وفيه أنَّ تلكَ الفئةَ مِنَ النَّاسِ حينما تلتقي بالكافرينِ أمثالهم فإنَّهم يقولون لهم: "إِنَّا مَعَكُمْ".

فَيَنْبَغُ التّساؤلُ، ما حقيقةُ هذه المغايرة في طرائقِ التعبيرِ النّحويِّ، وهل للسياقِ تأثيرٌ في مثلِ هذه المشكلة؟

يُبَيِّنُ الرّمخسريُّ أنَّ المقصودَ بـ "إِنَّا مَعَكُمْ" إنّا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم وهو خطابُ المنافقين ³ لأوليائهم مِنَ الكافرينِ. ثُمَّ يتساءلُ: "فإنَّ قُلْتُ: لمَ كانتِ مخاطبتهم المؤمنينَ بالجملةِ الفعليّة ⁴، وشياطينهم بالاسميّة محقّقةً بـ "إنَّ" ⁵؟" فيجيبُ الرّمخسريُّ: "قُلْتُ: ليسَ ما خاطبوا به المؤمنينَ جديدًا بأقوى الكلامينِ وأؤكدِهما؛ لأنَّهما في ادّعاءِ حدوثِ الإيمانِ منهم، ونشأتِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، لا في ادّعاءِ أنَّهم أَوْحِدِيُونَ ⁷ في الإيمانِ غَيْرُ مشقوقٍ فيه غبارُهم" ⁸.

وهذا يعني أنَّ سياقَ الآيةِ وما يُحيطُ بها إمّا يقومُ على تناسُبِ الصّورةِ التّفسيّةِ - الإيمانيةِ مَعَ طبيعةِ التّركيبِ المعبرِ عَنْهُ، فتلُكَ الفئةُ مِنَ النَّاسِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ حَقًّا؛ فَعَبَّرُوا - في هذا السّياقِ - بالجملةِ الفعليّةِ "آمنّا" الّتي

¹ القرآن الكريم، البقرة: 14-15.

² الصّتاوي، الحاشية، 1: 99.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1: 201.

⁴ يقصدُ جملةً "آمنّا".

⁵ يقصدُ جملةً "إِنَّا مَعَكُمْ".

⁶ الرّمخسري، الكشاف، 1: 64.

⁷ أي: لا نظيرَ لهم فيه، وهو غيرُ مرادٍ.

⁸ الرّمخسري، الكشاف، 1: 64.

تُفيدُ الحدوث¹ وعدمُ الثَّباتِ على حالٍ معيَّنة²؛ فأخبروهم - كما يقولُ أبو حَيَّانِ الأندلسيُّ - بِالْمُطْلَقِ مِنْ غَيْرِ توكيدٍ³. وفي المقابلِ فَقَدْ عَبَّرُوا بِالْجُمْلَةِ الاسميَّةِ "إِنَّا مَعَكُمْ" الَّتِي تُدُلُّ على موافقةِ حالتِهِم النَّفسيَّةِ - الإيمانيَّةِ لأمثالِهِم، وَالَّتِي تُفْضِي إلى معنى "الثَّباتِ على الكفر"⁴ - كما يقولُ الرَّازيُّ. بَلْ نَلْحِظُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ تَرَاثُبَ الْجُمْلَةِ الاسميَّةِ تَصَبُّ في سياقِ إثباتِ الحَالَةِ وتثبيتِها⁵، وتُحْدِثُ سياقَ التَّأكيدِ في ذلك⁶؛ فَقَالُوا مُعْتَبِينَ: "إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ" مباشرةً بَعْدَ قَوْلِهِمْ "إِنَّا مَعَكُمْ"؛ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ "إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ" هِيَ جُمْلَةٌ اسميَّةٌ كَذَلِكَ تَفِيدُ ثُبُوتَ مَا هُمْ عَلَيْهِمْ، وَتَأْتِي - كما يُبيِّنُ أبو حَيَّانِ الأندلسيُّ - في سياقِ التَّوكيدِ أَيْضًا؛ لِيَدُلُّوا بِذَلِكَ على ثباتِهِم في الاستهزاء؛ وَكَأَنَّ الاستهزاءَ بِواسطةِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَصَفٌ ثابِتٌ لَهُمْ⁷. وَنَتِيجَةُ إلى هَذَا، جَاءَ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ - كما يَذْكُرُ الرَّازيُّ - أَيْضًا بِجُمْلَةٍ جَاءَ الْخَبَرُ فِيهَا جُمْلَةٌ فَعْلِيَّةٌ: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}⁸؛ لِتَفِيدَ الاستمرارَ⁹؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ "يَسْتَهْزِئُ" يُفِيدُ حَدُوثَ الاستهزاءِ وَتَحْدُدُهُ وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ¹⁰ - على حَدِّ قَوْلِ الرَّازيِّ - وَحَالًا بَعْدَ حَالٍ¹¹ - كما يقولُ محيي الدِّينِ درويش - وَهُوَ تَرْكِيبٌ يَتَقَابَلُ بِصورةٍ عَكْسيَّةٍ مَعَ قَوْلِهِمْ: "إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ"¹².

إِضَافَةً إلى هَذَا، يُشِيرُ ابْنُ عَاشُورٍ إلى أَنَّ في جُمْلَةِ "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ" اسْتِثْنَاءً يُفْهَمُ مِنْ سياقِ التَّركيبِ¹³؛ فَهِيَ جُمْلَةٌ تَحْمِلُ جَوَابًا لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّ السَّامِعَ لِحَاكِيَةِ قَوْلِهِمَ لِلْمُؤْمِنِينَ: "آمَنَّا"، وَقَوْلِهِمَ لِشَيَاطِينِهِمْ: "إِنَّا مَعَكُمْ"، فَالْفِعْلُ "يَسْتَهْزِئُ" دَلِيلٌ يَتَعَيَّنُ مِنَ السَّيَاقِ على أَنَّ مَضْمُونََ الْجُمْلَةِ مَجَازَةٌ على استهزائِهِمْ؛ وَلِأَجْلِ اعْتِبَارِ الاستِثْنَاءِ قَدَّمَ اسْمُ اللَّهِ على الْخَبَرِ الْفَعْلِيِّ، وَلَمْ يَقُلْ "يَسْتَهْزِئُ اللَّهُ بِهِمْ"؛ لِأَنَّ مِمَّا يَجُولُ في خَاطِرِ السَّائِلِ أَنَّ يَقُولَ: مِنَ الَّذِي يَتَوَلَّى مُقَابَلَةَ سُوءِ صَنِيعِهِمْ، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يَتَوَلَّى ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ¹⁴. وَارْتِكَازًا على هَذَا السَّيَاقِ، وَعلى

¹ شيخ زاده، الحاشية، 1: 294.

² درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 1: 52.

³ أبو حَيَّانِ الأندلسي، البحر المحيط، 1: 114.

⁴ الرَّازي، مفاتيح الغيب، 2: 77.

⁵ الشَّوكَانِي، فتح القدير، 1: 57.

⁶ شيخ زاده، الحاشية، 1: 294-295.

⁷ أبو حَيَّانِ الأندلسي، البحر المحيط، 1: 114.

⁸ القرآن الكريم، البقرة: 15.

⁹ الألوسي، روح المعاني، 1: 249.

¹⁰ الرَّازي، مفاتيح الغيب، 2: 78.

¹¹ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 1: 52.

¹² الرَّازي، مفاتيح الغيب، 2: 78.

¹³ شيخ زاده، الحاشية، 1: 296.

¹⁴ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1: 293.

هذه الرؤية التحويلية، يُبيّن ابن عاشور أنّ "تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا يأتي؛ لإفادة ثَقْوِي الحكم لا محالة، ثمّ يُفيد مع ذلك قصر المُسند على المُسند إليه؛ فإنّه لَمَّا كَانَ تقديم المُسند إليه على المُسند الفعلي في سياق الإيجاب يأتي لِثَقْوِي الحكم ويأتي لِلْقَصْرِ"¹.

ولهذا، فلم يقل - مثلاً -: "الله مستهزئ"، ولم يقل: "يستهزئ الله"، بل صُدِرَتْ هذه الآية بالمتبداً "الله" ثمّ تلاه فعل مضارع "يُسْتَهْزِئ"، فتكون الآية - فيما أَسْتَفْرِئُهُ - جملة اسمية في مجملها العام؛ لأنها تبدأ بالاسم المُسند إليه (المتبداً "الله" + الخبر "يُسْتَهْزِئ")، وجملة فعلية في "معناها الخاص" - إن جاز لي التعبير بذلك -؛ لكنّها خبراً ومُسنداً؛ حيث نلاحظ تحادداً في أداء المعنى المتوخى ما بيّن الثبوت "الله"، وما بيّن الحدوث "يُسْتَهْزِئ"؛ لِيُذَكِّرَ بذلك على أنّ "الله" - سرمداً وأبداً - ثابت، بمعنى الصّمدية، بالاستهزاء لكل ما يريد أن يستهزئ بالمؤمنين، وعلى أنّ "يُسْتَهْزِئ" صورة نحوية تنم عن "التجديد المضارعي" - إن صحّ التعبير - أو كما قال ابن عاشور بأنّ فيها تجدداً من الفعل المضارع، وكأنّه: في الوقت الذي يُعلن فيه هؤلاء النّاس عن استهزائهم، فالله يستهزئ، أو كأنّه: كلّما استهزأ هؤلاء النّاس بالمؤمنين يأتي الجواب لهم (للمؤمنين): لا تظنّوا أنّ الله لا يعلم استهزاءهم وما طوّنه سرائرهم، بل إنّ الله يعلم، ويستهزئ به².

ويؤكّد أبو حيّان الأندلسي أنّ في افتتاح الجملة باسم الله، التي جاء فيها الرّد: "الله يستهزئ بهم"، يتناغم مع سياق التّفخيم والتّعظيم، حيث صُدِرَتْ الآية به، كما أنّ جعل الخبر فعلاً مضارعاً يدلّ عندهم على التجديد والتّكرّر³، فهو أبلغ في التّسببه من الاستهزاء المُخبر به في قولهم⁴.

وبقي أن أشير إلى أنّ ثمة مسألة نحويّة تتعاضد مع سياق الآية، وهما الفعلان "لَقُوا" وما يعقبها من جملة فعلية غير مستقرّة، و"خَلَوْا" وما يعقبها من جملة اسمية مستقرّة، إذ إنّ كلا الفعلين يتقابلان في أداء صورتين

¹ ابن عاشور، التّحرير والتّوير، 1: 293.

² ليس المجال هنا لأن نعرض معنى الاستهزاء، أهو على الحقيقة أم على المجاز؟ وذلك لأنّ الأمر يحتاج إلى شرح وتفريعات كثيرة نحن بغنى عنها، ولأنّها لا تخصّ موضوع الأطروحة.

³ القانوني، الحاشية، 2: 174-175.

⁴ أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 1: 115.

مختلفتين، فـ "لَقُوا"¹ الذي يحمل معنى اللقاء يوحي من ناحية دلالية بالمصادفة وعدم التخطيط المسبق²، بالعجلة والحركة الانتقالية غير المستقرة، وسرعة أداء الحديث، وهذا يتماشى مع حالة عدم الاستقرار في الجملة الفعلية، ونظراً لِمآل المعنى - كما يُسمّيه القنوي³، وأمّا الفعل "خَلَوْا" فيحمل في دلالته الركون دائم الاستمرار⁴، التمكن من الحديث، والأخذ بكل أسباب الاستقرار في الإعلان بالشيء؛ وكأنّه "لقاء مُحْطَطٌ" مسبقاً، وهو ما عبّر عنه البيضاوي على أنّ الفعل "لَقُوا" يحمل معنى البغته وعدم الاختيار. أضف إلى ذلك أنّ "لَقُوا" تتقاطع مع الفعل "ألقى" - على حدّ قول البيضاوي والراغب الأصفهاني⁵، وكأنّ تلك الفئة من المنافقين⁵ يريدون أن يلقون بعبارتهم "آمناً" على جناح السرعة؛ ولأنّها أيضاً تصدر من ألسنتهم ولا تعدوها⁶، ولم تلامس قلوبهم، وذلك تشبيهاً بحركة الفعل في قوله تعالى: {الْقَهَا يَا مُوسَى}، أي أطرحها بسرعة يا موسى⁷.

واللافت في هذه المسألة أنّ الفعل "خَلَوْا" تُوصَل بـ "إلى" على الرغم من أنّ الأصل فيه - كما يؤكد ابن عطية الأندلسي والشوكاني⁸ - أن تتوصّل بالباء ويتعدى به (خَلَوْا بشياطينهم)، ولكنّه عدل عن ذلك؛ ليعادل سياق الفعل "لَقُوا"⁸.

وفي قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَاقَاتٍ وَيَقْبِضْنَ}⁹، نجد أنّه عطفَ الفعل "يَقْبِضْنَ"¹⁰ - بتقدير "قابضات" - على الاسم المفرد "صَاقَاتٍ"¹¹ التي وقعت حالاً منصوباً¹²، فيذكر التّخشري في تأويل ذلك أنّ أصل الطّيران هو رصف الأجنحة؛ لأنّ الطّيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف

¹ يذكر العكبري والنّحاس أنّ ابن السّمّيع اليماني قرأ بـ "لاقوا" باللف، وفتح القاف، وضمّ الواو. أنظر: العكبري، التبيان في إعراب القرآن، 1: 35؛ إملاء ما من به الرحمن، 1: 19؛ النّحاس، إعراب القرآن، 1: 31.

² القنوي، الحاشية، 2: 178.

³ ن. م، 2: 178.

⁴ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 1: 52.

⁵ الألوسي، روح المعاني، 1: 244.

⁶ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 1: 52.

⁷ القنوي، الحاشية، 2: 179-180.

⁸ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 1: 174؛ الشوكاني، فتح القدير، 1: 56؛ الألوسي، روح المعاني، 1: 246.

⁹ القرآن الكريم، الملك: 19.

¹⁰ المقصود قبض الأجنحة وضمها.

¹¹ المقصود بسط الأجنحة في الجو عند الطيران. يذكر أبو حيان الأندلسي أنّ هاتين الحالتين للطائر يستريح من أحدهما إلى الأخرى. أنظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 10: 277.

¹² محمّد الطّيب الإبراهيم، إعراب القرآن الكريم، 563؛ بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل، 12: 100؛ عبد الله علوان وآخرون، إعراب القرآن الكريم، 4: 2501؛ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 8: 16.

وَبَسْطُهَا، وَأَمَّا الْقَبْضُ فَطَارِيٌّ عَلَى الْبَسْطِ لِلإِسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى التَّحَرُّكِ¹؛ فَجِيءَ بِمَا هُوَ طَارِيٌّ غَيْرُ أَصْلٍ بِلَفْظِ
الْفِعْلِ عَلَى مَعْنَى: أَهْنَى صَاقَاتٍ، وَيَكُونُ مِنْهُنَّ الْقَبْضُ تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ كَمَا يَكُونُ مِنَ السَّابِحِ². وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ
الْغَالِبَ فِي عَمَلِيَّةِ طَيْرَانِ الطَّيْرِ هُوَ الْبَسْطُ، فَكَأَنَّهُ هُوَ الثَّابِتُ؛ فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالاسْمِ لِسِيَّاقِ الثَّبَاتِ، وَأَنَّ الْقَبْضَ مُتَجَدِّدٌ؛
فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْفِعْلِ لِسِيَّاقِ التَّجَدُّدِ³.

وَيَعْرِضُ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ لِأَثَرِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ وَسِيَاقِهِ فِي التَّرْكِيبِ التَّحْوِيٍّ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ قَائِلًا إِنَّهُ أَوْثَرُ
الْفِعْلِ الْمَضَارِعُ؛ مِنْ أَجْلِ اسْتِحْضَارِ صُورِ الطَّيْرَانِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَعْكُسُ الطَّيْرُ بَسْطَ الْجَنَاحَيْنِ؛ إِذَا بَذَلَكَ الْعَكْسِ
يَزْدَادُ الطَّيْرَانُ قُوَّةَ امْتِدَادِ الزَّمَنِ. ثُمَّ قَدْ جِيءَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ؛ لِدَلَالَةِ الْفِعْلِ عَلَى التَّجَدُّدِ، وَفِي
الْمُقَابِلِ جِيءَ بِصِيغَةِ الْاسْمِ "صَاقَاتٍ"؛ لِأَنَّ الصَّفَّ هُوَ أَكْثَرُ أَحْوَالِهَا عِنْدَ الطَّيْرَانِ؛ فَتَنَاسَبَ مَعَ الْاسْمِ الدَّالِّ عَلَى
الثَّبَاتِ⁴.

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}⁵ يَتَرَاءَى لَنَا أَنَّ عَبَّرَ عَنْ "إِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ" بِصِيغَةِ
الْجُمْلَةِ الْفَعْلِيَّةِ: "وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ". بَيْنَمَا نَقْرَأُ - فِي الْمُقَابِلِ - فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَتَى ثُؤَفْكُونَ}⁶، وَفِيهِ كَانَ قَدْ عَبَّرَ عَنْ "إِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ
الْحَيِّ" بِصِيغَةِ الْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ: "وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ". فَهَلْ هُنَاكَ اخْتِلَافٌ فِعْلًا؟ وَمَا حَقِيقَةُ هَذَا الْاِخْتِلَافِ؟
وَلَمْ اسْتَخْدَمْ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ الْجُمْلَةَ الْفَعْلِيَّةَ الْمَضَارِعِيَّةَ، وَاسْتَخْدَمْ فِي الْمَوْضِعِ الثَّانِي الْجُمْلَةَ الْاسْمِيَّةَ الْمَصْدَرَةَ بِاسْمِ
الْفَاعِلِ؟

¹ شيخ زاده، الحاشية، 8: 281.

² الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ، 4: 437.

³ أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 10: 228؛ الصَّائِي، الْحَاشِيَّةُ، 4: 396.

⁴ ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْوِيرُ، 29: 39.

⁵ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، آلِ عِمْرَانَ: 27.

⁶ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْأَنْعَامُ: 95.

يذكر الألوسي أن الفرق بين "مُخْرِجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ" وبين "مُخْرِجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ"¹ هو أن تركيب الآيتين يختلف وفقاً لسياق الآيات فيهما، ففي الموضع الأول "مُخْرِجِ..." فهي جملة فعلية تتوالى الأفعال المضارعة فيها؛ لتدل على تجديد الشيء والاعتناء بالفاعل؛ في سياق التعظيم والقدرة، لا سيما أن الآية التي تسبقها تتحدث حول ملكية الله وتحكمه في كل مجريات الحياة من إتيان الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال، وهي أيضاً تحمل معنى الدعاء والرغبة؛ لوجود الأفعال المضارعة في صيغة المخاطبة²، لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}³، بينما تأتي الجملة الاسمية "مُخْرِجِ"؛ لتدل على أنه أمر ثابت وراسخ في حقيقته، وهو لا يدل على اعتناء بالحدث ساعة فساعة؛ لأن الفعل مرتبط بزمن ما، والاسم على خلاف ذلك، فيقول الألوسي: إن لفظ الفعل يدل على أن الفاعل مُعْتَنٍ بالفعل في كل حين وأوان، وأما لفظ الاسم فإنه لا يُفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة، ويُرشد إلى هذا قوله تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}⁴ فقد ذكر فيه الرزق بلفظ الفعل؛ لأنه يُفيد أن الله يرزقهم حالاً فحالاً، وساعة فساعة، وبينما يرشدنا قوله: {وَكُلُّهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}⁵ فقد ذكر فيه الاسم؛ ولم يقل "يسط" مثلاً؛ ليفيد البقاء على تلك الحالة. وإذا ثبت ذلك يقال: لَمَّا كَانَ الْحَيُّ أَشْرَفَ مِنَ الْمَيِّتِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْاعْتِنَاءُ بِإِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَكْثَرَ مِنَ الْاعْتِنَاءِ بِإِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ؛ فلذا وَقَعَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ بصيغة الفعل "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ"، وَعَنِ الثَّانِي بصيغة الاسم "مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ"؛ تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي⁶.

ويشير ابن عاشور إلى أن افتتاح الآية في الموضع الثاني بـ"إِنَّ" في قوله "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى" ينسجم مع سياق التوكيد لها ولما بعدها على الرغم من أنه لا أحد يُنكر أن الله هو فاعل الأفعال المذكورة هنا⁷.

¹ نتحدث هنا حول حقيقة التركيبين دون الخوض في تعليقات المفسرين بمقصود الإخراج، ومعنى الميت والحي. للتوسع انظر: ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 3: 68-70.

² ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 3: 68.

³ القرآن الكريم، آل عمران: 26.

⁴ القرآن الكريم، فاطر: 3.

⁵ القرآن الكريم، الكهف: 18.

⁶ الألوسي، روح المعاني، 4: 598.

⁷ ابن عاشور، التحرير والتلوين، 7: 387.

كما أنه قد جيء بالجملة الاسمية في هذه الآية للدلالة على سياق ثبات هذا الوصف؛ لأنه وصفت ذاتي لله، وهو وصف الفعل أو وصف القدرة وتعلقها في مصطلح من لا يثبت صفات الأفعال، ولما كان المقصود الاكتفاء بدلالة فلق الحب والنوى على قدرة الله على إخراج الحي من الميت، والانتقال من ذلك إلى دلالة على إخراج الحي من الميت في البعث، لم في هذا الخبر بما يقتضي الحصر إذ ليس المقام مقام القصر¹.

ثم يُضيف ابن عاشور، مُعقِّباً على حقيقة الفرق بين جملة: "يُخرجُ الحي من الميت" وجملة: "يُخرجُ الميت من الحي" أنه جيء بالجملة الفعلية؛ للدلالة على أن هذا الفعل - فعل إخراج الحي من الميت - يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مراد معلوم، وليس على سبيل المصادفة والاتفاق. بينما جيء بالجملة الاسمية - دون أن تكون بصيغة الفعل "يُخرج" - لأن "يُخرج" اسم يدل على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أن كلا الفعلين متجدد ثابت، أي كثير وذاتي، وذلك لأن أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه² فكان في الأسلوب شبه الاحتباك³.

ويرى أبو حيان الأندلسي أن جملة "يُخرجُ الميت من الحي"⁴ معطوفة على جملة "فالق الحب والنوى"، أي إن هناك اسم فاعل معطوفاً على اسم فاعل، وبالتالي لم يعطه على "يُخرج..."؛ لأن قوله "فالق الحب والنوى" من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأن التامي في حكم غير العاقل⁵، ألا ترى إلى قوله: {يُحيي الأرض بعد موتها}⁶ فوقع قوله: "يُخرجُ الحي من الميت من قوله: "فالق الحب والنوى" في سياق موقع الجملة المُبيّنة؛ فلذلك عطفت اسم الفاعل لا على الفعل؛ ولما كان هذا مفقوداً وغير موجود في سورة "آل عمران" - الموضع الأول - وتقدم

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7: 387.

² ن. م، 7: 389.

³ للاحتباك في النحو تعريفات كثيرة، منها ما عرّفه الزركشي بقوله: "أن يتجمع الكلام متقابلان، فيُحذف من كل واحد منهما مقابلته لدلالة الأخرى عليه". وقد عرّفه السيوطي بقوله: "أن يُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول". وعرّفه عبد الفتاح الحموز - من المعاصرين - بقوله: "أن يُحذف من الأول ما أثبت في الثاني، وأن يُحذف من الثاني ما أثبت في الأول". انظر: الزركشي، البرهان، 3: 129؛ السيوطي، معترك الأقران، عبد الفتاح الحموز، التأويل النحوي في القرآن الكريم، 1: 432.

⁴ لجملة "مخرج الميت من الحي" وجهان ذكرهما النحاة: وهما، أولاً: أنها معطوفة على "فالق الحب"، أي: "الله فالق ومخرج"؛ وبناءً على تكون الجملة التي تنوَسُطُهما "يُخرجُ الحي من الميت" على وجهه، وعلى كونه مستأنفاً يكون معترضاً على جهة البيان لما قبله من معنى الجملة. كما يُشير إلى ذلك السمين الحلبي وثانياً: أن تكون جملة "مخرج..." معطوفة على "يخرج" التي تسبقها. انظر: السمين الحلبي، الدر المصون، 5: 57.

⁵ استخدم أبو حيان كلمة "الحيوان" حينما قال: "...لأن التامي في حكم الحيوان..."، ويُفصّل بذلك غير العاقل؛ لهذا عدلت عن هذه الكلمة إعلانه؛ لما هو أكثر شهرة وتناسباً مع مصطلحات النحو العربي.

⁶ القرآن الكريم، الزوم: 50.

قبل ذلك جملتان فعليتان، وهما: "تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل" كان العطف بالفعل على أنه يجوز أن يكون معطوفاً وهو اسم فاعل على المضارع؛ لأنه في معناه، كقول الشاعر:

"بات يُعشّيهما بعضُ باتر يقصدُ في أسواقها وجائر"¹.

ومن اللافت أن الرّمخسري كان قد أرجأ الحديث حول هذا التّغاير بين الفعل والاسم² إلى الآية التي تليها: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا...} ³ على عدّها أنّها تتوافق مع السياق الذي يُظهر قدرة الله متروحةً بين صور نحوية فعلية، وبين صور نحوية اسمية، فقال: "فإن قلت: كيف يكون لليل محلّ والإضافة حقيقية، لأنّ اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضارع، ولا تقول: زئد ضارب عمراً أمس؟ قلت: ما هو في معنى المضارع، وإما هو دالّ على جعل مستمرّ في الأزمنة المختلفة، وكذلك "فالق الحبّ" و"فالق الإصباح"، كما تقول: الله قادرٌ عالمٌ، فلا تقصدُ زماناً دون زمان"⁴.

وبما يتزامن مع ذلك التقابل بين "المضارع" واسم الفاعل يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد أن هناك بعض الشواهد القرآنية التي تُبنى عن وجهتي الثبوت والحدوث في اسم الفاعل الذي يُقابل في إحدى تخرجاته النحوية الفعل المضارع، وذلك - على سبيل المثال - في قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} ⁵، حيث جاء الخبر اسم فاعل "ذائقة" وأضيف إليه "الموت"، وهي قراءة جمهور القراء⁶، بينما قرأ الزبيدي، وأبو حيوة، والأعمش، ويحيى، وابن أبي إسحاق، والمطوعي⁷ "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" بتووين الخبر المرفوع "ذائقة" وابتاع اسم الفاعل الذي عمِلَ الفعل بمفعول به منصوب بالفتح "الموت". ويأتي السؤال، ما الفرق بين القراءتين؟ وما علاقة ذلك بحقيقة الثبوت (الاستقرار) والحدوث (التجدد)؟

¹ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 4: 591-592.

² ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 681.

³ القرآن الكريم، الأنعام: 96.

⁴ الرّمخسري، الكشاف، 2: 112؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 5: 295.

⁵ القرآن الكريم، آل عمران: 185.

⁶ عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات (دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، 639.

⁷ الخطيب، معجم القراءات، 639.

إذا عُذْنَا إلى ما قاله النُّحاة في اسمِ الفاعلِ يتبيَّن لنا أنَّ سيبويه وابنَ مالِكٍ وعَبرُهُما يَرَوْنَ أنَّ لاسمِ الفاعلِ مقوِّماتٍ فعليةٍ على الرَّغمِ مِنْ كَوْنِهِ اسماً ويقبلُ علاماتِ الاسمِ كقبوله "ال" التعريفِ والتَّوْنين، ولكنَّهُ يُجْرَى مجرى الفعلِ المضارعِ في دلالتيهما- في الأصلِ- على الحالِ والاستقبالِ¹، وفي ذلك يقولُ سيبويه: "هذا ضاربٌ زيدًا غدًا"، فمعناه وعَمَلُهُ: هذا ضاربٌ يَضْرِبُ زيدًا غدًا، فإذا حَدَّثَتْ عَنْ فعلٍ في حينٍ وقوعِهِ غيرَ منقطعٍ كانَ كذلك"².

ويعرِّفُ ابنُ مالِكٍ "اسمَ الفاعلِ" على أَنَّهُ: الصِّفَةُ الدَّالَّةُ على صِفَةِ الحدثِ الجاريةِ في مطلقِ الحركاتِ والسَّكَناتِ على المضارعِ مِنْ أفعالها حتَّى في حالِّي التَّذْكِيرِ والتَّأْنِيثِ المفيدةِ لمعنى المضارعِ أو الماضي"³.
، بَلْ نَجِدُ عِنْدَ بعضِ النُّحاةِ الكوفيِّينَ، وعلى رَأْسِهِمُ الفَرَّاءُ أنَّ "اسمَ الفاعلِ" فعلٌ دائمٌ، حيثُ يقولُ في معرضِ تفسيرِهِ لآيةٍ: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ}⁴: "وإذا كانَ الفعلُ يَقَعُ على شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، مثلُ "كسَوْتُكَ التَّوبَ"، و"أَدْخَلْتُكَ الدَّارَ"؛ فابْدَأْ بإضافةِ الفعلِ إلى الرَّجُلِ، فتقولُ: هو كاسي عبدَ اللَّهِ ثوبًا ومُدْخِلُهُ الدَّارَ...؛ لأنَّ الفعلَ قَدْ يَأْخُذُ الدَّارَ كَأَخْذِهِ عبدَ اللَّهِ"⁵.

إِذَنْ، فاسمُ الفاعلِ اسمٌ مشتقٌّ يَدُلُّ على فاعلِ الحدثِ، وجرى مجرى الفعلِ في إفادةِ الحدثِ، فإذا قُلْتُ- مثلاً- "قارئٌ" دَلَّ هذا الاسمُ على أمرَيْنِ: الحدثُ وهو القراءةُ، والفاعلُ وهو الَّذي يَقُومُ بالقراءةِ⁶. وهذا ما أَكَّدَهُ مصطفى الغلاييني، بشكلٍ لافِتٍ ومثيرٍ في الوقتِ نفسِهِ، على أنَّ اسمَ الفاعلِ هو في الأساسِ صِفَةٌ تُؤْخَذُ مِنَ الفعلِ المعلومِ؛ لِتَدُلَّ على معنى وقعَ مِنَ الموصوفِ بها أو قامَ بها على وَجْهِ الحدثِ لا التَّبَوُّتِ⁷.

¹ يرى عبد الصبور شاهين أنَّ اسمَ الفاعلِ هو وصفٌ مأخوذٌ من فعلٍ مضارعٍ أساساً، وهذا الوصفُ يدلُّ على حدثٍ وزمنٍ، كما أنَّ دلالتَهُ على الزَّمنِ ترتبطُ بالحالِ والمستقبلِ، وهذا هو، في الحقيقةِ، زَمَنُ المضارعِ، فكلاهما يدلُّ على الاستمرارِ. انظر: عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980)، 114.

² سيبويه، الكتاب، 1: 164.

³ ابن مالِك، تسهيل الفوائد، 136.

⁴ القرآن الكريم، إبراهيم: 47.

⁵ الفراء، معاني القرآن، 2: 97.

⁶ محمود سليمان ياقوت، الصَّرفُ التَّعليميُّ والتَّطْبِيقُ في القرآن الكريم (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1992)، 104.

⁷ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، 1: 182.

وتُجْمِلُ الباحثةُ صفيةَ مطهري أنَّ اسمَ الفاعلِ هو - من جهةٍ - اسمٌ؛ لتلويناته بمختلفِ علاماتِ الأسماءِ، وهو - من جهةٍ ثانيةٍ - فعلٌ؛ لأنَّه يشبهُ في دلاليتهِ الفعلَ المضارعَ؛¹ ولأنَّه يدلُّ على معنى الحالِ أو الاستقبالِ، كما يدلُّ - أي اسمَ الفاعلِ - على الزَّمنِ الماضي؛ فإنَّ كانَ للماضي وَجَبَتِ الإضافةُ.²

وتؤكدُ الباحثةُ صفيةَ المطهري أنَّ اسمَ الفاعلِ في هذه الآية "ذائقة" يدلُّ على وَصْفِ الفاعلِ بالحدثِ، وهذه الدلالةُ هي المعنى الصَّريحُ لاسمِ الفاعلِ بصفةٍ عامَّةٍ، فالوظيفةُ الأساسيَّةُ المنوطةُ به كذلك على سبيلِ الحدوثِ والتَّجددِ، وهذا حينَ يدلُّ على الحالِ أو الاستقبالِ. أمَّا إذا دلَّ على الماضي فهو مثلُ الأسماءِ يكونُ مضافاً؛ وبالتالي تُستَشَفُّ هذه الدلالاتُ وغيرها من السِّياقِ، وبخاصَّةٍ حينَ ينبوُ عن بعضِ المشتقاتِ ويأخذُ دلالاتها³.

إذن، يمكنُ أن نفهمَ ونتفهَّم، من خلالِ هذا المثالِ، تصوُّرَ النُّحاةِ الكوفيَّينَ في نظرتهم إلى الفعلِ المضارعِ، إذ سُمِّيَ الفعلُ المضارعُ عندهم بالفعلِ الدائمُ؛ مراعاةً لإحياءاته الدلالية التي يُحدِّدها الاستعمالُ في السِّياقِ⁴.

8. 3. الحذفُ وسياقاته الإضمارية:

أولَى النُّحاةُ ظاهرةَ الحذفِ⁵ أهميَّةً كُبرى وعنايةً فائقةً؛ حتَّى باتَ كأنَّ الحذفَ أو "التَّقديرَ" هو جوهرُ الدِّرسِ النَّحويِّ ومَعْقِدُهُ، به يتفاضلونَ، وفي معرفتهِ يتنافسونَ، فأقدَرُهُم على استشفافِ مواطنِ الحذفِ، وتحديدِ مواضعِهِ كانَ أَرْسَحَهُم قَدَمًا في بابِ العِلْمِ بالعربيَّةِ. بل لولاهُ - كما يقولُ تمام حسان - لَمَّا كَانَتْ بالتَّاطِقِ حاجةٌ إلى جهودِ النُّحاةِ، وَلَتَيَسَّرَ على النَّاسِ فقهُ العربيَّةِ دونَ اتِّكالٍ على صنيعِ أولئك النُّحاةِ، إلى درجةٍ أنَّه قيل: "لولا التَّقديرُ - تقديرُ الكلامِ أي الحذفُ - لَفَهَمَتِ النَّحْوُ الحَمِيرُ"⁶. وإنَّ دَلَّ ذلك على شَيْءٍ فإمَّا يدلُّ على أهميَّةِ

¹ صفية مطهري، الدلالة الإيحائية، 183.

² الرضوي، شرح الكافية، 2: 199.

³ صفية مطهري، الدلالة الإيحائية، 184.

⁴ المخزومي، في النحو العربي، 119.

⁵ تدور مادة (ح، ذ، ف) (الحاء، والذال، والفاء) "حذفت يحذف حذفاً" حول إسقاط الشيء وحذفه منه قولهم: "حذفت الشعر إذا أخذت منه". جاء في أساس البلاغة: "حذفت ذنوب فرسه إذا قطع ذنبيه، وقرس محذوف الذنوب". والإسقاط أو القطع يعنيان أخذ جزء من الشيء والغاء. واصطلاحاً، كما يقول الزركشي، هو إسقاط جزء الكلام أو كله؛ لدليل، بمعنى أن الحذف يستلزم إسقاط جزء من الكلام لا يخل بالفهم، عند وجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية. انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، 3: 176؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 3: 102؛ الهاشمي، جواهر البلاغة، 102.

⁶ تمام حسان، البيان في روائع القرآن (القاهرة: عالم الكتب، 1993)، 206.

ظاهرة الحذف في الدرس التحويي من جهة، وإلى أن الحذف في ذاته يتطلب مزيداً في المعرفة اللغوية. وبالتالي، نلاحظ أن بعض النحاة يذهبون إلى تأكيد أن الحذف مجرد ذاته مقترن بفصاحة المتكلم، فكُلَّمَا كَانَ قَادِرًا عَلَى التعبير عَنِ الْمُرَادِ بِمفرداتٍ أَقَلٍّ وبلفظٍ غَيْرِ زَائِدٍ كَانَ الْكَلَامُ أَبْلَغَ وَأَفْصَحَ، فقالوا في ذلك "البلاغة الإيجاز".

ومن هنا نرى السيوطي يُشير إلى هذه الفكرة التحويية على أن الحذف¹ هو "جُلُّ مقصود العرب، وعليه مبني أكثر كلامهم"². ولعلَّ الشَّيْءَ اللَّافِتَ والمثير، في الوقت نفسه، أن السيوطي يربط بشكل وثيق بين مفهوم بعض أبواب النحو - كالضمير مثلاً لكونه ضميراً - وبين ظاهرة الحذف، فيقول: "ومن ثمَّ وَضَعُوا بابَ الضَّمَائِرِ؛ لِأَنَّهَا أَخْصَرُ مِنَ الظَّوَاهِرِ خصوصاً ضمير الغيبة؛ فَإِنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ أَسمَاءٍ كَثِيرَةٍ فَإِنَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾³ قَامَ مَقَامَ عَشْرِينَ ظَاهِرًا؛ وَلِذَا لَا يُعَدَّلُ إِلَى الْمُنْفَصِلِ مَعَ إِمْكَانِ الْمُتَّصِلِ، وَبَابُ الْحَصْرِ بِ"إِلَّا" و"إِنَّمَا" وَغَيْرِهِمَا؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ فِيهِ تَنَوُّبُ مَنَابٍ جَمَلَتَيْنِ، وَبَابُ الْعَطْفِ؛ لِأَنَّ حُرُوفَهُ وَضِعَتْ لِلإِغْنَاءِ عَنْ إِعَادَةِ الْعَامِلِ، وَبَابُ الشَّيْءِ وَالْجَمْعِ؛ لِأَنَّهَا أَغْنَتْ عَنِ الْعَطْفِ، وَبَابُ التَّائِبِ عَنِ الْفَاعِلِ؛ لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى الْفَاعِلِ بِإِعْطَائِهِ حُكْمَهُ - وَعَلَى الْمَفْعُولِ بِوَضْعِهِ. وَبَابُ التَّنَازُعِ، وَبَابُ "عَلِمْتُ أَنَّكَ قَائِمٌ؛ لِأَنَّهُ مُنْحَلٌّ لِاسْمٍ وَاحِدٍ سَدَّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ، وَبَابُ طَرَحِ الْمَفْعُولَيْنِ اخْتِصَارًا عَلَى جَعْلِ الْمُتَعَدِّي كَاللَّازِمِ، وَبَابُ النَّدَاءِ؛ لِأَنَّ الْحَرْفَ فِيهِ نَائِبٌ مَنَابٍ "أَدْعُو" و"أُنَادِي"، وَأَدَوَاتِ الْإِسْتِفْهَامِ وَالشَّرْطِ، فَإِنَّ: "كَمْ مَالُكَ؟ يُغْنِي عَنْ قَوْلِكَ: أَهْلٌ عَشْرُونَ أَمْ ثَلَاثُونَ؟ وَهَكَذَا إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى"⁴ - عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ.

ويُشير سَلَمَةُ الصُّحَارِي أَنَّ الْحَذْفَ حَذْفَانِ: حَذْفُ بَعْضِ الْكَلَامِ، وَحَذْفُ بَعْضِ الْحُرُوفِ؛ إِيْجَازًا وَاسْتِغْنَاءً بِمَا بَقِيَ مِنْهُ عَمَّا حُذِفَ. وَهُوَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ؛ بَلْ إِنَّ الْعَرَبَ - وَهُوَ أَمْرٌ لَافِتٌ مَثِيرٌ فِي أَعْتَقْدُهُ - أَنَّهُ إِذَا اسْتَعْلَقَ عَلَيْهِمْ فَهْمٌ جَمْلَةً أَوْ تَرْكِيْبٍ فَإِنَّهُمْ يَلْجَأُونَ أَوَّلَ مَا يَلْجَأُونَ إِلَى الْحَذْفِ، نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، أَيْ: أَلَا يَا هَؤُلَاءِ اسْجُدُوا⁵، فَحَذَفَ هَؤُلَاءِ، وَأَبْقَى "يَا"، ثُمَّ أَدْمَجَ حَرْفَ "ي" مِنْ "يَا" مَعَ الْفِعْلِ

¹ عَزَّ السَّيُّوْطِيُّ عَنِ الْحَذْفِ بِمِصْطَلَحِ "الْإِخْتِصَارِ" أَيْضًا.

² جَلَالُ الدِّينِ السَّيُّوْطِيُّ، الْأَشْبَاهُ وَالنِّظَائِرُ فِي النَّحْوِ (بَيْرُوت: الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّة، 1999)، 1: 38.

³ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْأَحْزَابُ: 35.

⁴ السَّيُّوْطِيُّ، الْأَشْبَاهُ وَالنِّظَائِرُ فِي النَّحْوِ، 1: 38-39.

⁵ الصُّحَارِي، كِتَابُ الْإِبَانَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، 1: 152.

اسْجُدُوا بَعْدَ حَذْفِ أَلِفِ حَرْفِ النَّدَاءِ "يا". لهذا نرى ابنَ جَنِّي يُجْمِلُ ما يُحْذَفُ في الكلام، فيذكرُ بأنَّ العربَ حَذَفَتِ الجُمْلَةَ والمفردَ والحرفَ والحركة¹. وَمِنْ اللَّافَةِ أَنْ نُشِيرَ هُنَا أَنَّ الباحِثَ أحمدَ عفيفي يُتابعُ كلامَ ابنِ جَنِّي ويتوصَّلُ إلى نتيجةٍ مفادُها أَنَّ الحذفَ ما هو إِلَّا نوعٌ في "التخفيفِ" مِنَ الثَّقَلِ التَّطْقِيّ لِلْفُظِّ، أو التَّخْفِيفِ مِنَ عناصرِ الجُمْلَةِ في حالِ طولها².

وَمِنْ ثَمَّ، فَقَدْ ارتكزتُ فكرةُ الحذفِ عندَ اللُّغَوِيِّينَ العربِ على أَنَّ كلامَ العربِ بُنيَ على الإيجازِ أصلاً؛ فَكَثُرَ فِيهِ الحذفُ. وأشارَ ابنُ جَنِّي إلى أَنَّ الحذفَ يُنبئُ عَن شِجَاعَةِ العَرَبِيِّ في كلامِهِ، وهذا ما نجدُهُ عندما عَقَدَ باباً خاصّاً في أهمِّ كتبه "الخصائص" سَمَّاهُ "بابٌ في شِجَاعَةِ العَرَبِ" افْتَتَحَهُ بالحذفِ وَأَسْهَبَ فِيهِ الحديثَ، فَقَدْ قَالَ: اعْلَمْ أَنَّ معظمَ ذلكَ إمَّا هو الحذفُ، والزِّيادَةُ، والتَّقْدِيمُ، والتَّأخِيرُ، والحملُ على المعنى، والتَّحْرِيفُ...³.

والغريبُ - فيما أراه - أَنَّهُ على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الأصلَ - عِنْدَ النُّحَاةِ - أَنْ يَرَدَ الكلامُ بِعَرِّ حَذْفٍ وَأَنَّ الحذفَ فَرْعٌ عَنْهُ - كما يُشِيرُ كَثِيرٌ مِنَ النُّحَاةِ - إِلَّا أَنَّ الواقعَ خَالَفَ تصوُّراتَهُمِ النَّظَرِيَّةَ، فَمِمَّا لا شكَّ فِيهِ أَنَّ ظاهرةَ الحذفِ في النَّحْوِ العَرَبِيِّ تمتدُّ على مساحاتٍ واسعةٍ مِنَ الأبوابِ النَّحْوِيَّةِ، فلا نَكادُ نَلْجُ باباً نحويّاً إِلَّا يحوي في ثناياه مَسْئَلَةً مِنَ مسالكِ الحذفِ أو التَّقْدِيرِ أو التَّأْوِيلِ أو الإِضْمَارِ أو الإِيجازِ أو الاختصارِ، أو الاستِئثارِ، أو الاستِغناء، وهي تَسْمِيَّاتٌ تَشَعَّبَتْ على جَبْهَةٍ شاسعةٍ مِنَ المصنِّفاتِ اللُّغَوِيَّةِ⁴، قديماً وحديثاً، وإنَّ دَلَّ ذلكَ على شيءٍ فإمَّا يدلُّ على العنايةِ البالغةِ الفائقةِ الَّتِي أَوْلَاهَا النُّحَاةُ دَرَسَهُمِ اللُّغَوِيِّ، على رَأْسِهِم سيبويه. وهذا - أيضاً - ما يُؤَيِّدُهُ ابنُ الأنباريِّ بِأَنَّ الحذفَ في كلامِ العربِ؛ لِدَلَالَةِ الحالِ وكثرةِ الاستعمالِ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى.

فلا عَجَبَ، إذن، أَنْ نَلْحَظَ عبدَ القاهرِ الجرجانيِّ وهو يَنْعُثُ الحذفَ على أَنَّهُ "دقيقُ الْمَسْئَلِ، لطيفُ المآخِذِ، عجيبُ الأمرِ، شبيهٌ بالسَّحَرِ، فَإِنَّكَ تَرى به تَرَكَّ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ، والصَّمْتُ عَنِ الإِفَادَةِ أَزِيدَ للإِفَادَةِ، وتحدُّك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تُبَيِّنْ"⁵.

¹ ابن جَنِّي، الخصائص، 2: 243.

² أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1996)، 217.

³ ابن جَنِّي، الخصائص، 2: 360.

⁴ على سبيل المثال، أَفَرَدَ ابنُ فارسُ باباً أسماهُ: "باب الحذف والاختصار"، جاءَ فِيهِ: "... وَمِنْ سننِ العربِ الحذفُ والاختصارُ، يقولون: "والله أَفْعَلُ ذاك"، يريدون: لا أَفْعَلُ، ومنه {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ} (القرآن الكريم، يوسف: 82)، وأرادَ أهلُها. انظر: ابن فارس، الصَّاحِبِيُّ، 156.

⁵ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 146.

إِذَنْ، أَنْطَلِقُ مِنْ رُؤْيَا هَامَّةٍ لظاهرة الحذف - قَدْ لَا تَبْدُو لكَثِيرٍ مِنَ الْبَاحِثِينَ لَا سِيَّما فِي بَحْثِ السِّيَاقِ التَّحْوِيّ المتعلّق بالحذف - ولهذا يذهبُ بعضُ النُّحاةِ أَنَّ فِي ظاهِرةِ الحذفِ اتِّساعاً دَلَالِيّاً نَثْراً، يُنْبِخُ الْمَجَالَ أَمَامَ الْمُتَلَقِّي - قَارِئاً كَانَ أَوْ سَامِعاً - لِيَتَعَدَّدَ الْأَوْجُهَ والاحتمالات؛ لِمَا يَحْمِلُهُ الحذفُ - بِكُلِّ تَحْلِيلِيَّةٍ - مِنْ تَكثِيفٍ فِي الْأَلْفَاظِ والمفرداتِ الْمُخْتَزَنَةِ فِي ذَاكِرَةِ الْقَارِئِ وَذَهْنِهِ. وَكَأَنَّ الْأَصْلَ فِي نِتَاجِ الحذفِ هِيَ تِلْكَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظُ الْمَرْكُوزَةُ فِي الدَّائِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ لِكُلِّ فَرْدٍ، وَلِكُلِّ صَاحِبِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَتَصْدُرُ الْأَلْفَاظُ تَرْجُمَةً لِمَا يَضُمُّهُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ مِنْ مَعَانٍ وَدَلَالَاتٍ، وَثَاوِيّاً - الْعَقْلُ - وَرَاءَهُ سِيَاقَاتٍ وَقِرَائِنَ، وَلِكَأَنَّ الْجَمْلَ الْمُتَحَدِّثَ بِهَا تَمَرُّ فِي عَمَلِيَّةٍ تَرْشِيحٍ وَاخْتِزَالٍ تَزْدَادُ كَثَافَةً كُلَّمَا تَمَاهَتْ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ طَرَفِي اللَّغَةِ؛ الْمُرْسِلِ وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِ¹.

وَعَلَى جَانِبٍ آخَرَ، بِمَا يَتَعَلَّقُ بِ"شُرُوطِ الحذفِ وَسِيَاقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ"، يُظْهِرُ بَعْضُ النُّحَاةِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّ ظَاهِرَةَ الحذفِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَرْتَبُطُ بِدَلَالَتِ سَمَاعِيَّةٍ وَقِيَاسِيَّةٍ وَقِرَائِنَ حَالِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ يَعُودُ إِلَيْهَا النُّحَاةُ فِي تَقْدِيرِ الْمَحذُوفَاتِ النَّحْوِيَّةِ؛ وَلِذَلِكَ فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ مَا مِنْ حَذْفٍ إِلَّا وَفِيهِ دَلِيلٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِ، فَقَدْ اشْتَرَطُوا وَجُوبَ أَنَّ يَقُومَ عَلَى الْمَحذُوفِ دَلِيلٌ عِنْدَ حَذْفِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَهِيَ مَا يُسَمَّى بِ"ضَوَابِطِ التَّقْدِيرِ وَشُرُوطِهِ عِنْدَ النُّحَاةِ"، مَنْطَلِقِينَ مِنْ قَاعِدَةٍ مَفَادُهَا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الحذفُ جَزَافاً أَوْ عَبَثِيّاً، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ضَوَابِطٍ تُحَدِّدُهُ، وَإِنَّمَا عَدَّ النُّحَاةُ أَنَّ عَدَمَ الدَّلِيلِ عَلَى الْمَحذُوفِ فِي الْكَلَامِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْمِيَةِ وَالْإِلْغَاظِ، وَهُوَ أَمْرٌ مَذْمُومٌ فِي اللُّغَةِ. وَكَانَ ابْنُ هِشَامٍ - بِتَقْدِيرِي - مِنْ بَيْنِ أَكْثَرِ النُّحَاةِ الَّذِينَ عَالَجُوا قَضِيَّةَ الحذفِ، لَيْسَ بِكَمِيَّةِ الْمَادَّةِ بَلْ بِشُمُولِيَّةِ طَرَحِهَا، حَيْثُ

¹ مُحَمَّدٌ نُورُ الدِّينِ الْمَنْجَدُ، اتِّسَاعُ الدَّلَالَةِ فِي الْخُطَابِ الْقِرَائِنِيِّ (دمشق: دار الفكر، 2010)،

يذكر ثمانية شروط¹ للحذف، التي افتتحها بالسياق والقرائن الدالة على المحذوف في الجملة العربية². كما يُغلِّب الزركشي بأنَّ "من شروط الحذف أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف إمَّا من لفظه أو من سياقه، وإلَّا لم يَمَكَّنْ من معرفته فيصير اللفظ محلاً بالفهم"³.

ويبيِّن العلوي [669-749هـ، 1270-1348م] أنَّ الحذف يكون بما لا يُخلُّ بالمعنى، ولا يُنقص من البلاغة، بل لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام، ولا بُدَّ من الدلالة على ذلك المحذوف، فإن يكن هناك دلالة عليه فإنه يكون لغواً من الحديث⁴. ثمَّ يربط العلوي شروط الحذف بجانبين رئيسين من "منظومة الحذف" - إن جاز لي التعبير - وهما جانب الإعراب وجانب المعنى، إذ يقول: "...ويظهر المحذوف من وجهتين، أحدهما جهة الإعراب على معنى أنَّ الدالَّ على المحذوف هو من طريق الإعراب، وهذا كقولك: أهلاً وسهلاً؛ فإنه لا بُدَّ لهما من ناصب ينصبهما، وثانيهما: لا من جهة الإعراب، وهذا كقولك: فلان يُعطي ويمنع، ويصل ويُقطع⁵، فإنَّ تقدير المحذوف لا يظهر من جهة الإعراب، وإمَّا يكون ظاهراً من جهة المعنى"⁶.

في المقابل، اقترنت "شروط الحذف وسياقته بما يُسمَّى بـ"أغراض الحذف"، فقد اندفع كثير من النحاة إلى تبيان أغراض الحذف وتشكلاته الدلالية⁷، وبالتالي، هي تلك المنطقات التي تقف من ورائها علل الكلم من حذفٍ وتقدير، من هذه الأغراض: التخفيف والاختصار، والاتساع، المبالغة والتفخيم، والتعظيم، قصد البيان بعد

¹ بيَّن ابن هشام ثمانية شروط للحذف، وهي: أولاً: وجود دليل حالي، كقولك لمن رفع سنوطاً "زيذا" بإضمار "اضرب"، ومنه قوله تعالى: {قالوا سلاماً} أي سلمنا سلاماً. أو وجود دليل مقالي، كقولك لمن قال: من أضرب؟ "زيذا"، ومنه قوله تعالى: {وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيرٌ}. وإمَّا يُحتاج إلى ذلك - كما يقول ابن هشام - إذا كان المحذوف الجملة بأسرها كما مثلنا، أو أخذ ركنها نحو قوله تعالى: {قال سلام قوم منكرون}، أي سلام عليكم أنتم قوم منكرون، فحذف خبر الجملة الأولى ومبتدأ الجملة الثانية. وبوسعنا أن نُجمل مفهوم الدلالة الحالية والمقالية بما قاله أبو البقاء الكفوي: "...فالمقالية: قد تحصل من إعراب اللفظ، وذلك كما إذا كان منصوباً فيعلم أنَّ له ناصباً، وإذا لم يكن ظاهراً لم يكن بُدَّ من التقدير، نحو: "أهلاً وسهلاً ومرحباً". والحالية: قد تحصل من النظر إلى المعنى، والعلم لا يتم إلا بمحذوف كما في قولنا: "فلان يخل ويربط"، أي يخل الأمور ويربطها. ثانياً: أن لا يكون ما يُحذف كالجزء، فلا يُحذف الفاعل ولا نائبه. ثالثاً: أن يكون مؤكداً، نحو: الذي رأيته زيداً أن يؤكد العائد المحذوف بقولك "نفسه"؛ لأنَّ العائد مريد للطول، والحذف مريد للاختصار. رابعاً: أن لا يؤدي حذفه إلى اختصار المختصر، فلا يُحذف اسم الفعل دون معموله؛ لأنه اختصار للفعل، وأما قول سيبويه في "زيذا فاقطله"، وفي "شأنك والحج" فإنَّ التقدير "عليك زيذا"، و"عليك الحج". خامساً: أن لا يكون عاملاً ضعيفاً، فلا يُحذف الجار للاسم، ولا الجازم والناصب للفعل. إلا في مواضع قويته فيها الدلالة وكثر فيها استعمال تلك العوامل، ولا يجوز القياس عليها. سادساً: أن لا يكون عوضاً عن شيء، فلا تُحذف "ما" في "ما أنت منطلقاً انطلقت". سابغاً وثامناً: أن لا يؤدي حذفه إلى تهينة العامل للعمل وقطعه عنه، ولا إلى إعمال العامل الضعيف مع إمكان إعمال العامل القوي، نحو منعه من رفع السمكة في قولنا: "أكلت السمكة حتى رأسها" إلا أن يُذكر الخبر فتقول: أكلت السمكة حتى رأسها مأكولاً.

² ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 692-703.

³ الزركشي، البرهان، 3: 127.

⁴ يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي، الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (بيروت: دار الكتب العلمية، 1980)، 2: 92.

⁵ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 119.

⁶ العلوي، الطراز، 2: 92.

⁷ الخطيب القزويني، الإيضاح، 219.

الإهام، كما هُوَ الأمرُ في فعلِ المشيئة، نَحْوُ قَوْلِهِ تعالى: {فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} ¹ أي "فلو شاء هدايتكم"، والتنبية على أَنَّ الزَّمانَ يتقاصرُ عَنِ الإتيانِ بالحدوفِ وَأَنَّ الاشتغالَ بذكرِهِ يُفْضِي إلى تفويتِ الهامِّ، وهذه هي فائدةُ بابِ التحذيرِ والإغراءِ وقد اجْتَمَعَا في قوله تعالى: {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} ²، والتخفيفُ لكثرةِ دَوْرَانِهِ في الكلامِ، نَحْوُ حَذْفِ حَرْفِ النَّداءِ، وَكَوْنُهُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ، نَحْوُ قوله تعالى: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} ³، ورعايةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ وَغَيْرُهَا مِنَ الأغراضِ الَّتِي سيقَ فيها الحذفُ ⁴.

وعلى الرِّغمِ مِنْ هذا، يَتَبَدَّى لنا أَنَّ سببِيَّه يجعلُ كثرةَ الاستعمالِ أقوى الأسبابِ، وفي ذلك يقولُ: "...وغير هذا؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كَثُرَ في كلامِهِمْ كَانَ لَهُ نَحْوٌ ليس لغيره مما هو مثله ألا ترى أَنَّكَ تقولُ: لم أَكْ ولا تقولُ لم أَقْ" ⁵.

ونلاحظُ، بشكلٍ لافِتٍ، أَنَّ ابنَ هشامٍ كَانَ قدَ أَعْرَضَ عَنْ تفصيلِ تلكَ الأغراضِ، ورأى أَنها مِنْ مهامِّ علماءِ البلاغةِ والبيانِ ولا تُلزمُ علماءَ النَحْوِ، فيقولُ: "...الحذفُ الَّذِي يُلْزَمُ النَّحْوِيُّ النَّظَرُ فِيهِ هُوَ مَا افْتَضَتْهُ الصَّنَاعَةُ، وذلكَ بأنَّ يَجِدَ خَبْرًا بدونَ مبتدأٍ أو بالعكسِ، أو شرطًا بدونَ جزاءٍ أو بالعكسِ، أو معطوفًا بدونَ معطوفٍ عليه، أو معمولًا بدونَ عاملٍ نحو {ليقولنَّ اللهُ}، ونَحْوُ {قالوا خَيْرًا} ... (إلى أَنْ يَصِلَ في قوله) .. وأما قولُهُم: يُحَذَفُ الفاعلُ لعظميَّته، وحقارةِ المفعولِ، أو بالعكسِ، أو للجهلِ به، أو للخوفِ عَلَيْهِ أو منه أو نَحْوُ ذلكَ، فَإِنَّهُ تَطَفُّلٌ مِنْهُمْ على صناعةِ البيانِ" ⁶. ولعلِّي أُؤَكِّدُ هنا أَنَّ ابنَ هشامٍ لم يَتَنَبَّهْ إلى أَنَّهُ بهذا الرَّأيِ قدَ يتصادمُ مَعَ ما دَكَرَهُ سابقًا، لا سيَّما لدى حديثِهِ عَنْ شروطِ الحذفِ، فما الدَّلَالُ والسِّيَاقَاتُ والقرائنُ إِلَّا متعاضدةٌ - برأْيي - بفوائدِ الحذفِ الأغراضِ الَّتِي سيقَتُ لأجلِهِ الجملُ والتراكيبُ.

مِنْ هنا، نَجِدُ أبا البقاءِ الكَفَوِيَّ يذهبُ - مِنْ وجهةِ نَظَرٍ تُخَالِفُ رَأْيَ ابنِ هشامٍ - إلى أَنَّ الإبحارَ في "فوائدِ الحذفِ" - كما يُسمِّيها هو - حَزَبٌ طريقٍ إلى "اللتذاذِ الذَّهنيِّ"، وإلى زيادةِ الأجرِ - على حَدِّ تعبيرِهِ، فيقولُ:

¹ القرآن الكريم، النحل: 9.
² القرآن الكريم، الشمس: 13.
³ القرآن الكريم، الحشر: 22.
⁴ مصطفى أبو شادي، الحذف البلاغي في القرآن (القاهرة: مكتب القرآن، 1992)، 149-151.
⁵ سببويه، الكتاب، 2: 196.
⁶ ابن هشام، المغني، 2: 748.

"..ومن جملة فوائد الحذف التّفخيم والإعظام لما فيه من الإبهام لذهاب الذّهن كلّ مذهبٍ فرجع قاصراً عن إدراكه، فيفيد ذلك تعظيم شأنه ويزيد في النّفس مكانةً وزيادةً لذّة استنباط الذّهن المحذوف، وكلّما كان الشّعور بالمحذوف أعسر كان الالتدّاد به أشدّ، وزيادة الأجر بسبب الاجتهاد في ذلك¹.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ علماء اللّغة المحدثين أضافوا إلى أغراض الحذف أثراً واضحاً وهو ما يُسمونه "التماسك النّصيّ" ترجمته عمليّة لنظرية "نحو النّص"²، حيثُ يستشرف المعنى الكلّي للنّص، ويحلّل أجزائه ومكوّناته على ضوء المنهج الشّموليّ للنّص، فالمعاني والأغراض تتحدّد من خلال النّص لا من خلال الجملة، فيتعامل معه بوصفه جملاً وسياقات، وظروفاً وفضاءات تتعلّق فيها المعاني وتترابط بما قبلها وما بعدها، ففي الحذف - الذي قد يُظنّ على أنّه نقصٌ وتفكّكٌ في تماسك الكلمات بعضها ببعض، تظهر أوجهُ التماسك بين وحدات النّص، وتكشف عن علاقات الرّبط التّحويّ، والترابط الدّلاليّ، وكذلك عن العلاقات الإحاليّة والإشاريّة، وعبرها من العلاقات المتمثّلة في مستوى الجمل من جهةٍ والمتجاوزة مستوى الجمل من جهةٍ أخرى³. وليكفي تحدّد ما يتحدّد عنه المتكلم بأسلوبٍ يشمل حذفاً وإضماراً، ينبغي ألاّ نتوقف عند حدود ما تقدّمه لنا الجملة فحسب، بل لا بدّ من الاهتمام بسياق التّلفّظ أو المقام؛ والتعرّف على حقيقة السياق الذي ورد فيه هذا الحذف؛ ذلك لأنّ التماسك هو الذي يُبرز خواصّ أيّ نظام للتّفكير سواء كان نظريّةً أو نصّاً⁴، وهذا يعني أنّ أجزاء هذا النّظام، بما فيه من حذف، لا بدّ من ترابطها الحميم فيما بينها - على حدّ تعبير صلاح فضل، الأمر الذي يقتضي أن تقوم بينها روابطٌ تمثّل شبكةً لضبط العلاقات القريبة والبعيدة، وهي خاصيّة دلاليّة للخطاب حيثُ تعتمد على فهم كلّ جملةٍ مكوّنة للنّص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى⁵.

¹ أبو البقاء الكفويّ، الكلّيات، 384.

² انظر في الفصل الثّاني بما يتعلّق بموضوع "نحو النّص".

³ أحمد عفيفي، نحو النّصّ والتحليل اللّغويّ (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1999)، 10.

⁴ في حين، أشار دافيد كريستال David Crystal إلى أنّ الحذف هو حذف جزء من الجملة الثّانية، يدلّ عليها دليل في الجملة الأولى، مثال ذلك: أين رأيت السيّارة؟ في الشارع، فالحذف من الجملة الثّانية "رأيتها". انظر: Crystal, The Cambridge Encyclopedia, 119.

⁵ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، 263.

وعلى غرار ذلك، يُبيّن الباحث محمد عبد اللطيف أنّ أهميّة "التماسك الحذبي" إنّما تبرز أيضاً في أنّ الكلام لا يكون مفيداً إذا كان مجتمّعاً بعضه مع بعضه الآخر دون ترابط¹. فالحذف، بطبيعة الحال، هو من أكثر عناصر التماسك النصّي شيوعاً، وهو "اعتدادٌ بـ"المعنى العدمي" على ما يُسمّونه Zero Morpheme، فالبنياث السطحيّة—كما يقول تمام حسّان في مقدّمة ترجمته—في النصوص غيّز مكتملة غالباً بعكس ما قد يبدو لمستعمل اللّغة العاديّ، ففي قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ...}² لا مَقَرَّ مِنْ فَهْم "شهد الملائكة وشهد أولو العلم"؛ بدليل ما في آخر الآية من قوله تعالى: {.. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}³، ولولا هذا الفهم لجعلنا الملائكة وأولي العلم آلهةً مع الله⁴.

أمّا بخصوص سياق الحذف في النصّ القرآنيّ، فالأمثلة على ذلك كثيرة، أذكر بعض النماذج منها، من أجل أخذ عيّنة محدّدة فقط، ففي قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}⁵، يظهر من خلال الآية أنّ كلمة "سلام" ورَدَتْ مرّةً منصوبةً "قَالُوا سَلَامًا" وورَدَتْ مرّةً مرفوعةً "قَالَ سَلَامٌ"، ويبيّن المفسّرون أنّ الذين قالوا هم الملائكة حينما جاءوا إلى النبيّ إبراهيم مُبَشِّرِينَ إِيَّاهُ بالولد⁶، فردّ عليهم بقوله "سَلَامٌ"، وراح المفسّرون يتساءلون ما دلالة النصّب والرفع في كلا السّلامين، وهما للوهلة الأولى قد يبدوان متشابهين؛ لأنّ الغرض مِنْهُمَا هو إلقاء التّحيّة فحسب؟

لقد سارع المفسّرون إلى تعليل هاتين الكلمتين من خلال تقدير المحذوف، فبيّن أبو حيّان الأندلسي أنّ "سَلَامًا" هي جملة فعليّة بتقدير "تُسَلِّمُ سَلَامًا" أو نُلقي عليك سَلَامًا، وهي الجملة تُفيد التّحوّل، بيّنما "سَلَامٌ" هي جملة اسميّة بتقدير "هذا سَلَامٌ" أو "عليكم سَلَامٌ"، وهي جملة تُفيد التّبوّت والاستقرار في المعنى⁷.

¹ محمد عبد اللطيف، بناء الجملة العربي، 74.

² القرآن الكريم، آل عمران: 18.

³ القرآن الكريم، آل عمران: 18.

⁴ دي بوجراند، النصّ والخطاب والإجراء، 34.

⁵ القرآن الكريم، هود: 69.

⁶ الزّمخشري، الكشاف، 2: 415؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5: 58.

⁷ أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 6: 179-180؛ الألوسي، روح المعاني، 7: 129.

وَيَبَيِّنُ خِلَالَ هَذَا أَنَّ السِّيَاقَ التَّحْوِيَّ فِي تَقْدِيرِ المَحْذُوفِ¹ يَعْتَمِدُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ أَرَادَ أَنْ يُحْيِيَ المَلَائِكَةَ بِتَحْيَةٍ أَقْوَى وَأَحْسَنَ، فَاسْتَعْمَلَ مَا هُوَ أَثْبَتُ فِي الكَلَامِ عَبْرَ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ²، وَلِهَذَا فَإِنَّ السِّيَاقَ سِيَاقَ تَعْظِيمٍ لَشَأْنِ المَلَائِكَةِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى}³، حُذِفَ المَفْعُولُ فَلَمْ يُذَكَّرْ، إِذْ إِنَّ الفِعْلَ "أَغْنَى" وَالفِعْلَ "أَقْنَى"⁴ - كَمَا يُشِيرُ الرَّمَحْشَرِيُّ هُمَا فَعْلَانِ مُتَعَدِّيَانِ يُلْزَمُهُمَا مَفْعُولٌ بِهِ⁵، وَقَدْ حُذِفَ المَفْعُولُ فِيهِمَا؛ لِأَنَّ الفَاعِلَ هُوَ اللهُ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ المَرَادَ هُوَ نِسْبَةُ هَذَيْنِ الفَعْلَيْنِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ - كَمَا يُوَكِّدُ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ⁶.

كَمَا يُوَكِّدُ أَبُو حَيَّانٍ الأَنْدَلُسِيُّ الأَمْرَ ذَاتَهُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ مُتَعَلِّقٌ (أَغْنَى) وَ(أَقْنَى) لِأَنَّ المَقْصُودَ نِسْبَةُ هَذَيْنِ الفَعْلَيْنِ لَهُ تَعَالَى، وَقَدْ تَكَلَّمَ المَفْسِّرُونَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالُوا انْتَبِ عَشْرَ قَوْلًا، كَقَوْلِهِمْ أَغْنَى نَفْسُهُ وَأَقْفَرَ خَلْقُهُ إِلَيْهِ⁷. وَإِنْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ سِيَاقَ الآيَةِ فِي الحَذْفِ يَتَّجُهُ إِلَى أَنَّ حَذْفَ المَفْعُولَيْنِ يَفِي بَغْرَضِ التَّعْظِيمِ مِنْ جِهَةٍ، وَبَغْرَضِ إِفْرَادِ الصَّفَةِ لِهَذَا وَحْدَهُ، لَا سِيَّمَا أَنَّ سِيَاقَ الآيَاتِ يَتَحَدَّثُ عَنْ قُدْرَةِ اللهِ عَلَى النَّاسِ.

وَيُشِيرُ فَاضِلُ السَّامِرَائِيِّ إِلَى أَنَّ عَدَمَ ذِكْرِ المَفْعُولِ هُنَا هِيَ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يَتَحَقَّقُ إِذْ ذُكِرَ، إِذْ كَثِيرًا مَا يَكُونُ عَدَمُ ذِكْرِهِ لِأَجْلِ التَّوَسُّعِ فِي دَلَالَةِ النَّصِّ الإِيْحَائِيَّةِ، فَلِتَكْمِلُ يَرِيدُ أَنْ يُثَبِّتَ لِلْمَمْدُوحِ مُطْلَقَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالصِّلَةِ وَالْقَطْعِ مِنْ دُونِ أَنَّ يَفْصُرَ الْقُدْرَةَ فِي كُلِّ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ مَخْصُوصٍ بِالدَّاتِ وَيَتْرَكَ الْبَابَ

¹ قَدَّرَ النَّحَاءُ لِكَلِمَةِ "سَلَامًا" تَقْدِيرَاتٍ كَثِيرَةً، فَأَعْرَبَتْ إِعْرَابَاتٍ عَدَّةً، مِنْ هَذِهِ الإِعْرَابَاتِ: 1- مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ، بِمَعْنَى أَنَّهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، بِتَقْدِيرِ: "قَالُوا نُسَلِّمُ سَلَامًا"، أَوْ نَائِبٌ عَنِ الْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ، بِتَقْدِيرِ: "قَالُوا قَوْلَ سَلَامٍ"، وَفِي كُلِّ الْحَالَتَيْنِ، هُمَا مَصْدَرٌ جِيءَ بِهِ؛ مِنْ أَجْلِ تَوْكِيدِ السَّلَامِ وَالتَّحْيَةِ؛ لِأَنَّ الْمَفْعُولَ الْمَطْلُوقَ - كَمَا يُعْرَفُهُ النَّحَاءُ - مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ مِنْ لَفْظِ الْفِعْلِ؛ جِيءَ بِهِ؛ لِيُؤَكِّدَ الْفِعْلَ، أَوْ يُبَيِّنَ فِعْلَهُ، أَوْ عِنْدَهُ. 2- مَفْعُولٌ لِلْفِعْلِ "قَالُوا" عَلَى أَنَّهُ حِكَايَةٌ لِمَعْنَى مَا قَالُوا لَا حِكَايَةٌ لِلْفِظِ. 3- مَفْعُولٌ بِهِ عَلَى مَعْنَى التَّضْمِينِ، أَوْ حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى، أَيْ إِنَّ الْفِعْلَ "قَالُوا" تَعْنِي "ذَكَرُوا"؛ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: "ذَكَرُوا سَلَامًا". كَمَا قَدَّرُوا لِكَلِمَةِ "سَلَامٍ" الْمَرْفُوعَةَ تَقْدِيرَاتٍ كَثِيرَةً، فَأَعْرَبَتْ وَفَقَّأ إِلَى ذَلِكَ إِعْرَابَاتٍ مُخْتَلِفَةً، أَهْمُهَا: 1- مُبْتَدَأٌ لَخْبَرٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: "سَلَامٌ عَلَيْكُمْ". 2- خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: "هُوَ سَلَامٌ"، أَوْ "هَذَا سَلَامٌ"، أَوْ "أَمْرِي سَلَامٌ"، أَوْ "أَمْرُكُمْ سَلَامٌ"، أَوْ "جَوَابِي سَلَامٌ"، أَوْ "قَوْلِي سَلَامٌ". انْظُرْ: الْعَكْبَرِيُّ، التَّنْيِيزُ، 1: 542؛ الرَّجَّاحُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ، 3: 60؛ الأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْمَعَانِي، 7: 129.

² انْظُرْ إِلَى مَا عَرَضْتُ لَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ تَحْتَ عِنَاوَانِ: الْجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ وَالْفِعْلِيَّةُ بَيْنَ الثَّبُوتِ وَالْحَدُوثِ.

³ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، النَّجْمُ: 48.

⁴ أَقْنَى أَيْ أَكْسَبَهُ مَالًا وَجَعَلَهُ غَنِيًّا. وَيَقُولُ الطَّبْرِيُّ: أَقْنَاهُ، أَيْ جَعَلَ لَهُ قُنْيَةً أَصُولَ مَالٍ. وَيُؤَكِّدُ الرَّازِيُّ أَنَّ "الإِقْنَاءَ فَوْقَ الإِغْنَاءِ"؛ لِأَنَّ الإِغْنَاءَ هُوَ الْكَفَايَةُ وَعَدَمُ الْحَاجَةِ، بَيْنَمَا الإِقْنَاءُ هُوَ إِكْسَابُ الزِّيَادَةِ فِي الْمَالِ. انْظُرْ: الطَّبْرِيُّ، جَامِعُ الْبَيَانِ، 7: 156؛ الرَّازِيُّ، مِفَاتِيحُ الْغَيْبِ، 30: 23؛ الْبِيضَاوِيُّ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ، 5: 162.

⁵ الرَّمَحْشَرِيُّ، الْكَشَافُ، 4: 34.

⁶ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، الذَّرِّ الْمَصُونُ، 10: 106.

⁷ أَبُو حَيَّانٍ الأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ، 8: 168-169.

مفتوحاً أمام المتلقي للتوسّع في الدلالة الإيحائية للنص¹. وفي هذا يقول الجوّاري: "والحقُّ أنّ ورود الفعل المستحق للمفعول بلا مفعول إنما يكون مقصوداً به إطلاق الفعل في كل ما يسمح المقام بتصوره مفعولاً لذلك الفعل دون النص على اسم بعينه ... إنّ هذا الأسلوب في الاستغناء عن الفاعل أو المفعول والاكتفاء بالفعل يدلُّ على أن الفعل وحده قد يكون وافر الدلالة واسع المعنى بحيث يقوم وحده مقام التركيب بطريقه²، ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ}³.

وفي قوله تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ}⁴، يأتي التقدير في نصب "خَيْرٌ" على أنه مفعول به للفعل "أَنزَلَ"⁵، والتقدير: "أَنزَلَ خَيْرًا"⁶. ونلاحظُ الرّخشيّ يتحدّث حول سياق الحذف هذه الآية مقارناً إياها بسياق حذف في آية تسبقها، وهي: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}⁷ ومسائلاً: "فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول، أي نصب "قالوا خيراً"، ورفع "قالوا أساطير الأولين"؟ فيؤكّد أنّ السياق متعلّق في الفصل بين جواب المُقرّر وبين جواب الجاحد؛ فالحذف في "قالوا خيراً" يأتي في سياق أنّ المتحدّثين لم يتلّعثموا وأطبّقوا الجواب على السؤال بيّناً مكشوفاً، مفعولاً للإنزال⁸، فقالوا خيراً، بيّناً عدل أولئك بالجواب عن السؤال، فقالوا: "هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء"⁹.

ويضيف ابن عطية الأندلسي أنّ سياق الحذف في كلا الموضعين إنما يأتي؛ من أجل أنّ يوجب لكل فريق ما يستحق؛ لتباين المنازل بين الكفر والإيمان¹⁰، فقد جاء جواب كلّ فئة منهم بحسب السؤال¹¹، وبحسب

¹ فاضل السامرائي، لمسات بيانية، 96.

² أحمد الجوّاري، نحو القرآن، 36.

³ القرآن الكريم، سورة النجم: 48.

⁴ القرآن الكريم، النحل: 30.

⁵ الألوسي، روح المعاني، 8: 180.

⁶ النسفي، مدارك التنزيل، 2: 203؛ البغوي، معالم التنزيل، 3: 67.

⁷ القرآن الكريم، النحل: 24.

⁸ السمين الحلبي، الدرّ المصون، 7: 214.

⁹ الرّمخشي، الكشف، 3: 579-578.

¹⁰ الشوكاني، فتح القدير، 3: 198.

¹¹ شيخ زاده، الحاشية، 5: 268-267.

ما هُمْ عَلَيْهِمْ¹. كما يربط القرطبي السياق في كلا الحالتين: "قالوا أساطير الأولين" و"قالوا خَيْرًا" بالإعراب، إذ إنَّ السياق مفهومٌ مِنْ حقيقة الإعراب في النَّصبِ الرَّفعِ².

ويذهبُ الباحثُ حيدر عبيد إلى أنَّ جملة "قالوا خَيْرًا" هي إشارةٌ إلى مسارعة المؤمنين إلى القول ما يُرضي الله، ولو قالوا- مثلاً- "أَنْزَلَ عَلَيْنَا كَذَا وَكَذَا مِنْ الْجَزَاءِ، لَمْ يَتَضَمَّنْ مِنَ الْإِشَارَةِ بِسُرُورِهِمْ بِهِ مَا تَضَمَّنَتْهُ قَوْلُهُمْ: خَيْرًا"³. وهذا يعني أنَّ سياق الحذف هنا يُفيدُ الإسراعَ مِنْ جهةٍ، وإجمالَ أنواع السُّرورِ بالخير، بَلْ جاءتْ كلمةٌ خَيْرًا نكرةً؛ كي تدلَّ على عموم الشيء لا على خصوصه.

ولعلِّي، بَعْدَ هذه التَّماذج، أَوْكِدُ حقيقةً هامَّةً، وهي أنَّ الحذفَ يستدعي في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ تأويلًا نحوياً، فعلى سبيلِ المثالِ، يختلفُ النَّحاةُ والمفسِّرونَ فيما يَبْنِهم في تأويلِ قَوْلِهِ تعالى: {أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ}⁴، وبالتالي في تأويلِ ما هو المحذوفُ الآيةَ، حَيْثُ يذهبُ البصريونَ- كما يذكرُ الأنباريُّ- إلى أنَّ إلى وجودِ "قَدْ" محذوفةٌ قَبْلَ الفعلِ الماضي "حَصْرَتْ"⁵؛ إِلَّا أَنَّهُمْ حَذَفَتْ تَوَافُقًا مَعَ المعنى وسياقه، إذ إنَّ "قَدْ" تُفيدُ تقريبَ الماضي مِنَ الحالِ، وهو ما أشارَ إِلَيْهِ ابنُ هشامٍ على أنَّ قولنا: "قَامَ زَيْدٌ" فيحتملُ الماضيَ القريبَ، والماضيَ البعيدَ، فَإِنْ قُلْنَا: "قَدْ قَامَ زَيْدٌ"؛ اخْتَصَّ ذَلِكَ بِالْقَرِيبِ⁶. ويُضيفُ المبرِّدُ أنَّ تأويلَ هذه الآيةِ إِنَّمَا يُحْمَلُ على معنى الدَّعاء، وهي لَيْسَ وَفْقَ ما ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّحاةِ، فيقولُ إِنَّمَا إِذَا قُرِئَتْ على الدَّعاءِ، كما تقولُ: لُعِنُوا وَقُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ"، وهو مِنَ الله إيجابٌ عَلَيْهِمْ⁷.

¹ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 8: 406.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5: 454؛ الألوسي، روح المعاني، 8: 180.

³ حيدر حسين عبيد، الحذف بين النحويين والبلاغيين (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2013)، 207.

⁴ القرآن الكريم، النساء: 90.

⁵ ابن الأنباري، الإنصاف، 1: 233.

⁶ ابن هشام، مغني اللبيب، 1: 172.

⁷ المبرِّد، المقتضب، 4: 121.

1. 8. 3. القول بـ: "لا حَذَفَ في اللّغة؛ فالسّياق هو الحاكم!"

لعلّ اللّافِت في موضوعنا هذا، أنّ ثَمَّةَ مَنْ يُنْكِرُونَ وجودَ حذفٍ في اللّغة العربيّة، وتعليّلهم في ذلك يستندُ على أنّ مفهومَ الحذفِ يُعَيَّرُ عَنْ حالاتٍ افتراضيّةٍ لا وجودَ لها في الأساليبِ العربيّةِ الفصيحةِ، فافتَرَضُوا وجودَ أفعالٍ مُضْمَرَةٍ متروكٍ استعمالها، وافتَرَضُوا وجودَ جملٍ فعليّةٍ أو اسميّةٍ قَدَرُوهَا¹ أجوبةً لشرطٍ أو قَسَمٍ، أو أخبارًا لمبتدآتٍ أو معطوفةً على كلامٍ سابقٍ².

فعلى سبيل المثال، يقولُ الباحثُ كريمُ الخالدي، في مَعْرِضِ حديثهِ عَنِ الحذفِ في البسملة: "...وقَدْ طَالَ جَدَلُ النّحَوِيِّينَ والمفسّرِينَ في دلالةِ (الباءِ) على الفعلِ الَّذِي يَقْدَرُونَهُ أو المبتدأ الَّذِي يَقْدَرُونَهُ في قولِهِ تعالى {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}³ قالوا: التّقديرُ "أَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ"، أو "بَدَأْتُ بِاسْمِ اللَّهِ" أو "أَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ"، وَأَضْمَرَ قَوْمٌ فِيهَا اسْمًا مَفْرَدًا على تقديرِ "ابتدائي باسم الله"، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ خبرًا للمبتدأ... فإذا قَدَرْتُ "أَبْدَأُ" يكونُ "باسم الله" في موضعِ نصبٍ مفعولًا بِهِ، وإذا قَدَرْتُ "ابتدائي باسم الله" يكونُ التّقديرُ "ابتدائي كائنٌ باسم الله"، ويكونُ في "باسم الله" ضميرٌ انتقلَ إِلَيْهِ مِنَ الفاعِلِ المحذوفِ الَّذِي هو الخبرُ في حقيقتهِ⁴.

ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ كَلَامَهُ مُسْتَشْهِدًا بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الرَّخْشَرِيُّ قَائِلًا: "...وَفَسَّرَهُ الرَّخْشَرِيُّ بِمَثَلِ ذَلِكَ قَائِلًا "فَإِنْ قُلْتُ بِمِ تَعَلَّقَتِ الْبَاءُ؟ قُلْتُ بِمَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ أو أَتْلُو؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتْلُو التَّسْمِيَةَ مَقْرُوءٌ كَمَا أَنَّ الْمَسَافِرَ إِذَا حَلَّ أوِ ارْتَحَلَ فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ والبركاتِ كَانَ الْمَعْنَى بِسْمِ اللَّهِ أَحِلُّ وباسمِ اللَّهِ ارْتَحِلُ وكذلك الدَّابِخُ. وكلُّ فاعِلٍ يَبْدَأُ فِي فِعْلِهِ بِبِسْمِ اللَّهِ كَانَ مُضْمَرًا مَا جَعَلَ التَّسْمِيَةَ مَبْدَأً لَهُ وَنَظِيرُهُ فِي حَذْفِ مَتَعَلِّقِ الْجَارِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ {فِي تَسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ} أَيُّ أَذْهَبَ فِي تَسْعِ آيَاتٍ، وكذلك قولُ العربِ في الدَّعَاءِ لِلْمَعْرِسِ بِالزَّفَاءِ وَالْبَنِينَ، وَقَوْلُ الْأَعْرَابِ بِالْيُمْنِ وَالْبَرَكَةِ⁵... ثُمَّ يُعَقِّبُ الْخَالِدِيُّ بِقَوْلِهِ: "...وَيُلَاحِظُ أَنَّ النصوصَ الَّتِي أَوْرَدَهَا الرَّخْشَرِيُّ⁶ تُؤَيِّدُ

¹ ليس هناك مجالٌ لتفصيل كلِّ هذه الأبواب والمسائل؛ بسبب مساحة الأطروحة المحددة.

² كريم الخالدي، البديل المعنوي من ظاهرة الحذف (عمّان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2007)، 9.

³ هناك خلافٌ بين الفقهاء والمفسرين في عَدِّ البسملة آيةً مِنْ آياتِ النَّصِّ القرآنيِّ، أو هي تُقالُ في مَفْتَحِ كُلِّ سُورَةٍ- ما عدا "النّوبة"- تَبَرُّكًا واستهلالًا، باستثناء آيةٍ واحدةٍ، وهي: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} (القرآن الكريم، النمل: 30)، حَيْثُ يُجْمَعُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا وَرَدَتْ دَاخِلَ السُّورَةِ ذَاتِهَا.

⁴ كريم الخالدي، البديل المعنوي من ظاهرة الحذف، 55.

⁵ الخالدي، البديل المعنوي، 55-56.

⁶ انظر: الرَّخْشَرِيُّ، الكشاف، 1: 26-28.

ما نذهب إليه - على أن إفادة السياق يُخصّص للمعنى المقصود بـ *يُسَرِّ* من غير تقدير¹ - وليس الحذف، لأنّ العربيّ الفصيح كان يقولها لأخيه العربيّ من غير تأويل فيفهمها السامع من غير تأويل، بل يستوحي من العلامات والحروف ما يدلُّه على المعنى المراد؛ لأنّها جزء من لغته المفهومة بالإشارة والإيحاء، لا بالتقدير والتأويل، فقوله: "إلى الطّعام" لا يحتاج إلى التقدير المزعوم²، بل هو كلام مفهوم يعرفه العربيّ بسليقته... وهذا الإيحاء ندركه من إرادة الافتتاح في قراءة آية سورة فلا ضرورة لذكر الفعل البتّة، ولا ضرورة لذكر المبتدأ (ابتدائي)؛ لأنّ المعنى واضح³.

ومن ثمّ يستشهد الخالدي بقول الزجاج لدعم رأيه، حيث قال الزجاج: "الجالب للباء معنى الابتداء، كأنّك قلتُ بدأتُ بسم الله الرحمن الرحيم إلّا أنّه لم يُحتج لذكر "بدأت"؛ لأنّ الحال تُنبئ أنّك مبتدئ"⁴. وفي موضع آخر يقترح الباحث كريم الخالدي أن يحلّ محلّ تقدير المحذوف السياق، فبعد أن عرّض لتقدير النحاة للمحذوف في قوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ}،⁵ حينما أعربوا "أَرَأَيْتُ" مبتدأ، ولم يعثروا على خبره؛ فأكد الخالدي أنّ عددًا من النحاة مال إلى تقدير المحذوف، وهو أمر افتراضي لا يصحّ - على حدّ قوله - بل نراه يستعين برأي الرضيّ حينما عبّ على إعراب هذه الآية: "...والنحاة تكلّفوا إدخال هذا أيضًا في حدّ المبتدأ الأوّل فقالوا إنّ خبره محذوف؛ لِسَدِّ فاعله مَسَدَّ الخبر، وليس بشيء، ولو تكلّفت له تقدير خبر لم يتأت" ⁶. ثمّ يعقب الخالدي على هذا الرّأي بقوله: "ألا ترى معي أنّ هذا الكلام المضىء في الدرس التحويّ لو سرى على الأبواب الأخرى فيما يُسمّى بالحذف لأراحونا من افتراضات أثقلت الفكر التحويّ، وليت الرضيّ أشاع مثل هذه النظرات المعنويّة في الدرس التحويّ، ولم يكتف بهذه الإشارات المقتضبة"⁷.

¹ الخالدي، البديل المعنوي، 48.

² على حدّ قول الخالدي.

³ الخالدي، البديل المعنوي، 56.

⁴ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 1: 39.

⁵ القرآن الكريم، مريم: 46.

⁶ الرضيّ، شرح الكافية، 1: 86.

⁷ الخالدي، البديل المعنوي، 60.

والأمثلة في عدم قبول تقدير الحذف كثيرة لدى كريم الخالدي، ولكي أود أن أُبين أنه يكشف لنا بشكل واضح أن ثمة تأثيراً بنظرية ابن مضاء، ولهذا نراه يقول في بداية كتابه: "وقد اتسع ميدان التقدير في هذه الأبواب وغيرها استناداً إلى هذا المبدأ¹ الذي هيمن على الفكر التحويلي زمنًا طويلاً حتى تنبّه ابن مضاء على أن هذا التقدير لا صلة له بالنطق العربي الفصيح²، قال³: "وهذه المضمرات التي لا يجوز إظهارها لا تخلو من أن تكون معدومة في اللفظ موجودة معانيها في نفس القائل، أو تكون معدومة في النفس كما أن الألفاظ الدالة عليها معدومة في اللفظ، فإن كانت لا وجود لها في النفس، ولا للألفاظ الدالة عليها وجود في القول فما الذي ينصب إذن؟ وما الذي يُضمّر؟ ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال، فإن قيل إن معاني الألفاظ المحذوفة موجودة في نفس القائل، وإن الكلام بها يتم، وإثما جزء من الكلام القائم بالنفس المدلول عليها بالألفاظ، إلا أنها حذفت الألفاظ الدالة عليها إيجازاً كما حذفت مما يجوز إظهاره إيجازاً لزم أن يكون الكلام ناقصاً، وأن لا يتم إلا بها؛ لأنها جزء منه، وزدنا في كلام القائلين ما لم يلفظوا به"⁴.

وكان فضل حسن عباس من أولئك الباحثين الذين عارضوا تأويلات النحاة في نظرتهم للحذف في النص القرآني، خاصة في بعض المواضع التي تكلف فيها النحاة تقديراتهم لاصطناع المحذوف، فيصرّح بأن القول بالحذف في مثل هذه المواضع القرآنية فيه إهمال للسبقي والمعنى، بل في تحويل لشأن النظم القرآني كذلك⁵، فقد مثل صاحب "البرهان"⁶ لهذا الحذف بقوله تعالى: { وَإِلَىٰ عَادِٰٓ أَخَاهُم هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ }⁷، قال الزركشي: والمعنى "فقال يا قوم"، ولكن - كما يتساءل فضل عباس - ما الدليل على هذه الفاء التي حذفت؟ ومن

¹ يقصد نظرية العامل والتقدير وغيرها من الأصول النحوية التي وصفها بـ "التصورات الشكلية"....

² الخالدي، البديل المعنوي، 17.

³ يعني ابن مضاء.

⁴ ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة (القاهرة: دار المعارف المصرية، 1982)، 17.

⁵ فضل حسن عباس، لطائف المثان وروائع البيان في نفي الزيادة والحذف في القرآن- دراسة بيانية لإعجاز القرآن الكريم ونظمه وأسلوبه (عمان: دار النفائس للنشر والتوزيع، 2010)، 269.

⁶ يقصد الزركشي.

⁷ القرآن الكريم، هود: 65.

العجب أن جعل الدليل ما جاء في آية أخرى {فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ} ¹؛ فالدليل على حذف حرفٍ من آية، ذكره في آية أخرى ².

في قوله تعالى: {صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ} ³ يردُّ فضل عباس على مَنْ يذهبُ إلى أنَّ هناك واوَيْنِ محذوفَتَيْنِ بتقدير: "صُمُّ وَبُكْمٌ وَعُمِيٌّ"، واستدلوا لذلك بموضع قرآنيٍّ آخر وهو: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ⁴، ولكنَّا إذا استعرضنا هذه الآيات التي جاءت فيها هذه الأوصاف، فإننا - كما يُبيِّنُ عباس - سنجد أنَّ هناك آيتين في سورة البقرة أحدهما في سياق المنافقين، وهي هذه الآية، والأخرى في سياق الكافرين وهي: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} ⁵. وسورة البقرة مدنيَّة كما نعلم، وهناك آيتان أخريان في سورتيْن مكيَّتيْن، إحداها الآية التي ذكرت سابقاً، والأخرى في سورة الإسراء، وهي: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا} ⁶؛ وإنما جاءت هذه آية "الإسراء" على هذا الترتيب مغايرةً من حيث نَظْمُهَا، إذ قُدِّمَ فيها ما أُخِّرَ في الآيات الثلاث، وما ذلك إلا لأنَّ الحديث فيها عن يوم القيامة، وهو حريٌّ أن تُقدِّمَ صفةُ العمى؛ لأنَّه أشقُّ ما يكونُ عليهم في ذلك اليوم ⁷. وأمَّا توسُّطُ حرفِ العطفِ بيْنَ هذه الصِّفاتِ فيأتي؛ لأنَّ الآية أرادت أن تُعَدِّدَ لنا أوصافَ الكافرين، فبعضُهم يُحْشَرُونَ عُمِيًّا، وبعضُهم بُكْمًا، وآخرون صُمًّا، إذ ليس المراد هنا جَمْعُ هذه الصِّفاتِ الثلاثِ لفئةٍ واحدةٍ. وأمَّا في آية "الأنعام" فقد دَهَبَ المفسِّرونَ إلى أنَّ "الواو" فيها للاستئناف، ومعنى هذا أنَّها تتحدَّثُ عَنِ الْمَكْذِبِينَ فِي الدُّنْيَا، وَيَرْوُونَ أَنَّ "الواو" إنما جاءت لِتَغَايِرِ الوُصْفَيْنِ، وإمَّا تَرَكَ فِيهَا الْعُطْفُ فِي غَيْرِهَا؛ لِنَكْتَةِ اقْتَضَتْ تَرَكَ الْعُطْفِ، وهو ما قرَّره الألوسي ⁸ دون أن يذكر لنا هذه النكتة التي اقتضت تَرَكَ الْعُطْفِ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ⁹.

1 القرآن الكريم، المؤمنون: 23.

2 فضل عباس، لطائف المنان وروائع البيان، 269.

3 القرآن الكريم، البقرة: 18.

4 القرآن الكريم، الأنعام: 39.

5 القرآن الكريم، البقرة: 171.

6 القرآن الكريم، الإسراء: 97.

7 عباس، لطائف المنان، 271.

8 أنظر: الألوسي، روح المعاني، 7: 147.

9 عباس، لطائف المنان، 271-272.

ثُمَّ يُعَقِّبُ فَضْلَ عَبَّاسٍ مُبَيَّنًا أَنَّ الَّذِي يَلُوخُ لَهُ بَعْدَ تَأْمُلٍ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا ذَكَرُوا، وَأَنَّ الْوَاوَ لَيْسَتْ لِلإِسْتِنَافِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلْعَطْفِ، وَيَسْتَدِلُّ لِذَلِكَ - بِسِيَاقِ الْآيَاتِ؛ وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا يَكُونُ الْعَطْفُ دَالًّا عَلَى تَغَايُرِ الذَّوَاتِ وَالْأَنْوَاعِ، لَا عَلَى تَغَايُرِ الصِّفَاتِ فَحَسْبُ، أَمَّا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ، فَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حَاجَةً إِلَى الْعَطْفِ فِيهِمَا؛ لِأَنَّ الْمَهْدَفَ هُوَ بَيَانُ أَنَّ أَوْلَئِكَ الْقَوْمَ لَمَّا لَمْ يَسْتَعْمِلُوا حَوَاسَهُمْ فِيمَا يَرْشُدُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، صَارُوا وَكَأَنَّهُمْ قَدْ حُرِمُوا هَذِهِ النَّعْمَ جَمِيعًا. وَهَكَذَا، يَرَى فَضْلَ عَبَّاسٍ أَنَّ مَا قَدَّرُوهُ مِنْ حَرْفٍ مَحْذُوفٍ لَا يَتَّفِقُ مَعَ طَبِيعَةِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ، وَدَقَّةِ الْمَعْنَى، وَسِيَاقِ الْأُسْلُوبِ¹.

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَنْتَقِدُ فَضْلَ عَبَّاسٍ هَؤُلَاءِ النُّحَاةَ وَالْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ حَذْفًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}²، وَهُوَ حَرْفُ الْجَزْرِ "إِلَى" بِتَقْدِيرِ الْجُمْلَةِ: "أَهْدِنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ"، وَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى مَوْضِعٍ آخَرَ: {وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}³، فَيُؤَكِّدُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَتَنَافَى مَعَ إِحْكَامِ الْأُسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ، وَمَعَ تَنَاسُبِ السِّيَاقِ، وَنَكْتَشِفُ أَنَّ الْفِعْلَ "أَهْدِ" إِذَا أُسْنِدَ إِلَى الذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ فَإِنَّهُ فِي أَكْثَرِ الْآيَاتِ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ⁴، فَلَا دَاعِيَ لِتَحْمِيلِ النَّصِّ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ، وَأَنْ تُبْعَدَ السِّيَاقُ وَرُوحَةُ عَنِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

9. 3. التَّنْكِيرُ وَالتَّعْرِيفُ وَاقْتِضَاءُ السِّيَاقِ:

يَكَادُ لَا يَخْلُو كِتَابٌ مِنَ الْكُتُبِ التَّحْوِيَّةِ مِنْ مَسْأَلَةِ التَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ⁵ بِمَسْمِيَّاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ كَالنَّكْرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَ"النَّكْرَةِ وَالْمَحَلِّيَّ بِالتَّعْرِيفِ"، وَ"النَّكَرَاتِ وَالْمَعَارِفِ"... وَغَيْرِهَا مِنَ التَّسْمِيَّاتِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْمُؤَلَّفَاتِ - قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا - لَمْ تُجْمَعْ عَلَى تَعْرِيفٍ وَاحِدٍ مُشْتَرَكٍ لظَاهِرِي التَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّ قِسْمًا مِنْ هَذِهِ الْمَصَادِرِ افْتَقَرَ إِلَى الْمَعَالِجَاتِ السِّيَاقِيَّةِ الَّتِي تُظْهِرُ حَقِيقَةَ الدَّلَالَةِ التَّحْوِيَّةِ لِلنَّكْرَةِ أَوْ الْمَعْرِفَةِ.

¹ عَبَّاسٍ، لَطَانِفِ الْمَنَانِ، 272.

² الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْفَاتِحَةُ: 6.

³ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الشُّورَى: 52.

⁴ عَبَّاسٍ، لَطَانِفِ الْمَنَانِ، 282-284.

⁵ بَدَأْتُ بِالتَّنْكِيرِ أَوَّلًا ثُمَّ بِالتَّعْرِيفِ عَلَى خِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ التَّحْوِيَّةِ؛ اِنْجَامًا مَعَ الْمَفْهُومِ الْمَعْرِفِيِّ (الْإِبِسْتِمُولُوجِيِّ) فِي أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ، أَيْ الْاسْمِ، أَنَّهُ نَكْرَةٌ ثُمَّ عُرِفَتْ.

ويُحيلُ الباحثُ كريمُ الخالدي أهميةَ مسألةِ "التنكير والتعريف" إلى أنَّ النُّحاة كانوا يُعْتَوْنَ بهذا الموضع عنايةً خاصَّةً في دراساتهم النُّحويَّة؛ مِنْ أَجْلِ تفسيرِ الأحكامِ النُّحويَّة، حتَّى غَدَتْ أقسامُ المعارفِ والنُّكراتِ، ومراتبُ التنكيرِ والتعريفِ كأنَّها أبوابُ نَحْوِيَّة تُقْصَدُ لذاتها كدراصة العِلْم، والضَّميرِ، والاسمِ الموصولِ، وأسماءِ الإشارةِ، والمعْرِفِ بـ"ال"، وَغَيْرِهَا مِنَ الموضوعاتِ الَّتِي ترتبطُ بالمعرفةِ والتَّنكِرة¹. ولعلَّ الباحثَ المتأخِّلَ - على حَدِّ قَوْلِهِ - يُدْرِكُ أنَّ هذه الموضوعاتِ افْتَضَتْهَا مباحثُ نَحْوِيَّة أُخرى، كالمبتدأ والخبرِ وأخبارِ التَّوَسُّخِ، والنَّداءِ، والحالِ والتَّمييزِ، والعددِ وتَمييزِهِ، وعَمَلِ المصدرِ أو اسمِ الفاعلِ أو المفعولِ أو الصِّفَةِ المشبَّهَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الموضوعاتِ النُّحويَّة الَّتِي تعتمدُ في دراستِها على معرفةِ التنكيرِ والتعريفِ، ولذا فَإِنَّ مسألةَ التنكيرِ والتعريفِ قرينةٌ تُعَيِّنُ على معرفةِ الأحكامِ النُّحويَّة، وتحديدِ مواقعِها، وعلاماتِ إعرابِها في ضَوْءِ معرفةِ معانيها².

إِنَّ الَّذِي يَنْفَخُصُ الكُتُبَ النُّحويَّةَ سيجدُ أنَّ كَلَامًا مِنَ المصطلحينِ، التنكيرِ والتعريفِ، يتداخلانِ فيما بينهما لا سيمًا في تعريفِ النُّحاةِ لهما، حيثُ يُعَرِّفُ الخليلُ بِنِ أَحْمَدَ التَّنْكِرةَ تعريفاً لغويًّا واصطلاحياً في آنٍ واحدٍ، فيقولُ إِنَّ "التَّنْكِرةَ نقيضُ المعرفة"³. ثُمَّ يعقبُهُ سيبويه بتعريفٍ على أَنَّ "الألفَ واللامَ، نحوَ "الرجل"، والفَرَسَ"، و"البعيرَ" وما أشبه ذلك، وإِنَّمَا صارَ معرفةً؛ لِأَنَّكَ أَرَدْتَ بِالْألفِ وَاللَّامِ الشَّيْءَ بَعِيْنَهُ دُونَ سَائِرِ أُمَّتِهِ، لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: مررتُ برجلٍ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا زَعَمْتَ أَنَّكَ مررتُ بواحدٍ مِمَّنْ يَقَعُ عَلَيْهِ هَذَا الاسمُ، لا تريدُ ما دَلَّ على شَيْءٍ غَيْرِ مَعْنَى فِي جَنَسِهِ لِلْمَخَاطَبِ"⁴.

ويذهبُ المبرِّدُ إلى أَنَّ الاسمَ المنكَّرَ "ما كانَ واقِعًا على شَيْءٍ مِنْ أُمَّتِهِ لا يَخْصُ واحدًا مِنَ الجنسِ دُونَ سَائِرِهِ"⁵، وفي المقابلِ يرى أَنَّ المعرفةَ هي "ما وُضِعَ على شَيْءٍ دُونَ ما كانَ مِثْلَهُ"⁶.

¹ كريم الخالدي، نظرية المعنى في الدراسات النُّحويَّة، 190-191.

² الخالدي، نظرية المعنى في الدراسات النُّحويَّة، 190-191.

³ الخليل، العين، 5: 355.

⁴ سيبويه، الكتاب، 2: 5.

⁵ المبرِّد، المقتضب، 4: 409.

⁶ ن. م، 3: 186.

ويُضَيَّفُ الرِّضِيُّ عنصرَي "الإشارة" و"الوضع" إلى كلا التعريفين، فيقول في تعريف النكرة إنها "ما لم يُشَرَّ به إلى خارج مختصَّ إشارةً وضعيَّةً"¹، وفي تعريف المعرفة على أنها "ما أُشِيرَ به إلى خارج مختصَّ إشارةً وضعيَّةً"². وعلى الرغم من كثرة التعريفات التي سَعَتْ إلى تحديد مفهوم النكرة والمعرفة في النحو العربي إلا أن جميعها - كما يؤكِّد السيوطي - لم تكن جامعة مانعة، فقال: "وقد أكثر الناس في حدودهما، وليس منها حدٌ سالمٌ"³. ولعلَّ ما يؤكِّد هذا الأمر هو ما ذهب إليه ابن مالك نفسه، فبعد أن قرَّع من تعداد المعارف بأنواعها المختلفة عرَّفَ النكرة بقوله: "والنكرة ما سوى المعرفة"⁴، وأعتقد إن دلَّ ذلك على شيءٍ فإنما يدلُّ على أن ابن مالك لم يجد - وفقاً لعلمه بالتعريفات التي سبَّقته - تعريفاً مناسباً يمكن أن يُعبرَ عن النكرة. ومع هذا، أستطيع القول إنَّ ابن كمال باشا كان من أكثر النحاة محاولةً لمقاربة تعريف النكرة والمعرفة، فبدأً بالمعرفة أولاً، ثمَّ بتعريف النكرة ثانياً، حيث يقول في المعرفة إنها "ما وُضِعَ؛ لِيُسْتَعْمَلَ في واحدٍ معيَّنٍ تعييناً شخصياً أو نوعياً بوضع جزئيٍّ أو كليٍّ، هي ستة أنواع بالاستقراء... إلخ"⁵، ويقول في النكرة إنها: "ما وُضِعَ لشيءٍ لا بعينه منقولاً أو مرتجلاً، مفرداً أو مركباً، اسماً أو لقباً أو كنيةً، موضوعاً لعينٍ أو معيَّنٍ، ولها مراتب أيضاً، بعضها أتمُّ من بعضٍ كما في قولنا: شيءٌ، وموجودٌ، وجسمٌ، وحيوانٌ، وإنسانٌ، ورجُلٌ..."⁶. ويبيِّن الباحث محمود نحلة من النحاة المحدثين أنَّ ثمة صعوبةً في تعريف النكرة والمعرفة؛ لأنَّ الأمر يتعلق بتفريعات كثيرة، ولأنَّ هنا حالاتٍ تخرج عن الأصل إلى الفرع، لقربنة السياق أو المقام، وهو ما حداً به - محمود نحلة - إلى اعتماد ثلاثة معايير دلالية للتكثير والتعريف، وهي:

¹ الرِّضِيُّ، شرح الكافية، 3: 352؛ ابن أبي الزبيع، البسيط في شرح جمل الزجاجي، 1: 300.

² الرِّضِيُّ، شرح الكافية، 3: 314.

³ السيوطي، همع الهوامع، 1: 188.

⁴ ابن مالك، شرح التسهيل، 1: 115.

⁵ ابن كمال باشا، أسرار النحو، 202-204.

⁶ ن. م، 204.

1. التَّعْيِينُ وَالشَّيْوَغُ: وهو العنصرُ الأساسيُّ عندَ جمهورِ النُّحاةِ في الحكمِ على تعريفِ الكلمةِ أو تنكيرِها، فالمعرفةُ: ما دَلَّ على معيَّنٍ في جنسِهِ، والتَّكْرَةُ: ما دَلَّ على شائعٍ في جنسِهِ. وهو ما وَرَدَ عِنْدَ سيبويه وَرَدَّه النُّحاةُ مِنْ بَعْدِهِ¹.

2. عِلْمُ الْمُخَاطَبِ: وهذا المِيعَارُ- كما يقول نَحْلَةُ- يَأْتِي فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ حَيْثُ اهْتِمَامُ النُّحَاةِ بِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَقْصُودًا عَنْدَهُمْ، فَقَوْلُهُمْ: مَا دَلَّ عَلَى مَعْيَّنٍ أَوْ غَيْرِ مَعْيَّنٍ، يَرِيدُونَ بِذَلِكَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُخَاطَبِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ، فَإِذَا كَانَ مَعْيَّنًا فِي ذَهْنِ الْمُخَاطَبِ فَهُوَ مَعْرُفَةٌ وَإِلَّا فَهُوَ نَكْرَةٌ، وَهُوَ مَا اَلْتَفَتَ إِلَيْهِ سيبويه بقوله: "وَأَمَّا صَارَ الْإِضْمَارُ² مَعْرُفَةً؛ لِأَنَّكَ إِذَا تُضْمِرُ اسْمًا بَعْدَ مَا تَعْلَمُ أَنَّ مَنْ يُحَدِّثُ قَدْ عَرَفَ مَنْ تَعْنِي وَمَا تَعْنِي، وَأَنَّكَ تَرِيدُ شَيْئًا يَعْلَمُهُ"³. وهذا يَدُلُّ- كما يُوَكِّدُ محمود نَحْلَةُ- عَلَى أَنَّ مَسْأَلَةَ التَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ هِيَ مَسْأَلَةُ نَسْبَةِ تَخْتَلَفُ مِنْ شَخْصٍ لآخر، فَمَنْ عَرَفَ شَيْئًا فَهُوَ مَعْرُفَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فِي عِدَادِ التَّكْرَاتِ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَهُوَ نَكْرَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَعَارِفِ الَّتِي حَدَّدَهَا النُّحَاةُ⁴.

3. الْإِشَارَةُ الْخَارِجُ: حَيْثُ لَمْ يُؤَلَّ النُّحَاةُ هَذَا الْمِيعَارَ اهْتِمَامًا وَاضِحًا، إِلَّا عِنْدَ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالرَّضِيِّ الَّذِي قَالَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّكْرَةَ: "مَا لَمْ يُشَرَّ بِهِ إِلَى خَارِجٍ مُخْتَصٍّ إِشَارَةً وَضَعِيَّةً"⁵، وَعَلَى أَنَّ الْمَعْرُفَةَ- بقوله-: "وَالْأَصْرَحُ فِي رَسْمِ⁶ الْمَعْرُفَةِ أَنْ يُقَالَ: مَا أُشِيرَ بِهِ إِلَى خَارِجٍ مُخْتَصٍّ إِشَارَةً وَضَعِيَّةً"⁷. وَيَقْصُدُ الرَّضِيُّ بِ"الْإِشَارَةِ" مَا ثَبَتَ فِي ذَهْنِ الْمُخَاطَبِ مِنْ دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَدْلُولِ، وَيَقْصُدُ ب"الخارج" مَا فِي خَارِجِ ذَهْنِ الْمُخَاطَبِ وَهُوَ الْوُجُودُ؛ وَبِالتَّالِي فَإِنَّ "الْمَعْرُفَةَ" عِنْدَهُ عِبَارَةٌ عَنْ دَلَالَةِ مَا فِي ذَهْنِ الْمُخَاطَبِ عَلَى مَوْجُودٍ مُخْتَصٍّ فِي الْوَاقِعِ، وَ"النَّكْرَةُ" خِلَافُ ذَلِكَ⁸. مِنْ هُنَا، فَإِنْ صَحَّ مَا أَدَّعِيهِ، فَإِنَّ تَعْرِيفَ النَّكْرَةِ وَالْمَعْرُفَةِ إِذَا يَتَحَدَّدَانِ عَبْرَ سِيَاقَيْهِمَا الْمُخْتَلِفَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَبْدُو لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنَّهَا مَعْرُفَةٌ، وَهِيَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ- وَمِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ النَّحْوِيِّ لَهَا- نَكْرَةٌ، نَحْوُ

¹ محمود أحمد نَحْلَةُ، التَّعْرِيفُ وَالتَّنْكِيرُ بَيْنَ الدَّلَالَةِ وَالشَّكْلِ (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1999)، 22.

² يَقْصُدُ بِذَلِكَ "الضَّمِيرَ".

³ سيبويه، الكتاب، 2: 6.

⁴ محمود نَحْلَةُ، التَّعْرِيفُ وَالتَّنْكِيرُ بَيْنَ الدَّلَالَةِ وَالشَّكْلِ، 81-87.

⁵ الرَّضِيُّ، شَرْحُ الْكَافِيَةِ، 3: 352.

⁶ يَعْنِي: تَعْرِيفُ الْمَعْرُفَةِ.

⁷ الرَّضِيُّ، شَرْحُ الْكَافِيَةِ، 323.

⁸ نَحْلَةُ، التَّعْرِيفُ وَالتَّنْكِيرُ بَيْنَ الدَّلَالَةِ وَالشَّكْلِ، 89-92.

قوله تعالى: {وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ} ¹، فـ"الليل" معرفٌ بـ"ال" الجنسية ²، ولكنه، في الوقت نفسه يُعَدُّ "نكرة" في المعنى ³؛ لأنَّ سياق الآية لا يتحدثُ حَوْلَ ذلك "الليل" بعينه، بل يتحدثُ حَوْلَ حقيقةِ الليلِ الكونيةِ مِنْ حَيْثُ جِنْسُهَا، فهي بهذا التوصيفِ اسمُ جنسٍ يُعْمُ ⁴ - كما يُبيِّنُ أبو حيان الأندلسي - إذ إنَّ "الليل" في هذا الموضعِ مُعرِّفَةٌ تعريفاً لفظياً فقط؛ لأنَّها في معنى النكرة ⁵. وبسببِ هذه "الإشكالية التحويلية" يختلفُ النُّحاةُ فيما يَبَيِّنُهُمْ حَوْلَ تقديرِ جملةِ "نَسْلَخُ" فيما إذا كانتْ صفةً؛ على أنَّ الجملَ بَعْدَ التكرارِ صفاتٌ (جملة "نسلخ" بعد "الليل" النكرة = جملة "نسلخ" صفة مرفوعة)، أو إذا كانتْ حالاً؛ على أنَّ الجملَ بَعْدَ المعارفِ أحوالٌ (جملة "نسلخ" بعد "الليل" المعرفة = جملة "نسلخ" حال منصوبة)، علماً أنَّ بعضَ النُّحاةِ والمفسرينِ يُجيزونَ الوجهين؛ لتعليلاهم المتضاربة ⁶. بينما نرى أنَّ كلمةَ "ويل" في قوله تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} ♦ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ⁷، حَيْثُ وَقَعَتْ كلمةُ "ويل" مبتدأً على الرَّغْمِ مِنْ كونهَا نكرةً؛ لأنَّ الأصلَ في المبتدأ أن معرفةً؛ فجازَ الابتداءُ بالنكرةِ مَعَ أنَّها منزوعةُ "ال" التعريفِ إِلَّا أنَّها - في حقيقة الأمرِ - معرفةٌ؛ لأنَّ "ويل" هو اسمُ وادٍ مخصوصٍ في جهنم، أو لأنَّها دعاءٌ، فكانتْ في الأصلِ مصدرًا منصوبًا - أي مفعولًا مطلقًا - بإضمارِ فعلٍ، بتقدير: أهلكهم الله وَيَلًا، فلمَّا حُذِفَ الفعلُ وسَدَّ "الويل" مَسَدُهُ عُذِلَ إلى الرِّفْعِ؛ للدلالةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ كما في جملةِ "سلامٌ عليك" ⁸. وبناءً على هذا التعليلِ يُؤكِّدُ محيي شيخ زاده أنَّه "لَمَّا كانَ الويلُ في الأصلِ مصدرًا سادًا مَسَدَ الفعلِ المخصَّصِ بصدوره عَنْ فاعِلٍ معيَّنٍ كانتِ النكرةُ المذكورةُ متخصَّصةً بذلكِ الفاعلِ؛ فسأغَ الابتداءُ بها" ⁹. ومنَ اللَّافِتِ ما يذكرُهُ ابنُ عطية الأندلسي في أنَّه على الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِ كلمةِ "ويل" نكرةً إِلَّا أنَّها

¹ القرآن الكريم، يس: 37.

² يُرادُ بـ"ال" الجنسية استغراق الجنس كُلِّهِ. وهي التي يُشارُ بها إلى الحقيقةِ ضَمَنَ جميعِ أفرادِها. وتأتي؛ لتتناولَ جميعَ الأفرادِ التي يتناولها اللفظُ حقيقةً حسبَ اللغة. وَيُبيِّنُ محمود ياقوت أنَّه يمكنُ التَّعرُّفَ عليها خلالَ إحلالِ كلمةِ "كل" محلَّها، نحو قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}؛ أي: كلُّ إنسانٍ. وهذا يعني أنَّ المتحدثَ عنه ليسَ إنسانًا محددًا بعينه، بل يُرادُ به كلُّ إنسانٍ؛ فهي في الحقيقةِ معرفةٌ ولكنها على الرَّغْمِ مِنْ هَذَا نكرةٌ مِنْ حَيْثُ التَّخْصِصُ والمعنى. انظر: محمود سليمان ياقوت، النُّحوُ التَّعليميَّةُ والتَّطْبِيقُ في القرآن الكريم (الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، 1996)، 238؛ السَّكَّاكِي، مفتاح العلوم، 216؛ القزويني، الإيضاح، 1: 123؛ الطَّيْبِي، التَّبَيَان، 7.

³ الزَّمَخْشَرِي، الكَشَاف، 4: 530؛ الصَّبَّان، الحاشية، 1: 104.

⁴ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 10: 539.

⁵ سيبويه، الكتاب، 2: 13؛ الرُّضْيِي، شرح الكافية، 2: 200.

⁶ عبد السلام حامد، الشَّكْلُ والدَّلَالَةُ، 202.

⁷ القرآن الكريم، المطففين: 1-2.

⁸ شيخ زاده، الحاشية، 8: 535.

⁹ ن. م، 8: 535-536.

رُفِعَتْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ عَلَى مَعْنَى: ثَبَتَ لَهُمْ وَاسْتَقَرَّ، فِي الْمَقَابِلِ فَإِنَّ مَا كَانَ فِي حَيِّزِ التَّرْقُبِ فَهُوَ مَنْصُوبٌ نَحْوَ قَوْلِهِمْ:
رَعْيًا وَسَقْيًا¹.

ويعاودُ الباحثُ محمود نحلة تبينه ضرورة الفهم الصائب لظاهرة التنكير والتعريف في النحو العربي، فقد عبّر عن انتقاده لبعض ما ذهب إليه كثير من النحاة في حيثية التنكير والتعريف بأن الحقيقة النحوية تُفْضِي إِلَى أَنَّ التَّنْوِينَ - مثلاً - لَيْسَتْ دَائِمًا دَلِيلَ التَّنْكِيرِ، كما أَنَّ الْأَلْفَ وَاللَّامَ لَيْسَتَا دَوْمًا تُفِيدَانِ التَّعْرِيفَ، ولهذا فَإِنَّ إِطْلَاقَ الْقَوْلِ بِهَذَا أَوْ ذَاكَ مُجَافٍ لَوَاقِعِ الِاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ. ولا أدلَّ على ذلك مِنْ أَنَّ ثَمَّةَ أَسْمَاءٍ يَعُدُّهَا النُّحَاةُ أَنْفُسَهُمْ مِنْ التَّنْكِيرِ وَلَيْسَتْ مَنْوَنَةً كـ "أَفْعَل" إِذَا كَانَ صِفَةً، و "فَعْلَان" الَّذِي مَوْثِقُهُ "فَعْلَى"، وما فِي آخِرِهِ أَلْفُ التَّائِيثِ مَمْدُودَةٌ أَوْ مَقْصُورَةٌ، وما كَانَ عَلَى صِيغَةٍ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ، وما كَانَ مَعْدُولًا مِنْ الْعَدَدِ نَحْوَ "ثَلَاثٍ وَرُبَاعٍ" ... كما أَنَّ هُنَاكَ أَسْمَاءً يَعُدُّهَا النُّحَاةُ فِي الْمَعَارِفِ وَيَلْحَقُهَا التَّنْوِينُ، نَحْوُ: "مُحَمَّدٌ"، و "زَيْدٌ"، و "نُوحٌ"، و "لُوطٌ"، و "هِنْدٌ" و "دَعْدٌ"². ثُمَّ يَتَوَصَّلُ الْبَاحِثُ مُحَمَّدُ نَحْلَةُ إِلَى أَنَّ "الْفَيْصَلَ فِي ذَلِكَ قَصْدُ الْمُتَكَلِّمِ، أَوْ عِلْمُ الْمُخَاطَبِ، أَوْ سِيَاقُ الْكَلَامِ"³.

إضافةً إلى هذا، يجدرُ بي أَنْ أَلْفِتَ الْإِنْتِبَاهَ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي الْوُقُوفُ عَلَى مَسْأَلَةٍ هَامَّةٍ، خَاصَّةً وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ حَوْلَ سِيَاقِ التَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ، وَهِيَ أَنَّ النُّحَاةَ يَرَوْنَ فِي أَنَّ النُّكْرَةَ أَخْفُ مِنْ الْمَعْرِفَةِ، فَبِئْسَ ذَلِكَ يَقُولُ سَبِيوِيَّةٌ: "وَاعْلَمْ أَنَّ النُّكْرَةَ أَخْفُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وَهِيَ أَشَدُّ تَمَكُّنًا؛ لِأَنَّ النُّكْرَةَ أَوَّلُ، ثُمَّ يَدْخُلُ عَلَيْهَا مَا تُعَرَّفُ بِهِ. فَمِنْ ثَمَّ أَكْثَرَ الْكَلَامِ يَنْصَرِفُ فِي النُّكْرَةِ"⁴، لهذا نَلْحِظُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النُّحَاةِ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ "النُّكْرَةَ أَصْلُ الْمَعْرِفَةِ؛ لِأَنْدَرَجَ كُلِّ مَعْرِفَةٍ تَحْتَهَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ"⁵. وهذا - برأيي - هُوَ مَدَارُ التَّفَكُّيرِ النَّحْوِيِّ لِلْأَصُولِ النَّحْوِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِظَاهِرِي التَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ.

وارتكارًا على هذه الواجهة، وعلى خلاف ما يُصَوِّرُ عَنْ سَبِيوِيَّةٍ بِأَنَّهُ كَانَ جَامِعًا لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَلَهْجَاتِهِمْ، يَبْدُو لِمَنْ يُدَقِّقُ النَّظَرَ فِي الْفِكْرِ النَّحْوِيِّ عِنْدَ سَبِيوِيَّةٍ أَنَّهُ غُنيَّ بِالذَّلَالَةِ النَّحْوِيَّةِ لِلتَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ

¹ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 15: 352.

² محمود أحمد نحلة، التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1999)، 159-160.

³ محمود نحلة، التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل، 160.

⁴ سبيويه، الكتاب، 1: 22.

⁵ الفاكهي، شرح الحدود النحوية، 64.

عنايةً واضحةً، فعلى امتدادٍ مساحاتٍ واسعةٍ مِنْ كتابه نلحظُ هذه المَيزةَ، فعلى سبيلِ المثالِ يُجيزُ سيبويه أن يكونَ المبتدأ نكرةً والخبرُ معرفةً إذا كانَ المبتدأُ أفعلُ التفضيلِ، حيثُ يُوَكِّدُ أنَّ الابتداءَ يحسنُ فيهنَّ، فتقولُ: "خيرٌ مِنْكَ زيدٌ"، و"أبو عشرة زيدٌ"، و"سواءٌ عليهِ الخيرُ والشرُّ"¹، و"كَمْ غلمانُ لَكَ" حينما تجعلُ "غلمانُ" في موضعِ خبرٍ و"كَمْ"². ويُعلِّقُ ابنُ مالكٍ على ما ذَهَبَ إليه سيبويه بأنَّ المبتدأَ عِنْدَ سيبويه في نحوِ "كَمْ مَالُكَ؟" هو "كَمْ" مَعَ أَنَّهُ نكرةٌ، والخبرُ هو "مَالُكَ" مَعَ أَنَّهُ معرفةٌ، فجعلَ النكرةَ مبتدأً، والمعرفةَ خبراً؛ لأنَّ وقوعَ ما بعدَ أسماءِ الاستفهامِ نكرةً وجملَةً وظرفاً أَكثَرُ مِنْ وقوعِهِ معرفةً، وعِنْدَ وقوعِهِ غيرَ معرفةٍ لا يكونُ إلَّا خبراً، نحو: "مَنْ قائمٌ؟"، و"مَنْ قائمٌ؟"، و"مَنْ قام؟" و"مَنْ عِنْدَكَ؟"، فَحَكَمَ على المعرفةِ بالخبريةِ؛ لِئَجْرِيَ البابُ على سَنَنِ واحدٍ، وليكونَ الأقلُّ محمولاً على الأكثرِ، والكلامُ على أفعلِ التفضيلِ كالكلامِ على أسماءِ الاستفهامِ³. فضلاً عَن أنَّ سيبويه لم يشترطَ في الابتداءِ بالنكرةِ أَكثَرَ مِنْ شرطٍ واحدٍ وهو أن يكونَ في الإخبارِ عنها فائدةٌ، والفائدةُ تعني مَنَحَ المعنى دوراً فاعلاً في التركيبِ اللغويِّ، فَقَدْ قالَ ابنُ الدَّهَّانِ: إذا حَصَلَتِ الفائدةُ فَأَخْبِرْ عَن أَيِّ نكرةٍ شِئْتَ؛ وذلكَ لأنَّ الغرضَ مِنَ الكلامِ إفادةَ المخاطَبِ، فإذا حَصَلَتْ جازَ الحكمُ، سواءً تَخَصَّصَ المحكومُ عليهِ بشيءٍ أو لا⁴.

إنَّ هذا الأمرَ لَيُؤَكِّدُ أنَّ إلحاحَ سيبويه - كما يقولُ الباحثُ أحمدُ سعدُ محمد - على جانبِ المعنى الدَّلاليِّ للتراكيبِ وسياقاتِ الكلامِ بما يتماشى مَعَ سَنَنِ العربِ في كلامِهِم، وطبيعةِ المتلَقِّي التَّفسيَّةِ، فيكونُ إعرابُ النكرةِ والمعرفةِ في سياقَهما التَّحويَّةِ وسيلةً مِنْ وسائلِ التَّفريقِ بَيْنَ الأغراضِ والمعاني النَّحويَّةِ والدَّلاليَّةِ المختلفةِ الَّتِي يريدُها المتكلِّمُ⁵.

كما يرى الباحثُ أحمدُ محمدُ أنَّ غايةَ سيبويه قَدْ قَضَتْ بأنَّ يتناولَ مسألةَ التعرِيفِ والتَّنكِيرِ مِنْ خلالِ مقولةِ "الأصلِ والفرعِ"، إذ إِنَّهُ عَدَّ النكرةَ أصلاً والمعرفةَ فرعاً عليها، يَتَضَخُّ ذلكَ مِمَّا ذَكَرَهُ في "بابِ مجاري أواخرِ

¹ سيبويه، الكتاب، 2: 25.

² ن. م، 2: 160.

³ ابن مالك، شرح التَّسهيل، 1: 296.

⁴ الرِّضَى، شرح الكافية، 1: 213.

⁵ أحمدُ سعدُ محمد، الأصولُ البلاغيَّةُ في كتابِ سيبويه وأثرها في البحثِ البلاغيِّ (القاهرة: مكتبة الآداب، 1999)، 66.

الكلم من العربية¹ إذ يقول - كما ذكرنا آنفاً -: "واعلم أن التكررة أخف عليهم من المعرفة، وهي أشد تمكناً؛ لأن التكررة أول، ثم يدخل عليها ما تُعرّف به، فمن ثم أكثر الكلام ينصرف في التكررة"².

والأمثلة السياقية الخاصة بالتنكير والتعريف في النص القرآني كثيرة، نذكر بعضاً منها كنماذج دالة على مثل هذه الظاهرة اللغوية:

نلمح عند ابن جني مدى اهتمامه بدلالة التنكير في اللغة العربية في النص القرآني، وأثرها في مجرى العبارة بالموازنة مع حالة التعريف التي تمثل نمطاً مغايراً في دلالتها النحوية وما تنصرف إليه عند الاستعمال³، فقد علّق على قراءة الحسن البصري "اهدنا صراطاً مستقيماً" التي شذت عن القراءة المشهورة {اهدنا الصراط المستقيم}⁴ بتنكير "صراط"، فيقول إنه ينبغي أن يكون أراد التذلّل لله، وإظهار الطاعة له، أي قد رضيّا منك يا ربنا بما يقال له: صراط مستقيم، ولسنا نريد المبالغة في قول من قرأ "الصراط المستقيم"، أي الصراط الذي قد شاعت استقامته وتُعولمت في ذلك حاله وطريقته... وزاد في حسن التنكير هنا ما دخله من المعنى، وذلك أن تقديره: أدّم هدايتك لنا؛ فإنك إن فعلت ذلك بنا هديتنا إلى صراط مستقيم⁵.

ثم يضرب ابن جني أمثلة على هذا الأسلوب نحو قول طرفة:

"جارت القوم إلى أرحلنا آخر الليل يبعفور حدير"

فيقول ابن جني تعليقاً على هذا البيت: إن "يعفور" هي نفسها عند الشاعر "اليعفور"، ولكنه أخرج اللفظ مخرج التنكير. فقد ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف، وفيه مع ذلك لفظه، وهذا ما يُقابل في موضع قرآني آخر: {ولهديناهم صراطاً مستقيماً}⁶، أي هديناهم من نعمتنا علينا، ونظرنا لهم صراطاً مستقيماً⁷.

¹ أحمد محمّد، الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، 60.

² سيبويه، الكتاب، 1: 22.

³ أبو جناح، دراسات في نظرية النحو العربي، 293.

⁴ القرآن الكريم، الفاتحة: 6.

⁵ ابن جني، المحتسب، 1: 41.

⁶ القرآن الكريم، النساء: 68.

⁷ ابن جني، المحتسب، 1: 42-43.

ويظهر من كلام ابن جني أنه يحاول أن يجد تفسيراً دلاليًا لقراءة التنكير من خلال أدوات السياق الذي قيلت فيه الآية، وبمساندة الشواهد القرآنية والشعرية التي تدعم رأيه.

وفي قوله تعالى: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}¹، تظهر مفردة "كلمة" نكرة لا معرفة، ومنصوبة عند جمهور القراء² لا مرفوعة. ونستطيع أن نستقرأ نظم تركيب هذه المفردة بالتزامن مع سياق هذه الآية، إذ إن مجيئها نكرة فتتح المجال - برأبي وباستقراء ما ذهب إليه النحاة والمفسرون - لتأويل المعنى النحوي لـ "كلمة" تأويلات عديدة؛ وذلك من باب أن النكرة - كما أشرنا إليه سابقاً خلال قول سيبويه - أصل المعرفة، وهي أخف من المعرفة، وهي أشد تمكناً؛ لأن النكرة أول، ثم يدخل عليها ما نعرف به³. وكذلك من باب أن كون الكلمة نكرة أتاح لها أن تحمل عدة وظائف نحوية على خلاف لو أن الكلمة كانت معرفة لو افترضنا أن نقول: "كبرت الكلمة" أو "كبرت الكلمة".

ويوضح الألوسي أن "كلمة" في هذه الآية نصبت على التمييز والبيان⁴ والتفسير⁵، وكأنه قيل: "ما أكبرها كلمة"، أو "أكبر بها كلمة"⁶، فسياق الآية يتجه إلى أن الكلام مبني على أسلوب التعجب، بمعن عظمت مقالته هذه في الكفر والافتراء فيها من نسبته إلى الله إلى ما لا يكاد يليق بكبريائه. وهذا الرأي منقول عن المبرد في إلحاقه بباب التعجب⁷.

ومن اللافت ما نلاحظه عند أبي حيان الأندلسي حينما راح يُفسر معنى التمييز النحوي بالاستعانة بدلالات السياق في الآية وما يحوط بها، فيقول إن معنى التمييز⁸ في كلمة "كلمة" يشابه قولك: "نعم رجلاً زيداً"، وقد فسرت "كلمة" بالكلمة ووصفها بالخروج من أفواههم، وذلك زيادة - فيما نراه - في توضيح الصورة النحوية

¹ القرآن الكريم، الكهف: 5.

² أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 7: 138؛ المنتخب الهمداني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، 3: 311.

³ سيبويه، الكتاب، 1: 22.

⁴ النحاس، إعراب القرآن، 2: 122.

⁵ القيس، مشكل إعراب القرآن، 1: 469؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 9: 231.

⁶ الأخفش، معاني القرآن، 2: 427.

⁷ الألوسي، روح المعاني، 8: 647.

⁸ يستخدم الكوفيون مصطلح "التفسير" أو "البيان" بدلاً من التمييز؛ يقولون، مثلاً: "منصوب على التفسير"، ويقصدون بذلك أن الكلمة منصوبة على التمييز. انظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 7: 138.

للتّمييز¹، إذ إنّ مصدرَ الكلامِ معروفٌ وهو الفمُّ، ولكنّه، كما جاء في الآية، وصَفَ "كَلِمَةً" بجملةٍ "تُخْرِجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ"؛ توكيداً لِعِظَمِ الكَلِمَةِ الَّتِي يَقُولُونَهَا، فَالتَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ "تُخْرِجُ" - كما يقول ابنُ عاشورٍ - جيءَ به؛ "لِاستحضارِ صورةِ خروجِها مِنْ أَفْوَاهِهِمْ تَخَيُّلاً لِفُضَاعَتِهَا"²، واستدعاءً لِلصُّورَةِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تُسَهِّلُ فِي رُؤْيَةِ "المشهدِ النَّحْوِيِّ" - إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ - مِنْ جَوَانِبِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَلِتُكْتَمَلَ الصُّورَةُ التَّفْسِيرِيَّةُ لِطَبِيعَةِ كَلِمَةِ "كَلِمَةً" الَّتِي وَرَدَتْ نَكْرَةً؛ فَتَفَاعَلَتْ الْأَلْفَاظُ بِتَعَالُفِهَا فِيمَا بَيْنَهَا فِي هَذَا النِّظْمِ، وَفَقَّاً لِلنَّظَرِيَّةِ الْجُرْجَانِيَّةِ.

وَقَدْ أَشَارَ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ إِلَى مَعْنَى التَّعَجُّبِ الْمُسْتَكْرِ فِي "كَبُرَتْ كَلِمَةً" بِأَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ وَمَا يَحِيطُهَا مِنْ سِيَاقٍ يَدُلُّ عَلَى اسْتِعْظَامِ تِلْكَ الْمَقُولَةِ الَّتِي يَصِفُونَ بِهَا الذَّاتَ الْإِلَهِيَّةَ، وَهُوَ مَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَسْبِقُهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} ³؛ لِأَنَّ بَعْضَ مَا يَهْجَسُ بِالْخَاطِرِ لَا يَجُسُّ الْإِنْسَانُ عَلَى إِظْهَارِهِ بِاللَّفْظِ ⁴ - عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ. وَيُضَيَّفُ ابْنُ عَاشُورٍ أَنَّ قَرِينَةَ مَقَامِ الْآيَةِ وَسِيَاقِهَا تُرْشِدُ إِلَى حَمْلِ الْمَعْنَى عَلَى التَّعَجُّبِ؛ لِعِظَمِ مَا يَقُولُونَهُ ⁵.

وَمِنْ النُّحَاةِ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ إِنَّمَا هُوَ تَرْكِيبٌ لِإِنْشَاءِ الدِّمِّ؛ فَ"كَبُرَتْ" فِعْلٌ مَاضٍ لِإِنْشَاءِ الدِّمِّ؛ لِأَنَّ "كَبُرَ" بِمَعْنَى "بُئْسَ" ⁶، وَالتَّاءُ لِلتَّأْنِيثِ، وَالْفَاعِلُ ضَمِيرٌ مُسْتَرْتَفِعٌ يَعُودُ عَلَى مَقَالَتِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ وَهِيَ قَوْلُهُمْ "اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا" ⁷. وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْفِعْلَ "تُخْرِجُ" صِفَةً لِلْمَخْصُوصِ بِالدِّمِّ ⁸ وَتَقْدِيرُهُ: كَبُرَتْ كَلِمَةً خَارِجَةً كَلِمَةً، فَضْلاً عَمَّنْ يَرَى فِي أَنَّ الْفِعْلَ صِفَةً لـ "كَلِمَةً" ⁹.

وَانْطِلَاقاً مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ، يَسْتَدِلُّ الْأَخْفَشُ عَلَى الْمَعْنَى التَّحْوِيِّ لـ "كَلِمَةً" بِقَوْلِ الْأَخْطَلِ:

"وَلَقَدْ عَلِمَتْ إِذِ الرِّيحُ تَرَوِّحَتْ هَدَجَ الرِّثَالِ تُكْبِّهُنَّ شِمَالاً"

¹ الجرجاني، درج الدرر، 3: 1136.

² ابن عاشور، التحرير والتلوين، 15: 252.

³ القرآن الكريم، الكهف: 4.

⁴ السمين الحلبي، الذر المصون، 7: 440.

⁵ ابن عاشور، التحرير والتلوين، 15: 252.

⁶ العكبري، إملأ ما من به الرحمن، 2: 98.

⁷ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 4: 436.

⁸ المنتجب الهمداني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، 3: 311.

⁹ السمين الحلبي، الذر المصون، 7: 440.

أَيُّ: تَكْبُهُنَّ الرِّيحُ شَمَالًا. وَمِنْ ثَمَّ يُعَقِّبُ الْأَخْفَشُ مُوَضَّحًا: كَأَنَّهُ قَالَ: كَبُرَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ كَلِمَةً¹.

ويؤكد الباحث محمد موسى أننا نلاحظ أن التعبير القرآني هنا جاء بالتنكير والتّمييز من خلال مفردة "كَلِمَةً"؛ للدلالة على شناعة هذه الكلمة، ومما يدعم هذا المعنى التّحويّ هو ما تلا هذا التعبير بقوله: "إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا"، حيث يُعَقِّبُ السّياق تعقيبًا قاطعًا أن كلامهم كان كذبًا هائلًا، كما أن مجيئه في سياق التّفيي "إِنْ" والحصر "إِلَّا" لتأكيد قطع كلامهم بالكذب، فلم يعد يُسمّى كلامًا بل كذبًا². من هنا، يُشير الطاهر ابن عاشور إلى أن جملة "إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا" مؤكّدة لمضمون جملة "تخرج من أفواههم"؛ لأنّ الشّيء الذي تنطق به الألسن ولا تحقّق له في الخارج ونفس الأمر هو الكذب، أي تخرج أفواههم خروج الكذب، فما قولهم ذلك إلّا كذب، أي ليس له صفة إلّا الكذب³. وأظن أن السبب الذي أسهم في ذلك هو تراص هذه الصّورة التّحويّة هو - دون أدنى شك - كلمة "كَلِمَةً" التي وقّعت نكرة، ولو جاءت هذه الكلمة معرفة؛ لما أدّت هذا الغرض التّحويّ الذي تتعلّق وتكاتف فيه الكلمات بعضها إلى جانب بعض.

ويحاول الطبري أن يُبسّط تفسير تنكير "كَلِمَةً" بقوله إنّ المعنى التّحويّ هو "عظمت الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء القوم الذين قالوا: اتّخذ الله ولدًا، واستنادًا إلى سياق الآية فإنّ الخطاب القرآنيّ موجّه إلى تلك الفئة من النّاس تعجبًا واستعظامًا: "ما لهؤلاء القائلين هذا القول بالله"⁴.

ويذكر الزّحشر أنّها قرئت "كَبُرَتْ كَلِمَةً" بالرفع⁵ على الفاعليّة، بمعنى عظمت، فلم يَصْمِرْ شيئًا؛ فارتفعت الكلمة بفعلها⁶، ولكنّه - مع هذا - يؤكّد أن التّصّب أقوى وأبلغ، وكأنّه قيل: "ما أكبرها كلمة"؛ لأنّ سياق الآية التّحويّ يقوم على معنى التّعجب، وبالتالي فإنّ جملة "تخرج من أفواههم" تُشكّل صفة للكلمة التي تُفيد استعظامًا؛ لاجترائهم على النّطق به، وإخراجها من أفواههم⁷. ونلاحظ الزّحشريّ، بعد ذلك، يسعى إلى

¹ الأخفش، معاني القرآن، 2: 427-428.

² محمد السّيد موسى، بلاغة القرآن الكريم - دراسة لأثر التّكرير البلاغيّ في سياق القرآن، 44.

³ ابن عاشور، التّحرير والتّوير، 15: 253.

⁴ الطبري، جامع البيان، 5: 79.

⁵ هي قراءة الحسن، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، والقواس. انظر: النّحاس، إعراب القرآن، 2: 123؛ أبو حيّان الأنديلي، البحر المحيط، 7: 138؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5: 678؛ المنتجب الهمداني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، 3: 311.

⁶ الفيسّي، مشكل إعراب القرآن، 1: 469.

⁷ الزّحشريّ، الكشاف، 3: 49.

استَكْنَاهُ حَقِيقَةُ هَذَا التَّرْكِيبِ وَمَا لَهُ مِنْ عِلَاقَاتٍ مُتَرَابِطَةٍ بِسِيَاقِ الْآيَةِ، فَيُبَيِّنُ مَعْنَى "كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ" بِأَنَّ "كَثِيرًا مِمَّا يُوسَّوْسُهُ الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَيَجْدُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ لَا يَتِمَالِكُونَ أَنْ يَتَفَوَّهُوا بِهِ، وَيُطْلِقُوا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ بَلْ يَكْظُمُونَ عَلَيْهِ تَشْوِيرًا¹ مِنْ إِيْظَاهِرِهِ؛ فَكَيْفَ يُمَثِّلُ هَذَا الْمُنْكَرُ؟"².

وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ - إِضَافَةً إِلَى مَا ذُكِّرَ سَابِقًا - إِنَّهُ - قَدْ يَبْدُو لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنَّ كَلِمَةَ "كَلِمَةً" نَكْرَةٌ، وَهُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ، وَلَكِنَّهَا مَعْرِفَةٌ فِي بَاطِنِ اللَّفْظِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي تَحَدَّثُوا بِهِ، وَوَصَفُوا لَهُ مَعْرُوفٌ بِنَصِّ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَبَتَعْقِيبِ مَا تَلَاهَا مِنْ آيَاتٍ، وَلَكِنَّ النَّصَّ الْقَرَأَنِيَّ - وَفُقَ مَا أَفْهَمُهُ - أَتَّجَهَ إِلَى تَنْكِيرِ الْكَلِمَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ تَحْدِيدًا؛ لِتَشْمَلِ الْكَلَامَ الَّذِي قِيلَ حَرْفِيًّا، وَالْكَلامَ الَّذِي لَمْ يُقَلَّ فَظْلًا حَبِيسَ الْقُلُوبِ وَالْأَذْهَانِ، وَأَيْضًا عَمُومَ الْكَلَامِ أَيًّا كَانَتْ أَنْوَاعُهُ وَمَدَاخِلُهُ، إِذْ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ يَكْبُرُ وَيَعْظُمُ شَأْنُهُ عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى لَجَزَّ كَلِمَةً فَكَيْفَ إِذَا بِكَلَامٍ كَثِيرٍ مُتَعَاقِبٍ، وَلِهَذَا جَاءَتْ الْكَلِمَةُ نَكْرَةً لِتُفِيدَ مَعْنَى الْعُمُومِ وَالْأَوْسَعِ.

بَقِيَ أَنْ أُشِيرَ إِلَى أَنَّ بَعْضَ التُّحَاةِ ذَهَبَ إِلَى عَدِّ كَلِمَةِ "كَلِمَةً" فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهَا مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْحَالِ، بِتَقْدِيرٍ: "كَبُرَتْ فِرْيَتُهُمْ - أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ - كَلِمَةً"³، وَأَضَافَ الْأَلُوسِيُّ أَنَّ تَأْوِيلَ "كَلِمَةً" هُوَ بِمَعْنَى "لَا يَخْفَى حَالُهُ"⁴. وَيُعَقِّبُ السَّمِئِيُّ أَنَّ تَأْوِيلَ الْكَلِمَةِ عَلَى الْحَالِيَّةِ "لَيْسَ بِظَاهِرٍ" - عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ - وَأَعْتَقَدُ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُوَكِّدَ أَنَّ الْمَعْنَى التَّحْوِيَّ الْأَنْسَبَ لِمَضْمُونِ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَلِتَتَابَعَ الْأَفَاضِ وَالْكَلِمَاتِ فِي الْآيَاتِ هُوَ التَّمْيِيزُ؛ لَا سَيِّمًا أَنَّهُ التَّمْيِيزُ بِطَبِيعَتِهِ التَّحْوِيَّةِ غَالِبًا مَا يَلْزَمُ التَّنْكِيرَ مُقَارَنَةً بِالْحَالِ الَّذِي يَقْبَلُ بِأَنْ يَكُونَ مَعْرُفًا - فِي مَحَالَّتٍ كَثِيرَةٍ - مَوْوَلًا بِالنَّكْرَةِ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ التَّأْوِيلِ إِلَّا لِمُضْطَرَّةٍ مَلْجَأَةٍ⁵.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} ♦ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا⁶ نَلْحِظُ أَنَّ فِي الْآيَتَيْنِ تَكَرَّرًا تَوْكِيدًا⁷؛ لِلْمَبَالِغَةِ⁸ وَلِتَبَيِّنَ الْخَيْرَ وَالْفَرْجَ الْمَوْعُودَ بِهِ⁹؛ وَهَذَا مَا يُبْنَى عَنْهُ سِيَاقُ الْكَلَامِ - كَمَا يُشِيرُ ابْنُ عَاشُورٍ - بِأَنَّ الْيُسْرَ

¹ أَيِ اسْتَحْيَاءٍ.

² الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ، 3: 49.

³ ابْنُ عَطِيَّةٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْمَحْزَرُ الْوَجِيزُ، 9: 231؛ أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 7: 138.

⁴ الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْمَعَانِي، 8: 648.

⁵ عَوَادُ، "التَّعْرِيفُ وَالنَّقْدُ"، مَجْلَّةُ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِدِمَشْقَ، 354-355.

⁶ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الشَّرْحُ: 5-6.

⁷ الْفَرَطِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، 10: 348.

⁸ أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيُّ، النَّهْرُ الْمَادِّ، 2: 1280.

⁹ ابْنُ عَطِيَّةٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْمَحْزَرُ الْوَجِيزُ، 15: 499؛ أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ، 5: 882.

مصاحِبٌ للعسر¹؛ فَيُسَرُّ في الدُّنْيَا، وَيُسَرُّ في الآخِرَةِ²، وَلَكِنَّ الأَمْرَ اللَّافِتَ هُنَا هِيَ مَسْأَلَةُ تَعْرِيفِ "العسر" وَتَنْكِيرِ "اليسر"، إِذْ كَانَ بِإِمْكَانِهِ الْقَوْلُ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - "إِنَّ مَعَ الْعَسْرِ الْيُسْرَ"، أَوْ "إِنَّ الْيُسْرَ مَعَ كُلِّ عُسْرٍ. فَلَمَّ جَاءَ التَّنْكِيرُ وَالتَّعْرِيفُ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهَا الْآيَاتَانِ، وَمَا عِلَاقَةُ ذَلِكَ بِالسِّيَاقِ؟

يَذْكُرُ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ أَنَّ "ال" التَّعْرِيفِ فِي "العسر" الْأَوَّلِ هِيَ لَتَعْرِيفِ الْجِنْسِ، وَفِي "العسر" الثَّانِي لَتَعْرِيفِ الْعَهْدِ؛ كَمَا جَاءَتْ "يسر" مَنْكَرَةً³؛ لِذَلِكَ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ "لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ"⁴، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا جَاءَتْ بِاسْمٍ ثُمَّ أَعَادَتْهُ مَعَ الْأَلْفِ وَاللَّامِ، أَيْ "ال" التَّعْرِيفِ، كَانَ هُوَ الْأَوَّلُ نَحْوَ قَوْلِنَا: جَاءَ رَجُلٌ فَأَكْرَمْتُ الرَّجُلَ"، وَنَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا}⁵، فَلَوْ أُعِيدَ بِغَيْرِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ كَانَ غَيْرَ الْأَوَّلِ. مِنْ هُنَا فَقَوْلُهُ: "إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" لَمَّا أَعَادَ الْعُسْرَ الثَّانِي أَعَادَهُ بِ"ال"، وَلَمَّا كَانَ الْيُسْرَ الثَّانِي غَيْرَ الْأَوَّلِ لَمْ يُعِدْهُ بِ"ال"⁶.

وَيُبَيِّنُ الرَّمَخَشَرِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ وَأَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ وَغَيْرُهُمْ - إِضَافَةً لِمَا ذَكَرَ سَابِقًا - أَنَّ هَذَا الْأُسْلُوبَ يُحَاكِي أَسَالِيبَ الْعَرَبِ فِي التَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ، فَيَقُولُ إِنَّ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا ذَكَرُوا اسْمًا مَعْرُوفًا ثُمَّ كَرَّرُوهُ، فَهُوَ هُوَ، وَإِذَا نَكَّرُوهُ ثُمَّ كَرَّرُوهُ فَهُوَ غَيْرُهُ⁷. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ التَّعْرِيفَ فِي "العسر" تَعْرِيفٌ لِلْعَهْدِ أَيْ "العسر" الَّذِي عَاهَدَتْهُ وَعَلِمَتْهُ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ نُحَاةُ الْكُوفَةِ - كَمَا يُبَيِّنُ ابْنُ عَاشُورٍ - بِأَنَّ "ال" فِيهِ عِوَضٌ عَنِ الْمَضَافِ إِلَيْهِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}، أَيْ: فَإِنَّ مَعَ عُسْرِكَ يُسْرًا⁸. وَهَذَا يُوَكِّدُ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّ "اليسر" فِي كِلَا الْآيَتَيْنِ هُمَا اثْنَانِ؛ مُعْلَلًا ذَلِكَ بِسِيَاقِ السُّورَةِ كُلِّهَا؛ لِيَكُونَ أَقْوَى لِلْأَمَلِ، وَأَبْعَثَ عَلَى الصَّبْرِ⁹.

¹ ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْوِيرُ، 30: 413.

² أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 10: 501.

³ ابْنُ عَطِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ، 15: 499.

⁴ الْفَرَّاءُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ، 3: 275.

⁵ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْمَزْمَلُ: 15.

⁶ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، الذَّرُّ الْمَصُونُ، 11: 46.

⁷ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 10: 501؛ الرَّمَخَشَرِيُّ، الْكَشَافُ، 4: 608؛ أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ، 5: 882؛ الصَّائِي،

الْحَاشِيَةُ، 4: 582.

⁸ ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْوِيرُ، 30: 413.

⁹ الْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، 10: 348؛ درويش، إِعْرَابُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، 8: 350.

10. 3. التقديم والتأخير وسياق المرتبة النحوية:

الأصل في تأليف الكلام في الجملة العربية أن يكون وفق قواعد ثابتة ورُتَب محفوظة¹؛ فمن الرُتَب المحفوظة تأخرُ الفاعل عن الفعل، وتأخرُ الصلة عن الموصول والصفة عن الموصوف، والمضاف عن المضاف إليه، والمعطوف عن المعطوف عليه، والمجرور عن حرف الجر، والمتعجب منه عن ما التعجبية... إلخ². ففي مثل ذلك يُبينُ سيبويه في جملة "ما أحسن عبد الله": "لا يجوز أن تقدّم "عبد الله" وتؤخّر "ما"، ولا تُزيل شيئاً من موضعه"³. وهذا يعني أن سيبويه، والنحاة من بعده، يريدون تأكيد حقيقة نحوية أن في الجمل العربية تراكيب لها نمطها الخاص لا تقبل التقديم والتأخير؛ مخافة أن يختل المعنى.

ومع طبيعة هذه الرُتَب المحفوظة فإن الكلام يُتيح التقديم والتأخير في الجملة الفعلية، وذلك - مثلاً - في أن يتقدّم المفعول به على الفعل أو الفاعل في الجملة الفعلية، وأن يتقدّم المبتدأ على الخبر في الجملة الاسمية؛ وذلك وفقاً لمعايير نحوية تقتضي تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم؛ لأسباب سياقية⁴ عدّة ذكرها النحاة والمفسرون، نحو أهمية المقدم ومنحه معنى نحويّاً جديداً، فقد أشار الحسن المفتي [...] 1059-... هـ، [...] 1648 م - على سبيل المثال - وهو رأي في حقيقته يُحمّل على الأمر اللّاف - إلى أنه قد يتقدّم، في الجملة العربية، المفعول على فعله، أو يتقدّم الجار والمجرور والظروف والحال؛ لأجل الاختصاص، وهو إما بالتعيين في التردّد، أو برّد الخطأ، أي خطأ السامع في تعيين المفعول ونحوه إلى الصواب، وهو المراد في التخصيص، كما في اعتقاد العكس أو الاشتراك كقولك: "زيداً عرفت"، لمن تردّد، إشارة إلى أنه اعتقد أنك عرفت إنساناً، لكن يتردّد في تعيين أنك "زيداً عرفت أم عمراً"، فقولك "زيداً عرفت"، تعيين وتخصيص، أو لمن أخطأ في اعتقاده، بأن اعتقد أنك "عمراً

¹ حسن محمود شحاتة، ظاهرة الاتساع في النحو العربي (عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، 2011)، 115.

² حسن شحاتة، ظاهرة الاتساع في النحو العربي، 115.

³ سيبويه، الكتاب، 1: 73.

⁴ لا يتسع المجال لذكر هذه الأسباب؛ لتسغيها وعدم إطرادها. ولكني سأبين جزءاً منها لاحقاً، وكذلك حينما أعرض لتفسير بعض الآيات التي تعالج مسألة السياق النحوي للتقديم والتأخير.

عرفت "دون" زيد" على عكس عرفانك... وإذا قلنا: "الماء شربٌ لا غيره" فهذا من الاختصاص الذي يشمل
قَصَرَ القلبِ والإفرادِ والتعيين¹.

وقد كشف سيبويه - من قبل - عن تداول العرب لمسألة التقديم والتأخير بقوله: "كأنهم إنما يُقدِّمون
الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أَعنى، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعيناهم"². ولعلنا نفهم من كلام سيبويه أنَّ التقديمَ
والتأخيرَ ليسا أمرًا اعتباطيًا، بل إنَّ لهما أغراضًا ومعاني يفرضها السياق³؛ إذ إنَّ التقديمَ والتأخيرَ وتغايرُ الرتبة هو -
كما يقول العوادي - تركيبٌ سياقيٌّ وائتلافٌ دلاليٌّ يقصده المتكلم ويعنيه⁴، وهو ما دعا ابنَ فارسٍ إلى تأكيد
حقيقةٍ نحويةٍ مفادها أنَّ من سننِ العربِ تقديمَ ما حقه التأخيرُ، وتأخيرَ ما حقه التقديمُ⁵، وكأنَّه - بتقديري - يريدُ
أنَّ يقولَ إنَّه على الرغمِ من تلك الرتبة المحفوظة إلا أنَّ اللغةَ العربيةَ تنحو نحو التقديمِ والتأخيرِ واصفًا هذه الظاهرةَ
النحويةَ على أنَّها من سننِ العربِ وطبيعةِ كلامهم، وهي ليست أمرًا طارئًا فرعيًّا!

بل إنَّنا نلاحظُ هذا الأمرَ باديًا عند كبارِ النحويين واللغويين كعبدِ القاهرِ الجرجاني الذي وصفَ "بابَ
التقديم والتأخير" بأنَّه بابٌ "كثيرُ الفوائد، جُمُ المحاسن، واسعُ التصريف، بعيدُ الغاية، لا يزالُ يفترُّ لك عن بديعه،
ويُفضي بك إلى لطيفه، ولا تزالُ ترى شعراً، يروِّفك مسمعه، ويلطفُ لديك موقعه، ثمَّ تنظرُ، فتجدُ سببَ أنَّ
راقك، ولطفَ عندك أنَّ قدِّم فيه شيءٌ، وحولَ اللفظِ عن مكانه إلى مكانٍ"⁶.

ومن المثير، أنَّ عبدَ القاهرِ الجرجانيَّ نفسه كان قد أخذَ على النحاة الذين شرحوا قولَ سيبويه وانتقدَهم
على أنَّ دلالةَ "التقديم والتأخير" تنطلقُ من دلالةٍ عامَّةٍ واحدةٍ هي التقديمُ للعناية والاهتمام مستدلِّين بقولِ سيبويه
"كأنهم إنما يُقدِّمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أَعنى، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعيناهم"⁷، فيؤكِّدُ الجرجانيُّ
إنَّ هذا الادِّعاءَ غيرَ دقيقٍ ويحتاجُ إلى إعادةِ نظرٍ، فهؤلاء النحاة اقتصرُوا على هذه الدلالة، ولم يهتموا بتفسيرِ وجهِ

¹ الحسن بن عثمان المفتي، خلاصة المعاني، (القاهرة: دار الاعتصام، 1993)، 216.

² سيبويه، الكتاب، 1: 34.

³ أحمد الجوازي، نحو المعاني، 26.

⁴ مشكور العوادي، البحث الدلالي في تفسير الميزان (بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، 2003)، 299.

⁵ ابن فارس، الصحاح، 189.

⁶ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 72.

⁷ سيبويه، الكتاب، 1: 34.

العناية في كلِّ موضع¹، فقال: "...فهذا جيدٌ بالغٌ، إلّا أنَّ الشَّانَ في أنَّه ينبغي أن يعرفَ في كلِّ شيءٍ قَدَمٌ في موضعٍ من الكلامِ مثل هذا المعنى، ويفسِّرُ العنايةَ فيه هذا التفسيرُ"².

ولهذا، نلاحظُ أنَّ الجرجانيَّ كان يقفُ موقفَ المؤاخذِ هؤلاءِ النُّحاةِ والمفسِّرينَ الذين يَرَوْنَ أنَّ علَّةَ التَّقديمِ لا تقومُ على العناية والاهتمام، بل إنَّ الأمرَ أبعدُ من هذا؛ وعليه فهو يحثُّ القارئَ على أن يبحثَ عن الأسبابِ النُّحويَّةِ للتَّقديمِ والتَّأخيرِ، حيثُ يقولُ: "وقَدْ وَقَعَ في ظنونِ النَّاسِ أنَّه يكفي أن يُقالَ: إنَّه قُدِّمَ للعناية، ولأنَّ ذِكْرَهُ أَهمُّ، مِنْ غَيْرِ أن يذكرَ مِنْ أَثَرِ كَانَتْ تلكَ العنايةُ، ولمْ كانَ أَهمُّ، ولِتَخِيلَهُمْ ذلكَ، صَغُرَ أمرُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في نفوسِهِمْ، وهَوَّنُوا الخطبَ فيه"³.

وبالتَّزامنِ مَعَ هذا الرَّأيِ، يُؤكِّدُ رشيد بلحبيب - في مفتح مؤلِّفه "ضوابط التَّقديم وحفظ المراتب في النُّحو العربي" - أنَّ البحثَ النَّاجِعَ هو ذلكَ البحثُ الَّذي يُركِّزُ أساساً على التَّحليلِ الخطِّي الَّذي يقومُ على اتِّباعِ ترتيبِ الكلماتِ، وبناءً عليه، فإنَّ معرفةَ بعضِ هذه الخصائصِ يُفيدُنا لا محالةَ في تَعَرُّفِ الجانبِ التَّركيبيِّ للتَّقديمِ والتَّأخيرِ، على مستوى التَّنظيرِ أو على مستوى التَّطبيقِ، إذ ما يقعُ مِنْ تقديمٍ وتأخيرٍ فإنَّما يقعُ بَيْنَ مَكُونَاتِ الجُمْلَةِ التَّركيبيَّةِ؛ فحينما نلجأُ إلى وَصْفِ بنيةِ الجُمْلَةِ نفهمُ كَيْفِيَّةَ ارتباطِ المعنى أو المدلولِ بمجموعةٍ مِنْ شَأْنِهَا أن تكشفَ لنا تلكَ العلاقاتِ الحَقِيقِيَّةَ القائمةَ بَيْنَ الشَّكْلِ والمضمونِ أو المبنى والمعنى⁴. وذلكَ لأنَّ الجُمْلَةَ - كما يقولُ تمام حسان - تنتظمُ مجموعةً مِنَ القرائنِ الَّتِي تتحكَّمُ في تنظيمِ وظائفِ الكلماتِ فيها، وتساعدُ على نَسْجِها نَسْجاً وظيفياً تنسجُمُ مَعَهُ الجُمْلَةُ وعلاقاتُها المتشابهةُ بَيْنَ أَجزائها بحيثُ تُوَدِّي في النِّهايةِ إلى معناها الدَّلاليِّ-النُّحويِّ⁵.

لَقَدْ أَصْبَحَ مِنَ المَعهودِ عِنْدَ النُّحاةِ أنَّ معنى الجُمْلَةِ لَيْسَ هو حاصلُ جمعِ معاني مفرداتها - كما يُبيِّنُ بلحبيب - بدليلِ أنَّكَ تُعَيِّرُ مِنْ ترتيبِ المفرداتِ فيتغيَّرُ المعنى الجُمْلِيُّ مَعَ أنَّ حاصلَ معاني المفرداتِ لا يتغيَّرُ⁶.

¹ محمَّد كريم الكوّاز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم (بنغازي: دار الكتب الوطنية، 1997)، 310-311.

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، 107-108.

³ ن. م، 135.

⁴ رشيد بلحبيب، ضوابط التَّقديم وحفظ المراتب في النُّحو العربي (الدار البيضاء: منشورات كَلْبَةِ الآداب والعلوم الإنسانيَّة- جامعة محمَّد الأول، 1998)، 16.

⁵ تمام حسان، اللُّغة العربيَّة معناها ومبناها، 325.

⁶ رشيد بلحبيب، ضوابط التَّقديم وحفظ المراتب في النُّحو، 5.

واعتمادًا على هذه الوجهة اللافية، يذهب زكي نجيب محمود إلى أن الوحدة التي تربط أجزاء الجملة ربطًا يكسبها معناها هي ذات صلة وثيقة بالترتيب، أو إذا شئت مصطلحًا رياضيًا فقل: إن وحدة الجملة ذات صلة بالتسلسل الذي يكون بين مفرداتها، كأنما الجملة عدّة ذو أرقام تتغيّر قيمته بتغيّر ترتيب أرقامه¹.

ويشير يوهان فك Johann Fück [1894-1974] أن مثل تلك الشواهد القرآنية الخاصة بالتقديم والتأخير لا يمكن أن تكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حيًا، ولا يزال يقوم مقام الرتبة ويُبيح فيها حرية ملحوظة².

إذن، فظاهرة التقديم والتأخير في الجملة العربية، وبالتالي في النص القرآني، تستدعي سياقًا ما؛ وبالضرورة تستدعي مراعاة للسياق التحويلي الذي قيل فيه يكشف عن حقيقة التقديم أو التأخير، ففي قوله تعالى: {سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا أَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ}³ يذكر الزمخشري أنه لو جاء سياق الكلام مثلًا: "كانوا يظلمون أنفسهم"؛ لما تحققت مزية تخصيص أنفسهم وحدهم بالظلم، فجاء بتقديم المفعول به؛ للاختصاص، كأنه قيل: وخصّوا أنفسهم بالظلم ولم يتعدّها إلى غيرها⁴، وبالتالي هنا إبراز لتلك النفس التي ظلمت وتحيل لأثره عليها.

ولعلّ من المواضع اللافية التي تحتاج إلى تأمل قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}⁵، حيثُ قُدِّمَ "الله" - المفعول به المقدم على "العلماء" الفاعل المؤخّر، وهو ما أطلق عليه النحاة والمفسّرون في سياق هذه الآية "ما قُدِّمَ والنتية به التأخير"⁶، إذ اقتضى سياق المعنى تقديم المفعول على الفاعل، فلا يصح إلا به؛ فيؤكّد المفسّرون أنه بعد أن عدّد الله آياته، وأعلام قدرته، وآثار صنعته، وما خلّق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يُستدلّ به عليه، وعلى صفاته من خلال قوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

¹ بلحبيب، ضوابط التقديم وحفظ المراتب، 5.

² يوهان فك، العربية - دراسات في اللغة واللهجات والأساليب (القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي، 1951)، 15.

³ القرآن الكريم، الأعراف: 177.

⁴ الزمخشري، الكشاف، 2: 179.

⁵ القرآن الكريم، فاطر: 28.

⁶ معترك الأقران، السيوطي، 1: 171.

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ ♦ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ }¹،
 أَتَبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} بتقديم "الله" على معنى: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ
 هم العلماء دُونَ غَيْرِهِمْ؛ لأنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَقَدْ مَضَى السِّيَاقُ عَلَى تَعْدِيدِ آيَاتِ قُدْرَتِهِ، فَنَاسَبَ تَقْدِيمُ
 المفعول اقتضاء السِّيَاقِ².

وعلى غرارِ ترتيبِ هذه الآية يتساءلُ الرَّخْشَرِيُّ: هل يَخْتَلِفُ المعنى إذا قُدِّمَ المفعولُ في هذا الكلامِ أو
 أُخِّرَ؟ فيُجِيبُ قَائِلًا إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ؛ حَيْثُ إِذَا قُدِّمَتْ اسْمُ اللَّهِ وَأَخَّرَتْ العلماءُ كَانَ المعنى: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
 اللَّهَ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ هُمُ الْعُلَمَاءُ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَإِذَا عَمِلَتْ عَلَى الْعَكْسِ، أَيِ تَقْدِيمِ "الْعُلَمَاءُ" عَلَى "اللَّهُ"، انْقَلَبَ
 المعنى إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ إِلَّا اللَّهَ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}³، وهما معنيانِ مُخْتَلِفَانِ⁴.

وبما أَنَّ سِيَاقَ الآيةِ يَتَحَدَّثُ حَوْلَ خَشْيَةِ الْعُلَمَاءِ لِلَّهِ؛ لِكُؤْنِهِمْ عُلَمَاءُ وَتَخْصِيصًا لَهُمْ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، يَذْكُرُ
 ابْنُ هِشَامٍ وَجْهَيْنِ لـ"ما" فِي "إِنَّمَا يَخْشَى..."، أَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ، فَهُوَ مَا جَزَمَ بِهِ النُّحَاةُ، أَنَّ "ما" كَافَّةٌ عَلَى التَّقْدِيمِ
 وَالتَّأخِيرِ؛ فَأَفَادَتِ الْحَصْرَ وَالْقَصْرَ، وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي - وَهُوَ وَجْهُ لَا يَمْنَعُهُ ابْنُ هِشَامٍ نَفْسُهُ - فَهُوَ أَنَّهَا بِمَعْنَى اسْمِ
 الْمَوْصُولِ "الَّذِي" دُونَ تَقْدِيمِ وَتَأخِيرِ، وَبِالتَّالِي "الْعُلَمَاءُ" خَبَرِ إِنَّ، وَالضَّمِيرُ الْعَائِدُ مُسْتَتَرٌّ فِي الْفِعْلِ "يَخْشَى"، وَقَدْ
 أُطْلِقَتْ "ما" الْمَوْصُولِيَّةُ هُنَا عَلَى الْعُقْلَاءِ⁵.

كما أَنَّ أَسْلُوبَ الْحَصْرِ الْمَتَمَثِّلَ بِـ"إِنَّمَا" يُسْتَهْمُ فِي "الْحَرَكَةِ الدَّلَالِيَّةِ-النَّحْوِيَّةِ" لِهَذَا التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ⁶، حَيْثُ
 يُشِيرُنَا هَذَا التَّرْكِيْبُ حِينَمَا نَبْدَأُ بِقِرَاءَتِهِ بِدَايَةِ مِنْ "إِنَّمَا" أَنَّ ثَمَّةَ مَوْضُوعًا هَامًّا مُتَحَدِّثًا عَنْهُ سِيَاقِي بَعْدَهَا، وَمَرُورًا
 بِالْفِعْلِ "يَخْشَى" الَّذِي جَاءَ عَلَى صُورَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الدَّيْمِيَّةِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَهُوَ حَالٌ هُوَ لَا
 الْعُلَمَاءُ فِي خَشْيَتِهِمْ لِلَّهِ، وَفِي حَالِ كَوْنِ الْفِعْلِ "يَخْشَى" يُمَهِّدُ لِلْجُمْلَةِ مِنْ حَيْثُ التَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ. ثُمَّ "نَصْطَدِّمُ"
 بِلَفْظِ "اللَّهُ" الَّذِي يُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَّةِ بِالْغَةِ مِنَ الْخَشْيَةِ، وَيُشِيرُ أَيْضًا إِلَى "الْجِهَةِ الْعَالِيَا" الَّتِي يُسَلِّطُ الصَّوْءَ عَلَيْهَا، وَكَأَنَّهَا

¹ القرآن الكريم، فاطر: 27-28.

² محمد الكوازي، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، 321.

³ القرآن الكريم، الأحزاب: 39.

⁴ الرّمخشري، الكشاف، 3: 307-308.

⁵ ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 338.

⁶ أبو المكارم، الجملة الفعلية، 98.

في موضع "التبشير التحويلي" Syntactic Focalization - إن جاز لي التعبير - وبالتالي ينتظر القارئ ويتساءل: مَنْ هؤلاء الذي "يخشون الله"، أو "يخشى الله" على حكاية الآية. ويزيد من وتيرة هذا التساؤل تقديم شبه الجملة "من عباده" المتعلقة بالعلماء التي تدل على تخصيص هؤلاء العلماء. وبعد كل ذلك تأتي كلمة "العلماء"؛ كي تمنح القارئ شعوراً نحويًا ودلاليًا بحقيقة هؤلاء الذي "يخشون الله"، فجاءت مؤخرًا؛ كي تُخبر عنها، ومعرفةً بـ"ال" التعريف كي تُعرف بها دون سواهم.

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ} ¹، يتساءل الفخر الرازي ما فائدة تقديم اسم الله على الشركاء في هذه الآية؟ فيجيب أن سياق الآية يدل على استعظام أن يتخذ الله شريكاً سواء كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك ².

ثم يبيّن الرازي أننا إذا عرفنا هذا الأمر، فإنّ ثمة ثلاث حالات إعرابية لقراءة "الجن" في هذه الآية، وهي النصب والرفع والجر، أمّا وجه النصب فالمشهور - كما يقول الرازي - أنه بدلٌ من قوله "شركاء". وقد قال بعض النحاة أن هذا التخريج ضعيف؛ لأنّ البدل يقوم مقام المبدل، فلو قيل: "وجعلوا لله الجن" لم يكن كلاماً مفهوماً، بل الأولى جعله عطفاً بيان. وأمّا وجه القراءة بالرفع فهو أنه لما قيل "وجعلوا لله شركاء" فهذا الكلام لو وقع الاقتصار عليه، لصح أن يراد به الجن والإنس والحجر والوثن فكأنه قيل: ومن أولئك الشركاء؟ فقيل: الجن. وأمّا وجه القراءة بالجر فعلى الإضافة التي هي للتبيين ³.

ويرى الجرجاني أننا وإن كنّا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء، وعبدوهم مع الله، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإنّ تقديم "الشركاء" يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن. وإذا أُخِّرَ فقيل: "جعلوا الجن شركاء لله" لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله، فأما إنكار أن يُعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير "الشركاء" دليل عليه؛ وذلك أن

¹ القرآن الكريم، الأنعام: 100.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 13: 120.

³ ن. م، 13: 120.

التقديم يكون مع التقديم: أن "شركاء" مفعول به أول للفعل "جعل"، و"لله" في موضع المفعول به الثاني، ويكون "الجن" على كلام ثانٍ، وعلى تقدير أنه قيل: "فمن جعلوا شركاء لله تعالى" فقيل: الجن¹. وإذا كان التقديم - كذلك - وقع الإنكار على كون "شركاء لله" على الإطلاق من غير اختصاص شيء دون شيء. وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير الجن قد دخل في الإنكار دخول اتخاذ من الجن؛ لأنه الصفة التي ذكرت مجردة غير مجرأة على شيء كان الذي يعلق بها من النفي عامًا في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة... وإذا أُجر فقيل "وجعلوا الجن شركاء لله" كان "الجن" مفعولًا أولًا و"الشركاء" مفعولًا ثانيًا، وإذا كان كذلك كان الشركاء مخصوصًا غير مطلق من حيث كان محالًا أن يجري خبرًا على الجن ثم يكون عامًا فيهم وفي غيرهم. وإذا كان كذلك، احتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى الجن خصوصًا أن يكونوا شركاء دون غيرهم، وهو أمر تنزه عنه الذات الإلهية².

ويُعقب فاضل السامرائي على هذا الكلام بأن التقديم والتأخير في هذه الآية يُفيدان توسعًا في المعنى، فإنه لو قلت "وجعوا الجن شركاء لله" لنقص المعنى عما في الآية؛ ذلك أن معنى الآية إنكار أن يكون لله شريك من الجن وغيرهم؛ فقال: {وجعلوا لله شركاء}، ثم بين الشركاء فقال "الجن" على البدلية، ولو قال: "وجعلوا الجن شركاء لله"؛ لما أفاد إنكار أن يكون لله شريك، وإنما أنكر أن يكون الجن شركاء لله، فلو كان غيرهم شريكًا له لم يستنكر ذلك، ونظيره أن تقول منكراً: "اتخذ محمود له وكيلًا ساليماً"، و"اتخذ ساليماً وكيلًا له"، فإن الجملة الأولى إنكار أن يتخذ له وكيلًا أصلاً ثم بينت الوكيل، وأما الجملة الثانية فإنها إنكار اتخاذ ساليماً وكيلًا له، ولو اتخذ غيره لم يكن بمستنكر³.

وهذا يعني أن سياق التوسع أسهم في بناء هذا التركيب النحوي في الآية على هذا الصورة، وأن سياق التنزيه الذي تحمله الآية وما يحيط بها كان سببًا في تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم.

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 221-222.

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، 221-223؛ الكوازي، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن، 308-309.

³ السامرائي، الجملة العربية والمعنى، 162.

وفي قوله تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} ¹، يتجلى لنا مظهران نحويان من التقديم والتأخير، فقد تقدّم المفعول به "خيفة" ² على الفاعل "موسى" ³، وتقدّم الضمير "هائه" في "نفسه" على عائده "موسى". فيتبادر إلى الذهن ما حقيقة هذا التقديم والتأخير؟ وهل له من سياق ما ⁴؟

لكي نكتمل صورة السياق ينبغي أولاً أن نستحضر مجموعة من الآيات؛ فقد وردت هذه الآية خلال قصّة النبي موسى مع السحرة الذين دفعهم فرعون إلى ذلك، إذ جاء في هذا المشهد القرآني: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} ⁵ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ♦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ♦ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ♦ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى ♦ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} ⁶، وفيه نلاحظ أن الموقف ليس سهلاً أو يسيراً على النبي موسى، فعندما تحولت حبال السحرة وعصيتهم إلى أفاعٍ تتحرك وتسعى، تلبّسه خوفٌ حيال جرى وما يجري بما رآه أمام ناظره، وحيال ما يمكن أن يكون من مخاوف وتساؤلات تعتريه "إذا وقع ظنه على شيءٍ يسوءه" ⁶ - كما يُبيّن ابن عطية الأندلسي - وما إذا سيُصدّقه الناس، أو أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا ⁷، فاجتمعت عدّة مخاوف؛ فتناغمت هذه الصورة النفسية مع التركيب النحوي؛ لأنّ الخوف - المصرّح عنه في الآية بـ "خيفة" هي بؤرة تركيبيّة **Structural Focus** - إن جاز لي التعبير - فقدّمت "خيفة"؛ لإسراعها في الحالة النفسية، وهذا ما يوضّحه البيضاوي بأنّ النبي موسى أضمر في نفسه خوفاً من مفاجئته ⁸ على ما هو مقتضى الجليّة البشرية ⁹ والطبيعة الإنسانية المجبولة ¹⁰ على التفرّج من الحيات والاحترار من

¹ القرآن الكريم، طه: 67.

² محمد الإبراهيم، إعراب القرآن الكريم، 316.

³ صالح، الإعراب المفصل، 7: 119؛ علوان وآخرون، إعراب القرآن الكريم، 3: 1393.

⁴ ألبتة على نفسي أن أبحث في السياق النحوي لهذه الآية؛ لأنّي كنتُ أشعر - بحسب لغوي - أن هذه الآية لا تدخل فقط ضمن ما سمّاه كثير من النحاة والمفسرين - على رأسهم ابن الأثير من القدماء، ومحمد عبد المطلب من المحدثين - "التقديم والتأخير لمراعاة الفاصلة القرآنية".

⁵ القرآن الكريم، طه: 65-70.

⁶ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 10: 53.

⁷ الشوكاني، فتح القدير، 3: 466.

⁸ السمين الحلبي، الدرّ المصون، 8: 70؛ المنتجب الهمداني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، 3: 446.

⁹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2: 373؛ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 7: 356.

¹⁰ الرّمخشري، الكشاف، 3: 155.

ضررها المعتاد من اللسع ونحوه¹، أو من أن يُخالج الناس شكٌ فلا يتبعوه². وكأنَّ المدة الزمنية للتركيب تجعل الكلمة الأولى التي تسترعي الانتباه أولاً، فلو قيل: "أوجس موسى في نفسه خيفة"؛ لَعَلَّمْنَا أنَّ الأمرَ يسيرُ في طريقةٍ عاديةٍ، ولكنَّ تقديمَ "خيفة" بالطريقة التي عَرَضَهَا النَّصُّ القرآنيُّ يجعلُ الأمرَ غيرَ عاديٍّ بالضبط كما هو الأمرُ في قلبِ الحبال والعصيِّ إلى أفاعي بقوة فعلِ السَّحَرِ؛ فقد قُلبَ التركيبُ التَّحويُّ تساوفاً مع سياقِ الآية.

كما أنَّ الذي يدلُّ على اتِّساعِ مدى "خيفة" هو وقوعُها نكرةً؛ لأنَّ النكرةَ أعمُّ من المعرفةِ وأشملُ، بمعنى أنَّ مجيئها نكرةً تُصَوِّرُ تلكَ الحالةَ التَّفسيَّةَ التي انتابت النَّبيَّ موسى. ومن جهةٍ ثانيةٍ تجعلُ القارئَ يتخيَّلُ صوراً مختلفةً متباينةً غيرَ محدَّدةٍ ومحدَّدةٍ، وهو المعنى المرادُ من هذا التركيبِ³.

ومن الأمور اللَّافتةِ في تفسيرِ سياقِ هذه الآيةِ ما بيَّنه الألوسيُّ، فقد أشارَ إلى أنَّ التَّوْنِيْنَ في "خيفة" لها دلالاتٌ سياقيةٌ تتماشى مع نَظْمِ الآيةِ، فهي تَوْنِيْنٌ تحملُ معنى الضَّدِّيْنِ، فهي من جهةٍ تَوْنِيْنٌ للتَّحْقِيْرِ، أيُّ أُخْفِيَ فيها بعضُ خوفٍ من مفاجأةٍ ذلكَ بمقتضى طَبْعِ الجبلةِ البشريَّةِ عندَ رؤيةِ الأمرِ المَهولِ، وهي من جهةٍ ثانيةٍ تَوْنِيْنٌ للتَّعْظِيْمِ، أيُّ أُخْفِيَ فيها خوفاً عظيماً. كما أنَّ صيغةَ "خيفة" التي على "وَزَنٍ فِعْلَةٍ" هي صيغةٌ دالةٌ على الهيئَةِ والحالةِ اللَّازِمةِ التي تُشْعِرُ بذلك؛ ولذا اختيرتْ في هذا السِّياقِ دونَ كلماتٍ أخرى⁴ كـ "خوفاً" أو "مخافة"، وما إلى ذلك.

وبالإضافة إلى هذا نلاحظُ - أيضاً - أنَّ ضميرَ الغيبةِ "الهاء" في "نَفْسِهِ" تَقَدَّمَ على عائِدِهِ "موسى"؛ لأنَّ الأصلَ في الضَّمِيرِ - عندَ النُّحاةِ أنَّ يعودَ على عائِدٍ يسبِّهُه رتبةً ولفظاً، باستثناءِ مسائلٍ يرجعُ فيها الضَّمِيرُ إلى ما اسْتَعْنَى عَنْ ذِكْرِهِ بما يدلُّ عليه من قرائنٍ في اللَّفْظِ نَفْسِهِ؛ ولهذا قالَ ابنُ مالِكٍ إنَّ "الأصلَ تقديمُ مفسِّرِ ضميرِ الغائبِ، ولا يكونُ غيرَ الأقربِ إلَّا بدليلٍ، وهو إمَّا مُصَرِّحٌ بِهِ بِلَفْظِهِ، أو مُسْتَعْنَى عَنْهُ بحضورِ مدلولِهِ حسّاً أو عِلْماً، أو بِذِكْرِ ما هو له جزءٌ أو كلٌّ أو نظيرٌ أو مصاحبٌ بوجهٍ ما"⁵. ولهذا، يذكرُ ابنُ الأنباريِّ أنَّ في هذه الآيةِ

¹ أبو السَّعود، إرشاد العقل، 3: 475.

² البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 4: 32؛ شيخ زاده، الحاشية، 5: 637-638.

³ الألوسي، روح المعاني، 9: 312.

⁴ ن. م، 9: 312.

⁵ ابن مالِك، التَّسهيل، 170.

دليلاً على إثبات جواز تقديم الضمير على المظهر؛ لأنه في نية التأخير¹، بمعنى أن هذه الآية دليل واضح على وجود مرجع للضمير "موسى" (الفاعل) الذي تأخر لفظاً لا رتبةً. وعلى الرغم من هذا، يؤكد الباحث مناع القطان أن معرفة مرجع الضمير في هذه الآية إنما يُعرف من سياق الآيات؛ وبالتالي يُفضي سياق الآية إلى أن مرجع الضمير متأخر لفظاً لا رتبةً².

وقد أطلق عليه الباحث أحمد عبد الراضي "التقدم المعنوي"³، أي تقدماً معنوياً لمرجع الضمير، وهو أن لا يكون هذا المرجع أو المفسر مُصرّحاً بتقديمه، بل هناك شيء آخر غير ذلك الضمير يقتضي كونه المفسر قبل موضع الضمير⁴.

وبناءً عليه، يمكن أن نقول إن سياق الآيات، الذي أشرنا إليه آنفاً، يدل على سياق الصورة الحركية السريعة⁵ والمباغنة التي تشبه ملح البصر - كما يقول الشعراوي - وما أن أثر الحدث يُخالج شعور النفس فجاء بلفظ "نفس" الدال على إنطاق الحدث، واقتربت بضمير يسبق عائدته، وكأن الحالة "خيفة" تسبق من يستشعرها "موسى".

ومن المثير هنا، أن نُشير إلى ما ذكره ابن الأثير حينما عارض كثيراً من النحاة الذين يزعمون أن كل تقديم وتأخير إنما يقومان على معانٍ نحوية مختلفة؛ كالاختصاص، والاهتمام، والتعظيم، والمبالغة... وغيرها من المعاني النحوية التي يقتضيها السياق، فيقول إنه من الممكن أن نجد تقديمًا وتأخيرًا بما في ذلك خروج عن النسق الأصلي للجملة العربية دون أن يتضمّن الكلام أي دلالة على الاختصاص والعناية، ويكون قصد المتكلم منصّباً على البُعد الصوتي الإيقاعي للكلام وليس على البُعد المعنوي في التركيب، إذ كثيراً ما يعني المتكلم بنظم كلامه؛ لأنه يكون أوقع في النفس من الكلام حين يُساق على عواهنه دون إقامة وزن كبير لهذا الجانب الذي يُعدّ عند بعض النحاة شكلياً، لكن تأثيره على جانب المعنى بالغ في نفس السامع، نحو قوله تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً

¹ ابن الأنباري، الإصناف، 1: 71.

² مناع القطان، مباحث في علوم القرآن (الرياض: الدار السعودية للنشر، [د.ت.]، 171.

³ أحمد محمّد عبد الراضي، من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2007)، 20.

⁴ الرضي، شرح الكافية، 2: 504.

⁵ الشعراوي، تفسير الشعراوي، 15: 9318.

مُوسَى ♦ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى¹، وتقديرُ الكلام: "فَأَوْجَسَ موسى في نَفْسِهِ خِيفَةً"، وإِنَّمَا قَدَّمَ المفعول على الفاعل، وفَصَلَ بَيْنَ الفعلِ والفاعلِ بالمفعول وبحرفِ الجرِّ؛ قَصْدًا لتحسينِ النَّظْمِ، وعلى هذا فَلَيْسَ كُلُّ تقديمٍ لِمَا مكانُهُ التَّأخِيرُ مِنْ باب الاختصاص؛ فَبَطُلَ ما ذَهَبَ إِلَيْهِ النُّحَاةُ². ولكنَّ كَثِيرًا مِنَ النُّحَاةِ والمفسِّرين ردُّوا عَلَيْهِ بأنَّ تأخيرَ الفاعلِ وتقديمَ المفعول في هذه الآية لَيْسَ مراعاةً للفواصلِ القرآنيَّةِ³.

وَعَيَّرَ خَافَ أَنَّ سياقَ الآياتِ تحملُ عنصرَ المفاجأةِ⁴ لأمورٍ تُحِيلُك وَإِذَا هي في الواقع أكبرُ بكثيرٍ، فقد أشارَ أبو حَيَّان الأندلسيُّ أَنَّ "إِذَا" في قوله "فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ" هي "إِذَا" الفجائية⁵، وبالتالي فَإِنَّ سيرورةَ السياقِ فيها يقومُ على أدواتِ التَّخْوِيفِ ومحاولةِ دَبِّ الرُّعْبِ والانتظارِ لِمَا هو قادمٌ، لأنَّ الموقفَ الَّذي دارَ بَيْنَ النَّبِيِّ موسى وَبَيْنَ السَّحَرَةِ هو موقفُ "مبارزةٍ"، ونَظَرًا إلى ذلك؛ تَدَاعَتْ المخاوفُ "خِيفَةً" وتَنَالَتْ بما يَحْمِلُهُ معنى الفعلِ "أَوْجَسَ"، فَقَدْ ذَكَرَ الشُّوكَايُ أَنَّ الفعلَ "أَوْجَسَ" يُرْشِدُ إلى طَبِيعَةِ "المشهدِ التَّحْوِي"؛ فَيَأْتِي بمعنى "أَحَسَّ"، أو "وَجَدَ"، أو "أَضْمَرَ"، أو "خَافَ"⁶؛ وَكَأَنَّ كُلَّ هذه الدَّلالاتِ والمعاني السِّيَاقِيَّةِ⁷ تجذبُ كلمةَ "خِيفَةً" إِلَيْهَا قبلَ صاحبِ الفعلِ (الفاعلِ موسى)، بَلْ كَأَنَّ ثَمَّةَ تَجَادُّبًا بَيْنَ الفعلِ "أَوْجَسَ" وَبَيْنَ المفعولِ "خِيفَةً"، وَبَيْنَ تقديمِ الضَّميرِ - المَجْدُوبِ نَحْوًا - على عائدِهِ المتأخِّرِ.

وفي قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}⁸، فَقَدْ قَدَّمَ "إِبْرَاهِيمَ" المفعولَ بِهِ على "رَبُّهُ" الفاعلِ المؤخَّرِ⁹. ويدخلُ هذا ضِمْنَ التَّقْدِيمِ اللَّفْظِيِّ، وهو أَنْ يَكُونَ مرجعُ الضَّميرِ مُصَرِّحًا به في الكلامِ مذكورًا قبلَ الضَّميرِ¹⁰، وهو ما عَرَفَهُ ابْنُ الحَاجِبِ بأنَّ المرجعَ "إِبْرَاهِيمَ" متقدِّمٌ لفظًا ورُتْبَةً¹¹.

¹ القرآن الكريم، طه: 67-68.

² ابن الأثير، المثل السائر، 2: 36-37.

³ أبو السَّعُود، إرشاد العقل، 3: 475.

⁴ السَّمِين الحلي، الذرِّ المصون، 8: 70؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 10: 52.

⁵ أبو حَيَّان الأندلسي، البحر المحيط، 7: 354-355.

⁶ الشُّوكَاي، فتح القدير، 3: 466.

⁷ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 10: 54.

⁸ القرآن الكريم، البقرة: 124.

⁹ الإبراهيم، إعراب القرآن الكريم، 19؛ صالح، إعراب المفصل، 1: 157.

¹⁰ أحمد عبد الرَّاضِي، من أسرار المخالفة بين الضَّمير ومرجعه في القرآن الكريم، 18-19.

¹¹ الرِّضِي، شرح الكافية، 2: 4.

ويرى النيسابوري أن هذه الصورة التحوّية من بين تلك المواضع التي يجب فيها تأخيرُ الفاعلِ، وإزالتهُ من مركزه الأصلي؛ وذلك لأنه لو قُدِّمَ الفاعلُ - بالنسبة إلى هذه الآية وأخذَ رُتْبَتَهُ الأصلية - وفي الوقتِ نفسِهِ اتَّصلَ به ضميرُ المفعولِ للزَمِ الإضمارِ قَبْلَ الذِّكْرِ لَفْظًا¹.

ويُلَخِّصُ محيي الدين شيخ زاده حقيقة هذا السياقِ التحوّية في مسألتين اثنتين، مؤكِّدًا بدايةً أن هذه الآية تتناغمُ مع ما يليها من آياتٍ²، فكانت مفتتح مشهدٍ قرآنيٍّ من قصّة النبي إبراهيم - عليه السلام - أمّا السياقُ الأوّل في هذا التقديم هو الاهتمام³؛ فإنَّ لفظَ "إبراهيم" المنصوب، في قراءة الجمهور، على أنه مفعولٌ "ابتلى" ولفظَ "رَبُّهُ" المرفوع على أنه فاعلٌ يعني أنَّ المفعولَ وإن قُدِّمَ لفظًا فهو مؤخَّرٌ رتبةً إلاَّ أنَّه قُدِّمَ للاهتمام به؛ ذلك أنَّ كَوْنَ الرَّبِّ مُبْتَلًيًا مَقَرَّرٌ في الأذهانِ ومعلومٌ⁴ في ذاته، والمفعولُ لا يتشوّفُ الذهنُ إلى بيانه ومعرفته، وإنَّما يتشوّفُ ويطلبُ معرفةَ المبتلى⁵. بل يذهب القرطبيُّ مؤكِّدًا وحاصرًا أنَّ هذا التركيب بما فيه من تقديمٍ وتأخيرٍ إنّما بُنيَ على الاهتمام⁶.

وأما السياقُ الثاني، فهو سياقُ الإيجاز؛ حيثُ إنَّه لو قُدِّمَ الفاعلُ، وقيل: "ابتلى ربُّ إبراهيم"، ثُمَّ ذَكَرَ "إبراهيم" منصوبًا على المفعولية؛ لتكرَّرَ ذِكْرُ "إبراهيم"؛ والإيجازُ مطلوبٌ في سياقِ هذا الكلام. كما أنَّ كَوْنَ ضميرِ المفعولِ مُنْصَلًّا بالفاعلِ يُوجِبُ تقديمَ المفعولِ إذ لو أُجِرَّ وقيل: "وإِذِ ابْتَلَى رَبُّهُ إِبْرَاهِيمَ" للزَمَ احتمالُ الإضمارِ قَبْلَ الذِّكْرِ لَفْظًا وَرُتْبَةً، وذلك لا يجوزُ إجماعًا عِنْدَ النُّحَاةِ⁷.

وَيُبَيِّنُ الطَّاهِرُ ابنُ عاشورٍ - مُضِيفًا سياقًا ثالثًا - أنَّ مقامَ الآية وسياقها هو مقامُ تشریفٍ للنبي إبراهيم؛ وهو ما عبَّرَ عنه بهجت صالح على أنَّ "رَبُّهُ" الفاعلُ المؤخَّرُ المرفوع بالضمِّ مع الضميرِ المضموم يدلُّ، كلُّ ذلك، على التعظيم⁸. وبالتالي فإنَّ تقديمَ المفعولِ وهو لَفْظُ "إبراهيم" يحملُ معنى أنَّه - إبراهيم - المقصودُ بالتَّشْرِيفِ؛

¹ النيسابوري، غرائب القرآن، 1: 435.

² أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 1: 599.

³ ن. م.، 1: 599.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1: 510.

⁵ شيخ زاده، الحاشية، 2: 270.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1: 510.

⁷ شيخ زاده، الحاشية، 2: 270.

⁸ صالح، الإعراب المفصل، 1: 157.

وذلك من خلال إضافة اسم "رَب" إلى اسمه مع مراعاة نظم الإيجاز وسياق التعظيم في الوقت نفسه، ولذلك لم يُقل: "وإذ ابتلى الله إبراهيم"¹.

وما يدل على سياق التشريف أنه أتبع هذا التركيب بقوله "فَأَتَمَّهُنَّ"، فجاء فيه بالفاء؛ للدلالة على الفور في الامتنال²، وذلك - كما يؤكد ابن عاشور - من شدة العزم؛ لأن دلالة الإتمام في الأصل هي الإتيان بنهاية الفعل، أو إكمال آخر أجزاء المصنوع³، أو - كما يُضيف الزجاج - الوفاء بما أُمر به فيهن⁴.

بقي أن أُشير - إضافةً إلى تلك الصور السياقية التحويلية في الشواهد القرآنية أعلاه - فإننا نجد بعض الباحثين المحدثين من يتحدّث حول جمالية التقديم والتأخير في مواضع كثيرة في النص القرآني، وما لهذه المسألة من حيوية في إغناء النص، وكل ذلك - طبعاً - يأتي نتيجةً لسباق الآيات، فنرى محمد المبارك - على سبيل المثال - يقول خلال معرض كلامه حول سورة "الحاقة" إن بعض الآيات قد رُتبت فيها الجملة على غير الترتيب الطبيعي؛ فقدم ما حقه التأخير، أو أجز ما حقه التقديم، نحو قوله تعالى: {..وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}⁵؛ فوضع الفاعل "ثَمَانِيَةٌ" في آخر الجملة وقدم عليه المفعول به "عَرْش" والظرف "فَوْقَهُمْ"، فاكْتَسَبَتِ الجملة بذلك جمالاً في الجرس والتغمة⁶ والأداء الصوتي، وكذلك أجز الفعل "فَاسْلُكُوهُ" وقدم المجرور "فِي سِلْسِلَةٍ" في قوله تعالى: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}⁷، وكذلك الأمر - كما يقول محمد المبارك - في عدة آيات أخرى؛ حيث كان للتقديم والتأخير في كل هذه الآيات أثر واضح في حلاوة التغمة، بالإضافة إلى دقة المعنى⁸.

¹ ابن عاشور، التحرير والتلوين، 1: 702.

² يذكر المفسرون والمعجميون أن صيغة "ابتلى يَبْتَلِي ابتلاء" هي صيغة افتعال تدل على المبالغة في البلاء والاختبار. ومعنى "ابتلى" هنا اختبره، أو كلفه بأوامر ونواهي. انظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 1: 599؛ القونوي، الحاشية، 4: 197؛ الألوسي، روح المعاني، 1: 567.

³ ابن عاشور، التحرير والتلوين، 1: 703.

⁴ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 1: 204.

⁵ القرآن الكريم: الحاقة، 17.

⁶ محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، 45.

⁷ القرآن الكريم: الحاقة، 32.

⁸ المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، 45.

ويخلص محمد الكوّاز - بما ارتأيناه سابقاً - أنّ النُّحاة والمفسِّرين اعتمدوا في معرفة سبب التّقديم والتّأخير على "السِّيَاق"؛ حيثُ تتمثّل أهميّة السِّيَاق في بيان معاني الآيات، وفي الكشف عن كَيْفِيَّةِ نَظْمِ الكلام مراعاةً لتلك المعاني¹.

11. 3. الزَّمنُ السِّيَاقِيّ للفعل:

يُعَدُّ الزَّمنُ التَّحْوِيّ مِنْ أَكْثَرِ الظَّوَاهِرِ التَّحْوِيَّةِ تَعْقِيداً وَكَثْرَها اسْتِعْصَاءً وَانْفِلَاتاً مِنْ الْحَصَرِ وَالتَّحْدِيدِ². وتأتي أهميّة الفعل في التَّحْوِ العربيّ؛ بسببِ التَّصاقِهِ بِالزَّمنِ التَّصاقاً مَبْاشِراً؛ وهو ما عَبَّرَ عَنْهُ جَمْهُورُ النُّحاةِ مِنْ خِلالِ تَعْرِيفِهِمُ لِلْفِعْلِ³ بِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ حَدَثٍ مُقْتَرَنٍ بِزَمْنٍ⁴، وهذا الحدثُ⁵ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي زَمَانٍ⁶.

وَقَدْ ذَهَبَ ابْنُ عَصْفُورٍ إِلَى تَعْرِيفِ الْفِعْلِ تَعْرِيفاً جَامِعاً - عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ - حَيْثُ يَقُولُ: "والحدُّ الصحيح في الفعل أن يقول: الفعل كلمة أو ما قوّته قوّة كلمة، تدلُّ على معنى في نفسها، وتعرضُ ببنيتها للزَّمان. فقولي: "كلمة" جنسٌ عامٌّ للاسم والفعل والحرف، وقولي: "أو ما قوّته قوّة كلمة" يُخْتَرُ مِنْ "حبّذا" في مذهبٍ مِنْ يرى أنّ "حبّذا" كلّهُ فعلٌ وعليه الأكثرُ. وقولي: "تدلُّ على معنى في نفسها"، يُخْتَرُ مِنَ الْحَرْفِ. وقولي: "وتعرضُ ببنيتها للزَّمان" يُخْتَرُ مِنَ الْأَسْمِ"⁷.

ولا بُدَّ أَنْ نُبَيِّنَ هُنَا أَنَّ تَعْرِيفَ ابْنِ عَصْفُورٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ فِي أَصْلِهِ كَانَ يَدُلُّ عَلَى الْحَدَثِ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ أُدْخِلَ عَلَيْهِ عَامِلُ الزَّمنِ كمرحلة لاحقة. وهي رؤيةٌ جديرةٌ بالتأمُّلِ والعناية.

¹ الكوّاز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، 326.
² امحمد الملاح، الزَّمن في اللغة العربيّة: بنياته التركيبية والدلالية (الرباط: دار الأمان، 2009)، 23.
³ يُبَيِّنُ ابْنُ هِشَامٍ سَبَبَ تَسْمِيَةِ الْفِعْلِ بِـ"الْفِعْلِ" مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ؛ بِأَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الْفِعْلِ الْحَقِيقِيِّ، فَعِنْدَ تَقَوْلِهِ: "دَرَسَ" دَلَّ عَلَى نَفْسِ الدِّرَاسَةِ الَّتِي هِيَ الْفِعْلُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَلَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ مَا سُمِّيَ بِهِ؛ لَأَنَّهُمْ يَسْمُونُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ، إِذَا كَانَ مِنْهُ سَبَبٌ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. لِهَذَا نَرَى ابْنَ عَصْفُورٍ - مَثَلًا - يُعَرِّفُ الْفِعْلَ عَلَى أَنَّهُ: "الْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى فِي نَفْسِهِ، وَيَتَعَرَّضُ بِبَنِيَّتِهِ لِلزَّمان". انظر: ابن هشام، شذور الذهب، 35؛ ابن عصفور، المقرب، 1: 68.
⁴ ابن يعيش، شرح المفصل، 4: 205.
⁵ من الجدير أن نُشِيرَ هُنَا إِلَى أَنَّ بَعْضَ النُّحاةِ الْمُحَدِّثِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الزَّمنَ لَيْسَ شَيْئاً أَصِلاً فِي الْفِعْلِ، وَأَنَّ اقْتِرَانَ الْفِعْلِ الْعَرَبِيِّ بِالزَّمنِ حَدِيثُ النَّشْأَةِ، وَأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ كَانَتْ تُعَبَّرُ عَنِ الْفِعْلِ بِصِبْغَةِ "فَعَلٍ" الْمَاضِي بِشَكْلِ مُطْلَقٍ سِوَاكَ أَكَّانَ هَذَا الْمَاضِي بَعِيداً تَامّاً أَمْ غَيْرَ تَامٍ، وَتُعَبَّرُ بِـ"يَفْعَلُ" فَقَطْ عَنِ الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ. انظر: عصام نور الدين، الفعل والزَّمن (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1984)، 18؛ مهدي المخزومي، في النحو العربي - نقد وتوجيه، 144.
⁶ الزَّمَخْشَرِيُّ، الْمُفَصَّلُ، 243؛ ابن هشام، شرح اللّمْحَة، 2: 50.
⁷ ابن عصفور الإشبيلي، شرح جمل الزجاجي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، 1: 27.

ونجدُ سيبويه حينما يُعرِّفُ الفعلَ فَإِنَّهُ يُعرِّفُهُ على أَنَّهُ أحداثٌ مرهونةٌ بالزَّمنِ¹، فيقولُ: "وأما الفعلُ: فأمثلةٌ أُخِذَتْ مِنْ لَفْظِ أحداثِ الأسماءِ، وَبُنِيَتْ لِمَا مَضَى، وَلِمَا يَكُونُ وَلَمْ يَقَعْ، وما هو كائنٌ لم ينقطع. فأما بناءُ ما مضى فَذَهَبَ وَسَمِعَ وَمَكْتُ وَحُمِدَ. وأما بناءُ ما لم يقعَ فَإِنَّهُ قولُكُ آمراً: اذْهَبْ واقتُلْ واضْرِبْ، ومُخبراً: يَقْتُلْ وَيَذْهَبْ وَيَضْرِبُ وَيُضْرَبُ. وكذلك بناءُ ما لم ينقطع وهو ما كائنٌ إذا أَخْبَرْتَ"². ويتبيَّنُ مِنْ كلامِ سيبويه أَنَّ الزَّمنَ عِنْدَ سيبويه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

1- ما مضى، وهو الزَّمنُ الماضي.

2- ما يكونُ ولم يقع، وهو الزَّمنُ المستقبل³.

3- ما هو كائنٌ لم ينقطع، وهو الزَّمنُ الحاضر⁴.

وهذا يعني أَنَّ الفعلَ - كما يُعرِّفُهُ ابنُ الحاجبِ - هو ما دَلَّ على معنى في نفسه مقترنٌ بأحدِ الأزمنةِ الثلاثة⁵. وقد عارضَ ابنُ فارسٍ تعريفَ سيبويه للفعلِ واصفاً إياه بعدمِ الشَّمولِيَّةِ، راداً عليه: "فيقالُ لسيبويه: ذكرتَ هذا في أولِ كتابك، وزعمتَ بَعْدُ أَنَّ ليسَ وعسى ونعمَ وبئسَ أفعالٌ، ومعلومٌ أَنَّهُ لَمْ تُؤْخَذْ مِنْ مصادرٍ. فَإِنْ قُلْتَ: إِنِّي حَدَّدْتُ أَكْثَرَ الفعلِ وتركْتُ أَقلَّهُ، قيلَ لَكَ: إِنَّ الحَدَّ عِنْدَ النُّظَارِ ما لم يَزِدْ المحدودَ ما ليسَ له ولم ينقصهُ ما هو له"⁶.

ولكنَّ ابنَ السَّيِّدِ البطليوسيَّ [444-521هـ، 1052-1127م] يُجيبُ مُدافعاً عَنَ تعريفِ سيبويه

بأنَّ هذا الاعتراضَ لا يلزمُ سيبويه؛ لأنَّ "هذه الأفعالَ وإنَّ لم يكنْ لها مصادرٌ لفظيَّةٌ فلها مصادرٌ معنويَّةٌ، فكأنَّ سيبويه قد قالَ: أُخِذَتْ مِنْ لَفْظِ أحداثِ الأسماءِ لفظاً أو تقديرًا، وإنَّ لم يُصرَّحْ بذلك"⁷.

¹ أبو الحسن محمد بن عبد الله الوراق، علل النحو (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2002)، 206.

² سيبويه، الكتاب، 1: 12.

³ يُبَيِّنُ الرَّجَاجِيُّ عِلَّةَ مجيء فعل "الحال" بلفظ المستقبل، نحو: "زيدٌ يَقُومُ الآنَ، ويقومُ غداً، وعبدُ الله يركبُ الآنَ، ويركبُ غداً"، فإنَّ أَرَدْتَ أَنْ تَخْلُصَهُ لِلْإِسْتِقْبَالِ أَدْخَلْتَ عَلَى السَّيْنِ أَوْ "سوف" فَقُلْتَ: "سيفومُ زيدٌ، وسوف يركبُ عبدُ الله، فيصيرُ مستقبلًا". انظر: الرَّجَاجِيُّ، الإيضاح في علل النحو، 86.

⁴ صفية مطهري، الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2003)، 158.

⁵ الرضوي، شرح الكافية، 4: 5؛ أبو حيان الاندلسي، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (دمشق: دار القلم، 2002)، 1: 46.

⁶ ابن فارس، الصحاح، 93.

⁷ عبد الله بن السَّيِّدِ البطليوسي، إصلاح الخلل الواقع في الجمل (الرياض: دار المريخ، 1979)، 22.

ولعلَّ في مقدّمتي هذه حَوْلَ تعريفِ الفعلِ أثرًا واضحًا لذلك الخلطِ الشّدِيدِ في تحديدِ مفهومِ الفعلِ في التراثِ النّحويّ القديم¹، إذ أردتُ مِنْ خلالِ بعضِ التعريفاتِ أن أوضّحَ شيئًا هامًّا - برأيي - وهو أنَّ الفعلَ سيبقى غَيْرَ محدّدَةٍ أَطْرُهُ النّحويّةُ دونَ الصّابِطِ الذي يضبطُ ماهيّةَ الفعلِ، واستخداماتِهِ العمليّةَ، ألا وهو معيارُ السّياقِ.

ولهذا، نلاحظُ أحمدَ الجوّاري يُعقِّبُ على تقسيمِ النّحاةِ للفعل²، محاولًا أن يُقوِّمَ بعضَ المفاهيمِ الّتي يجبُ أن تؤخّذَ بالحسبانِ بخصوصِ الفعلِ، فيقولُ إنَّ تقسيمَ الفعلِ إلى ماضٍ ومضارعٍ وأمرٍ إمّا يُقصّدُ به الصّياغةُ الّتي تنطوي تحتَ كلّ قسمٍ منها جملةٌ معانٍ تلتقي في نطاقٍ معيٍّ واسعٍ كلّيّ، فالماضي إمّا أُطلقَ على يسبقُ زمنَ التّكلّمِ قريبًا كانَ ذلكَ أو بعيدًا، محقّقُ الوقوعِ أو غَيْرَ محقّقٍ، والمضارعُ ما اشتملَ على معنًى متّسعٍ رحيبٍ، يبدأ بالماضي القريبِ، وينتهي إلى المستقبلِ البعيدِ. وأمّا الأمرُ فهو صيغةٌ إنشاءٌ طلبيّ يُقصدُ به إلى طلبِ القيامِ بالفعلِ، وهو بالبدايةِ خالٍ مِنْ معنى الزّمنِ؛ لأنّه ليسَ بخبرٍ، وإمّا يكونُ معنى الزّمنِ في الخبرِ. فقولنا: "حَضَرَ زيدٌ" معناه الإخبارُ عَنْ حضورِهِ قبلَ أن يتحدّثَ المتكلّمُ بذلك، وينطبقُ به، وقولنا: "يحضُرُ زيدٌ" معناه أنّه يحضُرُ وقتَ التّكلّمِ، أو بَعْدَهُ بقليلٍ. أمّا قولُ القائلِ: "احضُرْ يا زيدٌ" فهو ليسَ إلّا طلبُ حضورِهِ، وهو حدثٌ لم يقعَ ولا يُعرَفُ إنَّ كانَ متوقّعُ الوقوعِ، حتّى يُحكّمَ لَهُ بزمنٍ معيّنٍ، أو هو بعبارةٍ أخرى إنشاءٌ، والإنشاءُ لا يقرنُ معناه بمعنى الزّمنِ³.

إذن، فعلى الرّغمِ مِنْ اتّفاقِ جمهورِ النّحاةِ حولَ ارتباطِ الفعلِ بالزّمنِ، إلّا أنَّ هناكَ اختلافًا واسعًا حولَ معاني الأفعالِ وَفَقًا لدلالاتِها الزّمنيّةِ⁴، وعليه فإنَّ السّياقَ هو الَّذي بإمكانِهِ أن يُحدّدَ مفهومَ الفعلِ وحقيقتهُ زمنيّةً ومعناه المرادَ في الجملةِ.

¹ للاستزادة والتّوسّع في تعريفِ الفعلِ، انظر: ابن السّراج، الأصول، 1: 38؛ الرّجّاجي، الإيضاح في علل النّحو، 52؛ الرّمحشري، المفصل، 292؛ ابن يعيش، شرح المفصل 7: 2؛ السّيّهي، نتائج الفكر، 66؛ الفارسي، الإيضاح العُضدي، 1: 52؛ العكبري، التّبيين، 140؛ فاضل السّاقّي، أقسام الكلام العربيّ من حيث الشّكل والوظيفة (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1977)، 77؛

² تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ ثمةَ خلافًا بين النّحاة في تقسيمِ الفعلِ وما يتعلّقُ به مِنْ زمانٍ، لا سيّما بين النّحاةِ البصريّين والكوفيّين. أمّا التقسيمُ البصريّ، فهو التقسيمُ الَّذي يتصدّره سيبويه في أن الفعلَ، مِنْ حيثِ الزّمنُ، ثلاثة أقسام: الماضي، والحال، والمستقبل. بينما ذهب الكوفيّون إلى أنَّ الفعلَ قسمان فقط، وهما: الماضي والمضارع، أمّا الأمرُ فهو عندهم مِنْ ضمنِ المضارع؛ لأنَّ الأمرَ ما هو إلّا فعلٌ مضارعٌ دخلتْ عليه لامُ الأمرِ فجزمتهُ، ثُمَّ حذفتْ حذفًا مستمرًّا وتبعثها حروف المضارعة. انظر: ابن هشام، مغني اللّبيب، 1: 25.

³ أحمد عبد السّّار الجوّاري، نحو الفعل (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، 2006)، 30-31.

⁴ انظر - مثلاً لا الحصر - ما يذكّره السّيوطي بشأن الخلافِ بين النّحاة حول أقسامِ الفعلِ ومدلولِ أزمنته لا سيّما بين البصريّين والكوفيّين، فيقول: "الفعل ثلاثة أقسام خلافًا للكوفيّين في قولهم: قسمان، وجعلهم الأمرَ مُقتطعًا من المضارع...". انظر: جلال الدين السّيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (القاهرة: المكتبة التّوفيقيّة، [د.ت])، 1: 34.

وهذا ما يؤكّده بعض النُّحاة المحدثين على أنَّ الزَّمنَ في التَّحوِ العربيِّ هو ذو طبيعةٍ سياقيَّةٍ، حيثُ لا يُنسَبُ إلَّا إلى السِّياقِ - كما يقولُ تمام حسان - وأتَّه علينا أن ننظرَ في هذا السِّياقِ؛ كي نكشفَ عن حقيقةِ الزَّمنِ، فلا يهْمُ - مثلاً - إنَّ كانَ الفعلُ الماضي آتياً مِنْ صيغةٍ "فعل" ما دامَ يُمْكِنُ بالقرينةِ المفرَّقةِ بَيْنَ الأزمنةِ المختلفةِ، أن نختارَ ما يُناسِبُ مِنَ الصِّيغِ، وأصلَحُها للدَّلالةِ على الزَّمنِ المرادِ في سياقٍ ما¹، وهذا يعني - فيما نفهمُهُ مِنْ رأيِ تمام حسان، أنَّ الزَّمنَ الحقيقيَّ للأفعالِ هو الزَّمنُ التَّحوِّي الذي يدلُّ عليه السِّياقُ، وذلك مِنْ خلالِ الصِّيغِ المفردةِ والمركَّبةِ، مَعَ ما يصاحِبُها مِنْ ضمائمَ وقرائنَ لفظيَّةٍ وحاليَّةٍ².

ثمَّ يعودُ أحمد الجواري ليؤكِّدَ أنَّ تقسيمَ الفعلِ إلى ماضٍ ومضارعٍ وأمرٍ لم يُقصدَ بِهِ أساساً إلى التَّفريقِ بَيْنَ هذه الأقسامِ بحسبِ أزمانٍ وقوعِها، بل ليسَ هذا التَّقْسيمُ هو الوسيلةُ أو الأداةُ الَّتِي اصطنعَها العربيُّ؛ للدَّلالةِ على معنى الزَّمنِ في الفعلِ، بل إنَّ معانيَ الزَّمنِ في الفعلِ لأوسَعُ وأدقُّ ممَّا يدلُّ عليه هذا التَّقْسيمُ. كما أنَّ المعانيَ لتتداخلَ في هذا التَّقْسيمِ بحيثُ يكونُ المضارعُ أحياناً صالحاً للدَّلالةِ على معنى المضيِّ حينَ تسبُّهُ أداةٌ بعينِها كـ"لَمْ، وَلَمَّا"، ونحو: "لَمْ يحضرْ"، و"لَمَّا يحضرْ". وقد يكونُ الماضي صالحاً للدَّلالةِ على معنى الحالِ أو قريباً مِنْ الحالِ، إذا أُريدَ بذلك معنى التَّحقيقِ³.

ويُضيفُ عبد القادر عبد الجليل أنَّ الزَّمنَ الدَّقِيقَ للفعلِ التَّحوِّيِّ إمَّا يؤخَذُ مِنَ التَّراكيبِ ذاتِها داخلَ دائرةِ التَّصوصِ، وسياقاتِها الَّتِي تضمُّ هذه الأفعالَ، ومنْ خلالِ كلِّ القرائنِ السِّياقيَّةِ المُنتَجةِ للتَّراكيبِ، وهو - في حقيقةِ الأمرِ - لا يوصَفُ إلَّا داخلَ إطارِ السِّياقِ⁴. وبناءً على ذلك، فإنَّ الزَّمنَ التَّحوِّيَّ - كما يُسمِّيهِ الباحثُ اللِّسانيُّ عبد القادر عبد الجليل - يتحرَّكُ داخلَ السِّياقِ وليسَ مَعَ الصِّيغِ المنعزلةِ؛ ولهذا فالزَّمنُ الطَّبِيعِيُّ المتعارَفُ عليه قد يكونُ ماضياً لكنَّهُ داخلَ منظومةِ السِّياقِ قد يكونُ حاضِراً أو مستقبلاً. ونتيجةً إلى هذا، فهو يرى أنَّ

¹ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 248.

² ن. م، 105.

³ الجواري، نحو الفعل، 32.

⁴ عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، 489.

إبقاء النُّحاة على إعراب الأفعال كما هي في الجدول الصَّرْفِيّ، على الرغم من تحريكها داخل مسارٍ زمنيٍّ متباينٍ،
مَرْدُّهُ إلى اعتدادهم بالصَّيْغَةِ دُونَ الوظيفة¹.

وَمِنْ الآراءِ اللَّافِتَةِ ما أشارَ إِلَيْهِ الباحثُ عبد القادر المهيري على أَنَّ البحثَ عَنِ المعاني المستفادة مِنْ
الإعرابِ في الفعلِ يجبُ أَنْ يَتَّجِهَ لا نَحْوَ الوظيفةِ النَّحْوِيَّةِ، فهي لا تَعَيَّرُ بالنَّسْبَةِ إلى الفعلِ، وإِثْمًا ينبغي أَنْ يَتَّجِهَ
إلى الدَّقَائِقِ المعنويَّةِ الَّتِي يكتسبُها الفعلُ لا مِنْ مدلولِهِ اللَّغَوِيِّ، وإِثْمًا مِنْ السِّيَاقِ الَّذِي يَرِدُ فيه؛ فالإعرابُ يرمزُ
مبدئيًّا إلى كَيْفِيَّةِ أداءِ الفعلِ لمعناه².

ثُمَّ يُعَقَّبُ المهيريُّ بقوله إِنَّه - كما يبدو - يجدُرُ بنا اليومُ تقديمُ إعرابِ الفعلِ في نظامٍ متماسكٍ الأجزاء،
متناسقٍ العناصرِ؛ كي يتسنى إبراز خصائصه بعلاقاتِ التَّقابُلِ والتَّكاملِ وضَبْطِ دَوْرِ كُلِّ عنصرٍ مِنْ عناصرِهِ وتمييزِها
عَنْ أدواتِ العناصرِ الأخرى³.

لهذا، يرى كُلُّ مَنْ إبراهيم السَّامرائي وإبراهيم أنيس أَنَّ مجافاةَ النُّحاةِ لسياقِ الفعلِ، ولجوءَهُم إلى تأويلِ
النَّصوصِ وتخريجِها تخريجًا ينطوي على كثيرٍ مِنَ التَّعَسُّفِ والتَّكْلِيفِ، وإلى التَّوجِيهِ البعيدِ عَنْ طبيعةِ اللَّغَةِ، جعلَ
دراسةَ الفعلِ دراسةً مبتورةً عَنِ الواقعِ اللَّغَوِيِّ. ثُمَّ يتساءلُ إبراهيم أنيس: فما كان أغناهُم عَنْ هذا لو أَهَمَّ نظروا
إلى صيغِ الفعلِ وأساليبِ اللَّغَةِ في الاستعمالِ اللَّغَوِيِّ بعيدًا عَنْ فكرةِ ربطِ كُلِّ صيغةٍ بزمانٍ معيَّنٍ⁴. وأظُنُّ أَنَّ إبراهيم
أنيس قَصَدَ بذلك أَنَّ "السِّيَاقَ" وَحْدَهُ هو الَّذِي بمقدوره أَنْ يُظْهِرَ الصُّورَةَ النَّحْوِيَّةَ الحَقِيقِيَّةَ للفعلِ، وليسَ مجردَ
الحديثِ عَنْ الفعلِ وأزمنتِهِ في قوالبِ جامدةٍ بعيدًا عَنْ استخداماتِهِ في السِّيَاقِ.

وهذا ما التَّفَتَ إِلَيْهِ ويليام رايت William Wright [1889-1830] في أَنَّ مصطلحي
"ماضٍ"، و"مستقبل" هما مصطلحان نحويَّان أَطْلَقْتُهُمَا كَتَبُ النَّحْوِ القَدِيمَةِ، وفي الحَقِيقَةِ أَنَّ هاتَيْنِ الصَّيْغَتَيْنِ لا
تنطبقانِ انطباقًا دَقِيقًا على الأفكارِ الَّتِي تتضمَّنُها؛ وذلكَ لِأَنَّ الفعلَ الماضِي والمضارعَ في اللِّغَاتِ السَّامِيَّةِ ليسَ له

¹ عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، 471.

² المهيري، نظرات في التراث اللغوي العربي، 80.

³ ن. م، 80.

⁴ أنيس، من أسرار اللغة، 156؛ إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، 24.

في حَدِّ ذاتِهِ صلةٌ بالعلاقاتِ الزَّمنيةِ عِنْدَ المتكَلِّمِ، كما أَنَّهُ- الفعل- ليس له صلةٌ بغيرِهِ مِنَ الأحداثِ الَّتِي تُقَارِبُهُ في الموقعِ، بَلْ إِنَّ هذه العلاقاتِ نَفْسَهَا هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ المجالَ الزَّمَنِيَّ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الفعلُ سواءَ أَكَانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ ماضِيًا، أَمْ حاضِرًا، أَمْ مُستقبَلًا؛ وبالتالي فقد عُلِّقُوا أَهَمِّيَّةً لا ضرورةَ لها على فكرةِ الزَّمَنِ- في ذاتِها- وعلى ارتباطِهِ بأشكالِ الفعلِ؛ وذلك بتقسيمِ الزَّمَنِ إلى الماضي والحاضر والمستقبل، ثُمَّ خَصُّوا الفعلَ الماضيَ بفكرةِ الزَّمَنِ الماضي، والفعلَ المضارعَ بفكرةِ الزَّمَنِ الحاضرِ والمستقبل¹.

وَيُعَلِّقُ الباحثُ عصام نور الدين على كلامِ ويليام رايت مؤكِّدًا أَنَّ رايتَ مِنْ خلالِ هذا الرَّأيِ قد تَنَبَّهَ إلى مسألةِ الاستعمالِ في اللَّغَةِ، بعيدًا عَنِ تقسيمِ النُّحاةِ لصيغِ الفعلِ حسبَ زمانِهِ؛ وذلك عندما لاحظَ أَنَّ "قدَ فَعَلَ"²- على سبيلِ المثالِ- تُشِيرُ في دلالتها على وقوعِ الحدثِ قَبْلَ قليلٍ مِنَ زَمَنِ التَّكَلُّمِ³.

وَبَعْضُ النَّظَرِ إِنَّ كُنَّا نوافقُ كلامَ رايتَ أَمْ نُعارضُهُ، إِلَّا أَنَّ الواقعَ النَّحْوِيَّ الَّذِي التَّفَتَّ إِلَيْهِ النُّحاةُ القدماءُ لم يُهْمِلِ المجالاتَ الزَّمنيةَ الَّتِي يتضمَّنُها الزَّمَنُ الواحدُ، وهذا يعني- كحالِ وسطيٍّ بَيْنَ الآراءِ- أَنَّ معرفةَ الزَّمَنِ الحقيقيِّ للفعلِ، ومعرفةَ دلالاتِهِ النَّحْوِيَّةِ إِنَّمَا تُعْرِفُ مِنْ خلالِ استقراءِ معنى الفعلِ في التَّركيبِ، ومن خلالِ "السِّيَاقِ"، فالسِّيَاقُ- فيما أرى- هو الآليَّةُ الأدقُّ الَّتِي تُسَهِّمُ في التَّعْرِفِ على الفعلِ عَنْ كُتُبٍ؛ لِأَنَّ أَيَّ فعلٍ دُونَ تَرْكِيبٍ مَعَيَّنٍ سَيَظَلُّ رَهِيْنُ "الانفرادِ الجامد"- أَنَّ صَحَّ لِي التَّعبيرُ بذلك- وبالتالي، فَإِنَّ التَّركيبَ نَفْسَهُ دُونَ سِيَاقٍ ما- يكشفُ عَنْ مضمونِ هذا التَّركيبِ- سَيَظَلُّ "تَرْكِيبًا مُعَلَّقًا" يَحْتَاجُ إلى تفسيرٍ سِيَاقِيٍّ يُعَلِّلُهُ، وَيُعَلِّلُ مقتضياتَ تعالِقِ الكلماتِ والمفرداتِ فيما بَيْنَها، وبالضرورة يُعَلِّلُ الزَّمَنَ السِّيَاقِيَّ للفعلِ ودلالاتَهُ النَّحْوِيَّةَ المترتبةَ على ذلك.

ففي قولِهِ تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}⁴ يظهرُ لنا أَنَّ ثَمَّةَ خطابًا موجَّهًا⁵، وهو ما يبدو مِنْ خلالِ عبارةِ "فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ"، ولكنَّ الآيةَ بدأتْ بالفعلِ الماضي "أتى" دُونَ قولِهِ مثلاً "سيأتي".

¹ W. Wright, *A Grammar of the Arabic Language*, 51.

² Wright, *Ibid*, 30.

³ عصام نور الدين، الفعل والزَّمَن، 48.

⁴ القرآن الكريم، النحل: 1.

⁵ السَّمِين الحلي، الذَّر المصنوع، 7: 187؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 8: 365-366.

يذكرُ الرَّخْشَرِيُّ أَنَّ الفعلَ الماضي "أتى" هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كَانَ منتظرًا؛ وذلك لأنَّ جزءًا مِنَ النَّاسِ "كانوا يستعجلون ما وُعدُوا مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، أو نزولِ العذابِ بهم¹... استهزاءً وتكذيبًا بالوعد²، فقليلٌ لهم: "أتى أَمْرُ اللَّهِ"³؛ تناغمًا مَعَ سياقِ الآية؛ فَتَحَوَّلَ زَمَنُ الفعلِ مِنَ الماضي إلى الحاضرِ (الواقع)، أو المستقبلِ القريبِ، وهذا يُشِيرُ- كما يُضَيِّفُ الرَّجَاجُ- إلى أَنَّ ذلك الأمرِ في قُرْبِهِ بمنزلة ما قَدْ "أتى"⁴؛ فقد "عَبَّرَ بالماضي عَنِ المضارع؛ لِقُرْبِ وقوعِهِ وَتَحْقِيقِهِ"⁵.

ويؤكِّدُ السَّمِينُ الحلبيُّ أَنَّ الوُجْهَ المشهورَ عِنْدَ النُّحَاةِ والمفسِّرينَ هو أَنَّ "أتى" فعلٌ ماضٍ لفظًا مستقبلٌ معنًى؛ إذ المرادُ بِهِ يومُ القيامةِ⁶؛ ويعودُ سببُ صياغةِ الفعلِ على الزَّمنِ الماضي أَنَّهُ أُبْرِرَ ما وَقَعَ وانقضى تحقيقًا له⁷؛ ولِصِدْقِ المخبرِ بِهِ⁸، فقد جاءَ بـ"أتى" ها هنا؛ "إجراءً له مجرى الواقع"⁹- على حَدِّ قَوْلِ محيي الدِّين شيخ زاده- وهذا يعني أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ واقعٌ¹⁰ لا محالة، وفَعَلَهُ مغايرٌ لفعلِ البشر؛ فجاءَ بصيغةٍ مغايرةٍ للمعهودِ؛ لِتَدُلَّ على الماضي على "الزَّمنِ المُطْلَقِ"- إِنْ صَحَّ التَّعبيرُ- تناسبًا مَعَ قَرِينَةِ السِّيَاقِ في قولِهِ: "فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ".

كما نلاحظُ أَنَّ شيخ زاده يحاولُ أَنْ يُقَارِبَ هذا التَّركيبَ مِنْ خلالِ التَّمثِيلِ لَهُ، وذلك "كما يُقالُ لِمَنْ طَلَبَ الإِغَاثَةَ وَتُرِبَ حَصُولُهَا: "جاءَ العَوْتُ فلا تجرُع ولا تستعجل"¹¹.

ونَلْمَحُ القَيْسِيَّ يُعْجِبُ بهذا التَّركيبِ وما صُدِّرَ بِهِ مِنَ الفعلِ "أتى"، واصفًا إِيَّاه بِحُسْنِ الأداءِ، فيقولُ: "...وحُسْنُ لفظِ الماضي في موضعِ المستقبلِ؛ لِصِدْقِ إتيانِ الأمرِ، فصارَ في أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ بمنزلة ما قَدْ مضى وكانَ؛ فَحَسَنَ الإِخبارُ عنه بالماضي، وأكثرُ ما يكونُ هذا فيما يُخْبِرُنَا اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنَّهُ يكونُ، فَلِصِحَّةِ وقوعِهِ، وصِدْقِ المخبرِ بِهِ صارَ كأنَّهُ شَيْءٌ قَدْ كانَ"¹².

¹ الرَّجَاجُ، معاني القرآن وإعرابه، 3: 189.

² الشُّوكَانِي، فتح القدير، 3: 182.

³ الرَّخْشَرِيُّ، الكشف، 2: 570.

⁴ الرَّجَاجُ، معاني القرآن وإعرابه، 3: 189.

⁵ أبو حَيَّان الأندلسي، البحر المحيط، 6: 503.

⁶ الألوسي، روح المعاني، 8: 127.

⁷ شيخ زاده، الحاشية، 5: 241.

⁸ السَّمِين الحلبي، الذر المصون، 7: 187؛ القَيْسِي، مشكل إعراب القرآن، 450.

⁹ شيخ زاده، الحاشية، 5: 241-242.

¹⁰ الشُّوكَانِي، فتح القدير، 3: 182.

¹¹ شيخ زاده، الحاشية، 5: 242.

¹² القَيْسِي، مشكل إعراب القرآن، 450.

والمتنير في تفسير ابن عاشور لهذه الآية هو إضفاء ملمح القرائن المتتابعة في زماني الآية، اللذين يبدوان للوهلة الأولى أنهما زمانان مختلفان، ولكنهما - فيما أراه - يسيران في فلك واحد، فيقول إن السورة صدرت بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حل ذلك المتوعد به. فجاء بالماضي المراد به المستقبل¹ المحقق بقريضة تفرع "فلا تستعجلوه"؛ لأن النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنه لم يحل بعد². ويجلي أبو السعود سبب مجيء الفعل "أتى" ماضياً مع أن مدار الحديث هو المستقبل؛ مؤكداً أن سياق الآية وما يحوطها هو سياق تفخيم وتهويل للإيدان بأن ذلك الأمر واقع لا محالة³. وكي يفني بالعرض المرجو يحضر سياق الفعل الماضي "أتى" مؤذناً بدئوه واقترايه على "طريقة نظم المتوعد في سلك الواقع"⁴ - على حد قول أبي السعود - إذ إن صيغة الماضي "أتى" تحمل تنبيهاً على كمال قرينه من الوقوع، واتصاله وتكميل لحسن موقع التفرع في قوله "فلا تستعجلوه"⁵.

ولعل الأمر اللافت هنا هو أن بعض النحاة والمفسرين يُجرون مقابلة بين زمن الفعل "أتى" وبين أسلوب الشرط والطلب، فهذا هو ذا القرطبي - مثلاً - يقول إن "أتى" بمعنى "يأتي"، فهو كقولك: "إن أكرمتني أكرمتك"⁶. ولعل هذه المقابلة تعني - فيما أراه - أمرين، وهما: أن الفعل "أتى" وقع موقع الأصل وهو المضارع "يأتي" الذي يُفيد الحال والاستقبال، وأنه كما يجوز في أسلوب الشرط أن يكون فعل الشرط وجوابه فعلاً ماضياً أو مضارعاً؛ باستخدام كلٍ منهما وفق ما يقتضيه السياق والمعنى التحويلي؛ كذلك هي العلاقة التي تجمع الماضي بالمضارع⁷.

¹ الألوسي، روح المعاني، 8: 127.

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، 14: 96.

³ أبو السعود، إرشاد العقل، 3: 242.

⁴ ن. م، 3: 243.

⁵ ن. م.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5: 422.

⁷ أرى أن هذا الطرخ جدير بالبحث بدراسة منفردة؛ لما له من ضرورة كبيرة في تجديد مفهوم "الفعل التحويلي" بروية ثاقبة عقلانية.

ويتحدّث المفسِّرونَ حولَ حقيقة الضَّميرِ في الفعل المضارع- الذي يُفيدُ المستقبلَ لارتباطِهِ بلا التَّاهية الخطابيَّة- "تَسْتَعِجِلُوهُ"، حيثُ إنّ الضَّميرَ (الهَاءَ) إمَّا يعودُ على الأمرِ؛ فإنَّه هو المحدثُ عنه¹، وإمَّا أنَّه يعودُ على الله، والتَّقديرُ: فلا تستعجلوا الله بأمرِهِ²، على نحو: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}³.

بالإضافة إلى سياق الآية الذي يرشدنا إلى دلالة الأفعال التَّحويتية فيها، فإنَّ ثَمَّةَ قرينةٍ سياقيةٍ تُصَبُّ في تحويلِ الفعلِ الماضي "أتى" إلى فعلِ المستقبلِ وهي قَوْلُهُ "سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"، حيثُ تحملُ كلٌّ مِنَ الكلمتين "سبحان" و"تعالى" تنزيهًا وترفُّعًا عَنِ إشراكِهِمْ⁴ أولًا، وعن وقوعِ الأمرِ؛ فَبَعْدَ أَنْ صَدَّرَ الآيةَ بالفعلِ الماضي، وهو يحملُ معنى المستقبلِ، أرادَ أَنْ يسترعي الانتباهَ إلى "زَمَنٍ" الفعلِ "أتى" مُرَتِّبًا بالقُدرةِ السَّماويةِ، وكأنَّ الفعلَ الماضي "أتى" جوابٌ قاطعٌ على شكوكِهِمْ واستعجالِهِمْ⁵، وأنَّ "سبحانه" و"تعالى" -أيضًا- جوابٌ قاطعٌ على شكوكِهِمْ؛ فالأمرُ واقعٌ لا رَيْبَ لا سِيَّما أَنَّ الذي يَعِدُ بذلك هو الله، وأنَّ إخبارَهُ- كما يُبيِّنُ القرطبيُّ- في الماضي والمستقبلِ سواءٌ؛ لأنَّه آتٍ لا محالةً⁶.

وعلى صعيدٍ آخَرَ، نلاحظُ أَنَّ بعضَ النُّحاةِ يُسارعونَ إلى تخريجِ الفعلِ "أتى" على معنى التَّضمينِ التَّحويتيِّ؛ فيقولُ أبو البقاء العكبريُّ وابنُ عطية الأندلسيُّ وأبو جعفر النَّحَّاسُ وغيرُهُمْ أَنَّ "أتى" في هذه الآية بمعنى "قَرَّبَ"⁷ حيثُ يُرادُ بِهِ المستقبلُ⁸؛ "فلَمَّا كَانَ خَبْرُ اللَّهِ صِدْقًا قَطْعًا جَارَ أَنْ يُعَبَّرَ بِالْمَاضِي عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ"⁹. وعليه، كما يُوَكِّدُ النَّحَّاسُ، يكونُ "أتى" بمعنى: "يَأْتِي"¹⁰ على الرَّعْمِ مِنْ أَنَّ سَيُؤَيِّدُهُ نَفْسُهُ- لا يُجِيزُ أَنْ يَكُونَ "فَعَلَ" بمعنى "يَفْعَلُ"، بَلْ يُجِيزُ أَنْ يَكُونَ "يَفْعَلُ" بمعنى "فَعَلَ"؛ لأنَّه يَكُونُ مُحْكِيًا¹¹.

¹ السَّمين الحلي، الذَّر المصون، 7: 187.

² ابن عاشور، التحرير والتَّويز، 14: 97.

³ القرآن الكريم، الأنبياء: 37.

⁴ الشوكاني، فتح القدير، 3: 183.

⁵ ن. م، 3: 183.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5: 422؛ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 4: 220.

⁷ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 8: 365؛ الطبري، جامع البيان، 4: 499.

⁸ العكبري، إملأ ما مَنَّ بِهِ الرَّحْمَنُ، 2: 77؛ النَّحَّاسُ، إعراب القرآن، 2: 75.

⁹ العكبري، إملأ ما مَنَّ بِهِ الرَّحْمَنُ، 2: 77.

¹⁰ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5: 422؛ الفَيْسي، مشكل إعراب القرآن، 450.

¹¹ النَّحَّاسُ، إعراب القرآن، 2: 75.

في المقابل، فإنَّ بعضَ النُّحاةِ يذهبونَ إلى إبقاءِ الفعلِ "أتى" على "الماضوية" - إنَّ صَحَّ التعبيرُ - حيثُ يُشيرُ أبو حيانِ الأندلسيُّ إلى أنَّ مِنَ النُّحاةِ مَنْ يَقُولُ: الفعلُ "أتى" باقٍ على معناه في الماضي¹؛ وبهذا فإنَّ المعنى المترتَّبَ عليه: "أتى أمرُ الله وعَدًا فلا تستعجلوه ووقوعًا"².

ولكنَّا إذا نظرنا إلى الآيةِ مِنْ زاويةٍ أخرى مِنْ خلالِ قراءةٍ عكسيَّةٍ، يمكننا أنْ نلاحظَ أنَّ الزَّمنَ المضارعَ أو المستقبلَ في الفعلِ "فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ" يُفيدُ معنى الماضي؛ لأنَّ السِّياقَ التَّحويَّ لِلآيةِ يُفْضي إلى أنَّ الغايةَ تمكُنُ في تثبيتِ الحقيقةِ الَّتِي تُسمَّى "اليومَ الآخرَ"، أو "الحاسبة" - بتعلُّقٍ معنى "أمرُ الله" - وعليه فإنَّ الفعلَ المضارعَ المسبوقَ بـ"لا" النَّاهيةِ يُشيرُ بِاتِّجاهِ دلالةِ الزَّمنِ الماضي؛ تناعُماً مَعَ سياقِ الآيةِ أوَّلاً، وتطابقاً مَعَ ما صُدِّرتْ بِهِ الجملةُ مِنْ خلالِ الفعلِ الماضي "أتى". واستنتاجاً من هذا، لعلِّي أوفِّقُ في القولِ بأنَّ تركيبَ الآيةِ على التَّحوِ التَّالي:

- "الأمرُ" الواقعُ بالنَّسبةِ إلى الله (المخاطَب):

أتى (فعل ماضٍ؛ القيمة المطلقة للفعل) + تستعجلوه (فعل ماضٍ؛ القيمة المطلقة للفعل).

- "الأمرُ" الواقعُ بالنَّسبةِ إلى الله والنَّاسِ مَعًا (المخاطَب والمخاطَب):

أتى (فعل ماضٍ للفعلِ الألهي) + تستعجلوه (فعل مستقبل للفعلِ البشري).

- "الأمرُ" الواقعُ بالنَّسبةِ إلى النَّاسِ (المخاطَب):

أتى (فعل مستقبل؛ لِمَنْ يُشَكِّكُ) + تستعجلوه (فعل ماضٍ؛ إخبارٌ بحتميةِ "الأمر").

أضِفْ إلى ذلك، أنَّ الفعلَ الماضي "أتى" إمَّا يحملُ معنى الخبرِ؛ لِمَا لَهُ مِنْ طاقَةٍ تصويريةٍ في نفاذِ الأمرِ ووقوعِهِ، وفي المقابلِ فإنَّ علاقةَ الخبرِ (الإخبارِ) بالإنشاءِ المستكنِّ في النَّهي "فلا تستعجلوه" هي علاقةٌ تقابليَّةٌ، حيثُ تُكَمِّلُ إحداها الأخرى، وتمنحُ أحدهما الأخرى معنًى نحوياً جديداً في "تقاربِ الأزمنة" - إنَّ جازَ لي التعبيرُ - فلمَّ يَعِدِ الماضي "أتى" ماضياً، ولمَّ يَعِدِ المستقبلُ "فلا تستعجلوه" مستقبلاً، وكذلك لمَّ يَعِدِ الإخبارُ في

¹ أبو حيانِ الأندلسي، البحر المحيط، 6: 503.

² ن. 6: 503.

"أتى" إخباراً، ولم يُعَدِ الإنشاء "فلا تستعلجوه" إنشاءً، بل إن كلا الفعلين في منطقة واحدة تتعاضد أحداثيات مكائهما في الجملة، وترتيبهما، وصيغتهما تعاضداً في قولبة المعنى التحويلي المتوحي.

وتُحْمَلُ الباحثة صفة مطهري القول، خلال معرض كلامها حول "دلالة الفعل الماضي على الاستقبال"، على أن هذه الدلالة نجدها في بعض التراكيب في اللغة العربية قد خالفت الدلالة الأصلية التي وضعت لها¹، وأصبحت دالة على الاستقبال بوجود قرينة لفظية أو معنوية خلصتها لتلك الدلالة، إذ إن كلمة "أتى" هنا هي في مبناها الصرفي على وزن "فعل" و"فعل للماضي، غير أنها تحولت وأصبحت بمعنى "سيأتي"، وهذا نتيجة السياق الذي وردت فيه².

وكنموذج آخر في النص القرآني هي تلك الشواهد المتعلقة بالفعل "كان" في كون المُنسَد إليه هو "الله"³، نحو، قوله تعالى: {..وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً}⁴، وغيرها من الآيات الكثيرة، حيث يتبادر إلى الذهن السؤال: ما حقيقة الفعل "كان" في مثل هذه الآيات؟ وهل "الحدث" المتحدث عنه خاص بالماضي، بغض النظر إذا اعتبرنا كان ناقصة⁵ أم تامة، إذ إن صيغة الفعل هي الماضي؟

يذهب الزجاج إلى أن المقصود بـ"كان" في هذا الموضع، وفي نظائره في النص القرآني، أن "الله كان" كذلك، ولم يزل⁶، مُعَلِّلاً-الزجاج- ذلك بأن "الخبر عن الله في هذا الشيء بالمضي، كالخبر بالاستقبال والحال؛ لأن الأشياء عند الله في حال واحدة، ما مضى وما يكون وما هو كائن"⁷. وبناء عليه، يُبيِّن الشاطبي أن "كان"

¹ لا أوافق الباحثة صفة مطهري الرأي في أن الفعل التحويلي، أي كان، يحمل دلالة زمنية تلازمه، وأن كل معنى زمني جديد هو أمر طارئ وليس أصيلاً. بل إن المسألة على خلاف ذلك. فيما أراه وفيما أستقرئه من أقوال النحاة القدماء قبل المحدثين- فالفعل أصله الحدث، وما سمي فعلاً إلا لاحتوائه الحدث؛ ثم أُدْجِلَ عليه الزمن بحسب موقعه وتركيبه وسياقه؛ وهذا يعني أن الزمن الحقيقي للفعل إنما يتحدد ويتعين فقط خلال سياق النص وليس مُجْتَرَأً من النص، اللهم إلا إذا تحدثنا عن صيغ صرفية؛ فإن المسألة تتعلق حينئذ بقوالب شكلية للكلمات، شأن الفعل فيها كشأن الأسماء. ولهذا، فإني أقترح أن تُفَرَّق، خلال دراستنا للغة، بين "الفعل التحويلي" وبين "الفعل الصرفي"، وينبغي أن نؤسس لهذا المفهوم منهجاً محكماً يُتَدَاوَلُ؛ من أجل تفسير النحو العربي، إذ ليس النحو العربي- برأبي- قوالب جاهزة تُدرَس، بل هي أسس تحاكي، ونفهم عبر التركيب الواسع أو النص المكتمل، وفقط النص.

² صفة مطهري، الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، 168.

³ في النص القرآني شواهد جمة تمثل هذه الحالة التحويلية، نحو: {وكان الله غفوراً رحيمًا} (النساء: 96)، ونحو: {وكان الله على كل شيء مُقْتَدِرًا} (الكهف: 45)، ونحو: {وكان ربك قديرًا} (الفرقان: 54)، ونحو: {إن الله كان لطيفاً خبيراً} (الأحزاب: 34)، ونحو: {وكان الله بكل شيء عليمًا} (الفتح: 26)... وغيرها من الآيات الكثيرة.

⁴ القرآن الكريم، النساء: 17.

⁵ سُمِّيَتْ ناقصة لأسباب كثيرة عرَضَها النحاة في مؤلفاتهم، ولكن الأهم هنا أن نؤكد أن الإشكالية في عد "كان" ناقصة أنها لا تدل على الحدث، وكونها لا تدل على الحدث فلا تعمل في ظرف، ولا مجرور، وهو- في الحقيقة التحويلية- مذهب كثير من النحاة في النظر إلى "كان" الناقصة، إذ هو مذهب المبرِّد، وابن السراج، والفارسي، وابن جني، والجرجاني، وابن برهان، وأبي علي، وهو ظاهر مذهب سيبويه. كما يقول أبو حيان الأندلسي. انظر: أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب، 3: 1151.

⁶ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 2: 25.

⁷ ن. م، 2: 25.

مَعَ لَفْظِ الْجَلَالَةِ "الله" تجعلُ الحديثَ فيما مضى غَيْرَ مُنْقَطِعٍ¹، فَلَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ²، أَيْ إِنَّ الْحَدَثَ فِيهِ بَدَأَ
فِيمَا مضى أَرْلًا وهو غَيْرُ مُنْقَطِعٍ أَبَدًا، وهو ما يُعْرَفُ بِمِصْطَلَحِ "أَزَلِيَّةِ الله".

وَيُقَسِّرُ الْعَكْبَرِيُّ "كان" هنا على أَنَّها "كان" التَّامَّةُ، وَأَنَّ "الله" فاعِلٌ ارتفعَ بـ"كان"، وَأَنَّ كُلًّا مِنْ
"عليماً" و"حكيمًا" أحوالٌ³ متتابعةٌ منصوبةٌ⁴، وَأَنَّ صَاحِبَ الْحَالِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ هو ضَمِيرُ الْفَاعِلِ فِي "كان"⁵.
ثُمَّ يُوَضِّحُ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلِسِيُّ - بِشَكْلِ لَافِتٍ وَمَثِيرٍ - مَعْنَى "كَانَ" التَّامَّةِ هُنَا أَنَّهَا تَشْتَرِكُ فِي مَعْنَيَيْنِ، قَدْ يَبْدُوَانِ
مُتَنَاقِضَيْنِ وَلَكِنَّهُمَا يَكْمِلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، حَيْثُ تَتَرَاوَحُ "كان" بَيْنَ الثَّبُوتِ وَالتَّجَدُّدِ، فـ"كان" بمعنى "ثَبَّتَ"⁶، إِذْ
كُلُّ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ هِيَ صِفَاتٌ ثَابِتَةٌ دَائِمًا وَأَبَدًا، وَأَنَّ "ثَبُوتَ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسْبِهِ فَمِنْهُ بِمَعْنَى الْأَزَلِيَّةِ:
كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ، كَمَا أَنَّ "كَانَ" بِمَعْنَى "حَدَّثَ" الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ وَمُضَارَعَةِ الْحَالِ⁷.

وَإِذَا كَانَ مَعْنَى "كَانَ" هُنَا - فِي جُمْلَةٍ: "وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" - تُفِيدُ اجْتِمَاعَ الْأَزْمَنِ كُلِّهَا، فَإِنَّهُ لَا
بُدَّ أَنْ نَسْتَدْعِي مَا قَالَهُ سِبْيَوِيهِ فِي الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَسِيَاقِهِمَا، بَأَنَّ الْفِعْلَ الْمُسْتَقْبَلَ - عَلَى اعْتِبَارِ أَنْ "كَانَ"
تَعْنِي: مَا كَانَ وما هو كائنٌ وما سيكونُ - نَحْوُ: "سَيَذْهَبُ"، هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَكُونُ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ،
وَأَنَّ فِيهِ بَيَانَ مَا مضى، وما لم يَمْضِ مِنْهُ، كَمَا أَنَّ فِيهِ اسْتِدْلَالًا عَلَى وَقْعِ الْحَدَثِ⁸.

¹ الشَّاطِبِيُّ، الْمَقَاصِدُ الشَّافِيَّةُ، 2: 145.

² السِّبْوَطِيُّ، هَمْعُ الْهَوَامِعِ، 437-438.

³ يَعْتَرِضُ الشَّاطِبِيُّ عَلَى مَنْ يَدْعِي الْأِسْمَ الْمَنْصُوبَ بَعْدَ "كَانَ" حَالًا، مُعْتَمِدًا بِذَلِكَ رَأْيَ الْبَصْرِيِّينَ، وَمُعَارِضًا رَأْيَ الْكُوفِيِّينَ، حَيْثُ يَقُولُ:
"إِنَّ الْحَالَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ لَا تَلْزَمَ فِي الْكَلَامِ، بَلْ قَدْ تَأْتِي، وَقَدْ لَا تَأْتِي، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ، فَقَوْلُ تَارَةٍ: "جَاءَ زَيْدٌ ضَاحِكًا" إِذَا أَرَدْتَ
الْأَخْبَارَ عَنْ مَجِيئِهِ عَلَى خَاصَّةٍ. فَلَوْ كَانَ الْمَنْصُوبُ بَعْدَ "كَانَ" حَالًا لَسَاغَ الْاِقْتِصَارُ مَعَهَا عَلَى الْمَرْفُوعِ مَعَ اعْتِقَادِ الْقُصَصِ فِيهَا، فَكُنْتُ
تَقُولُ: "كَانَ زَيْدٌ"، وَتَقْتَصِرُ. وَلَكِنْ هَذَا غَيْرُ جَائِزٍ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَنْصُوبَ لَيْسَ بِحَالٍ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ حَالًا لَمْ يَبْقَ مِمَّا يُدْعَى إِلَّا مَا قَالَهُ
الْبَصْرِيُّونَ...". انْظُرْ: الشَّاطِبِيُّ، الْمَقَاصِدُ الشَّافِيَّةُ، 2: 187.

⁴ هَذَا تَخْرِيجٌ نَحْوِيٌّ كُوفِيٌّ، فَقَدْ ذَهَبَ الْكُوفِيُّونَ إِلَى أَنَّ الْأِسْمَ الْمَنْصُوبَ بَعْدَ "كَانَ" إِنَّمَا يُنْصَبُ عَلَى الْحَالِ، بَيْنَمَا ذَهَبَ الْبَصْرِيُّونَ إِلَى أَنَّهُ
مَنْصُوبٌ خَبَرٌ لَهَا، فَالْخَبَرُ مَعَهَا كَالْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ. انْظُرْ: الشَّاطِبِيُّ، الْمَقَاصِدُ الشَّافِيَّةُ، 2: 187.

⁵ الْعَكْبَرِيُّ، التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ، 1: 273.

⁶ الشَّاطِبِيُّ، الْمَقَاصِدُ الشَّافِيَّةُ، 2: 187.

⁷ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلِسِيُّ، ارْتِشَافُ الضَّرْبِ، 3: 1153.

⁸ سِبْيَوِيهِ، الْكِتَابُ، 1: 15.

وعندما نَتَّبَعُ سياقَ الآية وما يسبِّحُها مِنْ تركيبٍ في هذه الآية: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} ¹ ينجلي لنا أنَّ الحديثَ يدورُ عَنْ مفهومِ التَّوْبَةِ ² وقبولها ³ لِمَنْ يَعْمَلُ ذَنْبًا ⁴ وسوءًا وهو جاهلٌ بها، ثُمَّ يَتُوبُ مِنْ بَعْدِ زَمَنِ قَرِيبٍ بها ⁵. ونلاحظُ أنَّ سياقَ الآية يسيِّرُ في حركةِ الفعلِ الحاليَّةِ والمضارعِيَّةِ - إنْ صَحَّ التعبيرُ - فثَمَّةُ تَعَهُدٍ وَتَحَقُّقٍ ⁶ - كما يُبَيِّنُ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ، مستمِرٌّ ⁷ دائِمٌ مِنَ اللَّهِ بِأَسْلُوبِ الْوَجُوبِ ⁸ الإِثْبَاتِ ⁹، والاستقرار ¹⁰، التَّحْفِيزِ، والحصرِ الَّذِي يُفِيدُ معنى التَّوَكُّيدِ ¹¹، وهو مقصِدُ المتكَلِّمِ ¹²: "إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ"، و"مِنْ قَرِيبٍ" تُوحي بِالزَّمَنِ الْحَاضِرِ الْقَرِيبِ ¹³ "مِنْ وَقْتِ عَمَلِ السُّوءِ" ¹⁴، وأنَّ هذا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ بِوُجُوبِهَا عَلَيْهِ ¹⁵، وتعني كذلك أنَّ الرَّجَاءَ فِيهِ باقٍ، وأنَّ الحَيَاةَ كُلَّهَا هي زَمَنٌ قَرِيبٌ ¹⁶ - كما يُؤَكِّدُ ابْنُ عَطِيَّةٍ الأَنْدَلُسِيُّ.

كما أنَّ ثَمَّةَ أفعالاً مضارعةً تتوالى تِباعاً "يَعْمَلُونَ"، "يَتُوبُونَ"، "يَتُوبُ" ¹⁷، ثُمَّ تُخْتَمُ الآيةُ بـ "وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" الَّتِي تَتِمَّشَقُ فِي حَرَكَةِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ وتَسِيرُ فِي فَلَكِهَا؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ مَنْطِقِ اللَّغَةِ - أَيْ كَانَتْ هَذِهِ

¹ القرآن الكريم، النساء: 17.

² ليس الهدفُ مِنْ عرضِ تفسيرِ الآيةِ إظهارَ الخلافاتِ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ والفرقِ الإسلاميَّةِ حَوْلَ مفهومِ التَّوْبَةِ وشروطِها ومضامينِها. فهذا جانبٌ لِسَنَّا في صدده الآن، ولا نريدُ أَنْ نخوضَ فِيهِ؛ لِأَنَّ المقصِدَ الرَّئِيسَ مِنْ عَرْضِنا هذا هو الجانبُ اللُّغَوِيُّ والنَّحْوِيُّ فَحَسْبُ، بَعِيدًا كُلَّ الْبَعْدِ عَنْ تَبْنِي وَجْهَةٍ نَظَرٍ ماءٍ، أَوْ دَحْضِ رَأْيٍ مَا. وَلِمَنْ يَريْدُ أَنْ يَتَوَسَّعَ فَعَلِيهِ أَنْ يَعودَ إِلَى المَصادرِ والمَراجعِ التفسيرِيَّةِ.

³ أبو حَيَّان الأَنْدَلُسِيُّ، البحرُ المَحيطُ، 3: 560-561.

⁴ النُّحَّاسُ، إعرابُ القرآن، 1: 250.

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 3: 84.

⁶ يُشِيرُ ابْنُ عَاشُورٍ إِنْ ذَلِكَ يُقَابَلُ قَوْلَكَ - عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ - "عَلَيَّ لَكَ كَذَا"، فَهِيَ تَحَقُّقُ التَّعَهُدِ. والمعنى في الآية: "أَنَّ التَّوْبَةَ تَحَقُّقٌ عَلَى اللَّهِ، وَهَذَا مَجَازٌ فِي تَأْكِيدِ الوَعْدِ بِقَبُولِهَا حَتَّى كَالْحَقِّ عَلَى اللَّهِ، وَلَا شَيْءَ يَواجِبُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا وَجُوبٌ وَعُدُّهُ بَلْفِظِهِ". انْظُرْ: ابنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ، 4: 277.

⁷ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ، الذَّرْ المَصُون، 3: 622.

⁸ الألوَسِيُّ، رُوحُ المَعَانِي، 3: 326.

⁹ العَكْبَرِيُّ، التَّبْيَانُ فِي إعرابِ القرآن، 1: 273.

¹⁰ الشُّوكَنِيُّ، فَتْحُ القَدِيرِ، 1: 552.

¹¹ العَكْبَرِيُّ، إِمْلَاءُ مَا مِنْ بِهِ الرَّحْمَنِ، 1: 171.

¹² ابنُ عَطِيَّةِ الأَنْدَلُسِيُّ، المَحَرَّرُ الوَجِيزُ، 3: 532.

¹³ الألوَسِيُّ، رُوحُ المَعَانِي، 3: 326؛ الصَّاوِي، الحَاشِيَّةُ، 1: 439؛ أبو حَيَّان الأَنْدَلُسِيُّ، البحرُ المَحيطُ، 3: 561-562.

¹⁴ ابنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ، 4: 278.

¹⁵ الرَّمْخَشَرِيُّ، الكَشَّافُ، 1: 427.

¹⁶ ابنُ عَطِيَّةِ الأَنْدَلُسِيُّ، المَحَرَّرُ الوَجِيزُ، 3: 536.

¹⁷ يَذْكَرُ القرطبيُّ أَنَّ هَذِهِ الآيةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَفِيهَا مَا فِيهَا مِنْ مَعَانِي الرِّحْمَةِ وَالمَغْفَرَةِ الَّتِي سَأَلَهَا مُسْتَمِرٌّ وَمتواصلٌ أَبَدًا. انْظُرْ: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 3: 87.

اللغة- أن يكون مدار سياقها في الحال والمضارع، ويكون التبعية فيها منصبا على إضفاء الصورة الآنية الحالية، ثم
نُفاجأ، على شكل غير معهود، بأن بوصلة السياق ذاته تحوَّلت إلى مكانٍ مختلفٍ تماما!

كما أن هناك قرينةً سياقيةً أخرى- في رأيي- وهي حروف العطف المتتابعة في الآية: "ثم" في عبارة "ثم
يتوبون"، و"الفاء" ¹ في "فأولئك"، و"الواو" في "كان"، حيث إن كل حروف العطف هذه تقول في محتمل الآية
إلى "أن الله كان ولا يزال وسيبقى- وهذا شأنه- سرمدًا وأبدًا في علمه وحكمته بقلوب الناس.

ثم نلَمَح أن خبري "كان" المنصوبين "عليما" و"حكيمًا" ² جاءا صفةً مشبهةً باسم الفاعل ³، وفي
ذلك- فيما أراه- إحاء على معنى "كان"، إذ إن الصفة المشبهة اشتقت لمن قام به الفعل، لكن على معنى
الثبوت، لا على معنى الحدوث ⁴- كما يقول ابن هشام الأنصاري. بينما ترى الباحثة خديجة الحديثي، وبشكلٍ
لافتٍ تُعارض فيه كثيرا من النحاة والصرفيين، أن الصفة المشبهة تُفيد اتصاف الذات بالحدث على وجه الثبوت
والدوام. ومن جهة ثانية؛ فإن اسم الفاعل، الذي شَبَّهت به الصفة المشبهة، إنما يفيد الحدوث والتجدد، عند
كثير من النحاة؛ لأنه يدل على ما يدل عليه الفعل، ويُستعمل في الأزمنة الثلاثة، ويعمل في الحال والاستقبال ⁵.
ولعل هذا التوجيه التحويي-الصرفي، بغض النظر عن الآراء الخلافية حول الصفة المشبهة واسم الفاعل،
يدعم مسألة "كان" التي تدل على الحدوث والتجدد، إذ ينبغي أن تتوافق معطيات السياق التحويي في توالي
الأفعال المضارعة- "يعملون"، "يتوبون"، "يتوب"- التي تدل في أصلها على الحدوث والتجدد والديمومة

¹ من النحاة من يرى أن الفاء استئنافية. انظر: درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 1: 636.

² ثمة رأي لاقت ينبغي الوقوف عليه من خلال دراسة منفردة، وهو أن بعض النحاة- من عمدة النحاة وأشهرهم- كانوا قد قالوا بحرفية
"كان"، بمعنى أن "كان" ليست فعلا، بل هي حرف، فقد أشار السيوطي إلى أن الزجاجي عدَّ "كان" وأخواتها حروفا، بل نقل عن المبرد
بحرفية "كان". (انظر: السيوطي، همع الهوامع، 2: 165). ولعلني أتساءل هنا، هل تسير "كان"- من هذا المنظور التحويي- في فلك اللغات
السامية، كما فسرت "إن"، خلال إحدى التعليقات، على أن "إن" أصلها سامي، وهي في اللغة العبرية **אֵין** بمعنى "انظر"، وهذا ما
يفسر نصب اسم "إن". وعليه إذا نظرنا إلى كلمة **אֵין** في العبرية نجد أن من معانيها "هنا"، وهو ما يُقابل "كان" القائمة التي تأتي على
معنى "وجد" هنا، أو "ثبت" هنا... وغيرها من المعاني التي تدل على المعنى "الإشاري الوجودي"- إن جاز لي التعبير بهذا المصطلح.
وبناءً عليه، تكون علة نصب (الخبر) النصب على التخصيص، أو على المفعولية لفعل محذوف تقديره "انظر هنا". هذه مجرد فكرة لم
تتضح بعد، وأرجو أن تكون فكرة تجديدية، ولكنها تحتاج في الحقيقة إلى بحثٍ جادٍ، الأمر الذي لا يتيح لي المجال في هذه الأطروحة،
ولعلي أبحث ذلك مستقبلا في بحثٍ منفرد.

³ من الصرفيين من يذهب إلى أن "عليم" صيغة مبالغة، و"حكيم" صفة مشبهة باسم الفاعل؛ وذلك بتعليل منهم أن الصفة المشبهة لا تُشتق
إلا من فعل لازم لمن قام به الفعل على معنى الثبوت. انظر: الرضي، شرح الكافية، 2: 205.

⁴ ابن هشام، شرح شذور الذهب، 386.

⁵ السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، 2: 244.

والاستمرارية، مع ما احتُشمت به الآية بـ"كان الله" وما التصق به من مُسندين "عليماً"، "حكيمًا"؛ هذين المُسندين اللذين يحملان في دلالتيهما الصرفية والنحوية معنى الاستمرارية والتجدد.

وحيثما ننعم النظر يمكننا أن نُقوي هذا الرأي ونُعاضده بشواهد قرآنية عديدة كانت قد تحدثت حول صورة نحوية بأزمة المضارع بواسطة الفعل الماضي "كان"، نحو قوله: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} ¹، خلال آية تصف النبي سليمان - عليه السلام - وهو يتفقد الطير، فلم ير الهدد، فراح يتساءل ²: أم "أنه لم يَحْضُرْ وأنه غائب غير شاهد" ³. وما تلاها من آية تدعّم "سيرورة اتجاه الحدث النحوي - إن جاز لي التعبير - بقوله: {لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} ⁴؛ وفيها يغدو السياق سياق تهديد وتوعّد، حيث يتوعّد سليمان الهدد. والتّوعّد - كما هو معروف على مستوى الدلالات اللغوية - إمّا موعّد وسقفة الزماني في المستقبل على إثر المضارع الحالي؛ وبالتالي راح يُقسّم بتعذيبه عذاباً شديداً ⁵، أو بذبحه، أو أن يأتي بحجة وعذر عن تغيّبه ⁶ في هذه اللحظات التي من المفروض أن يكون فيها حاضراً (مضارعاً).

ليس هذا فحسب، بل ورّد الفعل "كان" في سياق الحديث حول طبيعة الإنسان البشرية، نحو قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} ⁷، وكقوله: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} ⁸. وإذا دققنا النظر في مثل هذه الآيات سنرى أن الفعل كان هنا يدلُّ أيضاً على الاستمرارية والدعمومة، فصفة العجلة - مثلاً - في الإنسان هي صفة مستمرة دائمة، وأظن أن المقصد من ذلك هو التأكيد بأن هذه هي طبيعة الإنسان وجبلته منذ أن "كان"، أي وُجد أو خُلِق.

¹ القرآن الكريم، النمل: 20.

² السمين الحلبي، الدرّ المصون، 8: 591.

³ الطبري، جامع البيان، 5: 554.

⁴ القرآن الكريم، النمل: 21.

⁵ السمين الحلبي، الدرّ المصون، 8: 592-593.

⁶ الطبري، جامع البيان، 5: 554.

⁷ القرآن الكريم، الكهف: 54.

⁸ القرآن الكريم، الإسراء: 11.

وهذا يعني أن "الإشكالية" المطروحة في فهم حقيقة "كان"، وأن تخريج النحاة والمفسرين لها كان تخريجاً خاصاً بالذات الإلهية، هو كلام - برأيي - غير دقيق؛ لأن الأمر لم ينسحب على استخدام "كان" مع الذات الإلهية، بل استُخدم مع أسماء أخرى.

إذن، لبعض الأفعال خصائص معينة، تُعرف دلالاتها من خلال التركيب والسياق الخاص بها، فـ "كان" - كما رأينا - تحمل معاني كثيرة، ودلالات عديدة، ومن دلالاتها أن تفيّد الاستمرار والديمومة. وليس هذا شأن "كان" وحدها، بل شأن كثير من الأفعال، نحو "ليس" التي يُطرح للوهلة الأولى أنها تُستعمل لنفي الماضي، ولكنها تُستعمل في الحال كقولنا: "لست مسافراً"، إذ إن مقصد المتكلم في هذه الجملة الزمن الحاضر المضارع، وكأن التقدير: لست مسافراً الآن أو "حالياً"، أو "في هذه الآونة"....، وكقوله تعالى: {..ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم¹}. ونتيجة إلى هذه الحقيقة النحوية تنطلق الباحثة صفية مطهري من قاعدة نحوية مفادها أن دلالة الفعل في مثل قولنا: { } وما يشابهها من آيات، هي حالته مستمرة، فالله كان على كل شيء قديرًا، واليوم هو أيضًا، وبعد اليوم قدير. فالماضي هنا هو قائم حالة واحدة² تفيّد جميع الأزمنة.

ويبدو أن العرب كانت تُفرّق من خلال السياق ما بين أنواع الفعل "كان" من ناحية دلالاتها واستخداماتها، وكانت تُفرّق كذلك بين أنواع "كان" من حيث النقصان والتمام والزيادة وما إلى ذلك. وقد نبّه الزجاج إلى هذه الحقيقة اللغوية بقوله إن العرب خوطبت في النص القرآني بما تعقل وتعرف من أساليب وتراكيب؛ فنزل القرآن بلغتها، فما أشبه من التفسير كلامها فهو أصح، إذ كان القرآن بلغتها نزل³.

وأجمل القول في أن "الفعل" - أي فعل - في حقيقته يحوي حدثًا ما، ولكن الزمن الحقيقي له هو الذي يُقرّر لدى وضع هذا الفعل في سياق ما، وهو ما يمكنني أن أطلق عليه "ساعة الحسَم"؛ ذلك أن السياق هو الفيصل العملي والتطبيقي لتحديد وجهة الفعل وزمنه الحقيقي.

¹ القرآن الكريم، هود: 8.

² صفية مطهري، الدلالة الإيحائية، 170.

³ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 2: 25.

12. 3. تعاوُر الحروف والاستقلالية السِّيَاقِيَّة:

قد يكونُ هذا الموضوعُ التَّحويُّ مِنْ أدقِّ الموضوعاتِ التَّحويَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى طَوِيلِ تَأَمُّلٍ، وَإِنْعَامِ نَظَرٍ - عَلَى حَدِّ قولِ مُحَمَّدٍ حَسَنِ عَوَّادٍ، فيؤكِّدُ إِنَّ هَذَا بَابٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ دَقِيقُ الْمَدَاخِلِ وَالْمَخَارِجِ يَفْضِي إِلَى غَيْرِ قَضِيَّةٍ؛ لِأَنَّهُ بَابٌ يُسَلِّطُ فِيهِ النَّظَرُ عَلَى الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى¹. وَهُوَ بَابٌ يَحْمِلُ خِلَافًا بَيْنَ التُّحَاةِ الْبَصَرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ حَوْلَ جَوَازِ وَقُوعِ بَعْضِ حُرُوفِ الْجَرِّ مَوْقِعَ بَعْضِهَا الْآخَرِ كَمَا ذَهَبَ الْكُوفِيُّونَ²، أَوْ عَدِمَ جَوَازِهِ كَمَا ذَهَبَ الْبَصَرِيُّونَ³.

وَنَقْصِدُ بِالتَّعَاوُرِ⁴ التَّنَاوُبَ، وَهُوَ - اصطلاحًا - أَنْ يَقَعَ حَرْفٌ مَكَانَ حَرْفٍ آخَرَ فِي التَّرْكِيبِ "وَقَفًّا" لِلسِّيَاقِ". وَقَدْ عَقَّدَ ابْنُ جَنِّي بَابًا أَسْمَاهُ "بَابٌ فِي اسْتِعْمَالِ الْحُرُوفِ بَعْضُهَا مَكَانَ بَعْضٍ"⁵.

وَلَعَلِّي أَوْفَّقُ هُنَا بِأَنْ أُحِقِّ مِصْطَلَحَ "السِّيَاقِ" بِتَعْرِيفِ التَّعَاوُرِ، لَا سِيَّمًا أَنَّ "التَّعَاوُرَ" أَوْ "التَّنَاوُبَ" - خَاصَّةً فِي حُرُوفِ الْجَرِّ - يَفْتَقِدُ إِلَى تَعْلِيلٍ سِيَاقِيٍّ، فَنَجِدُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَفْسِّرِينَ وَالتُّحَاةِ يَكْتَفُونَ بِقَوْلِهِمْ إِنَّ "الْبَاءَ" - مِثْلًا - بِمَعْنَى "عَنْ" فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا}⁶، دُونَ أَنْ يَتَطَرَّقُوا إِلَى اسْتِضَاحِ السِّيَاقِ التَّحْوِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ أُخْرَى، فَضْلًا عَنْ أَنَّ مِنَ التُّحَاةِ مَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ وَقُوعُ حَرْفِ جَرٍّ مَوْقِعَ بَعْضِهَا الْآخَرِ⁷.

وَمَرْدُ الْخِلَافِ بَيْنَ التُّحَاةِ يَعُودُ إِلَى أَسْبَابٍ عَدَّةٍ، أَهْمُهَا: هَلْ لِلحَرْفِ مَعْنَى مُسْتَقِلَّةٌ بِذَاتِهِ؟ وَهَلْ لِلحَرْفِ مَعْنَى وَاحِدٌ أَوْ أَكْثَرُ؟ وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ لِلحَرْفِ عَدَّةَ مَعَانٍ، فَهَلْ هَذِهِ الْمَعَانِي مَحْمُولَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَمْ عَلَى الْمَجَازِ؟⁸. وَلَعَلَّ الْأَمْرَ اللَّافِتَ، الَّذِي قَدْ يُخَالَفُ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ التُّحَاةِ، هُوَ مَا يَطْرُقُ عَلَيَّ أَبُو الْكَارِمِ عَلَى أَنَّ التَّحْلِيلَ التَّحْوِيَّ لِلحَرْفِ الَّذِي يَوْشِكُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُسَلَّمَاتِ التَّحْوِيَّةِ لَا يَسْلُمُ إِلَى الشَّلَكِ فِيهَا فَحَسْبُ، بَلْ

¹ مُحَمَّدٌ حَسَنِ عَوَّادٍ، تَنَاوُبُ حُرُوفِ الْجَرِّ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ (عَمَّان: دَارُ الْفُرْقَانِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، 1982)، 5.
² ابْنُ هِشَامٍ، مَغْنِي اللَّبِيبِ، 1: 11؛ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ النَّوْرِ الْمَالِقِيِّ، رِصْفُ الْمَبَانِي فِي شَرْحِ حُرُوفِ الْمَعَانِي (دِمَشْق: دَارُ الْقَلَمِ، 1985)، 143-144.
³ الْحَسَنُ بْنُ قَاسِمٍ الْمُرَادِيِّ، الْجَنَى الدَّانِي فِي حُرُوفِ الْمَعَانِي (بِירוْت: دَارُ الْإِفَاقِ الْجَدِيدَةِ، 1983)، 46.
⁴ تَعَدَّدَتْ الْمِصْطَلَحَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ التَّحْوِيَّةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمِيهِ "التَّعَاوُرَ" وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمِيهِ "التَّنَاوُبَ"، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ "التَّضْمِينَ".
⁵ ابْنُ جَنِّي، الْخَصَائِصُ، 2: 306.
⁶ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْفُرْقَانُ: 59.
⁷ مُحَمَّدٌ عَوَّادٍ، تَنَاوُبُ حُرُوفِ الْجَرِّ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ، 5.
⁸ عَوَّادٍ، تَنَاوُبُ حُرُوفِ الْجَرِّ، 10.

ينتهي إلى تقرير مخالفتها بناءً على سياقها اللغوي والواقع التحوي، إذ ليس صحيحاً - أولاً - أن الحروف لا تدلُّ على معنى في نفسها، فلو حللنا الحروف لانتبهنا إلى أنها كالأسماء والأفعال تدلُّ على معنى في نفسها، فمثلاً عندما نتأمل هذه الكلمات الثلاث، كلاً منها على حدة: "هل سافر الرجل؟" هل تُفيد كل منها معنى أم لا؟ وما نوع المعنى الذي تحمله إذا كانت تفيده معنى؟ وهل هو معنى تامٌّ يحسن الوقوف عليه، أو ناقصٌ في حاجة إلى استكمال وإضافة؟ وبالتالي سوف تجد نفسك بالضرورة أمام ثلاثة احتمالات: أن كل كلمة منها لا تفيده معنى البتة، أو أنها تفيده معنى تاماً، أو أنها تفيده معنى ناقصاً¹.

ويتوصل أبو المكارم، من خلال هذه الحقيقة، إلى أن ما ينطبق على الحرف ينطبق على غيره من "الأسماء" و"الأفعال" في هذا المثال وغيره من الأمثلة، فإن كلاً منها جميعاً لم تخل من المعنى مطلقاً، وإلا لما عُدَّت كلمة أصلاً، وكلاً منها لا تفيده معنى تاماً يحسن الوقوف عليه؛ لأن هذا المعنى لا يُستفاد إلا من "الكلام"².

ولو رجعنا إلى المصادر القديمة نرى أن هذا الرأي كان قد أشار إليه السيوطي نقلاً عن بهاء الدين النحاس [637-698هـ، 1240-1299م] في بقوله: "والحق أن الحرف له معنى في نفسه: لأننا نقول: لا يخلو المخاطب بالحرف من أن يفهم موضوعه لغةً أو لا؟ فإن لم يفهم موضوعه لغةً فلا دليل في عدم فهمه المعنى أنه لا معنى له؛ لأنه لو خوطب بالاسم والفعل وهو لا يفهم موضوعهما لغةً كان كذلك، وإن خوطب به من يفهم موضوعه لغةً فإنه يفهم منه معنى، عملاً بفهمه موضوعه لغةً، كما إذا خاطبنا إنساناً بـ"هل"، وهو يفهم أنها موضوعة للاستفهام، وكذا باقي الحروف، فإذا عَرَفْنَا أن له معنى في نفسه"³.

من هنا، فإنني أرى أن سياق الحرف هو من إحدى الظواهر الجديدة بالبحث التحوي، وعليه ينبغي أن يُلتفت إلى الحرف على أنه جزء من الكلام مستقل بذاته، له سياقاته الخاصة، وبالتالي فإن دراسة "تعاور الحرف" تنبئ عن أن استقلالية الحرف من خلال الأداء التحوي، في حين نرى أن غالبية الدراسات تتجه اتجاهاً دراسة الحرف اتجاهاً تقليدياً لا يُعطي الحرف - فيما اعتقده - حقه.

¹ أبو المكارم، الجملة الفعلية، 41.

² ن.م، 41-42.

³ السيوطي، الأشباه والنظائر، 3: 3.

والأمثلة في ذلك كثيرة¹، ففي قوله تعالى: {وَلَا صَلْبَيْنَكُم فِي جُدُوعِ النَّحْلِ}²، يتبدى لنا أن حرف الجرّ "في" وَقَعَ موقع "على"، أي: "على جذوع النحل"³، وقد استدللّ النحاة بهذا التركيب بقول عنترّة:

بَطْلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرَحَةٍ يُخَذَى نِعَالُ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامٍ

أي: "على سرحة"⁴.

وقد أكّد الهروي [340-415هـ، 951-1025م] أن هذا الموضع القرآنيّ هو من ضمن الشواهد التي تدخل فيها حروف الجرّ بعضها مكان بعض، ويؤكد بعد ذلك أن هذا الأسلوب النحويّ كان قد ورد في القرآن والشعر⁵. ونلاحظ أن أبا عبيدة⁶ والفراء⁷ وابن قتيبة⁸ والطبري⁹ والآمدّي¹⁰ وغيرهم ينصّون على أنّها في هذه الآية جاءت بمعنى "على". ويضيف الأخفش [215-...هـ، 830-...م] أن يونس بن حبيب [80-182هـ، 700-798م] كان قد زعم أن "في" تكون مكان "على" استناداً إلى قول العرب: "نزلت في أبيك"، ويريدون "عليه"¹¹.

ولكنّ المتأمل في سياق الآية يتبدى له، أولاً، أن "على" لا يمكن أن تؤدّي الدلالة النحويّة مثلما تؤدّيها "في"، فـ"على" تفيّد معنى الاستعلاء، وهو المعنى الأساسي لها، وفق ما يوضحه الرّمانيّ وغيره من النحاة، نحو "جلست على الكرسي"، و"صعدت على البيت"¹²، وفي المقابل فإنّ "في" تفيّد معنى الظرفيّة، وهو الملمح الدلاليّ-النحويّ الذي يُشير إليه السياق، ويكشف عنه معنى الآية المراد. ولهذا نرى ابن نور الدين الموزعيّ يضع

¹ لا يتسع المجال لذكر أمثلة عديدة؛ لأنّ ذلك يتطلّب بحثاً مستقلاً بذاته، وكما أتى هدفُ من الأمثلة المطروحة فيما بعد أن آتي بنموذج أناقشه وأحلّه؛ كي تتضح الصّورة لنماذج مصغّرة، فيُفاس عليها أمثلة كثيرة إضافية موجودة في متون الكتب والمؤلّفات.

² القرآن الكريم، طه: 71.

³ المراديّ، الجنى الذاني، 251؛ السمين الحلبيّ، الدرّ المصون، 8: 76؛ الشوكاني، فتح القدير، 3: 467.

⁴ ابن هشام، مغني اللبيب، 1: 191.

⁵ علي بن محمّد الهرويّ، كتاب الازهرية في علم الحروف (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، 1981)، 267.

⁶ أبو عبيدة، مجاز القرآن، 1: 14؛ 2: 23-24.

⁷ الفراء، معاني القرآن، 2: 186.

⁸ ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، 426.

⁹ الطبري، جامع البيان، 5: 207.

¹⁰ الآمدّي، الإحكام في أصول الأحكام، 1: 85.

¹¹ سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، معاني القرآن (القاهرة: مطبعة المدني- المؤسسة السعديّة بمصر، 1991)، 1: 51.

¹² علي بن عيسى الرّمانيّ، معاني الحروف (جدة: دار الشّرو للنشر والتّوزيع والطباعة، 1981)، 108.

بصماتِهِ الواضحة في تأكيد ما نقوله بأن "في" هو حرف جرٍّ معناه الظرف، وإن انتشرت معانيه فهي راجعةٌ إليه¹.

كما أنه عندما نستقرئ ما جاء به الزجاج في تفسيره يتعين أن "على" لا يمكن أن تحلَّ محلَّ "في" في هذا الموضع القرآني؛ لأنَّ لكلٍّ منها معنىً خاصًا به أصلًا حتى لو اشتركا في المعنى²، وبهذا نراه ينفي أن تكون "على" و"في" بمعنى واحدٍ دائمًا³. ثمَّ يبيِّن الزجاج في موضعٍ آخر أن الحرف "في" في هذه الآية تحملُ معنى الاشتمال؛ ذلك لأنَّ الجذعَ يستملُ على المصلوب؛ لأنَّه أخذَه من أقطاره. وهذا من باب مجاز الحرف نحو قولهم: "زيدٌ في الجبل" أي "زيدٌ على الجبل"؛ لأنَّ معنى "زيدٌ في الجبل" قد اشتملَ على زيدٍ⁴.

ويُعَلِّل الطاهر ابنُ عاشور هذا التركيب اللُّغويَّ بأنَّ عدلَ عن حرف الاستعلاء "على" إلى حرف الظرفية "في" تشبيهاً لشدة تمكُّن المصلوب من الجذع بتمكُّن الشيء الواقع في وعائه⁵. والذي يدلُّ على ذلك هو سياق الوعيد والتهديد الذي جاءت به الآيات من قبلِ فرعون. كما أنَّ الفعل "أصلَّب" الذي يحملُ معنى المبالغة⁶ والتكثير⁷ قرينةٌ إضافيةٌ لاستخدام "في" في هذا التركيب التحويلي، بمعنى أن الحرف "في" تناغم، أولاً، مع سياق الآيات، وثانياً، مع الفعل "أصلَّب" الذي يدلُّ على التوكيد والمبالغة والتكثير في الفعل⁸.

وثمة قرينة أخرى تُشيرُ - برأيي - إلى أنَّ "على" لا يمكن لها أن تحلَّ محلَّ "في" ليس فقط على مستوى اللفظ بل على مستوى المعنى، وهو أنَّ تعدية الفعل "أصلَّبْتُكُمْ" جاءت بواسطة "في"؛ كي تستوفي الجملة أركانها بالحرف "في"؛ ليدلَّ على أنه صلبٌ متمكَّن، وعليه يبيِّن الزمخشريُّ والبيضاويُّ أنَّه النصُّ القرآنيُّ شَبَّهَ تمكُّن المصلوب في الجذع بتمكُّن الشيء الموعى في وعائه⁹. وهذا - كما يؤكِّد ابنُ عطية الأندلسيُّ - من باب "الاتساع" في التحو؛ ف"في" في هذا الموضع تحملُ معنى الاتساع من حيث هو مربوط في الجذع، وليس على حدِّ قولك: "زيدٌ

¹ محمد بن علي بن الخطيب الموزعي المعروف بابن نور الدين، مصابيح المعاني في حروف المعاني (القاهرة: دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، 1993)، 314.

² الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 3: 368.

³ الهلائي، الحروف العاملة في القرآن الكريم، 233-234.

⁴ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 1: 422.

⁵ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 16: 265.

⁶ ن. م، 16: 265.

⁷ أبو السعود، إرشاد العقل، 3: 477.

⁸ ن. م، 3: 477.

⁹ الزمخشري، الكشاف، 3: 156؛ شيخ زاده، الحاشية على تفسير البيضاوي، 5: 641.

في الدار". ثمَّ يومئ إلى إنَّ "على" المقدَّرة في المعنى "على جذوع النخل" تصلح فقط من باب أنَّ المصلوب مربوط في أعلى الجذع، وليس على حدِّ قولك: "ركبتُ على الفرس"¹. وهذا كلامٌ صريحٌ وواضحٌ يُصرِّحُ به ابنُ عطية بأنَّ "على" في تقديرها كحرفٍ يدلُّ على الاستعلاء لا يمكن لها أن تكونَ "في" كما جاء بها التركيبُ القرآنيُّ، لا سيَّما أنَّ السياقَ النحويَّ يدلُّ بكلِّ ما يدورُ في رحاهُ أنَّ "في" - برأيي - لا تنوبُ عنَّ "على"، وهو ما أذهبُ إليه في تصوُّري للأداء النحويِّ لمفهومِ التَّعاوُرِ أو التَّنابُ، حيثُ إنَّ كلَّ كلمةٍ أو حرفٍ له دورهُ السياقيُّ - النحويُّ الخاصُّ به حتَّى وإنَّ اشتركَ في معانٍ إضافيةٍ أخرى.

ويذهبُ الصَّاوِي إلى أنَّ استخدامَ "في" في هذه الآيةِ إمَّا يُحمَلُ على أنَّ الكلامَ هنا استعارةٌ تبعيَّةٌ، حيثُ شبَّهَ الاستعلاءَ المطلقَ بالظرفيةِ المطلقةِ، فسرى التشبيهُ من الكلياتِ إلى الجزئياتِ، فاستعيرتُ لفظهُ "في" الموضوعُ للظرفيةِ الخاصةِ لمعنى "على" الموضوعُ للاستعلاءِ الخاصِّ بجامعِ التَّمكُّنِ².

وما يدعُمُ رأيَنا كذلك، ما أشارَ إليه الألوسيُّ بأنَّ إيثَارَ كلمةِ "في" على كلمةِ "على" في هذه الآيةِ؛ جيءَ للدَّلالةِ على إبقائهم زمانًا مديدًا في حالةِ الصَّلْبِ؛ تشبيهًا لاستمرارهم وهم مصلوبونَ على جذوعِ النخلِ باستقرارِ الظرفِ في المظروفِ المشتملِ عليه³. ثمَّ يكشفُ عنَّ أمرٍ هامٍّ وهو أنَّ هناك من المفسِّرينَ والنُّحاةِ من يرى أنَّ هذا التركيبَ اللُّغويَّ "في جذوعِ النخل" ليسَ استعارةً أو تشبيهًا، بل هو على الحقيقة؛ لأنَّ فرعونَ نَقَرَ جذوعَ النخلِ، حتَّى جَوَّفَهَا⁴، وصَلَبَهُمْ في داخلِها؛ ليموتوا جوعًا وعطشًا⁵.

وفي قولهِ تعالى: {فَكَيفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}⁶ يرى كثيرٌ من النُّحاةِ والمفسِّرينَ أنَّ اللَّامَ في "لِيَوْمٍ" جاءتْ نابتٌ وتعاوَرَتْ مَعَ الحرفِ "في"⁷، بمعنى: "إذا جمعناهم في يومٍ لا ريبَ فيه".

¹ ابن عطية، المحرر الوجيز، 10: 57.

² الصَّاوِي، الحاشية، 3: 96-97؛ الفونوي، الحاشية، 12: 390.

³ الألوسي، روح المعاني، 9: 317؛ السمين الحلبي، الدر المصون، 8: 76.

⁴ السمين الحلبي، الدر المصون، 8: 76.

⁵ الألوسي، روح المعاني، 9: 317.

⁶ القرآن الكريم، آل عمران: 25.

⁷ ابن هشام، مغني اللبيب، 1: 238.

ويرى السمين الحلبي أن اللام في هذا الموضع جاءت عوضاً عن محذوف، والتقدير "لقضاء يوم" أو "جزاء يوم"¹، وهو التحويلي المفسر الذي لا يترك شاردة ولا واردة من المسائل اللغوية إلا ويذكرها، ولكنه ها هنا فضل أن يكتفي بالتقدير ولكن يعرض لا من قريب ولا من بعيد إلى أن "اللام" حلت محل "في". ويُعبر عن هذا صراحة المنتجب الهمداني بقوله: "لأن اليوم" أي: لجزاء يوم، أو لحساب يوم، فحذف المضاف². ويرى الألوسي أن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه جاء؛ تحويلاً لما يقع فيه³.

ويتبين، كما يذكر القرطبي، أن التعاور هنا إنما هو رأي قاله الكسائي، أما البصريون فإنهم يُقدرون محذوفاً، والمعنى "لحساب يوم"⁴، وهو ما مال إليه الطبري الذي قدر جملة كاملة وهي: "لما يحدث في يوم"⁵. والحقيقة أننا نلاحظ أن الطبري يقدّر هذه الآية معنيين مختلفين⁶، أما المعنى الأول، فيرى فيه أن دخول "في" هو مغاير للمعنى الذي في اللام، فمعناه في هذه الحالة: "فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب. وأما المعنى الثاني، وهو معنى اللام فهو: "فكيف إذا جمعناهم لما يحدث في يوم لا ريب فيه"⁷. وإن دل ذلك على شيء فإما يدل على أن اللام لم تنب عن "في"، بل إن لها معنى خاصاً وسباقاً ذاتياً انسجم مع مضمون الآية. وهذا ما يؤكد ابن عطية الأندلسي بقوله إن اللام في قوله "اليوم" طالبة لمحذوف، أي لا بُد من تقدير محذوف⁸.

ويلفت بعض النحاة الأنظار إلى حقيقة اللام في هذه الآية من خلال تتبع السياقات وما يتعلق به من نظم الكلمات، إذ إن هذه الآية—كما يقول أبو حيان الأندلسي—تحمل معنى التعجب من حال تلك الفئة من الناس، وتحمل معنى الاستعظام والتهويل⁹ لعظم مقاتلتهم خلال قوله {فكيف إذا جمعناهم}، ف"كيف" انتصبت على الحال بتقدير: "كيف يصنعون؟" أو "كيف يكون حالهم"، أو هي في موضع خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه

1 السمين الحلبي، الدر المصون، 3: 97.

2 المنتجب الهمداني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، 2: 32.

3 الألوسي، روح المعاني، 2: 382.

4 النحاس، إعراب القرآن، 1: 182.

5 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 2: 423؛ الشوكاني، فتح القدير، 1: 416.

6 الهلالي، الحروف العاملة، 210.

7 الطبري، جامع البيان، 2: 238.

8 ابن عطية، المحرر الوجيز، 3: 65.

9 الألوسي، روح المعاني، 2: 410.

المعنى، والتقدير: كيف حالهم؟ والعامل في "إذا" ذلك الفعل الذي قدره في "كيف". ثم يستأنف أبو حيان الأندلسي قوله إنَّ اللام في "ليوم" تتعلق بـ"جمعناهم"، والمعنى لقضاء يوم وجزائه كقوله في موضع آخر¹ {إنَّك جامع النَّاسِ لِيَوْمٍ...}².

إذن، فطبيعة التركيب اللغوي لهذه الآية، وما يرتبط بها من سياق خاص، يجعل اللام هنا تفيده معني مستقلاً بذاته دلَّ عليه سياق الآية، وسلسلة ارتباط الكلمات بعضها ببعض.

ونلاحظ أنَّ المالقي [630-702هـ، 1233-1302م] يُحاول في بعض المواضع أن يؤكد حقيقة هامة، قد تغيب عن كثير من النحاة والمفسرين في تعاطيهم لمسألة تعاوُر الحروف والكلمات، وهي أنَّ تعاوُر الحروف إنما هو موقوف على القياس؛ لأنَّ الحروف لا يوضع بعضها موضع بعض قياساً، إلا إذا كان معناها واحداً، وكان معنى الكلام الذي يدخلان فيه واحداً أو راجعاً إليه، ولو على بُعد³.

وهذا يعني أنَّ هناك مذهبيْن في التعاطي مع مسألة التعاوُر في النحو العربي: مذهب الكوفيَّين الذين يذهبون إلى أنَّ الحروف تتعاوُر فيما بينها؛ لأنَّها تحمل دلالات مختلفة، ومذهب البصريَّين الذي يرون إبقاء الحرف على موضعه الأول، إمَّا بتأويل يقبله اللفظ وإمَّا بتضمين الفعل معنى فعل آخر⁴. وأظنَّ أنَّ البصريَّين إمَّا قصدوا بذلك أنَّ الحرف يتحدَّد معناه خلال السياق دون أنَّ تحمَّله معنى حرف آخر. وهو ما يوضِّحه المرادي، جواباً لمن يسأل: ما معنى قولهم إنَّ الحرف يدلُّ على معنى في غيره، بقوله: إنَّ معنى ذلك أنَّ دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقِّفة على ذكر متعلِّقه بخلاف الاسم والفعل⁵. وهذا ما يؤكِّده الباحث محمد عواد على أنَّ المسألة في حقيقتها ترجع إلى طبيعة التركيب نفسه وسياقه، وإلى دلالات اللفاظ في مثل هذا السياق أو ذاك⁶.

ولو أُجيز لي أن أستحضر هذه الصورة اللسانية إلى العصر الحديث لُقلت إنَّ كثيراً من النحاة القدماء إمَّا كانوا من أصحاب المدرسة التداولية Pragmatics وهم لا يعرفون المصطلح نفسه، فهذا هو ذا الرُّمائي

¹ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 4: 687.

² القرآن الكريم، آل عمران: 9.

³ أحمد بن عبد الثور المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، [د.ت])، 221.

⁴ المرادي، الجني الذاني، 46.

⁵ ن.م، 46.

⁶ عواد، تناوب حروف الجز، 20.

حينما يَعْرِضُ للهمزة- على سبيل المثال- يقول: "...وهي تُسْتَعْمَلُ في مَوْضِعَيْنِ: في النَّداءِ، والاستفهامِ. فإذا اسْتُعْمِلَتْ في النَّداءِ فلا يُنادَى بها إِلَّا القريبُ دونَ البعيدِ؛ لأنَّ مناداةَ البعيدِ تحتاجُ إلى مدِّ الصَّوتِ، وليسَ في الهمزة مدٌّ... إلخ"¹.

إذن، فإنَّ الرُّمائيَّ، خلالَ حديثه أعلاه حَوْلَ الهمزة، يعرضُ الهمزة مِنْ ناحيةِ استخداميَّةٍ، وبالتالي فإنَّ الهمزة إنما يتحدَّدُ معناها عبرَ وجودها في إطارِ جملةٍ ما، وسياقٍ ما، ونتيجةً إلى هذا يتكوَّنُ لها معنىٌ دلاليٌّ مِنْ خلالِ هذا "الوجودِ النَّحْوِيّ" Syntactic Existence - إنَّ صَحَّ التعبيرُ.

ومنْ يُدَقِّقُ النَّظَرَ يَنَجَلُ له أنَّ الأمرَ في حقيقتهِ مردودٌ إلى تعريفِ الحرفِ وحدوده، بدايةً مِنْ سببويه ومروراً بالنُّحاةِ القدماءِ والمحدثين، فَقَدْ عَرَفَهُ سببويهُ بأنَّه "ما جاءَ لمعنى وليسَ باسمٍ ولا فعلٍ"². ويُعَرِّفُهُ الرَّجَاجِيُّ بأنَّه "ما دَلَّ على معنى في عَيره"³.

ويأتي السَّؤالُ، كيفَ يكونُ الحرفُ متعلِّقاً مِنْ حَيْثُ المعنى بغيره، وفي المقابلِ سارعَ كثيرٌ مِنَ النُّحاةِ في تأليفِ ما يُسمَّى "معاني الحروف" الَّتِي تتلخَّصُ الفكرةُ منها أنَّ للحرفِ الواحدِ معانيَ عدَّةً، وكأنَّ هذه الحروفُ هي الَّتِي تُفَرِّزُ المعنى في الجملةِ وليسَ ما يرتبطُ بِهِ مِنْ أسماءٍ وأفعالٍ؟!

فعلى سبيلِ المثالِ، يذكرُ ابنُ هشامٍ أكثرَ مِنْ عشرينَ معنىً لحرفِ "اللام"، نحو الاستحقاقِ، والاختصاصِ، والتَّمليكَ، والتَّعليلِ، وتوكيدِ النَّفيِّ، وموافقةِ "إلى" أي بمعنى "إلى"، وموافقةِ "على"، وموافقةِ "في"، وأنَّ تكونَ بمعنى "عند"، وموافقةِ "بعد"، وموافقةِ "مع"، وموافقةِ "مِنْ"، والتَّبليغِ، وموافقةِ "عَنْ"، والصَّيرورةِ، و"القَسَمِ والتَّعجُّبِ معاً، والتَّعجُّبِ المجرَّدِ عَنِ القَسَمِ، والتَّعديَّةِ، والتَّوكيدِ... إلخ"⁴. بل إنَّ المرادِيَّ يُشيرُ إلى أنَّ بعضَ النُّحاةِ كانَ قد أَفَرَدَ لها تصنيفاً خاصاً⁵، فذكروا لها أكثرَ مِنْ أربعينَ معنىً⁶.

¹ المرادِيَّ، الجنى الدَّاني، 30.

² سببويه، الكتاب، 1: 12.

³ الرَّجَاجِيُّ، الإيضاح، 54.

⁴ ابن هشام، مغني اللبيب، 1: 232-241.

⁵ أنظرُ على سبيل المثال كتاب اللامات للرَّجَاجِيِّ.

⁶ المرادِيَّ، الجنى الدَّاني، 95.

وأعتقد أنَّ هذا الأمرَ يَخْلُقُ بلبلةً وشعناً كبيرين، لهذا فإنَّ الأولى أن يُقالَ - بتقديري - إنَّ الحرفَ يتأتَّى معناه من خلالِ السياقِ الذي قيلَ فيه، ومن خلالِ التركيبِ الذي وُضِعَ فيه، فالحرفُ، فيما أراه، ليسَ جزءاً "قاصراً" كما صَوَّرَهُ كثيرٌ منَ النُّحاةِ، أو جزءاً متعلِّقاً بغيره؛ كي يُفِيدَ معنىً، وهذا ما جَعَلَ بعضَ النُّحاةِ يعترضُ على هذا التوجُّه في أنَّ الحرفَ "لا معنى له بذاته، وهو في خانةِ "الجمودِ" ما دامَ لم يتَّصِلْ بشيءٍ، كما أنَّ الذي يَمُنَحُهُ المعنى هو الاسمُ أو الفعلُ خلالَ ارتباطِهِ بهما! في حينَ أنَّهم منَ ناحيةٍ ثانيةٍ يُفَرِّدُونَ مؤلِّفاتٍ وكتباً مطوَّلةً في معاني الحروفِ، على أنَّ الحرفَ - بحدِّ ذاته - ذو معانٍ مختلفةٍ في التركيبِ اللُّغويِّ، الأمرُ الذي أدخلَهُم في تناقضٍ كبيرٍ!

لقدِ اعترضَ بعضُ النُّحاةِ على تعريفِ النُّحاةِ للحرفِ - حتى تعريفِ سيبويه - واصفينَ إياها بأنَّها تعريفاتٌ لا تعكسُ الواقعَ النَّحويَّ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فنلحظُ السُّهَيْلِيَّ [508-581هـ، 1114-1185م] يُعرِّفُ الحرفَ بقوله: "ما دلَّ على معنى في غيره وليس يفهم العرب من الحرف ذلك المعنى"¹. ثُمَّ يُعَقِّبُ ابنُ يعيشَ على تعريفِ ابنِ الأنباريِّ، محاولاً تصحيحَ تعريفِ الحرفِ، حيثُ يرى أنَّ الحرفَ "كلمةٌ دلَّت على معنى في غيرها". إذنَّ، فهي محاولاتٌ في تعريفِ الحرفِ، وإنَّ دَلَّ ذلك على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على أنَّ بعضَ النُّحاةِ كانوا يشعرونَ أنَّ ثمةَ "إشكاليةً" في تعريفِ الحرفِ، وفي التعاملِ مَعَ الحرفِ على مستوى الجملةِ النَّحويَّةِ.

ولهذا، نرى أنَّ ابنَ عصفورٍ لا يقبلُ الرَّأيَ الذي يذهبُ إلى كَوْنِ الحرفِ "إلى" بمعنى "في"، مُؤَكِّداً أنَّها لو كانتْ بمعنى "في" لَسَاعَ أَنْ يُقالَ: "زَيْدٌ إلى الكوفة"، أي في الكوفة، فلمَّا لم تُقْلَعْ العربُ وَجَبَ أَنْ يتأوَّلَ ما أوهم ذلك².

ويأخذُنا قولُ ابنِ عصفورٍ إلى رأيِ ابنِ هشامٍ الذي يرى أنَّ تعاوُرَ حروفِ الجرِّ عن بعضٍ ويستدلُّ به هو رأيٌ غيَّرَ دقيقٍ، فيقولُ: قولُهُم يَنوبُ بعضُ حروفِ الجرِّ عَنْ بعضٍ. وهذا أَيْضاً ممَّا يتداولونه ويستدلُّون به. وتصحيحُهُ بإدخالِ (قد) على قولِهِم "ينوبُ". وحينئذٍ فيتعدَّدُ استدلالُهُم به، إذ كلُّ موضعٍ ادَّعوا فيه ذلك يُقالُ

¹ السُّهَيْلِيَّ، نتائج الفكر في النَّحو، 64.

² المرادي، الجنى الذاني، 388.

لهم فيه. لا نُسلِّمُ أنَّ هذا ممَّا وَقَعَتْ فِيهِ النَّيَابَةُ. ولو صَحَّ قَوْلُهُمْ: لَجَازَ أَنْ يُقَالَ: مررْتُ في زَيْدٍ، ودخلْتُ مِنْ عَمْرٍو، وكتبْتُ إلى القلم¹!

ويجدرُ بي أَنْ أَشِيرَ إلى مسألةٍ تَحْتَاجُ إلى تَأْمُّلٍ وَتَحْيِصٍ، وهي تَعَاوُرُ الحُرُوفِ بِالأَسْمَاءِ أو الأَفْعَالِ وتَنَاوُجِهَا والعَكْسُ، اسْتِنَادًا على دراسةِ سِيَاقِهَا المَخْتَلِفَةِ الَّتِي تَطَرُّأُ على هَذَا التَّغْيِيرِ، وَأَظُنُّ أَنَّهَا مسألةٌ لَمْ تَلَقْ اهْتِمَامًا جَدِيدًا فِي البَحْثِ الأكَادِمِيِّ. وَمِنْ ذَلِكَ - على سَبِيلِ المِثَالِ - قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}² وَيُقَابِلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ}³، فِي الآيَةِ الأولى قَالَ: "مِنْ إِمْلَاقٍ"، وَفِي الآيَةِ الثَّانِيَةِ قَالَ: "خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ"، كَمَا قِيلَ فِي الآيَةِ الأولى: "نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ"، وَقِيلَ فِي الآيَةِ الثَّانِيَةِ: "نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ".

وَيَكْمُنُ السُّؤَالُ، مَا الْفَرْقُ بَيْنَ "مِنْ إِمْلَاقٍ" وَبَيْنَ "خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ"، وَبِالتَّالِي، هَلْ يَتَعَلَّقُ مَا تَبِعَهُمَا مِنْ تَعْقِيبِ لِقَابِ الضَّمَائِرِ فِي "نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" وَ"نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ"؟

وَلَعَلَّنَا فِي الْبَدَايَةِ نُبَيِّنُ أَنَّ بَعْضَ النُّحَاةِ وَالْمُفَسِّرِينَ كَانُوا قَدْ أَنْكَرُوا على هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَ فِي الْآيَتَيْنِ مَجَرَّدَ تَنْوِيعٍ وَتَلْوِينٍ فِي تَرْكِيبِ اللَّغَةِ، فَقَدْ أَكَّدَ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّفْنُّنِ فِي الْبَلَاغَةِ⁴ وَالصِّيَاغَةِ، بَلْ إِنَّ كُلًّا مِنَ الْآيَتَيْنِ تَنَاسَبَ مَعَ سِيَاقِهَا الَّذِي قِيلَ فِيهَا، وَمَعَ طَبِيعَةِ الْخُطَابِ الْمَوْجَّهِ.

إِنَّ "مِنْ" فِي قَوْلِهِ "مِنْ إِمْلَاقٍ" هِيَ "مِنْ" السَّبَبِيَّةِ⁵ أو التَّعْلِيلِيَّةِ⁶ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالفِعْلِ الْمُنْهِي عَنْهُ، أَيْ - كَمَا يَقُولُ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ -: لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ؛ لِأَجْلِ الإِمْلَاقِ⁷، أو "مِنْ أَجْلِ الْفَقْرِ"⁸ كَمَا يَقُولُ الْعَكْبَرِيُّ. وَيُذْهِبُ الرَّخْمَشَرِيُّ إِلَى تَفْسِيرِ "مِنْ إِمْلَاقٍ"⁹ على أَنَّ الْمَقْصُودَ بِذَلِكَ "مِنْ أَجْلِ فَقْرٍ، وَمِنْ خَشْيَتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى

¹ ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 656.

² القرآن الكريم، الأنعام: 151.

³ القرآن الكريم، الإسراء: 31.

⁴ السمين الحلبي، الذر المصون، 5: 219.

⁵ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 4: 687.

⁶ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8: 158.

⁷ السمين الحلبي، الذر المصون، 5: 218.

⁸ العكبري، إملأ ما من به الرحمن، 1: 265.

⁹ معنى الإملاق: الفقر. يقال: أملق يملق إملاقًا. وهو المعنى الأول الذي أطبق عليه ائمة اللغة، وائمة التفسير، على حد قول الشوكاني. ويعني "الإملاق" -أيضًا- الجوع بلغة (لهجة) لحم. وقيل الإسراف، أملق الرجل أي: أسرف في نفقته. وقيل معناه الإنفاق. وقيل إن الإملاق يعني الفساد من قولهم: أملق الدهر ما عُدَّه، إذا أفسده. والفعل "أملق" -بمعانيه المختلفة- لازم ومتعدي، يقال: أملق الرجل أي افتقر، وأملقه

"خَشِيَّةٌ إِمْلَاقٍ"¹، وبالتالي فهو يُساوي مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ بَيْنَ "مِنْ" وَبَيْنَ "خَشِيَّةٍ" الَّتِي تُعْرَبُ مَفْعُولًا لِأَجْلِهِ² فِي آيَةِ "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَّةً إِمْلَاقٍ".

يرى المفسِّرون أَنَّ ثَمَّةَ ارتباطًا فِي الْآيَةِ الْأُولَى بَيْنَ "مِنْ إِمْلَاقٍ" وَبَيْنَ "نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ "خَشِيَّةٍ إِمْلَاقٍ" وَبَيْنَ "نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ" فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِذْ إِنَّ الْخُطَابَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مُوجَّهٌ إِلَى الْآبَاءِ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ "حَالِيًّا" فِي فَقْرٍ شَدِيدٍ؛ وَيَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ نَتِيجَةً هَذِهِ الْفَقْرِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُطْعَمُوا أَوْلَادَهُمْ، فَبَدِئُوا بِالْآبَاءِ أَوَّلًا³ - كَمَا يُوَكِّدُ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ وَغَيْرُهُ - خِلَالِ قَوْلِهِ "نَرْزُقُكُمْ"؛ طَمَآنَةً لَهُمْ، وَوَعْدًا بِأَنَّ اللَّهَ سِيرَزُقُهُمْ هُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، وَبَشَارَةً لَهُمْ بِزَوَالِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفَقْرِ⁴. وَكَأَنَّهُ - كَمَا يَقُولُ الرَّازِيُّ - يَخَاطِبُهُمْ بِقَوْلِهِ: أَنَا مُتَكَيِّلٌ بِرِزْقِ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ، فَكَمَا وَجَبَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ تَبْقِيَةُ النَّفْسِ وَالِاتِّكَالِ فِي رِزْقِهَا عَلَى اللَّهِ، فَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي حَالِ الْوَالِدِ⁵.

وَفِي تَقْدِيمِ ضَمِيرِ الْآبَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، يُشِيرُ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ مَفَادُهُ بِأَنَّهُ ذَكَرَ رِزْقَهُمْ مَعَ رِزْقِ آبَائِهِمْ، وَقُدِّمَ رِزْقُ الْآبَاءِ مِنْ أَجْلِ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ كَمَا رُزِقَ الْآبَاءُ فَلَمْ يَمُوتُوا جُوعًا، كَذَلِكَ يُرْزَقُ الْأَبْنَاءُ عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ إِنَّمَا اعْتَرَى الْآبَاءَ فَلَمْ يُقْتَلْ لِأَجْلِهِ الْأَبْنَاءُ⁶.

أَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ "خَشِيَّةً إِمْلَاقٍ" أَتْبَعَهَا بِقَوْلِهِ: "نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ"؛ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ - كَمَا يَقُولُ الْمَفْسِّرُونَ - أَنَّ الْخُطَابَ مُوجَّهٌ إِلَى الْآبَاءِ الْمُسَرِّينَ⁷ وَالْأَغْنِيَاءِ الَّذِي يَعِيشُونَ "حَالِيًّا" فِي سَعَةٍ وَرَغْدٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَحْشَوْنَ حَصُولَ الْفَقْرِ وَمَشَقَّةَ الْإِعَالَةِ⁸ فِي أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ يَصَابُونَ فِيهِ بِالْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ الشَّدِيدِينَ؛ لِهَذَا فَقَدْ قَالَ "خَشِيَّةً إِمْلَاقٍ"؛ لِأَنَّ الْخَشِيَّةَ تَكُونُ مِمَّا لَمْ يَقَعْ بَعْدُ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَقُلْ "خَوْفَ إِمْلَاقٍ".

أَيُّ أَفْقَرَهُ. انْظُرْ: ابْنُ عَطِيَّةٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْمَحْزَرُ الْوَجِيزُ، 5: 394؛ الرَّجَاجُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ، 3: 236؛ الرَّازِيُّ، التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ، 13: 245؛ الْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، 4: 117؛ الشُّوْكَانِيُّ، فَتْحُ الْقَدِيرِ، 2: 231.

¹ الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ، 2: 135.

² ابْنُ عَطِيَّةٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْمَحْزَرُ الْوَجِيزُ، 9: 67؛ الرَّجَاجُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ، 3: 236؛ النَّخَاسُ، إِعْرَابُ الْقُرْآنِ، 2: 103.

³ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 4: 687.

⁴ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، الذَّرُّ الْمَصُونُ، 5: 219.

⁵ الرَّازِيُّ، التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ، 13: 245.

⁶ ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْبِيرُ، 8: 159.

⁷ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 4: 687.

⁸ الْجَرَجَانِيُّ، دَرَجُ الدَّرِّ، 2: 1103.

وعليه بُدئ بالآولاد أولًا "نَرْزُقُهُمْ" ثم بالآباء "وَأَيَّاكُمْ"؛ وذلك ضمانًا لرزقهم¹، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم، فقَدَّم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم²؛ ليكون أمنع لهم من ارتكاب القتل، وكأنَّ سياق الآية- كما يقول الغرناطي- يُشعرُ بتشفيع الأولاد في رفع فقر الآباء القاتلين، فكأنَّه قد قيل لهم: إنَّما تُرزقون بهم، فلا تقتلوههم، فتأكَّد تقديم ضمير الآباء لهذا الغرض³.

ولعلَّ الأمر اللَّافِت أنَّ الرَّجَّاجَ كَانَ قَدْ مَنَحَ "مِنْ" التَّعْلِيلِيَّةَ معنى الخوفِ الَّذي لا يتقاطع مع معنى الخشية في "خشية إملاق"⁴. وأعتقد أنَّ "مِنْ" تمثِّل في حقيقة الأمر حالةً أشدَّ في درجة "الخوف" من "خشية" التي بدورها تحمل معنى التَّوَقُّع⁵، والذي يدعم ذلك- فيما نراه- أنَّ سياقَ المواضع التي دُكِر فيها "الخوف" في النَّصِّ القرآنيِّ تعني حالةً كليَّةً في الشَّعورِ التَّفسِّي، نحو قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَافَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} ⁶. وهذا ما جعل السَّمينَ الحلبيَّ يوكِّد أنَّ "مِنْ" في "مِنْ إملاق" هي نهيٌّ للآباء عن قتل الأولاد وإن كانوا متلبِّسين بالفقر⁷. فضلًا عن ذلك، يرى الطَّاهرُ ابنُ عاشور أنَّ القتل والوَأْدَ حاصلٌ بالفعل في الآية الأولى، وهو الَّذي تقتضيه "من" التَّعْلِيلِيَّةُ، بينما فهو متوقَّع الحصول في الآية الثَّانية، وهو الَّذي يقتضيه المصدرُ "خشية"⁸.

إذْ فثُمَّ تشابهَ بَيِّنَ "مِنْ" و"خشية" أنَّ كليهما يفيدُ معنى السَّبَبِيَّةِ والأجْلِيَّةِ- أي "مِنْ أَجْلِ الْفَقْرِ"⁹- وثُمَّ اختلافٌ بينهما وهو أنَّ "مِنْ" تعكسُ أدنى مستوى أو درجةً للشَّيء، وتوحي، لِمَنْ يتأمَّل النَّصَّ، بتلبُّس حالة الفقر، بينما تعكسُ "خشية" في "خشية إملاق" تصوُّرًا مستقبليًّا للشَّيء دونَ حدوثه. واستنادًا إلى سياق

¹ الزَّمخشرِّي، الكشَّاف، 3: 16.

² الألوسي، روح المعاني، 8: 454.

³ الغرناطي، ملك التَّأويل، 1: 479.

⁴ الرَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه، 2: 304.

⁵ ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّوْصِيْر، 15: 88-87.

⁶ القرآن الكريم، النُّحْل: 112.

⁷ السَّمين الحلبي، الذَّر المصنوع، 5: 219.

⁸ ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّوْصِيْر، 8: 158.

⁹ العكبري، التَّبييان، 426.

كلا الآيتين جاء التركيب النحوي مطابقاً لهذا السياق في التقديم والتأخير: (نرزقكم وإياهم - نرزقهم وإياكم)، وفي قلب الضمائر والعدول بينها، كما بيّن ابن عاشور¹.

ونستطيع القول، بعد هذا العرض، إنّ قيمة الحرف ومعناه يتحدّد بالسياق وحده، فالسياق - كما يُبيّن الصّادُر راشد - هو الذي يجعل حرفاً واحداً فقط يدخل - من ضمن مجموعة من الأحرف ذات الوظيفة الواحدة - على الجملة، ويُبعد كلّ ما عداه من حروفٍ يمكن أن تحلّ محله². وبناءً عليه، فإنّ السياق النحوي وحده هو الذي يُضفي على الحرف قيمةً خاصّةً فيما يتعلّق بالجمال التي تكون الحروف الجزء الأغلب في معناها العام، فإذا استثنينا جملي الإثبات والأمر بالصيغة (قام زيد، زيد قام، فم)، وكذلك بعض جمل الإفصاح، فإننا سنجد كلّ جملة في اللغة الفصيحة تعتمد في تكوين معناها، وفي العلاقة بين أجزائها على حروف المعاني من نفى، ونهي، وتأكيّد، واستفهام، وشرط، ولا يمكن لها أن تؤدي أيّاً من هذه المعاني دون أن يضامّها حرف من هذه الحروف، وهذه المنزلة جعلت لها - من ناحية أخرى - مكاناً ثابتاً في أنّها لا تسمح لغيرها من الكلمات أن تحلّ مكانها، أو أن تفصل بينها وبين ضميمتها في التركيب النحوي³؛ فحرف الجر - مثلاً - لا يمكن أن يُفصل عن مجروره، وحرف العطف لا يمكن أن يُفصل عن معطوفه⁴... وهلمّ جرّاً.

13. 3. مسارات السياق في مظاهر "الحمل على المعنى":

على الرّغم من نظرة بعض الباحثين، الذين يرون أنّ النّحو في مجمله ما هو إلا قواعد مقبولة لا تبرح إعراب الألفاظ والجملة دون أن يكون للمعنى حضور في هذا الإعراب أو ذاك، إلّا أنّ المعنى - للمتأمل فيما التّراث النحوي - كان قد احتلّ مكانة كبيرة في التفكير النحوي⁵، إذ إنّ له أثراً ملموساً في الدّراسات النحويّة منذ بدء

¹ ابن عاشور، التّحرير والتّوير، 8: 159.

² الصّادق خليفة راشد، الحرف في أداء معنى الجملة (بنغازي: منشورات جامعة قارونس، 1996)، 42.

³ تَمّام حسان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، 123.

⁴ الصّادق راشد، الحرف في أداء معنى الجملة، 42-43.

⁵ عبد الفتّاح حسن علي البجة، ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربيّة بين علماء اللغة القدامى والمحدثين (عمّان: دار الفكر للطباعة والنشر والتّوزيع، 1998)، 199-200.

التأليف التحويلي من خلال مناهج البحث التحويلي عند النحاة، وصياغتهم لأصول التحو وفروعه، وتعليقهم
ظواهره وأحكامه، ودراساتهم دلالة مفردات اللغة وتراكيبها، وفهمهم أساليب الكلام وطرائق التعبير، ومن خلال
ما نجد من اختلاف أوجه الإعراب في اللفظ الواحد، وتأويلها وتخريجها¹... وغيرها من المسائل التحويلية.
ولأهمية المعنى في التفكير التحويلي يبين ابن جني أن العرب تُدَبُّ ألفاظها، وتُجَمِّلُ تراكيبها ليس لذات
الألفاظ والتراكيب، بل عناية بالمعنى وخدمة له، فيقول: "... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها،
وجمعوا حواشيتها، وهذبوها، وصقلوها غروبها² وأزفوها، فلا تَرَيْنَ أَنَّ العناية إذ ذاك، إنما هي بالألفاظ، بل هي
عندنا خدمة منهم للمعاني³. كما يقول في موضع آخر: "ويدلُّك على تمكُّن المعنى في أنفسهم وتقديمه للفظ
عندهم تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة؛ وذلك لقوة العناية به، فقدَّمُوا دليله؛ ليكون ذلك أمانةً لتمكُّنه
عندهم... أفلا ترى إلى حروف المعاني: كيف بأبها التقدُّم وإلى حروف الإلحاح والصناعة: كيف بأبها التأخُّر⁴،
فلو لم يُعرف سبق المعنى عندهم، وعُلُوُّه في تصوُّرهم، إلَّا بتقدُّم دليله، وتأخُّر دليل نقيضه، لكان مُعْجَبًا مِنْ غَيْرِهِ
كافيًا"⁵.

وفي هذا يرى الباحث عبد العزيز أبو عبد الله أنَّ سيويته كان يحرص الحِرصَ كُلَّهُ على أن يُصَحِّح المعنى
قبل أن يُصَحِّح الإعراب، وعنايته به قبل عنايته باللفظ، ولو تعارض أقوى الرأيين إعرابًا مع المعنى الذي يقضيه
الحال والسياق، رَجَعَ إلى الأقوى ما دام المعنى يَأْتَلِفُ به وَيَطْرُدُ مَعَهُ⁶.

وكما أنَّ النحاة عُنُوا بالمعنى، فقد اهتموا ببالغ الاهتمام بما يُسمَّى "الحمل على المعنى"، إذ ذَكَرَ ابنُ
الأنباري أنَّ التَّنْقُلَ مِنْ معنى إلى معنى كان كثيرًا في كلام العرب⁷، ممَّا حدا بابن جني أن يؤكد بقوله: "رأيت غلبة

¹ كريم الخالدي، نظرية المعنى في الدراسات التحويلية، 11.

² غروبها: أي أظرافها.

³ ابن جني، الخصائص، 1: 217.

⁴ تأخذنا عبارة ابن جني إلى باب التقديم والتأخير، وإلى فكرة الرتبة المحفوظة- كما أشرنا إليها آنفًا. ولعل الأمر اللافت- في رأيي- أنَّ معظم النحاة لا يفترون عند هذا المعنى الدقيق الذي يطرحه ابن جني، وهي حتَّى لو أننا نتحدث عن مرتبة التقديم المحفوظة إلَّا أنَّ الأمر يعود إلى المعنى السياقي، وذلك لأنَّ انشغال العرب في المعنى يجعلهم يبدؤون سياق الكلام بمثل هذه الحروف التي لا يمكن لها إلَّا أن يُبدأ بها. وهي ظاهرة جديرة بإفراد بحث مستقل.

⁵ ابن جني، الخصائص، 1: 224-225..

⁶ عبد العزيز أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، 1: 306.

⁷ ابن الأنباري، الإنصاف، 2: 115.

المعنى للفظ، وكون اللفظ خادماً للمعنى مشيداً به، وإثماً جيء به له ومن أجله، وأما غير هذه الطريقة من الحمل على المعنى فأمر مستقر...¹.

وقد اعتمد النحاة والمفسرون الحمل على المعنى كنوع من توجيه كلام العرب، إذ لو حملت الجملة أو النص على ظاهره لفسد المعنى، واضطرب الكلام، نحو تأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وإفراد الجمع، وجمع المفرد². وهي ظاهرة- بتوصيف النحاة- فاشية شائعة عن العرب حيث يقول ابن جني في ذلك: "وقد شاع عنهم حمل ظاهر اللفظ على معقود المعنى، وترك الظاهر إليه..."³، بل عدها ابن جني نفسه من ضمن المسائل التي شملها في "باب شجاعة العرب" التي تتمثل في الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف⁴. والحمل على المعنى هو- كما يعرفه ابن هشام، وعليه جمهور النحاة- "أن يُعطى حكم الشيء ما أشبهه في معناه، أو في لفظه، أو فيهما"⁵، بمعنى أن يُعطى لفظ على معنى آخر، أو تركيب على تركيب آخر؛ لشيء بين اللفظين أو التركيبين في المعنى المجازي، فيأخذان حكمهما النحوي مع ضرورة وجود قرينة لفظية أو معنوية تدل على ملاحظة اللفظ أو التركيب الآخرين، ويُؤمن اللبس معهما.

ومن أمثلة سياق "الحمل على المعنى" في النص القرآني، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾⁶، حيث عبر عن الفعل بواو الجماعة بعد أن قال "طائفتان"؛ لأن الأصل أن يتطابقا على نحو: "طائفتان اقْتَتَلتا"، ولكنه عدل عن ذلك بالفعل "اقتتلوا"، حيث يقول القنوني أن مقتضى الظاهر أن يقول "اقتتلتا"؛ لإسناد الفعل إلى الضمير المثنى، ولكنه عدل عن ذلك نظراً إلى المعنى- أي حملاً على المعنى-؛ وذلك لأن كل طائفة من هاتين هي جمع معني وإن كان مثنى لفظاً⁷. ويضيف الزمخشري أن الطائفتين في معنى القوم والناس⁸.

¹ ابن جني، الخصائص، 1: 237.

² ابن جني، المحتسب، 1: 145.

³ ن. م، 1: 145.

⁴ ابن جني، الخصائص، 2: 360.

⁵ ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 674.

⁶ القرآن الكريم، الحجرات: 9.

⁷ القنوني، الحاشية، 18: 127.

⁸ الزمخشري، الكشاف، 4: 253.

ويؤكد فضل عباس أن المراد هنا ليس شخصين اثنين، وإنما هما فريقان يُكَوِّنانِ جموعاً من الناس، وبالتالي يرجع الضمير فيه لهذه الجموع حملاً على معنى الخصمين، والتحاماً مع سياق الآية، كما أن هناك ملحظاً بلاغيّ لجميء واو الجماعة؛ إذ تُصَوِّرُ تلك الكثرة للفريقين "الخصمين"، وما يمكن أن يحدث من اقتتال هؤلاء¹.

ويُعِلُّ الألوُسِّي السِّياقَ الَّذِي يشملُ الحملَ على المعنى في "اقتتلوا" من جهة، والحملَ على اللفظِ في "بَيْنَهُمَا" من خلالِ الفعلِ "فَأَصْلَحُوا" من جهة ثانية؛ مشيراً إلى أنه عُذِلَ في الفعلِ "اقتتلوا" إلى ضميرِ الجمعِ؛ لرعاية المعنى²، ولكنّه عادَ إلى صيغةِ المثنى في الصُّلحِ؛ لأنّهم في حالِ القتالِ مختلطونَ فلذا جُمِعَ أولاً ضميرُهم، وفي حالِ الصُّلحِ مُتَمَيِّزُونَ متفارقونَ؛ فلذا تُبَيِّنُ الضميرُ³. وهذا يعني أن سياقَ تداولِ الحربِ والسِّلمِ يقتضي هذا التَّركيبَ، وكأنّهم ساعةَ الحربِ مجتمعينَ في رهطٍ واحدٍ⁴، ولكن عندما تَضَعُ الحربُ أوزارَها وخلالَ مرحلةِ الإصلاحِ يفترقونَ فيما بَيْنَهُمْ.

ويُبيِّنُ ابنُ عاشورَ أن سياقَ الآية يُقْضِي إلى استخدامِ الفعلِ "اقتتلوا" الَّذِي اسْتُعْمِلَ هنا في إرادةِ الوقوعِ؛ إذ أن هذا الفعلَ "اقتتلوا" يُؤْتَى بِهِ للاهتمامِ بالفاعلِ "طائفتان"، والذي يدلُّ على ذلك؛ أن التَّركيبَ عَدَلَ عَنِ المضارعِ "يَقْتَتِلُونَ" الواقعِ فعلاً للشرطِ، ولكنَّ السِّياقَ سياقُ شرطٍ لم يتحقَّقْ، أو في حالةٍ إن تحقَّقَ، ولهذا يؤكدُ ابنُ عاشورَ أن الإتيانَ بصيغةِ الماضي "اقتتلوا" معَ عدوله إلى الحملِ على المعنى كان أَلْيَقَ بالشرطِ؛ لأنّه لَمَّا أُريدَ تقديمُ الفاعلِ على فعلِهِ للاهتمامِ بالمُسندِ إِلَيْهِ جَعَلَ الفعلَ ماضياً على طريقةِ الكلامِ الفصيحِ في مثله مِمَّا أوليتُ فيه "إن" الشرطيَّةَ الاسمَ⁵ نَحْوَ قَوْلِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ}⁶.

¹ فضل عباس، لطائف المنان وروائع البيان، 19.

² الصاوي، الحاشية، 4: 189.

³ الألوُسِّي، روح المعاني، 13: 209.

⁴ الزمخشري، الكشاف، 4: 253.

⁵ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 26: 239.

⁶ القرآن الكريم، التوبة: 6.

وفي قَوْلِهِ تعالى: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ} ¹ دُكِّرَ الفعل "جاء" وأُنِثَ الفاعل "موعظة" ²؛ حملاً على المعنى، لأنَّ "الموعظة" هنا بمعنى "وعظ" ³ - كما يقول القيسي - والسبب في ذلك؛ يأتي في سياق آياتٍ تَتَحَدَّثُ عَنِ الرِّبَا وتُعَيِّرُ بأسلوبِ الزَّجْرِ الشَّدِيدِ عَنْ أَكْلِ الرِّبَا، حَوْفاً مِنَ اللَّهِ وامتنالاً لأمرِهِ ⁴.

ف"العِظَةُ" أو "الموعظة" هنا بتركِ المعاملة بالرِّبَا إنما هي زَجْرٌ ووعيدٌ ⁵، وبالتالي فَقَدْ جِيَءَ بِمَثَلِ هذا التَّركِيبِ؛ كَيْ تَشُدَّ طَبِيعَةُ الْجُمْلَةِ الْإِتْبَاءَ، وَتُصَوِّرَ مَا حُرِّمَ بِصُورَةٍ زَاجِرَةٍ، وَكَأَنَّهُ - برأْيي - نوعٌ مِنَ الْمَخَالَفَةِ الصَّوْتِيَّةِ - التَّحْوِيَّةِ، التَّنْطِقِ وَالشَّكْلِ وَالْمَعْنَى الدَّلَالِي - تشبيهاً بقوله تعالى: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ} ⁶، فَقَدْ خَالَفَ حَرَكَةَ بِنَاءِ الضَّمِيرِ فِي "عَلَيْهِ" ⁷ مِنَ الْكَسْرِ "عَلَيْهِ" إِلَى الضَّمِّ ⁸، وذلك؛ مناسبةً أَنْقَلَّ الْعَهْدُ ⁹ بِأَثْقَلِ الْحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وَمُنَاسَبَةً تَفْخِيمِ لَفْظِ "اللَّهُ" بِسَبَبِ الضَّمِّ الَّذِي يَسْبِقُهُ فِي "عَلَيْهِ" بِتَفْخِيمِ هَذَا الْعَهْدِ، وَهُوَ جِزْءٌ مِنْ حَمْلِ اللَّفْظِ أَوْ الصَّوْتِ عَلَى الْمَعْنَى - إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ - وَكُلُّ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ التَّعْظِيمِ ¹⁰، كَمَا يُؤَكِّدُ ابْنُ عَطِيَّةٍ الْأَنْدَلُسِيُّ.

وَيُوضِّحُ الْقَرطُبِيُّ أَنَّ الْفَاعِلَ "موعظة" فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَدْ سَقَطَتْ عَلَامَةُ تَأْنِيثِ فِعْلِهِ؛ لِأَنَّ تَأْنِيثَ "موعظة" غَيْرٌ حَقِيقِيٌّ، فَهُوَ بِمَعْنَى "وَعِظٌ" ¹¹؛ بَلْ يَذْهَبُ ابْنُ جَنِّي إِلَى أَنَّ "الموعظة" و"الوعظ" وَاحِدٌ ¹². وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْأَلُوسِيُّ عَلَى أَنَّ إِسْقَاطَ التَّاءِ مِنَ الْفِعْلِ؛ يَأْتِي لِلْفَصْلِ لِكَوْنِ التَّأْنِيثِ تَأْنِيثًا مُجَازِيًا ¹³ مَعَ مَا فِي "الموعظة" مَعْنَى التَّذَكِيرِ ¹⁴. كَمَا يَذْكُرُ الزَّخَشَرِيُّ وَالصَّائِغِيُّ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ سِيَاقَ مَعْنَى الْفِعْلِ "جاءه" إِنَّمَا يُحْمَلُ عَلَى التَّضْمِينِ؛

¹ القرآن الكريم، البقرة: 275.

² الزَّجَاج، معاني القرآن وإعرابه، 1: 358.

³ القيسي، مشكل إعراب القرآن، 1: 181.

⁴ الشَّنَقِيطِي، أضواء التنزيل، 5: 93.

⁵ الزَّخَشَرِيُّ، الكشاف، 1: 285.

⁶ القرآن الكريم، الفتح: 10.

⁷ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 9: 487.

⁸ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 7: 224.

⁹ يرى المفسرون أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِ. انْظُرْ: ابْنُ عَطِيَّةٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، المحرَّر الوجيز، 13: 441.

¹⁰ ابن عَطِيَّةٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، المحرَّر الوجيز، 13: 441.

¹¹ الْقَرطُبِيُّ، الجامع لأحكام القرآن، 2: 308؛ الْقَيْسِيُّ، مشكل إعراب القرآن، 1: 181؛ الزَّجَاج، معاني القرآن وإعرابه، 1: 358.

¹² ابن جَنِّي، الخصائص، 2: 412.

¹³ الْمُؤَنَّثُ الْمُجَازِيُّ هُوَ الْمُؤَنَّثُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَذْكَرٌ مِنْ جَنْبِهِ.

¹⁴ الْأَلُوسِيُّ، روح المعاني، 2: 324.

فهو بمعنى "بَلَعَهُ" وأنَّ "مَوْعِظَةً" بمعنى وَعِظَ¹، وكلاهما - من خلال هذا التركيب يقودان إلى معنى الوَعِظُ مِنَ اللَّهِ والزَّجْرُ بِاللَّهِ عَنِ الرِّبَا².

وفي قَوْلِهِ تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ³، نلاحظُ أَنَّ الفعلَ "أَخَذَ" جاءَ مُدَكَّرًا فَخُذِفَتْ منه تاءُ التَّأْنِيثِ، وفاعلهُ "الصَّيْحَةُ" جاءتْ مُؤَنَّثًا⁴؛ وذلكَ حَمَلًا على المعنى، فَقَدْ أشارَ ابنُ عطيةَ الأندلسيِّ أَنَّ الفعلَ المُسَنَدَ إلى الصَّيْحَةِ "ذُكِّرَ؛ لِأَنَّ "الصَّيْحَةَ" هي بمعنى الصَّيَاحِ، فالصَّيْحَةُ والصَّيَاحُ واحدٌ⁵ - كما بيَّنَ النَّحَّاسُ - وبالتالي فإنَّ تَأْنِيثَهَا هنا عَرِيرٌ حَقِيقِيٌّ⁶.

ويُضِيفُ ابنُ عطيةَ سببًا آخَرَ لِتَأْنِيثِ "الصَّيْحَةِ" على عَدِّ "الصَّيْحَةِ" مُؤَنَّثَةً تَأْنِيثًا حَقِيقِيًّا؛ حَيْثُ يَعُودُ السَّبَبُ إلى الفصلِ بَيْنَ الفعلِ "أَخَذَ" وَبَيْنَهَا بِالمفعولِ بِهِ⁷ المُقَدَّمِ على الفاعلِ⁸، كما في قَوْلِ العربِ: "خَضَرَ القاضي اليومَ امرأةً"⁹.

وبخصوصِ سياقِ هذا التَّعَايُرِ بَيْنَ الفعلِ وفاعلهِ في التَّذْكِيرِ والتَّأْنِيثِ؛ حَمَلًا على المعنى أو تَخْرِيجًا تَضْمِينِيًّا¹⁰، إِنَّمَا يَنْبَغُ مِنْ أَنَّ الآيَاتِ تدورُ حَوْلَ عَذَابِ قَوْمِ النَّبِيِّ صَاحِحٍ، وتحمِلُ هَوَلاً مِنْ هذا العَذَابِ؛ فجاءَ بالفعلِ مُدَكَّرًا لِأَنَّ المُدَكَّرَ أَقْوَى في تصويرِ العَذَابِ، لفضلِ قُوَّةِ الرَّجُلِ البدنيَّةِ على قُوَّةِ المرأةِ، ولأَنَّ الصَّيْحَةَ إِنَّمَا تَجِيءُ مُسْتَعْمَلَةً في ذِكْرِ العَذَابِ؛ وذلكَ لِأَنَّها على وزنِ "فَعْلَةٌ" الَّتِي تدلُّ على مرَّةٍ واحدةٍ¹¹.

إِذَنْ، فسياقُ الحملِ على المعنى هو سياقُ توافُقِيٍّ، يتوافقُ مَعَ حركةِ الأفعالِ والآياتِ، وهو سياقٌ يقومُ على إبرازِ عنصرِ شِدَّةِ العَذَابِ وهَوَليهِ، ولا أدلَّ على ذلك - كما عَرَضَ الألويسيُّ أَنَّ الآيَةَ الَّتِي تسبُّقُها تُخْتَمُ بِمَلامِحِ القُوَّةِ: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ¹²، وعلى إبرازِ ذلك التَّوَأْفُقِ - فيما أراه - بَيْنَ كلمةِ "خِزْيٍ" المُدَكَّرَةِ وَبَيْنَ الفعلِ

¹ الصَّائِي، الحاشية، 1: 302.

² الزَّمَخْشَرِيُّ، الكَشَافُ، 1: 285.

³ القرآن الكريم، هود: 67.

⁴ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 3: 353-354.

⁵ النَّحَّاسُ، إعراب القرآن، 1: 560.

⁶ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 7: 337.

⁷ المفعول به هو الاسم الموصول "الَّذِينَ" في جملة: "وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ".

⁸ درويش، إعراب القرآن، 3: 354.

⁹ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 7: 337.

¹⁰ سأحدث عن التضمين التحويلي لاحقاً.

¹¹ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 7: 337.

¹² القرآن الكريم، هود: 66.

"أَخَذَ" على النحو التالي¹: { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ

هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ♦ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ }².

ومن اللافت ما يذكره المبرّد في أنّ "المطابقة" بين "الموعظة" المؤنثة والفعل "جاء" المذكّر، وكذلك بين "الصيحة" المؤنثة والفعل "أخذ" المذكّر" قد حُمِلت على الأصل؛ لأنّ أصل الأشياء هو التذكير فضلاً عن ذلك، فإنّ المطابقة حاصلّة من خلال السياق التركيبي للآية³، وهذا كثير في القرآن وكلام العرب، وما كان تأنيثه حقيقياً يصحّ أن يفقد المطابقة بينهما من حيث التذكير والتأنيث وهو ظاهر قول المبرّد: "فإنما صَرَبَ جارِئُكَ زيّداً، وجاء أمتك، وقام هند فغير جائز؛ لأنّ تأنيث هذا حقيقي، ولو كان من غير الحيوان لصلح وكان جيّداً"⁴.

ولعلنا نُشير هنا إلى أنّ المبرّد يُفرّق بين التأنيث الحقيقي وبين التأنيث المجازي، فيؤكد بذلك أنّ "التأنيث والتذكير في الواحد على ضربين: أحدهما حقيقة والآخر لفظ... فأما الحقيقي فما كان في الرجل والمرأة وجميع الحيوان؛ لأنّك لو سميت رجلاً طلحةً لحبرت عنه كما يخبر إذا كان اسمُهُ مذكراً والتأنيث الثاني، والتذكير نحوض قولك: يوم، وليلة، وبلدة، ودار، ومنزل، فليس هذا أكثر من اللفظ"⁵. وبناءً على هذا التصوّر يُبيّن الباحث سامي الماضي أنّ هذه التفرقة تدلّ على العناية بالفرق الدلاليّ لهما؛ لأنّ الأوّل داخل في الحقيقة، والثاني مجرّد لفظ مؤنث، فضلاً عن أنّ المؤنث اللفظيّ يمكن أن يأتي معموله مذكراً⁶، وهذا ظاهر في قول المبرّد: "فلو قلت: "قصر ليلتك"، و"عمر دارك" لجاز؛ لأنّ الدار والمنزل شيء واحد"⁷.

بالإضافة إلى هذا - وإكمالا للحمل على المعنى - فإنّ التضمين النحوي⁸ يدخل في سياق هذا الحمل؛

لما له من علائق هامة بالسياق؛ إذ دون فهم "السياق" سيبقى التركيب اللغويّ مستغلماً يحتاج إلى تفسير ما.

¹ الألويسي، روح المعاني، 7: 127.

² القرآن الكريم، هود: 66-67.

³ الماضي، الدلالة النحوية، 192.

⁴ المبرّد، المقتضب، 2: 146.

⁵ ن. م، 3: 349-348.

⁶ الماضي، الدلالة النحوية، 192.

⁷ المبرّد، المقتضب، 3: 349.

⁸ يُعرّف ابن هشام والأشمونى التّضمين النّحويّ بأنّه إشراب لفظ معنى لفظ آخر فيعطونه حكمه، وفاندنّه أن تؤدّي كلمة مُودى كلمتين . ويُعرّفه الرّمحشريّ بقوله: "أنّ يُقصد بلفظه معناه الحقيقيّ، ويلاحظ معه معنى فعل آخر يُناسبه ويدلّ عليه يذكر شيء من متعلّقاته"، وهذا يعني- كما يوضّح الباحث الصادق راشد- أن يُجمّع في التركيب بين دالّتين، الدّلالة الأصليّة للفعل، ودلالة الفعل الملاحظ- أو الحالة المعنويّة المأخوذة منه غالباً- التي يدلّ عليها السّياق والقرينة المتمثّلة في الحرف الملازم لها في التّعدية سلّبا وإيجاباً . فالنّضمين إذن هو أن تتضمّن الكلمة معنى كلمة أخرى؛ وبالتالي تُعامل معاملةً لها، أو هو، كما أوجزه السيوطيّ كتعريف مختصر شامل- برأبي- "إعطاء

لهذا يُعَدُّ التَّضْمِينُ فِي النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ أَحَدَ أَوْجِهِ التَّأْوِيلِ الَّتِي قَالَ بِهَا النُّحَاةُ - فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهُمْ - لَتَفْسِيرِ قَوَاعِدِهِمُ الَّتِي اسْتَنْبَطُوهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ الْمَشْتَمِلِ عَلَى خَلِيطٍ مِنَ الْمُسْتَوَيَاتِ اللَّهَجِيَّةِ، وَالْأَنْوَاعِ الْأَدْبِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي كَانُوا يَرَوْنَ فِيهَا أَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْأَصُولِ الْعَامَّةِ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ قَوَاعِدُ نَحْوِيَّةٍ عَامَّةٌ¹ مِنْ خِلَالِ النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ الَّذِي عُدَّ الْمَرْجِعَ الْأَوَّلَ عِنْدَ النُّحَاةِ.

ولمسألة التَّضْمِينِ النَّحْوِيِّ حُضُورٌ مَلْحُوظٌ² فِي النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَ ابْنَ جَنِّي يَبْدَأُ بِتَعْرِيفِ التَّضْمِينِ مِنْ خِلَالِ الشَّوَاهِدِ الْقَرَأَنِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ: "اعْلَمْ أَنَّ الْفِعْلَ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَتَعَدَّى بِحَرْفٍ، وَالْآخَرُ بِآخَرَ، فَإِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَتَّسَعَ فَتَوَقَّعَ أَحَدَ الْحَرْفَيْنِ مَوْقِعَ صَاحِبِهِ إِذَا نَاقَا بِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ الْآخَرَ، فَلِذَلِكَ جِيءَ مَعَهُ بِالْحَرْفِ الْمَعْتَادِ مَعَ مَا هُوَ فِي مَعْنَاهُ. وَذَلِكَ كَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصَّيَّامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}³. وَأَنْتَ لَا تَقُولُ: رَفَثْتُ إِلَى الْمَرْأَةِ وَإِنَّمَا تَقُولُ: رَفَثْتُ بِهَا، أَوْ مَعَهَا، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ الرَّفَثُ هُنَا فِي مَعْنَى الْإِفْضَاءِ، وَكُنْتَ تُعَدِّي أَفْضَيْتُ بِ"إِلَى" كَقَوْلِكَ: أَفْضَيْتُ إِلَى الْمَرْأَةِ، جِئْتُ بِ"إِلَى" مَعَ الرَّفَثِ إِذَا نَاقَا وَإِشْعَارًا أَنَّهُ بِمَعْنَاهُ"⁴.

شَيْءٌ مَعْنَى شَيْءٍ، وَيَكُونُ فِي الْحُرُوفِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ"، وَهُوَ ظَاهِرَةٌ مَشْهُورَةٌ لَدَى الْعَرَبِ يُقَاسُ عَلَيْهَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النُّحَاةِ كَمَا يُوَكِّدُ رَضِيُّ الدِّينِ الْأَسْتَرَابَادِي. وَلَعَلَّ مِنْ أَشْهَرِ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي يَضْرِبُهَا النُّحَاةُ الْقَدَمَاءُ هُوَ: "رَحْبَتُكَ الدَّارُ"؛ إِذْ إِنَّ الْفِعْلَ "رَحِبَ" تَضَمَّنَ مَعْنَى "وَسِعَ"، وَقَدْ أَصْبَحَ الْفِعْلُ "رَحِبَ" مُتَعَبِّيًا - وَهُوَ فِي الْأَصْلِ فِعْلٌ لَازِمٌ - لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى "وَسِعَ" أَيْ: "وَسِعَتْكُمْ الدَّارُ". انْظُرْ: ابْنُ هِشَامٍ، مَقْنِي اللَّبِيبِ، 2: 685؛ الصَّبَّانُ، حَاشِيَةُ الصَّبَّانِ عَلَى الْأَشْمُونِيِّ، 1: 450؛ الزَّمْخَشَرِيُّ، الْكَشَافُ، 1: 97؛ الرِّضِّي، شَرْحُ شَافِيَةِ ابْنِ الْحَاجِبِ، 1: 75-76؛ السِّيُوطِيُّ، مَعْرَكَ الْأَقْرَانِ، 263؛ الزَّرْكَشِيُّ، الْبَرْهَانُ، 3: 338؛ رَاشِدٌ، دَوْرُ الْحَرْفِ فِي آدَاءِ مَعْنَى الْجُمْلَةِ، 250؛ صَفِيَّةٌ مَطْهَرِي، الدَّلَالَةُ الْإِبْحَانِيَّةُ فِي الصِّيغَةِ الْإِفْرَادِيَّةِ، 53.

¹ الصَّدَاقُ رَاشِدٌ، دَوْرُ الْحَرْفِ فِي آدَاءِ مَعْنَى الْجُمْلَةِ، 325.

² تَجَدَّرُ الْإِشَارَةُ هُنَا، وَبِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ الْبَحْثِ الْأَكَادِمِيِّ، أَنْ أُنْكَرَ أَنَّ بَعْضَ النُّحَاةِ - لَا سَيِّمًا الْمَحْدَثِينَ - يَقْفُونَ مَوْقِفًا انْتِقَادِيًّا لظَاهِرَةِ التَّضْمِينِ النَّحْوِيِّ، كَحَسَنِ عَبَّاسٍ، وَإِبْرَاهِيمَ السَّامِرَانِي، فَقَدْ رَأَى السَّامِرَانِي - مَثَلًا - أَنَّ التَّضْمِينَ فِي النَّحْوِ شَأْنُهُ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ الَّتِي لَمْ تَسْلَمْ مِنَ التَّفْكِيرِ الْفَلَسَفِيِّ وَالْمُنَطْقِيِّ، فَيَقُولُ: "وَكَانَ نَاقِئُهُ (يَقْصِدُ التَّضْمِينَ) فِي النَّحْوِ وَاللُّغَةِ سَلْبِيًّا، فَقَدْ أَحَالَ كَثِيرًا مِنَ الْأَبْوَابِ اللُّغَوِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ مَادَّةً جَامِدَةً بَعِيدَةً عَنِ الْحَيَاةِ، وَبَعِيدَةً عَنِ طَبِيعَةِ اللُّغَةِ السَّهْلَةِ السَّامِعَةِ؛ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا ظَهَرَتْ فِي عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ قَوَاعِدُ وَأَحْكَامٌ لَمْ تَكُنْ وَلِيدَةً الْإِسْتِقْرَاءِ الشَّامِلِ الْوَاسِعِ لِلُّغَةِ كَقَوْلِهِمْ إِنَّ الْفِعْلَ كَذَا يَأْتِي لِمَعْنَى وَلَا يَأْتِي لِغَيْرِهِ، وَهَكَذَا فَطَنُوا فِي أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ وَذَلِكَ الْحَرْفَ قَدْ أَتَيَا عَلَى غَيْرِ مَا ذَكَرُوا، فَزَعُوا إِلَى طَرِيقَتِهِمْ وَمَنْهَجِهِمْ يُؤَوَّلُونَ وَيُغَلَّلُونَ". وَلَكِنِّي - بِرَأْيِي الْمَتَوَاضِعِ - أَقِفْتُ مَوْقِفَ مُغَايِرٍ لِمَا جَاءَ بِهِ السَّامِرَانِي وَغَيْرُهُ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ؛ لِأَسْبَابٍ عَدِيدَةٍ، أَهْمُهَا أَنَّ كِبَارَ النُّحَاةِ قَالُوا بِالتَّضْمِينِ النَّحْوِيِّ، وَبَنَوْا عَلَيْهِ قَوَاعِدَ وَشَوَاهِدَ، وَأَنَّ مَفْهُومَ "التَّعْلِيلِ الْفَلَسَفِيِّ" إِنَّمَا هُوَ مَفْهُومٌ مُتَجَبِّرٌ فِي النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ النَّحْوِيَّةِ، بَلْ إِنَّ "التَّعْلِيلَ" هُوَ رَكْنٌ أَسَاسِيٌّ مِنْ أَرْكَانِ النَّحْوِ وَأَصُولُهُ بَدَائِيَّةٌ مِنَ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ وَمُرُورًا بِعَصُورِ النَّحْوِ الْمُتَعَابِقَةِ فَضَلَّ عَنْ أَنَّ إِعْمَالَ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ فِي تَعْلِيلِ التَّضْمِينِ هُوَ أَلِيَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِمَثَلِ هَذِهِ التَّرَاكِيِبِ، وَإِلَّا فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ بِتَكْلَمٍ عَلَى سَلِيقَتِهِ وَفَطَرَتِهِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ لَمْ جَاءَ هَذَا التَّرَكِيبُ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ، وَبَيْنَ دَارِسِ النَّحْوِ وَبَاحِثِهِ الَّذِي يَتَجَسَّمُ الْمَشَاقُّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؛ كَيَّ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ هَذَا التَّرَكِيبِ أَوْ ذَاكَ، وَالْمَعَانِي الْمُرْتَبِئَةُ عَلَيْهِ، فَاللُّغَةُ - بِرَأْيِي - أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَوْضَعَ تَحْتَ مَجْهَرٍ وَاحِدٍ فَقَط. انْظُرْ: إِبْرَاهِيمَ السَّامِرَانِي، فِقْهُ اللُّغَةِ الْمَقَارَنِ (بَيْرُوت: دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَابِينِ، 1978)، 208.

³ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْبَقْرَةُ: 187.

⁴ ابْنُ جَنِّي، الْخَصَانِصُ، 2: 308.

والأمثلة- كما قُلْتُ آنفًا- على التّضمين في النّصّ القرآنيّ كثيرة، اكتفي ببعض النّماذج؛ كي تعرّف على المسار السّياقيّ للجملة القرآنيّة المشتملة على تركيب تضييقيّ، ففي قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...} ¹، فإنّ الأصل في الفعل "أَنْعَمَ" أنّ يتعدّى بنفسه ²، ولكننا نلاحظ أنّ التركيب جعل هذا الفعل يتعدّى بحرف الجرّ "على"، وذلك؛ حملاً على معنى "أَنْعَمَ مِنْ جهةٍ، وتضميناً للفعل "أَنْعَمَ" معنى الفعل "فَضَّلَ" ³.

والذي اقتضى هذا التّضمين هو سياق الآية وما يُحيطُ بها، بالحديث يدور حول "الصّراطِ" المستقيم الذي يطلبه العبدُ مِنْ رَبِّهِ مِنْ خلالِ قوله في الآية السّابقة {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ⁴؛ فجاء ذلك الطّلبُ أو الدّعاء بوصف الصّراطِ على أنّه "الصّراطُ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ"، فجاء الفعل المبدوءُ بهمزة التّعديّة "أَنْعَمَ" ثُمَّ عَدِيَ بِ"على"؛ لإفادة معنى التّفَضُّلِ والإنعام، فكأنّه قال: أَنْعَمْتَ مُتَفَضِّلاً عَلَيْهِمْ، وبناءً عليه؛ فإنّ التّضمين- كما يوكِّدُ محمّد المنجد- أكسب الآية معنيي الإنعام والتّفَضُّلِ معاً بفعل الأوّل ومتعلّق الثاني إيجازاً في اللفظ واتّساعاً ⁵ في المعنى ⁶.

ويقف أبو حيّان الأندلسي على سياق معنى التّضمين في هذا الآية، فيقول إنّ الفعل "أَنْعَمَ عَلَيْهِ" يعني "بَالَعَ في التّفَضُّلِ عليه، فالهمزة في "أَنْعَمَ" تأتي؛ لجعل الشّيء صاحب ما صيغ مِنْهُ، إلّا أنّه ضَمَّنَ معنى التّفَضُّلِ ⁷، فعُدِيَ بِ"على"، وأصله التّعديّة بِنَفْسِهِ، ف"أَنْعَمْتُهُ" أي جعلته صاحب نعمة ⁸.

وعلى صعيد آخر، يُبيّن الرّمحشري أنّ حقيقة التّضمين تتلاءم مع سياق الآيات التي تحمل معنى التّوكيد؛ لما فيه التّشبيّة والتّكرير، وقد أُطلق "الإنعام"؛ ليشمل كلّ إنعام على المؤمنين ⁹. ويتأتّى هذا الإطلاق بواسطة عدم دكر المفعول به، وهو بمعنى الإخبار عن ذلك "الإنعام" أو النّعم، وهو ما عبّر عنه الطّبري بـ"تمام الإخبار"، مُعلِّلاً أنّ العرب تجتزئ في كلامها ببعض مِنْ بعض؛ إذا كان بعضه الآخر دالاً على بعضه الباطن

1 القرآن الكريم، الفاتحة: 7.

2 النّسفي، مدارك التنزيل، 1: 32.

3 محمّد نور الدين المنجد، اتّساع الدلالة في الخطاب القرآني (دمشق: دار الفكر، 2010)، 351.

4 القرآن الكريم، الفاتحة: 6.

5 انظر: تعريف الاتّساع النّحويّ وعلاقته بالسّياق لاحقاً.

6 محمّد المنجد، اتّساع الدلالة في الخطاب القرآني، 351.

7 السّمين الحلبي، الذرّ المصون، 1: 68.

8 أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 1: 46.

9 الرّمحشري، الكشاف، 1: 21؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 1: 122.

وكافيًا منه¹. وهذا يعني أنَّ التَّضْمِينَ التَّحْوِيَّ الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْفِعْلُ "أَنْعَمَ" بِمَعْنَى تَفَضَّلْتُ، وَأَنَّ عَدَمَ ذِكْرِ الْمَفْعُولِ بِهِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجَرِّبُنَا عَنْ حَقِيقَةِ الْإِنْعَامِ جَعَلَ الصُّورَةَ التَّحْوِيَّةَ تَأْخُذُ مِنْحَى سِيَاقِيًّا فِي الْإِطْلَاقِ؛ لِيَشْمَلَ كُلَّ أَنْوَاعِ الْإِنْعَامِ² - عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْمُنتَجِبِ الْهَمْدَانِيِّ - وَكَأَنَّهُ يُتَّبَعُ لِلْقَارِئِ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَنْوَاعًا مُطْلَقَةً غَيْرَ مُحْصَوْرَةٍ مِنَ الْإِنْعَامِ.

كما يترامى معنى التَّوَكِيدِ مَعَ الْبَدَلِ التَّحْوِيَّ أَوْ عَطْفِ الْبَيَانِ³ مِنْ خِلَالِ {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...⁴؛ إِذْ يَأْتِي بَنِيَّةُ تَكَرُّرِ الْعَامِلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: "أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ⁵. وهذا البدل يأتي كذلك في سياق الإبانة⁶ عَنْ ماهية الصِّرَاطِ - كما يُبَيِّنُ الطَّبْرِيُّ في تفسيره. إِذَنْ، فَالْسِّيَاقُ هُنَا هُوَ سِيَاقُ تَوْشُّعٍ فِي الْمَعْنَى التَّحْوِيَّ وَالِدَّلَالِيَّ لِلْفِعْلِ، وَلِمَّا وَقَعَ عَلَيْهِ الْفِعْلُ مِنْ إِطْلَاقٍ - كما ذَكَرَ الرَّخْشَرِيُّ وَالرَّازِيُّ⁷، فَوَافَقَتْ دَلَالَةُ الْإِتْسَاعِ التَّحْوِيَّ دَلَالَةَ السِّيَاقِ التَّحْوِيَّ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ سِيَاقُ تَوَكِيدٍ وَمِبَالِغَةٍ فِي الْإِنْعَامِ⁸.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}⁹، جَاءَ لَفْظُ "قَرِيبٌ" الَّذِي وَقَعَ خِبرًا لـ "إِنَّ" مَذْكَرًا¹¹؛ حَمَلًا عَلَى مَعْنَى "رَحْمَةٌ"، وَهِيَ - كما يَقُولُ الْمَفْسِّرُونَ وَالنُّحَاةُ - بِمَعْنَى الْغَفْرَانِ وَالْعَفْوِ فَخَمِلَتْ عَلَيْهِ¹². وَقَدْ ذَكَرَ الرَّجَّاحُ أَنَّ مَعْنَى "رَحْمَةٌ" يُحْمَلُ عَلَى الْمَطَرِ، الَّذِي لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ مَذْكَرٌ.

وَبِخُصُوصِ حَقِيقَةِ سِيَاقِ الْآيَةِ، يَكْشِفُ لَنَا الْفَرَاءُ عَنْ السِّيَاقِ التَّحْوِيَّ لِهَذَا التَّرْكِيبِ الْقَرَّانِيِّ، فَيَرَى أَنَّ السِّيَاقَ هُوَ سِيَاقُ الْقُرْبِ الْكَامِنِ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ التَّحْوِيَّ "رَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ"؛ مُسْتَدِلًّا بِمَا وَرَدَ عَنِ الْعَرَبِ أَنَّهَا إِذَا

¹ الطَّبْرِيُّ، جَامِعُ الْبَيَانِ، 1: 78.

² الْمُنْتَجِبُ الْهَمْدَانِيُّ، الْكِتَابُ الْفَرِيدُ، 1: 89.

³ ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْصِيرُ، 1: 192.

⁴ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْفَاتِحَةُ: 6-7.

⁵ الْبَيْضَاوِيُّ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ، 1: 30؛ الْقَوْنُوِيّ، الْحَاشِيَّةُ، 1: 253-254.

⁶ الطَّبْرِيُّ، جَامِعُ الْبَيَانِ، 1: 77.

⁷ الرَّازِيُّ، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ، 1: 261.

⁸ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 1: 46.

⁹ جَاءَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي الرَّسْمِ الْعُثْمَانِيِّ بِالتَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ {إِنَّ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}. وَلَعَلِّي فِي هَذَا الْمَقَامِ، أَشِيرُ إِلَى أَنَّ الرَّسْمَ الْعُثْمَانِيَّ - وَإِنْ كَانَ لَا يُقَاسُ عَلَيْهِ فِي الْإِمْلَاءِ عِنْدَ النُّحَاةِ - جَاءَ بِكَلِمَةِ "رَحِمْتَ" - هَكَذَا - بِالتَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ؛ دَلَالَةً وَإِشَارَةً إِلَى أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ أَبْوَابُهَا مَفْتُوحَةٌ أَمَامَ عِبَادِهِ الْمُحْسِنِينَ، وَأَمَامَ خَلْقِهِ. وَبِذَلِكَ يَزْدَادُ سِيَاقُ الْقُرْبِ وَمَعْنَاهُ - إِنَّ صَنَعَ لِي التَّعْبِيرُ - مِنْ خِلَالِ الرَّسْمِ الْعُثْمَانِيِّ، وَمِنْ خِلَالِ الْحَمْلِ عَلَى الْمَعْنَى وَالتَّغَايُرِ فِي عَدَمِ الْمِطَابَقَةِ بَيْنَ اسْمِ "إِنَّ" الْمُؤَنَّثِ "رَحْمَةٌ" وَبَيِّنَ خِبرَهَا الْمَذْكَرَ "قَرِيبٌ".

¹⁰ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْأَعْرَافُ: 56.

¹¹ ابْنُ حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ، ارْتِشَافُ الضَّرْبِ، 1: 351.

¹² السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، الذَّرْ الْمَصُونُ، 5: 344.

أَرَادَتِ الْقُرْبُ¹ عَبَّرَتْ بِقَوْلِهَا: "فَلَانَةُ قَرِيبٌ"، أَيِ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ². وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبَةٌ مِنْ عِبَادِهِ الْمُحْسِنِينَ لِكُونِهِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي تَعَهَّدَ بِالْقُرْبِ³، وَلِكُونِ "الرَّحْمَةِ" قَرِيبَةً وَوَاسِعَةً⁴؛ وَلِهَذَا قِيلَ، فِي أَحَدِ تَعْلِيلَاتِ تَذْكِيرِ "قَرِيبٍ" وَإِعْرَابِهِ، إِنَّهَا صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَذْكَرٍ حُذِفَ وَبَقِيََتْ صِفَتُهُ، وَالتَّقْدِيرُ: "إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ شَيْءٌ قَرِيبٌ"، أَوْ "إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ مَكَانٌ قَرِيبٌ".

وَلَكِنْ أبا عبيدة يُعَقِّبُ مُبَيِّنًا أَنَّ "قَرِيبٌ" فِي الْآيَةِ لَيْسَتْ وَصْفًا لَهَا، إِنَّمَا هُوَ ظَرْفٌ لَهَا وَمَوْضِعٌ، فَيَجِيءُ هَكَذَا الْمُؤَنَّثُ وَالْإِثْنَيْنِ وَالْجَمْعُ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهَا الصِّفَةُ وَجَبَتْ الْمِطَابَقَةُ، وَمِثْلُهَا لَفْظَةُ "بَعِيدٌ" أَيْضًا⁵. ففِي هَذَا الظَّرْفِ اتِّسَاعٌ⁶؛ فَيُعْطَى حُكْمُ الْأَسْمَاءِ الصَّرِيحَةِ، فَتَقُولُ: "زَيْدٌ أَمَامُكَ، وَعَمَرُو حُلْفَاكَ" بَرَفِعِ أَمَامَ وَخَلْفَ، وَقَدْ نَصَّ النُّحَاةُ عَلَى أَنَّ نَحْوَ: "إِنَّ قَرِيبًا مِنْكَ زَيْدٌ" أَنَّ "قَرِيبًا" اسْمٌ إِنَّ وَ"زَيْدٌ" خَبَرُهَا؛ وَذَلِكَ - كَمَا يُؤَكِّدُ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ - عَلَى الْإِتْسَاعِ⁷، بِمَعْنَى أَنَّ هَذَا يُعَدُّ تَوْسِعًا⁸ فِي الْمَعْنَى؛ فَتَذْكِيرُ "قَرِيبٌ" اخْتِمَالُ مَعْنِيَيْنِ، الْأَوَّلُ: اللَّهُ قَرِيبٌ، وَالثَّانِي: رَحْمَتُهُ قَرِيبَةٌ.

فَضْلًا عَنْ أَنَّ نَمَّةَ حَقِيقَةٍ نَحْوِيَّةً يَنْبَغِي أَنْ تُذَكَّرَ هُنَا، وَهِيَ أَنَّهُ فِي بَعْضِ تَرَكَيبِ الْإِضَافَةِ يَكُونُ الْمُضَافُ صَالِحًا لِلْحَذْفِ وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الْمَعْنَى لَا يَتَغَيَّرُ، وَهَذَا مُشْرُوطٌ - كَمَا يَقُولُ النُّحَاةُ - بِأَلَّا يَخْتَلَّ الْكَلَامُ بِهَذَا الْحَذْفِ⁹، وَبِنَاءٍ عَلَيْهِ فَلَوْ حَذَفْنَا الْمُضَافَ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ وَهُوَ "رَحْمَةٌ"؛ لَأَصْبَحَتْ الْجُمْلَةُ: "إِنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"، وَمَعَ

¹ ذَكَرَ الْفَرَّاءُ أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَرَادَتِ الْقُرْبَ فِي النَّسَبِ أَيْ الْقَرَابَةِ فِي النَّسَبِ عَبَّرَتْ بِقَوْلِهَا: "فَلَانَةُ قَرِيبَةٌ"، أَيْ قَرِيبَتِي؛ فَإِنَّهَا تَوْنَتْ، أَمَا إِذَا أَرَادَتِ الْقُرْبَ فِي الْمَكَانِ جَازَ الْوَجْهَانِ، أَيْ أَنْ تَذْكَرَ وَتَوْنَتْ، فَتَقُولُ: "فَلَانَةُ قَرِيبَةٌ وَقَرِيبٌ" أَيْ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ. أَنْظَرُ: الْفَرَّاءُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ، 1: 380.

² الْفَرَّاءُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ، 1: 380.

³ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} (الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْبَقَرَةُ: 186).

⁴ ذَكَرَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} (الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْأَعْرَافُ: 156).

⁵ أَبُو عُبَيْدَةَ، مَجَازُ الْقُرْآنِ، 1: 216.

⁶ يُشِيرُ الْكُفَوِيُّ إِلَى أَنَّ الْإِتْسَاعَ فِي الظَّرْفِ هُوَ أَنْ لَا يُقَدَّرَ مَعَهُ "فِي" تَوْسِعًا؛ فَيُنْصَبُ نَصْبُ الْمَفْعُولِ بِهِ، نَحْوُ: "دَخَلَ بَيْتًا"، وَ"قَامَ لَيْلًا"، وَ"صَادَ يَوْمِينَ"، وَ"صَامَ شَهْرًا" وَ"سَرَقَ اللَّيْلَةَ". وَالْمَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ التَّرْكِيبِ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ "فِي"، وَإِنْ كَانَ أَصْلُ الْمَعْنَى عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ يُفْهَمُ مِنْهُ غَالِبًا اللَّيْلَةُ تَمَامُهَا. وَيَذْهَبُ الْأَنْبَارِيُّ إِلَى أَنَّ الْحَمْلَ عَلَى الْمَعْنَى هُوَ مِنَ الْإِتْسَاعِ الَّذِي لَا يَصِحُّ الْقِيَاسُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: "الْحَمْلُ عَلَى الْمَعْنَى اتِّسَاعٌ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى السَّمَاعِ. أَنْظَرُ: الْكُفَوِيُّ، الْكَلِّيَّاتِ، 36؛ الْأَنْبَارِيُّ، الْإِنْصَافُ، 2: 871.

⁷ السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، الْفَرْقُ الْمَصُونُ، 5: 344.

⁸ التَّوَسُّعُ أَوْ الْإِتْسَاعُ فِي النَّحْوِ لَهُ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ وَتَعْرِيفَاتٌ عَدَّةٌ، وَلَكِنَّ الْفِكْرَةَ الْمُرَكِّبَةَ فِيهِ تَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ أَنَّ الْإِتْسَاعَ هُوَ خُرُوجُ عَنِ الْأَصْلِ فِي التَّرْكِيبِ. وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّافِعِيُّ إِنَّمَا خَاطَبَ اللَّهُ بَكْتَابِهِ الْعَرَبَ بِلِسَانِهَا عَلَى مَا تَعَرَّفَتْ مِنْ مَعَانِيهَا، وَكَانَ مِمَّا تَعَرَّفَتْ مِنْ مَعَانِيهَا اتِّسَاعُ لِسَانِهَا. وَتُعَرَّفُ الْإِتْسَاعُ عَلَى أَنَّهُ حَذْفُ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ مِنْ تَرْكِيبِ الْجُمْلَةِ؛ اتِّسَاعًا فِي الْعِبَارَةِ وَعَدَمُ التَّقْيُّدِ بِالْقَاعِدَةِ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ ابْنُ جَنِّي بِمَا سَمَّاهُ بِ"شَجَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ". وَأَبْوَابُ الْإِتْسَاعِ النَّحْوِيَّةِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: الْإِتْسَاعُ فِي الْفِعْلِ، وَالْفَاعِلِ، وَالْمَفْعُولِ بِهِ، وَالظَّرْفِ، وَالْإِضَافَةِ، وَالْجَرِّ، وَالْعَطْفِ... وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَبْوَابِ النَّحْوِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا. أَنْظَرُ: الشَّافِعِيُّ، الرَّسَالَةُ، 52؛ ابْنُ جَنِّي، الْخَصَانِصُ، 2: 360؛ الْكَتَّانِيُّ، مَوْسُوْعَةُ الْمِصْطَلَحِ فِي الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، 1: 54؛ الْمَنْجِدُ، اتِّسَاعُ الدَّلَالَةِ فِي الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ، 32.

⁹ ابْنُ مَالِكٍ، شَرْحُ التَّسْهِيلِ، 3: 102؛ الرَّضَوِيُّ، شَرْحُ الْكَافِيَةِ، 1: 413.

هذا عدل إلى التركيب الذي بين أيدينا؛ ليحمل الدلالة التحويلة الأوسع التي يقتضيها السياق، فينبئ من هذا أن معنى الجملة "إنه رحمة الله قريب" بالتذكير هو إشعار بأن الله قريب وبأن رحمة الله قريبة كذلك.

وفي قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} ¹، يأتي هذا التعبير القرآني في سياق الحديث حول اليتامى ² ومعاملتهم ³ في تبين الإنفاق عليهم ⁴، وعدم أكل مالهم ⁵، فيأتي التعقيب - كما يقول ابن عاشور - عن طريق الوعد والوعيد على ذلك ب"أن الله يعلم المفسد في التعامل مع أموال اليتيم ومن المصلح"؛ وذلك لأن المقصود من الإخبار بعلم الله هو ترتب آثار العلم عليه ⁶. وهذا يعني أن سياق الآية هي سياق تحذير ⁷ - كما يؤكد ابن عطية.

وينقل إلينا أبو حيان الأندلسي أن سياقاً آخر لهذه الآية وهو سياق الجزاء، فيقول إن جملة "والله يعلم المفسد من المصلح" جملة معناها التحذير، أخبر الله أنه عالم بالذي يفسد من الذي يصلح، ومعنى ذلك: أنه يجازي كلاً منهما على الوصف الذي قام به، فكثيراً - كما يبين أبو حيان الأندلسي - ما ينسب العلم إلى الله على سبيل التحذير؛ لأن من علم بالشئ جازى عليه، وهو تعبير بالسبب عن المسبب ⁸. وهذا يعني أن معنى الجزاء يُفضي إلى مجازاة كل من المفسد والمصلح على الدوام؛ لأهما وصفان يتجددان من الموصوف بهما، فتكرر ترتيب الجزاء عليهما لتكررها ⁹.

ويكمن التضمن الأول - إذن - في الفعل "يعلم" الذي يحمل معنى "يُمَيِّز"، أو "يفصل"، والذي يدل على هذا التضمن هو متعلق الفعل "يعلم"؛ فالجار والمجرور متعلقان بالفعل "يعلم"؛ لتضمنه معنى التمييز ¹⁰ - على حد قول محيي الدين دوريش - ف"العلم"، إضافة على معنى التمييز والفصل، يأتي هنا كذلك بمعنى المعرفة -

¹ القرآن الكريم، البقرة: 220.

² ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 2: 241.

³ نص الآية الكامل هو: (فِي الثُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ مِنَ اللَّهِ غَزِيرٌ حَكِيمٌ) القرآن الكريم، البقرة: 220.

⁴ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 2: 354.

⁵ الفرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 2: 58-61؛ الصاوي، الحاشية، 1: 253.

⁶ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 2: 357؛ شيخ زاده، الحاشية، 2: 531.

⁷ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 2: 242.

⁸ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 2: 413-414.

⁹ ن. م، 2: 414.

¹⁰ درويش، إعراب القرآن، 1: 288.

كما يُبيّن أبو السّعود- ولهذا فهو فعلٌ متعدٍّ إلى مفعولٍ واحدٍ نتيجةً لهذا التّضمين¹. وعليه، يُقدّر أبو حيّان الأندلسي الكلام على أنّه المعنى: "والله يُميّز بعلمه المُفسد من المصلح"².

وأما التّضمينُ الثّاني، فهو موجودٌ في حرفِ الجرِّ "من" في قوله: "من المصلح"، فهي- كما يُبيّن ابن عاشور- بمعنى "بين"، أو "من بين" أو "عن"؛ وذلك؛ كي ينسجم مع معنى التّمييز والفصل الذي يتضمّنه الفعل "يعلم"، وهذا المعنى التّضميني يُشكّل حلقةً دقيقةً في هذا التّركيب، وهو أنّ "من" تحمل معنىً متوسّطاً بين معنى "من" الابتداء ومعنى البدليّة حين لا يصلح متعلّقُ المحرور معنى الابتدائية المُخصّص ولا معنى البدليّة المُخصّص؛ فحدّث معنىً وسطاً³، أي وسطاً بين الابتداء والبدل وهو المعنى الذي تُفيدُه "من" في هذه الآية.

ولعلّ الأمرُ اللافتُ هنا هو ما بيّنه القنوي فيما يحمله هذا التّركيب القرآني من معانٍ ودلالاتٍ نحويّة، إذ يُبيّن أنّ عبارة "والله يعلم المُفسد من المصلح" تُستخلصُ منها عدّة سياقاتٍ، فأوّلها، هو تركيبٌ يحمل معنى المبالغة، حيثُ جعلَ المبتدأ "الله"؛ لإدخال الهيبة والرّوع في القلوب، وثانيًا، يحمل معنى القصر من خلال تقديم لفظ الجلالة "الله" على الخبر الفعليّ "يعلم"، وثالثًا، يحمل معنى الاستمرار في حكم التعامل مع اليتامي، حيثُ يتماشي كلّ هذا مع صيغة الاستقبال "يعلم" المستكنّ بالفعل المضارع، وهي صيغة تُفيد الاستمرار، ورابعًا يحمل معنى العموم بواسطة تقديم "المفسد" على "المصلح" الذي يُفيد الدّلالة على العموم؛ بناءً على أنّ اللّام في الموضعين تُفيد الاستغراق⁴.

ومن الأمور التي استوفقتني هو ما ذهب إليه الرّمحشري، وهو اللّغوي-النحوي، حينما حاول أن يُصوّر المعنى عبر أسلوب النقي لدلالة الفعل "يعلم"؛ وأظنّ أنّ السّبب في ذلك هو حضور السياق في ذهن الرّمحشري، فقد قال في تفسير هذه العبارة: "والله يعلم المفسد من المصلح" أي لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح، فيُجازيه على حسب مُداخلته، فاحذروه، ولا تتحرّوا غير الإصلاح⁵. وإنّ ذلك على شيءٍ فإنّما يدلّ أنّ

¹ أبو السّعود، إرشاد العقول، 1: 258.

² أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 2: 414.

³ ابن عاشور، التّحرير والتّوير، 2: 358.

⁴ القنوي، الحاشية، 5: 210.

⁵ الرّمحشري، الكشاف، 1: 238.

الترخشي كَانَ قَدْ حَمَلَ الْفِعْلَ "يَعْلَمُ" معنى "لا يخفى" على التّضمين؛ وهو أسلوبٌ مُتَمَيِّزٌ يُعَبِّرُ عَنْ فَهْمٍ عميقٍ لسياق الآية؛ لا سيّما أَنَّهُ أَتَبَعَ ذلكَ بـسياقاتٍ متعاقبةٍ أخرى، كسياقِ الجزاءِ، وسياقِ التحذيرِ، وسياقِ النَّدْبِ والإغراءِ الّتي تُوجِّحُ بترتيبِ هذه الجملةِ القرآنيّةِ.

من هُنا، يُجْمِلُ الباحثُ مُحَمَّدَ المنجّدِ سياقاتِ هذا التّركيبِ النّحويّ، مُؤَكِّدًا أَنَّ فِي نَظْمِ هذه الآيةِ اتّساعًا بدلالةِ الفعلِ على ثلاثةٍ معانٍ اجْتَمَعَتْ له؛ وهي العلمُ حقيقةً، والجزاءُ مجازًا، والتّمييزُ تضمينًا¹.

إضافةً إلى هذا بعضِ النّماذجِ الّتي يتعلّقُ ويتعلّقُ فِيهِ التّضمينُ مَعَ الحملِ على المعنى، ينبغي أَنْ أَشِيرُ هنا إلى أَنَّهُ على الرّغمِ مِنَ الإشاراتِ والمعالجاتِ الّتي تطرّقَ إِلَيْهَا النُّحَاةُ والمفسّرونَ بخصوصِ التّضمينِ النّحويّ، إلّا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتُبِ التّفْسيرِ تفتقرُ بشكلٍ ملحوظٍ وواسعٍ إلى الكشفِ عَنِ الفائدةِ المرجوّةِ مِنْهُ، وما هي تحديداً دلالةُ التّضمينِ السّياقيّةِ، وما لها مِنْ علاقاتٍ، باستثناءِ بعضِ النُّحَاةِ والمفسّرينَ الّذين راحوا يبحّثونَ عَنْ هذه الفوائدِ مِنْ خِلالِ استقراءِهم للجملِ القرآنيّةِ.

وَكَانَ فاضل السّامرائي مِنْ أُولَئِكَ النُّحَاةِ المحدثينَ الّذين جمعوا ما قالَهُ القدماءُ سعيًا وراءَ فَهْمِ فائدةِ التّضمينِ، حيثُ ينطلقُ مِنْ حقيقةٍ مفادها أَنَّ مُجْمَلَ فائدةِ التّضمينِ - كما جاءَ في حاشيةِ السيّدِ الجرجانيّ - تقومُ على إعطاءِ المعنيتين؛ لأنَّ الكلمتينِ (أو الفعلينِ) مقصودانِ مَعًا قَصْدًا وتبعًا².

14. 3. الجملةُ المعترضةُ وفقهُ سياقِها بَيْنَ الجمودِ والحيويّةِ:

لا أُخفي - بدايةً - أَنَّ الَّذِي دَفَعَنِي إلى بحثِ هذه المسألةِ النّحويّةِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الجملِ؛ لِأَنِّي أرى أَنَّ التّعاملَ مَعَ الجملِ الّتي يُطْلَقُ عَلَيْهَا النُّحَاةُ بـ"الجملِ الّتي لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ"، هو تعاملٌ قواعديٌّ بعيدٌ عَنِ رُوحِ المعاني وتفاعلِ السّياقِ النّحويّ فِيهَا، إذْ باتَ الدّارسُ للنّحوِ العربيّ يدرسُ أو ينظرُ إلى هذه الجملِ على أَنّها جملٌ

¹ المنجّد، اتّساع الدّلالة في الخطاب القرآني، 355.

² السّامرائي، الجملة العربيّة والمعنى، 161؛ السيّد الجرجاني، الحاشية، 1: 97.

"جامدة"؛ بمجرد التمسية يتوقع دارس النحو أن يجد نفسه أمام قوالب جافة لا تبرح ما اصطلح عليها النحاة.

فكان اختياري للجملة المعترضة كنموذج عملي من بين أنواع الجمل الأخرى.

وفي الحقيقة، فقد عبّر الباحث كريم الخالدي عن هذه الرؤية بوصف ما قام بها النحاة في التعامل مع مثل هذه الجملة بـ "الوهم"، فيقول: "كان الوهم الذي قاد النحويين إلى إعراب الجمل وتصنيفها إلى جمل لها محل من الإعراب، وجمل لا محل لها من الإعراب كبيراً، أثقل الدرس النحوي بأمور يعترف النحويون بأنها طارئة على الجملة لكونها غريبة على الغاية التي تنتظم من أجلها الجملة، وتخل بالمعاني المتشعبة التي تحملها بحسب السياق وقرائنها وطرائق نظمها"¹.

ويستأنف الخالدي انتقاده النحاة بقوله: "فلو سأل الباحث علماءنا: لماذا درست هذه الجمل؟ وإذا كان الإعراب يدل على معانٍ معروفة في الأسماء فعلاً يدل عدم الإعراب؟ وما الغاية من تقسيم هذه الجمل، والتمييز بينها ما دامت كلها لا محل لها من الإعراب بحسب قولهم؟ لجاء جوابهم مثيراً للغربة - على حد قول كريم الخالدي - يتلخص في أن هذه الجمل لا يصح تأويلها بمفرد؛ لأن شرط إعرابها تأويلها بمفرد، وهو جواب يضطرنا إلى السؤال مرة أخرى: ما علاقة الجملة بالمفرد؟ كي نؤولها به سبباً لإعرابها؟ فالجملة مؤلفة من مفردات يربطها الإسناد، فهل يصح أن نؤولها بمفرد؟ وهل يستطيع المفرد أن يؤدي معنى الجملة؟ لا شك في أن هذا أمر مستحيل بإقرار النحويين أنفسهم، ولو كان هذا ممكناً لما وجدت الجملة، ولما صار لها نظمها وأنماطها، ولصار التعبير عن المعاني بالمفردات وحدها، وهو ما لا يقره البحث اللغوي..."².

يقصد بالجملة المعترضة تلك الجملة التي يعترض فيها كلام على كلام لم يتم معناه، ثم يعود إليه فيتمه³، أو - كتعريف آخر⁴ - ما يتوسط بين أجزاء الكلام، متعلقاً به معنى، مستأنفاً لفظاً⁵، نحو جملة "أظن"

¹ كريم حسين الخالدي، نظرات في الجملة العربية (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2005)، 20.

² كريم الخالدي، نظرات في الجملة العربية، 20.

³ البغدادي، خزانة الأدب، 8: 444-445.

⁴ للجملة المعترضة تعريفات كثيرة متداخلة، لا يتسع المجال لذكرها هنا. ولعل من أهم التعريفات ما ذكره ابن هشام بقوله إن الجملة المعترضة هي التي تعترض بين شيين متلازمين أو متطابقين؛ لتوكيد الكلام، أو تقويته، أو توضيحه، أو تحسينه، وتكون ذات علاقة معنوية بالكلام إذا اعترضت بين أجزائه، وليست معمولة لشيء. وقد أشار ابن هشام إلى سبعة عشر موضعاً تقعها الجملة المعترضة مستنداً بالشواهد القرآنية. للتوسع انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، 2: 446-459.

⁵ رضي الدين الاسترأبادي، شرح الرضي على الكافية، 4: 98.

في قولنا: "جاء- أظن- علي"¹، ونحو جملة {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} قوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}².

وكان فخر الدين قباوة قد توسّع في تعريف الجملة المعارضة، فيقول إنها تأتي في أثناء الكلام، وليس المراد بالكلام هنا: المسند والمسند إليه فقط، بل جميع ما يتعلّق به من الفضلات والتّوابع، فاصلة بين متلازمين، سواء أكانا مفردين، أو كانا جملتين متصلتين معي، وذلك لإفادة الكلام تقوية، أو إيضاحاً وبياناً، لنكتة سوى دفع الإيهام³.

ويذكر ابن جني أنّ هذا النوع من الجمل قد كثر عند العرب و"شاع استعماله، فجاء في القرآن الكريم، وفصح الشعر، منشور الكلام"⁴. ويضيف الزركشي، نقلاً عن ابن عبد السلام أنّ الجملة المعارضة "تارة تكون مؤكّدة، وتارة تكون مشدّدة؛ لأنها إما ألا تدلّ على معنى زائد على ما دلّ عليه الكلام، بل دلّت عليه فقط، فهي مؤكّدة، وإما تدلّ عليه وعلى معنى زائد فهي مشدّدة"⁵.

إذن، فالجملة المعارضة هي جملة قائمة بذاتها نحويّاً- على خلاف ما يُصوّر في الدرس النحوي، وأيضاً، فهي من ناحية سياقية تُحدّد المعنى النحويّ كلّهُ للجملة "الكبرى"؛ إذ دوّها تظلّ الجملة "مبهمة" تحتاج إلى توضيح في ظلّ سياق الآية الخاصّ، فالجملة القرآنيّة المعارضة ليست معترضة بمعناها اللّغويّ، بل هي جملة تعترض بين ما يسبقها من كلام وبين ما يليها؛ كي تمنح هذا "الحيز النحويّ"- إن جاز لي التعبير- معنى إضافيّاً، وتفسيراً عمليّاً، وتأتي لمعانٍ يُحدّدها السياق، إذ إنّ مقاصد الاعتراض- كما يؤكّد فخر الدين قباوة- تختلف بحسب قصد المتكلّم وسياق الكلام⁶.

¹ محمود سليمان ياقوت، النّحو التّعليمي في القرآن الكريم (الكويت: مكتبة المنار الإسلاميّة، 1996)، 1063-1066.

² القرآن الكريم، النّحل: 110.

³ فخر الدين قباوة، إعراب الجمل وأشباه الجمل (بيروت: دار الافاق الجديدة، 1981)، 64.

⁴ ابن جني، الخصائص، 1: 331.

⁵ الزركشي، البرهان، 3: 62.

⁶ قباوة، إعراب الجمل وأشباه الجمل، 73-74.

واستنادًا إلى هذا الكلام، فإنَّ الجملةَ المعترضةَ لَيْسَتْ جملةً جامدةً ومجرَّدةً حشوٍّ مِنَ الكلام¹، على الرغم من كلام طائفةٍ مِنَ النُّحاةِ القدماءِ والمحدثين الَّذي جعلوا الجملةَ المعترضةَ حشوًّا مِنَ الكلام² لا تحملُ قيمةً نحويَّةً مستقلةً ذاتَ معنى، فضلًا عَن نَبذِ "السِّيَاقِ" عنها، إذْ إِنَّ "السِّيَاقَ" في الجملةِ المعترضةِ ليسَ حاضرًا أو موجودًا لا مِنْ قَرِيبٍ ولا مِنْ بَعِيدٍ. إمَّا الجملةُ المعترضةُ، مِنْ خلالِ السِّيَاقِ القرآنيِّ، جملةٌ حيويَّةٌ، خاصَّةٌ أَنَّ الجملةَ الكبرى لا يستقيمُ معناها السِّيَاقِيٌّ دُونَ الجملةِ المعترضةِ³، كما أَنَّ لهذا الاعتراضِ مقاصدَ، رَبطَ بَيْنَها بعضُ النُّحاةِ قائلين بأنَّ "مقاصدَ الاعتراضِ تختلفُ بحسبِ مقاصدِ المتكلمِ وسياقِ الكلام⁴.

وهذا ما يورِّدُهُ الباحثُ سامي عطا حسن بقوله إِنَّ الاعتراضَ إِذَا وَقَعَ موقعُهُ المناسبُ في السِّيَاقِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ مقتضياتِ النَّظْمِ، وَمِنْ متطلَّباتِ المقامِ- على حَدِّ تعبيرِهِ- ذلكَ لأنَّ الجملةَ المعترضةَ كثيرًا ما تقعُ مؤكِّدةً مفهومَ الكلامِ الَّذي وَقَعَ فيه، ومُقرِّرًا له في نفوسِ السَّامعينَ⁵. وَمِنْ ذلكَ نَحْوُ قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} ♦ يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁶، فَقَدْ ذَكَرَ المفسِّرونَ أَنَّ جملةَ {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} هي جملةٌ معترضةٌ⁷ بَيْنَ جملتينِ مِنْ قصَّةٍ واحدةٍ⁸، وهما {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ} و {يَكَاذُ الْبَرْقُ}، وفي هذا الاعتراضِ⁹ سياقٌ تنبيهِ وتأكيدٍ على هلاكِ المنافقين الَّذين يتخبَّطون، فلا يدرون أَيَّ طريقٍ يسلكون، فيصوِّرونهم في صورة قومٍ يسيرون في الظلامِ، وَقَدْ نَزَلَ بهم مطرٌ شديدٌ، صَحْبَهُ رَعْدٌ وَبَرْقٌ، فهو لا يُبْصِرُونَ طريقَهُم، ولا يهتدونَ إلى غايَتِهِم، وَقَدْ نُكِّرَتْ كلمةُ "صَيَّبَ"؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ نَوْعٌ مِنَ المطرِ شديدٍ هائلٍ، كما نُكِّرَتْ الكلماتُ "ظلمات" و "رعد" و "برق" نُؤنَّتْ؛ للتفخيم والتَّهويلِ،

1 السَّكَاكِي، مفتاح العلوم، 202؛ أبو هلال العسكري، الصَّنَاعَتَيْنِ، 48-49؛ الرَّافِعِي، إعجاز القرآن، 22.

2 الزَّرْكَشِيُّ، البرهان، 3: 64.

3 طلال يحيى الطَّوَيْخِي، الجمل التي لا محلَّ لها من الإعراب في القرآن الكريم (عمان: دار دجلة ناشرون وموزعون، 2011)، 112.

4 ابن قِيَمِ الجوزِيَّة، التَّبَيَّنُ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآن، 222.

5 سامي عطا حسن، الجملة المعترضة في القرآن الكريم: مواضعها ودلالاتها (عمان: دار الفرقان، 2012)، 76.

6 القرآن الكريم، البقرة: 19-20.

7 القونوي، حاشية القونوي، 1: 305؛ الشوكاني، فتح القدير، 1: 63-64.

8 شيخ زاده، الحاشية، 1: 340-314؛ الصاوي، الحاشية، 1: 102؛ محيي الدِّين درويش، إعراب القرآن، 1: 60.

9 الطاهر ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْبِيرُ، 1: 319-321.

وَوُضِعَ لَفْظُ "الكَافِرِينَ" مَوْضِعَ ضَمِيرِهِمْ؛ إِشْعَارًا بِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ؛ لِكُفْرِهِمْ¹. وَفِي جُمْلَةٍ {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} إِشْعَارٌ بِشِدَّةِ عَنَائَتِهِمْ لِسَدِّ آذَانِهِمْ، وَمِبَالِغَتِهِمْ فِي إِدْخَالِ أَنَامِلِهِمْ فِيهَا²، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَحَاوِلُ بِمَا دَهَمَهُ مِنَ الْخَوْفِ أَنْ يَغْرَسَ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا فِي أذُنَيْهِ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِلصَّوْتِ مَنَفَذٌ إِلَى سَمْعِهِ، فَتَأْتِي الْجُمْلَةُ الْمَعْتَرِضَةُ {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}؛ لِتَوْكِيدِ أَنَّه لَا نَجَاةَ لَهُمْ وَلَا مَهْرَبَ، فَقَدْ أَحَاطَ بِهِمُ الْهَلَاكُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، الْأَمْرُ الَّذِي يَتِمَّاشِي مَعَ سِيَاقِ الْآيَاتِ وَتَنَاسَقِهَا- كَمَا يُؤَكِّدُ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ³. وَيُضَيِّفُ مُحْيِي الدِّينِ دُرَيْشُ أَنَّ جُمْلَةَ {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} مَسْوُوقَةٌ لِلْإِجَابَةِ عَنْ سَوَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَكَيْفَ حَالُهُمْ مَعَ ذَلِكَ الرَّعْدِ؟ فَقِيلَ: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}⁴.

وِيرَى الْأَلُوسِيُّ أَنَّ جُمْلَةَ {يَكَادُ الْبَرْقُ} الْمَعْتَرِضَةُ هِيَ جُمْلَةٌ تَقْوِي دَلَالَةَ السِّيَاقِ عَلَى مَفْعُولِ الْفِعْلِ "شَاءَ" فِي قَوْلِهِ: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} بِتَقْدِيرِ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ اللَّهُ إِذْهَابَ سَمْعِهِمْ بِقَصْفِ الرَّعْدِ وَأَبْصَارِهِمْ بِوَمِضِ الْبَرْقِ لَذَهَبَ⁵، وَلِهَذَا حَمَلْتُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الْمَعْتَرِضَةَ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ الشَّيْءِ الْكَثِيرِ. وَيُعَقِّبُ الطَّاهِرُ ابْنَ عَاشُورٍ عَلَى هُنَا فِي أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفًا؛ لِدَلَالَةِ الْجَوَابِ عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ شَأْنُ فِعْلِ الْمَشْيِئَةِ وَالْإِرَادَةِ وَنَحْوِهَا إِذَا وَقَعَ مَتَّصِلًا بِمَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَدُلَّ عَلَى مَفْعُولِهِ مِثْلَ وَقْعِهِ صِلَةً لِمَوْصُولٍ يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ نَحْوِ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ أَيْ مَا شَاءَ كَوْنُهُ كَانَ، وَنَحْوَ وَقْعِهِ شَرْطًا لـ"لو"؛ لظَهْوَرِ أَنَّ الْجَوَابَ هُوَ دَلِيلُ الْمَفْعُولِ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي الْكَلَامِ السَّابِقِ قَبْلَ فِعْلِ الْمَشْيِئَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَفْعُولٍ مَحْذُوفٍ⁶.

1 سامي حسن، الجُمْلَةُ الْمَعْتَرِضَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، 76-77.

2 يَشِيرُ أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيُّ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالأَصَابِعِ هُنَا بَعْضُهَا وَلَيْسَ كُلُّ الأَصَابِعِ؛ لِأَنَّ الأَصْبَعَ كُلَّهَا لَا تَدْخُلُ فِي الأَذُنِ، إِنَّمَا تَجْعَلُ فِيهَا الأَنْمَلَةَ، وَلَكِنْ هَذَا مِنَ الْإِتْسَاعِ فِي اللُّغَةِ، وَهُوَ إِطْلَاقُ كُلِّ عَلَى بَعْضٍ، وَلِأَنَّ هَؤُلَاءِ لِفَرْطِ مَا يَهْوِلُهُمْ مِنْ إِزْعَاجِ الصَّوَاغِقِ كَأَنَّهُمْ لَا يَكْتَفُونَ بِالأَنْمَلَةِ، بَلْ لَوْ أَمَكْنَهُمُ السَّدُّ بِالأَصْبَعِ كُلِّهَا لَفَعَلُوا. انْظُرْ: أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 1: 141؛ الْفُونُوِي، حَاشِيَةُ الْفُونُوِي، 1: 298-300؛ الشُّوْكَانِيُّ، فَتْحُ الْقَدِيرِ، 1: 63؛ الْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، 1: 212.

3 أَبُو حَيَّانِ الْأَنْدَلُسِيُّ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، 1: 150-151.

4 دُرَيْشُ، إِعْرَابُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، 1: 59.

5 الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْمَعَانِي، 1: 274.

6 الطَّاهِرُ ابْنَ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْبِيرُ، 1: 321.

وفي قوله تعالى: {الم ◆ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ¹ وَرَدَّتْ جملته "لَا رَيْبَ فِيهِ" معترضة ² بَيْنَ الْمَبْتَدَأِ "تنزيل" وخبره "مِنْ رَبِّ" ³، وَبَيَّنَّ ابْنُ يَعِيشَ أَنَّ الْقَصْدَ مِنَ الْجُمْلَةِ الْمَعْرُضَةِ هُنَا هُوَ اسْتِغْرَاقُ نَفْيِ الشَّكِّ عَنْ مَصْدَرِ التَّنْزِيلِ، وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَرْكِيبُ الْجُمْلَةِ وَسَيَاقُهَا إِذْ صَدَّرَتْ بِ"لَا" النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالنَّكَرَاتِ؛ لَشُمُولِهَا وَمِبَالِغَتِهَا فِي النَّفْيِ ⁴.

وَيُرْجِّحُ الْبِيضَاوِيُّ أَنَّ تَكُونَ جُمْلَةُ "لَا رَيْبَ فِيهِ" جُمْلَةً مَعْرُضَةً، إِذْ إِنَّ الضَّمِيرَ "فيه" رَاجِعٌ إِلَى مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ ⁵، كَأَنَّهُ قِيلَ: "لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ" ⁶، وَيُؤَيِّدُهُ - عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِهِ - مَا جَاءَ مُبَاشَرَةً وَمُنْتَظَمًا ⁷ فِي قَوْلِهِ: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ...} ⁸، فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ انْكَارٌ مِنْهُمْ لَكُونِهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيُؤَيِّدُ مَعْنَى الْإِعْجَازِ أَيْضًا قَوْلُهُ مُبَاشَرَةً {بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} ⁹؛ فَإِنَّهُ تَقْرِيرٌ لَهُ، وَقَدْ نَظَّمَ الْكَلَامَ عَلَى هَذَا أَنَّهُ أَشَارَ أَوَّلًا إِلَى إِعْجَازِهِ، ثُمَّ رَتَّبَ عَلَيْهِ أَنَّ تَنْزِيلَهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ¹⁰ - عَلَى حَدِّ قَوْلِ الرَّخْشَرِيِّ - وَقَرَّرَ ذَلِكَ بِنَفْيِ الرَّيْبِ عَنْهُ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْ ذَلِكَ ¹¹ إِلَى مَا يَقُولُونَ فِيهِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ إِنْكَارًا لَهُ وَتَعْجِيبًا مِنْهُ ¹².

وفي قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} ◆ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} ¹³ نَلْحِظُ الْجُمْلَةَ الْمَعْرُضَةَ ¹⁴: "وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" تَقَعُ بَيْنَ الْمُتَعَاظِفِينَ ¹⁵، وَقَدْ

¹ القرآن الكريم، السجدة: 1-2.

² المنتخب الهذاني، الفريد، 4: 19؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 21: 66؛ الصاوي، الحاشية، 3: 407.

³ يُبَيِّنُ السَّمِينَ الْحَلْبِيَّ أَنَّ لِهَذِهِ الْآيَةِ أَوْجُهًا إِعْرَابِيَّةً عِدَّةً، وَهِيَ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ "تَنْزِيلَ" خَبَرُ لـ"الم"؛ لِأَنَّ "الم" يُرَادُ بِهِ السُّورَةُ وَبَعْضُ الْقُرْآنِ. وَجُمْلَةُ "لَا رَيْبَ فِيهِ" حَالٌ مِنْ "الْكِتَابِ" وَالْعَامِلُ فِيهَا "تَنْزِيلٌ"؛ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ. وَ"مِنْ رَبِّ" مُتَعَلِّقٌ بِهِ أَيْضًا. وَيجوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي "فِيهِ"؛ لَوْ قُوعَهُ خَبَرًا، وَالْعَامِلُ فِيهِ الظَّرْفُ أَوْ الْاسْتِقْرَافُ. وَالْوَجْهَ الثَّانِي: أَنَّ يَكُونَ "تَنْزِيلٌ" مُبْتَدَأً، وَ"لَا رَيْبَ فِيهِ" خَبَرُهُ. وَ"مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي "فِيهِ". وَلَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ"تَنْزِيلٍ"؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ قَدْ أُخْبِرَ عَنْهُ فَلَا يَعْمَلُ. وَالْوَجْهَ الثَّلَاثُ: أَنَّ يَكُونَ "تَنْزِيلٌ" مُبْتَدَأً أَيْضًا. وَ"مِنْ رَبِّ" خَبَرُهُ. وَ"لَا رَيْبَ" حَالٌ أَوْ مَعْرُضٌ. الْوَجْهَ الرَّابِعُ: أَنَّ يَكُونَ "لَا رَيْبَ" وَ"مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" خَبَرَيْنِ لـ"تَنْزِيلٍ". الْوَجْهَ الْخَامِسُ: أَنَّ يَكُونَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٍ مُضْمَرٌ، وَكَذَلِكَ "لَا رَيْبَ"، فَتَكُونُ كُلُّ جُمْلَةٍ مُسْتَقْلَةً بِرَأْسِهَا. وَيجوزُ أَنْ يَكُونَ حَالَيْنِ مِنَ "تَنْزِيلٍ"، وَأَنْ يَكُونَ "مِنْ رَبِّ" هُوَ الْحَالُ. وَ"لَا رَيْبَ" مَعْرُضٌ. انْظُرْ: السَّمِينَ الْحَلْبِيَّ، الذَّرَّ الْمَصُون، 8: 77-78؛ الْعَكْبَرِي، إِمْلَاءُ مَا مَنَ بِهِ الرَّحْمَن، 2: 189.

⁴ ابن يعيش، شرح المفصل، 1: 105.

⁵ الزمخشري، الكشاف، 3: 535.

⁶ النسفي، مدارك التنزيل، 3: 5.

⁷ شيخ زاده، الحاشية، 6: 587.

⁸ القرآن الكريم، السجدة: 3.

⁹ القرآن الكريم، السجدة: 3.

¹⁰ الزمخشري، الكشاف، 3: 535.

¹¹ النسفي، مدارك التنزيل، 3: 5.

¹² البيضاوي، أنوار التنزيل، 4: 219.

¹³ القرآن الكريم، الرُّوم: 17-18.

¹⁴ البيضاوي، أنوار التنزيل، 4: 204؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 11: 439؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 21: 66؛

العكبري، إملاء ما مَنَ بِهِ الرَّحْمَن، 2: 185؛ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 6: 43.

¹⁵ الجرجاني، درج الذر، 3: 1377؛ شيخ زاده، الحاشية، 6: 532.

جاءت هذه الجملة المعترضة جملة اسمية؛ لِتَحْمِلَ بذاتها معنى ثبوت الحمد بالأسلوب المُشْرَب بالخطاب - كما يقول ابن عطية الأندلسي¹. إذ إنّ سياق الآيات يتركز على التّسبيح، والتّسبيح مقرون غالباً بالحمد والثناء، ولهذا فقد استغرقت الآية الأوقات كلّها في تنزيه الله وتسيبحة، وعقبها اعتراض² - كما يقول الزّمخشري - بين هذه الأوقات المتعاطفة. ثمّ يُؤكّد الزّمخشري والقنوي أنّ غاية الاعتراض هنا يتمشى مع سياق إثبات الحمد لله والتّنبية عليه³؛ لِتَجْمَعَ الآية بين التّسبيح والتّحميد⁴. ولهذا، يستنتج أبو حيّان الأندلسي من سياق الآيات أنّ الجملة المعترضة معناها "أنّ الحمد واجب على أهل السماوات والأرض"⁵.

ويُحْمَلُ كلام الزّمخشري على أنّ مجيء الجملة المعترضة هنا يحمل معنى التّذنب والإيجاب، فبعد أن عرّض أوقات التّسبيح والتنزيه فإنّه على "المُتميّزين" كلّهم - على حدّ قول الزّمخشري - من أهل السماوات والأرض أن يحمّدوه⁶.

ويذكر الرّازي أنّ سياق الحمد في الجملة المعترضة⁷ جاء على وجه الإجمال، حيثّ يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل فإنّ تسبيحهم لنفعهم، لا له، فعليهم أن يحمّدوه إذا سبّحوه؛ لأجل نعمة هدايتهم، وبالتالي فإنّ هذا ما أفادته الجملة المعترضة هنا⁸. ويُضيف ابن عاشور أنّ الجملة المعترضة تأتي في سياق التّوكيد؛ ومّا زاد هذا التّأكيد هو أسلوب القصر الذي تصدّرت به الجملة المعترضة بقوله: "وله الحمد"؛ حيثّ قدّم الجورج؛ لإفادة القصر الادّعائي لجنس الحمد - على حدّ تعبير ابن عاشور⁹.

¹ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 11: 439.

² الزّمخشري، الكشاف، 3: 217.

³ القنوي، الحاشية، 15: 116؛ شيخ زاده، الحاشية، 6: 534.

⁴ الطّويخي، الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، 116-117.

⁵ أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 8: 381.

⁶ الزّمخشري، الكشاف، 3: 504.

⁷ الجرجاني، درج الدرر، 3: 1377.

⁸ الرّازي، مفاتيح الغيب، 25: 107.

⁹ ابن عاشور، التحرير والتّوير، 21: 66.

إضافةً إلى هذا، وعلى صعيدٍ آخر، لعلَّ من الآراء المثيرة التي تحتاج إلى تأمُّلٍ نحويٍّ ما ذهب إليه الباحث مصطفى الجوزو إلى أنَّ الجملةَ المعترضة، ووفقاً لسياقاتها النحويَّة المختلفة، لها محلٌّ من الإعراب، وهي تحلُّ محلَّ الصِّفَةِ والاسم؛ وبهذا يكونُ من بَيَّن هؤلاء النُّحاة الذين يُلعَنون مذهبَ جمهور النُّحاة¹ القدماء والمحدثين.

إنَّ مرَدَّ رأيِ مصطفى الجوزو هو وَقَع أثرُ السياق في تحديدِ المعنى النحويِّ، وقد ضَرَبَ أمثلةً كثيرةً لهذا، منها أنَّ جملةَ "قال تعالى "فاعل"، وذلك قياساً على حذفِ الاسم الذي يحلُّ نَعْتُهُ محلَّهُ في الإعراب. ونحو جملة: "قَدْ عَلِمْتُ، أَعَزَّكَ اللهُ، غرامي بالشَّعْرِ"، ففي الكلام على الحكاية يتحدَّث النُّحاة عن الأسماء المركَّبة تركيباً إسنادياً، مثلاً: "تَأَبَّطُ شَرًّا"، ويحكمون ببقائها على حالها في جميع الحالات الإعرابيَّة من غيرِ أنْ يُدْخِلُوها لا في المصروف ولا في الممنوع، وكأنَّها ضَرَبَتْ ثالِثَ من الأسماء، هو الأسماءُ المحكيَّة؛ والأصحُّ عندهُ - الجوزو - أنَّها نوعٌ من الأسماء المبنية، لَزِمَتْ صورتها الإسنادية، وصارت كالكلمة الواحدة، فهي مبنية في محلِّ رَفْعٍ أو نَصْبٍ أو جَرٍّ².

ولا يصحُّ - في رأيه - أنْ نقولَ بامتناع ظهور حركتها؛ لأنَّ الامتناعَ من الظهور يقتضي ظهور الحركة على الكلمة أصلاً، ثُمَّ امتناعه عند لحاق شيءٍ بها يستحيلُ لفظه مع تلك الحركة، كما وَرَدَ في الحديث النبوي: "...وإنَّه لَيَدْنُو - عَزَّ وَجَلَّ - ثُمَّ يباهي بهم الملائكة...". فالذي يوحى بأنَّ عبارة "عَزَّ وَجَلَّ" في محلِّ رَفْعٍ فاعلٍ لفعلٍ "يدنو"، مثلاً أنَّ "جَادَ الحقُّ" في محلِّ رَفْعٍ فاعلٍ للفعل "دنا" في قولنا: "دنا جَادَ الحقُّ"، فكلاهما مُرَكَّبٌ إسناديٌّ وَقَعَ موقعَ الفاعل؛ معَ فَرْقَيْنِ: أولاً، أنَّ "جَادَ الحقُّ" اسمٌ عَلِمَ، و"عَزَّ وَجَلَّ" جملةٌ قَامَتْ مقامَ محذوفٍ؛ وثانياً، وهو ناجمٌ عنِ الأوَّل وهو أنَّ "جَادَ الحقُّ" وأمثاله يحتملُ كلَّ حالاتِ الإعراب، وينبغي قياساً احتمالَ عبارة "عَزَّ وَجَلَّ" وأمثالها لتلك الحالات جميعاً؛ لكنَّها لم تَقَع في الاستعمالِ إلَّا في محلِّ رَفْعٍ، أمَّا سَبَقُها ناصبٌ أو جارٌّ فتُنصَبُ أو تُجَرُّ على التَّبعية³، إذ يَقَعُ العملُ على ضميرٍ يَسْبِقُها يعودُ إلى اسمِ المعظمِ أو المكرَّم المفهومِ من سياقِ النصِّ، نحو

¹ مذهب جمهور النُّحاة أنَّ الجملةَ المعترضة لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها لا تقَعُ موقعاً تقعه المفردات، أي لا يمكن اختزالها أو تأويلها بمفردٍ.

² مصطفى علي الجوزو، "قيام الجملة المعترضة مقام الصِّفَةِ والاسم"، مجلَّة العربي 638 (2012)، 66.

³ يجدرُ بي أنْ أشيرَ هنا إلى أنَّ الباحث إبراهيم الشَّمسَان كان قد رَدَّ على آراء مصطفى الجوزو بمقالٍ سماه: "الجملة المعترضة لا محلَّ لها من الإعراب"، وفيه يبيِّن الشَّمسَان أنَّ ما ذهب إليه الجوزو مستبعدٌ كلَّ الاستبعاد، وهو غَيْرُ صحيحٍ في نظره، فالجملةُ المعترضة لَيْسَتْ كالنَّعْتِ؛ إذ إنَّ النَّعْتَ والمنعوتَ مُرَكَّبٌ واحدٌ بمنزلةِ الاسمِ المفرد. وهذا لا يعني أنَّ الجملةَ المعترضة لا علاقةَ لها بما قبله، إنَّما هي مربوطَةٌ بما قبلها لفظاً أو معنًى، ولكنها ليست عنصرًا من عناصر الجملة، بل هي مُفَحَّمةٌ فاصلةٌ بَيَّنَّ عناصر الجملة؛ لأغراضِ إبلاغيةٍ وبلاغيةٍ، كما أنَّ رِبْطَها بما قبلها هو الموسَّعُ لحذفِ الفاعل، ولكنَّ هذا الحذفُ إنَّما نالَ لفظَ الفاعل، وأمَّا معناه فمرادٌ بدلٍّ عليه السياق.

الحديث: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا }¹... " حيث هاء الضمير عائدة إلى الله، بدلالة عبارة عَزَّ وَجَلَّ، ونسبة آية قرآنية إلى مرجع الضمير².

ثم يؤكد مصطفى الجوزو أن الذي ينظر في مؤدَى تلك العبارات ومنشئها يزداد تأكيداً وإضاءةً - على حدّ تعبيره - فعبارة "صلى الله عليه وسلم" تبدو إنفاذاً لأمر الآية القرآنية: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }³، فقد فسّرت "الصلاة" هنا تفسيراتٍ متعدّدة، وأقرب ما تطمئن إليه النفس منها معنى الثناء والتبريك، إذ إنّ تقدير "صلى الله عليه وسلم" هو المُنشئ عليه المبارك من الله؛ حتى إذا استعملت العبارة مستقلةً، أي بمعزل عن صفة النبي أو اسمه؛ وبالتالي، يُفهم من تفسير الآية المُستشهد بها أنّها تعني التحيّة، ويُفهم من تركيبها أنّها تتضمن رجاء الأمن والعافية، وهي تحل محلّ الفاعل، وقد غفل النحاة القدماء عن ذلك⁴.

وبهذا يتعيّن أنّ الجملة المعترضة وردّت في النصّ القرآنيّ في مواضع كثيرة، ولكنّ الأهمّ - ونحن ما هو بصدده - أنّ هذه الجمل، تستوجب فهمًا نحويًا سياقيًا؛ كي نكشف عن معناها الحقيقي، وكى يتبيّن لنا هدفُ سياقها في هذا الموضع أو ذاك، تأكيداً منّا على أنّها ليس مجرد جملة جيء بها حشواً؛ إنّما هو خلاف ما أراه، كما أنّ فهم السّياق للجملة المعترضة هو الذي يمنح الجملة الكبرى - كاملةً - المعنى التّحويّ والصّورة الدّلاليّة، فضلاً عن أنّ كلّ جملة معترضةٍ أينما "حلّت" فهي لا تخلو من دلالة معنويّة سياقيّة تُضفيها إلى الجملة⁵.

15. 3. مقاطع قرآنية في بؤرة السّياق النّحويّ - نموذج تحليليّ:

أودّ في هذه المقاطع القرآنية Qur'aic Segments أن أُبيّن للقارئ بعض الإمكاناتِ للتّحليل السّياقيّ - التّحويّ لبعض الآيات القرآنية كنموذجٍ عمليٍّ وملمّحٍ تطبيقيٍّ، وذلك من خلال استدعاء بعض الآليات ووجهات

¹ القرآن الكريم، الإسراء: 110.

² مصطفى الجوزو، "قيام الجمّة المعترضة مقام الصّفة والاسم"، 66.

³ القرآن الكريم، الأحزاب: 56.

⁴ مصطفى الجوزو، "قيام الجمّة المعترضة مقام الصّفة والاسم"، 66.

⁵ أحمد داود دمس، الجملة معناها وأقسامها عند النّحويّين والبلاغيّين (القدس: دار الجندي للنشر والتّوزيع، 2012)، 121.

النَّظَرِ اللِّسَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ طُرِحَتْ فِيهَا مَضَى فِي هَذَا الْبَحْثِ؛ مُدْجِجًا فِي هَذَا التَّحْلِيلِ اللُّغَوِيِّ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ.

وَأَوْدُ أَنْ أُؤَكِّدَ ثَانِيَةً أَنَّ هَذَا التَّمُودَجَ إِنَّمَا هُوَ مُحَاوَلَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ حَيْثُ الْمَسْتَوَى التَّحْوِي-
اللساني، دُونَ أَنْ أَفْجَحَهَا أَوْ أُحْمَلَهَا أَيَّ تَأْوِيلٍ دِينِيٍّ أَوْ خُطَابٍ عَقْدِيٍّ، وَمُؤَكِّدًا- أَيْضًا- أَنَّ مَعَاجِلِي هَذِهِ الْمَقَاطِعِ
(الْآيَاتِ) يُمَثِّلُ مَعَاجِلَةً تَتَسَاوَقُ مَعَ الْمَقْطَعِ نَفْسِهِ، وَمَعَ سِيَاقِ الْآيَاتِ نَفْسِهَا، إِذْ إِنَّ لِكُلِّ مَقْطَعٍ¹ خَاصِّيَّةً وَمُمَيِّزَةً
السِّيَاقِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهِ Contextual Feature، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ أُسَمِّيَهُ "السِّيَاقِ الْإِفْرَادِيَّ" Individual
Context- إِنَّ جَازَ لِي التَّعْبِيرُ بِذَلِكَ، عَلَمًا أَنَّ هَذِهِ "الْخَاصِّيَّةَ" أَوْ "الْإِفْرَادِيَّةَ" قَدْ تَتَقَاطَعُ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ،
مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَقَاطِعِ اللُّغَوِيَّةِ-التَّحْوِيَّةِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّمْلِ: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} ♦
حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ مَلَكَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ²، تَوْجَدُ مَقْطَعَانِ يَتِمَثَّلُ كُلُّ مِنْهُمَا بِكَلِمَةٍ آيَةٍ عَلَى حِدَةٍ:

المقطع الأول: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}:

تَنْطَلِقُ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنْ قِصَّةِ النَّبِيِّ سُلَيْمَانَ³. وَلَا بُدَّ بِدَايَةٍ لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَفْقَهُ السِّيَاقَ
التَّحْوِيَّ لِهَذَا الْمَقْطَعِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ السِّيَاقَ الثَّقَافِيَّ⁴؛ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ سُلَيْمَانَ كَانَ قَدْ أُوتِيَ صِفَةً مَعْرِفَةً لُغَةً الْكَائِنَاتِ
الْحَيَّةِ وَمَنْطِقِهَا⁵ مِنْ خِلَالِ رَبْطِ ذَلِكَ بِآيَةٍ سَابِقَةٍ جَاءَ فِيهَا: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ

¹ قَدْ يَكُونُ الْمَقْطَعُ آيَةً بِذَاتِهَا أَوْ عِدَّةُ آيَاتٍ مُجْتَمِعَةٍ.

² الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، النَّمْلُ: 17-18.

³ الطَّبْرِي، جَامِعُ الْبَيَانِ، 5: 552.

⁴ أَنْظَرُ إِلَى مَفْهُومِ "السِّيَاقِ الثَّقَافِيِّ" فِي الْفَصْلِ الثَّانِي.

⁵ ابْنُ عَطِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيِّ، الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ، 11: 182.

الطَّيْرُ¹ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ...² وكذلك وَمِنْ خِلَالِ تَتَبُّعِ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَهُوَ أَمْرٌ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ؛

كَيْ نَعْرِفَ عَلَى مَا هِيَ هَذَا التَّرَكِيبِ وَمَا تُشْعِنُ بِهِ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَالصُّوَرُ النَّحْوِيَّةُ بِأَسْبَابِ النَّزُولِ³.

فِي هَذَيْنِ الْمَقْطَعَيْنِ ثَمَّةَ مَرْتَكِزَيْنِ أَسَاسِيَّانِ يُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَيْهَا، وَهُمَا: سَلِيمَانُ وَالتَّمْلَةُ. وَبِاجْتِمَاعِ الْمَقْطَعِ

الْكَلْبِيِّ لِكُلِّ الْمَوْقِفَيْنِ اللَّذَيْنِ بَدَرَا مِنْ سَلِيمَانَ وَالتَّمْلَةِ تَتَضَافَرُ الْقِرَائَتُ فِي فَهْمٍ كَثِيرٍ مِنَ التَّرَاكِبِ النَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ سِيَاقِيٍّ⁴.

يَبْدَأُ الْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ بِمَشْهَدٍ فِيهِ حَرَكَةٌ، وَهُوَ أَنَّ "جَنُودَ" النَّبِيِّ سَلِيمَانَ كَانُوا قَدْ جُمِعُوا⁵ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ؛

وَذَلِكَ بِدَلَالَةِ الْفِعْلِ "حُشِرُوا"، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْفِعْلَ "حُشِرَ" جَاءَ عَلَى صِيغَةِ الْمَاضِي إِلَى أَنَّ زَمَنَهُ السِّيَاقِيَّ

الْحَقِيقِيَّ⁶ - فِيمَا أَرَاهُ - هُوَ الْمَضَارِعُ؛ وَذَلِكَ لَوْجُودِ قَرِينَةٍ دَالَّةٍ عَلَى ذَلِكَ⁷، وَهِيَ اخْتِنَامُ هَذِهِ الْآيَةِ بِـ "فَهُمْ يُوزَعُونَ"،

حَيْثُ يُسْتَهْمُ فِيهَا الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ فِي تَحْوِيلِ حَرَكَةِ الْمَشْهَدِ مِنَ الْمَاضِي فِي "حُشِرَ" إِلَى الْمَضَارِعِ الْحَالِيَّ فِي "يُوزَعُونَ"،

وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْقَوْنُوِيُّ بِـ "حِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَّةِ"⁸ حِينَمَا فَسَّرَ صِيغَةَ الْمَضَارِعِ "يُوزَعُونَ" فِي مُحْتَنَمِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَيَأْتِي السُّؤَالُ هُنَا: لِمَ صُدِّرَتِ الْآيَةُ بِالْمَاضِي، وَلَمْ تُصَدَّرْ بِالْمَضَارِعِ عَلَى نَحْوِ "وُحْشِرَ". وَالْجَوَابُ، بِرَأْيِي،

أَنَّ الْفِعْلَ الْمَاضِيَّ الَّذِي يُبَيِّنُ لِلْمَجْهُولِ إِنَّمَا يُدَلُّ، أَوَّلًا، عَلَى حَالَةِ "إِلْزَامِيَّةٍ" لِكُلِّ مَنْ "حُشِرَ"، وَكَأَنَّ هُنَاكَ جِهَةً أَوْ

أَمْرًا مَا كَانَ قَدْ أَمَرَ بِهَذَا، فَوَقَعَ عَلَيْهِمُ "الْحُشْرُ"⁹، مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَفِي مَكَانٍ وَاحِدٍ¹⁰، دُونَ إِظْهَارِ الْفَاعِلِ الْحَقِيقِيِّ.

وَيَتِمَّتْ هَذَا "الْإِلْزَامُ" وَ"الْانْقِيَادُ"¹¹ بِاللَّامِ فِي كَلِمَةِ "سَلِيمَانَ" وَهِيَ لَمْ تَتَعَلَّقْ نَحْوِيًّا بِالْفِعْلِ "حُشِرَ"، إِذْ تَدُلُّ -

¹ يُوَكِّدُ ابْنُ عَاشُورٍ أَنَّ الْاِقْتِصَارَ عَلَى "مَنْطِقِ الطَّيْرِ" هُوَ إِجْبَازٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ مَنْطِقُ الطَّيْرِ، وَهِيَ أَبْعَدُ الْحَيَوَانَاتِ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَسْرَعُهَا نَفُورًا مِنْهُ، عَلِمَ أَنَّ مَنْطِقَ مَا هُوَ أَكْثَرُ اخْتِلَافًا بِالْإِنْسَانِ حَاصِلٌ لَهُ بِالْأَحْرَى كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ {فَنَبِّئْهُمْ صَاحِبَهَا مِنْ قَوْلِهَا} (الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، التَّمْلُ: 19). انْظُرْ: الرَّمُوحِيُّ، الْكُشَافُ، 3: 397؛ ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ، 19: 237؛ الصَّوَائِدُ، الْحَاشِيَّةُ، 3: 313.

² الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، التَّمْلُ: 16.

³ انْظُرْ إِلَى مَا عَرَضْتُ لَهُ فِي "أَسْبَابِ النَّزُولِ وَاسْتِدْعَاءِ السِّيَاقِ" فِي هَذَا الْفَصْلِ (الْفَصْلُ الثَّلَاثُ).

⁴ انْظُرْ إِلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي نَظَرِيَّةِ "تَضَافَرِ الْقِرَائَتِ" لِتَمَامِ حَسَنٍ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي.

⁵ الْبِيضَاوِيُّ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ، 4: 157.

⁶ الْجَوَارِي، نَحْوُ الْفِعْلِ، 32.

⁷ انْظُرْ إِلَى مَا عَرَضْتُ لَهُ تَحْتَ عُنْوَانِ "الزَّمَنُ السِّيَاقِيَّ لِلْفِعْلِ" فِي هَذَا الْفَصْلِ.

⁸ الْقَوْنُوِيُّ، الْحَاشِيَّةُ، 14: 362.

⁹ يَقُولُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ إِنَّ "الْحُشْرَ" هُوَ "الْإِحْضَارُ وَالْجَمْعُ مِنَ الْأَمَاكِنِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ هَذِهِ الْأَصْنَافِ جُنُودَهُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِأَن يَتَصَرَّفَ عَلَى مَرَادِهِ...". انْظُرْ: الرَّازِيُّ، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ، 24: 187.

¹⁰ الشَّعْرَاوِيُّ، التَّفْسِيرُ، 17: 10756-10757.

¹¹ الْقَوْنُوِيُّ، الْحَاشِيَّةُ، 14: 362.

بهذا- على عظمة النبي سليمان، وكأنَّ الإنسانَ والجنَّ والطَّيرَ كانوا تحتَ إمرةِ سليمانَ. كما أنَّ هذه اللَّامَ تحملُ معنى المُلْكِيَّةِ كقولنا: "هذا الكتابُ لي"، أي مكلي وخاصتي.

وهذا يعني أنَّه وإنَّ كانَ المشهدُ، في هذه الآية، يُفضي إلى الحاضر المضارع إلَّا أنَّ صيغةَ الماضي للفعل عكستَ طبيعةَ "الحشر" الذي يتطلَّبُ جهودًا بالغةً في التَّجميع، إلَّا أنَّه باتَ أمرًا واقِعًا قد نُقِذَ. ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الصَّيْغَةَ "الماضويَّة" تمنحُ التَّركيبَ فضاءً "مضارعياً" من خلالِ عَرَضِ هذا المقطعِ المشهديِّ، الذي ينمُّ عن حركةٍ كانتَ في الماضي وهي مستمرةٌ إلى الآنِ وهي تتمثَّلُ في "يوزعون" ذاتِ العلاقةِ بـ "حشر"، إذ لا يمكنُ أن يكونَ الفعلُ "يُوزَعُونَ"- على الرَّغمِ من صيغتهِ المبنيةِ للمجهول- إلَّا بالفعلِ السَّابِقِ لَهُ "حَشَرَ"، وكأنَّ الفعلَ المضارعَ "يُوزَعُونَ" هو بمثابة نتيجةٍ حتميةٍ للفعلِ الماضي "حَشَرَ". فالفعلُ "يُوزَعُونَ" يعني- من حيثُ الدَّلالةُ- أنَّه يُحْشَرُ أوْهُمْ على آخِرِهِمْ¹، ويَجْتَمِعُونَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ وقيل: يُسَاقُونَ، وقيل: يُدْفَعُونَ، وقيل: يُجْبَسُونَ². وكلُّ هذه المعاني ترتبطُ ارتباطًا فعليًّا ومباشرًا بالفعلِ "حَشَرَ"، والذي يَدْعِمُ ذلك ويُعاضِدهُ هي فاءُ الفصيحةِ³ في جملةِ "فَهُمْ يُوزَعُونَ"، ففاءُ الفصيحةِ⁴ تحملُ دلالةً نحويةً هامةً هنا، وهي أنَّ في الكلامِ حذفًا معيَّنًا دلَّتْ عليه هذا الفاءُ⁵. وهذا الحذفُ المقدَّرُ يَمْنَحُ الجملةَ- فيما أراه- مساحةً تخيليةً للفضاءِ الزمانيِّ والمكانيِّ، وبالتالي تجعلُ القارئَ يُتابعُ حركةَ النصِّ من "حَشَرَ" إلى "يُوزَعُونَ" محاولًا إيجادَ الرِّابطِ النَّحْوِيِّ-الدَّلَالِيِّ الذي يربطُ جملةَ "فَهُمْ يُوزَعُونَ" بما قبلها. وارتكازًا على هذا، يؤكِّدُ ابنُ عاشور أنَّ الفاءَ هنا أَفْصَحَتْ عَنْ معنى الحشر؛ لأنَّ الحشرَ إمَّا يُرَادُ لذلك⁶. وفي عبارةِ "السُّلَيْمَانَ جُنُودُهُ" يظهرُ مَلَمَحٌ نحويٌّ مثيرٌ يستدعي مِنَ القارئِ أن يتوقَّفَ عليه، حيثُ يأتي

السُّؤالُ: لمَ جاءَ التعبيرُ على: {وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ} ولمَ يأتِ على نحو: "وحشَرَ جنودَ سليمانَ لَهُ"؟

¹ الزَّجَاجُ، معاني القرآن، 4: 112.

² ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 11: 183؛ أبو حيَّان الأندلسي، البحر المحيط، 8: 218؛ النَّسْفِي، مدارك التنزيل، 2: 696.

³ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 5: 491.

⁴ يرى ابن عاشور أنَّ فاءَ الفصيحةِ هي فاءٌ عاطفةٌ، ولكنَّ الفرقَ بينها وبينَ فاءِ العطفِ هو أنَّه إذا لم يصلحِ المذكورُ بعدها؛ لأنَّ يكونَ معطوفًا على المذكورِ قبلُها يتعيَّنُ تقديرُ معطوفٍ آخرَ بينهما يكونُ ما بعدَ الفاءِ معطوفًا عليه. انظر: ابن عاشور، التحرير والتلوين، 1: 518.

⁵ أبو السَّعود، إرشاد العقل، 1: 89.

⁶ ابن عاشور، التحرير والتلوين، 19: 240.

إنَّ المتأخَّلَ في سياقِ الآيةِ يستشفُّ أنَّ البُورَةَ Focus خلالَ هذا المقطعِ هي النَّبيُّ سليمانُ؛ فبعدَ أنْ تحدَّثتِ الآياتُ السَّابِقةُ¹ لهذا المقطعِ عن تلكِ النِّعمةِ الَّتِي أنعمَها اللهُ على النَّبيِّينِ داوَدَ وسليمانَ، يُطلِعُنا هذا المقطعُ مُسلِّطاً الصَّوَّةَ على تسخيرِ كُلِّ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّيْرِ لسليمانَ، وبالتَّالي فإنَّ في تقديمِ اللَّامِ وسليمانَ في تركيبِ "وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ" تخصيصاً بهذه الصِّفَةِ عَنْ أَبِيهِ داوَدَ أولاً، وَعَنْ جَمِيعِ النَّاسِ ثانياً، لا سيَّما أنَّ الَّذِي يدعُمُ ذلكَ هو سياقُ آخَرٍ يأتي مُتَمِّماً لسياقِ هذا المقطعِ الَّذِي بَيَّنَّ أَيْدِينَا، وفيهِ يدعو النَّبيُّ سليمانُ اللهُ أَنْ يَهَبَهُ مُلْكاً عَظِيماً لا يَمُكُنُ أَنْ يَنَالَهُ أَيُّ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ²؛ لقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}³؛ فجاءتِ المقطعُ الأوَّلُ- الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ- استجابةً لسليمانَ وتغييراً له عَنْ سائرِ الخلقِ. ونلاحظُ كذلك- إضافةً إلى السِّياقِ السَّابِقِ- أنَّ تركيبَ "وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ" يحملُ سبباً آخَرَ في تقديمِ "سليمانَ" على "الجند"، وهو سياقُ الاهتمامِ والعناية؛ إذ إنَّ الأهمَّ في هذا المقطعِ هو النَّبيُّ سليمانُ وإبرازُ مكانتهِ في هذا السِّياقِ، ومِمَّا يُسَهِّمُ في الدَّلالةِ على ذلكَ هو تركيبُ البناءِ للمجهولِ "وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ"، حيثُ أَضْمِرَ⁴ الفاعلُ الحقيقيُّ، وهو اللهُ؛ بقرينةِ الآياتِ السَّابِقةِ، "الجنود" هم المفعولُ أصلاً، ولكنَّها تَحَوَّلَتِ إلى نائبِ فاعلٍ؛ مِنْ أَجْلِ مَنْحِ "سليمانَ" تخصيصاً مقصوداً من ناحيةٍ، وأهمِّيةً بالغَةً في شأنِ هذا التَّسخيرِ؛ ولهذا فَقَدْ قَدَّمَ النَّصُّ القرآنيُّ "سليمانَ" على "الجنود"؛ للأسبابِ الَّتِي ذُكِرَتْ آنفاً.

إذنَّ فسياقُ "وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ" هو سياقُ تخصيصٍ وتعظيمٍ لسليمانَ (السِّياقُ الصَّغِيرُ - Micro Context) ثَوافُفاً وانسجَافاً مَعَ السِّياقِ الأكبرِ (السِّياقُ الكَبِيرُ - Macro Context) بحيثُ تُسَهِّمُ "البُورَةُ السِّياقيَّةُ" Contextual Focus- إنَّ جازَ لي التَّعبيرُ أَنَّ أُسَمِّيَها- في بناءِ هذا النَّمطِ اللُّغويِّ مِنَ التَّقديمِ، وإلحاقِ التَّقديمِ بلامٍ تخصَّيصيَّةٍ.

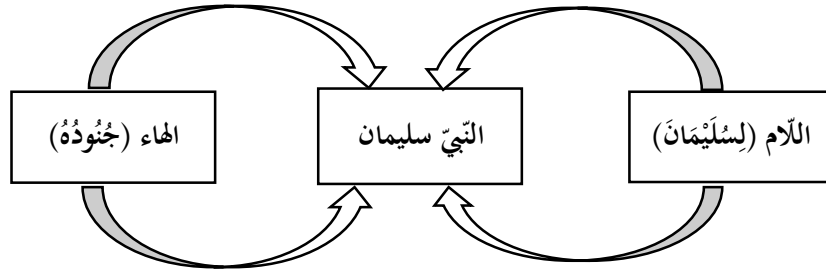
¹ هذه الآياتُ هي: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} ♦ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمُنَا مَنْطِقُ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} ♦ وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ...}. (القرآن الكريم، النمل: 15-17).

² يذكُرُ أبو حَيَّان الأندلسيُّ والقرطبيُّ وغيرُهما أَنَّ مُلْكَ النَّبيِّ سُلَيْمَانَ كَانَ عَظِيماً، إِذْ مَلَأَ الْأَرْضَ، وَانْقَادَ لَهُ أَهْلُ الْمَعْمُورِ مِنْهَا. انظر: أبو حَيَّان الأندلسي، البحر المحيط، 8: 218؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 7: 153.

³ القرآن الكريم، ص: 35.

⁴ أَوْدُ أَنْ أَشِيرَ هُنَا إِلَى أَنِّي أَرَى فِي مَسْأَلَةِ "البناءِ للمجهولِ" حذفاً وإضماراً؛ أَيَّ إِنَّهَا تَقُومُ وَتَتِمَّاسُ عَلَى فِكْرَةِ "الحذفِ التَّحوييِّ"؛ تَأَكِيدُا مَنِّي بِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّحَاةِ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدَّثِينَ يَتَجَاهَلُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الَّتِي- بِرَأْيِي- هِيَ مِنَ الظُّوَاهِرِ وَالْمَسَائِلِ التَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الْعَنَاءَ وَالاهْتِمَامَ فِي الْبَحْثِ التَّحْوِييِّ.

وَأَنَّهُ الْقَارِئُ هُنَا أَنَّ ذَلِكَ التَّجَادُبَ الَّتِي تَتَقَابَلُهُ كَلِمَةُ "سَلِيمَانَ" مَا بَيَّنَّ اللَّامَ التَّخْصِصِيَّةَ وَيَبَيِّنُ الْهَاءُ فِي "جُنُودُهُ" الَّتِي تَعُودُ عَلَى سَلِيمَانَ، وَكَأَنَّ ثَمَّةَ تَوْكِيدَيْنِ يُبَيِّنَانِ أَنَّ: كُلَّ ذَلِكَ مَسْحَرٌ لِسَلِيمَانَ، لَهُ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ، وَأَنَّ الْجُنُودَ مَسْحُورُونَ وَمُنْقَادُونَ لَهُ؛ تَعْظِيمًا وَتَشْرِيفًا لَهُ¹.



بالإضافة إلى هذا، نَلْمَحُ حَرَكِيَّةَ الْمَقْطَعِ الْأَوَّلِ فِي عِبَارَةِ {مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ}؛ وَذَلِكَ أَنَّ "الْجِنَّ" هُوَ - كَمَا يُعَبِّرُ عَنْهُ الْمَفْسِّرُونَ - ذَلِكَ الْجِسْمُ اللَّطِيفُ ذُو الْحَرَكَةِ السَّرِيعَةِ، وَالطَّيْرُ كَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْحَرَكَةُ². وَيَبْقَى السُّؤَالُ: مَاذَا عَنِ "الْإِنْسِ"؟ وَالْجَوَابُ بِرَأْيِي أَنَّ اسْتِعْمَالَ صِيغَةِ "الْإِنْسِ" فِي حَدِّ ذَاتِهَا دُونَ "الْإِنْسَانِ" - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ - يَدُلُّ عَلَى تِلْكَ الْخَفَةِ وَالْقَصَرِ فِي لَفْظَةِ "الْإِنْسِ" مُقَارَنَةً بِلَفْظَةِ "الْإِنْسَانِ"، عَلِمًا أَنَّ لَفْظَةَ "الْإِنْسَانِ" وَرَدَتْ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ³ وَلَكِنْ فِي سِيَاقَاتٍ أُخْرَى. وَهَذَا الْأَمْرُ، كَمَا نَلْحِظُ، يَتَنَاقَضُ مَعَ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَمَعَ أَلْفَاظِ "جُنْدٍ سَلِيمَانَ" مِنَ الْجِنِّ وَالطَّيْرِ، اللَّذَيْنِ يَدْلَانِ بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالْخَفَةِ وَسُرْعَةِ التَّنَقُّلِ. وَبِنَاءً عَلَى مَا ذُكِرَ سَابِقًا، يَطْرُقُ سَوْأَلُ هَامٍّ آخَرٌ يَتَعَلَّقُ بِأَسْلُوبِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأَخِيرِ، وَهُوَ: لِمَ قُدِّمَ "الْجِنَّ" عَلَى "الْإِنْسِ" وَ"الطَّيْرِ" فِي هَذِهِ الْمَقْطَعِ الْقُرْآنِيِّ؟ وَهَلْ لَذَلِكَ دَلَالَةٌ نَحْوِيَّةٌ مَا؟

يَذَكِّرُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ "مِنْ الْجِنِّ" قُدِّمَ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ لِأَمْرَيْنِ: لِأَنَّهُ، أَوَّلًا، مَقْدَّمٌ فِي الْوُجُودِ، إِذْ إِنَّ الْجِنَّ مَوْجُودٌ قَبْلَ الْإِنْسَانِ. وَهَذَا مَا تَقْوِيهِ بَعْضُ السِّيَاقَاتِ الْأُخْرَى فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ مِنْ خِلَالِ الشَّوَاهِدِ الْقُرْآنِيَّةِ، نَحْوُ قَوْلِهِ: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا

¹ الفونوي، الحاشية، 14: 362.

² ن. م، 14: 362.

³ نحو قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}. (القرآن الكريم، الإسراء: 11).

بِسُلْطَانٍ¹. وثانيًا، لكونِ تسخيرِ الجنِّ وجميعهم² أعظمَ وأشقَّ مِنْ تسخيرِ الطَّيْرِ³، وهو كذلك أدلُّ على قوَّةِ المُلْكِ للنَّبِيِّ سليمانَ⁴.

ثمَّ نلاحظُ بعدَ ذلكَ أنَّ حرفَ الجرِّ "مِنْ" في عبارة {مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ} قدَّ يحملُ دلالتينِ نحويَّتينِ في هذا السياقِ، فإمَّا، أوَّلًا: أن تكونَ بيانيَّةً (تفسيريةً)، أي هي بيانُ جنودِ سليمانَ، وبالتالي فهي تتعلَّقُ بمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ "هَمْ" (هُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ)، أو تتعلَّقُ بحالٍ محذوفٍ⁵ مِنْ "جنوده" ⁶، أي: كائنيْن منهم⁷. وإمَّا، ثانيًا، أن تكونَ تبعيةً، أي "مِنْ بعضِ الجنِّ"، و"مِنْ بعضِ الإنس"، و"مِنْ بعضِ الطَّيْرِ"، وهو ما يُرَجِّحُه الألوسيُّ بقوله إنَّه لا يلزمُ مِنْ ذلكَ أن يكونَ الجنودُ المحشورونَ لسليمانَ جميعَ الجنِّ، وجميعِ الإنسِ، وجميعِ الطَّيْرِ، وهذا ما تُؤيِّدُه قصَّةُ الهددِ وبلقيسَ فيما بعدُ⁸.

المقطع الثاني: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتُمُ اللَّامَةُ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}:

إنَّ حركيَّةَ في المقطعِ الأوَّل، كما بيَّنتُ، تُسهمُ فيما بعدُ في الدَّخولِ إلى المقطعِ الثاني، وهي قصَّةُ النَّملةِ. ويبدأ هذا المشهدُ بعبارة {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ}، وهو ما يدلُّ على تتابعِ سياقيٍّ لمشهدٍ سابقٍ، بمعنى أنَّ "حتى"⁹ هنا تكشفُ عَن غايةِ المسيرِ لجندِ سليمانَ، وكأنَّ التقديرَ: "فساروا حتى إذا أتوا...". وإنَّ ذلكَ ذلكَ على شيءٍ فإمَّا يدلُّ على أنَّ بدايةً هذا المقطعِ يقومُ على "فضاءٍ نحويٍّ" Grammatical Space - إنَّ صحَّ لي التعبيرُ - وهو، فيما أراه، أحدُ الأركانِ الرئيسيَّةِ في مسألةِ الحذفِ والإضمارِ. وهذا يعني أنَّ عبارة {حَتَّى

¹ القرآن الكريم، الزَّحَمَن: 33.

² البقاعِي، نظم الدَّرر، 14: 141.

³ القنوي، الحاشية، 14: 362.

⁴ الألوسي، روح المعاني، 10: 582.

⁵ السَّمين الحلي، الذَّر المصون، 8: 581؛ شيخ زاده، الحاشية، 6: 383.

⁶ درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، 5: 491.

⁷ المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد، 5: 82.

⁸ الألوسي، روح المعاني، 10: 582.

⁹ هناك خلافٌ طويلٌ ومتشعبٌ بَيْنَ النُّحاةِ والمفسِّرينَ حَوْلَ معنى "حتى" الإعرابيِّ في هذه الآية، وفي غيرها مِنَ الآياتِ، بخلافه هل هي حرفٌ ابتداء أم حرفٌ جرٍّ، وبخلافهم حَوْلَ متعلِّقها. وكلُّ ذلكَ لا حاجةَ لسردهِ هنا؛ لأسبابٍ كثيرةٍ، كضيقِ المساحةِ الكتابيَّةِ مثلاً، ولكنَّ الأهمَّ منها أنَّ كثيرًا مِنَ هذه التعليلاتِ هي تعليلاتٌ جامدةٌ بعيدةٌ عَن روحِ النِّصِّ وسياقه، وهو ما يتناقضُ مَعَ رؤيتنا وطرشنا في هذا البحثِ؛ ملَّخصًا بأنَّ النُّحُو لا يُدرَسُ إلَّا في سياقه الذي وُضِعَ له؛ وإلَّا لأصبحتْ مجردَ قواعدٍ دونَ أيِّ حيويَّةٍ أو معنَى!

إِذَا أَتَوْا { "تستفر" المتلقي في أن يتساءل: أَيْنَ كَانَ المنطلق؟ وما هي طبيعة المسير؟ وما هي الملابس والظروف التي سبقت هذه العبارة "حتى إذا"، والتي سبقت لها؟

إنَّ كلَّ حذفٍ لا بُدَّ أن يقوم على قرينة أو دليل يدلُّ عليه¹، وكما يظهر خلال المقطعين، الأول والثاني، فإنَّ سياقهما يُرشِدنا إلى تصوُّر ذلك المحذوف، فلا بُدَّ من تواصلٍ نحويٍّ بين كلا المقطعين وإنَّ حقيقتَ عن القارئ حلقة الوصل التي تربطها معاً نظماً ومعنى - كما ذهب إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني في نظريته.

ومما ينبغي التنبُّه إليه هنا هو أنَّ الحذف المختزن في عبارة "حتى أتوا" هو بمثابة فتح مساحة تأويلية لزمان المحذوف، ولمكان المحذوف، ولحدث المحذوف، وهي ما تدلُّ عليه العلاقات المترابطة بين كلا المقطعين.

ولعليُّ أُبيِّن هنا أنَّ هذا الحذف واجتزاء بعض الكلام إنما هو - بحد ذاته - تكثيف واتساع في الوقت نفسه، وهو ما نصَّ عليه سيوييه في كتابه²، فقد يبدو للوهلة الأولى أنَّ الحذف في صدر هذه الآية يُضيِّق المساحة التأويلية، ولكنَّ الأمر على خلاف ذلك؛ إذ إنَّ مجرد إخفاء بعض الأحداث أو المعلومات، التي تتمثل في نهاية المطاف بكلام نحويٍّ، هو بحد ذاته اتساع في حلقة التأويل والتقدير، ولهذا يذهب المفسِّرون والنُّحاة إلى تفسيرات عدَّة في تقدير المحذوف، وفي متعلِّق المحذوف. ولكنَّ الذي يعيننا في هذا المقام، هو أنَّ سياق الآية النحويُّ يُثري الخطاب مساحةً في تحيُّل الأحداث "التي لم تُذكر"، والزمان "الذي لم يُعلن"، والمكان "الذي لم يُصرَّح به"!

ولعلنا نستوحي الصَّورة ممَّا يُشيرُ الباحثُ محمد عزيمة إلى أنَّ "إذا" جاءت بعد "حتى" في ثلاثة وأربعين موضعاً في النصِّ القرآنيِّ، ويؤكدُ في هذا المقام - كما هو واضح في الآية التي بيَّنا أيدينا - أنَّ تركيب {حتى إذا} لا بُدَّ أن يتقدِّمه كلامٌ ظاهرٌ، أو كلامٌ مقدَّر يدلُّ عليه السياق³، وهو ما استوحاه من قول الفراء بقوله: {حتى إذا} لا بُدَّ أن يتقدِّمها كلامٌ لفظاً أو تقديرًا. وهذا يعني، أننا نحتاج إلى تقدير الكلام المحذوف الذي لم يظهر بمساندة السياق النحويِّ لكلا المقطعين. ومن هنا، قدَّر أبو حيان الأندلسيُّ - على سبيل المثال لا الحصر -

¹ المبرِّد، المقتضب، 3: 112؛ ابن جني، الخصائص، 2: 302؛ الزركشي، البرهان، 3: 103.

² سيوييه، الكتاب، 1: 212.

³ عزيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، 1: 195-196.

المحذوف في قوله { حَتَّى إِذَا أَتَوْا } بقوله: "هذه غايةٌ لشيءٍ مُقدَّرٍ، أي ساروا حتى إذا أَتَوْا، أو يضمنُ يوزعون معنى فعل يقتضي أن تكونَ حتى غايةً له، أي فهم يسرون مكنوفاً بعضهم من مفارقة بعض...¹.

وإن أردنا أن نأخذ بـ "إحداثيات" السياق التحويلي في هذا المقطع، يتَّبَن لنا - بعيداً عن كلِّ التعليقاتِ التحويلية التي تنتهج القوالب النحوية الجاهزة² - أن "إذا" في عبارة "حتى إذا" تميلُ إلى الطرفية الزمانية التي تأتي بمعنى "حين"³، مع إتاحة مُدَّة زمنية غير محدَّدة بمعنى "ثم"، وهو ما عبَّر عنه الصاوي في تفسيره لـ "حتى إذا" بقوله: "...ثم مضى سليمان حتى مرَّوا بوادي النمل"⁴. وكلُّ ذلك يستدعي بالضرورة تحيُّلاً للموقف النحوي Syntactic Position من خلال هذه المساحة الزمانية/ المكانية/ الحداثية التي أتاحها النصُّ بما التَّحَمَّ به المقطع الأول بالثاني، والثاني بالأول.

ولعلَّ ممَّا يُسهِّم في "حركية" النظم في هذا المقطع هو الفعل "أتوا"؛ ذلك لأنَّ الفعل "أتى" - كما يذهب بعض أصحاب المعجمات - يَدُلُّ على السهولة⁵ في المجيء والخفة والسرعة⁶. كما أنَّ فيه استيحاءً للسريان والكثرة والانضباط، وهو ما استنبطته ممَّا بيَّنه الراغب الأصفهانيُّ على أن "أتى"، و"الإتيان" يُقالُ للسَّيْلِ المارِّ على وجهه. وهذا يعني أنَّ النَّبيَّ سليمانَ وجنوده "أتوا" بخفة وحركة سهلة سريعة من ناحية حسيَّة ومعنويَّة - بما يخدم الصورة التحويلية في هذا المقطع - وأنَّ عددهم كبيرٌ كالنهر أو السَّيْلِ الجاري. وأستطيع أن أعنِّون هذا الجانب اللغوي هنا - على الحكاية -: "توافق دلالة النَّحو بتوافق دلالة اللَّفْظ". ولهذا، فإنَّ اختيار الفعل "أتى" ينسجم مع حركة التَّركيب التحويليِّ The Movement of Syntactic Structure - إن صحَّ التعبير - الأمر لا قد لا يتحقَّق مثلاً مع الفعل "جاء"، أو "حضر" أو "قَدِم" أو غيرها من الأفعال التي تدلُّ على "المجيء".

¹ أبو حيَّان الأندلسي، البحر المحيط، 8: 218.
² يعرض كثيرٌ من النُّحاة والمفسِّرين إلى "إذا"، واصفين إيَّها بالشرطيَّة التي تقتضي فعلين بعدها يشبهان فعل الشرط وجوابه؛ بتعليل أن "إذا" تنضمَّن معنى الشرط، وهي معمولٌ لفعل جوابها، وأنَّ فعلها هي جملة مضافة إليها. وإن كُنْتُ لا أنفي هذا التأويل النحوي إلا أنَّي أميلُ إلى أن "إذا" وفق سياق الآيات المتتابعة هي أميلُ إلى الطرفية منها إلى الشرطيَّة.
³ ابن عاشور، التحرير والتَّوير، 19: 240.
⁴ الصاوي، الحاشية، 3: 314.
⁵ أنظر ما عَرَضْنَا له بخصوص آية { أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ... } في موضوع "الزَّمن السياقي للفعل" في هذا الفصل (الفصل الثَّالث).
⁶ الراغب، المفردات، 60.

ومما يَدُلُّ على حركية المقطع الثاني، والسِّيَاقِ العامِّ للمقطعين، هو لفظة "نملة" نفسها، حيثُ يُشيرُ أصحابُ المعجماتِ أنَّ النملة سُمِّيَتْ نَمْلَةً؛ لِتَنَمُّلِهَا، والتَّنَمُّلُ هو كثرةُ الحركةِ وقلةُ القرارِ¹ والسكون. ولهذا، وافقَ اللَّفْظُ "نملة" حركةَ سياقِ التركيبِ التَّحويِّ في هذه الآية.

وعلى صعيدٍ آخر، تستطيعُ أن تتكاتفِ الآلياتُ اللِّسانيةُ الحديثةُ في فَهْمِ المحذوفِ هنا، فعبارة "حتى" إذا" هي أركانُ الأفعالِ الكلاميةِ، وَفَقَّ ما تُعرَفُ بِهِ التَّداولِيَّةُ (البراغماتية)، إذْ إنَّ كُلَّ فعلٍ كلاميٍّ يَضُمُّ فيه - كما يُوَكِّدُ أحمدُ المتوكل - دَوْرَ المتلقِّي، والمقام، وغايةُ النَّصِّ، وكيفيةُ التَّواصلِ، والغرضُ مِنْهُ². وبالتالي فإنَّ سياقَ الحذفِ هنا هي مجموعةُ الطُّروفِ الَّتِي تحفُّ فعلَ التَّلَقُّظِ "حتى إذا" بموقفِ الكلامِ (المقطع الثاني: قصَّةُ النملة مَعَ النَّبِيِّ سليمانَ وجنوده)، وهو ما يُسمَّى بالسِّيَاقِ³.

ويستوفئنا حرفُ الجرِّ "على" في عبارة {أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} في المقطعِ الثاني، حيثُ عُدِّيَ الفعلُ "أَتَوْا" بـ"على" على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ مِنَ الممكنِ أَنْ يكونَ التَّعبيرُ "أَتَوْا وَادِ النَّمْلِ"، ولكنَّ لم يُعَدِّهِ بالمفعولِ المباشرِ ولكنه جعلهُ متعديًّا بحرفِ الجرِّ "على".

إنَّ طبيعةَ الحركةِ في هذا المقطع، وصورةَ سَيْرِ النَّبِيِّ سليمانَ وجنوده تقتضي أَنَّهُ جاءوا مِنْ "مكانٍ ما" (المحذوفِ في النَّصِّ)، وهو مكانٌ مِنَ المفروضِ أَنْ يكونَ مرتفعًا، وذلك بمساندةِ قرينةٍ نحويَّةٍ-دلاليَّةٍ وهو كلمة "وادٍ"؛ لأنَّ "الوادي" هو ذلك المكانُ المنخفضُ، وبالتالي فَهْمُ- أيَّ سليمانَ وجنوده- ينبغي أَنْ ينزلوا (يهبطوا) مِنْ هذا المكانِ المرتفع- قياسًا ونسبةً إلى الوادي- ولهذا جاءَ حرفُ الجرِّ "على" الَّذِي يُفيدُ معنى الاستعلاء. وقد دَهَبَ بعضُ المفسرينَ⁴ إلى أَنَّ مقصودَ "على" في عبارة "أَتَوْا عَلَى النَّمْلِ" يُرادُ بها أَنَّهُم قطعوا الوادي وبلغوا آخرَهُ، ذلك مأخوذٌ مِنْ قَوْلِ العربِ: "أتى على الشَّيْءِ" إذا أتى على آخرِهِ وأنقَذَهُ⁵.

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 7: 155.

² المتوكل، قضايا اللُّغة العربيَّة في اللِّسانيَّات الوظيفيَّة، 19.

³ Ducrot, *Encyclopedic Dictionary of the Science of Language*, 333.

⁴ مِنَ المفسرين مَنْ دَهَبَ إلى أَنَّ "على" تفيدُ الاستعلاء مِنْ حَيْثُ إِنَّ سليمانَ وجنوده كانوا محمولين فوقَ الرِّيح. انظر: الشيخ زاده، الحاشية، 6: 384.

⁵ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 8: 218، المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد، 5: 83.

ثمَّ يستمرُّ المقطعُ الثاني بعرضِ المشهدِ مِنْ خلالِ عبارة: "قَالَتْ نَمْلَةٌ"، وفي هذا التعبيرِ نَلَحَظُ أَنَّهُ استخدمَ الفعلَ "قال" الَّذي يَدُلُّ على كلامِ العقلاء¹، وهو يتماشى مَعَ "خطابِ" النملةِ فيما بَعْدُ، في هذا المقطعِ وفي المقطعِ الثالثِ أَيْضًا.

ويتجلى خطابُ العقلاء² الَّذي في "قَوْلِ" النملةِ في مواضعٍ مختلفةٍ تتوالى تَباعًا: "ادْخُلُوا (واو الجماعة)، مَسَاكِنَكُمْ"³ (الضمير "كم")، "لَا يَخْطَمَنَّكُمْ" (الضمير "كم")، فالفعل "ادْخُلُوا" - مثلًا - يحوي ضميرَ العقلاء⁴ وهو واو الجماعة، فَلَمْ تَقُلْ مثلًا: "ادْخُلِي" أو "ادْخُلْنَ"، إِنَّمَا جاءَ الأمرُ مُتَّصِلًا بواو الجماعةِ الَّتِي تدخلُ على العاقلِ؛ فَأُنزِلَ النَّمْلُ مَنْزِلَةَ العقلاءِ في الخطابِ⁵، وأُجْرِيَ مجرى الأدميين⁶ - على حَدِّ تعبيرِ الرَّجَّاجِ وأبو جعفرِ النَّحَّاسِ وَغَيْرِهِمَا.

كما أَنَّ تنكيرَ كلمةِ "نملة" في عبارة "قَالَتْ نَمْلَةٌ" يتماهى مَعَ سياقِ المقطعِ، وذلك في أَنَّ الموقفَ لا يَحْتَمِلُ الانتظارَ حيالَ ذلكَ العددِ المهولِ مِنَ الجنودِ، فَأزَالَ التَّركيبُ ذلكَ كلِّ "حواجزِ" التعريفِ بهذهِ النملةِ، إذْ إِنَّ الموقفَ لا تستدعي معرفةَ حقيقةِ هذهِ النملةِ، فاختطفَ كلَّ ما يمكنُ أَنْ يُعرَفَ، وهو ما بيَّنَهُ القنونيُّ بِقَوْلِهِ: "نُكِرَتِ النَّمْلَةُ؛ لِعِدِّ التَّعْيِينِ"⁷.

ولي أَنَّ أفترضَ: لو أَنَّ التَّركيبَ جاءَ على صورةِ "قَالَتِ النَّمْلَةُ"؛ فحِينَهَا سيجعلني أتساءلُ: "مَنْ" هذهِ النملةُ؟ وسيجعلني أَسْتَشْعِرُ وكأَنَّ هذهِ النملةَ معروفةٌ لدى المخاطَبِ، أو كَأَنَّهَا ذُكِرَتْ سابقًا بصورةٍ ما، وهو أمرٌ "يتناقضُ" مَعَ حركيةِ السِّيَاقِ في هذا المقطعِ، و"يتنافى" مَعَ عنصرِ المفاجأةِ؛ حَيْثُ إِنَّ كلمةَ "نملة" توحى بالعنصرِ

¹ القولُ عِنْدَ النُّحَاةِ- بعيدًا عَنِ الخلافاتِ والشُّروحاتِ المطوَّلةِ- هو اللَّفْظُ الذَّالُّ على معْنَى. وهو ما عبَّرَ عنه ابنُ مالِكٍ في أَلْفَيْتِهِ:

"كَلَامُنَا لَفْظٌ مَفِيدٌ كَأَسْتَنْقِمَ واسمٌ وفِعْلٌ ثُمَّ حَزَفَتْ الْكَلِمَ واجدُهُ كَلِمَةٌ وَالْقَوْلُ عَمٌّ وكَلِمَةٌ بِهَا كَلَامٌ فَذُو يَوْمٍ"

² البقاعي، نظم الدرر، 14: 143؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 11: 186.

³ المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد، 5: 83.

⁴ أبو السَّعُود، إرشاد العقل، 4: 192.

⁵ الصَّائِي، الحاشية، 3: 316.

⁶ الرَّجَّاج، معاني القرآن، 4: 112.

⁷ القنوني، الحاشية، 14: 364.

المفاجيء الذي يَفْجَأُ المتلقي أو القارئ؛ وبناءً عليه فإنَّ كلَّ التفاصيل¹ حَوْلَ "هُويَّة" هذه "النملة" لا تَهْمُ في هذا السياق (المقام).

ولا يزال سياق المقطع الثاني يتناغم مع الحركة الدائرية المستمرة أيضاً من خلال عبارة "ادخلوا مساكنكم"، حيث نستشعر سرعة في إصدار الأمر والتنبية للنمل في أن يدخلوا مساكنهم بواسطة "خفة" و"اندفاع" دلالة الفعل "دَخَلَ" الذي تتسع رُفْعَتُهُ الدلالية على الزمان والمكان والحدث - كما أشرت سابقاً - وهو ما عبّر عنه الراغب الأصفهاني حينما فسّر دلالة "دَخَلَ" و"الدخول" بقوله: "الدُّخُولُ: نقيضُ الخروج، ويُستعمل ذلك في المكان، والزمان، والأعمال..."². أضف إلى ذلك، أن كلمة "مساكنكم" على خلاف الحركة والسرعة والنشاط، وهذا يعني أن المشهد كله هو مشهد حركة، وأن هذه النملة تُريد تحويل الحركة المستمرة إلى سكون آني؛ بدخول كل نملة إلى مسكنها، وبأن تتوقف عن العمل. ولعل الأمر المثير هنا إلى أن النملة تطلب "الإسراع إلى السكون"، وكأن هذه الوضع هو وضع طارئ عن الأصل، وهو السياق الذي يقوم على المشهد الكلي.

ويتجلى لنا في هذا المقطع سياق التوكيد وذلك من خلال أسلوب النداء في "يا أيُّها النمل"، ونون التوكيد في "يُحْطَمَنَّكُمْ". أما النداء فإنه جاء مُعلِّقاً بسياق التنبية التوكيدي - إن جاز لي التعبير - عبر الأداة "أي"³، وعبر الـ"ها" التنبية. والهدف من هذا التركيب الندائي هو نداء كل مجموعة النمل التي كانت في الوادي بحيث تسمع كل نملة هذا النداء؛ فتدخل إلى المسكن. من هنا، لم تُنادِ هذه النملة النمل بـ"يا نمل" بل بـ"يا أيُّها النمل" الذي بدوره يحمل دلالات مجتمعة فيما بينها كالتنبية⁴، والتشهير⁵، والتوبيه، فضلاً عن المدّ في الصوت خلال هذا الأسلوب الندائي بحرف النداء "يا" التي تُستعمل لمناداة القريب والبعيد، وبأداة التنبية "ها"⁶. واستناداً إلى ذلك،

¹ لعلني أشير هنا أن كثيراً من كتب التفسير ذكرت تفاصيل جمة بخصوص هذه النملة نحو اسمها، وما إلى ذلك. وأرى أن التوسّع في هذه الحيثية أو أي تفاصيل في تحديد هويّة هذه "النملة" لا ينفغ العلم به، ولا يضرّ الجهل به. انظر على سبيل المثال: الألوسي، روح المعاني، 585:10.

² الراغب، المفردات، 60.

³ تُعْرَبُ "أي" منادى مبني على الضم في محل نصب، ولكنها في الحقيقة أداة تنبيه جيء بها لنداء المعرّف (أو المحلّي) بـ"ال" التعريف، إذ إن المنادى الحقيقي هو "النمل" وليس "أي"، التي تُعْرَبُ - أي النمل - بدلاً مرفوعاً من "أي".

⁴ عبد الناصر جبارين، بين التقليد والتجديد: وجهات نظر تجديدية حول المنادى في اللغة العربية الفصحى - تحليل نحوي (حيفا: مكتبة كل شيء، 2014)، 104-108.

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، 24: 186.

⁶ جبارين، بين التقليد والتجديد: وجهات نظر تجديدية حول المنادى، 13-15؛ 61-65.

يخدم الصَّوْتُ (المستوى الصوتي) التركيب اللُّغوي (المستوى النحوي-الدَّلالي) في التعبير عَنْ معنى التَّوكيد والتَّنبية معًا. وأما نون التَّوكيد الثَّقيلة في "لا يَخْطِمْكُمْ" فُتُنْبِئُ عَنْ توكيد هذه "النملة" المنادية ذلك الخطر الدَّاهِم المنتظر في حال إن لم يَحْتَرِزِ التَّمْلُ في مثل هذه الأوضاع. وأسْتَشْعِرُ مِنْ سياق هذا المقطع أَنَّ هذه "النملة" ترى سليمان وجنوده يسيرون بسرعة، تلك السرعة التي مِنْ شأنها أَنَّهُمْ قَدْ تَجَعَّلَهُمْ "يُخْطِمْونَ" التَّمْلَ دونَ أَنْ يعلموا¹ أو ينتبهوا إلى ما تحت أقدامهم مِنَ التَّمْلِ.

ولعلَّ عبارة "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" تحملُ في طياتها دلالة سرعة حركة الجنود؛ وهو ما يقومُ عليه أحد أركان سياق المقطعين. ويدخل- بهذا- أسلوب الاحتراس² اللُّغوي في عبارة "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"، وكأنَّ النملة تريدُ أَنْ تحترسَ في قولها "إِنَّمَا يُتَوَهَّمُ نسبةُ الظُّلْمِ إلى سليمان"³.

والأمرُ اللَّافِتُ في هذا المقطع- كذلك- أَنَّ النملة سَمَّتْ "سليمان" بِاسْمِهِ الْعِلْمِ دونَ أَنْ تَصِفَهُ بِالنَّبِيِّ- مثلاً- أو تُلقِّبَهُ بِالْمَلِكِ- مثلاً- وفي ذلك إشارةٌ سياقيةٌ هامةٌ، وهي أَنَّ أَمْرَ إخبارِ التَّمْلِ بِمَنْ يَأْتِي وَيُقْدَمُ، وهو وعلى وشكِ أَنْ يصلَ بجنوده الجَزَارَةَ، لا يَحْتَمِلُ الصِّفَاتِ أو الألقاب؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ إسرَاعٍ في "النَّبَاِ المفاجئ"؛ وبالتالي انسَجَمَتِ كلمته "سليمان" في "لا يَخْطِمْكُمْ سُلَيْمَانُ" مَعَ سياقِ الآية (خطفُ الكلمة بخطفِ المسَمَّياتِ والصِّفَاتِ والألقاب).

ونلاحظُ أَنَّ هذه النملة كانتْ قَدْ عَبَّرَتْ عَنْ "قَوْلِهَا" في هذه الآية بأسلوبٍ كلاميٍّ (خطابيٍّ-) مُمَيَّزٍ ينبغي الوقوفُ عليه، وهو في الحقيقة ما أَجْمَلَهُ السِّيَوطِيُّ ضِمْنَ بابِ "الإيجاز"؛ مُؤَكِّدًا أَنَّ هذه النملة قَدْ جَمَعَتْ في الآية أَحَدَ عَشَرَ جَنَسًا مِنَ الكلامِ، حيثُ: "نادَتْ، وَكُنْتُ، وَنَبَّهْتُ، وَسَمَّيْتُ، وَأَمَرْتُ، وَقَصَّصْتُ، وَحَدَّرْتُ، وَحَصَّصْتُ، وَعَمَّمْتُ، وَأَشَارْتُ، وَعَدَّرْتُ؛ فالنداءُ "يا"، والكنايةُ "أيُّ"، والتَّنبيةُ "ها"، والتَّسميةُ "التَّمْلُ"، والأمرُ

¹ الطَّبْرِي، جامع البيان، 5: 553.

² الاحتراَسُ (أو التَّكْميلُ): هو أَنْ يُؤْتَى بِكلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفعُ ذلك الوهمَ، نحو قولهِ تعالى: {تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ} (القرآن الكريم، التَّمْل: 11)، فإنَّ كلمةَ "بيضاء" تُوهِمُ بالمرضِ أو الشَّيْءِ غَيْرِ السَّوِيِّ (والحديثُ هنا عن يدِ النَّبِيِّ موسى في إحدى معجزاتِهِ)، ولكنَّ قولَهُ "من غيرِ سوءٍ" دَفَعَتْ هذا التَّوَهُّمَ إلى أَنْ يَبْضَاءَ مِنْ غَيْرِ علَّةٍ فيها.

³ السِّيَوطِيُّ، الإِتْقَان، 3: 222.

"ادخلوا"، وألْقَصَصُ "مساكنكم"، والتَّحْدِثُ "لا يَحْطِمْكُمْ"، والتَّخْصِصُ "سليمان"، والتَّعْمِيمُ "جنوده"، والإشارة "وهم"، والغُذُرُ "لا يشعرون"¹.

ويترأى لنا أنَّ الأفعالَ في المقطعِ الثاني تَتَّحِدُ فيما بَيْنَها؛ لِشَكْلِ تَأْلُفٍ سِياقِيٍّ مِنْ حَيْثُ الزَّمَنُ، فالفعلانِ "أَتَوْا" و"قَالَتْ" وإنْ كانا على مستوى البنية السَّطْحِيَّةِ Surface Structure فعلينِ ماضيينِ، إلَّا أنَّهما يأخذانِ مَلَمَحًا مضارعًا على مستوى البنية العميقة Deep Structure، وذلك مِنْ خِلالِ المشهدِ الكَلْبِيِّ للحدثِ اللَّغَوِيِّ فِي هَذَيْنِ المَقْطَعَيْنِ، فصِغَةُ الأَمْرِ فِي الفِعْلِ "ادخلوا"، الَّذِي يُنْبِئُ عَنِ المَسْتَقْبَلِ، تَجَذَّبُ- هَذِهِ الصِّغَةُ- كَلا الفَعْلَيْنِ "أَتَوْا" و"قَالَتْ" إِلَى زَمَنٍ سِياقِيٍّ يَتَلَاءَمُ مَعَ سِياقِ الآيَةِ، لَا سِيَّما سِياقَ الحَرَكَةِ والحَالِيَّةِ (المتجدِّدة) الَّتِي هِيَ مِنْ دَلالاتِ الفِعْلِ المضارعِ ووظائفِهِ. وأيضًا، فَإِنَّ صِغَتِي الفِعْلِ المضارعِ: "لا يَحْطِمْكُمْ" بلا النَهِايَةِ، و"لا يَشْعُرُونَ" بلا النَافِيَةِ، تُقَارِبَانِ لِلزَّمَنِ الحَقِيقِيِّ لِسِياقِ الأَفْعَالِ الخَمْسَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَذَا المَقْطَعِ (أَتَوْا - قَالَتْ - ادخلوا - يَحْطِمْكُمْ - يَشْعُرُونَ)؛ مَراعاةً لِمَا يَتَطَلَّبُهُ السِّياقُ مِنْ تَصَوُّرِ الحَدِثِ وتَحْيُلِهِ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ.

وتجدرُ الإشارةُ هنا إلى أَنَّا نَلْحَظُ تَقَابُلًا فِي هَيْئَةِ الأَفْعَالِ Aspects فِي كُلِّ مِنَ المَقْطَعَيْنِ عَلَى جَدَةٍ، ففِي المَقْطَعِ الأوَّلِ جَاءَتِ الأَفْعَالُ مَبْنِيَّةٌ لِلْمَجْهُولِ وَلَكِنَّهَا- كَمَا بَيَّنَّا سَابِقًا- تَتَأَلَّفُ فِي إِنتَاجِ الزَّمَنِ الحَاضِرِ الخَاصِّ بِسِياقِ الآيَةِ، وَفِي المَقْطَعِ الثَّانِي جَاءَتِ الأَفْعَالُ مَبْنِيَّةٌ لِلْمَعْلُومِ وَلَكِنَّ المَشْهَدَ الكَلْبِيَّ لَهَا يَعْكُسُ الزَّمَنَ الحَاضِرَ (المضارع)، كَمَا هُوَ مَبَيَّنٌ فِي المَشَجَرِ أدناه:



¹ السِّيَوطِي، الإِتْقَان، 3: 165.

ولعلّ هذا الأمر يُدَكِّرُنَا بنظرية بـ"نحو النصّ" Text Grammar على أنّ التركيب النحويّ - أيّ

تركيب - هو مجموعة القواعد النحويّة التي تُؤخّذ من عالم النصّ فتنتظم مع عالم النصّ وبنائه¹.

وعلى صعيد آخر يمكن أن نلمس التنغيم² Intonation الصوّنيّ السّياقيّ الصّاعد في المقطع الأوّل

عند عبارة "فَهُمْ يُورَعُونَ"، وهو تنغيم يُشير إلى سياق الحركة - كما أسلفنا - وإلى سياق إتمام مهمّة جمع الجند؛

فبعد أن توالّت النغمة بترتيب تصاعديّ من قوله: "حُشِرَ لسليمان جنوده"، واستمراراً بأنواع الجند التي ذكرها

النصّ القرآنيّ في هذا المقطع "من الجنّ والإنس والطّير"، نلاحظ - فيما أراه - أنّ تنغيماً صوتيّاً صاعداً تُختتم فيه

الآية؛ للدلالة على إتمام مهمّة "الحشر"؛ وللدلالة على استعداد هؤلاء الجند والجهوزيّة التّامة في الانطلاق رهن

إشارة النّبيّ سليمان وطوعاً له. ويتضافر مع "قرينة التنغيم" سياق آخر، وهو سياق التعظيم، لله الذي هو المسجّر

الحقيقيّ هؤلاء الجند (وهو الفاعل الحقيقيّ من خلال الفعل "حُشِرَ" الذي لم يُسمّ فاعله الحقيقيّ وهو الله بنصّ

الآيات السّابقة) من جهة، وللسليمان الذي أوتيّ ملكاً عظيماً تلبيةً لدعائه الذي دعا به.

وبالتّزامن مع التنغيم السّياقيّ نلاحظ ذلك الجرس الموسيقيّ في المقطع الثّاني (الآية الثّانية) خلال المدود

المتواصلة في نهاية الكلمات: "حتى - إذا - أتى + وا - على - يا - أيّها - ادخلوا - لا"، أو في وسط الكلمات

أو ما قبل آخرها: "واد - قال + ت - مساكن + كم - سليمان - يشعرون". ومن الأشياء التي قد تدلّ عليها

ذلك المدود هو عنصر التّنبية وإطلاق الإشارات الصّوتيّة المُحدّرة مخافة أن "يُحطّم" سليمان وجنوده جماعة التّمل

دون شعورهم بذلك. وهذه المسألة الصّوتيّة - النّحويّة إمّا تدخل - كما رأينا - فيما يُسمّى بـ"الإيحاء الصّوتيّ"³

Sound Symbolism؛ حيثُ يدعم، بمساندة تلك الإيحاءات، سياق الآية وجوّها الخاصّ كما أشرّت إليه

فيما مضى.

¹ Petofi, *Studies in Text Grammar*, 13; Van Dijk, *Some Aspects of Text Grammar*, 8.

² انظر إلى تعريف "التنغيم" وعلاقته بالسّياق تحت عنوان: "كمال بشرّ والنزعة الصّوتيّة السّياقيّة" في الفصل الثّاني.

³ أنيس، من أسرار العربيّة، 75.

وأستطيع، أخيراً، أن أُجمل القول بأنَّ كلَّ آيةٍ من هاتين الآيتين يُكوِّنُ مقطعاً خاصّاً به من جهةٍ،
ويُكوِّنُ - في الوقتِ نفسِه - جزءاً من مقطعٍ آخرٍ يتشابهُ معه في علاقاتٍ وسياقاتٍ متداخلةٍ من جهةٍ أخرى¹.
وارتكاراً على هذه الرّؤية، فإنَّ معرفةَ الجوانبِ اللّغويّةِ في النّصِّ القرآنيّ يتطلّبُ معرفةَ سياقِ هذا النّصِّ، بأنواعِ
السياقاتِ المختلفةِ؛ من خلالِ استقراءِ النّصِّ آياتٍ ومقاطعٍ وسوراً ونصّاً كاملاً، يُؤازرُ بعضُهُ بعضاً في فهمِ السّياقِ
التّحويّ. وهذا يعني - كذلك - أنَّ السّياقَ هو الفيصلُ الحقيقيُّ في تحديدِ المعاني التّحويّةِ الّتي نتوخّاها وفي فهمِ
طبيعةِ "نظم" النّصِّ القرآنيّ عبْرَ تعليقِ الكلامِ بعضُهُ ببعضٍ، وجعلِ بعضِهِ بسببِ من بعضٍ².

¹ انظرُ إلى ما تطرّفتُ إليه في هذا الفصل (الفصل الثّالث) تحتَ عنوان: "المعنى في ظلِّ سياقِ المبنى".

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، 15.

استنتاجات وتعقيبات

على امتداد هذه الدراسة كان "السياق" - كملح حضاري ثقافي لغوي - حاضراً في كل شاهد من الشواهد القرآنية التي اُحتيرت في هذه الأطروحة؛ وفقاً لمقاطع سياقية تهاهي مع الموضوع المتحدث حوله، إذ تجلّت على غرار ظروف وملابسات مختلفة، ومعانٍ نحوية كثيرة متباينة، فبانت هذه الظروف اللغوية؛ كالجملية الاسمية والفعلية وحقيقة الثبوت والحدوث فيهما، وكالزمن السياقي للفعل، وكالحذف وسياقاته الإضمارية... وغيرها، بانث تعكس ظلالها الوافرة على "السياق النحوي" في النصّ القرآني، انعكاساً دمج في جعبته بين المناهج اللسانية قديماً وحديثاً.

والحق أن الخلاصة من درس "السياق النحوي" تفتّح مضامينها؛ لتشعب روابطها ومسائلها، ولكي مع هذا أثير إلى بعض الاستنتاجات والملاحظات خلال نقاط عدّة، علماً بأن هذه النقاط ليست بالضرورة ملخصة كلّ ما حوته هذه الأطروحة من صفحات، إنما هي تُعبر عن الرؤية الإجمالية التعقيبية بتقاطعاتها الأفقية والعمودية في موضوع "السياق النحوي"، وتأكيداً مني أن كثيراً من الملاحظات التلخيصية والاستنتاجية كنت قد دونتها عبر فصول الأطروحة الثلاثة. وبناءً عليه أستطيع أن أجمل القول، مُستعيناً ببعض المصادر والمراجع التي تتكاتف مع هذا الإجمال، بالنقاط التالية:

- إن "السياق النحوي" Syntactic Context هو انعكاس "لساني" لطبيعة العلاقات المتداخلة والمركبة في الجملة النحوية العربية، بمعنى أن "السياق النحوي" - فيما نراه - يُعدّ مجموع سياقات مختلفة تتداخل في إبراز معنى التركيب النحوي - بمعناه الواسع الشامل؛ لأنّ استنباط المعاني السياقية لا تكمن في دراسة "الدلالة" المتعلقة - للوهلة الأولى - بالمعنى النحوي فحسب، بل إنّها، بالإضافة إلى ذلك، بياناً لمعنى صيغة الجمل والتراكيب خارج "السياق" وداخله، واستظهار هذه "المعاني السياقية النحوية" خلال دراسة المستوى الصوتي، والصرفي، والتركيب، والدلالي، والمعجمي¹، فهي مستويات متداخلة لا يمكن الفصل بينها، خاصة عند حديثنا حول "السياق النحوي"

¹ علاء عبد الأمير شهيد، الدلالة المعجمية والسياقية في كتب معاني القرآن، 17.

الذي هو - باعتقادي - مُلَحَّصٌ ومُجَمَّعٌ لكلِّ أنواعِ السياقاتِ الأخرى؛ بسببِ شمولِ الدرسِ النَّحْوِيِّ؛ فيستمدُّ "السياقُ النَّحْوِيُّ" شمولُهُ هذا مِنْ شمولِ النَّحْوِ ذاتِهِ.

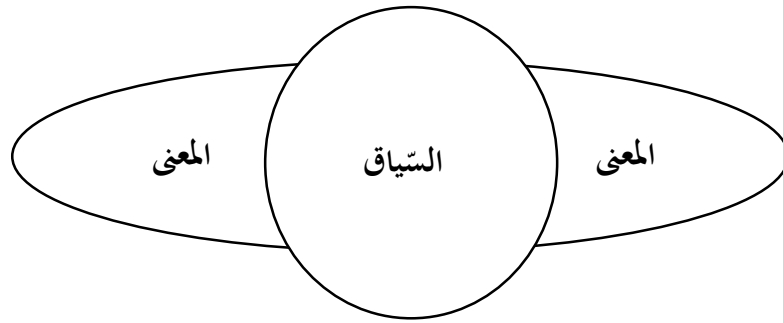
ولعلِّي في هذا الطَّرْحِ أَلْفِتُ الانتباهَ إلى أَنَّ "السياقَ النَّحْوِيَّ"، هو بمثابة دعوةٍ إلى التَّلَافُحِ المعرفيِّ بَيْنَ الحقولِ المعرفيةِ *Fields of Knowledge* المتشعبة؛ كَيْ يُثْرِيَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَكُونُ كُلُّ مِنْهَا رَافِدًا لِلآخَرِ، وهذا "التَّلَافُحُ" لَنْ يُلَامِسَ أرضَ الواقعِ إلَّا بِ"رؤيةٍ سياقيةٍ" ثاقبةٍ تتجاوزُ الأطُرَ المحدودةَ، وتتخطَّى الحدودَ المرسومةَ؛ إذ إِنَّ "المعرفةَ" - في كينونتها - لا تعرفُ الحدودَ الصَّارمةَ. وتناغمًا مع هذا، فَإِنَّهُ لَنْ يقومَ درسٌ نحويٌّ بمعزلٍ عَنِ الصَّوْتِ والصَّرْفِ والبلاغةِ والدَّلالةِ وعلومِ اللُّغةِ قديمها وحديثها، وَلَنْ يقومَ النَّحْوُ بمعزلٍ عَنِ معطياتِ نظرياتِ "السياقِ" القديمةِ والحديثةِ، العربيَّةِ والغربيَّةِ، وبمعزلٍ عَنِ التَّداوليَّةِ *Pragmatics* الَّتِي غَدَتِ المجرى الأساسيُّ الَّذِي تصبُّ فيه هذه الرِّوافدُ اللِّسانيةُ المعاصرةُ.

- لَقَدْ عالجَ النُّحاةُ والمفسِّرونَ القدماءُ السِّياقاتِ اللُّغويَّةَ لَدَى دراستهم النَّصِّ القرآنيِّ، وذلك مِنْ خلالِ القدرةِ على استثمارِ طاقاتِ اللُّغةِ التعبيريةِ في صياغةِ الكلامِ، وتَنوُّعِ الأداءِ اللُّغويِّ المرتبطِ برغبةِ المتكلِّمِ ومقتضى الحالِ، وَلَعَلَّ عبارةَ الجاحظِ "لكلِّ مقامٍ مقالٌ" تشي بهذه العلاقاتِ بَيْنَ النَّصِّ وما يرتبطُ بِهِ مِنْ قنواتِ كالمُتَكَلِّمِ والمتلقِّي؛ وبناءً عليه يَأْتِي البناءُ اللُّغويُّ مُحَصِّلَةً لهذَيْنِ العاملينِ: اللُّغةُ بما تُوفِّرُهُ مِنْ إمكاناتٍ وهيئاتٍ، والموقفُ وما يَتَطَلَّبُهُ في طرفي الخطابِ اللُّغويِّ، وهما: النَّصُّ (صاحبُ النَّصِّ - المُرسِلُ - المُبدِعُ...) والمخاطَبُ (المتلقِّي - قارئُ النَّصِّ - المُبدِعُ إِلَيْهِ...).

مِنْ هنا، كانتِ المباحثُ النَّحْوِيَّةُ - بمعناها الواسعِ الشِّموليِّ الَّذِي يُجِبُّ، حسبَ رأيي، أَنْ يُفْهَمَ - مِنْ تقديمٍ وتأخيرٍ، وَذِكْرٍ وَحَذْفٍ، وتعريفٍ وتنكيرٍ... وَغَيْرِهَا مِنْ المسائلِ مركزاتٍ هَامَّةٌ في "السياقِ النَّحْوِيِّ" لدراسةِ النَّصِّ القرآنيِّ وتفسيرِ ما فيه مِنْ ظواهرٍ لسانيةٍ كانتِ الفَيْصَلُ الحاسمَ لهذا التَّركيبِ أو ذاك. وَلَعَلَّ التَّحْرِيجاتِ النَّحْوِيَّةَ الَّتِي "ابتكرها" أو ابتدعها النُّحاةُ أنفسهم شاهدٌ مَكِينٌ على تصوُّرهم لحقيقةِ النَّحْوِ ومقاصدهِ، وعلى تَعَامُلِهِمْ، في الوقتِ ذاتِهِ، مَعَ تراكيبِ النَّصِّ القرآنيِّ المختلفةِ، إذْ لا يُمكنُ أَنْ يُتَنَازَلَ عَنِ السياقِ - كما رأينا في

الأطروحة وفي الفصل الثالث تحديداً- لِيُسَعِفَ هؤلاءِ النُّحاةُ مِنْ تفسِيرِ ظاهرةٍ لغويّةٍ ما أو تحليلِ أسلوبٍ ما، أو تبيينِ نمطٍ لسانيّ "غَيَّرَ معهودٍ"- للوهلة الأولى- في كلامِ العربِ وعُرفِهِمْ، وبالتالي نرى أَنَّهُ لَيْسَ بوسِعِ النُّحاةِ والمفسِّرينَ أَنْ يدرسوا التَّراكيبَ القرآنيّةَ بِمَعَزَلٍ عَنَ سياقاتِها المتعدِّدة. وإنَّ دَلَّ ذلكَ على شَيْءٍ فإنَّما يَدُلُّ على أهميّةِ "السِّيَاقِ" كثيمةٍ حاسمةٍ في فَكِّ الشِّيفراتِ والرموزِ الَّتِي قَدْ تَسْتَعْصِي وتُسْتَعْلَقُ على كثيرٍ مِنَ الباحثينَ والدَّارسينَ؛ وذلكَ بِمَا لدى "السِّيَاقِ" مِنْ دَوَرٍ فاعِلٍ ونَشِطٍ في تحديدِ الوجهةِ النُّحويّةِ هذِهِ أو تِلْكَ، وبما لدى السِّيَاقِ مِنْ قُوَّةٍ تأثيريّةٍ في تأويلِ المعنى النُّحويِّ.

وبناءً على ما تَقَدَّمَ، أُسْتَطِيعَ القولُ إِنَّ مِنْ معاني "السِّيَاقِ النُّحويِّ" المعنى النُّحويِّ، أيَّ إِنَّ "السِّيَاقَ" بمفهوميهِ الكلِّيِّ يعني "المعنى"؛ فسياقُ التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ مثلاً هو- في حقيقةِ أمرِهِ- معنى التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ في هذا التَّركيبِ أو ذاكِ، أو بكلماتٍ أدقَّ: هو المعنى الَّذِي جيءَ (= سِيَقَ) بِهِ مِنْ أَجْلِ فَهْمِ علَّةِ التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ؛ وعندئذٍ يُكشَفُ عَنَ العلاقاتِ في التَّراكيبِ بَيِّنَ الكلماتِ- مكوّناتِ الجملةِ؛ لِيَتَّضِحَ لَنَا معنى التَّركيبِ- وبذلكَ كانتِ الدَّائرةُ الكبرى الَّتِي تحوُّمُ حَوْلَ "السِّيَاقِ" هو "المعنى":



وَقَدْ وَضَّحَ عبدُ القاهرِ الجرجانيُّ هذه العلاقةَ الجامعةَ بينهما- خلالَ قناةٍ عِلْمِيَّةٍ النُّحُوِّ والإعرابِ في كَشْفِ ما غَمَضَ مِنَ النُّصُوصِ، وإيضاحِ المعاني الكامنةِ فيها، وجَعَلَ النُّحُو- لا سِيَّما في نظريّةِ النِّظْمِ- معياراً "لا يَتَبَيَّنُ نقصانُ كلامٍ ورجحانُهُ حَتَّى يُعْرَضَ عَلَيْهِ... ولا يُعْرَفُ صحيحٌ مِنْ سقيمٍ حَتَّى يُرْجَعَ إِلَيْهِ..."¹.

¹ الجرجاني، دلالة الإعجاز، 28.

وَنَجِدُ فِي هَذَا الصَّدَدِ إِحْسَانَ عَبَّاسٍ يُؤَكِّدُ أَنَّ الْجُرْجَانِيَّ نَزَعَ، فِي نَظَرِيَّةِ النَّظْمِ (السِّيَاقِ)، الْمَرْيَّةَ عَنِ اللَّفْظَةِ فِي التَّأثيرِ كَلْفَظَةً مُسْتَقَلَّةً؛ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْغَرَضُ¹ الَّذِي سَيَقُ لَهُ الْكَلَامُ، وَهَذِهِ - كَمَا يُشِيرُ عَبَّاسٌ - مَرْيَّةُ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ؛ إِذْ دَفَعَهُ التَّفَكُّيرُ اللَّعْوِيُّ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ "مَعْنَى الْمَعْنَى" The Meaning of Meaning أو مَا فَوْقَ مَعَانِي النَّحْوِ²، وَرَأَى الْجُرْجَانِيُّ عَبْرَ هَذِهِ التَّصَوُّرِ - كَمَا يُؤَكِّدُ أَحْمَدُ زَكِي كَمَالٌ - أَنَّ الْمَعْنَى هِيَ نَهَائِيَةُ الشُّوْطِ فِي عِلْمِ النَّحْوِ الَّذِي يَبْدَأُ بِالْكَلِمَةِ وَيَتَوَقَّفُ عِنْدَ الْجُمْلَةِ³.

وَمِنْ ثَمَّ، يَرَى سَامِي عِبَابَنَةُ أَنَّ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ كَانَ مُشْغُولًا بِالْمَعْنَى أَكْثَرَ مِنْ انْشِغَالِهِ بِاللَّفْظِ؛ بِسَبَبِ أَنَّ عَمَلِيَّةَ "النَّظْمِ" تَتَلَخَّصُ بِالْأَسْلُوبِ الْمُرْتَبِطِ بِالْمَعْنَى، نَحْوَ قَوْلِنَا: "رَأَيْتُ الْأَسَدَ"، وَ"لَقِيتُ اللَّيْثَ" إِذْ إِنَّ صُورَةَ الْمَعْنَى - كَمَا يَرَى الْجُرْجَانِيُّ - لَمْ تَتَغَيَّرْ بِتَغْيِيرِ اللَّفْظِ مَا دَامَ النَّظْمُ وَاحِدًا⁴، وَهَذَا يَتَّفَقُ - تَمَامًا - مَعَ طَرَحِهِ لِلْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ⁵.

- إِضَافَةً إِلَى جُهودِ النُّحَاةِ وَالْمُفَسِّرِينَ الْقَدَمَاءِ فِي مُعَالَجَةِ قَضَايَا السِّيَاقِ، فَقَدْ جَاءَتْ جُهودُ النُّحَاةِ وَاللِّسَانِيِّينَ الْمُحْدَثِينَ مُسْتَقَلَّةً بِشَكْلٍ أَوْضَحَ، وَذَلِكَ لِعَوَامِلَ عِدَّةٍ، أَهْمُهَا تَسَارُعُ تَطَوُّرِ الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَسَعْيُهَا فِي تَحْدِيدِ الْحُقُولِ الْمَعْرِفِيَّةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَدَاخُلِهَا. وَقَدْ كَانَتْ نَظَرِيَّةُ فِيرْثِ "السِّيَاقِيَّةِ" مِنْ بَيْنِ أَكْثَرِ النِّظَرِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ ائْتِشَارًا فِي دِرَاسَةِ الْمَعْنَى دِرَاسَةً سِيَاقِيَّةً، فَالْمَعْنَى عِنْدَ فِيرْثِ هُوَ الْأَخْذُ بِالْحَسْبَانِ الْأَقْوَالِ، وَالْأَشْخَاصِ، وَالْمَوْقِفِ الَّذِي تُسْتَعْمَلُ فِيهِ اللَّغَةُ كَالصَّمْتِ وَالضَّحْكِ وَالْإِشَارَةِ، وَهُوَ - أَيُّ الْمَعْنَى - سُلُوكٌ اجْتِمَاعِيٌّ؛ وَبَنَاءٌ عَلَيْهِ فَإِنَّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ اسْتِعْمَالِهَا فِي اللَّغَةِ، أَوْ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ بِهَا، أَوْ الدَّورِ الَّذِي تُؤَدِّيهِ؛ وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْكَلِمَةَ الْمَعْرُوزَةَ عَنِ السِّيَاقِ لَهَا مَعْنَى عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ فِيرْثُ بِنَوْعَيْنِ مِنَ السِّيَاقِ: سِيَاقِ الْحَالِ، وَسِيَاقِ الْمَقَامِ⁶.

¹ إِحْسَانُ عَبَّاسٍ، فَنَ الشَّعْرِ (بِيرُوت: دَارُ صَادِرٍ، 1996)، 163.

² أَمَانِي بَسْبِيسُو، إِحْسَانُ عَبَّاسٍ وَجُهودُهُ، 218-219.

³ أَحْمَدُ كَمَالٌ، النِّقْدُ الْأَدَبِيُّ الْحَدِيثُ، 140.

⁴ الْجُرْجَانِيُّ، دَلَالُ الْإِعْجَازِ، 484.

⁵ عِبَابَنَةُ، التَّفَكُّيرُ الْأَسْلُوبِيُّ، 96.

⁶ أَنْظَرُ إِلَى تَعْرِيفِ ذَلِكَ وَتَفْصِيلِهِ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي.

- جزأً كثيرٌ من علماء اللغة القدماء والمحدثين "السياق" إلى نوعين - كعلامة فارقة: السياق الداخلي (اللغوي) - Context of Verbal Context (Linguistics Context)، والسياق الخارجي (غير اللغوي) Situation، وقصدوا من ذلك التفريق بين ما هو لغوي خالص وبين ما هو غير لغوي لا يندرج تحت المستويات اللغوية المعروفة، وهو ما تبناه فيرث Firth وبعض اللسانيين في العصر الحديث. ولكي أرى أن هذه الرؤية هي رؤية اجتزائية لا تمثل منطلقاً نظرياً يُراعي المميزات السياقية، وأن هذين المصطلحين يحتاجان إلى منجهما "فرصة" بحثية أكبر، ومساحة أوسع من التعليل أولاً، ومن الاستخدام ثانياً، ولعلي بذلك أخالف كثيراً من اللغويين، ولكي أعتقد أنه من غير الإنصاف - أو من غير الدقة - أن نستبعد مناحي ومستويات "سياقية" هي في الأساس التي تحكم وتتحكم في مبنى الجملة أو التركيب، بل لولاها لما استطعنا أن نفهم بعض الظواهر اللغوية، فمثلاً، في قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ...} ¹ ليس بمقدورنا أن نستوعب استيعاباً نحويّاً شاملاً دون استحضار "السياق الخارجي" الذي أثر في تركيب هذه الجملة! ² إنَّ الباعث الحقيقي الذي أقام حقيقة العلاقات بين أجزاء هذه الجملة هو "السياق النفسي"، وكذلك "السياق الاجتماعي"، وكذلك "السياق الثقافي"... وكلها "سياقات خارجية غير لغوية في عُرْف الكثير الكثير من اللغويين، لكن الحقيقة خلاف ذلك، إنما هي في صلب "السياق الداخلي - اللغوي"؛ وهو ما لم يتنبه إليه فيرث Firth وأصحاب هذا الرأي، لذلك فإنه لا سبيل إلى تجاوز هذه المستويات السياقية - بكلّ تجميعاتها وتشكلاتها - من أجل فهم "التغيرات الإعرابية" التي هي تغيرات (سلاماً / سلام) أثير بها ليس بواسطة العامل المحذوف (الفعل)، إنما - أيضاً - بسبب الظروف السياقية المحيطة بهذا الحدث، وبسبب الدوافع النفسية والثقافية المتمثلة في قصة الآية وما لها من "سياق سابق" و"سياق لاحق"، فجبلت - إن جاز لي التعبير - خلاهما المكونات اللغوية لهذه الآية.

ولعل هذا الأمر ينسحب على كثير من الشواهد النحوية في النص القرآني وفي غيره، ف"الكيان اللغوي" إنما هو موجود في عالمنا - دون الخوض في مسألة توقيفية اللغة أو اصطلاحيتها - من أجل إدراك علاقاتنا بكلِّ

¹ القرآن الكريم: هود، 69.

² أنظر إلى عرض سياق هذه الآية وتفسيره في الفصل الثالث.

ألوانها ومضامينها وثقافتها... إلخ، عبر قناة "العالم اللغوي" هذا؛ إذ إن جميع الحالات الموضوعية لشؤوننا، وجميع العلاقات الذاتية مع الأفراد والمجتمع والتاريخ البشري قائم على أساس لغوي ذي معنى، وجدناه أم لم نجد. فالطابع اللغوي مرتبط دائماً وأبداً- كما يقول روديجر بوبنر Rüdiger Bubner- بالفهم، ما دام المعنى الذي تنقله لنا اللغة لا يصير ملموساً إلا على هذا النحو؛ لأن الوجود الذي يمكن أن يكون مفهوماً أولاً هو اللغة¹. فالمعنى ليس ثابتاً ولا محدداً²- كما يقول فيتغنشتاين Wittgenstein - بل نحن الذين نوجده ونخلقه في تصوراتنا للأشياء، وبناءً عليه فإن التراكيب النحوية ليست قوالب جاهزة جامدة "روتينية"، بل إن "السياق النحوي"، وبما فيه من ديناميّة متحركة متجددة، هو الذي يُحرّك الكلمات والألفاظ، ويصوغ ألوان الجمل المختلفة، ويُعلن- مُسبّقاً في غياب الدّهن- عن التقديم لأهميته، والتأخير لتأكيده ورؤيته، والحذف لتحفيز المتلقي واستكناه المعنى بعدم اللَّفْظ... وهلمّ جرّاً.

- وانطلاقاً ممّا أشرّنا إليه سابقاً، بخصوص نظرية فيرث، يتبيّن لنا أنّه على الرّغم من شهرة نظرية فيرث لدى اللسانيّين الغربيّين والعرب إلا أنّها لم تُقدّم نظريّة شاملة للتّركيب اللّغويّ؛ حيث اكتفى فيرث فقط بتقديم نظرية للجانب الدلاليّ Semantics علماً أنّ المعنى يجب أن يُؤخّذ مُركّباً من العلاقات السياقية للأصوات والشكل (الصّرف) والنّحو.

- اعتقد أنّه من الإنصاف أن نُقرّ بجهود النّحاة القدماء في تحليلية معنى "السياق النّحويّ" في الجملة، فقد ظهر ذلك كما أشرنا سابقاً بوضوح- عند سيويّه في مسمياته المختلفة، وعند عبد القاهر الجرجانيّ في نظرية "النّظم" وعند غيرهم الكثير من النّحاة، فلم ينظروا إلى القواعد النّحويّة نظرةً سطحيّةً تتعلّق بترتيب الجملة وأنواع التّراكيب فحسب، بل نظروا إليها نظرةً عميقة حيث استطاعوا أن ينفّخوا على العلاقات الدلالية بين المفردات والتراكيب،

¹ روديجر بوبنر، الفلسفة الألمانية الحديثة (القاهرة: دار الثقافة، 1988)، 81.

² صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، 21.

ولم يحصروا كذلك الوظيفة النحويّة على ترتيب الألفاظ فقط، وإنما تجاوزوا ذلك إلى دراسة ما تحمّله هذه القواعد من وظائف دلاليّة ذات صلة بالسياق النحويّ-اللغويّ، وهو ما وصّفه تمام حستان، في معرض حديثه عن تفكير النحاة القدماء، جهداً عقليّ من الطراز الأوّل لا سيّما في بيان مكان الظواهر السياقيّة من بناء الهيكل النحويّ¹. لقد استطاع سيبويه أن يحافظ على مفهوم "السياق" حتّى وإن لم يُصرّح به بصريح اللفظ، آخذاً بالحسبان العلائق الجامعة بين مركّبات الجملة التي من شأنها أن تُحدّد بنية الخطاب وعناصره اللغويّة²، ومُعلياً شأن "المعنى" فوق "الإعراب" نفسه، وبالتالي لم يعزل المَثَلُ اللغويّ عن سياقه، كما فعل كثير من النحاة؛ ذلك لأنّ هذا العزل هو بمنزلة فصله عن ماء حياته- على حدّ قول إدريس مقبول- فلنكم هي المواقف التي تمرّ بنا أثناء إعراب شواهد قرآنيّة أو شعريّة، تلبّلت فيها الألسن، واضطربت الآراء، ومرّد ذلك أنّها معزولة عن سياقها العامّ في النصّ القرآنيّ أو القصيدة المنظومة؛ لهذا، فإنّ "التسييق"- كما يُسمّيه مقبول- لا يختصّ بالجانب اللسانيّ فحسب، بل يتعدّاه إلى مستوى آخر أكبر ومجاوِز، وهو السياق المقامي³.

إضافة إلى هذا، فقد تنبّه سيبويه لـ "سياق الحال"، فرأينا أنّه يُوظّف ذلك الأمر خلال حكمه على الجملة الواحدة بالصواب مرّة وبالخطأ مرّة، إذا استعملت في غير سياقها الذي ولدت فيه ووُضعت له، نحو جملة "أنا عبد الله منطلقاً...."⁴، وبهذا، فإننا- كما يُشير نهاد الموسى- نلاحظ أنّ سيبويه قد عنيّ بآثر المتغيّرات الخارجيّة كالمتكلم وموقعه الخاصّ من كلّ من العنصرين في اختيار أحد وجهين جائزين في مقياس النحو، وواضح من ذلك أنّه يرسم لمُتحدّثي اللغة أن يساوّفوا المتغيّرات الخارجيّة والوجوه الجائزة المناسبة عند استعمال اللغة⁵.

وعليه، فإننا لو قارنا هذا الطرح السيبويهيّ بما تذهب إليه بعض المدارس اللسانية الحديثة على أنّ المتغيّرات الخارجيّة إنّما تُؤثّر في اللغة في تلك المواضع التي يُبيح فيها التركيب النحويّ الاختيار، أي يدخلها في سعة الجواز، فإنّ سيبويه- على حدّ قول نهاد الموسى- يبدو كأنما كان رائداً لهذا النهج منذ اثني عشر قرناً⁶.

¹ تمام حستان، الأصول، 9.

² Carter, "An Arab Grammarian of the Eighth Century", 149.

³ إدريس مقبول، الأفق التداولي: نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية (إربد: عالم الكتب الحديث، 2011)، 78.

⁴ أنظر: الفصل الأوّل من هذه الأطروحة في "مصطلح السياق عند اللغويين" لدى حديثنا حول مفهوم "السياق" عند سيبويه.

⁵ نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، 93.

⁶ الموسى، نظرية النحو العربي، 93؛ العوادي، سياق الحال، 55-56.

وَلَعَلَّ هَذَا الْأَمْرَ يُدَكِّرُنَا - إِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ - بِأَحْدَى مُعَالَجَاتِ "التَّداوُلِيَّةِ" Pragmatics فِي اللِّسَانِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ، الَّتِي تَرَى فِي "التَّداوُلِيَّةِ" عِلْمًا تَوَاضِعِيًّا يَهْدَفُ إِلَى دَرَاةِ الظَّوَاهِرِ اللُّغَوِيَّةِ فِي مَجَالِ الِاسْتِعْمَالِ¹، وَبِالتَّالِي فِيهِ - أَيْ "التَّداوُلِيَّةِ" - دَرَاةِ الْأَسْوَاقِ الَّتِي نَسْتَطِيعُ بِهَا التَّعَرُّفَ لَمْ تَكُنْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْجُمَلِ شَادَّةً تَدَاوُلِيًّا؟، أَوْ - كَمَا يُشِيرُ مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ نَحْلَةَ - تُعَدُّ فِي الْكَلَامِ الْمُحَالِ، كَأَنَّ يُقَالُ مَثَلًا: "أَرَسَطُو يُونَانِيٍّ لَكُنِّي لَا أَعْتَقِدُ"، أَوْ يُقَالُ: "أَمْرُكَ أَنَّ تُخَالِفَ أَمْرِي"، أَوْ يُقَالُ: "الشَّمْسُ لَوْ سَمَحَتْ تَدَوَّرُ حَوْلَ الْأَرْضِ"، فِيهِ بِذَلِكَ دَرَاةٌ لِللُّغَةِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ وَظَيْفِيَّةٍ². وَهَذَا فَعَلًا مَا تَطَرَّقَ إِلَيْهِ سَبِيوِيَّةٌ قَدِيمًا وَدَرَجَ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ لَكَثِيرٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ وَالتَّرَاكِبِ اللُّغَوِيَّةِ فِي كِتَابِهِ "الْكِتَاب".

وَيَجْدُرُ بِي أَنْ أَشِيرَ هُنَا إِلَى دَوْرٍ سَبِيوِيَّةٍ فِي النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ إِذْ ظَلَّ "الْكِتَابُ" عَلَى مَدَى قُرُونٍ طَوِيلَةٍ الْمَصْدَرُ وَالْمَرْجِعُ الرَّئِيسُ الَّذِي يَسْتَقِي مِنْهُ النُّحَاةُ مَا دَتَّهْمُ اللُّغَوِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ، وَبِالتَّالِي كَانَ لِسَبِيوِيَّةِ تَأْثِيرٌ بِشَكْلِ وَاعٍ وَغَيْرِ وَاعٍ فِي أَذْهَانِ وَطَرَائِقِ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ النُّحَاةِ، خَاصَّةً أَهْمُ أَفَادُوا مِنْ تَجْرِبَتِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْمَادَّةِ الْعِلْمِيَّةِ (اللُّغَوِيَّةِ)، وَلَعَلَّنَا نَذْهَبُ إِلَى أَنَّ نَمَّةَ نَحَاةٍ كَثِيرِينَ أَفَادُوا وَأَخَذُوا عَنْ سَبِيوِيَّةِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُشِيرُوا إِلَى ذَلِكَ فِي مَوَاطِنَ عَدِيدَةٍ بِقَصْدٍ أَوْ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ عِنْدَهُمْ³.

وَبِنَاءً عَلَى تَصَوُّرِي، فَإِنَّ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ اسْتَطَاعَ أَنْ يُقِيمَ نَظْرِيَّةً مُتَكَامِلَةً فِي "السِّيَاقِ التَّحْوِي" بِمَا عُرِفَ فِيهِ حِينَئِذٍ بِ"النَّظْمِ"، فَقَدْ ذَهَبَ رَابِعُ بْنُ خُوَيْه - وَغَيْرُهُ الْكَثِيرُ - بِمَا يَدْعُمُ رَأْيَنَا هَذَا مُؤَكَّدًا أَنَّهُ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - فِي ضَوْءِ نَظْرِيَّةِ "النَّظْمِ" يُخْرِجُ الْجُرْجَانِيُّ الْأَفْظَاظَ الْمَفْرَدَةَ مِنْ أَنْ تَسْتَحِقَّ فِي ذَاتِهَا أَيْ وَصْفٍ يُضْفِي عَلَيْهَا، وَهِيَ خَارِجُ تَرْكِيبٍ بَعِيْنِهِ، وَمِنْ نَمَّ يَسْلُبُهَا كُلَّ مَرْبَةٍ وَفَضْلٍ مَا لَمْ تُؤْلَفْ مَعَ غَيْرِهَا فِي "سِيَاقٍ" مَا؛ فَالتَّرْكِيبُ أَوْ التَّأْلِيفُ مَعْنَاهُ: أَنَّ قَوَانِينَ النَّحْوِ تَتَوَلَّى إِدْخَالَ الْأَفْظَاظِ فِي عِلَاقَاتٍ سِيَاقِيَّةٍ مُمْكِنَةٍ وَمُحْتَمَلَةٍ، فَبَعِيرُ قَوَانِينِ النَّحْوِ تَظَلُّ الْأَفْظَاظُ فِي اللُّغَةِ مُجَرَّدَ دَوَالٍ وَظَيْفِيَّةٍ اصْطِلَاحِيَّةٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ هَذِهِ الدَّوَالُ أَسْمَاءً أَمْ أَفْعَالًا أَمْ حُرُوفًا. لَذَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ - بِطَرِيقَةٍ مُعَاَصِرَةٍ - إِنَّ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ كَانَ عَلَى وَعْيٍ تَامٍ بِالْفَارِقِ بَيْنَ اللُّغَةِ Langue

¹ صَحْرَاوِي، التَّداوُلِيَّةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ، 16.

² مُحَمَّدٌ نَحْلَةُ، أَفَاقُ جَدِيدَةٌ فِي الْبَحْثِ اللُّغَوِيِّ الْمُعَاَصِرِ، 11-12.

³ عَبْدُ الْقَادِرِ حُسَيْنٍ، أَثَرُ النُّحَاةِ فِي الْبَحْثِ الدَّلَالِيِّ، 91.

والكلام Parole، الذي أرسى دعائمه اللساني دي سوسير De Saussure وطوّره نوعام خومسكي Noam Chomsky في تفرّقه بين الكفاءة اللغوية Competence والأداء الكلامي Performance¹. وهذه التفرقة هي تفرقة ضمنية في فكر عبد القاهر الجرجاني، يهتدي إليها عن طريق الاستنباط لا بصريح اللفظ من خلال عرّضه لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ومعانيه وسياقه الذي وُضع فيه².

كما أنّ الجرجاني خلال هذه الرؤية يُحيلنا إلى الفروق على مستوى التراكيب والأساليب، ومردّ هذه الفروقات هو "السياق"، فحينما وُحّد الجرجاني بين "النظم" و"علم النحو"، فإنّ علم النحو عنده ليس هو القوانين التحويّة المعيارية تلك التي يتحدّد بموجبها الخطأ والصواب في الكلام. ومن يُدقّق فيما عرّض له الجرجاني يلاحظ أنّ "علم النحو" هو، في الحقيقة، الذي يفصل بين الأساليب المختلفة على مستوى الأداء الكلامي، والتي بدورها- تتساوى في النحو المعياري، ولكن هذه الفروق في التراكيب هي فروق في الدلالة (معاني النحو) التي تُحوّل الكلام من مستوى إلى مستوى، وهي مدار المعنى التحوي ودلالته³.

- على الباحث أنّ يُنقّب عن روافد المعنى التحوي في التراكيب المختلفة؛ إذ ليس النحو وحده هو الذي يمدّد الجملة بمعناها، بل إنّ القرائن والسياقات المتعدّدة- من قرائن مقالية وحالية- تُسهّم كلّها في بيان المعنى⁴، لا سيّما أنّ الدرس اللساني الحديث أصبح ينزّع إلى عدم التفرقة بين الجانب التحوي والجانب الدلالي؛ فعُدّت بذلك الدلالة جزءاً من النظرية التحويّة لا تنفك عنها. ولعلّ هذا يُدكرنا بما أشار إليه بروس ليلس Bruce Liles بأنّ النحو يَنظُم على ثلاثة مكوّناتٍ أساسية، وهي:

¹ الكفاءة اللغوية Competence هي مصطلح يعني نظام اللغة الكلّي في ذهن أبنائها جميعاً، ويُمثّل الأفراد جزئياً أو ضمناً، وهي ملكة خاصة يملكها أبناء اللغة الذين نشأوا وتربّوا عليها. وأمّا الأداء الكلامي Performance فيعني طريقة تنفيذ الفرد وأسلوب استعماله للغة؛ كهدف للتواصل في المواقف المختلفة. وهذا يعني أنّ الكفاءة تجسّد كامل لنظام اللغة عند جميع أفراد الجماعة اللغوية، وأنّ الأداء الكلامي هو مجموعة الجمل التي ينطقها الأفراد تبعاً لظروف الاتصال اليومية.

² راجع بن خوية، مقدمة في الأسلوبية، 15-16؛ حامد، الشكل والدلالة، 25.

³ بن خوية، مقدمة في الأسلوبية، 16-17.

⁴ عبد اللطيف، النحو والدلالة، 27؛ 47.

1. المكوّن التركيبّي الَّذي يحتوي على بناء العبارة والقواعد التحويليّة الّتي تُشترطُ لبناء الجملة.
 2. المكوّن الدّلالي الَّذي يعملُ وفقًا للعناصر الّتي يمكنُ نطقها في الجملة مستقلّةً (ويُرمزُ إليها بـ) بُعد المواد المعجميّة المختارة من المعجم الّتي تمنحُ الجملة معناها.
 3. المكوّن الصّوتي الَّذي يُشكّلُ الجملة بعد كلّ العمليّات التحويليّة الّتي تُطبّقُ، ويمنحُ الجملة صيغتها النّهائيّة¹.
وبالتّالي، بوسّعنا تحديدُ المحاور الرّئيسيّة الّتي يستندُ إليها المعنى النّحويّ فيما يلي:
- أ- الوظائف النّحويّة الّتي تجمّع بينها علاقاتٍ أساسيّةٍ تمثّلُ المنطوق بالمعنى الأساسيّ، وهذا ما يمكنُ أن نُطلق عليه "البنية الأساسيّة للجملة" كـ [الفعل + الفاعل] و[المبتدأ + الخبر] على سبيل المثال.
- ب- المفردات الّتي يتمُّ اختيارها؛ لشغلِ الوظائف السّابقة.
- ت- العلاقات الدّلاليّة المتفاعلة بينَ الوظائف والمفردات.
- ث- السّياق الَّذي ترُدُّ فيه الجملة².

- وتوافقًا مع ما ذُكر سابقًا، نستطيعُ أن نؤكدَ أنّ مفهوم "السّياق" - لا سيّما عندَ المفسّرين والنّحاة القدماء - ارتبطَ ارتباطًا وثيقًا بجملة القرائن المقاميّة والقوليّة الّتي من شأنها أن تُنتج النّصّ، وتعملَ على تحديد الدّلالة فيه من خلال الكُشف عن مقصود المتكلّم³؛ فَصَرَّفُوا نَظَرَهُمْ إلى الاعتناء بأسباب نزول الآيات، ومكّيها ومدّيها، والمقامات الّتي حُقّت بالسّورة القرآنيّة كُلِّها. كما اعتنوا شديد العناية بالألفاظ ونجاورها ومناسبة توليفها، وبمقاصد التّراكيب والسّياقات الّتي قيلت فيها؛ عبّرَ اجتهداهم المكنّف في معرفة مقتضيات سياق الحال، وسياق الخطاب القرآنيّ بما يتفاعل فيه قنوات متشابكة كالمخاطب والمخاطب، وكذلك خلال معالجاتهم في استنباط المعنى المُراد، واستيضاح الدّوافع الّتي تقفُ من وراء هذا التّركيب أو ذاك، نحو دافع الاستفهام، أو الشّروط، أو الأمر، أو المدح، أو الذّم... وأشباهها من الدّوافع الّتي "تَنَحَّكُم" (بين مزدوجين) بأشكال الكلام من تقديم وتأخير، وذِكْرٍ وحذفٍ،

¹ Bruce L. Liles, *An Introductory Transformational Grammar*, 30.

² عبد الطّيف، النّحو والدّلالة، 41؛ 46.
³ الجلاصي، النّصّ والتّأويل، 35.

وجملة اسمية وفعلية، وماضي ومضارع... وعبرها من الأشكال الكلامية التعبيرية. وكنيجة إلى هذا، يترتب لدينا مفهوم جديد في تداول "السياق"، وهذا المفهوم يتمثل بـ "الباعث" الذي صيغت عليه الجملة وتركبت منه، بمعنى أنه بوسعنا أن نعدّ "البواعث اللسانية" Linguistic impulses أو "الحوافز النحوية" Syntactic incentive - إن جاز لي أن أسميها بذلك - جزءاً من "السياق" إن لم يكن مُرادفاً له، كما هو الأمر بالنسبة إلى "القرينة"، و"المقام"، و"المقصد"... وعبرها من المسميات.

- لقد اهتم كثير من المفسرين بالسياق أثناء معالجتهم التفسيرية للنص القرآني، ويظهر هذا جلياً في أمور عدة مجتمعة، منها: استنباط المعنى النحوي من خلال العلاقات المترابطة بين الآيات في السورة الواحدة، وكذلك بين الآيات في السور المختلفة. وتحديد هذا المعنى النحوي المتمثل بـ "الإعراب السياقي" - إن صح التعبير - خلال علوم متداخلة اشتراطها المفسرون في المفسر كأن يكون عالماً بعلوم العربية كافة، والقراءات القرآنية التي بها يُعرف كيفية النطق بالقرآن، وبترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض، ومعرفة أسباب النزول التي تمثل سياق الحال للآيات والسور بما فيها من أحداث ووقائع ملازمة للنص القرآني. ومعرفة المكّي والمدني من السور والآيات بما فيها من خصائص تُميز إحداها عن الأخرى. وإن دلّ هذا فإتّما يدلّ على إدراك المفسرين الواعي لعناصر السياق، بكلّ مكوناتها، وأثرها في الكشف عن المعنى النحوي والوصول إلى الوجه الدقيق¹.

- في معرض كلامنا عن "التفسير السياقي" وما له من علاقات جامعة بدلائل السياقات النحوية في النص القرآني أود أن أؤكد أنّ نظرية "السياق النحوي في النص القرآني" تستلزم من الباحث والدارس في هذا المجال أن يلتفت إلى حقيقة علمية هامة جداً، وهي تفسير القرآن بالقرآن، بمعنى أنه ينبغي أن نزاح بين الآيات القرآنية؛ كي نُحكّم حلقة الفهم الصائب للسياق؛ فالسياق - كما عرفناه - هو الجوّ العام والخاص بكلّ الذي يحيط بالجملة والتراكيب، ودون معرفة هذا السياق، وما الداعي أو الفكرة التي تقف وراء هذا التركيب أو ذاك، لا يمكن "تشخيص"

¹ حسان، اللغة العربية، 337.

و"تسييق" - إن جاز لي التعبير - المعاني السياقية - التحويلية بدقّة متناهية؛ لتكشف لنا الغموض الذي قد يكتنف بعض التراكيب أو الكلمات.

ولعليّ - بهذا الكلام - أقارب لمسألة "التفسير الموضوعي" الذي يسعى إلى جمع ما تعدّد أو تكرر أو تشابه في النصّ القرآني في موضوع واحد، فيتمّ تفسير القرآن بالقرآن¹، ويتقاطع هذا الأمر مع مسألتين غاية في الأهمية، وهما، أولاً، أسباب النزول ومعرفة المتقدم من المتأخّر منها ما أمكن؛ ذلك حتى يعلم الباحث أن نزول هذه الآية أو تلك كان في أول عهد النزول أو وسطه أو آخره، وأن يدرك إن كانت مكيّة أو مدنيّة. وثانيًا، مراعاة المناسبات التي تعني بفقه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعدّدة، أو بين السورة والسورة، وهو ما يُعرف بـ"علم المناسبة"، وهو أقام عليه - غالبًا - البقاعي تفسيره الضخم الذي يزخر بالحديث عن السياق والنظم والمقام فسمّاه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"². إذن، فالتفسير الموضوعي يُشكّل خطوةً جديّةً، ولبنّة هامة في منظومة "السياق القرآني"³.

- حاولت على امتداد هذه الأطروحة أن أتلمّس خطى تطوّر مصطلح "السياق" تطوّرًا تعاقبيًا وتزامنيًا؛ إدراكًا منّي - منذ عهدي الأول بهذا البحث - أن ثمة مشكلة وإشكاليّة، في الوقت نفسه، في حصر مفهوم مصطلح "السياق" تحت خانة واحدة وضمّن إطار محدّد مُغلّق. ولكنّ الذي "لا إشكال فيه" - على الأقلّ في نظر المُتتبع لمصطلح "السياق" وما تحوّل من ألفاظ وعوالم، أن مصطلح "السياق" نفسه مرّ بسيرة متعاقبة، تداخلت في تكوينه ملاسبات وظروف متباينة، وأنّجست من ثنايا تداولاته ملامح.

لا نريد هنا أن نحسم القضية في قديم السبق لإرساء قواعد نظريّة "السياق" كلّ، و"السياق النحوي" خاصّة، أهو من حظّ القدماء أم المحدثين؟ ولكنّ ما أنوي تسليط الضوء عليه هنا هو أن فهم "المصطلح"، أيّا كان وفي أيّ مجال كان، يُشكّل - برأيي - نصف الاستحواذ على معالجة الموضوع المدرّس، وأما النصف الثاني

¹ عبد المنعم القصّاص، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (القاهرة: [د.ت.]، 1990)، 27.

² أنظر إلى ما يقوله البقاعي في: البقاعي، نظم الدرر، 1: 6.

³ صلاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق (عمّان: دار النفّاس، 2002)، 59.

فهو الطريق الذي يُعمَلُ بها في تداول الموضوع. ولعلّي أَسْتَحْضِرُ، في هذا المقام - ما قاله الشاهد البوشيخي إنّه "لا سبيل إلى استيعاب أيّ علمٍ دون فهم المصطلحات، ولا سبيل إلى تحليل ظواهر أيّ علمٍ دون فقه المصطلحات، ولا سبيل إلى تجديد أيّ علمٍ دون تجديد المصطلحات أو مفاهيم المصطلحات"¹.

وكأنّ الرأْيَ هذا يأخذنا إلى حقيقة أكّدها آنفًا مفادها أنّ استيعاب العلوم ودراسة المسائل والظواهر المعرفيّة، وبالتالي، تجديد الفهم، هي مراحل تستلزم الوقوف عند المصطلحات، وتبيين مفاهيمها، وسرّ أغوارها؛ حتّى تَعُدَّ الطريق إلى الفهم مُعَبَّدَةً أمام الباحث.

ونعني بـ "الفهم" هنا فهم تراث الماضي مع استحضار مفرداته، وفهم مستجدات الحاضر مع تحليل أركانه، وفهم المستقبل مع استشراف آفاقه. لهذا، فلا غرو في أنّ المسألة المصطلحيّة هي جوهر الإشكال - بالمعنى الحقيقي والمجازي، أو الإيجابي والسلبي - إذ تؤدي دوراً فاعلاً في البحث الأكاديمي، وتُجسّد مفتاح النهوض بالعلوم والمعارف إن أُحسن استغلالها.

و"السياق النّحويّ" بهذا المعنى يُعدّ بالنسبة إلى الباحث، أيّ باحث، استقصاءً Investigation لكلّ مكوّنات النصّ ودلالاته²، وممارسة لـ "تحقيق النصّ"³ - بمعانيها الشاملة - وما يتعلّق معه من سياقات وقرائن؛ إذ يُعدّ البحث من هذا المنظور استقصاءً لسيرة مصطلح "السياق" وتطوّره التّأثيليّ والتّاريخيّ واللّسانيّ؛ لأنّ "السياق" هو مجموعة من سيّورة روابط Process of Connections - إن صحّ التعبير.

- خلال عَرْضنا لهذه الأطروحة "اصطدمنا" - بالمعنى الإيجابي - بمشكلة كان لا بُدّ أن نُبيّن مفهومها وعلاقاتها، وهي تعدّد تسميات المصطلح الواحد، وهي تسميات تسيّر في خطّ واحد مواز لمصطلح "السياق" بشكلٍ وآخر،

¹ الشاهد البوشيخي، نظرات في المصطلح والمنهج، 15.

² Otto Jespersen, *The Philosophy of Grammar*, 264.

³ للتحقيق معانٍ عديدة، منها: طلب التأكّد والمعرفة، وقطع الشكّ باليقين، وإجادة الشّيء، والقراءة المتمهّلة والنطق بحروفها ومخارجها، ووجوب الأمر ولزومه... إلخ.

فَقَدْ رَصَدْنَا تسمياتٍ عدَّةً نحوَ القرينة، والحال، والمقام، والدليل، والمقاصد، والمعنى، والتَّظْم، ومعاني النَّحو... إلخ، وكلُّها تتقاربُ في الدَّلالةِ الأدائيَّة- بمعناها التقريبي- فكانَ لزامًا علينا أن نوطِّرَ لهذه المصطلحات.

- إنَّ عمليَّةَ تفسيرِ ظاهرةِ "السِّيَاقِ النَّحْوِيّ" هي بِحَدِّ ذاتِها- فيما أَطْنُها- محاولةٌ لإعادةِ إنتاجِ هذه الظَّاهرةِ صِناعِيًّا¹؛ حيثُ تبحثُ في خصائصِ الآليَّاتِ الطَّبِيعِيَّةِ المنتجةِ لها والحاكمةِ لأنظمتها الدَّاخِلِيَّةِ والخارجِيَّةِ. ولعلِّي في هذا الطَّرِحِ اسْتَحْضِرُ ذلكَ الرَّأيَ الَّذِي يُفَضِّي إلى أَنَّهُ مِنَ الصَّروَرِيّ ونَحْنُ نبحثُ في هَيْكَلَةِ الجِهَازِ الَّذِي يدرسُ "السِّيَاقَ" وهندستَه أَنَّنْ ننتقلُ مِنْ حَدِّ "واضعي" (بَيْنَ مزدوجَيْنِ) هذا الجِهَازِ لموضوعِ علمِهم، قديمًا وحديثًا؛ لِكُونِ أَنَّ هذا الحَدَّ إِنَّمَا يُمَثِّلُ الجِهَةَ الَّتِي اتَّخَذوها لملاحظةِ تحليَّاتِهِ، ويعكسُ- أيضًا- صورةً عَن تَمَثُّلِهِمْ لَهُ، وَيَحْكُمُ نَهْجَهُمْ في التَّعاملِ والتَّعاطي مَعَ "الجِهَازِ السِّيَاقِيّ" Contextual System- إنْ جازَ لي أَن أُطْلِقَ عَلَيْهِ ذلكَ-؛ حتَّى إذا ما تَمَّ لنا ذلكَ استطعنا أَن نفهمَ المنطقَ الَّذي حَكَمَ طَرِيقَتَهُمْ في هَيْكَلَةِ التَّراكيبِ اللُّغَوِيَّةِ المختلفةِ، وتسقَى لنا- كذلكَ- أَن نتوصَّلَ إلى تحديدِ أركانِهِ وضبطِ حدودِهِ².

- وبما أَنَّ عمليَّةَ تفسيرِ ظاهرةِ "السِّيَاقِ النَّحْوِيّ" محاولةٌ لإعادةِ إنتاجِ هذه الظَّاهرةِ صِناعِيًّا- كما ذَكَرْتُ آنفًا- فَإِنَّ ذلكَ يدفعُنِي إلى أَن أقولَ إِنَّ كُلَّ ما يتعلَّقُ بِفَهمِ السِّيَاقِ والتَّعاملِ مَعَهُ، هو عبارةٌ عَن مَلَكَّةٍ، إِذْ- برأْيي- لا يمكنُ لِمَنْ هو بعيدٌ عَن رُوحِ اللُّغَةِ- أيا كانتِ هذه اللُّغَةُ- أَن يُدْرِكَ سِيَاقَ الكلامِ وما يَعْرضُ لَهُ مِنْ ثوابِتٍ ومتغيِّراتٍ؛ فـ"السِّيَاقُ" مَلَكَّةٌ، ولا أدلَّ على ذلكَ مِنَّا أَكْثَرُهُ ابنُ خلدونٍ على أَنَّ اللُّغَاتِ ما هي إِلَّا مَلَكَاتٌ، وَأَنَّ المَلَكَّةَ لَيْسَتْ بالنَّظَرِ إلى المفرداتِ، وإِنَّمَا هي بالنَّظَرِ إلى التَّراكيبِ، فإذا حَصَلَتِ المَلَكَةُ التَّامَّةُ في تركيبِ الألفاظِ

¹ أعني هنا أَنَّ "السِّيَاقَ"؛ لِكُونِهِ مظهرًا لسانِيًّا قائمًا بذاتِهِ، وَمِنْ خِلالِ الكيانِ النَّحْوِيّ هو صناعةٌ وعِلْمٌ له أركانُهُ وأدواتُهُ. ولا أنكرُ هنا أَنَّ أسْتَوْحِي هذه التَّسميةَ مِنْ ابنِ رَشْدٍ في كتابِهِ "الصَّروَرِيّ في صناعةِ النَّحو"؛ مُلَخِّصًا ما جاءَ في هذا الكتابِ على أَنَّ بنيةَ النَّحوِ العربيّ عندَ ابنِ رَشْدٍ لَيْسَتْ مبنِيَّةً على الطَّرِيقَةِ "الصَّنَاعِيَّةِ" الَّتِي انتهجها جُلُّ النُّحاةِ. إضافةً إلى ذلكَ فَإِنَّ العلومَ اللُّسانيةَ القديمةَ كانتْ تُسَمَّى صناعةً أيَّ علْمًا لَهُ رِجالُهُ وطرفُهُ ومنهجُهُ وفكرُهُ، فها هو ذا- مثلاً- ابنُ خلدونٍ يُشيرُ إلى "صناعةِ" النَّحوِ في "المقدمة" بقوله: "واستنبطوا من مجاري كلامِهِم قوانينَ لتلكِ المَلَكَةِ مطردةً شبه الكليَّاتِ والقواعدِ بقيسونَ علَيِّها سائرَ أنواعِ الكلامِ، ويلحقونَ الأشياءَ بالإشياءِ؛ مثلاً أَنَّ الفاعلَ مرفوعٌ، والمفعولُ منصوبٌ، والمبتدأُ مرفوعٌ. ثم رَأَوْا تَغْيِيرَ الدَّلالةِ بتَغْيِيرِ حركاتِ هذه الكلماتِ، فاصطلحوا على تسميتهِ إعرابًا، وتسميةِ الموجبِ لذلكِ التَّغْيِيرِ عاملاً، وأمثالَ ذلكِ. وصارت كُلُّها اصطلاحاتٍ خاصَّةً بِهِم، ففَيَدُوها بالكتابِ وجعلوها صناعةً لَهُم مخصوصةً، واصطلحوا على تسميتها بعلمِ النَّحو...". انظر: ابن خلدون، المقدمة، 546.

² بِسْمَةِ الشُّكْلِيّ، المنوالِ البلاغيّ العربيّ من البناءِ القائمِ إلى البناءِ الممكن، 41.

المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطابق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية في إفادة مقصود السامع¹.

وفي كثير من الأحيان يجد القارئ أو المتلقي نفسه أمام محاولة لفهم تركيب نحوي معين وقد فقد هذا التركيب رمزاً أو دلالة أو سياقاً معيناً لم يذكر أثناء هذه الجملة، وبالتالي تتوقف دلالة السياق فيها على المخاطب وإدراكه لما حذف من خلال السياق، فقد ذكر سيوييه أنه سأل الخليل بن أحمد عن قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}²، أين جواؤها؟... وعبرها من الآيات، فقال: "إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام"³. ولعل في كلام سيوييه وابن خلدون تلميحاً واضحاً على أن "السياق" هو في حقيقته ملكة لغوية.

وهذا أيضاً ما أشار إليه كريم الخالدي من النحاة المحدثين، حينما رفض فكرة تقدير المحذوفات ومقترحاتها بديلاً معنوياً يفهم من سياق الكلام وإيحائه، مبيناً أن طبيعة المخاطب، وأحواله، ودكائه، ومعرفته، وعلمه، وما يدور حوله، وحالاته النفسية والثقافية هي أمور تُعين في الإيحاء بالمعنى المقصود في الأنماط التي تكتفي بركن من الكلام أو فضلة لتستغني عن الأركان المستغنى عنها عن ذكرها؛ لإيحاء هذه الأمور وعبرها بذلك المعنى، وبناء عليه فإن كل كلام عن الحذف والتقدير خيال ووهم لا يرتضيه الحس اللغوي، ولا يلائم مقتضيات الأساليب العربية البليغة⁴.

- يتجاذب كل من التركيب والسياق في رسم الصورة التحويية للنص، أيًا كان هذا النص، فمن جهة يُشترط في التركيب الإفادة؛ كي نُطلق عليه تركيباً نحوياً، ومن جهة ثانية يُشترط في السياق أن "يخلق" كل ما جاء عليه التركيب بمستوياته اللغوية المتكاملة: الصوتي، الصوري، التحوي، الدلالي، البلاغي، السيميائي... إلخ؛ كي يكون

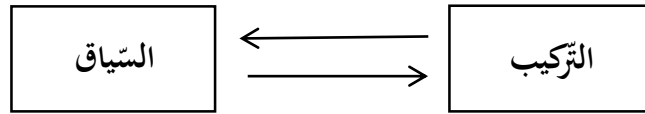
¹ ابن خلدون، المقدمة، 490.

² القرآن الكريم، الزمر، 73.

³ سيوييه، الكتاب، 3: 103.

⁴ الخالدي، البديل المعنوي، 173.

التركيب مفيداً والسياق مؤثراً تأثيراً إجرائياً. وهذا يعني أنَّ السياق هو المؤثر على أداء التركيب، وهو ما يمكنني أن أُطلق عليه - إن جاز لي ذلك - "التأثير السياقي" Contextual Influence؛ فهو "الحاكم" أو "المقرر" (يُنْزِلُ مزدوجين) في تشكلات التركيب التحويلي أثناء ربط الكلمات بعضها ببعض، وأثناء كل الاحتمالات التي قد يأتي عليها التركيب من تقديم، أو تأخير، أو ذكر، أو حذف، أو تنكير، أو تعريف... وغيرها من الهيئات التحويلية. وعلى الرغم من هذا فهما عنصران متشابكان يُكْمِلُ أحدهما الآخر في علاقة متبادلة ومتبادلة:



- إنَّ الحالة النفسية التي تعترى المتكلم تُؤثِّرُ في طبيعة نسجه لتلك الألفاظ التي يصوغها، وقد عرَضَ لهذا الملمح النحاة القدماء والمحدثون على السواء، فما ينتاب المرء من دوافع نفسية تؤثر في اتجاه خطابه من تأكيد وحذف وتقديم وتأخير وغيرها من الأساليب؛ وبناءً عليه، ينبغي لمن يُحلِّل نصًّا معيَّنًا أن لا يقطعهُ عن الصلة والبيئة النفسية الحاضنة لهذا الكلام - كما يؤكد جون ليونز John Lyons - ولذلك فإننا نَقَعُ في خطأ كبير عندما نُخَضِّعُ التصوص التحويلية إلى "المنطق اللغوي"؛ لأننا نكون بهذا قد نقلناها من أسلوب إلى أسلوب، وبترنا الصلة بين معناها وروحها، أو بين منطوقها ونفسية صاحبها¹. ولعلَّ هذا الأمر يأخذنا إلى أن نتأمل مصطلحاً جديراً بالعناية والدراسة الواسعة وهو "السياق النفسي-التحوي" Psycho-syntactic Context، ورأينا فيما رأينا في صميم هذه الأطروحة القوة التأثيرية للعامل النفسي في تركيب الكلام والجمل، فيُنْظَرُ عبْرهُ إلى الإشارات السياقية contextual signs التي يوحى إليها النص، ويُؤخَذُ بعين الاعتبار الدور الفاعل لهذا المنحى في توليد الصيغ التحويلية المختلفة.

كما أنَّه من الواجب أن نُشيرَ هنا إلى أنَّ اهتمام علم النفس في حقيقته يتطرق إلى معظم نواحي اللغة تقريباً، وخاصة ما له علاقة بالعقل والنفس البشرية؛ وتوافقاً معه، فإنَّ ما يشغل بال علماء النفس اللغوي - على

¹ Lyons, *Language, meaning and context*, 218.

سبيل المثال - طرق تَكُونُ العاداتِ اللُّغَوِيَّةِ وَأَثَرُهَا، وأيضًا تلكَ العلاقةُ الَّتِي تجمعُ بَيْنَ اللُّغَةِ وشخصيةِ الإنسان - كما يقول الباحثُ نايف خرما¹.

وَقَدْ بَيَّنَ الخطَّابِيُّ مَعَالِمَ تَشَكُّلِ الصُّورَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يُصَاغُ عَلَى إِثْرِهَا الكلامُ، وذلك مِنْ خلالِ إبرازِ مكانةِ سِمَاتِ "النَّظْمِ" وخصائصِهِ، وأَثَرِهِ فِي المعنى بِقَوْلِهِ: "...وأما رسومُ النَّظْمِ فالحاجةُ إلى التَّقافَةِ والحُدُوقِ فيها أَكْثَرُ؛ لِأَنَّهَا لِجَامِ الألفاظِ، وزِمَامِ المعاني، وَبِهِ تَنْتَظِمُ أَجْزَاءُ الكلامِ، وَيَلْتَمِثُ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ، فتقومُ لَهُ صورةٌ فِي النَّفْسِ يَتَشَكَّلُ بِهَا البَيَانُ"².

ولا بُدَّ لَنَا أَنْ نَوَكِّدَ هُنَا أَنَّ هَذَا التَّوَجُّهَ يُحِيلُنَا إِلَى "الأسلوبية"³ النَّفْسِيَّةِ، لا سِيَّما فِي نظريةِ ليو سبترز Leo Spitzer [1887-1960م]، الَّذِي تَأَثَّرَ بِعَالِمِ النَّفْسِ فرويد Freud فِي دِرَاسَتِهِ لخصائصِ الأسلوبِ، حَيْثُ يَهْتَمُّ هَذَا الاتِّجَاهُ بِمَضْمُونِ الحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ وَنَسِيجِهَا اللُّغَوِيِّ، فيرى أَنَّ الحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلْمَتَكَلِّمِ أَوْ مَنَشِئِ النَّصِّ تَصُفُّهُ إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ الاستعمالِ اللُّغَوِيِّ الْمُتَمَثِّلِ بِالأسلوبِ النَّاتِجِ؛ لِهَذَا فَإِنَّ أسلوبيَّةَ ليو سبترز تَهْدَفُ إِلَى الكَشْفِ عَنْ مَوَاطِنِ عَمَلِيَّةِ الإبداعِ وخفاياها، وَتُسَلِّطُ الضُّوءَ عَلَى نَفْسِيَّةِ المبدعِ (صاحبِ النَّصِّ) انطلاقًا مِنْ التَّسْيِجِ اللُّغَوِيِّ عِبْرَ اعْتِمَادِ دراسةِ أسلوبِهِ؛ مِنْ أَجْلِ اكْتِشَافِ البُنْيَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْجَمَالِيَّةِ لِلنَّصِّ، وَذلكَ بِتَحْدِيدِ الحَقُولِ الدَّلَالِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ وَبالاستعانةِ بِعِلْمِ الدَّلَالَةِ التَّارِيخِيِّ مَعَ مِرَاعَاةِ السِّيَاقِ أَوْ المَقَامِ⁴.

وَلَعَلَّ الأَمْرَ يَتَعَالَقُ مِنْهَجِيًّا مَعَ "الأسلوبيةِ التَّعْبِيرِيَّةِ" الَّتِي يَقِفُ مِنْ وَرَائِهَا شارل بالي Charles Bally [1856-1947م]؛ لِكَوْنِ الأسلوبِ (الْمُنْتَجِ النَّصِّيِّ) مَجْمُوعَةً مِنْ عُنَاوِرِ اللُّغَةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي عَاطِفِيًّا عَلَى السَّماعِ أَوْ القارئِ خِلالَ تَفْجِيرِ الطَّاقَاتِ التَّعْبِيرِيَّةِ الكَامِنَةِ فِي اللُّغَةِ بِخُرُوجِهَا مِنْ عَالَمِهَا الافتراضيِّ Virtual World إِلَى حَيَازِ الوجودِ اللُّغَوِيِّ، لا سِيَّما حِينَما يَرْتَكِنُ ذَلِكَ بِالطَّائِعِ النَّفْسِيِّ-العاطفيِّ لِلُّغَةِ، وَمِنْظُومَتِي الْقِيَمَةِ والتَّوصِيلِ⁵. وَلَعَلَّ مَرَجِعَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى أَنَّ نِظَامَ الرِّبْطِ (السِّيَاقِ التَّحْوِيِّ) بَيَّنَّ أَرْكَانِ الكلامِ فِي "النَّصِّ التَّحْوِيِّ"

¹ نايف خرما، أضواء على الدراسات اللُّغَوِيَّةِ المعاصرة، 74.

² الخطَّابِيُّ، بيان إعجاز القرآن، 31.

³ يُعَرَّفُ عبد السلام المسدي "الأسلوبية" على أَنَّهَا "وصفٌ للنَّصِّ حسب طرائق مستقاةٍ مِنْ عِلْمِ اللُّسَانِ". انظر: عبد السلام المسدي، النِّقْدُ والحدائث، 88.

⁴ نور الدِّين السَّدِّي، الأسلوبية وتحليل الخطاب (الجزائر: دار هومة للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، 1997)، 1: 72.

⁵ أحمد درويش، "الأسلوب والاسلوبية" مجلَّة فصول 5 (1981)، 60.

هو في حد ذاته صورة ذهنية-نفسية، فهذه "النسق" الكلامي أو ذاك إنما يُعَبِّرُ عَنِ المعاني الدائرة في نفس الذي يُؤدِّي الكلام مُنْذُ إشراق هذه المعاني في الذهن إلى صدورها ألفاظاً وعباراتٍ وجمالاً- وبالتالي- نصاً متكاملًا.

وأجدني، تأسيسًا لها، أَسْتَحْضِرُ- على عَجالة- ما قاله لويس دي بونالد Louis De Bonald

[1754-1840م] في أَنَّ الْفِكْرَ شَرْطُ اللَّغَةِ؛ لِأَنَّ لُغَةً مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ هِيَ مُجَرَّدُ أَلْفَاظٍ لَا مَعْنَى لَهَا، فَالْجُمْلَةُ اعْتُمِدَتْ فِي كَوْنِهَا وَحْدَةً لِلَّغَةِ، قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ مَعْنَى مَا. وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، فَإِنَّ اللَّغَةَ شَرْطُ الْفِكْرِ؛ لِأَنَّ الْفِكْرَ كَلَامٌ صَامِتٌ فِي الْبَاطِنِ؛ وَبِنَاءٍ عَلَيْهِ يَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْ فِكْرَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفَكِّرَ بِكَلَامِهِ¹، بِمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُفَكِّرُ كَلَامَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِكْرُهُ².

فالأسلوب، أَوْ قُلِ "النَّصُّ"، أَوْ قُلِ "التَّرْكِيْبُ النَّحْوِيُّ"، هُوَ إِنشاء- كما يُوَكِّدُ عباينة- مِنْ عَمَلِ الْعَقْلِ، وَنَتَاجُ عَمَلِيَّةِ تَفَكِيرٍ عَقْلِيَّةٍ، فَحِينَما نَنْظُرُ إِلَى مَا طَرَحَهُ الْجُرْجَانِيُّ نَلَاظُ أَنَّ هَذَا الطَّرْحَ يَرْجِعُ إِلَى عَقْلِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ الْمُنطَقِيَّةِ، فَمَقْتَضِيَّاتُ الْعَقْلِ هِيَ أَحْكَامُ النَّحْوِ مَعَانِيهِ، وَكُلُّ أَسْلُوبٍ هُوَ صَادِرٌ عَنْ قَصْدٍ؛ لِإِخْدَاطِ صُورَةٍ فِي الْمَعْنَى، وَهَذَا مَا يُوَكِّدُهُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ بِقَوْلِهِ: "وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّه لَا يَكُونُ تَرْتِيبٌ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَكُونَ هُنَاكَ قَصْدٌ إِلَى صُورَةٍ وَصْنَعَةٍ، إِنْ لَمْ يُقَدِّمَ فِيهَا مَا قَدَّمَ، وَلَمْ يُؤَخَّرْ فِيهَا مَا أَخَّرَ، وَبُدِيَ بِالَّذِي تُنْبِئُ بِهِ، وَتُنْبِئُ بِالَّذِي تُثَلِّثُ بِهِ، لَمْ تَحْصُلْ لَكَ تِلْكَ الصُّورَةُ وَتِلْكَ الصَّنْعَةُ"³. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَإِنَّ الْجُرْجَانِيَّ يُفَسِّرُ مَا يَقْصُدُهُ بِ"حُسْنِ الْعِبَارَةِ" بِأَنَّهُ لَيْسَ مَجَرَّدَ اللَّفْظِ، بَلْ هِيَ صُورَةٌ وَصَفَةٌ وَخُصُوصِيَّةٌ تَحْدُثُ فِي الْمَعْنَى⁴.

إِذَنْ، فَالْأَسْلُوبِيَّةُ اللَّسَانِيَّةُ Linguistic Stylistics، بِمَدَاهَا الرَّحْبِ، تَهْتَمُّ بِالسِّيَاقِ اِهْتِمَامًا بِالْعِلَاقَةِ؛ لِلإِحَاطَةِ بِالْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ-النَّفْسِيَّةِ، إِذْ إِنَّ السِّيَاقَ وَخَدَهُ- كما يُوَكِّدُ أَحْمَدُ حَسَنَانِي- هُوَ الَّذِي يُوضِّحُ لَنَا مَا إِذَا كَانَتِ الْكَلِمَةُ يَنْبَغِي أَنْ تَوْخَذَ عَلَى أَنَّهَا تَعْبِيرٌ مُوَضَّعِيٌّ صَرَفٌ، أَوْ أَنَّه قُصِدَ بِهَا أَسَاسًا التَّعْبِيرُ عَنِ الْعَوَاطِفِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ، وَإِلَى إِثَارَةِ هَذِهِ الْعَوَاطِفِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ⁵.

¹ رولان بارت، هسهسة اللغة، 13.

² Nancy Struever, *Language and the History of Thought* (New York: University of Rochester, 1995), 186-191.

³ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 364.

⁴ عباينة، التفكير الأسلوبي، 97-98.

⁵ حسانني، مباحث في اللسانيات، 156.

وإذا عاودنا الحديث حَوْلَ الفكرِ "الجرجاني" نَلْمُحُ هذا الطَّرْحَ جَلِيًّا عِنْدَ عبدِ القاهرِ الجرجانيِّ بِصُورَتِهِ القديمةِ الحديثةِ، فَمَنْ يَنْظُرُ مَلِيًّا إِلَى تَوَجُّهِ عبدِ القاهرِ الجرجانيِّ بِحَدِّ أَنْهُ يُعَبِّرُ عَنِ "النَّظْمِ" و"السِّيَاقِ" الَّذِي انْعَقَدَتْ فِيهِ الْكَلِمَاتُ وَتَرَابَطَتْ الْجُمْلُ وَالتَّرَاكِبُ- تعبيرًا جَلِيًّا يُقْضِي إِلَى أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مُحَلُّهُ "النَّفْسُ" الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا الْجَرْجَانِيُّ بِمَسْمِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ كَالْجُنَانِ وَالْعَقْلِ، وَاسْتِنَادًا إِلَى هَذَا، نَرَاهُ يُوَكِّدُ أَنَّ "النَّظْمَ" فِي دَائِرَةِ الْكَلَامِ هُوَ، فِي حَقِيقَتِهِ، أَنَّ "تَوَلَّى الْكَلِمَةَ الْكَلِمَةُ فِي نُطْقِكَ وَأَدَائِكَ؛ مُقْتَفِيًّا آثَارَ الْمَعَانِي، وَجَاعِلًا تَرْتِيبَهَا فِي لِسَانِكَ عَلَى حَذْوِ تَرْتِيبِهَا فِي جَنَانِكَ"¹. ويقولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِنَّهُ "لَيْسَ الْغَرَضُ بِنَظْمِ الْكَلِمِ أَنْ تَوَالَتْ أَلْفَاظُهَا، بَلْ أَنْ تَنَاسَقَتْ دَلَالَتُهَا، وَتَلَاقَتْ مَعَانِيهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي افْتَضَاهُ الْعَقْلُ"². وَلَعَلَّنَا- بِهَذَا- نَحْدُ فِي هَذِهِ الرَّؤْيَةِ "الجرجانيَّة" حَوْلَ مَفْهُومِ "النَّظْمِ" أَوْ "السِّيَاقِ النَّفْسِيِّ" مَبْنُوثةً وَمُؤَكَّدَةً فِي قِطَاعٍ وَاسِعٍ فِيْمَا أَلْفَهُ، وَأُظِّنُّ أَنَّهُ لَا يَمَلُّ مِنْ تَكَرُّرِهَا فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ.

وإِذْنًا، يَذْهَبُ الْجَرْجَانِيُّ إِلَى أَنَّ بِنَاءَ الْكَلَامِ فِي أَصْلِهِ بِنَاءٌ نَفْسِيٌّ-عَقْلِيٌّ دَاخِلِيٌّ، وَلَيْسَ بِنَاءً حَسِّيًّا بَرَانِيًّا مُجَرَّدًا، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْاِقْتِضَاءَ الْعَقْلِيَّ أَوْ الدِّهْنِيَّ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ إِنَّمَا مَنَاطُهُ الْفِكْرُ، وَهُوَ- بِالتَّالِي- مَنَاطُ النَّظْمِ وَالتَّرْتِيبِ وَالتَّأْلِيفِ وَالتَّرْكِيبِ وَ"السِّيَاقِ" الْمَحِيطِ، فَنَلْحِظُ فِي هَذَا عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجَرْجَانِيَّ يَقُولُ مُكْرِّرًا وَمُؤَكِّدًا: "أَنَّ هَذَا النَّظْمَ الَّذِي يَتَوَاضَعُ الْبُلْعَاءُ، وَتَتَفَاضَلُ مَرَاتِبُ الْبَلَاغَةِ مِنْ أَجْلِ صَنْعَةٍ يُسْتَعَانُ عَلَيْهَا بِالْفِكْرِ لَا مُحَالَةً. وَإِذَا كَانَتْ مِمَّا يُسْتَعَانُ عَلَيْهَا بِالْفِكْرِ وَيُسْتَخْرَجُ بِالرُّؤْيَةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ فِي الْفِكْرِ بِمَاذَا تَلَبَّسَ؟ أَبِالْمَعَانِي أَمْ بِالْأَلْفَاظِ؟ فَأَيُّ شَيْءٍ وَجَدْتَهُ الَّذِي تَلَبَّسَ بِهِ فِكْرُكَ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ فَهُوَ الَّذِي تَحْدُثُ فِيهِ صَنْعَتُكَ، وَتَقَعُ فِيهِ صِيَاغَتُكَ..."³. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَنَاطَ "الصَّنْعَةِ"- كَمَا أُطْلِقَ عَلَيْهَا الْجَرْجَانِيُّ- هُوَ مَنَاطُ الْفِكْرِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا فِيْمَا يُدْرِكُ بِالنَّفْسِ وَالْمَعْنَى.

وَلَعَلِّي- كِدَارِسٍ لظَاهِرَةِ "السِّيَاقِ"- أَجَازُفُ فِي قَوْلِي إِنَّ "السِّيَاقَ" هُوَ "الْمَعْنَى النَّفْسِيَّةُ"، وَهُوَ سَابِقٌ لِلْأَلْفَاظِ وَالْكَلِمَاتِ نَفْسِهَا- كَمَا عَبَّرَ الْجَرْجَانِيُّ عَنْ ذَلِكَ- أَيُّ إِنَّ "الْمَعْنَى السِّيَاقِيَّةَ"، مِنْ حَيْثُ عَمَلِيَّتُهُ تَكْوِينِ

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، 49.

² ن. م، 49.

³ ن. م، 41.

الجملة، يَسْبِقُ "اللفظ السياقي"¹، فما نراه من ترتيب الألفاظ والكلمات ما هو إلا ثمرة لمعنى ما حاضر في الذهن أو "النفس"، فيتم ترتيبها في العقل؛ ذلك لأن الألفاظ في حقيقتها أوعية للمعاني، وبناءً عليها- تتبّع المعاني في مواقعها لا محالة. ومن ثم يُبيّن- الجرجاني- أنه إذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق²، ووفقاً إلى ذلك فلا يتصور أن تعرف اللفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ، من حيث هي ألفاظ، ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعته الألفاظ، وتفتت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتاج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل إنك تجدّها ترتّب لك بحكم أنّها خدّم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها³.

- وإن كنّا قد تحدّثنا حول الجانب النفسي للسياق فيما سمّيناه بـ"السياق النفسي-النحوي"، فمن باب الواجب أيضاً أن نشير إلى الجانب الاجتماعي للسياق بما يُسمّى بـ"السياق الاجتماعي-النحوي"-Socio syntactic Context، فاللسان هو نتاج اجتماعي لملكة اللغة، هو مجموعة من الأعراف الضرورية التي يستخدمها المجتمع لمزاولة هذه الملكة عند الأفراد"، وهو بالتالي ينم عن شبكة التواصل بين أفراد المجتمع، فحينما نتكلّم فنحن نحاول أن نبّلع معاني معينة ورسائل محدّدة للمخاطبين خلال جعلهم يلاحظون مقاصدنا في إيصال هذه الرسائل، ونكون- كما يقول دورانت- قد حقّقنا الأثر المقصود على المخاطبين إذا ما جعلناهم يدركون مقاصدنا⁴.

إنّ "السياق" - في كينونته- مهاد اجتماعي لـ"النص"، وهو رابطٌ غير منفك عن الجانب الاجتماعي لـ"الأسلوب"؛ من هنا فإنّه بوسعنا أن نستحضر ما قاله رولان بارت Roland Barthes بأنّ النصّ حيّز

¹ لعلنا نذكر القارئ إلى الجدلية الدائرة بين اللغويين، قديماً وحديثاً، حول اللفظ والمعنى، وأيهما أسبق.

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، 52.

³ ن. م، 53.

⁴ Alessandro Duranti, *Linguistics Anthropology*, 230-232.

اجتماعي لا يدعُ أي لغةٍ بمعزلٍ عنه، كما لا يدعُ أي موضوعٍ من مواضيع التعبير في مقام الحاكم، والمحلل، والمُفكِّك: فنظريته "النص"، وبالتالي "السياق"، لا تتلاقى إلا مع الممارسة الكتابية¹، الأمر الذي يدعو إلى إعادة التفكير - مليًا - في علاقة اللغة (النص) بالثقافة أو الحضارة².

- يرى كثير من الباحثين أنَّ مسألة تعدُّد الوجوه الإعرابية في النص القرآني ما هي إلا "تأويلات" لمضمون السياق، مؤكدين أنَّ مسألة تعدُّد الوجوه الإعرابية كانت قد شغلت تاريخ العربية اللغوي في مجال قراءة النص القرآني، وقد أثارَت هذه القضية حوارًا وجدلاً انبجس منه ما سُمي فيما بعد بـ "الخلاف النَّحوي"؛ حتى تكوَّن الاعتقاد بأنَّ النصَّ القرآني "يُخفي" طاقاتٍ ووجوهًا لقراءاتٍ متعدِّدة - كما يقول الباحث زهير زاهد - وكلُّ ذلك منوطٌ بقدرة القارئ على فقه النصَّ القرآني وتداخلاته السياقية³. وهذا يعني أنَّ الذي يُدقِّق النظر في كلِّ وجهٍ من الوجوه الإعرابية للموضع القرآني الواحد سيتبدى له أنَّ تعليقات المفسرين إنما تنطلق من قراءة السياق الذي يحمله هذا الوجه أو ذاك.

- جاءت هذه الأطروحة؛ كي تدرس "السياق النَّحوي" في النصَّ القرآني. والنص بطبيعته دُون، وتعاملنا في بحث مجريات "السياق" على هذا الأساس من خلال النظر إلى التراكيب والجمل المختلفة بما لهذا النص من خصائص وميزات قام على أساسها النَّحْو العربي⁴، وشُغل به النُّحاة إيمًا اشتغال. والأمر كذلك - من ناحية منهجية البحث والدراسة والتَّصوُّر - مُنسحبٌ على النصوص الشعرية، وبالتالي على كلِّ النصوص المكتوبة (المدونة) على امتداد العصور. وفي المقابل، فإنَّ هناك مجالات لغوية لم يُلتفت إليها بعين الاهتمام والعناية، وهي بضدِّ تستحقُّ الدراسة

¹ بارت، هسهسة اللغة، 96.

² Duranti, *Linguistics Anthropology*, 3.

³ زاهد، في النصَّ القرآني، 28-29.

⁴ بوهاس - جيوم - كولوغلي، التراث اللغوي العربي، 50.

والبحث، كالنصوص المسموعة من لهجات محكية، قديمة وحديثة. فكَم من لهجة في عالمنا هذه تحتاج إلى دراسة سياقية! وكَم "لسان" محكي بين ظهرانينا يستدعي بحثاً وافياً شاملاً.

ولعلهُ من الإنصاف أن نقول إنَّ "التقصير" - أو قُل الصَّعوبة - في هذه الناحية يعود - برأيي - إلى أمرين، وهما أننا نتحدثُها هنا عن كلامٍ مسموعٍ غير مكتوبٍ؛ ممَّا يزيدُ الأمرَ صعوبةً ووعورةً، وكذلك أن مثل هذه الدراساتِ يَتطلَّبُ معرفةً وآلياتٍ محدَّدةً، وجهُداً غيرَ عاديٍّ؛ للتعاملِ والتعاطي مع "سياق" النصِّ غيرِ المُدوَّن. ولا أدلَّ على ذلك ما وقَّع فيه مالينوفسكي Malinowski عندما كان يعكفُ على ترجمةٍ لللهجاتِ بدائيةٍ في جزر التروبريانند Trobriand جنوب المحيط الهادئ؛ فعَبَّرَ عن عَجْزِهِ عن الوصولِ إلى ترجماتٍ غيرِ مُرضيةٍ للنصوصِ التي سجَّلَها؛ وعلى غرارِها توَصَّلَ مالينوفسكي إلى أنَّ الكلامَ المنطوقَ يكونُ له معنىٌ فقط لو رَأَيْنَاهُ في السياقِ التي اسْتُخْدِمَ فيه؛ فسيكونُ حينئذٍ واضحاً¹.

والذي أريدُ أن أؤكدُهُ هنا أنَّ مجالاتٍ كثيرةً و"نصوصاً" (بين مزدوجين) عديدةً تحتاجُ إلى دراسةٍ سياقاتها المختلفةِ، خاصَّةً سياقها النَّحويِّ - اللُّغويِّ. لقد دَرَجْتُ - كما يُوكِّدُ نايف خرما - الدِّراساتُ اللُّغويَّةُ في معظمها حتَّى عَهْدٍ قريبٍ على الاهتمامِ باللُّغةِ المكتوبةِ وبالتراث الأدبيِّ على وَجْهِ الخصوصِ وتحليلها وبناءِ قواعدِ اللُّغةِ على أساسِها، علماً أنَّ اللُّغةَ أساساً كلامٌ وليستَ كتابةً، وهو ما عَبَّرَ عَنْهُ علماءُ اللُّغةِ المحدثون بـ "الحدث اللُّغويِّ". ويتَسَاءَلُ خرما: هل هناك أدنى شَكٍّ في أنَّ الكلامَ سابقٌ لِلُّغةِ المكتوبةِ بآلافِ السنينِ بل ربَّما بملايين السنين؟! وما دام الأمرُ كذلك فإنَّه ينبغي أن يُعطى الكلامُ الأفضليَّةُ من حيثِ الدِّراساتُ اللُّغويَّةُ دُونَ أيِّ تُرْدُدٍ، وهذا بالضَّبطِ ما يَسْعَى إِلَيْهِ عُلَمَاءُ اللُّغةِ المحدثون². وهذه مساحةٌ للتأملِ والتفكيرِ أطرحُها بينَ أيدي القراءِ والباحثين!

- يمكننا الادِّعاءُ أنَّ "السياق" - بناءً على تصوُّرِ اللسانيَّاتِ الحديثةِ - هو شيفرةُ النصِّ؛ إذ إنَّ "السياقَ" بحقيقتهِ هو الذي يحملُ للمتلقِّيَ ماهيةَ الرِّسالةِ (الخطاب Discourse) وطبيعتها، وهذا الأمرُ لا يتحقَّقُ إلَّا من خلالِ

¹ Palmer, *Semantics: A New Outline*, 47-48.

² خرما، أضواء على الدِّراسات اللُّغويَّة المعاصرة، 205-207.

فَهْم الشِّيفْرَة أو "الكود السِّيَاقِي" The Contextual Code - إنَّ صَحَّ التَّعْبِيرُ. ومن هنا نلحظُ الباحثَ عبد العزيز حمّودة يوكّدُ أنَّ "الشِّيفْرَة" هي وسيطُ Medium - كما عبّرَ عنها ياكوبسون Jakobson، حيثُ لا يتمُّ الاتِّصالُ من دونها في حالة النّصِّ. فالاتِّصالُ هنا، في المعادلةِ الياكبسونيّة، يعني الاتِّصالَ معَ العلاقاتِ التي تجمعُ بينَ أجزاء التراكيب¹.

ولهذا، فإنَّ "الشِّيفْرَة" هي اللّغة الخاصّة بسياقِ النّصِّ، وهو - بالتّالي - الأسلوبُ الذي ينتمي إليه النّصُّ، الأمرُ الذي جعلَ الغدّامي يذهبُ إلى أنَّ "الشِّيفْرَة" السِّيَاقِيّة لها من الأهميّة ما لها في فَهْمِ النّصِّ؛ فالعلاقةُ بينَ "الشِّيفْرَة" و"السِّيَاقِ" متشابكةٌ تشابكًا قويًّا إذ لا وجودَ لأحدهما دونَ الآخر².

إنَّ النّصَّ بهذا التّصوُّرِ تتأثّرُ هويّتهُ بوساطةِ شيفرتهِ (الأسلوبِ)، ولكنَّ هذه الهويةُ لا تكونُ ذاتَ معنىٍ إلّا بحضورِ "السِّيَاقِ"؛ وذلك لأنَّ "السِّيَاقِ" هو الذي يحقِّقُ هذه الهويةَ، كما أنَّ "السِّيَاقِ" لا يكونُ إلّا بوجودِ نصوصٍ ومحيطٍ تتجمّعُ فيه؛ لينبثقَ منها، بمعنى أنَّ "السِّيَاقِ" و"الشِّيفْرَة" يدعّمُ بعضُها بعضًا في تحقيقِ حضورها، وفي فَهْمِ الملابساتِ والظُّروفِ التي تحيطُ بالنّصِّ³.

إذن، ما من شكٍّ في أنَّ من أرادَ أن يفهمَ المكوّناتِ التَّحويّةَ للكلامِ، أيًّا كانت مجالتهُ - فلا بُدَّ له من أن يُفعلَ دورَ "التَّشْفِيرِ السِّيَاقِي"، بمعنى أنَّ معرفةَ المعاني التَّحويّةِ المركوزةِ في النّصِّ إمّا تتطلّبُ فكَّ شيفراتِهِ اللُّغويّةِ خلالَ مستوياتِ اللّغةِ المختلفةِ، بدءًا من الصَّوْتِ ومرورًا بالنَّحْوِ وانتهاءً بالبلاغةِ أو حتّى ما بعدَ البلاغةِ كالسميولوجيا. وهذه العمليّةُ - "فكُّ شيفراتِ" النّصِّ اللُّغويّ - هي بِحِدِّ ذاتها عمليّةُ سياقيّةٌ صرفةٌ، وإمّا الفارقُ بينَهُما - في تقديري - أنَّ "السِّيَاقِ" هو الدّائرةُ الأكبرُ التي تشملُ عدّةَ دوائرٍ، منها "التَّشْفِيرُ" Coding.

ولعلّنا نسترجعُ إلى ما ذكرناه سابقًا إلى أنَّ فَهْمَ الرّموزِ "المُستعلّقةِ" والشِّيفراتِ يتطلّبُ قراءةً ثابّةً للنّصِّ، الذي يُمثّلُ الحقلَ العمليّ للسِّيَاقِ، وبالتالي فإنَّ تفسيرَ "النّصِّ" و"سياقِ النّصِّ" إمّا يُتوصّلُ إليه عبْرَ توظيفِ الحدسِ Intuition - كما أشارَ أحمد درويش - لكونِ "النّصِّ"، في الأساسِ، حالةً ذهنيّةً، ف"النّصُّ"

¹ عبد العزيز حمّودة، المراسم المحبّة: من البنيويّة إلى التفكيك (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1998)، 273.

² الغدّامي، الخطيئة والتكفير، 9-10.

³ ن. م، 10.

و"سياق النص" معًا - بهذا التمازج - يمنحنا معايير التحليل للقارئ؛ لأنَّ جوهر "النص وسياقه" موجود في نفس مؤلفه؛ وعليه فإنَّ لغة "النص" - بهذه الرؤية - تُعدُّ شخصية المؤلف والناطقة باسمه، وتطلُّ هذه الآلية غير منفصلة عن بقية الوسائل الفنية الأخرى التي يمتلكها¹. إذن، فعملية "السياق" أو "التسييق" هي عملية فكِّ شيفرة النص.

- أنَّ سياق "الحمل على المعنى" ظاهرة جديرة بالتأمل؛ لما تحمله من علاقات متَّحدة مع المعنى التحويلي من خلال حقيقة الجملة وطبيعة تركيبها، فمثلاً جملة "هذان فريقان يلعبان بقوة" تختلف عن جملة: "هذان فريقان يلعبون بقوة"؛ ليس فقط في اختلاف الفعلين "يلعبان" و"يلعبون" وما يترتب على معناهما في كلا الجملتين، بل في معرفة سياقهما التحويلي، فمن المفروض أنَّ يكون سياق الجملة الأولى "هذان فريقان يلعبان بقوة" عن سياق الجملة الثانية: "هذان فريقان يلعبون بقوة"، وبالتالي فإنَّ معرفة حقيقة السياق تفضي أنَّ اختلاف المعنى، وإلى أنَّ لكلٍّ من الفعلين "يلعبان" و"يلعبون" موضعه التحويلي الخاص الذي استُخدم فيه. ومن هنا، يمكنني أنَّ أؤكد طرْحاً نحويّاً قد يغيب عن كثير من الدارسين للنحو وهو أنَّه ينبغي أنَّ نستوفي "النص" كاملاً، قبل أنَّ نشرع في تحليله نحويّاً. ولعلَّها من الأخطاء التي يقع فيها هؤلاء أنَّهم يدرسون النحو والإعراب دراسةً مقطعيةً Segmental Study - إنَّ صحَّ لي التعبير - فتصبح بذلك جملاً مبتورة عن نصِّها الكامل، وعباراتٍ منفصلة عن سياقها، الذي هو الأهمُّ في تحديد "المعنى التحويلي" و"الإعراب الوظيفي" كذلك.

إضافةً إلى هذا، فلاي أرى في هذا المقام أنَّ ثمة ظواهر كثيرة تتقاطع مع "الحمل على المعنى"، على رأسها لغة "أكلوبي البراغيث" التي شغل بها النُّحاة في تفسير وجود الفاعلين لفعل واحد، وفي تصحيح أو تخطئة هذه اللُّغة، دون أنَّ يألوا جهداً في الحديث عن السياق التحويلي لهذه اللُّغة وما سواها، فهل هناك - على سبيل المثال - اختلاف حقاً بين جملة: "شكروني الضيوف"، وبين جملة: "شكرني الضيوف"، وبين جملة: "إيَّي شكر الضيوف" ... وهل جزاء والأمثلة أكثر وأوسع!

¹ أحمد درويش، "الأسلوب" مجلة فصول 15 (1984)، 67.

وَأَعْلَلَ هذا الأمرَ جَعَلَ الباحثَ مُحَمَّدَ عبد اللطيف يصفُ ظاهرةَ "الحملِ على المعنى" وسياقها وما يحوطها من مسائل نحويّة، بأنّها وسيلةٌ من وسائل التّأويل النّحويّ لِرَأبِ الصّدعِ بَيْنَ القواعدِ النّحويّةِ والنّصوصِ اللّغويّةِ، وفي هذه الوسيلة يقومُ العنصرُ الدّلاليُّ "المعنى" بعلاجٍ كثيرٍ من المخالفاتِ اللفظيّةِ المنطوقَةِ¹ - كما أسماها.

- يُعَدُّ "السّياقُ" الحلَّ الأمثلَ لكثيرٍ من الإشكالاتِ التّركيبيةِ التّخاطبيّةِ فيما يُستَعْلَقُ مِنَ النّصِّ وَمِنْ دلالتهِ النّحويّةِ، فهو -أي "السّياقُ"- القرينةُ الفنّيّةُ الّتي تكشفُ عَن وَجهِ المُرادِ مِنْ تعالُقِ الكلماتِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ؛ فَيُؤَدِّي دَوْرًا فاعِلًا ونَشِيطًا خلالَ عمليّةِ "ترشيحيّةِ" أَطْلُقُ عَلَيْهَا مصطلحَ "الترشيح النّحويّ" Grammatical Filtering للاكتِنَازِ المعنويّ الموجودِ في النّصِّ؛ حتّى على مستوى المفردةِ الواحدةِ، أو أَقلَّ منها. واستنادًا إلى هذا، فإنَّ "السّياقَ" -عامّةً، و"السّياقَ النّحويّ" خاصّةً- في كينونتهِ تفسيرٌ ثقافيٌّ-اجتماعيٌّ؛ إذ إنّ عمليّةَ رَبطِ النّصِّ بسياقهِ تقتضي مِنّا مُعاينةَ هذا "السّياقِ النّصّيِّ" كما يتجلّى مِنْ داخلِ النّصِّ، وبالأخصِّ -كما يقول سعيد يقطين- خلالَ البنياتِ الثّقافيّةِ والاجتماعيّةِ كِبَنِيّاتٍ نَصِيّةٍ. ومَرَدُّ ذلكَ يعودُ إلى كَوْنِ النّصِّ عالمَ دلالاتٍ وبنياتٍ يَمُتُّ إنتاجُها خلالَ ذاتِ النّصِّ²، وخلالَ القراءةِ الفاحصةِ لمضامينِ السّياقِ الّذي تَوَلَّدَ فيه النّصُّ.

- إنّ خصوصيّةَ اللّغةِ العربيّةِ شأُنُ اللّغاتِ الأخرى، إذ لا تُمانِعُ مِنَ الإفادَةِ مِنْ تقنياتِ علمِ اللّسانيّاتِ الحديثةِ، والإفادَةِ مِنْ مُدارسةِ النّحوِ في اللّغاتِ الأخرى، وأظُنُّ أَنَّ ما يُخشى مِنْهُ على أيِّ لغةٍ كانتَ هو أَنَّ تُزَجَّ في أسْرِ الجمودِ والتّعقيدِ -كما أشارَ إلى ذلكَ ابنُ خلدونَ- وأنَّ تُمنَعُ مِنَ التّطوُّرِ ومواكبةِ حركةِ العصرِ ومعطيّاته. ولعلّه أَنَّ الأوَّانَ أَنَّ نعتَرَفَ -كباحثينَ ودارسينَ- بأنَّ تدريسَ النّحوِ بالطّرائقِ التّقليديّةِ هو بحدِّ ذاته "وَأْدُ" لِلّغةٍ لا سيّما إبعادَ القواعدِ النّحويّةِ عَن سياقاتِها النّصّيّةِ؛ فما النّحوُ إلّا سياقُ الكلامِ وأداؤه بطريقَةٍ ما وَفَّقَ هذا "السّياقَ"، بل إنّ مِنَ الخطأِ الكبيرِ أَنَّ يُدرَسَ النّحوُ بمعزلٍ عَن "السّياقِ" الّذي سيقَ مِنْ أَجلِهِ.

¹ عبد اللطيف، النّحو والدلالة، 155.

² يقطين، انفتاح النّصِّ الرّوائي: النّصّ والسّياق، 133.

إنَّ هذا التأسيس يُفضي إلى القول إلى أنَّ الإعراب وسيلة وليس غاية في ذاته، وهذا يعني أنَّ "الإعراب" كأجراءٍ تطبيقيٍّ ليس له أيُّ فائدةٍ حينما ينفصلُ عن مساره الصحيح؛ وذلك بعدم عزله نظرياً وتطبيقياً عن معاني النَّحو، أي النَّحو بمفهوميهِ الكلِّي، وبالتالي بعدم عزله النَّحو - أيضاً نظرياً وتطبيقياً - عن السياق؛ لأنَّ السياق هو المعيار الذي "يُحدِّد" مجموع الجملة وما تحويه من مركباتٍ وعناصر، فمثلاً كيف لنا أن نُفسِّر - (والإعراب تفسير) - الفروق في الحركات، والحالة الإعرابية، وبالتالي المعنى النَّحويَّ بين "سلاماً" و "سلام" في الآية: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} ♦ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ¹ دون أن "نفرع" إلى السياق، ونحتكم إلى تلك القرينة في هذا الموضع، علماً أنَّ "السَّلام" هو "السَّلام"؛ ولهذا أن الذي لا يفقه سياق العربية ونحوها، وسياق النصِّ القرآنيِّ في مثل هذه المواضع، إنما يمرُّ عليها مرَّ الكرام دون أن يعي المعاني النَّحويَّة المترتبة على هذه الحال.

¹ القرآن الكريم، الدَّاريت: 24-25.

قائمة المصادر والمراجع:

كتب بالعربية :

- القرآن الكريم.

- ابن آجروم، محمد بن محمد. كتاب الآجرومية. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1899.

- الأجهوري، عطية بن عطية. إرشاد الرحمن لأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه وتجويد القرآن. الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، 2009.

- الألوسي، أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود البغدادي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. القاهرة: المكتبة التوفيقية، [د. ت].

- آل ياسين، محمد حسين. الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1980.

- الأمدى، أبو الحسن علي بن أبي علي. الإحكام في أصول الأحكام. القاهرة: دار الكتب الحديوية - مطبعة المعارف، 1914.

- إبراهيم، حمدي بدر الدين. معجم الأوزان الصرفية لأوزان القرآن الكريم. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 2011.

- إبراهيم، علي نجيب. جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم. دمشق: دار كنعان، 2002.

- الإبراهيمي، خولة طالب. مبادئ في اللسانيات. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2006.

- الإبراهيمي، محمد الطيب. إعراب القرآن الكريم. بيروت: دار التفائس، 2003.

- ابن الأثير، أبو السعادات مبارك بن محمد الجزري. البديع في علم العربية. تحقيق ودراسة: فتحي أحمد علي الدين. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 1999.

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة. القاهرة: مطبعة نهضة مصر، [1962].

- أحمد، عبد الرزاق حسين. المكّي والمدني في القرآن الكريم. القاهرة: دار ابن عقّان للنشر والتوزيع، 1999.

- الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة. معاني القرآن. القاهرة: مطبعة المدني- المؤسسة السعودية بمصر، 1991.
- أدونيس، الشعرية العربية. بيروت: دار الآداب، 1989.
- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد. تهذيب اللغة. إشراف وتعليق وتقديم: محمد عوض مرعب وعمر سلامي وعبد الكريم حامد وفاطمة محمد أصلان. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001.
- الأزهرى، خالد بن عبد الله. شرح التصريح على التوضيح. تحقيق: محمد باسل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، 2000.
- _____. شرح الشيخ خالد على متن الأجرؤمية. القاهرة: دار الطباعة البهية، 1845.
- الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن. شرح شافية ابن الحاجب. تقديم: إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.
- استيتية، سمير شريف. منازل الرؤية: منهج تكاملي في قراءة النص. عمان: دار وائل، 2003.
- الأسدأبادي، القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد. المغني في أبواب التوحيد والعدل. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1960.
- الإسفرائيني. الباب في علم الإعراب. تحقيق: شوقي المعري. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996.
- الأسعد، عبد الكريم محمد. معرض الإبريز من الكلام الوجيز عن القرآن العزيز. الرياض: دار المعراج، 1997.
- الأسمر، راجي. معجم الأدوات في القرآن الكريم. بيروت: دار الجيل، 2005.
- الأسنوي، عبد الرحيم. التمهيد في تخريج الفروع على الأصول. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981.
- الأشقر، محمد أحمد. الدراسات الأدبية لأسلوب القرآن الكريم في العصر الحديث. عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، 2003.
- الأشقر، محمد سليمان عبد الله. معجم علوم اللغة العربية عن الأئمة. عمان: دار التفائس، 2006.
- الأشموني. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني. القاهرة: دار إحياء الكتب العربي، [د.ت].

-الأطه وي، مصطفى حمزة. نتائج الأفكار لشرح إظهار الأسرار في النحو. دراسة وتحقيق: إبراهيم زبيدة. طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1992.

- الأعلام الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى. النكت في تفسير كتاب سيويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه. دراسة وتحقيق: رشيد بلحبيب. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1999.

- الأكرت، عبد التّواب مرسي حسن. اللّغويّون والمحدّثون ومنهجهم في توثيق النّصّ. القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، 2011.

- أمين، بكري شيخ. التعبير الفنيّ في القرآن. بيروت: دار الشّروق، 1973.

- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمّد بن عبيد الله. أسرار العربية. دراسة وتحقيق: محمّد حسين شمس الدّين. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1997.

_____. الإغراب في جدل الإغراب. بيروت: دار الفكر، 1971.

_____. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويّين البصريّين والكوفيّين. تقديم وإشراف: حسن حمد وإميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

_____. لَمَع الأدلّة في أصول النّحو. بيروت: دار الفكر، 1971.

_____. نزهة الألباء في طبقات الأدباء. الرّزقاء- الأردن: مكتبة المنار، 1985.

- الأنصاري، أحمد مكّي. نظريّة النّحو القرآنيّ- نشأتها وتطوّرها ومقوّماتها الأساسيّة. القاهرة: دار القبلّة الثّقافيّة الإسلاميّة، 1984.

- أنطونيوس، جورج. يقظة العرب. بيروت: دار العلم للملايين، 1991.

- أنيس، إبراهيم. من أسرار العربية. القاهرة: مكتبة الانجلو المصريّة، 1978.

- الأوسي، عبّاس علي. الإحالة في القرآن الكريم. عمّان: دار الرّضوان للنّشر والتّوزيع، 2014.

- أوشان، علي آيت. السّياق والنّصّ الشعريّ: من البنية إلى القراءة. الدّار البيضاء: دار الثّقافة، 2000.

- أولمان، ستيفن. دور الكلمة في اللّغة. ترجمة وتقديم وتعليق: كمال محمّد بشير. [د. م.]: مكتبة الشّباب، 1988.

- بارت، رولان. هسهسة اللّغة. ترجمة: منذر عياشي. حلب: مركز الإنماء الحضاريّ، 1999.

- _____ . لذة النصّ. ترجمة: منذر عياشي. حلب: مركز الإنماء الحضاريّ، 1992.
- بارتشت، بريجيتة. **مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نواعم تشومسكي**. ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري. القاهرة: مؤسّسة المختار للنشر والتّوزيع، 2004.
- باطاهر، بن عيسى. **البلاغة العربيّة - مقدّمات وتطبيقات**. بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2008.
- الباقلاّنيّ، أبو بكر محمّد بن الطّيب. **إعجاز القرآن**. تحقيق: السيّد أحمد صقر. القاهرة: دار المعارف، 1971.
- باي، ماريو. **أسس علم اللغة**. ترجمة وتعليق: أحمد مختار عمر. القاهرة: عالم الكتب، 1998.
- البجّة، عبد الفتّاح حسن علي. **ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربيّة بين علماء اللغة القدامى والمحدثين**. عمّان: دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1998.
- البحيري، أسامة. **تحوّلات البنية في البلاغة العربيّة**. طنطا: دار الحضارة، 2000.
- بحيري، سعيد حسن. **عناصر النّظرية النّحويّة في كتاب سيبويه: محاولة لإعادة التّشكيل في ضوء الاتجاه المعجميّ الوظيفيّ**. ط 1. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1989.
- _____ . **علم اللغة النصّ: المفاهيم والاتّجاهات**. القاهرة: الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر-لونغمان، 1997.
- بدران، الزّهراوي. **عالم اللغة عبد القاهر - المفتنّ في العربيّة ونحوها**. القاهرة: دار المعارف، 1987.
- برجشتراسر. **التّطور النّحويّ للغة العربيّة**. إخراج وتصحيح وتعليق: رمضان عبد التّوّاب. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1982.
- بركة، فاطمة الطّبال. **النّظرية الألسنيّة عند رومان جاكسون**. بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر، 1993.
- بروكلمان، كارل. **تاريخ الأدب العربي**. تحقيق: عبد الحليم نجّار ورمضان عبد التّوّاب. القاهرة: دار المعارف، 1977.
- البستاني، بطرس. **محيط المحيط - قاموس مطّول للغة العربيّة**. بيروت: مكتبة لبنان، 1987.
- بسيسو، أماني. **إحسان عبّاس وجهوده في نقد الشّعريّ، عمّان: فضاءات للنّشر والتّوزيع، 2012**.
- بسيوني، كمال. **المفردات النّحويّة**. القاهرة: مكتبة التّهضة المصريّة، 1988.
- بشر، كمال. **التّفكير اللّغويّ بين القديم والحديث**. القاهرة: دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، 2005.
- _____ . **حوارات في اللغة والثّقافة - الواقع المأمول**. القاهرة: دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، 2009.

- خاطرات مؤتلفات في اللغة والثقافة. القاهرة: دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2007.
- دراسات في علم اللغة. القاهرة: دار المعارف، 1971.
- علم الأصوات. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
- علم اللغة الاجتماعي: مدخل. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1994.
- فن الكلام. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.
- البطلّيوسي، عبد الله بن محمد بن السيد. إصلاح الخلل الواقع في الجمل. الرياض: دار المريخ، 1979.
- كتاب الحلل في شرح أبيات الجمل. دراسة وتحقيق: مصطفى أمام. القاهرة: الدار المصرية، 1979.
- كتاب شرح أبيات الجمل. دراسة وتحقيق: عبد الله الناصر. دمشق: دار علاء الدين، 2000.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر. خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب. قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه محمد نبيل طريفي. إشراف: إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.
- البغوي، الحسين بن مسعود الشافعي. تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل. إعداد وتحقيق: خالد العكّ، ومروان سوار. بيروت: دار المعرفة، [د. ت.].
- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1984.
- البقري، أحمد ماهر. أساليب التفي في القرآن. القاهرة: دار المعارف، 1988.
- بلانشيه، فيليب. التداولية من أوستن إلى غوفمان. ترجمة: صابر الحباشة. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2007.
- بلحبيب، رشيد. ضوابط التقديم وحفظ المراتب في النحو العربي. الدار البيضاء: منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الأول، 1998.
- بوينر، رودجر. الفلسفة الألمانية الحديثة. ترجمة فؤاد كامل. القاهرة: دار الثقافة، 1988.
- بوجراند، روبرت. النصّ والخطاب والإجراء. ترجمة: تمام حستان. القاهرة: عالم الكتب، 1998.
- بودرع، عبد الرحمن. الأسس المعرفية للغويات العربية. عمان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2013.

- _____ . منهج السياق في فهم النصّ. الدّار البيضاء: مكتبة الثقافة، 2008.
- بوسلامة، فاطمة. السياق عند الأصوليين: المصطلح والمفهوم. الرّباط: دار أبي رفاق للطباعة والنّشر، 2007.
- البوشيخي، الشّاهد. نظرات في المصطلح والمنهج. فاس: أنفو برانت، [د. ت.].
- بوقرة، نعمان. النظرية اللّسانية عند ابن حزم الأندلسي: قراءة نقدية في مرجعيّات الخطاب اللّسانيّ وأبعاده المعرفية. دمشق: من منشورات اتّحاد الكتاب العرب، 2004.
- بوهاس - جيوم - كولوغلي، التّراث اللّغويّ العربيّ. ترجمة: محمّد حسن عبد العزيز وكمال شاهين. القاهرة: دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والترجمة، 2008.
- البيّاتي، سناء حميد. قواعد التّحو العربيّ في ضوء نظريّة النّظم. عمّان: دار وائل للنّشر، 2003.
- البيضاويّ، ناصر الدّين عمر بن محمّد الشّيرازيّ. تفسير البيضاويّ المسمّى أنوار التنزيل وأسرار التّأويل. تحقيق: عبد القادر العشّا حسّونة. إشراف: مكتب البحوث والدراسات. بيروت: دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1996.
- التّهانويّ، محمّد عليّ بن محمّد الحنفيّ. كشاف اصطلاحات الفنون. وضع حواشيه: أحمد حسن بسج. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.
- الثّعاليّ، أبو منصور محمّد بن إسماعيل النّيسابوريّ. فقه اللّغة وأسرار العربيّة. بيروت: دار الفكر العربيّ، 1999.
- الثّعاليّ، الهمام أبو إسحاق أحمد. الكشف والبيان المعروف تفسير الثّعاليّ. دراسة وتحقيق: أبي محمّد بن عاشور. مراجعة وتدقيق: نظير السّاعدي. بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ، 2002.
- الجابري، محمّد عابد. تكوين العقل العربيّ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2009.
- _____ . مدخل إلى فلسفة العلوم: تطوّر الفكر الرّياضيّ والعقلانيّة المعاصرة. بيروت: دار الطّليعة، 1982.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق: عبد السّلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1968.
- الجامي، نور الدّين عبد الرّحمن، الفوائد الضّيّائيّة شرح كافية ابن الحاجب. بغداد: مطبعة وزارة الأوقاف والشّؤون الدّينيّة، 1982.
- جبارين، عبد النّاصر. بين التّقليد والتّجديد: وجهات نظر تجديدية حول المنادى في اللّغة العربيّة الفصيحة - تحليل نحويّ. حيفا: مكتبة كلّ شيء، 2014.

- الجبر، عثمان مصطفى. *الدراسات الأسلوبية بين النظرية والتطبيق*. عمان: وزارة الثقافة، 2007.
- الجُدَيْع، عبد الله بن يوسف. *المقدمات الأساسية في علوم القرآن*. بيروت: مؤسسة الريان، 2001.
- الجرجاني، الشريف علي بن محمد. *التعريفات*. الإسكندرية، دار الندى، [د. ت.].
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. *الجمال في النحو*. شرح وتحقيق: يسري عبد الغني عبد الله. بيروت: دار الكتب العلمية، 1990.
- _____. *درج الدرر في تفسير الآي والسور*. تحقيق: وليد بن أحمد الحسين وإياد القيسي. مانشستر - بريطانيا: مجلة الحكمة، 2008.
- _____. *دلائل الإعجاز*. قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مطبعة المدني، 1992.
- _____. *المقصد في شرح الإيضاح*. تحقيق: كاظم بحر المرجان. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، 1982.
- ابن الجزري، محمد بن محمد. *منجد المقرئين ومرشد الطالبين*. بيروت: دار الكتب العلمية، 2000.
- ابن جزري، محمد بن أحمد الغرناطي. *كتاب التسهيل لعلوم التنزيل*. تحقيق: محمد اليونسى وإبراهيم عوض. القاهرة: أم القرى للطباعة والنشر، [1994].
- الجطلاني، الهادي. *قضايا اللغة في كتب التفسير: المنهج - التأويل - الإعجاز*. صفاقس - الجمهورية التونسية: دار محمد علي الحامي، 1998.
- _____. *مدخل إلى الأسلوبية: نظرياً وتطبيقاً*. الدار البيضاء: النجاح الجديدة، 1992.
- الجلاصي، بثينة. *النص والتأويل في الخطاب الأصولي: آليات القراءة وسلطة التناص*. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2014.
- الجلالي، محمد الحسيني. *تلخيص الذهب من لسان العرب*. عمان: عشتار للاستثمارات الثقافية، 2014.
- الجلال، الحسن بن أحمد. *الإغراب في تيسير الإعراب*. دراسة وتحقيق: أحمد القاضي. الإسكندرية: دار الإيمان، 2005.
- ابن جماعة، بدر الدين. *شرح كافية ابن الحاجب*. تحقيق وتعليق: محمد محمد داود. القاهرة: دار المنار، 2000.

- الجمل، سليمان بن عمر العجيلي. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الحفية. مصر: دار الكتب العربية الكبرى، 1782.

- أبو جناح، صاحب. دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمد النجار. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1955.

_____. سر صناعة الإعراب. القاهرة، المكتبة الوقفية، [د. ت.].

_____. المختص في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. القاهرة: وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1994.

- الجواري، أحمد عبد الستار. نحو القرآن. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006.

_____. نحو المعاني. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، 2006.

- ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي القرشي البغدادي. زاد المسير في علم التفسير. دمشق: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 1964.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد. الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.

- الجويني، إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله. البرهان في أصول الفقه. المنصورة: دار الوفاء، [د. ت.].

- ابن الحاجب، عثمان بن عمر. الأمالي النحوية "أمال القرآن الكريم". تحقيق: هادي حسن حمودي. بيروت: مكتبة النهضة العربية، 1985.

_____. كتاب أمالي ابن الحاجب. دراسة وتحقيق: فخر قدارة. عمان: دار عمّار،

_____. الكافية في النحو - شرح الشيخ رضي الدين الإستراباذي النحوي. تحقيق: عبد العال سالم مكرم. القاهرة: عالم الكتب، 2000.

- حاجي خليفة، المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطي. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الفكر، 1999.

- الحاطوم، أحمد. قواعد فائت النّحة: قواعد في أبحاث. بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 2005.

- _____ .اللغة ليست عقلاً: من خلال اللسان العربي. بيروت: دار الفكر اللبناني، [1994].
- _____ .كتاب الإعراب: محاولة جديدة لاكتناه الظاهرة. بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 1992.
- أبو حاقه، أحمد. معجم التفائس الكبير. بيروت: دار التفائس، 2007.
- حامد، عبد السلام السيّد. الشّكل والدّلالة: دراسة نحويّة للفظ والمعنى. القاهرة: دار غريب، 2002.
- الحباشة، صابر. مغامرة المعنى من التّحو إلى التّداوليّة: قراءة في "شروح التلخيص للخطيب القزويني". دمشق: دار صفحات للدراسات والنّشر، 2011.
- حبلص، محمّد يوسف. البحث الدّلاليّ عند الأصوليّين. القاهرة: عالم الكتب، 1991.
- حجازي، محمود فهمي. الأسس اللّغويّة لعلم المصطلح. القاهرة: دار غريب للطباعة والنّشر، 1993.
- _____ .مدخل إلى علم اللّغة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1998.
- ابن حجر العسقلانيّ، أحمد بن عليّ. العجّاب في بيان الأسباب. بيروت: دار ابن حزم، 2002.
- الحجيلي، عبد الرّحمن بن محمّد بن سعد. الجهود اللّغويّة في القرون الثّلاثة الأولى للهجرة وتأثيرها بالقرآن الكريم. المدينة المنوّرة: الجامعة الإسلاميّة، 2010.
- الحديديّ، إيناس كمال. المصطلحات النّحويّة في الثّراث النّحويّ في ضوء علم الاصطلاح الحديث. الإسكندريّة: دار الوفاء، 2006.
- حسام الدّين، كريم زكي. الإشارات الجسميّة: دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل. القاهرة: دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، 2000.
- _____ .أصول تراثيّة في علم اللّغة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1985.
- _____ .التّحليل الدّلاليّ: إجراءاته ومناهجه. القاهرة: دار غريب، 2000.
- حسّان، تمام. الأصول: دراسة إبستمولوجيّة للفكر اللّغويّ عند العرب: التّحو - فقه اللّغة - البلاغة. القاهرة: عالم الكتب، 2000.
- _____ .الخلاصة النّحويّة. ط1. القاهرة: عالم الكتب، 2000.
- _____ .البيان في روائع القرآن: دراسة لغويّة وأسلوويّة للنّصّ القرآنيّ. القاهرة: عالم الكتب، 1993.

- _____ .اللغة العربية معناها ومبناها. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.
- _____ . مقالات في اللغة والأدب. القاهرة: عالم الكتب، 2006.
- _____ . اللغة بين المعيارية والوصفية. القاهرة: عالم الكتب، 2001.
- _____ . مناهج البحث في اللغة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1990.
- حسّاني، أحمد. مباحث في اللسانيات. الجزائر: ديوان المطبوعة الجامعية، 1994.
- الحسّون، خليل بنیان. التحوّيون والقرآن. عمان: مكتبة الرسالة، 2002.
- حسن، سامي عطا. الجملة المعترضة في القرآن الكريم: مواضعها ودلالاتها. عمّان: دار الفرقان، 2012.
- الحسن، شاهر. علم الدلالة السيميائية والبراغماتية في اللغة العربية. عمّان: دار الفكر للطباعة والنشر، 2001.
- حسن، عبّاس. اللغة والتحوّ بين القديم والحديث. القاهرة: دار المعارف، 1966.
- _____ . التحوّ والوافي: مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة. مصر: دار المعارف، 1975.
- _____ . دراسة في بلاغة عبد القادر الجرجاني- النظم. القاهرة: [د. ن.]، 1997.
- حسين، عبد علي. أصول إعراب اللغة العربية. عمّان: دار دجلة، 2008.
- حسين، عبد القادر. أثر التّحاة في البحث الدلاليّ. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
- الحلواني، محمّد خير. الواضح في التحوّ. دمشق: دار المأمون للتراث، 2000.
- حمودة، طاهر سليمان. دراسة المعنى عند الأصوليين. الإسكندرية، الدّار الجامعية، [د. ت.].
- _____ . ظاهرة الحذف في الدّرس اللّغويّ. الإسكندرية: الدّار المصرية، 2002.
- _____ . القياس في الدّرس اللّغويّ- بحث في المنهج. الإسكندرية: الدّار الجامعية، 1991.
- حمودة، عبد العزيز. المرايا الخدبة- من البنيوية إلى التفكيك. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1998.
- الحموز، عبد الفتّاح أحمد. التّأويل التّحويّ في القرآن الكريم. الرياض: مكتبة الرّشد، 1984.
- حميدة، مصطفى. نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربية. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، 1997.
- الحميريّ، نشوان بن سعيد. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم. دمشق: دار الفكر، 1999.

- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي. ارتشاف الضرب من لسان العرب. تحقيق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد. مراجعة: رمضان عبدالنّوّاب. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998.

..... البحر المحيط في التفسير. بيروت: دار الفكر، 1992.

..... التدريب في تمثيل التّقرّب. تحقيق: زهير جعيد. بيروت: دار الفكر، 1992.

..... التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. دمشق: دار القلم، 2002.

..... تقريب المقرّب. تحقيق: عفيف عبد الرحمن. بيروت: دار المسيرة، 1982.

..... النهر الماد من البحر المحيط. تحقيق عمر الأسعد. بيروت: دار الجيل، 1995.

- الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. تفسير الخازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل. ضبطه وصحّحه: عبد السلام شاهين. بيروت: دار الكتب العلمية، 1995.

- الخالدي صلاح. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق. عمّان: دار التفائس، 2002.

- الخالدي، كريم حسين ناصح. البديل المعنوي من ظاهرة الحذف. عمّان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2007.

..... نظرات في الجملة العربية. عمّان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2005.

..... نظرية المعنى في الدراسات النحوية. عمّان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2006.

- ابن الحُبّاز، أحمد بن الحسين. الغرّة المخفية في شرح الدرة الألفية لابن معط. بغداد: دار الأنبار، 1991.

..... توجيه اللّمع - شرح كتاب اللّمع لأبي الفتح ابن جني. دراسة وتحقيق: فايز دياب. القاهرة: دار السلام، 2002.

- خرما، نايف. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، [د.ت.].

- أبو خرمة، عمر محمد، نحو النصّ - نقد النظرية... وبناء أخرى. إربد: عالم الكتب الحديث، 2004.

- الحضري، محمد. حاشية الحضري على ابن عقيل. القاهرة: دار الكتب العلمية، [د.ت.].

- خطّابي، محمد. لسانيات النصّ - مدخل إلى انسجام الخطاب. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991.

- الخطيب التبريزي، أبو زكريّا يحيى بن علي. الملخص في إعراب القرآن. تحقيق: يحيى مراد. القاهرة: دار الحديث، 2004.

- الخطيب، عبد اللطيف. معجم القراءات. دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي. ضبط وتخرّيج: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1997.
- خفاجي، محمد عبد المنعم وآخرون، الأسلوبية والبيان العربي. القاهرة: الدار المصريّة اللبنايّة، 1992.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدّمة. القاهرة: دار الفجر للتراث، 2004.
- خليفة، حاجي. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.
- خليل، إبراهيم. النصّ الأدبيّ تحليله وبنائه: مدخل إجرائي. عمّان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1995.
- _____. في اللسانيّات ونحو النصّ. عمّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2007.
- خليل، خليل أحمد. معجم المصطلحات العربيّة. بيروت: دار الفكر اللبناي، 1995.
- خليل، حلمي. العربيّة وعلم اللّغة البنيويّ: دراسة في الفكر العربيّ اللّغويّ الحديث. الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة، 1998.
- خليل، السيّد أحمد. دراسات في القرآن. القاهرة: دار المعارف بمصر، [د. ت.].
- خري، حسين. نظريّة النصّ: من بنية المعنى إلى سيميائيّة الدالّ. بيروت: الدار العربيّة للعلوم ناشرون، 2007.
- الخموش، خلود. الخطاب القرآنيّ: دراسة في العلاقة بين النصّ والسّياق. عمّان: جدار للكتاب العالميّ، 2009.
- الخوارزمي، قاسم بن حسين. ترشيح العلل في شرح الجمل. إعداد: عادل محسن سالم العميري. مكّة المكرّمة: سلسلة الرّسائل العلميّة، 1998.
- ابن الخوجة، محمد الحبيب. بين علمي أصول الفقه والمقاصد. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، 2004.
- الخولي، أمين. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب. القاهرة: دار المعرفة، 1961.
- الخولي، محمد علي. معجم علم اللّغة النظريّ. بيروت: مكتبة لبنان، 1982.
- الخولي، يحيى طريف. أمين الخولي والأبعاد الفلسفيّة للتّجديد. القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، 2012.
- _____. فلسفة العلم في القرن العشرين. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2000.
- بن خوية، رابح. مقدّمة في الأسلوبية. إريد: عالم الكتب الحديث، 2013.

- خياط، يوسف. معجم المصطلحات العلمية والفنية. بيروت: دار لسان العرب، [د. ت.].
- الداية، فايز. علم الدلالة العربي- النظرية والتطبيق. دمشق: دار الفكر، 1996.
- درويش، أحمد. دراسة الأسلوب بين التراث والمعاصرة. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
- درويش، محيي الدين. إعراب القرآن الكريم وبيانه. دمشق: دار اليمامة، 2002.
- ابن دُرَيْد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي. جمهرة اللغة. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005.
- دزه بي، دلخوش جار الله حسين. البحث الدلالي في كتاب سيبويه. عمان: دار دجلة، 2006.
- دعمس، أحمد داود. الجملة معناها وأقسامها عند التحوين والبلاغيين. القدس: دار الجندي للنشر والتوزيع، 2012.
- الدلاييح، محمد فضل. دليل القاعدة التحوية عند سيبويه. إربد: دار الكتاب الثقافي، 2005.
- دلاش، الجيلاني. مدخل إلى اللسانيات التداولية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.
- الدماميني، محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر. تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد. تحقيق: محمد المفدى. [د. م.]: [د. ن.]. 1983.
- الدينوري، أبو عبد الله الحسين بن موسى بن هبة الله. ثمار الصناعة في علم العربي. تحقيق وتقديم: حنا جميل حداد. عمان: وزارة الثقافة، 1994.
- الذهبي، محمد حسين. التفسير والمفسرون. القاهرة: دار الحديث، 2005.
- الزجاجي، عبده. فقه اللغة في الكتب العربية. بيروت: دار النهضة العربية، [د. ت.].
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر البكري الشافعي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. بيروت: دار الكتب العلمية، 2000.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. مختار الصحاح. دراسة وتحقيق: عبد الفتاح البركاوي. [د. م.]: دار المنار، 1983.
- راشد، الصادق خليفة. دور الحرف في أداء معنى الجملة. بنغازي: منشورات جامعة قاريونس - دار الكتب الوطنية، 1996.
- راضي، عبد الحكيم. من آفاق الفكر البلاغي عند العرب. القاهرة: مكتبة الآداب، 2006.

- الرَّاعِب، أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: إبراهيم شمس الدّين. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1997.

_____ . المفردات في غريب القرآن. القاهرة: المكتبة التّوفيقيّة، [د. ت.].

- الرَّافعي، مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة. بيروت: دار الكتاب العربي، 1973.

_____ . تاريخ آداب العرب. القاهرة: مكتبة الإيمان، [د. ت.].

- الرّاي، طه. نظرات في اللّغة والنّحو. بيروت: المكتبة الأهليّة، 1962.

- الرّحيم، أحمد حسن، موسوعة بيت الحكمة لأعلام العرب في القرن التّاسع عشر والعشرين. بغداد: بيت الحكمة، 2000.

- ابن رشد، أبو الوليد. الصّروريّ في صناعة النّحو. تحقيق ودراسة: منصور علي عبد السّميع. القاهرة: دار الفكر العربي، 2002.

- الرّشيد، عماد الدّين. أسباب النّزول وأثرها في بيان النّصوص: دراسة مقارنة بين أصول التّفسير وأصول الفقه ([د. م.]: دار الشّهاب، [د. ت.].

- رضا، يوسف محمّد. معجم العربيّة الكلاسيكيّة والمعاصرة. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2006.

- رضوان، محمّد مصطفى وعبد الله درويش ومحمّد التّونجي. التّمهيد في النّحو والصّرف. بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، 1987.

- رضي الدّين، محمّد بن الحسن الأسترابادي. شرح شافية ابن الحاجب. ط1. تقديم: إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

- الرّمالي، ممدوح عبد الرّحمن. العربيّة والوظائف النّحويّة- دراسة في اتّساع النّظام والأساليب. [د. م.]: دار المعارف الجامعيّة، 1996.

- الرّمانيّ، أبو الحسن عليّ بن عيسى بن عليّ. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّمانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ. القاهرة: دار المعارف، 1968.

_____ . الحدود في النّحو. [د. م.]: [د. ن.], [د. ت.].

- _____ .رسالتان في اللغة. عمّان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 1984.
- _____ .معاني الحروف. جدّة: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، 1981.
- روبنز، ر. ه. موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. ترجمة: أحمد عوض. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1997.
- روشن، محمّد باقر سعيد. تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه. بيروت: دار الولااء للطباعة والنشر والتوزيع، 2014.
- الرّومي. فهد بن عبد الرّحمن بن سليمان. دراسات في علوم القرآن الكريم. [د. م.]: [د. ن.]، 2003.
- الرّيسوني، أحمد. نظرية المقاصد عند الشّاطبيّ. هيرندن- فيرجينيا- الولايات المتّحدة الأمريكيّة: المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ، 1995.
- زاهد، زهير غازي. في النصّ القرآنيّ وأساليب تعبيره. عمّان: دار صفاء النّشر والتوزيع، 2012.
- الزّاوي، الطّاهر أحمد. مختار القاموس. طرابلس: الدّار العربيّة للكتاب، 1983.
- الزّبيديّ، أبو بكر محمّد بن الحسن الأندلسيّ، طبقات التّحويين واللّغويين. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، 1984.
- الزّبيديّ، عبد اللّطيف بن أبي بكر الشّرجي. ائتلاف النّصرة في اختلاف نخاة الكوفة والبصرة. تحقيق: طارق الجنابي. الموصل: مكتبة النهضة العربيّة، 1987.
- الزّبيديّ، محمّد مرتضى الحسينيّ. تاج العروس من جواهر القاموس. بيروت: دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع، 1994.
- الزّجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السّريّ. معاني القرآن وإعرابه. شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلي. القاهرة: دار الحدث، 1994.
- الزّجاجيّ، أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق. الإيضاح في علل التّحو. تحقيق مازن مبارك. بيروت: دار التّفائس، 1973.
- _____ .الجمال. تحقيق وشرح: ابن أبي شنب. ط2. باريس: مطبعة كلنكسيك، 1957.
- الزّرقا، مصطفى أحمد. المدخل الفقهيّ العامّ. دمشق: دار القلم، 1998.
- الزّركشيّ، بدر الدّين محمّد بن بهادر. البحر المحيط في أصول الفقه. الكويت: وزارة الأوقاف بالكويت، 1988.

- _____ . البرهان في علم القرآن. القاهرة: مكتبة دار التراث، [د. ت.].
- الزركلي، خير الدين. الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين، [د. ت.].
- زكريا، ميشال. الألسنية: المبادئ والأعلام. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983.
- زكي، أحمد كمال. النقد الأدبي الحديث: أصوله واتجاهاته. بيروت: مكتبة لبنان، 1997.
- _____ . علم اللغة الحديث - المبادئ والأعلام. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.
- _____ . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. القاهرة: مكتبة مصر، [د. ت.].
- _____ . المُفَصَّل في علم العربي. تحقيق: سعيد محود عقيل. بيروت: دار الجيل، 2003.
- الزنّاد، الأزهر. نسيج النصّ: بحثٌ في ما يكون به الملفوظ نصًّا. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1993.
- أبو زيد، عثمان. نحو النصّ: إطار نظريّ ودراسات تطبيقية. إربد: عالم الكتب الحديث، 2009.
- زوين، علي. منهج البحث اللغويّ بين التراث وعلم اللغة الحديث. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986.
- أبو زيد، نصر حامد. مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994.
- أبو زيد، نؤاري سعودي. في تداوليّة الخطاب الأدبي - المبادئ والإجراءات. الجزائر: بيت الحكمة للنشر والتوزيع، 2009.
- زيدان، عبد الجبار فتحي. دراسات في النحو العربي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2006.
- زيدان، جرجي. تاريخ آداب العرب والعربية. بيروت: دار الفكر، 1996.
- _____ . تراجم مشاهير الشرف في القرن التاسع عشر. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1970.
- _____ . بناء النهضة العربية. القاهرة: دار الهلال، 1958.
- ساسي، عمار. المصطلح في اللسان العربي: من آلية الفهم إلى أداة الصناعة. عمّان: جدارا للكتاب العلمي للنشر والتوزيع، 2009.

- السّاقى، فاضل. أقسام الكلام العربيّ من حيث الشّكل والوظيفة. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1977.
- السّامرائي، إبراهيم. الفعل زمانه وأبنيته. بغداد: مطبعة العاني، 1966.
- _____. فقه اللّغة المقارن. بيروت: دار العلم للملايين، 1978.
- _____. من سعة العربيّة. بيّروت: دار الجيل، 1994.
- _____. التّحو العربيّ: نقد وبناء. بيّروت: دار الصّادق، 1968.
- السّامرائي، فاضل صالح. الجملة العربيّة: تأليفها وأقسامها. بغداد: منشورات المجمع العلميّ، 1998.
- _____. التّعبير القرآنيّ. عمّان: دار عمّار، 2007.
- _____. الجملة العربيّة والمعنى. عمّان، دار الفكر ناشرون وموزّعون، 2007.
- _____. الحجاج التّخويّة حتّى نهاية القرن الثّالث الهجريّ. ط1. عمّان: دار عمّار، 2004.
- _____. الدّراسات التّخويّة واللّغويّة عند الرّمحشريّ. بغداد: دار التّديم للصحّافة والنّشر والتّوزيع، 1970.
- _____. على طريق التّفسير البيّانيّ. عمّان: دار الفكر ناشرون وموزّعون، 2010.
- _____. معاني الأبنية في العربيّة. عمّان: دار عمّار للنّشر والتّوزيع، 2007.
- _____. معاني التّحو. عمّان: دار الفكر، 2000.
- _____. لمسات بيّانيّة في نصوص من التّنزيل. عمّان: دار عمّار، 1999.
- ابن أبي الرّبيع، عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشيّ الإشبيليّ السّبّتيّ. البسيط في شرح جمل الرّجّاجيّ. تحقيق ودراسة: عيد النّبّيتي. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1986.
- _____. الكافي في الإفصاح عن مسائل كتاب الإيضاح. تحقيق ودراسة: فيصل الحفيان. ط1. الرّياض: مكتبة الرّشد، 2001.
- السّجلّماسيّ، أبو محمّد القاسم بن محمّد الأنصاريّ. المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع. تقديم وتحقيق: علاّل الغازي. الرّباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1980.
- السّخاويّ، علم الدّين عليّ بن محمّد. المفضّل في شرح المفضّل (باب الحروف). تحقيق يوسف الحشكي. عمّان، وزارة الأوقاف، 2002.

- السّدّ، نور الدّين. الأسلوبية وتحليل الخطاب. الجزائر: دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1997.
- ابن السّراج، أبو بكر محمّد بن سهل النّحويّ البغداديّ. الأصول في النّحو. تحقيق: عبد الحسين الفتلي. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1985.
- _____. الموجز في النّحو. تحقيق وتقديم: مصطفى الشّونويّ وبن سالم دامرجي. بيروت: مؤسّسة بدران، [د. ت.].
- _____. رسالة الاشتقاق ([د. م.]: [د. ن.]: [د. ت.]).
- السّرخسيّ، أحمد بن أبي سهل. أصول السّرخسيّ. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1993.
- سزكين، فؤاد. تاريخ التّراث العربيّ. الرياض - جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة: إدارة الثّقافة والنّشر بالجامعة، 1991.
- السّعران، محمود. علم اللّغة: مقدّمة للقارئ العربيّ. القاهرة: دار الفكر العربيّ، 1997.
- أبو السّعود، محمّد بن محمّد العمادي. تفسير أبي السّعود المسّمّى إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم. إشراف: محمّد عبد اللّطيف. مصر: محمّد عليّ صبيح، [د. ت.].
- السّكّاكيّ، أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن عليّ. مفتاح العلوم. تحقيق وتقديم وفهرسة: عبد الحميد هندراويّ. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2000.
- سلمان، عليّ جاسم. موسوعة معاني الحروف العربيّة. عمّان: دار أسامة، 2003.
- سليمان، فتح الله أحمد. الأسلوبية. القاهرة: الدّار الفنّيّة، 1990.
- السّلسيليّ، أبو عبد الله محمّد بن عيسى. شفاء العليل في إيضاح التّسهيل. دراسة وتحقيق: الشّريف عبد الله الحسينيّ البركاتيّ. مكّة المكرّمة: المكتبة الفيصلية، 1986.
- السّمّقنديّ، أبو النّصر أحمد بن محمّد. الموضّح في التّفسير. تحقيق: صفوان داوودي. دمشق: دار القلم، 1988.
- السّمين الحلبيّ، أحمد بن يوسف. الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون. تحقيق: أحمد محمّد الخراط. ط 1. دمشق: دار القلم، 1993.
- _____. عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ - معجم لغويّ لألفاظ القرآن الكريم. تحقيق: محمّد التّونجي. بيروت: عالم الكتب، 1993.

- السَّهْوَريّ، عليّ بن عبد الله. شرح الأجروميّة في علم العربيّة. دراسة وتحقيق: محمّد خليل شرف. القاهرة: دار السلام، 2006.

- السَّهْليّ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. نتائج الفكر في التَّحْو. القاهرة: دار الاعتصام، 1984.

- دي سوسير، فرديناند. محاضرات في علم اللسان. ترجمة عبد القادر قنيني. الدّار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2006.

- السَّويسيّ، محمّد العاقب بن سيّد محمّد. مرشد الطّالِب في شرح وتحقيق ملحّة الإعراب. ضبط ومراجعة: سعيد محمّد اللّخام. بيروت: عالم الكتب، 1998.

- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2006.

- ابن سيده، أبو الحسن عليّ بن إسماعيل المرسّي. المُحكَّم والمحيط الأعظم. تحقيق: عبد الحميد هندراوي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2000.

- السَّيرافيّ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان. شرح كتاب سيبويه. تحقيق: رمضان عبد التّوّاب ومصطفى سلامة وأشرف غنّام. مراجعة: حسين نصّار. القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة، 1998.

- السيّوطي، جلال الدّين. الإتقان في علوم العلوم. القاهرة: مكتبة دار التّراث، [د. ت.].

_____. الأشباه والنظائر في التَّحْو. تحقيق: محمّد عبد القادر الفاضليّ. ط1. بيروت: المكتبة العصريّة، 1999.

_____. بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة. تحقيق: عليّ محمّد عمر. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2004.

_____. البهجة المرضيّة: شرح السيّوطيّ على ألفيّة ابن مالك مع حاشيته التّحقيقات الوفيّة بما في البهجة المرضيّة من التّكات والرموز الحفّية للغرسيّ. القاهرة: دار السلام، 2000.

_____. في أسباب النزول. تحقيق: محمّد محمّد تامر. [القاهرة]: دار التّقوى، [د. ت.].

_____. الاقتراح في أصول التَّحْو. [د. م.]: دار البيرونيّ، 2004.

_____. المزهر في علوم اللّغة وأنواعها. القاهرة: دار الكتب العلميّة، 1998.

_____. لباب النّقول في أسباب النزول. بيروت: مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، 2002.

_____. معترك الأقران في إعجاز القرآن. تحقيق: عليّ محمّد البجاوي. القاهرة: دار الفكر العربيّ، 1973.

- _____ . هـم الموامع في شرح جمع الجوامع . القاهرة: المكتبة التوفيقية، [د. ت].
- السيد، صبري إبراهيم. لغة القرآن الكريم في سورة التور: دراسة في التركيب النحوي. الإسكندرية: دار المعرفة، 1994.
- السيد، عبد الحميد. دراسات في اللسانيات العربية، بنية الجملة العربية- التراكيب النحوية والتداولية، علم النحو وعلم المعاني. عمان: دار الحامد، 2004.
- أبو شادي، مصطفى. الحذف البلاغي في القرآن. القاهرة: مكتبة القرآن، 1992.
- الشاطي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. الاعتصام. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، [د. ت].
- _____ . المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية. مكة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي وجامعة أم القرى، 2007.
- _____ . الموافقات. الرياض: مكتبة الرشد، 1999.
- الشافعي، محمد بن إدريس. الرسالة. القاهرة: مكتبة دار التراث، 2005.
- شاهين، عبد الصبور. المنهج الصوتي للبنية العربية. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980.
- شاهين، كمال. نظرية النحو العربي القديم: دراسة تحليلية للتراث اللغوي العربي من منظور علم النفس الإدراكي. القاهرة: دار الفكر العربي، 2002.
- الشاوش، محمد. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية- تأسيس "نحو النص". متوبة- تونس: كلية الآداب، 2001.
- الشايب، أحمد. الأسلوب- دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1991.
- الشايب، فوزي حسن. محاضرات في اللسانيات. عمان: منشورات وزارة الثقافة، 1999.
- الشايع، محمد بن عبد الرحمن. أسباب اختلاف المفسرين. الرياض: مكتبة العبيكان، 1995.
- _____ . المكّي والمدني في القرآن الكريم. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1997.
- الشجراوي، عزّام عمر. الفكر البلاغي عند التحويين العرب. عمان: دار البشير، 2002.

- شحاتة، حسن محمود. ظاهرة الاتّساع في التّحو العربيّ. عمّان: دار الفتح للدراسات والنّشر، 2011.
- شديد، صائل رشدي. عناصر تحقيق الدّلالة في العربيّة: دراسة لسانيّة. عمّان: الاهليّة، 2004.
- الشّريبيّ، محمّد بن أحمد الخطيب المصريّ. تفسير الخطيب الشّريبيّ. تخريج وتعليق: إبراهيم شمس الدّين. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2004.
- الشّرتوني، سعيد الخوري. أقرب الموارد في فُصح العربيّة والشّوارد. بيروت: مكتبة لبنان، 1992.
- شرف الدّين، محمود عبد السّلام. الإعراب والتّركيب بين الشّكل والنّسبة، دراسة تفسيريّة. القاهرة: دار مرجان، 1984.
- الشريف، محمّد حسن. معجم حروف المعاني في القرآن الكريم. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1996.
- الشّعراوي، محمّد متولي. تفسير الشعراوي. القاهرة: أخبار اليوم، 1999- [2004].
- شعير، محمّد رزق. الجمل المحتمل للاسميّة والفعليّة. المنصورة: مكتبة جزيرة الورد، [....].
- الشّكيليّ، بسمة بلحاج رحومة. المنوال البلاغيّ العربيّ من البناء القائم إلى البناء الممكن. متوبة- تونس: مخبر نحو الخطاب وبلاغة التّدال- كلّية الآداب والفنون والإنسانيّات بمنوبة، 2014.
- الشّلوبينيّ، عمر بن محمّد الأزديّ. التّوطئة. دراسة وتحقيق: يوسف أحمد مطاوع. [د. م.]: [د. ن.]، 1981.
- شمس الدّين، محمّد جعفر. مباحث ونفحات قرآنيّة. بيروت: دار الهادي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2009.
- الشّنقيطيّ، أحمد بن الأمين. الدرر اللّوامع على همع الهوامع مع شرح جمع الجوامع. تحقيق وشرح: عبدالعال سالم مكرم. الكويت: دار البحوث العلميّة، 1983.
- أبو شهبة، محمّد محمّد. المدخل لدراسة القرآن الكريم. الرياض: دار اللّواء للنّشر والتّوزيع، 1987.
- الشّهريّ، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم. الملل والنّحل. تحقيق: محمّد عبد القادر الفاضلي. بيروت: المكتبة العصريّة، 2000.
- الشّهريّ، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيّات الخطاب: مقارنة لغويّة تداوليّة. بنغازي- ليبيا: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2004.

- شهيد، علاء عبد الأمير. الدلالة المعجمية والسياقية في كتب معاني القرآن، عمان: دار الرضوان للنشر والتوزيع، 2012.

- شوربا، زينب إبراهيم. الاستمولوجيا: دراسة تحليلية لنظرية العلم في التراث. بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2004.

- الشوكاتي، محمد بن علي بن محمد. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. صيدا- بيروت: المكتبة العصرية، 1997.

- الشيباني، محمد بن الحسن. نهج البيان عن كشف معاني القرآن. تحقيق: حسين دركاهي. قم إيران: نشر الهادي، 1998.

- شيخ زاده، محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي. حاشية محبي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البضاوي. ضبط وتصحيح وتخرّيج: محمد عبد القادر شاهين. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.

- صالح، بهجت عبد الواحد. الإعراب المفصل لكتاب الله المنزل. عمان: دار الفكر، 1993.

- الصالح، صبحي. مباحث في علوم القرآن. بيروت: دار العلم للملايين، 1969.

- صالح، محمد أديب. تفسير النصوص في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة لمناهج العلماء في استنباط الأحكام من نصوص الكتاب والسنة. بيروت: المكتب الإسلامي، 1984.

- صالح، محمد سالم. أصول النحو: دراسة في فكر الأنباري. القاهرة: دار السلام، 2006.

- الصاوي، أحمد بن محمد الملكي. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين. القاهرة: شركة القدس للتصدير، 2006.

- الصبان، محمد بن علي. حاشية الصبان على شرح الأشعري على ألفية ابن مالك. ضبط وتخرّيج: إبراهيم شمس الدين. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

- الصبيحي، محمد الأخضر. مدخل إلى علم النصّ ومجالاته التطبيقية. [د. م.]: الدار العربية للعلوم- ناشرون، 2008.

- الصُّحاري، سلمة بن مسلم العَوَظي. كتاب الإبانة في اللغة العربية. تحقيق: عبد الكريم خليفة، نصرت عبدالرحمن، صلاح جرّار، محمد حسن عوّاد، جاسر أبو صفية. عمان: [د. ن.]، 1999.

- صحراوي، مسعود. **التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي**. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2005.
- الصّعيدي، عبد المتعال. **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**. القاهرة: مكتبة الآداب، 1997.
- الصّغير، محمود أحمد. **الأدوات النحوية في كتب التفسير**. دمشق: دار الفكر، 2001.
- صليبا، جميل. **المعجم الفلسفي**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982.
- الضّير، محمد بن مباشر الواسطي. **شرح اللمع في النحو**. تحقيق: رجب عثمان محمد. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2000.
- ضيف، شوقي. **البلاغة تطوّر وتاريخ**. القاهرة: دار المعارف بمصر، [د. ت.].
- الطّبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.
- طحّان، رمون. **الألسنية العربية**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1981.
- طرزي، فؤاد حنا. **الاشتقاق**. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2005.
- _____. **في أصول اللغة والنحو**. بيروت: مكتبة لبنان، 1969.
- الطّليحي، ردة الله بن ردة بن ضيف الله. **دلالة السياق**. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2003.
- الطّليحي، مراجع عبد القادر بالقاسم. **الجواز النحوي ودلالة الإعراب على المعنى**. بنغازي: منشورات جامعة قار يونس، 1992.
- الطّويخي، طلال يحيى. **الجميل التي لا محلّ لها من الإعراب في القرآن الكريم**. عمّان: دار دجلة ناشرون وموزعون، 2011.
- طه، عبد الحميد طه. **دراسات في النحو**. جامعة عين شمس: مكتب سعيد رأفت، 1971.
- ابن طولون، محمد بن عليّ الدمشقي الصّالحي. **شرح ابن طولون على ألفية ابن مالك**. تحقيق: عبد الحميد الكبيسي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002.
- الطّبي، شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله. **التبيان في البيان**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2004.

- ابن الطيّب، أبو عبد الله محمد الفاسي. فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح، وفي أعلاه: الاقتراح في أصول النحو وجدله للسيوطي. تحقيق وشرح: محمود يوسف فجال. دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 2000.

- ظبيان، نشأة محمد رضا. علوم اللغة العربية في الآيات المعجزات - علم أصوات اللسان العربي. بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997.

- عاصي، ميشال وإميل بديع يعقوب. المعجم المفصل في اللغة والأدب. بيروت: دار العلم للملايين، 1987.

- عاشور، المنصف. بنية الجملة العربية بين التحليل والنظرية. تونس: منشورات كلية الآداب بمتوبة، 1991.

_____. ظاهرة الاسم في التفكير النحوي. تونس: منشورات كلية الآداب بمتوبة، 1999.

- ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، [د. ت.].

- عبابنة، سامي محمد. التفكير الأسلوبي: رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث. عمان: جدارا للكتاب العربي، 2007.

- ابن عباد، الصاحب. المحيط في اللغة. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. بيروت: عالم الكتب، 1994.

- عباس، إحسان، أوراق مبعثرة: بحوث ودراسات في الثقافة والتاريخ والأدب والنقد الأدبي. عمان: جدارا للكتاب العالمي، 2006.

_____. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1993.

_____. فن الشعر. بيروت: دار صادر، 1996.

- عباس، فضل حسن. اتقان البرهان. عمان: دار الفرقان، 1997.

_____. لطائف المتان وروائع البيان في نفي الزيادة والحذف في القرآن - دراسة بيانية لإعجاز القرآن الكريم ونظمه وأسلوبه. عمان: دار التفائس للنشر والتوزيع، 2010.

- عبد الباقي، محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. القاهرة: دار الحديث، 1996.

- عبد الجليل، عبد القادر. الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية. سلطنة عمان: دار صفاء للنشر، 2002.

_____. علم الصرف الصوتي. عمان: دار أزمنة للنشر والتوزيع، 1998.

_____ . علم اللسانيات الحديثة: نظم التحكم وقواعد البيانات. عمان: دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2002.

_____ . المعجم الوصفي لمباحث علم الدلالة العام. عمان: دار صفاء، 2006.

_____ . المعجم الوظيفي لمقاييس الأدوات النحوية والصرفية. عمان: دار صفاء، 2006.

- عبد الحميد، محمد محيي الدين. التحفة السنية بشرح المقدمة الأجرومية. القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، 1972.

_____ . شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري. القاهرة: دار الطلائع، 2004.

- عبد الدائم، محمد عبد العزيز. النظرية اللغوية في التراث العربي. القاهرة: دار السلام، 2006.

- عبد الراضي، أحمد محمد. من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2007.

_____ . نحو النص بين الأصالة والحداثة. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008.

- عبد الرحمن، طه. تجديد المنهج في تقويم التراث. الرباط: المركز الثقافي العربي، 1993.

- عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ). الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق. القاهرة: دار المعارف بمصر، [د.ت].

_____ . التفسير البياني للقرآن الكريم. القاهرة: دار المعارف، [د.ت].

_____ . القرآن والتفسير العصري. القاهرة: مكتبة المعارف، 1970.

_____ . لغتنا والحياة. القاهرة: دار المعارف، 1971.

- ابن عبد السلام، عز الدين. الإمام في بيان أدلة الأحكام. بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1987.

- عبد اللطيف، محمد حماسة. الإبداع الموازي. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2001.

_____ . بناء الجملة العربية القاهرة: دار الشروق، 1996.

_____ . ظواهر نحوية في الشعر الحر: دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور. القاهرة: دار غريب، 2001.

_____ . العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2001.

- _____ .اللغة وبناء الشعر. القاهرة: دار غريب، 2001.
- _____ .التحو والدلالة. القاهرة: دار الشروق، 2000.
- عبد الله، شكر محمود. دلالة الجملة الاسمية في القرآن الكريم. عمان: دار دجلة، 2009.
- أبو عبد الله، عبد العزيز عبده. المعنى والإعراب عند التحوين ونظرية العامل. طرابلس: منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطالع، 1982.
- عبد المطّلب، محمد. البلاغة والأسلوبية. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، 1994.
- _____ .البلاغة العربية: قراءة أخرى. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997.
- _____ .قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني. الجيزة- مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، 1995.
- عبّود، مارون. أدب العرب. بيروت: دار مارون عبّود، 1968.
- عبّيد، حيدر حسين. الحذف بين التحوين والبلاغيين. بيروت: دار الكتب العلمية، 2013.
- العبيدان، موسى بن مصطفى. دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين. دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، 2002.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي. مجاز القرآن. تعليق: محمد فؤاد سركين. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1954.
- عتر، نور الدين محمد. علوم القرآن. دمشق: مطبعة الصباح، 1993.
- عتيق، عمر عبد الهادي. ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: التركيب والرسم والإيقاع. إربد: عالم الكتب الحديث، 2010.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ([د. م.]: مكتبة العلم الحديث، [د. ت.]).
- أبو العدوس، يوسف. الأسلوبية: الرؤية والتطبيق. عمان: دار المسيرة، 2013.
- ابن عربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. أحكام القرآن. تحقيق: عماد زكي البارودي. القاهرة: المكتبة التوفيقية، [د. ت.].
- العسقلاني، ابن حجر. غراس الأساس. القاهرة: مكتبة وهبة، 1990.

- عشير، عبد السلام. عندما نتواصل نُغيّر: مقارنة تداوليّة معرفيّة لآليات التواصل والحجاج. الدّار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2006.

- عصفور، جابر. نظريّات معاصرة. القاهرة: مكتبة الأسرة-الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1998.

- ابن عصفور، أبو الحسن بن مؤمن بن محمّد الإشبيليّ. شرح جمل الزّجاجي. قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: فوز الشّعار. إشراف: أميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

_____. المُقَرَّب. تحقيق: أحمد الجوّاري وعبد الله الجبوريّ. بغداد: وزارة الأوقاف والشّؤون الدّينيّة ولجنة إحياء التّراث الإسلاميّ، 1971.

- العطار، حسن بن محمّد. حاشية العطار على شرح الأزهريّة في علم التّحو للشيخ خالد الأزهرّي. مصر: مكتبة ومطبعة محمّد علي صبيح، 1834.

_____. حاشية العطار على جمع الجوامع. بيروت: دار الكتب العلميّة، [د. ت.].

- ابن عطية الأندلسيّ، أبو محمّد عبد الحقّ بن غالب. المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ([د. م.]: [د. ن.])، [د. ت.].

- عفيفي، أحمد. ظاهرة التّخفيف في التّحو العربيّ. القاهرة: الدّار المصريّة اللّبنانيّة، 1996.

_____. نحو التّص: اتّجاه جديد في الدّرس التّحويّ. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2001.

_____. نحو التّصّ والتحليل اللّغويّ. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1999.

- ابن عقيل، بهاء الدّين عبد الله بن عبد الرّحمن الهمدانيّ المصريّ. شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك. تحقيق: حنا الفاخوريّ. بيروت: دار الجيل، 1989.

_____. المساعد على تسهيل الفوائد. تحقيق ودراسة: محمّد كامل بركات. ط1. دمشق: دار الفكر، 1982.

- العكبريّ، ابن برهان الأسديّ. شرح اللمع. تحقيق: فائز فارس. الكويت: [د. ن.]. 1984.

- العكبريّ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين. إملاء ما مَنّ به الرّحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن. تصحيح وتحقيق: إبراهيم عطوة عوض. القاهرة، دار الحديث 1992.

_____. التّبيان في إعراب القرآن. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

_____ . التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين. تحقيق ودراسة: عبد الرحمن سليمان العثيمين. بيروت:

دار الغرب الإسلامي، 1986.

_____ . اللُّباب في علل البناء والإعراب. تحقيق: غازي مختار طليمات. بيروت: دار الفكر المعاصر. دمشق: دار

الفكر، 1995.

_____ . مسائل خلافيّة في النّحو. تحقيق وتقديم: محمّد خير الحلواني. حلب: منشورات مكتبة الشهباء، [196].

- العكّ، خالد عبد الرحمن. أصول التفسير وقواعده. بيروت: دار الفوائد، 1986.

- العلّاني، محمّد الحبيب. الشّاهد القرآنيّ في كتاب "المفصل" للزمخشريّ. تونس: دار سحنون للنشر والتّوزيع، 2014.

- علوان، عبد الله وآخرون، إعراب القرآن الكريم. تقديم: عبده الزّاجحي ومحمود سليمان ياقوت. مراجعة وتقديم:

فتحي الدّابولي، وإبراهيم البنا، ومحمّد محمّد العبد. طنطا: دار الصحابة للتراث بطنطا، 2006.

- العلواني، طه جابر. السّياق: المفهوم- المنهج- النظريّة. الرّباط: دار أبي رقرق للطباعة والنّشر، 2007.

- علوي، حافظ إسماعيل. اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة المعاصرة- دراسة تحليليّة نقدية في قضايا التّلقّي وإشكالاته.

بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2009.

- علوي، حافظ إسماعيل ومحمد الملاح. قضايا إبستمولوجيّة في اللّسانيّات. بيروت: الدّار العربيّة للعلوم ناشرون،

2009.

- العلوي، شفيقة. محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة. بيروت: أبحاث للترجمة والنّشر والتّوزيع، 2004.

- عليّ، عيسى شحاتة عيسى. العربيّة والنّصّ القرآنيّ: دراسة للقضايا اللّغويّة في كتب إعراب القرآن ومعانيه في

أوائل القرن الثّالث الهجريّ. القاهرة: دار قباء، 2000.

- عليّ، محمّد محمّد يونس. المعنى وظلال المعنى. بيروت: دار المدار الإسلاميّ، 2007.

_____ . مقدّمة في علمي الدّلالة والتّخاطب. بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2004.

- ابن العماد الحنبليّ، أبو الفلاح شهاب الدّين عبد الحيّ بن أحمد بن محمّد. شذرات الدّهب في أخبار مَنْ ذهب.

بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

- عمر، أحمد مختار. البحث اللّغويّ عند العرب - مع دراسة لقضيّة التّأثير والتّأثّر. القاهرة: دار المعارف، 1971.

- _____ . دراسة الصوت اللغوي. القاهرة: عالم الكتب، 1976.
- _____ . صناعة المعجم الحديث. القاهرة: عالم الكتب، 2009.
- _____ . قاموس القرآن الكريم: لغة القرآن - دراسة توثيقية فنية. الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1997.
- _____ . علم الدلالة. الكويت: مكتبة دار المعرفة، 1998.
- _____ . معجم اللغة العربية المعاصرة. القاهرة: عالم الكتب، 2008.
- العمري، محمد. في بلاغة الخطاب الإقناعي. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1986.
- العموش، خلود. الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق. إربد: جدارا للكتاب العلمي، 2009.
- عواد، محمد حسن. تناوب حروف الجر في لغة القرآن. عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، 1982.
- العوادي، مشكور. البحث الدلالي في تفسير الميزان. بيروت: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.
- العوادي، أسعد خلف. سياق الحال في كتاب سيبويه: دراسة في النحو والدلالة. عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، 2010.
- عون، حسن. دراسات في اللغة والنحو العربي. [القاهرة]: جامعة الدول العربية - معهد البحوث والدراسات العربية، 1969.
- عون، نسيم. الألسنية: محاضرات في علم الدلالة. بيروت: دار الفارابي، 2005.
- عياد، شكري محمد. اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1988.
- _____ . مدخل إلى علم الأسلوب. الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، 1982.
- عياشي، منذر. الأسلوبية وتحليل الخطاب، حلب: مركز الإنماء الحضاري، 2002.
- _____ . العلاماتية وعلم النص. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2004.
- _____ . اللسانيات والدلالة: الكلمة. حلب: مركز الإنماء الحضاري، 1996.
- _____ . مقالات في الأسلوبية. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1990.
- غالي، وجدي رزق. معجم لونغمان للإنجليزية الحديثة. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 2007.

- الغدّامي، عبد الله محمّد. الخطيئة والتكفير: من النبويّة الى التّشريحية: مقدّمة نظريّة، دراسة تطبيقية. الكويت: دار سعاد الصباح، 1993.

- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الرّبير الثّقفيّ العاصميّ. ملاك التّأويل: القاطع بذي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التّنزيل. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1983.

- الغزاليّ، أبو حامد محمّد بن محمّد. شفاء الغليل في بيان الشّبه والمخيّل ومسالك التعليل. بغداد: مطبعة الإرشاد، 1971.

_____. المستصفى من علم الأصول. المدينة المنوّرة: الجامعة الإسلاميّة-كلّيّة الشّريعة، [د. ت.].

- الغزنويّ، محمود بن أبي الحسن التّيسابوريّ. باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن. دراسة وتحقيق: سعاد باقي. مكّة المكرّمة: معهد البحوث العلميّة وإحياء التّراث الإسلاميّ، 1997.

_____. وضع البرهان في مشكلات القرآن. تحقيق: صفوان داوودي. دمشق: دار القلم، 1996.

- الغلابيني، مصطفى. جامع الدّروس العربيّة. ضبط وتحرير: محمّد فريد. القاهرة: المكتبة التّوفيقية، 2003.

- فائق، لمى. الوظيفة اللّغوية في الدّراسات العربيّة الحديثة. بغداد: جامعة بغداد، 2000.

- ابن فارس، أحمد. الصّاحبيّ. القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، [د. ت.].

_____. معجم مقاييس اللّغة. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1999.

- الفارسيّ، أبو عليّ الحسن بن أحمد. التعلّيق على كتاب سيّويه. تحقيق وتعليق: عوض بن حمد القوزي. [د. م.]: [د. ن.], 1990.

- الفاكهيّ، عبد الله بن أحمد. الفواكه الجنيّة وهو شرح على متمم الآجرومية. القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، 1932.

- فجّال، محمود. الإصباح في شرح الاقتراح. دمشق: دار القلم، 1989.

- فدا، هيفاء عثمان عبّاس. زيادة الحروف بين التّأييد والمنع وأسرارها البلاغيّة في القرآن الكريم. القاهرة: مكتبة القاهرة للكتاب، 2000.

- الفراهيّ، عبد الحميد. دلائل النّظام. أعظم كره- الهند: المطبعة الحميديّة، 1967.

- الفراهيديّ، الخليل بن أحمد. العَيْن. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1988.

_____ . كتاب الجمل في النحو. تحقيق: فخر الدين قباوة. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985.

- أبو الفرج، محمد أحمد. المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث. القاهرة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1966.

- فرحات، أحمد حسن. معاجم مفردات القرآن: موازنات ومقترحات. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، [د. ت.].

- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد. معاني القرآن. إعداد ودراسة: إبراهيم الدسوقي عبد العزيز. إشراف ومراجعة: عبد الصبور شاهين. القاهرة: مركز الأهرام، 1989.

- فريجة، أنيس. نحو عربية ميسرة. بيروت: دار الثقافة، 1955.

- فضل، صلاح. بلاغة الخطاب وعلم النصّ. الجيزة- مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 1996.

_____ . علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته. القاهرة: دار الشروق، 1998.

_____ . نظرية البنائية في النقد الأدبي. القاهرة، دار الشروق، 1998.

- الفضلي، عبد الهادي. القراءات القرآنية: تاريخ وتعريف. جدة: دار المجمع العلمي، 1979.

- النفّي، صبحي إبراهيم. علم اللغة النصّي: دراسة تطبيقية على السور المكيّة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، (2000).

- فك، يوهان. العربية- دراسات في اللغة واللهجات والأساليب. ترجمة: رمضان عبد التّوّاب. القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي، 1951.

- ابن فلاح، تقي الدّين منصور اليميني. المغني في النحو. بغداد: دار الشؤون الثقافيّة العامّة، 1999.

- فندريس، جوزيف. اللغة. ترجمة: إبراهيم القعيد. القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، 1950.

- الفهري، عبد القادر الفاسي. اللسانيات واللغة العربيّة. بيروت: منشورات عويدات، 1986.

- الفوزان، عبد الله بن صالح. تعجيل النّدى بشرح قطر النّدى. الرياض: مكتبة الرّشد، 1999.

- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. القاهرة: المكتبة التوقيفية، [د. ت.].
- فيشر، أوجست. المعجم اللغوي التاريخي. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1967.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. المصباح المنير. مراجعة: عزت زينهم عبد الواحد. المنصورة- مصر: مكتبة الإيمان، 2008.
- القاسمي، علي. المصطلحية: مقدمة في علم المصطلح. بغداد: دار الشؤون الثقافية والنشر، 1987.
- القاضي عبد الجبار، أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسدي. متشابه القرآن. تحقيق: عدنان محمد زرزور. القاهرة: دار التراث، 1969.
- _____. المغني في أبواب التوحيد والعدل. تحقيق: خضر محمد نبها. بيروت: دار الكتب العلمية، 2011.
- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم. البارع في اللغة. بيروت: دار الحضارة العربية، 1975.
- قباوة، فخر الدين. إعراب الجمل وأشباه الجمل. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1981.
- _____. التحليل النحوي، أصوله وأدلته. الجيزة: الشركة المصرية العالمية للنشر، 2002.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم الدينوري. تأويل مشكل القرآن. القاهرة: دار التراث، 1973.
- _____. كتاب تلقين المتعلم من النحو. تحقيق وتعليق: جمال عبد العاطي مخيمر. ط1. [د.م.]: [د.ن.]، 1989.
- قدامة بن جعفر، أبو الفرج. جواهر الألفاظ. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العلمية، 2009.
- قدور، أحمد. مبادئ اللسانيات. بيروت: دار الفكر المعاصر، 1996.
- القرطبي، ابن مضاء. كتاب الرد على النحاة. تحقيق: شوقي ضيف. القاهرة: دار المعارف، 1982.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لإحكام القرآن. القاهرة: دار الحديث، 2002.
- القرعان، فايز. دراسات أسلوبية في النص القرآني. إربد: عالم الكتب الحديث، 2004.
- القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة (مختصر تلخيص المفتاح). تحقيق ومراجعة: الشيخ بهج غزاوي. بيروت: دار إحياء العلوم، 1988.

- _____ . الإيضاح لتلخيص المفتاح. القاهرة: مؤسسة المختار، 1998.
- _____ . تلخيص المفتاح. تحقيق: ياسين الأيوبي. بيروت: المكتبة العصرية، 2002.
- القصّاص، عبد المنعم. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. القاهرة: [د. ت.]، 1990.
- القطّان، منّاع. مباحث في علوم القرآن. الرياض: الدّار السّعوديّة للنّشر، [د. ت.].
- القفطيّ، أبو الحسن جمال الدّين عليّ بن يوسف. إنباه الرّواة على أنباه التّحاة. القاهرة: دار الفكر، 1986.
- القنوجي، صديق بن حسن بن عليّ البخاري. فتح البيان في مقاصد القرآن. غني بطبعه وقدم له وراجعته: عبد الله الأنصاري. صيدا، المكتبة العصرية، 1992.
- القنويّ، عصام الدّين إسماعيل بن محمّد بن محمّد الحنفيّ. حاشية القنويّ على تفسير البيضاويّ ومعه حاشية ابن التّمجيد. ضبطه وصحّحه وخرّج آياته: عبد الله محمود محمّد عمر. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001.
- القيسيّ، أبو محمّد مكّيّ بن أبي طالب. مشكل إعراب القرآن. تحقيق: حاتم صالح ضامن. ط1. دمشق: دار البشائر للطباعة والنّشر والتّوزيع، 2003.
- ابن قيم الجوزيّة، أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر. التّبيان في أقسام القرآن. تقديم وتحقيق وتعليق: محمّد شريف سكر. بيروت: دار إحياء العلوم، 1988.
- الكافيّ، محيي الدّين محمّد بن سليمان. التّيسير في قواعد التّفسير. القاهرة: مكتبة القدسي للنّشر والتّوزيع، 1998.
- كامل، فؤاد وآخرون، الموسوعة الفلسفيّة المختصرة. بيروت: دار القلم، 1980.
- الكتّاني، محمّد. موسوعة المصطلح في التّراث العربيّ: الدّينيّ والعلميّ والأدبيّ. الدّار البيضاء: دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، 2014.
- الكرّمي، حسن سعيد. الهادي إلى لغة العرب - قاموس عربي-عربي. بيروت: دار لبنان للطباعة والنّشر، 1992.
- الكرّمي، محمّد. الوشاح على الشّرح المختصر لتلخيص المفتاح. قم: المطبعة المدنيّة، 1955.
- كريدان، محمّد الهادي، مكّيّ القرآن ومدنيّه. طرابلس: المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، 1984.
- كريستيفا، يوليا. علم النّصّ. ترجمة: فريد زاهي. مراجعة: عبد الجليل ناظم. الدّار البيضاء: دار توبقال للنّشر، 1991.

- الكفوي، أبو البقاء بن عبد القادر الحسيني الحنفي. **الكليات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
- ابن كمال باشا، أحمد بن سليمان. **أسرار النحو**. تحقيق: أحمد حسن حامد. عمان: دار الفكر، 1983.
- الكناي، أشرف. **الأدلة الاستثنائية عند الأصوليين**. عمان: دار التفائس، 2005.
- الكوفي، عمر بن إبراهيم. **البيان في شرح اللمع لابن جني**. دراسة وتحقيق: علاء الدين حموي. عمان: دار عمّار، 2002.
- الكوّاز، محمد كريم. **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم**. بنغازي: دار الكتب الوطنية، 1997.
- _____. **البلاغة النقد: المصطلح والنشأة والتجديد**. بيروت: الانتشار العربي، 2006.
- الكيشي، محمد بن أحمد عبد اللطيف القرشي. **الإرشاد إلى علم الإعراب**. تحقيق: يحيى مراد. القاهرة: دار الحديث، 2004.
- لاشين، عبدالفتاح. **بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية**. القاهرة: دار الفكر العربي، [د. ت.].
- _____. **التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر**. الرياض: دار المريخ، 1980.
- _____. **المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم**. القاهرة: دار الفكر العربي، 2000.
- اللبدي، محمد سمير نجيب. **معجم المصطلحات النحوية والصرفية**. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985.
- لوتمان، يوري ميخائيلوفيتش. **تحليل النص الشعري - بنية القصيدة**. ترجمة: محمد فتوح أحمد. القاهرة: دار المعارف، 1995.
- لوشن، نور الهدى. **علم الدلالة دراسة وتطبيقاً**. بنغازي - ليبيا: منشورات جامعة قار يونس، 1995.
- _____. **مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**. الشارقة: جامعة الشارقة، 2006.
- لويس، م. م. **اللغة في المجتمع**. ترجمة: تمام حسان. مراجعة: إبراهيم أنيس. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية - عيسى الباب الحلي وشركاه، 1959.
- الماضي، سامي. **الدلالة النحوية في كتاب المبرد محمد بن يزيد**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2009.

- المالقي، أحمد بن عبد التّور. **رصف المباني في شرح حروف المعاني**. دمشق: دار القلم، 1985.
- ابن مالك، جمال الدّين محمّد بن عبد الله الجيّاني. **شرح التّسهيل لابن مالك**. تحقيق: عبد الرّحمن السيّد، محمّد بدوي المختون. القاهرة: هجر، 1990.
- _____. **شرح عمدة الحافظ وعدّة اللفظ**. تحقيق: عدنان عبد الرّحمن الدّوري. بغداد: وزارة الأوقاف، 1977.
- _____. **شرح الكافية الشّافية**. تحقيق: علي محمّد معوّض، عادل أحمد عبد الجوّاد. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2000.
- المالكي، محمّد. **دراسة الطّبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996.
- مبارك، مبارك. **معجم المصطلحات الّلغويّة: فرنسي - إنكليزي - عربي**. بيروت: دار الفكر اللّبناني، 1995.
- مبارك، مازن. **النّحو العربيّ: العلة النّحويّة: نشأتها وتطوّرها**. القاهرة: المكتبة الحديثة، 1965.
- _____. **نحو وعي لغويّ**. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1979.
- مبارك، زكي. **النّثر الفنيّ في القرن الرّابع**. القاهرة: دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، [د. ت.].
- المبارك، محمّد. **دراسة أدبيّة لنصوص من القرآن**. [د. م.]: دار الفكر، 1973.
- المبرّد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد. **البلاغة**. القاهرة: مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 1985.
- _____. **المقتضب**. تحقيق: حسن محمّد. مراجعة: إميل يعقوب. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1999.
- المتوكّل، أحمد. **قضايا اللّغة العربيّة في اللّسانيّات الوظيفيّة - البنية التّحتيّة أو التّمثيل الدّلاليّ التّداولي**. الرّباط: دار الامان، 1995.
- المجاشعي، أبو الحسن عليّ بن فضّال. **شرح عيون الإعراب**. تحقيق: حتّا جميل حدّاد. الرّزقاء: مكتبة المنار، 1985.
- مجدوب، عزّ الدّين. **المنوال النّحويّ العربيّ: قراءة لسانيّة جديدة**. صفاقس-تونس: دار محمّد الحامي للنّشر والتّوزيع، 1998.
- محسب، محيي الدّين. **الثّقافة المنطقيّة في الفكر النّحويّ**. الرّياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، 2007.

- محمد، أحمد سعد. الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي. القاهرة: مكتبة الآداب، 1999.
- محمد، عبد الله أحمد بن أحمد. النحو العربي بين القديم والحديث: مقارنة وتحليل. عمان: دروب للنشر والتوزيع، 2011.
- ابن محمود، محمد بن عبد الله. الكفاية في النحو. تحقيق ودراسة: إسحاق الجعبري. القدس: دار ابن حزم، 2005.
- المخزومي، مهدي. في النحو العربي: نقد وتوجيه. صيدا: المكتبة العصرية، 1964.
- _____. في النحو العربي: قواعد وتطبيق. القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، 1966.
- مدكور، إبراهيم وآخرون. المعجم الوسيط. القاهرة- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث: مكتبة الشروق الدولية، 2004.
- المرادي، الحسن بن قاسم. الجنى الداني في حروف المعاني. تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983.
- المراغي، أحمد مصطفى. علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع. القاهرة: دار الآفاق العربية، 2000.
- ابن المُرْتَضَى، أحمد بن يحيى. تاج علوم الأدب وقانون كلام العرب. دراسة وتحقيق: نوري ياسين الهيتي. صنعاء: إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، 2004.
- مرزوق، حلمي. في فلسفة البلاغة العربية- علم المعاني. الإسكندرية: دار الوفاء، 2004.
- المسدي، عبد السلام. الأسلوبية والأسلوب: دراسة نقدية. الكويت: دار سعاد الصباح، 1993.
- _____. التفكير اللساني في الحضارة العربية. تونس: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009.
- _____. العربية والإعراب. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010.
- _____. اللسانيات وأسسها المعرفية. تونس: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
- _____. ما وراء اللغة: بحث في الخلفيات المعرفية. تونس: مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، 1994.
- مصطفى، إبراهيم. إحياء النحو. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937.
- المطرزي، ناصر الدين عبد السيد بن أبي المكارم. المصباح في علم النحو. تحقيق: ياسين الخطيب. مراجعة: مازن المبارك. بيروت: دار التفائس، 1997.

- مطلوب، أحمد. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. بيروت: مكتبة لبنان، 1996.
- مطهري، صفية. الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2003.
- المعيوف، علي بن معيوف بن عبد العزيز. المركب الاسمي في كتاب سيبويه. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2007.
- المفتي، الحسن بن عثمان بن الحسين. خلاصة المعاني. تحقيق ودراسة: عبد القادر حسين. القاهرة: دار الاعتصام، 1989.
- مقبول، إدريس. الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر التحوي عند سيبويه. إريد: عالم الكتب الحديث، 2007.
- _____. الأفق التداولي: نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية. إريد: عالم الكتب الحديث، 2011.
- _____. السياق في تداوليات أبي إسحاق الشاطبي. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2007.
- المقدسي، عز الدين عبد السلام بن أحمد. تلخيص العبارة في نحو أهل الإشارة. تحقيق: خالد زهري. بيروت: دار الكتب العلمية، 2006.
- أبو المكارم، علي. الظواهر اللغوية في التراث التحوي. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.
- مكرم، عبدالعال سالم. قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1998.
- _____. من الدراسات الإسلامية. القاهرة: عالم الكتب، 2001.
- الملاح، محمد. الزمن في اللغة العربية: بنياته التركيبية والدلالية. الرباط: دار الأمان، 2009.
- المُنَاوِي، محمد عبد الرؤوف. التوقيف على مهمات التعاريف. تحقيق: محمد رضوان الداية. بيروت: دار الفكر المعاصر، 1990.
- المُنْتَجَب الهمداني، حسين بن أبي العز. الفريد في إعراب القرآن المجيد. تحقيق: فهمي حسن النمر وفؤاد علي مخيمر. الدوحة: دار الثقافة، 1991.
- المنجد، محمد نور الدين. اتساع الدلالة في الخطاب القرآني. دمشق: دار الفكر، 2010.
- مندور، محمد. اللغة بين العقل والمغامرة. الإسكندرية: منشأة المعارف، 1979.
- ابن منظور، لسان العرب. القاهرة: دار الحديث، 2003.

- المهيري، عبد القادر. بحوث في اللغة. تونس: جامعة منوبة، 2008.
- _____. نظرات في التراث اللغوي العربي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993.
- الموزعي، محمد بن علي بن الخطيب المعروف بـ"ابن نور الدين". مصابيح المغاني في حروف المغاني. دراسة وتحقيق: عائض العمري. القاهرة: دار المنار، 1993.
- الموسى، نهاد. الصورة والصيرورة: بصائر في أحوال الظاهرة التحويلية ونظرية النحو العربي. عمان: دار الشروق، 2003.
- _____. اللغة العربية في العصر الحديث: قيم الثبوت وقوى التحول. عمان: دار الشروق، 2007.
- _____. نظرية النحو العربي في ضوء النظر اللغوي الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980.
- أبو موسى، محمد محمد. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية. القاهرة: مكتبة وهبة، 1988.
- ناصر، بتول قاسم. دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء. بغداد: دائرة الشؤون الثقافية العامة، 1999.
- ناصف، مصطفى. اللغة والتفسير والتواصل. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1995.
- ابن الناطم، بدر الدين محمد. شرح ألفية ابن مالك. تصحيح: محمد البليدي. طهران: انتشارات ناصر خسرو، 1894.
- بن نبي، مالك. الظاهرة القرآنية. ترجمة: عبد الصبور شاهين. بيروت: دار الفكر، 1968.
- التجار، محمد عبد العزيز. ضياء السالك إلى أوضح المسالك. القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، 1969.
- التجار، نادية رمضان. اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين. مراجعة وتقديم: عبده الزجاجي. الإسكندرية، دار الوفاء، 2004.
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد. إعراب القرآن. تحقيق: زهير غازي زاهد. بيروت: عالم الكتب، 1985-1988.
- _____. شرح أبيات سيبويه. تحقيق: أحمد خطّاب. حلب: المكتبة العربية، 1974.
- _____. معاني القرآن الكريم. تحقيق: محمد علي الصابوني. مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 1989.
- النحاس، مصطفى. من قضايا اللغة. الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، 1995.

- نخلة، محمود أحمد. أصول النحو العربي. بيروت: دار العلوم العربية، 1987.
- _____ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. [القاهرة]- مصر: دار المعرفة الجامعية، 2002.
- _____ التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1999.
- التّسفيّ، عبد الله بن أحمد. تفسير التّسفيّ: مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل. تحقيق: مروان الشّعار. بيروت: دار التفائس، 1996.
- نصّار، حسين. المعجم العربي: نشأته وتطوّره. القاهرة: دار مصر للطباعة، 1988.
- التّواجي، أشرف ماهر. مصطلحات علم أصول النّحو: دراسة وكشّاف معجمي. القاهرة: دار غريب، 2001.
- التّورج، حمدي. في تحليل الخطاب: رؤية منهجية ونماذج تطبيقية. القاهرة: عالم الكتب، 2014.
- نور الدّين، عصام. الفعل والزّمن. بيروت: المؤسّسة الجامعية للدراسات والنّشر والتّوزيع، 1984.
- ابن نور الدّين، محمّد بن عليّ بن الخطيب الموزعيّ. مصابيح المعاني في حروف المعاني. القاهرة: دار المنار للطّبع والنّشر والتّوزيع، 1993.
- التّويري، محمّد. علم الكلام والنّظرية البلاغية عند العرب. صفاقس-تونس: دار محمّد علي الحامي للنّشر والتّوزيع، 2001.
- نحر، هادي. التّراكيب اللّغوية. عمّان: دار البازوريّ العلميّة، 2004.
- _____ الصّرف الوافي: دراسات وصفية تطبيقية. إربد: عالم الكتب الحديثة، 2010.
- التّيسابوريّ، أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحدي. الوسيط في تفسير القرآن المجيد. تحقيق وتعليق: عادل عبد الموجود، علي معوّض، أحمد صيرة، أحمد الجمل. تقديم وتقرير: عبد الحيّ الفرماويّ. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1994.
- التّيسابوريّ، نظام الدّين الحسن بن محمّد القمّيّ. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1996.
- الهاشمي، السيّد أحمد بن إبراهيم. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. ضبطه وعلّق عليه: محمّد رضوان مهنا. المنصورة: مكتبة الإيمان، 1999.
- هبّود، بركات يوسف. مصباح السّالك إلى أوضاع المسالك. بيّروت: دار الفكر، 1994.

- الهروي، علي بن محمد. كتاب الازهرية في علم الحروف. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1981.
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف الأنصاري. الإعراب عن قواعد الإعراب. تقديم وتحقيق: رشيد عبد الرحمن العبيدي. بيروت: دار الفكر، 1970.
- _____. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (ومعه كتاب عدة السلك إلى تحقيق أوضح المسالك لمحمد محيي الدين عبد الحميد). القاهرة: دار الطلائع، 2004.
- _____. رسالتان في لغة القرآن: مسائل في إعراب القرآن. تقديم وتحقيق: صاحب جعفر أبو جناح. عمان: دار الفكر، 1999.
- _____. شرح جمل الزجاجي. دراسة وتحقيق: علي محسن عيسى مال الله. بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، 1986.
- _____. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب. رتبه وعلق عليه وشرح شواهد: عبد الغني الدقر. ط2. دمشق: مؤسسة الرسالة، 1994.
- _____. شرح قطر الندى وبل الصدى ومعه كتاب سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر الندى لمحمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، 1995.
- _____. شرح اللوحة البدرية في علم اللغة العربية. دراسة وتحقيق: هادي نمر. عمان: اليازوري، 2007.
- _____. مغني اللبيب عن كتب الأعراب. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، 1996.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، الفروق في اللغة. تحقيق: محمد إبراهيم سليم. القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، [د. ت.].
- _____. كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1952.
- الهلالي، هادي عطية مطر. الحروف العاملة في القرآن الكريم بين التحوين والبلاغيين. بيروت: عالم الكتب، 1986.
- وجدي، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. بيروت: دار المعرفة، 1971.

- الورّاق، أبو الحسن محمّد بن عبد الله. علل النّحو. تحقيق: محمود محمّد محمود نصّار. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2002.

- الوزان، تحسين عبد الرّضا. الصّوت والمعنى في الدّرس اللّغويّ عند العرب في ضوء علم اللّغة الحديث. عمّان: دار
دجلة، 2011.

- الوعر، مازن. قضايا أساسيّة في علم اللّسانيّات الحديث. دمشق: دار طلاس، 1988.

- وهبة، مجدي. معجم المصطلحات الأدبيّة. بيروت: مكتبة لبنان، [د. ت.].

- الياسري، علي مزهر. الفكر النّحويّ عند العرب: أصوله ومناهجه. بيروت: الدّار العربيّة للموسوعات، 2003.

- آل ياسين، محمّد حسين. الدّراسات اللّغويّة عند العرب إلى نهاية القرن الثّالث. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1980.

- ياقوت، أحمد سليمان. أصول النّحو العربيّ. الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة، 2000.

_____. إعراب القرآن الكريم. [د. م.]: دار المعرفة الجامعيّة، 1993-1999.

_____. الإعراب المفصّل. الإسكندريّة: دار المعرفة، 1993.

_____. ظاهرة الإعراب في النّحو العربيّ وتطبيقاتها في القرآن الكريم. الإسكندريّة، دار المعرفة الجامعيّة، 1994.

ياقوت، محمود سليمان. أصول النّحو العربيّ. الإسكندريّة، دار المعرفة الجامعيّة، 2000.

_____. الصّرف التّعليميّ والتّطبيق في القرآن الكريم. الكويت: مكتبة المنار الإسلاميّة، 1999.

_____. النّحو التّعليميّ والتّطبيق في القرآن الكريم. الكويت: مكتبة المنار، 1996.

- ياكوبسون، رومان. الاتّجاهات الأساسيّة في علم اللّغة. ترجمة وتحقيق: علي حاكم صالح وحسن ناظم. الدّار البيضاء:

المركز الثّقافيّ العربيّ، 2002.

- يحياوي، رشيد. التّبالغ والتّبالغيّة: نحو نظريّة تواصلية في التّراث. عمّان: دار كنوز المعرفة العلميّة للنّشر والتّوزيع،

2014.

- يعقوب، إميل بديع. المعجم المفصّل في اللّغويّين العرب. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1997.

_____. المعجم المفصّل في مصطلحات اللّغة والأدب. طرابلس لبنان: جرّوس برس ناشرون، 2012.

_____. موسوعة النّحو والصّرف والإعراب. بيروت: دار العلم للملايين، 1986.

- ابن يعيش، سابق الدّين محمد بن عليّ الصنعائيّ. التّهذيب الوسيط في النّحو. تحقيق: فخر صالح سليمان قدادة. بيروت: دار الجبل، 1991.
- ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن يعيش الموصليّ. شرح المفصل للرّمحشريّ. تحقيق وتقديم: إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001.
- يفوت، سالم. فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع. بيروت: دار الطليعة، 1985.
- يقطين، سعيد. انفتاح النّصّ الرّوائيّ- النّصّ والسّياق. الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ، 1989.
- اليمينيّ، يحيى بن حمزة بن عليّ العلويّ. كتاب الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1995.
- يوسف، حسني عبد الجليل. تسهيل شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك. القاهرة: مؤسّسة المختار، 2003.
- يوسف، عبد الفتّاح أحمد. قراءة النّصّ وسؤال الثّقافة. عمّان: عالم الكتب الحديث للنّشر، 1999.
- يوسف، مجدي إبراهيم. معجم القواعد النّحويّة. إشراف: محمود حجازي. القاهرة: دار الكتاب المصريّ، 1999.

مقالات بالعربيّة:

- أحمد، يحيى. "الاتّجاه الوظيفيّ ودوره في تحليل اللّغة"، مجلّة عالم الفكر 3 (1989)، 69-96.
- استيتيّة، سمير شريف. "روافد البلاغة: بحث في أصول التّفكير البلاغيّ"، دراسات إسلاميّة مهداة إلى العلامة الأستاذ الدكتور فضل حسن عبّاس بمناسبة بلوغه السّبعين (عمّان: دار الرّازي للطباعة والنشر والتّوزيع، 2003)، 311-334.
- الأوسيّ، قيس إسماعيل. "علل الإعراب والحركات الإعرابيّة في العربيّة". المورد 21 (1993)، 57-68.
- بركة، بسام. "محيط المحيط للمعلّم بطرس البستانيّ وانطلاقة المعجميّة في العالم العربيّ" الحياة (2009)، 15-18.
- الجوزو، مصطفى علي، "قيام الجمّة المعترضة مقام الصّفة والاسم"، مجلّة العربيّ 638 (2012)، 66.
- حسّان، تّمام. "القرائن النّحويّة وإطراح العامل والإعرابيّ التّقديريّ والحلّيّ"، مجلّة اللّسان العربيّ 11 ([د. ت])، 24-63.

- الحلواني، محمد خير. "مفهوم الجملة في اللسانيات والنحو العربي". *المناهل* 26 (1983)، 194-231.
- دايك، فان: "النص بنياته ووظائفه: مدخل أولي إلى علم النص"، دراسة ضمن كتاب: "نظرية الأدب في القرن العشرين" ترجمة وإعداد: محمد العمري. الرباط: مطبعة أفريقيا للشرق، 2005.
- درويش، أحمد. "الأسلوب والأسلوبية: مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه". *مجلة فصول* 5 (1984)، 60-68.
- الزعبلوي، صلاح الدين. "النحو والنحاة". *مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق* 54 (1979)، 839-896.
- سمساعة، أحمد الحسن. "الحذف المجازي في القرآن الكريم". *الدراسات الإسلامية* 38 (2003)، 5-22.
- السّوسو، عبد المجيد محمد. "السياق وأثره في دلالات الألفاظ - دراسة أصولية"، *مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية* 74 (2008)، 17-94.
- الشريف، محمد صلاح الدين. "النظام اللغوي بين الشكل والمعنى من خلال كتاب تمام حستان "اللغة العربية مبناها ومعناها"، *حوليات الجامعة التونسية* 17 (1979)، 193-229.
- الشّمسان، أبو أوس إبراهيم. "الإبدال إلى الهمزة وأحرف العلة في ضوء كتاب سرّ صناعة الإعراب لابن جني". *حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة الكويت* 22 (2002)، 102-104.
- صحراوي، مسعود. "في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر"، *التداوليات علم استعمال اللغة*. إريد: عالم الكتب الحديث، 2011.
- عبد الرّحيم، الحافظ. "علم النحو بين الكوفيين والبصريين، دراسة أهم القضايا الخلافية بين المدرستين". *الدراسات الإسلامية* 28 (1993)، 5-28.
- عزّت، علي. "اللغة ونظرية السياق". *مجلة الفكر المعاصر* 76 (1971)، 19-20.
- عزّوز، أحمد. نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها. *التراث العربي* 81-82 (2001)، 170-184.
- علوي، عبد السلام إسماعيلي. "ما التداوليات؟". *التداوليات علم استعمال اللغة*. إريد: عالم الكتب الحديث، 2011.
- عنتر، عبد الحميد. "القياس النحوي". *مجلة الأزهر* 18 ([د. ت.])، 523-528.

- معلوف، سمير. "الصورة الذهنية: دراسة في تصوّر المعنى". *مجلة جامعة دمشق* 26 (2010)، 115-158.
- أبو ناصر، مورييس، "مدخل إلى علم الدلالة الألسني"، *مجلة الفكر العربي المعاصر* 18 (1982)، 32-33.

كتب أجنبية:

- Austin, John. *How to Do Things with Words*. Oxford: Oxford University Press, 1962.
- Baalbaki, Ramzi. *Dictionary of Linguistic Terms, English-Arabic*. Beirut: Dar il-ilm Lilmamayin, 1990.
- Baker, Mona and Others. *Routledge Encyclopedia of Translation Studies*. London: Routledge, 2009.
- Barthes, Roland. *The Pleasure of the Text*. Translated by: Richard Miller. New York: Hill and Wang, 1998.
- Bateson, Mary Catherine. *Arabic Language Handbook*. Washington: The Center for Applied Linguistics, 1967.
- Beaugarande, Robert-Alain De and Wolfgang Ulrich Dressler. *Introduction to Text Linguistics*. London: Longman, 1981.
- Beeston, A. *The Arabic Language Today*. London: Hutchinson University Library, 1970.
- _____ *Written Arabic, An Approach to the Basic Structures*. Cambridge: Cambridge University Press, 1968.
- Benveniste, Émile. *Problems in General Linguistics*. Translated by: Mary Elizabeth Meck. Florida: University of Miami Press, 1971.
- Bloomfield, Leonard. *Language*. New York: Henry Holt, 1933.

- Bohas, G. Guillaume and Kouloughli J. P. *The Arabic Linguistic Tradition*: London: Routledge, 1990.
- Bolinger, Dwight. *Aspects of Language*. New York: Harcourt Breca & World, 1968.
- Bonjour, Laurence. *Epistemology: Classic Problems and Contemporary Responses* (Lanham: Rowman & Littlefield Publishers, 2010).
- Brockelmann, Carl. *Arabische Grammatik, Paradigmen, Literatur, Übungsstücke und Glossar*. Berlin: Vealag von Reuyher & Reichard, 1941.
- Buckley, Ron. *Modern Literary Arabic, A Reference Grammar*. Beirut: Librairie du Liban Publishers, 2004.
- Cantarino, Vicente. *Syntax of Modern Arabic Prose, The Expanded Sentence*. Bloomington: Indiana University Press, for the International Affairs Center, 1975.
- Carter. M.G. *Sībawayhi*. Oxford: I. B. Tauris, 2004.
- Chomsky, Noam. *Aspects of a Theory of Syntax*. Cambridge: MIT Press, 1965.
- _____ *Syntactic Structures*. London: Mouton, 1965.
- Crystal, David. *A dictionary of Linguistics and Phonetics*. Oxford: Basil Blackwell Ltd, 1991.
- El-Dahdah, Antoine. *A Dictionary of Terms of Declension and Structure in Universal Arabic Grammar* (Beirut: Librairie Du Liban, 1988).
- Dijk, Van. *Some Aspects of Text Grammar: A Study in Theoretical Linguistics and Poetics*. Mouton: The Hague, 1972.

- Ducrot, Oswald and Tzvetan Todorov. *Encyclopedic Dictionary of the Science of Language*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1979.
- Duranti, Alessandro. *Linguistics Anthropology*. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.
- Feldman, Richard. *Epistemology* (Upper Saddle River, New Jersey: Prentice Hall, 2003.
- Firth, John Rupert. *Papers in Linguistics*. London: Oxford University Press, 1957.
- _____ *The Tongues of Men and Speech*. London: Oxford University Press, 1966.
- Fischer, Wolfdietrich. *Grammatik des klassischen Arabisch*. Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2002.
- _____ *Grammatik des Klassischen Arabisch*. Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1972.
- Fromkin, Victoria A. *Linguistics: An Introduction to Linguistics Theory* (Malden-Massachusetts: Blackwell Publishers Ltd, 2000.
- Greco, John and Ernest Sosa. *The Blackwell Guide to Epistemology* (Malden, Mass.: Blackwell, 1999.
- Gully, Adrian. *Grammar and Semantics in Medieval Arabic, A Study of Ibn-Hishām's "Mughnī l-Labīb"*. London: Curzon Press, 1995.
- Haddock, Adrian and Others. *Social Epistemology* (Oxford: Oxford University Press, 2010.

- Halliday, Michael. *Language as Social Semiotics: The Social Interpretation of Language and Meaning*. Baltimore: University Park Press, 1978.
- Halliday, M. and Ruqaiya Hasan. *Cohesion in English* (London: Longman Group Ltd, 1976.
- Hanna, Sami A. and others. *Dictionary of Modern Linguistics: English-Arabic*. Beirut: Librairie Du Liban Publishers, 1997.
- Harder, Ernst. *Arabische Grammatik*. Heidelberg: Julius Gross, 1921.
- Hartmann, Regina. *Untersuchungen zur Syntax der arabischen Schriftsprache* . Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1974.
- Hetherington, Stephen. *Epistemology Futures* (Oxford: Clarendon Press, 2006.
- Holmes, Janet. *An Introduction to Sociolinguistics*. London: Longman, 2001.
- Jespersen, Otto. *Analytic Syntax*. London: George Allen & Unwin LTD, [1937].
- _____ *The philosophy of Grammar*. London: George Allen, 1958.
- Jones, Alan. *Arabic Through the Qur'ān*. Cambridge: Brooklands Avenue, 2006.
- Katz, Jerrold. *The Philosophy of Language*. Oxford: Oxford University Press, 1985.
- Kinberg, Naphtali. *Studies in the Linguistic Structure of Classical Arabic*. Leiden: Brill, 2001.

- Levinson, Stephen C. *Pragmatics*. Cambridge: Cambridge University Press, 1983.

- Luria, Harriet & Deborah M. Seymour & Trudy Smoke, *Language and Linguistics in Context: Readings and Applications for Teachers*. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates Publishers, 2006.

- Lyons, John. *Language, meaning and context*. London: Fontana Press, 1981.

_____ *Linguistic Semantics: An Introduction*. Cambridge: Cambridge University Press, 1995.

_____ *New Horizons in Linguistics*. England: Penguin Books, 1975.

- Moutaouakil, Ahmed. *Pragmatic Functions in a Functional Grammar of Arabic*. Dordrecht: Foris Publications, 1989.

- Naser, Raja T. *The Structure of Arabic, From Sound to Sentence*. Beirut: Librairie Du Liban, 1967.

- al-Nassir, A. A. *Sibawayh the Phonologist*. London: Kegan Paul International Ltd, 1993.

- Neuwirth, Angelika and Nicolai Sinai and Michael Marx. *The Qur'ān in Context: Historical and Literary Investigations into the Qur'ānic Milieu*. Leiden-Boston: Brill, 2010.

- Nöldeke, Theodor. *Zur Grammatik des Classischen Arabisch*. Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1963.

- Owens, Jonathan. *Early Arabic Grammatical Theory: Heterogeneity and Standardization*. Amsterdam: John Benjamins Publishing, 1990.

- Palmer, F. R. *Semantics: A New Outline*. New York & London: Cambridge University Press, 1976.
- Petofi, J. S. & H. Rieser, *Studies in Text Grammar*. Dordrecht-Holland: Reidel Publishing Company, 1973.
- Pojman, Louis P. *The Theory of Knowledge: Classical and Contemporary Reading* (Belmont: Wadsworth- Thomson Learning, 2003.
- Reckendorf, Hermann. *Arabische Syntax*. Heidelberg: Carl Winter's Universitätsbuchhandlung, 1921.
- Rezetko, Robert and Ian Young. *Historical Linguistics and Biblical Hebrew: Steps Toward an Integrated Approach*. Atlanta- USA: SBL Press, 2014.
- Rundell, Michael and Others. *Macmillan- English Dictionary for Advanced Learners*. London: Macmillan Publishers, 2010.
- Sanders, T. and H. Pander Maat. *Cohesion and Coherence: Linguistics Approaches* (Netherlands: Utricht Institute of Linguistics OTS- Utrecht University, 2006.
- Sayed, Sabry Ibrahim. *York Dictionary of Linguistics*. Cairo: Longman, 2000.
- Searle, John R. *Speech Acts*. Cambridge: Cambridge University Press, 1969.
- Shall, Anton. *Elementa Arabica, Einführung in die Klassische Arabische Sprache*. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1988.
- Stien, Olsen Haugom. *The Structure of Literary Understanding*. Cambridge: Cambridge University Press, 1978.

- Stetkevych, Jaroslav. *The Modern Arabic Literary Language, Lexical and Stylistic Development*. Chicago: The University of Chicago Press, 1970.
- Struever, Nancy. *Language and the History of Thought*. New York: University of Rochester, 1995.
- Suleiman, Yasir. *Arabic Grammar and Linguistics*. Surrey: Curzon, 1999.
- _____ *The Arabic Grammatical Tradition: A Study in ta'wīl*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999.
- Trask, R. L. *A Student's Dictionary of Language and Linguistics*. London: Arnold- A Member of the Hodder Headline Group, 1997.
- Turnbull, Joanna and Others. *Oxford Advanced Learner's Dictionary*. Oxford: University Press, 2012.
- Ullmann, Stephen. *Words and Their Use*. New York: Philosophical Library, 1951.
- Versteegh, Kees. *The Arabic Language*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2014.
- _____ *Landmarks in Linguistic thought: The Arabic Linguistic Tradition*. London: Routledge, 1997.
- Versteegh, C. H. M. *A Grammar and Qur'anic Exegesis in Early Islam*. Leiden: E.J. Brill, 1993.
- Wright, William. *A Grammar of the Arabic Language*. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.

- Baalbaki, Ramzi. "Some Aspects of Harmony and Hierarchy in Sībawayhi's Grammatical Analysis". *Journal of Arabic Linguistics* (1978), 7-22.

_____ "The Relation Between Nah'w and Balāg'a: A comparative Study of the Methods of Sībawayhi and Ġurġānī". *Journal of Arabic Linguistics* 11-83 (1982), 7-23.

- Baker, Mona. "In Other Words", *Routledge Encyclopedia of Translation Studies* (London: Routledge, 1992).

- Beeston, A. F. L. "Some Notes on Classical Arabic Syntax". *Journal of Semitic Studies* XXVI (1981), 21-30.

- Carrell, P. "Cohesion is Not Coherence", *TESOL Quarterly* 16 (1982), 479-488.

- Carter, Michael G. "An Arab Grammarian of the Eighth Century" *Journal of the American Oriental Society* 93 (1973), 146-157.

- Cruse, D. Alan. "Language, Meaning and Sense: Semantics", *An Encyclopaedia of Language*. (London and New York: Routledge, 1990), 139-172.

- Fodor, Janet Dean. "Semantics: Theories of Meaning in Generative Grammar", *Journal of Linguistics* 14 (1978), 115-118.

- Fulcher, Glenn. "Cohesion and Coherence in Theory and Reading Research", *Journal of Research in Reading* 12, 2 (1989), 14-163.

- Gwynne, Rosalind. "Qiyās al-Qiyās fī Kitāb Sībawayhi". *Al-'Arabyya* 22 (1989), 55-59.

- Hickey, Raymond and Stanislaw Puppel, "Levels of Language", *Language History and Linguistic Modelling. A Festschrift for Jacek Fisiak on his 60th Birthday* (Berlin: Mouton de Gruyter, 1997), 3-4.
- Jakobson, R. "Shifters, Verbal Categories and the Russian Verb". *Selected of Roman Jakobson* 2 (1971), 130-147.
- Jandora, John W. "Al-Bustānī's Dā'irat al-Ma'ārif", *The Muslim World* (1986), 86-92.
- Leech, Geoffrey and Jenny Thomas. "Language, Meaning and Context: Pragmatics" *An Encyclopaedia of Language* (1990), 173-243.
- Massaro, Dominic W. and Cohen Michael. "Phonological Context in Speech Perception". *Perception & Psychophysics* 34 (1983), 338-348.
- Levin, Aryeh. "Sībawayhi's Attitude to the Spoken Language", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 17 (1994), 204-243.
- Owens, Jonathan. "Arabic Sociolinguistics". *Arabica* 48 (2001), 419-468.
- Peña, Salvador. "'i'rāb as Syntax". *Zeitschrift für Arabische Linguistik* 33 (1997), 100-104.
- Suleiman, Yasir. "Ideology and the Standardization of Arabic", *Arabic Language and Linguistics*, Edited by: Reem Bassiouney and E. Graham Katz, (Washington: Georgetown University Press (2012), 201-214.
- Versteegh Kees. "The Explanation of Linguistic Causes: Az-zağğāgi's Theory of Grammar". *Al-'Arabyya* 29 (1996), 225-230.
- _____ "The Origin of the Term 'Qiyās' in Arabic Grammar". *Journal of Arabic Linguistics* (1980), 7-30.

- Watson, W. Scott. "Bab El-'Irāb: An Outline of Arabic Syntax", *The American Journal of Semitic Languages and Literatures* XVI (1897-1998), 227-240.

كتب بالعبرية:

- בקר, דן. **תשעים ותשעה פרקי דקדוק ערבי בליווי השוואות רבות לעברית**. תל-אביב: דיונון, 1989.
- גורביץ', דוד ודן ערב, **אנציקלופדיה של הרעיונות: תרבות, מחשבה, תקשורת**. תל-אביב: דפוס כתר, 2012.
- גולדנטאל, יעקב. **מספיק לידיעת דקדוק לשון ערבי**. ווינה: קסרליש, 1857.
- רודריג-שורצולד, אורה ומיכאל סוקולוף. **מילון למונחי בלשנות ודקדוק**. אבן-יהודה: רכס, 1992.

مقالات بالعبرية:

- ממון, אהרון. "תאוריית ה"עמל" המחשבה הדקדוקית של אבו אלפרג' הרון". **מסורות**. ט-י-יא (תשנ"ז), 263-274.

ملاحق

مصطلحات تجديدية¹ في البحث²

- Contextual Code	شيفرة سياقية
- Contextual Feature	مِيزة سياقية / خاصية سياقية
- Contextual Focus	بؤرة سياقية
- Contextual Influence	تأثير سياقي
- Contextual Meaning	معنى سياقي
- Contextual parsing	إعراب سياقي
- Contextual Signs	إشارات سياقية
- Contextual System	جهاز سياقي
- Grammatical Filtering	ترشيح نحوي
- Grammatical Space	فضاء نحوي
- Individual Context	سياق "إفرادي"
- Intuition	الحدس
- Investigation	استقصاء
- Linguistic Impulses	بواعث لسانية
- The Movement of Syntactic Structure	حركة التركيب النحوي
- Process of Connections	سبورة روابط
- Psycho-syntactic Context	السياق النفسي-النحوي
- Qur'ānic Segments	مقاطع قرآنية
- Segmental Study	دراسة مقطعية

¹ أقصدُ بـ"المصطلحات التجديدية" هنا هي التي أنتجتها بصياغة جديدة فيما يتعلق بموضوع هذا البحث، وهو "السياق النحوي".
² رُتبت القائمة وفقاً لترتيب الحروف الإنجليزية.

- Socio-syntactic Context	السِّيَاق الاجتماعي-النَّحْوِيّ
- Structural Focus	بُؤْرَة تَرْكِيبِيَّة
- Syntactic Existence	الوْجُود النَّحْوِيّ
- Syntactic Focalization	التَّبْعِيْر النَّحْوِيّ
- Syntactic Incentive	حَوَافِزْ نَحْوِيَّة
- Syntactic Position	مَوْقِفْ نَحْوِيّ

مَسْرُودُ بِأَسْمَاءِ أَشْهَرِ النُّحَاةِ وَاللَّغَوِيِّينَ وَالْمَفْسِّرِينَ الْوَارِدَةِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْبَحْثِ

- أبو الأسود الدُّؤَلِيُّ: [...] 69هـ، ...-688م].
- الخليل بن أحمد: [100-170هـ، 718-786م].
- الشَّافِعِيُّ: [150-204هـ، 767-820م].
- سيبويه: [148-180هـ، 765-796م].
- يونس بن حبيب: [80-182هـ، 700-798م].
- الكسائي: [119-189هـ، 737-805م].
- الفراء: [140-207هـ، 757-822م].
- الأخفش: [...] 215هـ، ...-830م].
- ابن سعدان: [...] 231هـ، ...-846م].
- الجاحظ: [159-255هـ، 774-868م].
- ابن قُتَيْبَةَ: [213-276هـ، 828-881م].
- المُبَرِّدُ: [210-285هـ، 826-899م].
- أبو جرير الطَّبْرِيُّ [224-310هـ، 839-923م].
- ابن شُعَيْبٍ البَغْدَادِيُّ: [...] 317هـ، ...-929م].
- السِّيرَاقِيُّ: [284-368هـ، 897-979م].
- الأزهري: [282-370هـ، 895-981م].
- أبو عليّ القالي: [288-356هـ، 901-967م].
- أبو عليّ الفارسي: [228-377هـ، 900-987م].
- أبو الحسن الوَرَّاق: [...] 381هـ، ...-991م].
- الرُّمَّانِيُّ: [296-384هـ، 908-994م].
- الصَّاحِبُ بن عَبَّاد: [326-385هـ، 938-995م].

- الرَّجَّاجِيّ: [....-337هـ،-949م].
- أبو سليمان الخطَّابيّ [319-388هـ، 931-988م].
- ابن جنيّ: [330-392هـ، 941-1002م].
- الجَوْهَرِيّ: [....-393هـ،-1003م].
- ابن فارس: [....-395هـ،-1004م].
- أبو هلال العسْكَرِيّ: [306-395هـ، 920-1005م].
- القاضي عبد الجبَّار: [359-415هـ، 969-1025م].
- الهرويّ: [340-415هـ، 951-1025م].
- الثَّعَالِبِيّ: [350-429هـ، 961-1038م].
- القُيْسِيّ: [355-437هـ، 966-1045م].
- ابن سيِّدَة: [....-458هـ،-1066م].
- أبو عثمان المازنيّ: [....-458هـ،-1066م].
- عبد القاهر الجرجانيّ: [400-471هـ، 1010-1078م].
- الجُؤنيّ: [419-478هـ، 1028-1058م].
- المجاشعيّ: [....-479هـ،-1086م].
- السَّرْحَسِيّ: [....-490هـ،-1097م].
- الرَّاعِب الأصفهانيّ: [....-502هـ،-1108م].
- الرَّاعِب الأصفهانيّ: [....-503هـ،-1110م].
- أبو حامد الغزاليّ: [450-505هـ، 1058-1111م].
- ابن السيِّد البطليوسيّ: [444-521هـ، 1052-1127م].
- الشَّريف الكوفيّ: [442-539هـ، 1051-1145م].
- ابن الأنباريّ: [513-577هـ، 1119-1181م].

- السَّهْلِيّ: [508-581هـ، 1115-1185م].
- الرَّمَحْشَرِيّ: [467-583هـ، 1075-1144م].
- ابن مضاء القرطبيّ: [520-592، 1126-1196م].
- ابن الأثير: [544-606هـ، 1150-1210م].
- أبو البقاء العُكَّريّ: [538-616هـ، 1143-1219م].
- ابن الحُبَّاز: [...-639هـ، ...-1242م].
- ابن يعيش: [553-643هـ، 1158-1245م].
- أبو عليّ السُّلُوبيّ: [562-645هـ، 1167-1247م].
- ابن الحاجب: [570-646هـ، 1175-1248م].
- السَّكَّاكِيّ: [555-626هـ، 1160-1229م].
- الفخر الرَّازِيّ: [...-660هـ، ...-1262م].
- العزّ بن عبد السَّلام [577-660هـ، 1181-1262م].
- ابن عُصْفُور الإشبيليّ: [...-669هـ، ...-1271م].
- ابنُ مالِك: [600-672هـ، 1203-1274م].
- الإسفراينيّ: [...-684هـ، ...-1278م].
- عبد السَّلام المقدسيّ: [...-678هـ، ...-1279م].
- رضيّ الدّين الأستراباذيّ: [...-686هـ، ...-1287م].
- الكيشيّ: [615-695هـ، 1219-1296م].
- ابن التَّقِيب: [...-698هـ، ...-1299م].
- تاج الدّين الجنديّ: [...-700هـ، ...-1301م].
- المالقيّ: [630-702هـ، 1233-1303م].
- السَّجَلْماسيّ: [...-704هـ، ...-1305م].

- ابن منظور: [630-711هـ، 1233-1311م].
- ابن إسماعيل الهرمي: [...-702هـ، ...-1343م].
- الخطيب القزويني [666-739هـ، 1268-1338م].
- العلوي: [669-749هـ، 1270-1348م].
- الفردي: [...-749هـ، ...-1348م].
- أبو حيان الأندلسي: [654-754هـ، 1256-1353م].
- السمين الحلبي: [...-756هـ، ...-1355م].
- ابن هشام الأنصاري: [708-761هـ، 1309-1360م].
- الشَّاطِبي [...-790هـ، ...-1388م].
- الرَّزَّكَشِي [745-794هـ، 1344-1392م].
- الزَّيْنُدي: [...-802هـ، ...-1399م].
- الشَّريف الجرجاني: [740-816هـ، 1339-1413م].
- الفيروزآبادي: [...-817هـ، ...-1415م].
- الموزعي: [...-825هـ، ...-1422م].
- ابن المرتضى: [...-840هـ، ...-1437م].
- ابن زُند: [789-870هـ، 1384-1466م].
- الكافيجي: [788-879هـ، 1386-1474م].
- برهان الدِّين البقاعي: [809-885هـ، 1406-1480م].
- المكناسي: [...-909هـ، ...-1503م].
- جلال الدِّين السيوطي: [849-911هـ، 1445-1505م].
- ابن كمال باشا: [...-940هـ، ...-1534م].
- ابن طولون: [880-953هـ، 1475-1546م].

- البغداديّ: [1030-1093هـ، 1621-1682م].
- المُنَاوِيّ: [952-1031هـ، 1545-1622م].
- الحسن المفتي: [...-1059هـ، ...-1648م].
- التّهانويّ: [...-1158هـ، ...-1745م].
- ابن الطيّب الفُفَيْسِيّ: [1110-1170هـ، 1698-1756م].
- حسن العطار: [1180-1250هـ، 1766-1835م].
- الصّبّان: [...-1206هـ، ...-1791م].
- الألوسيّ: [1217-1270هـ، 1803-1854م].
- عبد الحميد الفراهي: [1280-1349هـ، 1863-1930م].

فهرس الآيات القرآنية (المتعلقة بالسياق النحوي) في هذا البحث ومفتاحها السياقي

الآية	رقم الآية	السورة	رقم الصفحة (في الأطروحة)	المفتاح السياقي
{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }	1	الفاتحة	244	سياق الحذف والإضمار/ سياق التّبوت والحدوث/
{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ♦ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }	2-3	الفاتحة	83	ثبات المعنى واستقراره
{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ♦ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }	5-6	الفاتحة	164	التقديم والتأخير/ سياق التخصيص
{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }	6	الفاتحة	284	الحذف/ سياق الأسلوب والنظم (لا حذف في "اهدنا إلى الصراط")
{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }	6	الفاتحة	255	التنكير والتعريف/ سياق التذلل وإظهار الطاعة
{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }	6	الفاتحة	310	الحمل على المعنى/ التضمين النحوي/ سياق التفضّل والإنعام/ الإيجاز في اللفظ والاتّساع في المعنى
{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ♦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... }	6-7	الفاتحة	311	التضمين النحوي/ الإبانة عن ماهية الصراط/ سياق توسّع في

المعنى التحويلي/ سياق توكيد ومبالغة في الإنعام				
سياق التناسق من غير حرف نسق/ سياق التآخي يأخذ بعضه بعني بعض (الزخشي)	83	البقرة	2-1	{ أَلَمْ } ذلك الكتاب لا ريب فيه هَدَى لِلْمُتَّقِينَ {
سياق الجملة الاسمية والفعلية بين الثبوت والحدوث	-224 225	البقرة	15-14	{ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } ♦ الله يستهزئ بهم وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {
سياق ترك العطف؛ لإرادة تعدد الأوصاف دون جمع هذه الصفات لفئة واحدة	247	البقرة	18	{ صُمْ بِكُمُ عُمِّي }
الجملة المعترضة/ سياق التنبيه والتأكيد	318	البقرة	20-19	{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَّجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } ♦ يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أُظْلِمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {

{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}	124	البقرة	271	التقديم والتأخير/ سياق التقديم على الاهتمام/ سياق الإيجاز/ سياق التشريف
{وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}	172	البقرة	164	تقديم المفعول في سياق تخصيص العبادة لله
{وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}	220	البقرة	313	سياق الوعد والوعيد/ التدب والإغراء/ التحذير/ التجذد والاستمرار/ المبالغة/ القصر/ العموم
{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ♦ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ...}	-258 259	البقرة	88	سياق المشكلة التحويلية/ سياق الاستفهام والتفني بجواب "بلى" المقدر
{إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ...}	9	آل عمران	296	سياق التعاور/ إفادة اللام معى مستقلاً دل عليه سياق الآية
{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}	18	آل عمران	240	سياق التماسك الحذقي
{فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}	25	آل عمران	294	سياق التعاور/ إفادة اللام معى ساقياً خاصاً انسجم مع مضمون الآية/ سياق التعجب/ الاستعظام والتحويل

سياق التّبوّث والحدوث	228- 229	آل عمران	27-26	{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ♦ تُولِجُ الْلَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }
سياق التّبوّث والحدوث	231	آل عمران	185	{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ }
كشفُ السّياق لمرجع الضّمير في "أبويه"	159	النّساء	11	{وَلَا بُؤْيُوهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ }
سياق التحام المعنى بالمبنى والتحام المعنى الإعرابيّ-الوظيفيّ بالمعنى المعجميّ-الوظيفيّ	200	النّساء	12	{وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً }
الزّمن السّياقيّ للفعل "كان"/ سياق أزليّة "كان"/ سياق التّبوّث والتّجدّد/ سياق الأزمنة الثلاثة في الفعل "كان". سياق الآية مع الفعل: الاستمرار/ الوجوب/ الإثبات/ الاستقرار/ التّحفيز/ الحصر/ التّوكيد/ حركة الأفعال...	284- 286	النّساء	17	{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }

{وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}	68	النساء	255	سياق التَّنْكِير والتَّعْرِيف/ إخراج اللفظ مخرج التَّنْكِير/ سياق العموم...
{أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ}	90	النساء	243	سياق الحذف والإضمار/ توافق الحذف مع معنى الآية وسياقها/ تقريب الماضي مِنَ الحال/ الحمل على معنى الدعاء
{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُثَلَّى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}	127	النساء	157	سياق حذف حرف الجرِّ قصدًا؛ لإفادة عموم التَّركيب في حالي الرَّغْبَةِ فِيهِنَّ والرَّغْبَةِ عَنْهُنَّ/ سياق القبول والإعراض
{يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا...}	186	النساء	175	سياق الآية يستغني عن تقدير الحرف المحذوف
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ أَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُخْزَوْنَ}	69	المائدة	39	سياق "القياس" / "الصَّابِئُونَ" على التَّقديم والتأخير/ رفع "الصَّابِئُونَ" على الابتداء بَعْدَ ما مضى الخبر
{ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِمَآئِنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ}	89	المائدة	177	سياق الْقَسَمِ مَعَ لَفْظِهِ الدَّالِّ عَلَيْهِ
{إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْخَيْبِ وَاللَّيْلِ الْيُجْرِ الْخَيْ مِنَ الْمَيِّتِ وَخُجِرِ الْمَيِّتِ مِنَ الْخَيْ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}	95	الأنعام	228	سياق الثَّبوت والحدوث

{وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ}	100	الأنعام	266	المرتبة التَّحْوِيَّة: التَّقديم والتأخير/ سياق الاستعظام/ سياق التَّوسُّع في المعنى/ سياق التَّنْزِيه...
{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}	151	الأنعام	299	سياق التَّعَاوُر/ سياق السَّبَب والتعليل/ سياق التَّكْفُل/ سياق التَّنَاسُب...
{إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}	56	الأعراف	311	سياق الحمل على المعنى/ سياق القُرْب/ سياق التَّوسُّع في المعنى والدَّلالة التَّحْوِيَّة
{يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا}	57	الأعراف	85	سياق الرِّحْمَة والبشرى
{سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}	145	الأعراف	167	سياق وعيد وإغلاظ
{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}	156	الأعراف	312	سياق الاتِّساع
{سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ}	177	الأعراف	264	التَّقديم والتأخير/ سياق الاختصاص
{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ}	6	التوبة	305	سياق الحمل على المعنى/ الإتيان بصيغة الماضي تناسُبًا مَعَ أسلوبِ الشَّرْط/ سياق الاهتمام بالمسند إليه
{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ♦ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ	49-48	يونس	218	سياق المَكِّي/ التَّكرار/ سياق الوعيد/ التَّحدِّي والاستعجال

				إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ {
الزمن السياقي للفعل/ سياق الاستمرار والديمومة	289	هود	8	{..أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ {
السياق هو الحاكم فلا حاجة إلى تأويل حذف!	246	هود	65	{وَأِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ {
سياق الحمل على المعنى/ سياق توافقي مع حركة الأفعال والآيات/ إبراز عنصر شدة العذاب وهوله	-307 308	هود	66-67	{فَلَمَّا جَاءَ أَمَرْنَا نَجِينًا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ♦ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ {
سياق الحذف والإضمار/ سياق التحول "سلامًا" وسياق الثبوت والاستقرار في المعنى "سلامًا"/ سياق التعظيم	240	هود	69	{وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ {
سياق الجحد والإنكار/ سياق تقرير التفي	178	يوسف	17	{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ {
سياق التنعيم (حذف حرف التداء: نغمة ندائية)	158	يوسف	29	{يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا {
حذف المضاف/ سياق حمل الكلام على الحقيقة لا على المجاز؛ تناسبًا مع سياق الآيات	86	يوسف	82	{وَأَسْأَلِ الْقُرْيَةَ {

{ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفُ }	85	يوسف	174	السياق المستغني عن تقدير "لا"/ سياق الاستمرار أصالةً من خلال الاستغناء عن حرفِ النفي/ السياق هو الذي يُقَرَّر طبيعتهُ التَّركيبِ وليست القواعد التَّحويلةُ لدى النُّحاة
{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ فُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا... }	31	الرعد	69	دلالة الإضافة (سياق التَّصِّصِ)/ رَبُّطُ القول بالغرضِ المقصود (دلالة السياق) [السَّجلماسي]
{ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ }	12	إبراهيم	164	تقديم المفعول في سياقِ تخصيصِ العبادةِ لله
{ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ }	47	إبراهيم	232	سياق التَّبَوُّتِ والحدوثِ
{ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ }	22	الحجر	85	سياق الرَّحمةِ والبشرى
{ وَبَيْنَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ♦ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ }	51-52	الحجر	165	سياق التَّنَاسُبِ مَعَ الغرضِ والمقامِ الخاصِّ بقصةِ الآياتِ في هذه السُّورةِ تحديداً
{ أَتَى أَمْرٌ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ }	1	التَّحَلُّ	211	أسباب التَّزَوُّلِ/ سياق الإخبارِ بالماضي لِتَحَقُّقِهِ وَتَيَقُّنِهِ
{ أَتَى أَمْرٌ لِلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }	1	التَّحَلُّ	-279 284	الرَّزْمِ السِّيَاقِيَّ لِلْفِعْلِ/ سياق الرِّزْمِ الماضي بمنزلةِ الآتي الواقع وإن كان منتظراً/ سياق الاقترابِ/ سياقُ صِدْقِ الْمُحَرِّيرِ/ سياق الوعيدِ

المصوغ في صورة الخبر/ سياق التفخيم والتّهويل للإيدان بأنّ ذلك الأمر واقع لا محالة/ سياق لفت الانتباه				
سياق التّوازي/ سياق الاستقلال (استقلال الجملة) [تمام حسن]	156	التّحل	6-5	{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ♦ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}
سياق قَصْدِ البيانِ بعد الإبهام (فعل المشيئة)/ سياق الاتّساع/ سياق المبالغة والتّعظيم والتّفخيم	238	التّحل	9	{فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}
سياق الحذف والإضمار/ سياق الاستحقاق/ سياق جواب المتلعثم (رفع "أساطير")	242	التّحل	24	{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}
سياق الحذف والإضمار/ سياق الاستحقاق/ سياق جواب المُقرّر (نصب "خير")/ سياق التّوسّع في الدّلالة التّحوّية الإيحائية/ سياق إطلاق الفعل/ سياق العموم/ سياق الإسراع في الجواب (النصب: الانفعال)	242	التّحل	30	{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا}

حيوية الجملة المعترضة/ سياق استقلالية الجملة المعترضة	317	التحل	110	{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}
سياق التقييد	168	الإسراء	7	{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}
سياق الاستمرار والديمومة	288	الإسراء	11	{وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}
سياق التعظيم	51	الإسراء	23	{فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا...}
سياق التعاؤز/ سياق السبب والتعليل/ سياق التكفل/ سياق التناسب...	299	الإسراء	31	{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِفْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ}
سياق التعجب والاستعظام	257	الكهف	4	{وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}
سياق التنكير/ سياق تمكين المعنى في نفس المتلقي/ سياق العموم/ سياق التعجب/ سياق الاستعظام	256	الكهف	5	{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}
سياق الثبوت والاستقرار	229	الكهف	18	{وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}
سياق الاستمرار والديمومة	288	الكهف	54	{وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}
سياق الإضراب/ سياق تعجيل العذاب	156	الكهف	58	{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}
سياق الآية ذاتها هو الحاكم، فلا داعي لتقدير المحذوف!	245	مريم	46	{قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ}

سياق المكِّي / سياق زيادة التوكيد "كلا" / سياق الردع والتنبيه / سياق التحقيق	215	مريم	79-77	{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ♦ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ♦ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا }
سياق التقديم والتأخير / سياق الإسراع في تقديم "خيفة" توافقًا مع الحالة النفسية / سياق المفاجأة والمباغنة / سياق الاتساع / سياق العموم في التكرة / سياق التخييل النحوي / سياق التعظيم والمبالغة / سياق الاختصاص / سياق الحمل على المعنى	268	طه	70-65	{ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ♦ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ عَنَّا فَيَئُودُهُمْ وَيُخَيِّلُ الْبَيْتَ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ♦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ♦ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ♦ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَثِيرٌ سُاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ♦ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى }
سياق التعاور والتناوب / سياق التوكيد والمبالغة / سياق الاستقرار	292	طه	71	{ وَلَأَصْلَبَنَّاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ }
الزمن السياقي للفعل	282	الأنبياء	37	{ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ }
سياق الحذف والإضمار	247	المؤمنون	23	{ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ }
سياق المكِّي	215	المؤمنون	100	{ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا }

سياق التّعاور والتّناوب/ سياق التّأكيد والمبالغة	290	الفرقان	59	{فَأَسْأَلُ بِهِ خَيْرًا}
سياق المكيّ/ سياق التّكرار والتّوكيد	215	الشّعراء	63-62	{فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ♦ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}
سياق التّقييد	168	الشّعراء	130	{وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ}
سياق الحركيّة/ الزّمن السّياقيّ للفعل/ سياق الحدوث/ سياق التّخصيص/ سياق التّقديم/ سياق التّنكير/ سياق الحذف والإضمار/ سياق التّعظيم والتّشريف/ "السّياق الصّغير" و"السّياق الكبير"/ سياق التّنبه/ سياق التّنغيم	324	النّمل	18-17	{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِبِّ وَإِلَهِسِ وَالطِّيرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ♦ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ مَلْئَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنُكُمْ لَا يَخْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}
الزّمن السّياقيّ للفعل/ سياق تهديد وتوعّد	288	النّمل	21-20	{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانِ مِنَ الْغَائِبِينَ ♦ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}
سياق المكيّ/ سياق الوعد وتحقيق نزوله	218	النّمل	72	{قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}

أسباب النزول/ سياق التوقيع/ سياق إسناد الفعل إلى المجهول	211	الزوم	4-1	{الم ◆ غَلِبَتِ الرُّومُ ◆ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ ◆ فِي بَضْعِ سِنِينَ...}
سياق حيوية الجملة المعترضة/ سياق التثبيت/ سياق التنزيه/ سياق استغراق الأوقات كلها/ سياق التنبيه/ سياق التدب والإيجاب/ سياق الحمد على وجه الإجمال/ سياق التفصيل	320	الزوم	18-17	{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ◆ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}
سياق الحدث/ سياق الديمومة والاستمرار	230	الزوم	50	{يُخَيِّبِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}
سياق الاستمرار والديمومة/ سياق دلالة تكرار الشكر وتجدده وفي المقابل عدم تجدد الكفر	160	لقمان	12	{وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}
سياق التعظيم/ سياق الإمهال والترثيث	-161 162	لقمان	15-14	{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ، وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ◆ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ

				ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {
حيوية الجملة المعترضة/ سياق التقرير/ سياق الترتيب/ سياق الإضراب/ سياق استغراق نفي الشك عن مصدر التنزيل	320	السجدة	3-1	{ الم ◆ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ◆ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ }
الزمن السياقي للفعل "كان"	284	الأحزاب	34	{ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا }
سياق التقديم والتأخير	265	الأحزاب	39	{ وَلَا يَحْشُرُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ }
حيوية سياق الجملة المعترضة واستقلاليتها/ سياق الثناء والتبريك/ سياق التحية/ سياق رجاء الأمن والعافية	323	الأحزاب	56	{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }
سياق السور المكّية/ سياق التكرار والتوكيد	218	سبأ	29	{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }
سياق الثبوت والحدوث	229	فاطر	3	{ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }
سياق الديمومة والحركة والتتابع/ سياق الالتفات وتلوين الخطاب بين أزمنة الأفعال	24	فاطر	9	{ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... }
سياق الجحد والإنكار/ سياق تقرير النفي	178	فاطر	22	{ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ }

سياق التقديم والتأخير/ سياق التخصيص/ سياق الحصر والقصر/ سياق الديمومة والاستمرار/ سياق التبئير/	264	فاطر	28	{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }
سياق الإلزام (الجواب: بلى)	178	الرّمز	36	{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ }
سياق التقديم/ سياق التخصيص/ سياق الأفراد بالعبادة	164	الرّمز	66	{ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ }
سياق الحذف والإضمار/ سياق المبالغة/ (دلالة الإضافة: سياق التص)	69	الرّمز	73	{ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ... }
سياق العذاب (إفراد كلمة "ريح")	85	فُصِّلَتْ	16	{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا }
سياق المُشاكلة	88	الشّورى	40	{ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا }
سياق الحذف والإضمار/ سياق الآية هو الحاكم فلا داعي لتأويل الحذف هنا (فضل عبّاس).	248	الشّورى	52	{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }
سياق الترخيم (ونادوا يا مال)/ سياق الاختصار الدالّ على حالتهم وقوتهم آنذاك/ سياق توافق الأداء الصوتي مع الأداء النحوي/ سياق الارتباط بين الاستعمال الصّرفي-النحوي والسيّاق النصّي- الدلالي (محمد عبد اللطيف)	167	التّخريف	77	{ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ }

سياق التّحقير والاستهزاء على خلاف الظّاهر (مراعاة السّياق)	158	الدّخان	49	{ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}
سياق أسباب النّزول/ سياق الزّمن التّحويّ/ سياق الفخامة وعلوّ شأن المُخَيّر/ سياق الإخبار بلفظ الماضي؛ لِتَحَقُّقِهِ وَتَبَيُّنِهِ/ سياق الوعد الإلهيّ	211	الفتح	1	{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}
سياق الحمل على المعنى/ سياق المخالفة الصّوتية؛ للدّلالة على عِظَم الأمر/ سياق التّعظيم والتّفخيم	306	الفتح	10	{وَمَنْ أَؤْتَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ}
الزّمن السّياقي للفعل "كان"	284	الفتح	26	{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}
سياق الحمل على المعنى	304	الحجرات	9	{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا}
سياق التّبوت والحدوث/ سياق الإقرار والتّوقير/ سياق دلالة الحالة الإعرابية والحركة الإعرابية على الحالة التّحويّة-الدّلالية	165	الدّاريات	26-24	{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} ♦ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ♦ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ...
سياق الحذف والإضمار/ سياق الاستغناء عن المفعول والاكتفاء بالفعل؛ لمعرفة الفاعل ضمناً؛ بغرض التّعظيم/ سياق أفراد الصّفة	241	النّجم	48	{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ}

الله/ سياق التوسّع في دلالة التركيب والنّص/ سياق مطلق القدرة				
سياق العذاب (إفراد كلمة "ريح"	85	القمر	19	{ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا }
سياق السّورة المكيّة/ سياق التّكرار والتّوكيد/ السّياق التّوافقيّ مع الآلاء التي تحدّثت حولها السّورة	216؛ 217	الرّحمن	13 (تكرّرت) 31 مرّة في السّورة نفسها)	{ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
سياق التّقديم والتّأخير	-328 329	الرّحمن	33	{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ }
سياق إخفاء الفاعل/ سياق الاهتمام بالحدّث بغضّ النّظر عن مُحدّثه/ سياق المقام الخاصّ بالحدّث الجلل/ سياق الماضي بدلاً من المستقبل الصّريح؛ لتحقّق وقوعه	179	الواقعة	5-4	{ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ♦ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا }
سياق التّفي المؤكّد/ سياق التّعظيم	177	الواقعة	76-75	{ فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ♦ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ }
سياق القسّم المباشر المصرّح به	177	المُجادلة	18	{ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}	12	الصف	160	سياق الكليّة والاستغراق (مقابل: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ...}	9	الجمعة	52	سياق التّهي والإيجاب / سياق العموم والاستغراق
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْصَادَ أَرْوَاحِكَ}	1	التّحریم	172	سياق التّنعيم / سياق تنعيم التّطرق بصورة استفهاميّة
{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَيَقْبِضُنَّ}	19	الملک	227	سياق التّثبت والحدوث
{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}	25	الملک	218	سياق السّور المكيّة / سياق التّكرار والتّوكيد
{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}	2	القلم	178	سياق التّوكيد
{الْحَاقَّةُ ♦ مَا الْحَاقَّةُ ♦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}	3-1	الحاقّة	218	سياق السّورة المكيّة / سياق التّكرار والتّوكيد / سياق التّعظيم
{..وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}	17	الحاقّة	273	سياق التّقديم والتّأخير
{ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}	32	الحاقّة	273	سياق التّقديم والتّأخير
{يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}	4	نوح	159	سياق التّبعيض
{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبًّا وَنَهَارًا ♦ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا}	6-5	نوح	163	سياق التّفي / سياق التّوكيد والحصر

سياق التنكير	260	المُرَّيِّل	15	{ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا }
سياق التنعيم (لا يُرَاد بِالآيَةِ الاستفهام بل التقرير)	172	الإنسان	1	{ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا }
سياق السُّورَةِ المَكِّيَّةِ / سياق الرَّجَرِ والزَّذَعِ / سياق التَّوَكُّيدِ / سياق التَّنْبِيهِ	215	النَّبَأُ	4-1	{ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ♦ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ♦ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ♦ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ }
سياق إخفاء الفاعل / سياق الاهتمام بِالْحَدِثِ بِغَضِّ التَّظَرُّعِ عَنْ مُخَدِّثِهِ / سياق المقام الخاصِّ بِالْحَدِثِ الْجَلِيلِ / سياق الماضي بدلاً من المستقبل الصَّريح؛ لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ	179	التَّكْوِيرُ	3-1	{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ♦ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ♦ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ }
سياق التَّنْكِيرِ / سياق التَّبَوُّتِ والدَّوَامِ / سياق التَّخْصِيصِ	252	المُطَفِّفِينَ	2-1	{ وَبِئْسَ لِلْمُطَفِّفِينَ ♦ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ }
سياق الْقَسَمِ / سياق التَّوَكُّيدِ	176	البلد	2-1	{ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ }
سياق الحذف والإضمار / سياق التحذير والإغراء	238	الشمس	13	{ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا }
سياق الْقَسَمِ / سياق التَّوَكُّيدِ / سياق التَّعْظِيمِ / سياق لفت الانتباه	176	الضُّحَى	3-1	{ وَالضُّحَى ♦ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ♦ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }

سياق التَّنْكِير والتَّعْرِيف/ سياق التَّوْكِيد/ سياق التَّكْرَار/ سياق المبالغة/ سياق الجنسيّة/ سياق العهديّة	259	الشرح	6-5	{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ♦ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}
سياق إخفاء الفاعل/ سياق الاهتمام بالحدث بغضّ النظر عن مُحدثه/ سياق المقام الخاصّ بالحدث الجلل/ سياق الماضي بدلاً من المستقبل الصريح؛ لتحقّق وقوعه	178	الزلزلة	1	{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}
سياق السّورة المكيّة/ سياق التّكرار والتّوكيد/ سياق التّعظيم	218	القارعة	3-1	{الْقَارِعَةُ ♦ مَا الْقَارِعَةُ ♦ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}
سياق أسباب النّزول/ سياق تخرّيج الوجه الإعرابيّ والتّحويّ للضمير "هو"	212	الإخلاص	2-1	{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ♦ اللَّهُ الصَّمَدُ}

Syntactic Context in the Qur'ān:

A Functional Study of the Grammatical Structure of the Qur'ānic Text

Abdelnaser JABARIN

**A Thesis Submitted for the Degree
"Doctor of Philosophy"**

**University of Haifa
Faculty of Humanities
Department of Arabic Language and Literature**

July 2016

Syntactic Context in the Qur'ān:

A Functional Study of the Grammatical Structure of the Qur'ānic Text

By: Abdelnaser JABARIN

Supervised by: Prof. Aharon GEVA KLEINBERGER

**A Thesis Submitted for the Degree
"Doctor of Philosophy"**

**University of Haifa
Faculty of Humanities
Department of Arabic Language and Literature**

July 2016

Syntactic Context in the Qur'ān:
A Functional Study of the
Grammatical Structure of the Qur'ānic Text

Abdelnaser JABARIN

Abstract

The position of *context* in syntactic studies lies in its active role in defining syntactic meanings and its contributions to revealing syntactic relationships that combine between the words of the same sentence and the sentences of the entire text. Without context, the reader would not understand the syntactic function in the structure, and the syntactic meaning with its comprehensive branches would remain ambiguous and opaque.

In spite of the importance of context in the studies of texts, the phenomenon of *Syntactic Context in the Qur'ānic Text* has not been given sufficient attention or the research that it deserves. Many researchers have dealt with the aspect of context only from the semantic point of view, forgetting the other aspect, which are not less important, if not the most important! Therefore, the significance of this dissertation, which deals with the issue of the "syntactic context in the Qur'ānic text", lies in its dealing with a subject that is still at the phase of evolution and formation, as well as its interconnected relationships with classical and modern linguistic theories.

This dissertation seeks to investigate the effect of syntactic context on deducing the essence of the Qur'ānic structure from the points of view of different grammarians and interpreters. It also intends to become familiar with the truth of what is known by the term *syntactic context* in the exegesis of the Qur'ānic sentences and the syntactic features that they carry, such as *placing earlier* and *placing at the end* (*taqdīm wa-ta'xīr*), which is an aspect of Arabic eloquence that is used many times in the *Qur'ān*; indefiniteness and

definiteness (*tankīr wa-ta'rif*); expression and ellipsis (*dikr wa-ḥadf*)... and other syntactic features.

This dissertation aspires to establish a new vision in understanding the Qur'ānic text syntactically and contextually in its comprehensive meaning which combines the syntactic heritage of classical syntactical scholars and interpreters and the modern linguistic studies that are accelerating in a non-stop way so that the subject of the syntactic context in the Qur'ānic Text will become a linguistic preparation and an epistemological introduction.

Therefore, this dissertation confirms that it is difficult to study the Qur'ānic verses separate from their contextual indications, as context imposes its existence on the study of syntactical sentence in the Qur'ān, because the structure in its essence cannot be isolated from the context due to its complicated connections with the circumstances and ambiguities that surround the text.

It is no secret that the treatment of syntax in any type of study used to lack a lot of linguistic research, and even the works of classical and modern linguists did not deal with the "Contextual Meanings", though it is one of the most important pillars of understanding syntax and text. In light of this, the syntactic sentence remains opaque and rigid without taking context into consideration, and the structures remain in need of a context for which they were introduced. Without a context, the meaning would not be understood completely or correctly. Examples of ambiguity include: the hidden or concealed meaning in the case of ellipsis (*ḥadf*), the intention of "preceding" (*taqdīm*) or "emphasis" (*tawkīd*) or the requirements of "verb-tense" and other syntactic issues.

Starting from this approach, this dissertation shows a very important fact, which implies that there is difference between the syntactic rules and their treatment among the grammarians in their talk about "rigid" rules in standard patterns or forms and between *contextual syntax* through the interpreters' treatments of syntactic issues with reference to the pragmatic reality of the language, especially in the Qur'ānic text. For example, there is

difference between the cases of deleting the object (*hādfu al-maf'ūl*) (ellipsis) in the works of the interpreters and deleting it according to the interpreters who speak about the same deletion or ellipsis and its syntactic meaning through the objectives of ellipsis in this or that Qur'ānic text, and the context of ellipsis that takes place in this or that structure.

This dissertation consists of three chapters. The title of Chapter One is *The Concept of Context among the Ancients – Epistemology of the Theory and its Shadows*. It concerns the concept of context linguistically and idiomatically, in order to identify the idiomatic concept and connect it with the linguistic concept that results from it, especially that the term "context" has several epistemological aspects depending on the epistemological field to which it is connected. Additionally, the chapter introduces an investigation of the phonological and morphological connections that have associations and connections with the original word-root. It is an etymological study with reference to lexicological and lexicographical sources, to the *Qur'ān* in its most important places and meanings, and reference to classical and modern linguists.

For example, I examine the concept of *'ittisāq* (Coherence), which is taken from the entry of "و، س، ق" (w, s, q) in dictionaries and the Qur'ānic text in its most important positions and meanings, and among classical and modern linguists. I also note its linguistic connections that intersect with the axis of syntactic context in several concepts, such as: *al-'ittisāq* *'al-llisānī* (coherence), *'al-'insiḡām* (cohesion), Text Theory, *'al-xiṭāb* (discourse), and other concepts related to syntactic context. Moreover, I consider the concept of *qiyās* (analogy), showing its linguistic and idiomatic meaning and its connection with the term *context*, confirming that many cases of *qiyās*, specifically in syntactic thought among the classical linguists, are attributed to the context of the verse or evidence from the speech.

After this, I investigate the main axes of the concept of context and its uses in an attempt to understand the epistemological borders of the concept. I note in that investigation a modern linguistic method, which maintains that 'definition of terms' is the

first step of academic-scientific research that requires methodological accuracy. I do this in light of the confusion that surrounds the concept of *Siyāq* 'context,' as a result of the intertwinement of terms and their connection with other epistemological fields such as philosophy, jurisprudence, polemics, rhetoric and syntax. Depending on this vision, I trace the development of the formation of the term *Siyāq* "context" according to four main axes:

First, *the meaning of the concept of Context according to the scholars of Islamic jurisprudence (‘ulamā’u l-‘uṣūl)* because, in the opinion of many researchers, they represent the first group that employed the concept of *context*, and because of their influence on dealing with the different texts such as the *Qur’ān* and jurisprudence texts, which made them representatives of an epistemological field in which many components intertwine. These scholars include *aš-Šāfi’ī*, *al-Ġazālī*, *az-Zarkāšī* and *al-Kafawī*.

Second, *the concept of context among linguists* who were closer in their contact with the term 'concept' in its structural and semantic features, such as *al-Xalīl bnu Aḥmad*, *Sībawayh*, *al-Mubarrid* and *‘ibn Ġinni*.

Third, *the concept of context among rhetoricians*, who played an active role in translating the issue of (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) *muṭabakat ‘al-kalām li-muqtaḍā ‘al-ḥāl*, which means the *accord between the type of speech and the type of the listener*. Such rhetoricians include *‘al-Xaṭīb ‘al-Qazwīnī*, *‘as-Sakkakī*, *Abu Hilāl ‘al-‘Askarī* and *‘Abdul-Qaḥīr ‘al-Ġurġānī* in his *Theory of Construction (Naẓm)*, which is given a broad space in this dissertation due its considerable effect on the study of the syntactic context in the *Qur’ānic* text at that time and in modern times.

Fourth, *the concept of context according to the Qur’ānic interpreters*, especially those who gave a great importance to the aspect of context in the *Qur’ānic* text. Such interpreters include: *‘aṭ-Ṭabarī*, *‘az-Zaxṣarī*, *‘Abu Ḥayyān ‘at-Tawḥīdī*, *‘Ibn ‘Āšūr* and others.

Chapter Two is entitled: *The System of Context and its Connection with Western Linguistic Thought and Modern Arab Grammarians – Mutual Influence*, and it examines the concept of *Con-text* and its descent in Western linguistics and its connection with *Text*, because the "text" is the corpus in which the features of the syntactic context are reflected. I then stop at the stages in which the concept of "context" was formulated, despite the long debate that results from the disagreement on the period of time in which it appeared. However, I introduce the most important stages, which include: Malinowski, Firth, the real founder of the Context –Theory in the opinion of many linguists; the appearance of the concept of Context of Situation and (Verbal Context) Linguistic Context in their initial forms and signs in Palmer, and the Non-Linguistic Context by De Saussure and his influence on molding the concept of Systems of Signs and other Western linguists, who contributed to the refinement of the concept of context and its numerous relationships that are intertwined with the textual surrounding, and ending with Julia Kristeva, who lent further meanings to the entity of Text and Context as one inseparable link, and because the Text is not satisfied with mere linguistic borders as it is a "Translinguistic" system.

After that, an elaborate exposition is given to the definitions of the concept of Text in Arabic dictionaries and its linguistic and idiomatic employment in the classical and modern Arabic linguistic heritage, in order to find the common mean, and to point out the connecting link between the concept of "text" in both the classical and the modern periods. Based on this, a connection is made between the results and the concept of "Text Grammar", as it has broad limits and spaces that intersect with the "Sentence Context and the Syntactic Context" from the Western point of view, such as those by Van Dijk about "Theory of Text and Context"; De Beaugrande in his theory of what is known by "Textuality", and in Halliday and Ruqayya Hasan and other Western linguists.

After the definition of the concept of context, the chapter introduces the most important opinions that are related to the modern uses of context and its various fields among the contemporary Western and Arab grammarians, connecting those opinions with the most

important types of "context", such as emotional context, cultural context, and other types, which have significant communication and connection with the Syntactic Context, which has great importance in understanding the treatments of grammarians of the Qur'ānic text specifically, whether at the level of classical or modern grammarians and interpreters. At the same time, a special emphasis is put on the pragmatics of the text, which have a lot of contextual interactions, because the syntactic context represents the applied pragmatic frame for the alternate system of syntactic interpretation.

Chapter Two in its two parts ends with applied samples of syntactic context borrowed from modern Arab Grammarians, especially from those who have noteworthy opinions in the field, such as *Tammām Ḥassān*, Firth's student, and his the theory of correlations (*taḍāfur 'al-qarā'in*), which contributed to the use of the 'System of Context' in different places in the *Qur'ān*. Other samples are borrowed from *Fāḍil 'a-Ṣṣāmirrā'ī*, who has a vision of interpretation by Western tools, and from *Kamāl Bišr*, who has a contextual-literary vision, and from *'Ā'īshah 'abdu-RRaḥmān*.

Chapter Three has the title *Features of Syntactic Context in Books of Interpretation – Vision and Practice*, and it introduces a description of the evolution of *Tafsīr*, the science of interpretation and its pertinent relationship with the appearance of contextual systems. Anyone concerned with the interpretation of the Qur'ānic text in a linguistic-syntactic way is required to deal with context in all its types, and should be aware of the goals of parsing *'i'rāb* - the grammatical analysis and parsing of a sentence and its inflectional and declensional markers - and the essence of *Tafsīr* because both of them have a mixed syntactic-functional role, especially when we investigate the syntactic context from the point of view of 'goals', as we see in the *'aš-Šāṭibī* vision in the classical period, and Ibn 'Ashour's vision in the modern one.

Thus, the study confirms the importance of meaning in the context of the forms of linguistic structures, especially in the Qur'ānic text. **First**, it shows that relationship which combines the reality of *'i'rāb* and the essence of *Tafsīr* and their functional and indicative

intersection. This is an aspect whose structural aspects many researchers of the Qur'ānic text might miss. Consequently, the syntactic context must show the meanings of the syntactic Qur'ānic structures, because 'i'rāb is one of the interpreter's tools that he cannot give up. In fact, no one can interpret the Qur'ānic sentences without it. **Second**, it shows that interpretation is no than interested in interpreting the linguistic items in order to find out the 'framed meaning' under the umbrella of the 'single word' only. The linguistic interpretation has become a tool in our hands and it works according to our reading. In fact, it seeks to understand the "Total Meaning", and the meaning started having an elevated status in the linguistic analysis, as it is the other face of the linguistic events. This is what some classical interpreters practiced, such as *Sībawayh*, who maintained that the meaning lies in 'i'rāb and the context of words.

To demonstrate these ideas in an applied practical way, some syntactic issues in the Qur'ānic Text are introduced in an attempt to interpret them in a contextual way through classical and modern syntactic and interpretative works. The focus on these issues is put on the manner in which grammarians and interpreters handle these issues and account for them and find the syntactic 'logical' explanation that accords with the structure of the Qur'ānic verse, which is done through recalling of the syntactic context as an interpretative tool to reveal these syntactic meanings. These issues include: 'asbāb 'an-nuzūl - the occasions or circumstances and the historical context in which Qur'ānic verses were revealed- and their effect on the syntactic context; the *Meccan and Medina context* in the interpreters' syntactic treatments; the nominal and verbal sentences between the context of explicit (*tubūt*) and unambiguous occurrence (*ḥudūt*); ellipsis and its elliptical contexts; definiteness and indefiniteness, exigencies of context, preceding and succeeding (*taqdīm wa-ta'xīr*); the context of syntactic rank; the contextual time of the verb, alternation of letters (*tanāwub 'al-ḥurūf*) and contextual independence; contextual tracks in the features of 'al-ḥaml 'ala l-ma'nā: correlating of the meaning of a word or a part of syntax to another; the restrictive sentence ('al-ḡumlah 'al-mu'tariḍa) and understanding its context between stagnation and liveliness.

These issues end with Qur'ānic segments from *Surat an-Naml* (The Sura of Ants) as an analytical sample which shows some linguistic potentialities that explain these segments through a syntactic-contextual analysis by the use of linguistic tools that integrate classical and modern approaches through my personal innovative independent way of analysis.

I would like to point out here that these selected issues are only samples which were chosen out of a large amount of syntactic issues that are included in the books and works of interpretation which appeared in the Qur'ānic text. I tried to choose different issues in order to widen the circle of research in the *syntactic context in the Qur'ān*, as "syntax and the study of context" are too wide to be included in these issues. However, they represent a typical vision regarding the other syntactic issues. I additionally tried also- through this choice of syntactic issues that were dealt in this dissertation – to "integrate" some linguistic fields that might seem to be separate at first sight, such as studying the 'restrictive sentence' from a new syntactic-contextual point of view.

The three chapters of the dissertation are followed by a section called “**Conclusion and Comments**”. **Some of these are:**

- The Syntactic Context consists of a group of different contexts that intertwine to clarify the meaning of the syntactic structure in its broad and comprehensive meaning.
- The "verbal context" and "context of Situation" issues are the opposite of what many contemporary grammarians maintained, mainly Firth in his discussion about the Verbal Context and the Context of Situation.
- ‘*Abdul-Qāhir ‘al-Ğuġānī* managed to establish a complete theory about the syntactic context called *Naẓm*, which was defined as "Syntactic Meanings" and "Meanings of Syntax".
- The connected relationships between the verses in the same Sura, and between the verses in different Suras contribute to the definition of "contextual parsing" (‘*al-i‘rāb ‘a-ssiyāqī*) through different interconnected Qur'ānic sciences, such as

knowledge of causes of revelation that represent the circumstantial context of the Verses (*'āyāt*) and Suras, including ambiguous events and occurrences in the Qur'ānic text; knowing the Meccan and the Medina Suras and verses including characteristics that distinguish one from the other.

In view of the conclusions and comments, we can say that the status of Syntactic Context of the Qur'ānic Text stems from its active role in determining the syntactic meanings of the Qur'ānic structure and its contributions to the uncovering of these 'syntactic relationships' that combine the words of the same sentence and the sentences of the syntactic text as a whole.

It is worth mentioning that I tried in these conclusions and comments to be a syntactic reader who conducts a reading that integrates the ancient and the modern, classicism and modernism. On the other hand, I concluded the most important exciting points, supporting at times what I concluded by referring to sources, and gave the opportunity to the reader to think about the data, and contemplate these practical and actual results, as it is insufficient to summarize the dissertation with "theoretical" results, but we should point out the significant points that surround the study comprehensively, because I believe that the academic investigation should not introduce the phenomenon only, but should go beyond that to a critical conception and seek to connect the phenomenon of syntactic context with other linguistic phenomena, to which I had referred to and hinted.

הקונטקסט התחבירי בקוראן :

מחקר פונקציונלי על המבנה הדקדוקי בטקסט הקוראני

עבדאלנאסר ג'בארין

חיבור לשם קבלת התואר "דוקטור לפילוספיה"

אוניברסיטת חיפה

הפקולטה למדעי הרוח

החוג לשפה וספרות ערבית

יולי 2016

הקונטקסט התחבירי בקוראן :

מחקר פונקציונלי על המבנה הדקדוקי בטקסט הקוראני

מאת : עבדאלנאסר ג'בארין

בהדרכה : פרופ' אהרון גבע קלינברגר

חיבור לשם קבלת התואר "דוקטור לפילוספיה"

אוניברסיטת חיפה

הפקולטה למדעי הרוח

החוג לשפה וספרות ערבית

יולי 2016

הקונטקסט התחבירי בקוראן:

מחקר פונקציונלי על המבנה הדקדוקי בטקסט הקוראני

עבדאלנאסר ג'בארין

תקציר

למונח "קונטקסט" יש חשיבות רבה במחקרים הבלשניים בשל תפקידו הפעיל בהגדרת המשמעויות התחביריות (المعاني النحوية) ובשל תרומתו לחשיפת הקשרים התחביריים היוצרים את הקשר בין המילים בתוך המשפט עצמו ובין משפטים בתוך הטקסט. ללא הקונטקסט - לא היינו מצליחים להבין את התפקיד התחבירי של מרכיב מסויים בטקסט, והמשמעות התחבירית על כל היבטיה היתה מעורפלת ובלתי ברורה.

על אף חשיבותו של "הקונטקסט" בחקר השיח, תופעת "הקונטקסט התחבירי" (Syntactic Context) בטקסט הקוראני לא זכתה לתשומת הלב הראויה לה בספרות המחקר, שכן לרוב החוקרים של תופעה זאת חקרו אותה אך ורק במישור הסמנטי, בהתעלמם לחלוטין ממישור אחר, חשוב לא פחות והוא המישור התחבירי. בשל כך, מטרתה של עבודה זאת היא לשפוך אור על תופעת ההקשר התחבירי בטקסט הקוראני, תופעה הנמצאת בחיתוליה ובשלב ראשוניים של מחקר. בנוסף, אני מבקש לבחון את התופעה הזו לאור תאוריות בלשניות קודמות ומודרניות, ערביות ומערביות.

במחקר זה אבחן גם כן את השפעת הקונטקסט התחבירי על גילוי יסודות המבנה הקוראני כפי שהם משתקפים בקרב המדקדקים והפרשנים הערבים, ואבהיר את המונח "הקונטקסט התחבירי" ואת תרומתו להבנת מבנה המשפט הקוראני הכולל תופעות תחביריות מגוונות כגון: הקדמה ואיחור (מבחינת סדר המילים), יידוע וחוסר ידוע, השמטה וכיוצא באלו סוגיות תחביריות.

עבודה זו מציגה נקודת מבט נוספת בהבנת הטקסט הקוראני מבחינה תחבירית ופרגמטית, נקודת מבט המשלבת בין המסורת הדקדוקית הערבית, פרשנות הקוראן

והמחקרים הבלשניים המודרניים העדכניים. שילוב זה מביא לכך, שנושא הקונטקסט התחבירי בטקסט הקוראני, משמש כמבוא בלשני ואפיסטמולוגי (Epistemological Introduction).

בשל כך, עבודה זו באה להדגיש את הקושי בחקר המשפט הקוראני ללא התייחסות להקשר שלו וזאת משום שכל משפט בקוראן הוא תלוי קונטקסט ומורגשת בו נוכחות ההקשר. לכן לא ניתן להפריד בין המשפט והקשרו בבואנו לנתח את המשפט הקוראני. בנוסף, הקונטקסט התחבירי יכול לשפוך אור על המבנה התחבירי של המשפט.

ראוי לציין כי למרות חשיבותו של הקונטקסט, מחקרים בלשניים הן קלאסיים והן מודרניים מתעלמים תכופות מן "ההקשר המשמעי" (Contextual Meaning) וזאת למרות חשיבותו העליונה של הקונטקסט בהבנת תחביר המשפט והטקסט. ללא הקונטקסט, הופך המשפט למעורפל ומאובן ובשל כך אין מנוס אלא להתייחס לקונטקסט בכדי להבין את המשפט, ובייחוד בכדי להבין את התופעות התחביריות המופיעות בו כגון: השמטה, הקדמה ואיחור, זמן ואספקט, הדגשה וסוגיות תחביריות נוספות.

בהתאם לכך, עבודה זו דנה בעובדה חשובה ביותר והיא שישנו פער בין ניתוח המבנים התחביריים כפי שהם מופיעים אצל המדקדקים הערביים לעומת פרשני הקוראן. המדקדקים מנתחים את המבנים בצורה קפואה תוך התייחסות יבשה למבנה עצמו. פרשני הקוראן לעומתם, מנתחים את המבנים התחביריים תוך התייחסות לקונטקסט ולפרגמטיקה של המבנים הללו בתוך הטקסט הקוראני. כך לדוגמא, ניתן לראות בבירור את ההבדל הקיים בין המדקדקים הערבים ובין פרשני הקוראן בעיסוק שלהם בסוגית ההשמטה של המושא הישיר (المفعول به). פרשני הקוראן בניגוד למדקדקים, נוטים להתייחס לקונטקסט ולסיבות שהביאו להשמטתו של המושא הישיר במבנים שהם מנתחים.

עבודה זו כוללת שלושה פרקים: הפרק הראשון שכותרתו "המונח קונטקסט בקרב המדקדקים הקדומים- האפיסטמולוגיה של התיאוריה וצלליה". בפרק זה אני עומד על משמעותו של המונח "קונטקסט" (سياق) מבחינה מילונאית וטרמינולוגית ועל ההקשר ביניהם וזאת משום שהמונח "קונטקסט" הנו בעל אספקטים

אפיסטמולוגיים שונים ומגוונים בהתאם לשדה המחקרי אליו מונח זה משתייך, דוגמת האספקט התחבירי, האספקט הרטורי, האספקט הפרשני ועוד.

לאחר מכן אני עוסק בקשר שבין המילה "סיאק" (سياق) לבין תחומי פונטיקה ומורפולוגיה, תוך התייחסות לחומר הנמצא במילונים, בטקסט הקוראני ובדיונים של המדקדקים הקלאסיים והמודרניים.

כך למשל, התייחסתי למונח אל-אתסאק (الاتساق) הנגזר מן השורש (ו, ש, ק) כפי שהוא מופיע במילונים, בהיקריות שונות וחשובות בטקסט הקוראני ובקרב המדקדקים הקלאסיים והמודרניים. במחקרים המודרניים העיסוק במשמעות של המונח "اتساق" קשור קשר הדוק עם סוגיות נוספות כגון "קוהרנטיות" Coherence ו-Cohesion, "התאוריה של הטקסט" (Text Theory), ו"מבנה השיח" (Discourse). כמו כן התייחסתי גם למונח "אנלוגיה" (قياس) והקשר שלו לקונטקסט תוך התמקדות במקרים רבים של אנלוגיה שבהם מטפלים המדקדקים הערביים והנשענים על ההקשר של המשפט או על רמיזות (قرائن) המצויות בשיח.

מחקר זה עוסק גם בהיבטי המונח "קונטקסט" ושימושו, בכדי להגדיר את גבולות האפסטימולוגיה, שכן היא מתודה חשובה במחקר הלשוני המודרני הרואה בהגדרת המונחים צעד ראשון במחקר מדעי-אקדמי המחייב דיוק במינוח. ההגדרה של המונח "קונטקסט" הינה הכרחית בשל הבלבול הרב שמונח זה טומן בחובו וזאת בשל השילוב שלו עם מונחים נוספים והקשר שלו עם אספקטים אפסטימולוגיים שונים כדוגמת פילוסופיה, הלכה (فقه), רטוריקה, תחביר ותואולוגיה.

אי-לכך, הגדרתי את המונח "קונטקסט" בהתבסס של ארבעה מקורות עיקריים והם:

(1) המונח "קונטקסט" בקרב עלמאא אל-אצול (علماء الأصول) משום שהם, על פי דעתם של רבים מן החוקרים, הראשונים שהשתמשו במונח "קונטקסט" והצביעו על השפעתו של מונח זה על ניתוחם של טקסטים שונים כגון: הטקסט הקוראני והטקסטים ההלכתיים. בנוסף - הם מייצגים בהסבריהם שדה אפסטימולוגי המשלב בתוכו מרכיבים שונים. למקור זה שייכים אנשים שונים כדוגמת: שאפע, ע'זאלי, זרקשי ואל-כפוי.

(2) המונח "קונטקסט" בקרב הבלשנים שהיו הקרובים ביותר להגדרת המונח "קונטקסט" במבחינה תחבירית וסמנטית. דוגמא לבלשנים כאלו: אל-ח'ליל בן אחמד, סיבויה, אל-מברד ואבן ג'ני.

(3) המונח "קונטקסט" בקרב הרטוריקנים אשר להם היה נתון תפקיד חשוב ביותר בהבנת העיקרון "התאמתו של השיח לדרישות הסיטואציה" (مطابقة الكلام لمقتضى الحال). בין הרטוריקאנים הללו אפשר למצוא את אל-קזויני, אל-סקאקי, אל-עסכרי ועבד אל-קאהר אל-ג'רגאני והתיאוריה שלו ה"נט'ים" (النَّظْم) לה הקדשתי דיון נרחב במחקר זה וזאת בשל השפעתה העמוקה על חקר "הקונטקסט התחבירי" בטקסט הקוראני אז והיום.

(4) המונח "קונטקסט" בקרב הפרשנים, בייחוד אלה שייחסו למונח זה חשיבות רבה בפרשנות הטקסט הקוראני ובאספקט הלשוני-התחבירי שלו. לפרשנים אלו משתייכים אל-טברי, אל-זמח'שרי, אבו חיאן אל-אנדלסי ואבן עאשור.

באשר לפרק השני, שכותרתו: מנגנון הקונטקסט והקשריו עם החשיבה הלשונית המערבית והמדקדקים הערביים המודניים- השפעותיו, השלכותיו והמשפיעים עליו: כאן אתמקד במונח "קונטקסט" ואימוצו על-ידי התיאוריות הבלשניות המערביות והערביות ובקשריו של המונח Con-text עם המונח טקסט Text, זאת משום, שהטקסט הוא הגוף (מילולית: Corpus) שלאורו צומח הקונטקסט. זאת, בהתחשב במחלוקת ארוכת-הימים סביב מועד הופעת המונח "קונטקסט".

לאחר מכן הנני מצביע על התחנות המרכזיות בדיון סביב המונח "קונטקסט" כפי שהן מוצגות במחקרים, החל במאלינופסקי Malinowski, דרך פירת' Firth - האב המייסד של תיאוריית הקונטקסט בעיני רבים, ומי שטבע את המונחים: "קונטקסט תלוי מצב" (Context of Situation) ו"קונטקסט דקדוקי" (Linguistics Context), המשך בפאלמר Palmer תווה המונח "קונטקסט שאינו דקדוקי" (Non Linguistics Context) ודה סוסייר (De Saussure) והשפעתו על עיצוב המונח "מערכת הסימנים" (System of Signs) ובלשנים מערביים אחרים שתרמו לגיבוש מונח "הקונטקסט" וכל מי שיש לו קשר לעניין "הטקסט הלשוני" וכלה ביוליה קריסטבה (Julia Kristeva), אשר תרמה לשמעויות נוספות לישות ה"טקסט" וה"קונטקסט", בהיותן ישות אחת, בלתי ניתנת להפרדה, שכן הטקסט אינו בעל משמעות שלמה אך ורק בגבולות השפה, אלא הוא מנגנון "על-לשוני" (בתחום Translinguistics).

לאחר מכן אבקש להציג במחקר זה את ההגדרה של המונח "טקסט" במילונים הערביים ושימושו הלשוני והתחבירי במורשת הבלשנית הערבית הקדומה והמודרנית, וזאת בכדי למצוא את המכנה המשותף מחד-גיסא ולמצוא מאידך-גיסא את החוליה המקשרת בין התיאוריות הקלאסיות והמודרניות. בהסתמך על כך, קשרתי במחקר את המונח "טקסט" עם המונח ה"תחביר של הטקסט" (Text Grammar), אשר לו מאפיינים משיקים למונחים אחרים והם "תחביר המשפט" (سياق الجملة) ו"הקונטקסט התחבירי" (السياق النحوي) וזאת על פי ההשקפה המערבית, אותה מייצג ואן דיק Van Dijk בספרו תיאורית הטקסט והקונטקסט (Theory of Text and Context), ואצל דה-בוגראנד (De Beaugrande) בתיאוריה שלו הנקראת "טקסטואליות" (Textuality), ואצל האלידיי (Halliday) ורוקייא חסן (Ruqaiya Hasan) וכן אצל בלשנים אחרים.

בעקבות דיון זה הצבעתי על הדעות החשובות בנוגע לשימושו המודרניים של המונח "קונטקסט" והאספקטים השונים שלו בקרב הבלשנים המערביים והבלשנים הערבים המודרניים. אני מקשר את הדעות הללו עם סוגים שונים של "קונטקסט" כדוגמת הקונטקסט הרגשי (Emotional Context) והקונטקסט התרבותי (Cultural Context), שכמובן יש להם קשר הדוק למונח "קונטקסט תחבירי". הקשר בין כל סוגיו של הקונטקסט הינו בעל חשיבות רבה, בייחוד בהבנת הטקסט הקוראני, כפי שניתן ללמוד על כך מכתביהם של המדקדקים הערביים ופרשני הקוראן הקלאסיים והמודרניים.

בפרק זה אתייחס גם למונח פרגמטיקה (Pragmatics) בשל יחסי הגומלין והאינטראקציות שיש לו עם המונח ה"קונטקסט התחבירי" המייצג את המסגרת היישומית הפרגמטית של הפרשנות התחבירית.

בכדי להדגים את משמעות המונח "קונטקסט תחבירי" חתמתי את הפרק הזה בהצגת מספר דוגמאות הלקוחות מספרי הדקדוק המודרניים, תוך שאני בוחר להתייחס למדקדקים הבולטים ובעלי הראיה הייחודית באשר לסוגיית הקונטקסט והקשר שלה לתחביר, כדוגמת תמאס חסאן והתיאוריה שלו "התלכדות הרמזים" (تضافر القرائن) המושפעת מפירת' Firth, וכן פאצ'יל אל-סאמראא'י ומאמציו החוזרים ונשנים להבין את מנגנון הקונטקסט כפי שהוא משפיע במקרים שונים על הטקסט הקוראני. בנוסף, אתייחס ל-כמאל בֶּשֶׂר ולראייתו הפרשנית תוך שימוש בכלים

בלשניים מערביים וכן ל-עאשה עבד אלרחמאן ולראיה ההקשרית התחבירית והספרותית הייחודית לה.

באשר לפרק השלישי הנושא את הכותרת: "מופעי הקונטקסט התחבירי בספרי הפרשנות - ההשקפה והיישום" הרי שאני עוסק בו בייסוד מדע הפרשנות וקשריו ההדוקים עם המערכת ההקשרית, שכן אין מנוס למי שחוקר בצורה מעמיקה את הטקסט הקוראני מבחינה בלשנית-תחבירית להתייחס לקונטקסט על כל סוגיו והיבטיו. כמו כן, על החוקר להיות מודע למטרות של ה"אעראב" (الإعراب), לעיקרי הפרשנות ולמיזוג התחבירי-פונקציונאלי שבפרשנות. מיזוג זה בא לידי ביטוי כאשר אנו קוראים את הקונטקסט התחבירי מזווית הראיה של "המטרות" (אל-מקאצד المقاصد) כפי שעושה המדקדק הקלאסי אל-שאטבי והמדקדק המודרני אבן עאשור.

מכאן, מבסס מחקר זה את חשיבות המשמעות ה"קונקסט" בהקשר מבני המשפטים התחביריים, בדגש על הטקסט הקוראני. ראשית, הקשר המחר בין מובן ה"אעראב" ובין מהות הפרשנות והמשותף להם מבחינה משמעית ופונקציונלית, דבר הנעדר אצל חוקרים רבים בטקסט הקוראני, מבחינת היבטיו התחביריים והמבניים. כתוצאה מכך, יוצא איפוא כי ה"קונטקסט התחבירי" מבהיר את משמעות המבנים התחביריים הקוראניים, שכן ה"אעראב" היה מכלי -עבודתו המרכזיים והחיוניים של הפרשן, אשר לא יכול היה לבצע מלאכתו נאמנה בלעדיו. שנית, הפרשנות אינה יכולה להשען על פירוש מילולי בלבד בכדי להשיג את "המשמעות הממוסגרת" (المعنى المؤطر) תחת מטריית המילה הבודדת, אך על הפרשנות התחבירית להיות בהתאם לאופן הקריאה בה אני מצדד, חוקרת ועם זאת חושפת את המשמעות הכוללת. בהתאם לכך, הפכה המשמעות לבעלת מקום נשגב בניתוח התחבירי, אשר הוא בבחינת "הפנים האחרות" של ה"פעילויות הלשוניות". לכך הורגלנו בו מראשית ימי המדקדקים הקלאסיים כסיבויה, כך שהמשמעות אצלו טמונה ב"אעראב" ובמה שלמענו באה השפה.

בכדי להדגים זאת באופן מעשי, חקרתי סוגיות בלשניות הנוגעות ל"טקסט הקוראני" על מנת להסביר אותן על רקע ההיקשר שלהן ובנוסף התייחסתי לכתבי מדקדקים וספרי הפרשנות קלאסיים ומודרניים. בעיקר התרכזתי באופן שבו המדקדקים הערביים והפרשנים התמודדו עם ההסבר של סוגיות הללו, ומציאת ההסבר ה"הגיוני" הבלשני אשר תואם למבנה הפסוק הקוראני (الآية). זאת, תוך הכרה בכך שהטקסט התחבירי הינו כלי-עבודה פרשני העוזר למציאת משמעויות תחביריות

אלו. הסוגיות שנבחנו הן: "אסבאב אל-נזול" (أسباب النزول) והשפעתן על הקונטקסט התחבירי, השתייכות הטקסט לסורות המכיות ומדניות (سياق المكي والمدني) והשפעת הסגנון שלהן על המבנה התחבירי כפי שזה מופיע אצל פרשני הקוראן, המשפט השמני והמשפט הפעלי בין הקונטקסט שמצביע על דינמיות או חוסר דינמיות (الجملة الفعلية والاسمية بين الثبوت والحدث), ההשמטה על סוגיה (الحذف وسياقاته الإضمارية) וההקשרים הנסתרים שלה, יידוע וחוסר יידוע (التعريف والتكثير) ואילוצי הקונטקסט, הקדמה ואיחור (التقديم والتأخير) והסדר שלהן, הקשרי הזמן והאספקת של הפועל (الزمن السياقي للفعل), התחלפות האותיות (تعاور الحروف) והעצמאות הקונטקסטואלית, ביטויי הקונטקסט בתופעת "נשיאת המשמעות" (الحمل على المعنى) ומשפט ההסגר (الجملة المعترضة) בין קפאון לחיוניות, ללא חוסר חשיבות, כפי שמדקדקים רבים סבורים. יוצא איפוא, שעם בדיקת ההקשר של משפט, עולה חשיבותו המרכזית.

בנוסף לניתוח הדוגמאות שצינתי חקרתי כמו כן יחידות שיח קוראניות (مقاطع قرآنية) הלקוחות מסורת ה"נמלים" (سورة النمل). יישמתי ניתוח פסוקים קוראניים ספציפיים מבחינה תחבירית-סימנטית ובדקתי כיצד הם מתקשרים לסביבה ההקשרית-התחבירית שלהם. ניסיתי להראות את האפשרויות הלשוניות השונות הקיימות לניתוח יחידות השיח הללו מבחינה קונטקסטואלית-תחבירית וזאת תוך שימוש בכלים בלשניים המשלבים שיטות ניתוח קלאסיות ומודרניות.

ראוי לציון בהקשר זה, כי סוגיות תחביריות נבחרות אלו, אינן אלא דוגמאות יישומיות אותן בחרתי מבין סוגיות תחביריות רבות שמצאתי בספרי הדקדוק והפרשנות. בררתי סוגיות שונות, בכדי להצביע על הגיוון של ה"קונטקסט התחבירי בקוראן". נוסף לכך, בחרתי בסוגיות תחביריות שטופלו בעבודה זו, כך שאשלב בין יתר השדות הבלשניים שאינם מוזכרים בניתוח של הקונטקסט התחבירי, כדוגמת משפט ההסגר אותו חקרתי אותו בהיבט תחבירי-קונטקסטואלי חדש.

לסיום, אני מציג את הממצאים העקריים לגבי הקונטקסט התחבירי בקוראן בעבודה זו שמהם עולה כי הקונטקסט התחבירי כולל בתוכו סוגים שונים של קונטקסטים אשר מתלכדים בסופו של דבר וזאת בכדי להבהיר את משמעותו של המבנה התחבירי באופן רחב וכולל דרך ה"קונטקסט הדקדוקי" ו-"קונטקסט תלוי

מצב "). זאת בניגוד להשקפת עולמם של רבים מהבלשנים המודרניים, כמו פירת'. בהיקשר ישיר לכך, עבדאלקאהר אל-ג'אג'אני הצליח לייסד תיאוריה שלמה ו"בשלה" של הקונטקסט התחבירי בשם ה"נטים" (النَّظْم), דבר שהשפיע על מדקדקים ובלשנים קלאסיים ומודרניים במונח שנקרא "המשמעויות התחביריות" (المعاني النَّحْوِيَّة) או "משמעויות התחביר" (معاني النَّحو). בנוסף לכך, היחסים ההדוקים בין הפסוק (الآية) הקוראני באותה סורה (السُّورَة) לבין הפסוקים בסורות שונות תורמים להגדרת ה"אעראב הקונטקסטואלי" (الإعراب السِّيَاقِي) עם התמזגותם של מדעים קוראנים שונים כגון "אסבאב אל-נזול" והשתייכות הטקסט לסורות המכיות ומדניות אשר מהווים קונטקסט תחבירי תלוי בפסוקים ובסורות הקוראנים והשפעתן. מכאן, עולה שלקונטקסט התחבירי יש חשיבות רבה בחקר המבנים התחביריים בקוראן. חשיבות זאת נובעת מתפקידו הפעיל של הקונטקסט בהגדרת המשמעויות התחביריות של הטקסט הקוראני, ותרומתו לחשיפת הקשרים התחביריים המחברים בין המילים במשפט לבין המשפטים המרכיבים את הטקסט.

ראוי לציין כאן, שניסיתי להציג את המסקנות וההבהרות אלו כקורא בלשני, אשר קריאתו ממזגת בין הישן והחדש מחד-גיסא ובין המקורי והמודרני מאידך-גיסא. סבורני, כי הדיון האקדמי צר מלהכיל את הדיון הרחב בנושא הקונטקסט התחבירי, והוא אף איננו יכול להסתפק בהצגת התופעה באופן תיאורתי בלבד, אלא הדבר דורש גם דיון ביקורתי-פרקטי במטרה לקשר בין תופעת הקונטקסט התחבירי לתופעות בלשניות אחרות.

ProQuest Number: 29311462

INFORMATION TO ALL USERS

The quality and completeness of this reproduction is dependent on the quality and completeness of the copy made available to ProQuest.



Distributed by ProQuest LLC (2022).

Copyright of the Dissertation is held by the Author unless otherwise noted.

This work may be used in accordance with the terms of the Creative Commons license or other rights statement, as indicated in the copyright statement or in the metadata associated with this work. Unless otherwise specified in the copyright statement or the metadata, all rights are reserved by the copyright holder.

This work is protected against unauthorized copying under Title 17,
United States Code and other applicable copyright laws.

Microform Edition where available © ProQuest LLC. No reproduction or digitization of the Microform Edition is authorized without permission of ProQuest LLC.

ProQuest LLC
789 East Eisenhower Parkway
P.O. Box 1346
Ann Arbor, MI 48106 - 1346 USA